
إيفون أدهيامبو أوور
FIFA WORLD CUP
Qatar2022
6.12.2022
بحر
اليعسوب
@ketab_n
ترجمة: جنى فواز الحسن

إيفون أدهيامبو أوور

بحر اليعسوب

ترجمة: جنى فواز الحسن

بحر اليعسوب

بحر اليعسوب

تأليف: إيفون أدهيامبو أوور
ترجمة: جنى فواز الحسن

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-46-812-7



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-3423278
التصنيف العمري: +21

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE DRAGONFLY SEA



كلمة الكاتبة

حصلت شابة من جزيرة "بيت" في كينيا على منحة للدراسة في الصين عام 2005، وهو العام نفسه الذي حلّت فيه المئوية السادسة للرحلة الأولى حول المحيط الغربي (الهندي) التي قام بها الأدميرال العظيم لأسرة مينغ (سلالة الحاج محمود شمس الدين)، زينغ هي (1371-1435). تحصّلت الشّابةُ على المنحة الدراسية بناءً على ادّعاءات عائليّة واختبارات الحمض النووي التي أشارت إلى أنها كانت في الواقع منحدرة من بحّار من سلالة مينغ، نجا من حطام سفينة دمّرتها عاصفة، ووجد، مع آخرين، ملجأ وشعورًا بالانتماء في جزيرة بيت.

رواية بحر اليعسوب مستوحاة من هذا الحادث التاريخي، ولكن من الضروري التأكيد على أنها ليس قصة هذه الفتاة الشابة، خشية أن تُنسب إليها نقاط شخصية. على الرغم من أن القصة تتضمن الأخبار الحالية والأحداث التاريخية، إلا أن هذا عمل خيالي، وقد تم تغيير التسلسل الزمني للعديد من الأحداث. الأسماء والشخصيات والأماكن والحوادث هي إما نتيجة خيال المؤلف أو تمّ استخدامها بشكل خيالي. أيّ تشابه مع الأحداث الفعلية، أو أشخاص أحياء أو موتى، هو محض مصادفة.

خذي هذه التميمة، أيّتها الطفلة، واحفظيها بحب وشرف. سأصنع لكِ سلسلة من اللؤلؤ المرجاني المشع. سأعطيك قفلًا، جيدًا من دون أيّ عيب، لارتدائه حول رقبتك... اغتسلي وعطّري نفسك وضفّري شعرك؛ اقطفي الياسمين وانثريه على اللحاف. زيّني نفسك بالملابس مثل العروس وارتدي الخلخال والأساور... رشي ماء الورد على نفسك. ارتدي الخواتم في أصابعك ودائمًا زيّني كفّي يديكِ بالحناء...

- موانا بنت مشام ترجمتها ج. و. آلن واقتبستها إيفون أدهيامبو أوور

إهداء

إليكِ أيّتها الوحدة.

وكالعادة، سيّدة العائلة، ماري سيرو أوور

والأب الذي نفتقده بشدة.

إلى أشقائي.

وإلى ألواني المضيئة: هيرا وحاوي وغويث وسونغو وديجو وديتا وسيرو.



بحر اليعسوب

Roho ni mgeni.

الروح زائرة

[1]

لعبور المحيط المطلّ على الجنوب، كانت اليعاسيب التي تطارد المياه مع أسلافها في شمال الهند قد انطلقت في رحلةٍ هادئة "بين الفصول" مع ريح الصباح، إحدى مقدمات الرياح الموسمية، الماتلاي. في أحد الأيام من عام 1992، أي بعد أربعة أجيال، تحت غيوم زرقاء داكنة، استقرّت هذه الكائنات العائمة على الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة فتاة صغيرة ملأتها أشجار المانغروف. تآمرت المالتاي مع اكتمال القمر المتلألئ لشحن الجزيرة وصياديها وأنبيائها وتجارها وبحاريها وسيدات البحر ومداويها وبناة السفن والحالمين والخياطين فيها ومجانينها ومعلّميها وأمّهاتها وآبائها بحماسةٍ عكست بحرها الفيروزيّ الهادئ.

طارد الغسق أكبَر جزر لامو وأرخبيلها، متجولًا من سيو على الساحل الشمالي، صعودًا باتجاه أساطيل الصيد في كينزينغيتيني قبل أن يطير جنوبًا غربًا إلى الحضنة فوق مدينة بيت التي كانت تتلاشى بالفعل في حالة من التوق الشديد. تميّزت مدينة بيت، التي كانت مكتظة بأفعال لا نهاية لها من الغش والحصار والحرب والإغواء، مثل الجزيرة التي احتوتها، بوقتٍ للحزن. سكبت سماؤها الثقيلة الضوء الأحمر الباهت على حشد من الأشباح المنقطعة، والنزاعات الخاملة، والأمجاد المفقودة، والطرق غير المرئية، والتآمرات التي تعود إلى آلاف السنين. رشح فيها ضوء أضعف بين الشقوق والمقابر والأطلال القديمة، وأشار إلى الناس هناك كانوا على استعداد للتعايش مع المأساة، واثقين بأنّ الوقت كفيلٌ بتحويل حتى الكوارث إلى أصداء.

في أعماق بلدة بيت، صاح الديك، ومن أعماق الفضاء، استدعى الأذان. كانت رياح البحر تجرّ حجاب فتاة صغيرة بلون الأخضر الليمونيّ، لتكشف عن شعر أسود مجعد وكثيف ينفجر في عينيها. من داخل مخبأ غابات المانغروف، راقبت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات، وهي ترتدي فستانًا زهريًا كبيرًا كان من المفترض أن تنمو فيه، غيومًا عاصفة كثيفة تتمايل داخل البلدة. قرّرت أنّ هذه كانت خطى الوحش، وحش تركت خطواته شرائط من الضوء الوردي في السماء. ركبت مياه البحر على ركبتيها، وأغرقت قدميها العاريتين في الرمال السوداء بينما تمسّكت بكائنٍ آخر هش، وهو هريرة بيضاء قذرة.

كانت تراهن على أن العاصفة - وحشها - ستصل إلى الأرض قبل أن يسقط مركبًا محمّلًا بالركاب الآن ويتحطّم في طريقه نحو رصيف الميناء المكسور إلى يمينها. كانت تحبس أنفاسها. "القادمون إلى المنزل"، دعت جميع الركاب. كانت الطفلة تعتمد على هؤلاء القادمين ليهتزوا مثل العرائس كلما كانت هناك أمطار غزيرة. كانت تضحك تحسبًا لأن المركب المتوسط الحجم، المطلي باللون الأصفر، تقدّم باتجاه الخليج الصغير. تناثرت قطرات المياه النديّة. دفع هدير الرعد كلّ راكب إلى رفع عينيه إلى السماء وإلى الزعيق كصوت البوق. أصيبت الفتاة بالدهشة وهي تربّت على ظهر قطّتها، وتقرص فروها من فرط الحماسة. ماءت القطة. "صههه"، همست الفتاة وهي تختلس النظر بين أشجار المانغروف، لكي تتمعّن في وجوه الركاب من مسافةٍ أكثر وضوحًا - كانت طفلةً تبحث وتجمع الكلمات والصور والأصوات والأمزجة والألوان والأحاديث والأشكال، لكي تخزّنها في أحد رفوف روحها، ولتسحبها لاحقًا وتفكّر بها.

كل يوم، في الخفاء، ذهبت ووقفت قرب بوابات هذا البحر، بحرها. كانت تنتظر شخصًا ما. نقلت الفتاة الآن القطة الصغيرة من يمينها إلى كتفها الأيسر. تابعت عيناها الزرقاوان الكبيرتان جدًا رقصة ثمانية يعاسيب ذهبية حامت بالقرب منها. رعدت السماء. أصبح المركب في مكانٍ موازٍ تمامًا للفتاة. ركّزت نظرها على رجل ارتدي بدلة عاجيّة اللون واستند إلى حافة السفينة. كانت على وشك أن تتمتم حين قاطعها صوت عالٍ ومتعجرف: "أياناااااا". انقطعت مراقبتها للرجل بينما صعق البرق السماء. "أيانااااا". كانت والدتها تناديها.

في البداية، تسمّرت الفتاة الصغيرة في مكانها. ثم جثمت منخفضة، راكعةً تقريبًا في الماء، وربتت لقطتها الصغيرة. همست لها "هايدورو -لا تبالي. لا يمكنها أن ترانا". كان من المفترض أن أيانا تتعافى في الصباح من نوبة ربو. كانت والدتها منيرة قد دلّكت صدرها بزيت القرنفل وحشت فمها ببذور الكالونجي السوداء. كانتا قد جلستا معًا عاريتين تحت البطانية، مع وعاء من الأعشاب المتبخرة، شملت الأوكالبتوس والنعناع، لتخفيف احتقان رئتيهما.

كانت أيانا قد استنشقت ما تمكّنت من الهواء، ثمّ حبست نفسها لتبتلع ستّ ملاعق من زيت كبد سمك القد. كادت أن تتقيأ من المرارة، ثمّ هدهدت لها والدتها أغنية كي تنام. استيقظت على الأصوات التي أصدرتها والدتها وهي تعمل: رنين الزجاج والنحاس والخزف؛ رائحة الورد والقرنفل واليلانج وزهرة القمر وأصداء أصوات النساء داخل صالون تجميل

والدتها في المنزل.

كانت أيانا قد حاولت. أخذت قيلولةً قصيرة حتّى اخترقت نومها رياح البحر العالية وقاطعت أحلامها. سمعت صوت الرعد بعيدًا، لكنّها ثبّتت نفسها في السرير حتّى ثبت لها أنّ العاصفة المستمرة في الخارج لا تقاوم. عندها خرجت من السرير، ورتبت وسائد إضافية لتبدو كما لو أنّها على شكل جسد، ثمّ غطّتها بالملاءات. اندفعت من نافذة عالية، وتزحلقت أسفل أنابيب التصريف المشدودة على الجدار المرجاني المنهار.

على الأرض، عثرت على القطة الصغيرة التي كانت قد أنقذتها من مصرف طيني قبل عدة أيام، متمددة على عتبةِ بابها. التقطتها ووضعتها على كتفها الأيمن، وهرعت باتجاه الواجهة البحرية، ثم تحولت أخيرًا شمالًا إلى قسم المانغروف في الخليج، حيث كانت تتجسس على العالم غير المرئي.

"أياناااا".

برّدت الريح وجهها. لامست الهرة الصغيرة. شاهدت أيانا المركب. رفع الغريب المسن المرتدي بدلةً عاجية رأسه. التقت أعينهما. تراجعت أيانا، وضغطت على ظلال المانغروف، بينما تسارعت دقّات قلبها. كيف حدث ذلك؟

"أياناااا".

كان صوت والدتها أقرب. "أين هذه الطفلة؟ أيانا؟ هل يجب أن أتحدث إلى الله؟". نظرت أيانا نحو القارب ومرة أخرى إلى السماء السوداء. لن تعرف أبدًا ما الذي هبط أولًا، القارب أو العاصفة. لقد تذكرت العينين اللتين التقتا بعينيها. هل سيشي بها صاحبها؟ قامت بمسح الممر، بحثًا عن تلك العينين مرّة أخرى. ضغطت الهرة المستلقية على كتفها بوجهها على رقبتها.

"أياناااا يا عدالة الله...!". أتى الوعيد من بين الشجيرات إلى يسار غابات المانغروف.

"أوه، يا ابنتي، لماذا تضطهدينني؟".

كان الصوت أقرب. تخلّت الفتاة عن غطاء رأسها، وهرعت من خلال المد المنخفض للوصول إلى الرمال المفتوحة. تدافعت أيانا من حجر إلى حجر، بينما تشبثت الهريرة بعنقها. ثمّ غابت عن الأنظار.

رأى الغريب، رجل من نانجينغ، مخلوقًا صغيرًا يرتفع على خلفية سماء سوداء، يحوم، ثم

يسقط مثل غصن مقطوع. بينما رآها هكذا، انطلقت منه قهقهة طويلة. نظر إليه زملاؤه المسافرون، المتعاطفون بالفعل مع دوار البحر المزمن الذي عانى منه وأصابه بعدم الارتياح. لم يكن من غير المألوف أن يحوّل دوار البحر الأشخاص العاقلين إلى مجانين. ركز الرجل نظره على الأرض وبرزت عيناه بنشاط في ملامح وجهه الهادئ. أعطى إعتام عدسة العين في عينه اليمنى لمعانًا في رأسه الأصلع على رقبته المبطنة. التفت إلى صوت امرأة تصرخ "أياناااا". أصدرت معدته صوتًا. تواقًا للشعور بالأرض، حاول قياس المسافة بين القارب ورصيف الميناء، على أمل العودة ليرسو المركب هناك قريبًا.

بعد ذلك بخمسة عشر دقيقة، نزل الزائر من القارب. كان عليه أن يمشي في المياه الضحلة للوصول إلى شاطئ الرمال السوداء. على الرغم من أن أيادٍ مجهولة ساعدته على التقدم، إلا أنّه تعثر. لمست يداه التربة. تنشّق الهواء. شعر بحفيف الأشباح، واستمع إلى الدندنة الوحيدة لأولئك الذين ماتوا بعيدًا عن الديار ولم يتذكرهم أو يبحث عنهم أحد لفترةٍ طويلة.

امتدّت يدٌ سمراء طويلة أمام وجهه. أمسك بها. ساعده أحد البحارة على النهوض قبل أن يسلّم حقيبته الرمادية اللّون. ردّد الرجل "لقد تمّ النظر إلى البروتوكول"، ومن بعدها ضحك كما لو أنّ العبارة تحمل نكتة سريّة. رمش المسافر بعينيه، مرتبكًا ومغمورًا بروائح المساء المتناثرة والساحرة. ميّزت أنفاسه رائحة البرتقال المر والبلسم الحلو وسخّن عرق البحر الذي اختلط بالهواء عظامه.

استسلم للروائح واستنشق الهواء. ثمّ مال برأسه نحو سرب الوافدين من البشر. سمع موسيقى المد والجزر، ولمح عاصفة تكاد تحوم في الأفق. ماذا كان هذا المكان؟ تقدّم إلى الأمام، وهو يلفّ بكعبه كما لو أنّ أصابع قدميه كانت لها أعين متجولة. أضاء ضوء شاحب على بتلة وردية تتساقط من شجيرة وردة برية منفردة ونحيلة. تعثر الرجل. انتظر أن تقع البتلة وتستقر على الأرض قبل أن يلتقطها. عندها فقط رفعها إلى شفتيه، وأرفقها بيد واحدة بينما عدّل باليد الأخرى المحتويات المكثفة لحياة تتلاءم مع حقيبة قماش معلقة من كتفه.

Mwenda Pate harudi,
Kijacho ni kilio.

من يذهب إلى مدينة بيت لا يعود؛ يبقى فقط صدى صرخة تتردد.

[2]

في صباح اليوم الذي دخل فيه الرجل من الصين إلى كينيا -داخل غرفة نوم واسعة مطليةً باللّون الأبيض في منزل من طابقين دمج بين الخشب واللّون المرجاني، ووقع وسط متاهةٍ من 12 منزلًا في مدينة بيت، التي ما زالت متأثرة بالرياح التجارية المسماة بكوزي ومالتاي وماليلزي وكاسكازي، حلم بحّارٌ مسّن اسمه محيي الدين بدوي ملنغوتي مرّةً أخرى أنّه كان يبحر حول جبل من الياقوت الأزرق في قعر البحر.

في حلمه، حمل بيده خريطة كانت داخل كتابٍ لونه بنيّ داكن، احتوى كلمات غامضة أضاءت كما لو أنّها تشتعل. كانت النسخة الحقيقية لخريطة أحلامه تحت سريره، داخل صندوق مزخرف من خشب الماهوغوني، مجمعة بقطعة قماش خضراء داكنة.

قبل خمس سنوات، كان محيي الدين المنحدر من سلالة صيادي وبناة قوارب مدينة بيت المبللين بملح البحر والملفوحين بالشمس الساطعة، قد جلب هذا الكتاب من بين آلاف الكتب من مكتبةٍ خاصّة لرجلٍ مستقرٍّ في دبي هوايته جمع الكتب النادرة المتعلقة بالبحر والحرب، كان محيي الدين يبيعه في بعض الأحيان قطعًا فنّيةً. داخل صفحات الكتاب، عثر على قطعة من ورق البرشمان المصفرّة اللّون عليها علامات شبيهة بالقيقب بلغة مشفّرة أظهرت شعار بوصلة أثرية تشير إلى الشرق كنقطة انطلاق للتحرّك. عندما قام محيي الدين بفحص الورقة، تخيّل أنّها كُتبت بتدوين موسيقي.

انتبه لاحقًا أن رائحةً أشبه بخشب الصندل انبعث من قصاصة البرشمان حين تعرّضت لضوء الغسق. ما عساها كانت؟ هل كانت خريطة ذاكرة لتداول الرياح والموانئ والمسافرين؟ ماذا لو كانت هذه القصاصة جزءًا من إحدى حكايا ألف ليلةٍ وليلة التي لا تنتهي؟ ليست مهمّة، قال محيي الدين لنفسه، ليخفّف من شهوته لمعرفة سرّها. ولكن، كلما شعر بالضيق من العوالم التي سكنت قلبه، كان يمدّ يده تلقائيًا تحت السرير لاسترداد الكتاب وتلمّس ورقة البرشمان بحثًا عن الشعور بالاطمئنان.

منذ زمن بعيد، عندما كان محيي الدين صبيًا، كان كيانه قد تأثّر بأغنيةٍ شرسة، تشبّثت به كما لو أنّها شبح تقطّعت به جميع السبل وعلق في الأرض. كانت تعود إليه على

شكل أحلام توقظه شغفًا بأشياء لا يمكن تذليلها. في الأغنية، يتحوّل فتى الجزيرة الأمّي إلى طالب ومسافر وقارئ ومعلّم جائع باحث عن الحقيقة. تيتّم محيي الدين خميس ملنغوتي بدوي عندما غرقت عبّارة ليكوني ساوث كوست وكانت تحمل والديه وخمسًا من أشقائه. بسبب هذه المأساة، حصل قريباه اللذان لم يكن لهما أطفال، العم حميد، وهو لاعب مزمار وبحّار محترف، وزوجته زينب، على خادمٍ مجانيّ يفرّغان فيه غلّهما.

ومع ذلك، خلال رحلة صيد استغرقت أربعة أيام مع عمه، كان يتصارع مع سمكة مارلن قوية وعملاقة لاصطيادها وعمّه يصرخ به: "إيّاك أن تفقد سمكتي، إيّاك ثمّ إيّاك". تمكّن الصبيّ البالغ من العمر آنذاك أربعة عشر عامًا من الوصول إلى حالةٍ من التركيز الشديد، سمع فيها همسًا يدفعه إلى الصمود، كما لو أنّه مصدر للحياة. في هذا الهمس، سمع أغنية بحرية واضحة، شدّته إلى روح لحنٍ واحد بدا كأنّه يختصر الزمن. اخترقت الأغنية قلبه الصغير، الذي راح يتفتّت إلى أجزاء من شمس لا منتهية فوق عوالمٍ باردة. منذ تلك اللّحظة، أصيب محيي الدين بالحنين الدائم إلى الوطن في مكان غير معروف.

أصبحت السمكة فجأة سهلة الانقياد وأسلمت روحها. بعدها، ساد صمتٌ فتّاك. تهاوى بعدها محيي الدين عن القارب، متحمسًا، وغرق الصوت المرير في تجاعيد عمّه حميد، الذي نظر إلى محيي الدين بعيون قديمة للغاية، مظلمة جدًا، بلا مرح. "هذا الصوت لم يكن شيئًا"، قال العم أخيرًا بعد خمس ليالٍ. "إنّها فوضى الرياح". لكن العم وزوجته لم يلمسا محيي الدين مرة أخرى.

دفع هذا الحدث العاطفي محيي الدين فيما بعد لينذر نفسه لخدمة البحر، حيث عمل بلا توقف، مأسورًا بسحره. كلما وصل إلى اليابسة، اندفع خلف أوهام كما لو أنّها يراعات. قام بتجريف الزوايا المظلمة في مدن الموانئ، حيث قام بالشراء والمقايضة والسرقة والانخراط في الخرائط والألغاز. قام بتدوين علامات غامضة، على أمل وجود علامة مميزة. كانت وجهته اليقين. في مسعاه هذا، تعامل محيي الدين مع البشر والمادة، وكانوا هم في نهاية المطاف، وليس البحر، ما مزّق نسيج كيانه.

بعد سنواتٍ طويلة، عادت أصداء ذلك اليوم الغريب إلى محيي الدين، الذي أنهكه هذا العالم وعصفت به وحدة لا نهاية لها. كان على متن سفينة تجارية مبحرة في المحيط الأطلسي البارد والشديد الظلمة ليلًا. تولى، كالمعتاد، واجبه في مراقبة العواصف، حين

لمح من داخل البحار الغامضة، أضواء كروية زرقاء تطفو على سطح الماء. رمش بعينيه بينما تهاوت أثناء تحطّمها إلى أجزاءٍ من أغنية الأشباح التي سمعها ذات مرة. انحنى على شراع السفينة وهو يصرخ: "من أنت؟". غمرت موجة السفينة وغمرته قبل أن يتمكن من التراجع. وعلى الفور، غلب محيي الدين التوق إلى الجزيرة الوطن التي تركها.

كل ما عثر عليه حتّى الآن أعطاه مجرّد تلميحاتٍ عمّا لم تكنه أغنية البحر التي لا شكل لها. لم يكن مؤمنًا بأنّه سيجد المأوى في أيٍّ من تلك الأشياء التي جمعها. في وقتٍ سابق، كان قد أفرغ جميع حمولته في سوق في الإسكندرية، حيث تجنّب بائعٌ بشرته بيضاء شاحبة وأنفه معقوف كالصقر بلطف ملامسة جلد محيي الدين.

داخل السوق، كانت الدعوة للصلاة مدوية. وتصادمت الدعوة الدافئة للنفوس مع فوضى العادات البشرية الصغيرة السيئة، مثل الكلمة التي أفلتت من التاجر الذي رفض بضائع محيي الدين: عبد.

داخل محيي الدين، انفجر شيء ما. جزّ على أسنانه، وصرخ: "أيّها الجنيّ المتعطش للدماء! أيّها الجلّاد! يا هامل الأرواح". ابتسمت عينا التاجر الباردتان. تلعثم. "كلمة عبد... يا صديقي... كما تعرف... يا صديقي، يا أخي، معناها... معناها... الخضوع إلى الإرادة...".

زجر به محيي الدين: "توقّف أيّها اللّص! كفّر عن ذنبك! أنت عفن تحت ثوبك الأبيض، أشبه بجنازة تسير. أنت رجلٌ شرير. مصّاص دماءٍ بشرية... كفّر عن ذنبك! أيّها الطفيلي! لذلك لن تلمس يدي؟ سوادها يدنّسك؟ كفّر عن ذنبك يا سارق الأرض والروح! كفّر عن ذنبك". ملأ الخوف ملامح التاجر. همس لمحيي الدين وهو يلعق شفتيه، "أنظر! أنظر!". تراجع إلى الوراء، لكنّه لم يغلق كشكه. أشار بذراعه في كلّ الاتجاهات، لكنّ الآخرين في السوق تظاهروا بأنّهم لم يسمعوا أو يروا شيئًا، وأخفضوا وجوههم لتجنّب نظرة محيي الدين المتوهّجة. مشى محيي الدين بعيدًا، متمسّكًا بحلاوته. بدّد ارتعاش جسده آخر بقايا الإيمان الذي حاول التعلّق به.

عبد.

كان عمّ محيي الدين قد ناداه بالعبد معظم حياته، حتّى يوم رحلة الصيد تلك. كان الاسم الذي عرفه منذ نشأته على جزيرة يمكن أن تصبح الكلمات المنطوقة فيها عهدًا ورابطًا. "كافر"، كان عمّه يضيف. استخدم تلك العبارات وهو يجلد محيي الدين، بينما كانت

العمّة زينب تشرب بجرعاتٍ كبيرة قهوة الزنجبيل المحلّاة. كان هذا آنذاك وجه الشعور بالوحدة، ثمّ جوهر قلقه الحالي.

صور: العمّ حميد، الصياد الموسيقي الذي كان يجلس في ثياب الصلاة البيضاء، زبيبة الصلاة على جبينه، يخفي حقيقة إرادة متعطشة للدماء.

عبد.

عبر محيي الدين وسط السوق، الحلاوة تغمره برائحتها الطيبة، ويتعهّد لنفسه: بين الدين وجلدي الأسود، ستكون هناك مسافة السماء حتى اليوم الذي أسمع فيه الدعوة إلى التطهّر. تلا عهده هذا شعوره بفراغٍ داخلي.

الأرق.

بدأ يسير مثل النمر الأسود المحبوس الذي كان يراه في حديقة حيوان خاصّة لرجل قطري، لا سعيدًا ولا حزينًا. بينما كان يقوم بنقل البضائع أو رفع السلاسل، لاحظ نفسه، كما لو أنّه منفصلٌ عنها، وتساءل لماذا يفعل ما فعله. التحميل والتأمين والتخزين والتفريغ، علق محيي الدين في أفكاره، ولم يجد المعنى لما يقوم به. ومن دون أي رادع، غمر حواسه بملذات بلا حدود: النبيذ والنساء والكلمات والمخدرات على أنواعها والخطاب السياسي المتواصل. كوّن رأيًا حيال كل شيء.

بهذه الطريقة، بدّد محيي الدين قلقه حتى اليوم الذي وصلت فيه سفينته المسجلة في بنما إلى مرفأ زنجبار، بعد ثمانية وعشرين عامًا وثلاثة أشهر وثمانية أيام وسبع ساعات من الطاعة والوفاء للبحر، في صباح بسيط ورطب من شهر يونيو عام 1992.

كانت شمس الصباح في جزيرة أونغوجا ذهبية وقويّة، ودفع وهجها بمحيي الدين إلى تغطية عينيه. عندما بات باستطاعته أن ينظر، حدّق بجزيرة زنجبار كما لو أنّه يراها من جديد. على الأرصفة أدناه، كان مواء ما لا يقلّ عن ستّة وعشرين من قطط المرفأ الهزيلة، بينما جعلت الحواجز بين عالم الجزيرة والعوالم الأخرى الوقت يبدو هشًّا. كانت مستعمرةً للغربان والرياح والدفء والأصوات. لمح محيي الدين نفسًا منسيةً وسط كل الأدوار التي لعبها في حياته: صيّاد وعامل بحري وحارس سفينة شحن ومهندس صغير وحبيب وزوج مؤقت. كان في تلك اللحظة رجلًا لا شيء أمامه ليهرب من نفسه إليه، الملح على وجهه بينما يلفحه هواء شرق أفريقيا.

طاردت حشرتان شفافتان الضوء أمامه، بينما أشار إليه تاجر مجهول الهوية، حفرت حكايا عديدة تجاعيدًا عميقة في جميع أنحاء جسده، ولوّح إليه. كانت الدموع تنهمر على فكيّ محيي الدين الملتحي وتسقط في المياه الملوثة بالنفط في ميناء زنجبار. تمسّك محيي الدين بالدرابزين، وداهمته كآبة غير عادية. بعدها بلحظات، سمع صوت قطعة كبيرة من آلات السفينة. وبدأ زملاؤه ينادون اسمه بإذلال.

ناداه الضابط من ارتفاع. التفت للإمساك بأقرب شيء خارج مكانه، خزان مياه نصف فارغ، ليرفعه ويحمله ويستخدمه لإخفاء وجهه. ومع ذلك، في وقت لاحق، في ظلمات حالكة، تمكّن محيي الدين من المضي بعيدًا عن حياته في البحر. قدّم رشوةً لاثنين من "الفئران" في الميناء، كانوا فتيانًا يافعين لا يعرف عمرهم تحديدًا، يبحثون عن أيّ شيء، ويدورون حول الميناء كما لو أنّهم جنّ يتجهون إلى مكانٍ واحد. ساعدوه في سحب خمسة أكياسٍ كبيرة محمّلة بما جمعه في منفاه البحري: الكتب والخرائط والعطور المعبأة في زجاجات وحبر الخط والفرش والبخور والدم المعطر المجفف والأعشاب المجففة وصمغ الأشجار، بالإضافة إلى قميصين وسروال قصير وقبعة ومعطف كبير. حمل أمواله في حقيبة جلدية سميكة مربوطة بجسده.

عبر محيي الدين و"الفئران" في ظلال وظلمات الميناء الجديد حتى وصلوا إلى بلدة ستون عبر ثقب في السياج. تجمعوا على طول الجدران العاجية اللون، ودخلوا متاهات الفترات الفاصلة بين الدنيوية على صوت الراي الجزائري. لقد تذكر النساء المعطرات العريضات اللائي يرتدين عباءات سوداء. الآن انزلقن أمامه مع نظرة واحدة وسوارٍ رنّان بإغواء متقن. اشتمّ روائح الطعام. تنشّق رائحة البرياني والأرز البيلاف وروائح جوز الهند والصلصة والمخللات والزبادي والفلفل والمبازي والمحامري؛ الكسترد بنكهة التفاح وعصير الأفوكادو الذي قدّمه له بائعٌ ملامحه طفولية. "مرحبًا"، قالت فتاة ترفع شعرها في ذيل حصان وهي تلقي التحية على رجلٍ أكبر سنًّا يرتدي زيًّا أبيض برّاق. استمع إلى الإيقاعات والهمسات في كل مكان، موسيقى بوب مارلي وبيتر توش؛ ورأى المداخل الخافتة التي انحرفت عن المتاهة. أتت ضحكة محيي الدين المفاجئة كأنها عواء كلب صيد.

سارعوا نحو مرفأ الداو القديم، وتوقفوا على طول الحافة الحجرية القديمة التي تجنبت البحر بشكل غير متساو. رأى محيي الدين سفينة متوسطة الحجم تطفو على بعد مسافة

قصيرة من الأرصفة -أشبه بعملاق كئيب ينتشر في أماكن غير عادية. بدا الأمر كما لو كان ينبغي أن تُحرق على سبيل الرحمة منذ قرن على الأقل. سمّيت بأم كلثوم بحثًا عن الأمل.

وقف القبطان كما لو أنّه صورة ظلّية ملحومة على سفينته. "مساء الخير"، صاح محي الدين بنبرة خافتة من قلّة ما استخدم صوته. فصل القبطان نفسه عن القارب، وانزلق إلى المياه التي وصلت لأعلى ساقيه، بينما اتّجه نحو محي الدين وسأله في غموض طويل: "من هو صديقي؟".

"محي الدين ملنغوتي بدوي".

"آه! يا له من اسم! ماذا تريد؟".

"أن أتلو القصائد للنجوم برفقتك. ماذا تظنّ يا رجل؟ أريد أن أذهب".

"ما هي مشكلتك؟ إلى أين؟".

"إلى بلدة بيت".

بدا ذلك أشبه بمحاولة لاستدعاء الوهم. زحفت الذكريات إلى محي الدين مثل العناكب التي تتسلل من الخبايا المنسية. "بلدة بيت". ارتجف محي الدين. تكسّرت الأمواج، وملأ الصمت المتهالك خفايا مضيئة في البحر. تذمّر القبطان قائلًا "وحدهم المجانين والمجرمون يعبرون البحر في هذا الفصل".

"إذن أنا مجنون"، قال محي الدين بتحدٍّ.

تذمّر القبطان مرة أخرى. "هذا صحيح. ماذا ستدفع؟".

"أيّ شيء".

"هل لديك جواز سفر؟".

"هل أحتاج واحدًا؟"، سأل محي الدين معترضًا.

"لا".

"إذن أنا أيضًا لا أحتاجه".

"ماذا تحمل؟".

"أشياء بسيطة".

"لا أريد أيّ متاعب".

"لن أتسبب لك بها".

"سنرحل فجرًا".

توجّه القبطان نحو سفينة أم كلثوم.

ناداه محي الدين: "انتظرني. سأكون في السفينة".

"أنت مجنون يا رجل".

"ربما".

نقل محي الدين وقنافذ البحر بضاعته إلى السفينة. قبل الفجر، انضم إليهم ستة مسافرين آخرين وثلاثة من عمال الديكور. انطلقوا مع ارتفاع المد والجزر في الصباح.

كان بعض الركاب قد ترجلوا عند موانئ صغيرة على طول الطريق – موانئ تومباتو وبيمبا وكيليفي وشيموني -ولكن عندما كانوا معًا على متن السفينة، تشاركوا جميعًا مهام الطاقم المتمثلة بموازنة أو ترقيع السفينة، ومنع تسرب المياه إليها خلال الأيام الستة والليالي التي استغرقها التنقل بين التيارات المتغيرة والمد والجزر. وضعوا ثقتهم بالنوايا الحسنة للرياح حتى وصلوا إلى مياه شمال كينيا.

حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، غيّر القبطان مجرى سفينة أم كلثوم تجاه لافتة قديمة على صخرةٍ ناتئة تشير إلى الطريق لجزيرة بيت. كانت هذه اللافتة أيضًا علامة على الممر المائي الذي كانت تستخدمه الفيلة في الجزيرة عند انخفاض المد. اتجهوا نحو قناة مكندا، لتجنب المرور في أعماق البحار المحفوفة بالمخاطر. عندما مروا قرب بقايا أشجار المانغروف، شعر محي الدين بألمٍ في قلبه. نظر إلى الأطراف البيضاء للحواجز الرملية. عبروا مستعمرة فازا التي غيّرت الحرائق ملامحها وبعدها جزيرة نداو، والشاطئ الرملي الأسود لرأس متانغاواندا. وسرعان ما بات محي الدين على بعد خطواتٍ قليلة من الوصول إلى جزيرة بيت. ها هو يعود. يعود إلى ماذا؟ ضعفت ركبتاه وهو يعبر الحدود المخفية التي رسمت وحدّدت الماضي، ماضيه هو وماضي الجزيرة.

تلا ذلك ضحكات خفيفة. كانت تلك نسبية الوقت.

كان يمشي ويحدق في الواجهات التي ملأتها المقابر المنهارة والمزارات العلمية وبقايا ساحات بناء السفن ومقابر القديسين والعلامات التوفيقية للآلهة التي وثقوا بها فيما مضى؛ مسجد قوي يتقاسم مساحته مع كل العبادات الأخرى. الناس، ناسه هو. عبر وجه قديم طريقه، وكان مألوفًا. بعد ثوانٍ، انفجر قلب محي الدين؛ وسمح له أن يخرج ما كان

أشبه بالعواء. توقف الأطفال الذين كان يلعبون بالقرب منه عن اللعب. ركض ثلاثة أولاد شجعان ليروا ما كان مصدر الصوت ورأوا رجلًا متعجرفًا يجثو على ركبتيه، رجل كان قد علم للتو أن طريقًا طويلًا ملتويًا من عوالم شاسعة قد تقوّس إلى المنزل.

كان ذلك آنذاك.

أمّا بالنسبة لورقة البرشمان المصفرّة التي تمسّك بها محيي الدين، فقد كان اليوم على يقين من أمرين فقط: الأوّل أنّ كلّ ما قدّمته له هو أنّه كان يمتلكها، والثاني، كما لكّ ما لمسه، كانت تنهار قبل أن يتمكّن من فكّ شيفراتها.

"الله أكبر...". يومٌ آخر، ليلٌ، نهار. يا رسول الوعود، تعيد جزيرة قديمة مكتئبة إلى اليقظة. "الله أكبر...". استمرّ الأذان. "الصلاة خيرٌ من النوم...". هبّت ريح عالية من البحر حملت معها جزيئات رملية، رشتها على أشياء الحياة المبعثرة. صاح الديك. شوّشت أنغام الصباح على حلم محيي الدين المتكرّر بالعودة إلى جزيرة بيت، والتي انتهت بسؤال كان بحاجة لطرحه ولكنّه لم يتمكن من التعبير عنه.

على الرغم من أنّ محيي الدين تخلّى عن إيمانه بالله، حضر هذه الاستدعاءات للحياة بلذّة متذوّق. "الله أكبر...". من شرفة الطابق العلوي لمنزله العاجيّ اللّون، شاهد محيي الدين أسطول نيكاراوا. ركع الصيادون الذين استيقظوا باكرًا ثمّ نهضوا، جثموا ونهضوا، وحفروا وردة، وحفروا مجاذيف أشجار المانغروف الطويلة في المحيط على نبض ضوء الفجر، الذي امتد مثل الفضة المنصهرة فوق الماء. عدّل الكمة المطرّزة على رأسه وتساءل إن كان عليه فتح نافذة الطابق السفلي في متجره حيث باع كتبًا وأشياء أخرى. كانت شمس الصباح لمسة حميمة على يديه اللّتين أمسكتا بالقضبان البالية للشرفة. استمع إلى أصداء الجهير الهادرة من ترنيمة المؤذن. تناثرت في أرجاء المكان رائحة الملح الآتية من المحيط والمختلطة مع التوابل والأعشاب البحرية وأعشاب المحيط غير المعروفة. الله أكبر... كان الأذان هنا لا يزال يحمل صوت رجل، رجلين -عمر عبد الرؤوف وعباسي راشد -على وجه الدقة. كانا يتنافسان، كل منهما على قناعة صارمة بموهبته الصوتية الخاصة بينما قدّم كلّ منهما ثناءً خافتًا لجهود الآخر.

انتشرت شرائط الأذان الصوتية المسجلة والدقيقة التي صنعت في المملكة العربية السعودية وحلّت في أماكن أخرى مكان الأصداء الحقيقية لصوت الأذان الحيّ. "أشهد أن لا إله إلّا الله". نزل محيي الدين على السلّم بخطوات كبيرة، بينما رنّ صوت عمر عبد الرؤوف في أذنيه: "الصلاة خير من النوم...".

فكّر محيي الدين بتقديم مسحوق العسل بالزنجبيل للمؤذن، الذي شعر أنّ صوته أشبه بصوت تزاوج الحيتان. تسارعت خطى محيي الدين عبر الفناء الداخلي وحجبت عينيه عن الضوء المتدفق. انتظر. ثلاث دقائق. كان هناك. سمع خطى وراء المنزل المواجه للشمال. بعد بضع دقائق، هتف صوت طفلة: "اليعاسيب... لقد باتت هنا... إنّه يوم الجمعة". حكّ محيي الدين لحيته. إنّه موسم اليعاسيب. حدّق باتجاه السماء. كانت الأمطار القليلة آتية. كان الهواء كثيفًا بسبب الرطوبة، وارتفعت السحب في السماء، وظهرت الأسماك الكبيرة في المياه الضحلة. كانت هناك تيارات وتيارات جديدة. تحول محيي الدين إلى البحر. صوت في المياه! كانت الطفلة تضحك. استمع محيي الدين للأصوات من الوقت قبل أن يفرك شعيراته بينما كان يتجول في مطبخه بالطابق السفلي، وأغلق غلاية الماء. وضع قطعة من عسل الحلاوة وزبدة الفول السوداني على صينية مستديرة صدئة رُسمت عليها صور قطط. سكب الحليب الساخن في قدح كبير، وأضاف ملعقة من الماسالا، وتخيّل أن السفينة الشراعية المسائية الآتية من لامو ستحمل بعض الخبز الذي احتاجه. في مكان ما في المياه، ضحكت الطفلة مرة أخرى.

لفت بريقها عينيّ محيي الدين. كان الضحك السريّ بالنسبة لمحيي الدين يعني أنّه يمكن للسرّ أن ينتقل في وهلة عبر شرفة محلّه الزرقاوية. يمكن للسرّ أن يولد حيث يشهد رجلٌ رقصةً لا يمكن لباقي العالم أن يراها. من الممكن الشعور بالسر أو الإمساك به في ابتسامة ضئيلة على الشفة العلوية لرجل كبير في السن، أو بصيص من ضوء النجوم في عيون طفلة صغيرة. قبل أن تراه الطفلة، كانت تدور في المياه الضحلة في المحيط وتغني بسلاسة أغنية صاخبة للأطفال:

"قلادة، قلادة جوز الهند، عندما تأتي الريح القوية... يكثر الكلام عنها... يرتعدون...".

كان يستمع إليها متخفيًا. في مرّاتٍ أخرى، راقبها فقط وهي تمشط البحر. نقلت الخشب الطري وثعابينًا وطيورًا ميتة وحيوانات نجم البحر الميتة وكيس معكرونة مغلق

وعصا للهوكي ورأس دمية طفل وسلحفاة بلاستيكية زرقاء. ثمّ رأته واقفًا في الشرفة عند الفجر، فغنّت بنبرةٍ أخف، لكن نسيم الصباح بقي يحمل صوتها إليه.

"أين سأقيم؟ هل نحن ذاهبون إلى وادي الموتى؟".

كان قد رآها منذ زمنٍ طويل قبل أن تدخل مغامراتها الصباحية حياته. كانت تقف قرب مخلوق ضخمٍ، بحجم رجل قصير، بأربع زعانف مسنّنة سفلية الشكل. كان أحد الصيّادين، واسمه يوسف جمعة، قد قام بنقله وإلقائه على الرصيف. تجمّع الناس حوله للتحديق به، وتذكّر بعض الصيّادين أنّه سبق أن عُثر على وحشٍ كهذا. آنذاك، ظهرت الفتاة الصغيرة. كانت قد زحفت متسلّلةً من تحت أذرع الكبار المجتمعين، وجثمت قرب ذلك الشيء، مسندةً ذراعيها على ركبتيها، حين أتى محيي الدين، وأعلنت خطى حذائه الإيرلندي البروغ بكعبه الصلب عن اقترابه. قال: "إنّه من فصيلة الأحفوريات. عاش في زمن الديناصورات". كرّر ما قرأه على ملصقٍ حول سمكة الكهوف الشوكية: "اصطدت واحدةً مرّةً حين كنت في البحر. لا يمكن أكلها. أعدها إلى المياه وستفرح بها أسماك القرش". وبينما كان ينظر حوله، لاحظ عينيّ الفتاة المتسعتين وفاهها المفتوح وهي مرتدية بنطالًا أكبر من قياسها. كانت عيناه تجولان بالنظر في المكان، بينما استكمل نزهته المسائية.

أمّا الآن وقد سمع صوت غلاية الماء وانسكبت المياه على محيي الدين، سمع صوت الفتاة مرّة أخرى:

"أين سأقيم؟ هل نذهب إلى الوادي...".

طرق رأس الغلاية كما لو أنّها كانت حيوانًا أليفًا عصيًا، وسكب القهوة السوداء والمرّة في القدح. شرب القهوة الممزوجة بالهيل والقرنفل والقرفة، وهو يحمل صينيته إلى الطابق العلوي إلى غرفته. نظر إلى الشرفة لتفحص البحر، والنظر إلى السحب ذات الحواف الحمراء والمياه الزرقاء غير المتساوية. توقع عاصفة بحرية الليلة.

كانت الفتاة تلعب في المياه ذات الزبد الأبيض. غطست تحت سطح المياه. قلق محيي الدين من التيار. حسب محيي الدين دقات قلبه، بحثًا عن إشارات مظلمة مموهة قد تشير إلى تيار قوي تحت سطح الماء. ثمّ عادت الطفلة وظهرت. كانت قد تجاوزت رقمها السابق بالبقاء تحت الماء والذي كان دقيقتين بسبعة عشر ثانية. مسح محيي الدين أنفه بكمّ قميصه. تظاهر أنّ الأمر لا يعنيه. ليس من شأنه. عضّ على شفتيه. دقيقتان وسبعة عشر ثانية!

أزعج صوت الصرير الذي اختلط مع الضجيج نوم محيي الدين في إحدى اللّيالي منذ أكثر من سنة. كان الظلام حالكًا حين مدّ يده ليصل إلى ساعة كانت من ضمن الساعات التي قام بتجميعها في الماضي. كانت تصدر صوتًا أشبه بصوت صراصير اللّيل، وترنّ مرّةً واحدة كل ثلاث ساعات. اعتراه الأرق كالعادة لأسبابه المعتادة التي لم يتمكّن من تفسيرها، فتوجّه إلى شرفته في انتظار شروق الشمس. لاحظ بصيص الضوء الأرجواني المائل عبر السماء.

في ذلك الرونق، لمح شخصًا يقفز في المحيط، أشبه بدلفين صغير. غطس تحت الماء وظهر على بعد أمتار عديدة. لم يكن محيي الدين مؤمنًا بوجود الجن، لكن في محاولةٍ لتفسير ذلك الشبح في المياه في تلك الساعة، خطر له أنّ الجنّ قد يكون موجودًا.

سارع إلى الطابق السفلي، عَبَر ساحة الفناء الداخلي واجتاز مساحة الاستقبال التي استخدمها كمتجر له وكشك للبيع، مشى بجوار البهو وخرج من الشرفة. في الشارع، اقترب من زاوية تؤدي إلى الشاطئ.

عندها تعرّف على الشخص الذي كان في البحر، وتفاجأ لشعوره بالخيبة. هل أنت يائس إلى هذه الدرجة لوجود الأشباح يا محيي الدين؟ عاتب نفسه. هناك الكثير من الأسماك في البحر، أنواعٌ عديدة. شعر بالغضب وهو غارق في نقاشٍ ذاتيّ. هل عليه أن يؤنّب الطفلة؟ كانت هناك قواعد غير مذكورة حول من يستطيع ومن لا يستطيع السباحة في البحر. الأطفال: ليس من دون مراقبة. فتاة: بالكاد على الإطلاق. لكنّه كان يعرف أيضًا كيف هو البحر مع بعض الأشخاص، كيف كانوا بحاجة إليه وكيف كان هو بدوره يحتاجهم. كان الأمر على هذا النحو بالنسبة له، لكن ذلك كان متوقعًا منه. كان والده الراحل، وقبله جدّه، بمثابة حرّاس البحر - كانا قد قرآ في الماء بجميع فصوله، ومارسا طقوس البحر وشعائره.

وعلى الرغم من أنّهما ماتا قبل أن يتمكّن من التعلّم منهما، إلّا أنه امتلك غريزة فيما تعلّق بنداء البحر. في شبابه، كان واحدًا من بين السبعة فقط الذين استطاعوا الغوص في عمق البحر في منتصف الليل للعثور على الأسماك والمحار وسرطان البحر، حاملين فقط الفوانيس على متن قواربهم لإضاءة طريقهم. كانت قد لعسته قناديل البحر وصعقته سمكة الأنقليس الرعاد، لكنّه عاش. كان بإمكانه تسمية المد والجزر والتيارات من خلال شكلها أو إحساسه بها. عندما جرفته الفيضانات إلى أعماق البحار، لم يكن خائفًا، بل فقط فضوليًا.

منذ عودته إلى جزيرة بيت، استيقظ من نومه فجأة ثلاث مرّات، ليجد نفسه في المياه ليلًا، من دون أن يعرف كيف غادر سريره ووصل إلى المياه الجارية.

[3]

لفّت القطة البيضاء الصغيرة نفسها حول أكتاف الفتاة الصغيرة وهي تشاهد رصيفًا لقوارب الركاب. كانت تنتظر والدها. لم يسبق لها أن رأت والدها قط ولم تعرف كيف كان شكله. كل ما اعتقدت أنّه كان قد نشأ من خيالها، واليوم كانت تطلب منه أن يظهر نفسه بشكل ملموس، تمامًا كما توقّعت أن يفعل يوم أمس، واليوم الذي سبق.

سمعت أصوات الرياح والمد. اليوم، لم يكن والدها من بين العائدين هذا الصباح، ولا كان من ضمن أولئك الذين هبطوا من المركب الشراعي المسائي. لم يكن من ضمن ركّاب الباصين اللذين اجتازا جزيرة بيت. انتظرت أيانا حتّى سمعت أصوات صراصير اللّيل، وحتّى حلّ في المكان سكون مفاجئ، كما لو أنّ العالم ينتظرها حتى تتحدث. همست لقطتها أنّها ستعطي والدها فرصةً أخيرةً بعد. يوم غد سيكون فرصته الأخيرة للعثور عليها. خدشت القطة رأس الفتاة وماءت.

[4]

العوم الذي يتحدّى الوقت. العزلة والصمت. كل شيء سافر باتجاهٍ غير معروف. حتّى هي. لكن تحت المياه، لم يكن عليها أن تقلق حول تعريف الأشياء لتتمكن من احتوائها. الشعور والإحساس والتجربة - كان ذلك كافيًا للمعرفة. كان للبحر أعين عديدة، والآن بات له عيناها أيضًا. حدّقت بها سمكة عابرة. نظرت إليها بدورها. انجرفت مع التيّار، ومع جميع

أشياء التيار. انقادت حتّى بات ضروريًا لها أن تخرج إلى سطح المياه من أجل بعض الهواء.

سُمع صدى ضحكاتها. استند محيي الدين إلى الشرفة ليستمع إلى الطفلة مع البحر، الطفلة داخل البحر. هل ستتعلّم أنّ المحيط، مثل هذا العالم، لا يمكن التنبؤ به. ولكن، ليس هذا شأنه. لقد عاد إلى منزله في ذلك الصباح الأوّل. وبقي يبحث عن الطفلة كلّ فجر. في بعض الصباحات، لم تظهر. وفي صباحات أخرى، كانت تبدأ في الظهور قبيل الفجر، تمشي على رؤوس أصابعها في المياه، ترتد عبر المياه الضحلة إذا كان البحر في حالة انحسار، وتقفز مع الأمواج عندما يتدفق البحر. بعد ذلك بأشهر، وبينما هرعت إلى منزلها، مالت برأسها نحوه كما لو أنّها كانت تعرف أنه سيكون هناك. انسحب من الشرفة. بعد ذلك بشهرٍ أبطأت خطاها بينما غبرت في المساحة تحت شرفته، ومشت مطأطئة الرأس.

بعد ذلك بأيّام، توقفت وتنفّست عميقًا. رأته يراقبها. سحبت أذنيها إلى الأسفل، نظرت إلى عينيه، ومدّت له لسانها. وبعد ذلك، اختفت وهي تركض تاركةً ثقوبًا صغيرة في الرمال، كما لو أنّ ظبيًا أفريقيًا صغيرًا كان من يعبر. عندما عاودت الظهور في الأسبوع التالي، أعاد محيي الدين تحياتها بالكامل. وإذ فعل ذلك، جحظت عيناها، ثمّ أمسكت ببطنها وصرخت، قبل أن تغطي فمها. ومن شدّة حماستها، قفزت ثلاث قفزات جمبازية حتى ألقت بنفسها على الشاطئ، شاعرةً أنّ ما حدث كان كثيفًا جدًا.

في حماية ظلال ذلك الفجر، انتقلت بهجتها إلى محيي الدين الذي راح يقهقه متمسكًا بدرابزين شرفته. ثمّ اختفت. هكذا! خطواتٍ صغيرة على التراب البني الداكن. أيانا. لم يكن هذا الاسم مألوفًا في جزيرة بيت. أيانا -"هدية الله". بالطبع، عرف محيي الدين قصّتها. الجميع كان يعرف تلك القصّة. كانت المد قد أحضر الفتاة إلى الجزيرة منذ سبعة أعوام. وصلت بين ذراعيّ أمّها التي كانت أشبه بهيكل عظمي من شدة النحول، مهزومة، منيرة ابنة الحسب والنسب تحوّلت إلى امرأة بشرتها شاحبة، عيناها غائرتان، نحيلة كقدم طائر، وحسّاسة كعادتها. كان جمالها السابق المتغطرس والصارخ والوحشي قد انكسر وخفت بسبب ما عاشته خلال عامين ونصف من الحياة بعيدًا عن الجزيرة. عادت إلى منزلها، كمرساة مكسورة وصدئة.

كانت أيانا التفسير الوحيد الذي قدمته منيرة للجلد الحيّ الذي حملته. كانت تتجول في غسق بري غزير بالنيران بينما كانت والدتها تخرج من القارب الذي تسرّبت منه المياه

والذي استأجرته من لامو مقابل آخر سوارين ذهبيين لها. عندما هبطت منيرة على جزيرة بيت، كانت "أيانا" نداء للرحمة على شفتيها. أولئك الذين شهدوا وصولهما كما لو أنّهما كانتا في موكب، لم يرفضوا "هبة الله"، الدليل الحيّ على أحلام امرأة مهزومة.

"من هو الأب؟".

"...".

"الأب يا منيرة؟".

"الريح"، صاحت منيرة بصوتٍ غائر وأجوف. "إنّه ظلّ الرياح".

دفعت الإجابة العائلة التي أصيبت بالذعر إلى التخطيط لتصحيح هذا الوضع. وعلى الفور، وجدوا عريسًا لمنيرة، عالم متزمت له لحية رفيعة لمست بطنه المقعر، فشلت كل محاولاته السابقة والعديدة للزواج، حيث هربت منه كل عروس ولم يرها أحد بعد ذلك. أمّا زوجته الأولى والوحيدة، فقد نذرت نفسها للبكم. كان الرجل مصممًا على الاندماج مع عائلة منيرة الأرستقراطية والدخول في مخالبها التجارية القديمة والمعقدة والعميقة، والتي لمست معظم مدن الموانئ في العالم. لقد بدأ بالفعل عملية تغيير اسمه إلى اسمهم -كجزء من الصفقة. ردًا على ذلك، هرعت منيرة إلى صخرةٍ مطلة على أعلى الشاطئ، ممسكة أيانا بجسدها. استعدّت لتقفز من الصخرة المرتفعة. ضاعف تهديدها بالانتحار من وقع الفضيحة ورسّخ اليقين بجنونها الفاسد ولعنتها.

بعد ذلك بسنواتٍ عدّة، في إحدى لحظاتهما المريحة، أخبرت منيرة محيي الدين أصغر تفاصيل ذلك الوقت: كيف سلّمت قلبها مقابل لا شيء -"أنا لا أؤمن بالرجل"؛ أخبرته كيف كانت تتقيأ الأمل عند ظهور أيّ قمر؛ كيف صنّفت جودة بعض الأيّام بحسب عدد الإهانات التي تلقتها -كلما كانت أقل، كلما ازداد يومها لطفًا. "لكن لا يمكنك أن تسبق ظلك"، كانت تقول لمحيي الدين. وكان يجيبها: "ولكن بالإمكان تجاهله". كانت تهزأ قائلة: "آه توقف. نحن نعرف الحقيقة، حتّى حين نكذب. سنتحدث عن الموت قبل أن نتجرأ أن نتحدّث عن وحدتنا. لكنّي على قيد الحياة. أليس هذا أمرًا جيدًا". وكانت بعدها تضحك على نفسها.

بعد أن هدّدت منيرة بالانتحار، تبرّأ والدها العزيز منها لإنقاذ ماء وجهه. وسبق اسمها بكلمة المتوفية قائلًا: "أنتِ، يا ابنتي البكر، دستِ بقدميك على أقدس أحلامي، أنتِ يا من أعطيتها كلّ شيء". احمرّت عيناه من الحزن.

كان والد منيرة، لسوء حظ الأرخبيل، أحد أهم الأشخاص الذي أمّنوا الوظائف هناك -وقرّر نقل نشاطه البحري وحياته وعائلته إلى زنجبار التي تبعد حوالي ما يبعد خمسمائة كيلومترًا. ذهب معهم خطيب منيرة الذي رفضته وعائلته. "أرجوكِ، موتي"، قالت لها زوجة أبيها حين همّوا بالرحيل، "ولكن قومي بذلك بعد أن نرحل".

تركوا منيرة وحيدة في جزيرة بيت مع ابنتها. حزنت منيرة عليهم. عاشت، لكنّ اسمها ارتبط بالخطيئة، وبات يستخدم كتحذير لتهديد الفتيات الجريئات، وللتذكير بسبب قلّة فرص العمل في الأرخبيل. كانت أشبه بوباء، بجرحٍ مفتوحٍ يمشي. وعلى الرغم من ألمه، ترك والد منيرة، بما يفترض أنّه لم يفعلها عمدًا، مفاتيح أحدِ منازل العائلة الأصغر. انتقلت منيرة إلى هناك بحذر، وانتظرت أن يطردها أحد من هناك، لكنّ ذلك لم يحدث. وجدت فيه مأوى لها ولابنتها. كانت تستيقظ في الصباحات المبكرة، تحمل طفلتها على ظهرها وتنظّف المنازل وتطبخ وتغسل وتجدّل شعر الفتيات مقابل بعض الشلنات القليلة التي استخدمتها لإطعام نفسها. زرعت بعدها حديقةً من الأزهار والأعشاب والتوابل، التي رعت نباتاتها الواحدة تلو الأخرى، وهي تغرس يدها في التربة الصعبة وتغمرها بالسماد حتى تصبح مثمرة مرة أخرى.

من هذه النباتات، انبثقت علاجاتها التجميلية بلطف. كانت منيرة محاصرة في جزيرتها. ولكن مرتين في الشهر وفقط في الليل، تجولت في أحد الكهوف أو اتّجهت إلى إحدى الصخور الأربع الكبيرة التي تواجه البحر والتي نظرت من خلالها إلى الآفاق المظلمة حيث يمكن أن تزرع أحلامًا سرية، في مأمن من مخالب هذا العالم وأنيابه التي لا ترحم.

هناك، داخل ملجئها اللّيلي، رأى محيي الدين منيرة ثلاث مرّات. بعد سنتين من عودته إلى جزيرة بيت، شاهد محيي الدين أثناء تجوّله في الظلام، ظلًا سائلًا تحت القمر الفضي الفاتح. جمّدت الرؤية روحه. وبعد ذلك، تنفّس الصعداء حين تبع الظلّ جسدًا بشريًا ورأى امرأةً غير محجّبة أشبه بحجر القمر. في شهرٍ آخر من عامٍ آخر، في ساعةٍ على نفس القدر من الكثافة، تقاطع ظلّ محيي الدين المبلل برذاذ البحر مع ظلّ منيرة، اندمجا، ثمّ انفصلا مرّةً أخرى: عزلتان تمشيان الهويدا على حدود المحيط، آذان مائلة إلى الداخل، باتّجاه أشباح مجهولة ووعود قديمة أغرتهما إلى عزلة داخلية ينشدان فيها الراحة. رأى محيي الدين مرة أخرى منيرة التي جثمت داخل حفرة جوفاء مظللة بالقرب من البحر. لم

يقر أيّ منهما بوجود الآخر. في بداية العام الجديد السابق، بينما كان يحاول تحرير نفسه من قبضة المحيط على روحه -استيقظ مرة أخرى ليجد نفسه في الماء -هرب محيي الدين نحو منزل منيرة من دون سبب. أحنى رأسه على أعمدة بابها. منذ ذلك الحين، حاول أن يتجنّب حتى التفكير بها.

[5]

في بعض ليالي جزيرة بيت، اجتمع رجال الجزيرة في مجالس لتبادل الحديث والنقاشات. في ظلّ غياب الخدمة التلفزيونية الموثوقة، كانت هذه المجالس بالنسبة لمحيي الدين بمثابة تقارير الأخبار. كان الرجال، ومعظمهم من موظفي الخدمة المدنية المتقاعدين يحملون صحفًا قديمة تحمل أخبار يومين سابقين، ويتداولون كلّ كلمة فيها، سواءً كانوا تجارًا أو علماء أو شخصيات عادية. كان الأطفال يلعبون والنساء يتذمّرن من كثرة الأشغال، وناقشت الأصوات التي اجتمعت في نهاية كل يوم، سياسة كينيا الملتوية، ونهجها الاستعماري في كل شيء، ودرجات الدوري الإنجليزي الممتاز. كانت هناك ثلاث مجموعات رئيسية موزعة بشكل غير عادل لدعم آرسنال ومانشستر يونايتد وتشيلسي. تشبث عدد قليل منهم بحنين مثير للسخرية لفريق ليفربول. في معظم الأحيان، تحدثوا عن كينيا كما لو أنّهم مهمون بالنسبة لها، كما لو أنّهم لم يسقطوا من ذاكرتها التي عرفتهم في يومٍ من الأيام.

التهم محيي الدين الحلويات مع أولئك الرجال، حيث كان يحتسي القهوة الساخنة والمرّة، ويلعب الدومينو، ويسخر من الأهمية التي تنسبها جزيرة لامو لنفسها - في وقتٍ من الأوقات، كانت جزيرة بيت المسيطرة على هذه البحار، وكانت مركزًا بحريًا تُصنّع فيه وتباع سفن حربية إلى دول المحيط. تنافس الرجال في رواية حكايات الوحوش وحوريات البحر لبعضهم البعض، وتحدّثوا بالتفصيل عن الزوّار، مثل الرجل الصيني المسّن الذي استولى على كوخٍ للصيد وكان يزرع حديقة خضار. تحدّثوا عن رغبتهم ببعثرة شعوب القارة وأهالي البر الصيني الرئيسي وما أسموهم بالكلاب القذرة الذين كانوا سياسيين كينيين من السكان

الأصليين. تهامسوا حول آبار نفطٍ وغازٍ سرّيّة وذهبٍ مخبوءٍ في جزيرتهم.

عبروا في حديثهم على ذكريات جزيرتهم المحطمة. التقطوا شظايا الأمس القوي التي باتت مجزأة ومحطمة. تبادلوا حكايا حول حوادثٍ دارت في الموانئ، واستنشقوا رائحة الزهور البيضاء -سيدة الليل، وزهر البرتقال، والزنابق، والياسمين -تحت النجوم التي بدت كما لو أنّها تتنصّت عليهم. خفّفت ليلي جزيرة بيت هذه وطأة آلاف الآهات التي أصابت محيي الدين من أماكن خفية لروحه. وغالبًا ما مازح هؤلاء الرجال محيي الدين حول بدعه وهرطقته وتجنّبه الشرس للصلوات العامة والمناسبات المقدّسة. كانوا قد أطلقوا عليه لقب "المرتد". ومع ذلك، تعاملوا مع محيي الدين بحذر مذهل. عومل محيي الدين أيضًا بعجب تحذيري. لم يكن فقط بالنسبة لهم عرافًا يبدّد المخاوف بالإكسير الغامض، ولكن كونه عاش خارج الجزيرة في عوالم متخيلة وراء البحر، فقد رأى الرجال في محيي الدين الشخص الذي عاش كلّ أحلامهم التي لم تتحقق.

في مجالسهم، بعد أن انتهوا من النميمة حول السياسيين الذين اتفقوا أنّهم ذهبوا إلى نيروبي حاملين الوعود والأحلام وعادوا إليهم أشبه بالجنّ، ضالين وكاذبين ومفترسين، غالبًا ما وجّه هؤلاء الرجال ألسنتهم السليطة لانتقاد أحد سكان الجزيرة والحديث عنه. ازداد حياد محيي الدين عن هذه الأحاديث، وراقب كيف كانت غالبًا والدة الفتاة الصغيرة، منيرة، علفًا للنميمة.

ربطوا بين تلك السيدة الملعونة والحماقات البشرية الكبرى، وركزوا في أحاديثهم على الشهوة ونعتها باللامبالاة والكسل والغرور. إنّها تتمتّع بالجمال الخارجي، لكنّ داخلها مليء بالأوساخ، قال أحد التجار في منتصف العمر الذي كان يحب البطيخ ولديه نظريات بذيئة: "هل رأيتم كيف تميل برأسها؟".

"كيف؟"، صاح محيي الدين مظهرًا انزعاجه. ثمّ وبّخ نفسه، هذا ليس من شأنه.

جالت عينا التاجر في المكان وهو يقول: "ترفع أنفها عاليًا. ابنة النار الفاضحة، حتى أنها تتحدث بيديها". خفض صوته. "هل رأيتم الفراغ بين أسنانها الأمامية؟ إنّها تسحر الرجال بجرعاتٍ من الوصفات الساحرة".

حرّك رأسه باتّجاهٍ يشير إلى الشمال. كان سبق أن شوهدت منيرة وهي تتجوّل في ذلك الاتجاه، حيث يعيش فندي المازي مهدي. لقد كان بنّاء سفنٍ شبه أبكم، انتقل جدّه من

جزرة كيوايو إلى سيو. كان من صافري الرياح منذ فترة طويلة – وقد كان أحد القلائل الذين استطاعوا استدعاء رياح البحر عن طريق النية واللحن. أصلح مهدي السفن البحرية المكسورة. وعاشت زوجته وأبناؤه وبناته في أماكن أخرى في الشرق الأوسط، حيث عاش مهدي أيضًا قبل أن يعود إلى جزيرة بيت وحده. كانوا يسمعونه أحيانًا وهو يصفر لذكرى رياح البحر. ودائمًا ما ضبط ترددات الراديو الخاص به على موجات قناة الأرصاد الجوية، لكي يبقى على اطلاع بأحوال المد والجزر.

"فندي مهدي"، حاول محيي الدين أن يخفي استمتاعه بالحديث.

"ليحمينا الله"، تنهّد التاجر.

أطلق محيي الدين ضحكة خفيفة.

"عزيزي الرجل، تبدو منزعجًا. هل كنت تأمل أن تسحرك أنت أيضًا؟".

ضحك الآخرون على الرجل.

أضاف محيي الدين: "ولكنّ حديقة تلك السيّدة مذهلة. التربة تحب يديها. يا لأزهارها! يا لأعشابها! يا لعطورها!".

اعترض الرجل الذي كان يزوّد الجزيرة بخدمة الاتصالات الهاتفية. "ولكن هل سألت نفسك يومًا أيّ نوعٍ من الأشخاص يزرع النبات قرب قبرٍ، هل فعلت ذلك؟ أقسم أنّها تشغّل الجنّ".

"الجنّ؟"، قال محيي الدين. "الجسد المتحلل هو أيضًا سمادٌ يا أخي".

تنهّد الرجل متذمّرًا.

بعد حوالي أسبوع، وجد محيي الدين جسده يبتعد شيئًا فشيئًا عن تلك الأحاديث اللّيلية. كان على وشك أن يخوض خلاصة نقاش حول آرسنال ومانشستر يونايتد، في مديح نادي تشيلسي لكرة القدم، عندما أدرك أنه كان يبحث عن شيءٍ ما خارج كل تلك الأحاديث. حدث نفس الشيء بعد ثلاث ليال. وبينما كان أقدم خياط في الجزيرة يتفاخر ويدعو زوجته "زهرة من الزهور"، مدّ محيي الدين ذراعيه ونهض ليمشي إلى الأمام، ليبدو كأنّه يبحث عن مكانٍ لقضاء حاجته. ولكن بمجرّد أن أصبح بعيدًا عن أنظار رفاقه، هرع إلى منزله.

تلمّس محيي الدين طريقه إلى أعلى الدرج وإلى غرفة نومه. هناك استحمّ قبل أن

يستلقي في سريره، حيث استولى عليه شعورٍ غريب. ما أنا بفاعل؟ تململ تحت اللحاف في السرير. "أين زوجتك؟"، كان هؤلاء الرجال قد سألوه مرّةً. كذب عليهم. بدا شجاعًا حين قال إنّه استفاد بالكامل من زواج المسيار -وهو ترتيب قانوني مؤقت بين رجل وامرأة متفق عليه. "نكاح متعة لا يعد ولا يحصى"، قال لهم. نظر إليه الرجال بتعجّب. ضاعف من الكذبة لكي يستدرج عطفهم: "المرأة التي أحببتها أكثر شيء... مرضت. ولكي تعفيني من الحزن، تركتني" -أخفض رأسه واختنق -"لتموت".

أصدر الرجال صيحات تعاطف. قال أحدهم: "من الجيّد أنّك هنا الآن؛ نساؤنا جميلات. والآن وهو مستلقٍ في سريره، استحضر محيي الدين النساء اللواتي عاشرهنّ فعليًا في حياته. بعد زوجته الأولى، تزوّج مؤقتًا من ثلاث نساء -كائنات خصبة. ثمّ اختفى عنهنّ. إحداهنّ كانت في بودوتشيري، أحد أقاليم الهند الاتحادية، وأخرى في المخاء، إحدى مدن قضاء تعز في اليمن، والأخرى في... هل كانت بيرا في الموزمبيق؟ كانت هناك الكثير من الثغرات في حياته. لقد فقد خيوط الأكاذيب التي أخبرها للوصول إلى أجساد ناعمة ورائحتها معطرة، والأكاذيب التي نسجها لتخليص نفسه. استمرّت تداعيات حالته، وتساءل عن أولاده -أولئك الذين كان يعرف بهم، أولئك الذين هجرهم.

ارتعاش في قلبه: تجمّعت كل مخاوفه غير المعلنة. همس لتلك الليلة: "هل سأترك، إذن، لأموت وحدي؟". عاش حياته بجرأة ومن دون قيود. لقد أراد تلك الطريقة -مفضلًا ذلك على اضطرابات الغيرة والتملك، والمطالب المفرطة التي رافقت الحب ومعاناته. لم يكن قادرًا أبدًا على الاستسلام لخنق الأسرة. اعتبر ذلك جنونًا.

لحسن حظه، ظهرت دائمًا آفاق جديدة. لقد كان يشبه نفسه إلى أبعد حدود حين خاض ألغاز هذه الحياة. لكنّ الوقت انقلب ضده وسلّمه للأشباح الذين كانوا من نسيج حياته التي لم يخترها. الآن -"ما الذي أنتظره؟"، ثمّ سأل نفسه -"بالأحرى من أنتظر؟". تقلّب محيي الدين في سريره، محاولًا أن يبتعد عن كل تلك الذكريات، ولكنه لم ينجح.

راضية كانت زوجته الأولى: طلقها عندما كان في التاسعة عشرة من عمره وكانت هي في الثامنة عشرة. كانت راضية فتاة جميلة وطيبة، تثق بالآخرين وتعيش بأمان في جزيرتها، وكانت أيضًا ضعيفةً أمام الإطراء الذي أسرف به محيي الدين — كم أنت جميلة يا عزيزتي. هربا معًا إلى مدينة ماليندي، ثمّ عادا إلى الجزيرة متزوجين. بعد سبعة أشهر، أنجبت توأم

صبيان، توفيق وزرياب. بعد ثلاثة أيام، أزالت كينيا التي كانت في مرحلةٍ جديدة علم الاتحاد ورفعت علمها الأحمر والأخضر والأسود والأبيض. حاول هارون والد راضية، وهو رجل واسع المعرفة ومؤمن بقيم التسامح، والذي كاد أن يدرس في جامعة أكسفورد، أن يحتضن صهره الصياد الفج. حوّل أحد منازله إلى ابنته، على أمل أن يؤثر الجوّ الثقافي على صهره ويساهم في تنوير الرجل الذي أصرّ أن يحدّثه باللغة الإنجليزية. كان في داخل المنزل أماكن مخصّصة للوضوء. "المهر"، قال والد زوجته لمحيي الدين.

أخافت خطوط ومساحات المنزل الأنيقة ورفوف الكتب واللوحات الصينية القديمة محيي الدين الذي تعثر بمزهرية فارسيّة عمرها مائتي عام وكسرها في طريقه إلى عتبة المنزل. اعتاد على قضاء أيّامٍ وليالٍ طويلة قرب البحر لتجنّب العودة إلى المنزل. وابتعد أكثر وأكثر لتجنّب والد زوجته الذي كان يسعى دائمًا لتحسينه. "نحن الآن في كينيا"، قال عمّه وهو يشير إلى العلم الذي رفرف على عمود السقيفة الإدارية المعاد طلاؤها.

"إذن؟"، أجابه محيي الدين باللغة الكيباجونية. "هل سيحسّن هذا الثروة السمكية؟".

لم يكن يقصد أن يكون فظًّا؛ كان فقط يحاول أن يفهم ماذا تعني "كينيا".

بقي والد زوجته يحاول أن يغيّره على مدى عامين إضافيين قبل أن يستسلم ويجد عريسًا أفضل لابنته، كان قريبًا وأرملًا وتاجرًا محترمًا من اليمن. عندها، نظّم العمّ رحلة صيدٍ فجرًا مع محيي الدين. خيّم قرب قارب المحيي الدين منذ منتصف الليل، بانتظاره. "هيا بنا"، قال لو حين أتى. في منتصف البحر، أخرج هارون مغلّفًا احتوى ثمانية آلاف شلن ورسالة تعريف به موجّهة لقبطان سفينة في مومباسا. ومقابل ذلك، ترجّى محيي الدين أن يطلّق ابنته – "كن رحومًا بحق الله؛ أنت فعلًا لا تستحق ابنتي ولا أطفالها" – وطلب منه أن يختفي تمامًا من المناطق المجاورة لساحل شرق أفريقيا إلى الأبد.

فكّر محيي الدين بالدفاع عن نفسه وبأن يفسّر لهارون أنّه كان يقرأ قاموسًا للكلمات الإنجليزية، وأنه يستمع إلى هيئة الإذاعة البريطانية على الراديو عبر ارتدادات الموجات القصيرة حتى في البحر. ولكن عوضًا عن ذلك، تنفّس الصعداء وزفر. لم تكن أيّ من جهوده لتجدي نفعًا، فهو لن يكون أبدًا بالنسبة لهم جيدًا بما يكفي. قال محيي الدين لهارون إنّه سئم من الجزيرة في جميع الأحوال، وإنّه تعب من مخططات الجميع لتحسينه وتغييره. أخذ المال، وغادر وهو يلعن الجزيرة وأهلها.

أخبر قبطان القارب الشجاع الذي ذهب برفقته إلى لامو أنّه يفضّل أن يصبح أخطبوطًا على الشاطئ قبل أن يعود إلى جزيرة بيت. ومع ذلك، بعد سنوات، عاد محيي الدين إلى بيت، وبدت له أصغر وأكثر رعبا وأكثر تقاعسا وعزلةً وحتى أكثر انشغالًا بالتفاهات. لقد استنزف إهمال كينيا للجزيرة على مدى نصف قرن الروح من الأرض، تمامًا كما امتصّت سفن الصيد في قاع المحيط الآتية من العديد من الدول شتّى أنواع الأسماك كالتونا والأسماك المرلينية من دون رقابة، تاركة فقط الفضلات للصيادين والأسماك المستنفدة. كانت معظم المحادثات التي تدور على الجزيرة الآن متعلقة بالرحيل – سواءً كان رحيلًا مخططًا له أو مأمولًا أو منفذًا.

الأشباح وحدها بقت مزدهرة في جزيرة بيت، تتزاحم مع السكّان من أجل حق الإقامة. وما بقي أيضًا مزدهرًا كانت تلك العوالم العائمة في الفضاء وتاريخهم وذاكرتهم وقصصهم – لهذه الأسباب عاد من تعثروا في طرقهم بعيدًا عن جزيرة بيت. ما بقي عالقًا كان أرق محيي الدين. لكن في تلك الليلة على فراشه، وسط الكآبة التي تداعت من منزله المرجاني اللون الذي كرهه يومًا ما، فكّر بأمرٍ لم ينتبه له قبل ذلك: وسط كل هروبه وسعيه وخداعه وفراره ومساوماته وعمله ودهائه وتساؤلاته وقراءاته وكذبه وتعلّمه وصراعاته وأفكاره ورؤيته وتذوّقه وسمعه ورحلاته، لم يكن هناك ما بدا بمثابة رؤية "للوطن" أو "للانتماء" حتى بزوغ ذلك الفجر الخفيف عندما لمح مخلوقًا صغيرًا يرقص وسط بحر جزيرة بيت المتلألئ.

[6]

بعد أسابيع، ضمن تلك اللحظات البرتقالية الخفيّة قبل شروق الشمس، استيقظ محيي الدين على صوتٍ مرتفعٍ ينادي "أيانا". كان ذلك عباسي، المؤذن الثاني. كان عباسي أشبه بشرطة أخلاقية مكوّنة من شخص واحد نصّب نفسه كما لو أنّه مطاوع سعودي – شرطي أخلاق -وربما كان ليعطي نفسه للوهابية لولا قلبه وتفانيه لقديسي جزيرته.

واليوم يبدو أنّ عباسي لمح رفيقة المحيط عند الضحى. ألقى محيي الدين شالًا أفريقيًا قديمًا ورماديّ اللون على كتفيه وترجّل على السلّم غير المتساوي حتّى أصبح في الخارج. سمع عباسي يصيح: "طفلة الأفعى أفعى أيضًا". كانت وقع كلماته قاسيًا. اندفع محيي الدين باتجاه باب منزله. كان عباسي يروّع الفتاة كغرابٍ متعطّش للأذى. إذ سمع محيي الدين صوت خطى، فتح الباب. كانت هناك. صغيرة ونحيلة ومتوترة، عيناها مذعورتان، كانت ترتجف والماء ينزل من قميصها الزهريّ اللّون المبلل الذي ارتدته فوق بنطلونها الأزرق الباهت. غطّت غرّتها المبللة جبينها، أنفها مقلوب، واحمرّت عيناها من ملح البحر، واختلط فيهما الخوف مع الشقاوة.

فتحت الفتاة فمها وأغلقته كسمكةٍ عالقة تقطعت بها السبل. "أيّتها المشاغبة"، اقتربت الخطى من الطفلة. انحنت. دلّها محيي الدين إلى منزله بينما تراجع إلى الخلف. أشار إلى خزانة خشبية محفورة — صُنعت في بومباي قبل أن تتحوّل إلى مومباي. كانت قد وصلت إليه عبر عُمان وكان الهدف الرئيسي منها أن تساعد في إخفاء الأغراض.

كان هناك رف عميق داخل الخزانة، حيث خزّن محيي الدين أفضل كتبه وعطارته وأزهاره، واحتلّت تجارب مزجه للبخور بالتوابل عدة أدراج. حافظت أربعة أجزاء خفية أخرى في الخزانة ما تبقى من أسراره. داخل الخزانة، كان هناك مقعد مخمليّ أحمر يتّسع لشخصين ليشكّل مخبأ مؤقت ومريح. اندفعت أيانا إليه واختفت داخل الخزانة. أغلق محيي الدين باب منزله وصعد إلى الغرفة ليقفل الخزانة. سحب مفتاحه الطويل وأغلقها، ثمّ رفع قبعته ووضع المفتاح في منتصف رأسه. عاد وعدّل القبعة. سمع محيي الدين صراخًا في الخارج: "اليوم سأقبض عليكِ". تبع الصوت طرقًا عنيفًا على بابه. أخذ محيي الدين وقته في فتح مزلاج الباب، متجاهلًا التوتر الذي شعر به في بطنه. كان هناك: عباسي الأحول ذو الأسنان الكبيرة يجلس القرفصاء.

"لقد كانت هنا"، صاح وهو ينقر على الأرض بعصا ملتوية. عندما مال لينظر، رأى محيي الدين خطى صغيرة تؤدي إلى الشرفة وإلى متجره تتلاشى في الرمال والماء. "معلم عباسي! السلام عليكم، يومٌ مشمس! من كان هنا؟"، سأل محيي الدين وهو يتحرك جانبيًا في حركة مثيرة للريبة، وضربت يده رفًّا مُثقلًا بالخرائط والمجلات والكتب. سقطت الكتب مثيرةً ضجيجًا وفوضى عند المدخل.

تنهّد محيي الدين. "آه آلاف الكتب تتلبسها العفاريت!". انحنى ليلتقط كتابًا، ثمّ أمسك بظهره عابسًا. "آه ظهري يؤلمني. أرجوك. ساعدني لالتقاط هذه الكتب بينما نتحدّث".

شمّر عباسي عن يديه النظيفتين، وحاول أن يسترق النظر من فوق كتف محيي الدين ليرى ما في داخل الغرفة.

"أتساءل... هل رأيت... هل رأيت...؟ بابو، سامحني، أود أن أساعدك... هل رأيت طفلةً ملعونةً، بهذا الطول؟"، قال وهو يقدّر طول أيانا بيده.

"ماذا؟ الكتب؟ هل تفهم... لولا ... نعم... هل تعرف فاروق؟ رجل اللوازم الزراعية... آه هذا ليس أمرًا جيدًا. لقد تمدّد الورم إلى رأسه". ثمّ اعتذر من محيي الدين وقال له: "يجب أن أذهب".

نفخ محيي الدين غبار غلاف كتاب آخر في وجه عباسي. هتف قائلًا: "هل يمكنك أن تبقى قليلًا فقط؟".

عطس عباسي وفرك عينيه ورجع أربع خطوات إلى الوراء. "تفهمني...". كان حازمًا في قراره، سارع في المغادرة ووصل بسرعة إلى منعطف الشارع.

عاد الصباح إلى سكونه السابق. كانت هناك رائحة البحر -نفحة من الأشياء المضيئة في الحياة. طائر ذو صوت منخفض النبرة ملأ الصباح بزقزقته! فتح محيي الدين باب خزانة بومباي، وقال: "يمكنك أن تخرجي يا عبيرة. لقد تبخر الرجل كجمل كسول لمجرد التفكير في العمل".

بعد أربع دقائق من الفراغ، خرجت مخلوقة صغيرة من باب الخزانة، قفزت، وركضت إلى محيي الدين. ركعت ولفت ذراعيها حول ركبتيه. "أنا أيانا"، تنفّست.

"أنا أعلم يا عبيرة". مرّت خمس ثوانٍ قبل أن يقول: "سوف أحبّك" — صرخت الصغيرة قبل أن تقفز فوق أكوام الكتب في طريقها إلى الخارج، وتهرع باتجاه زقاق ضيق حيث اندمجت مع الظلال الهزيلة.

[7]

ملأت فمها بأوراق الأزهار الزهرية اللّون وهي تعلك الورود الدمشقية، بينما كانت والدتها منيرة مستغرقة في أفكارها السرّيّة. تفحّصت الفتاة نظرة والدتها البعيدة وهي تتذوق الورد ومرارته. امتصّت ماء الورد من أصابعها، وتعاملت مع الرائحة كما لو أنّها ذوق، وتذكرت كيف كانت والدتها كانت تضع أحيانًا اثني عشر نقطة من ماء الورد في الشاي، وفي الحليب، ودائمًا في الحلاوة التي صنعتها.

بدت أفكارها المتسارعة كما لو أنّها ظلّ يلمع. في الكثير من الليالي، كانت الأمّ التي تصارع في شبكةٍ من الأمور المجهولة، تستدعي الفتاة إلى سريرها. هناك، كانت منيرة تخرج بخاخًا معدنيًا أزرق وطويل العنق، تخبئه تحت وسادتها، وترش ماء الورد على كلاهما ككفنٍ للصلاة. قبل أن تجد الفتاة طريقًا إلى لحظة الورود هذه، كانت تبكي. كانت ترغب في إصلاح أزمة وجودها الرهيب. استعادت ذكريات ذلك اليوم المتعب. في الصباح، خلال جلسة المدرسة الدينية، كانت التلاوة فجأة قد اخترقت جوهرها. مأخوذة بهذا الشعور، لم تكن على علم بالصمت التدريجي الذي راح يغمر الغرفة. لم ترَ المعلّم إدريس الذي يكون عادةً جامدًا ومستغرقًا في الرتابة يندفع وينهض مثل طائر الفينيق. ولم تسمعه يقول "سبحان الله" بألم.

لم تتوقع أيانا أن يضرب طرف عصا معلمها رأسها كي تستيقظ من غفوتها. أخفض المعلّم إدريس رأسه آنذاك، لكي يتفحّصها. عدّل عدسات نظارته والدائرية التي جعلت عينيه تبدوان كبيرتين، وسأل أيانا: "هل أنت جنّ؟". تسمّرت أيانا في مكانها، ولم تفهم سؤاله. نقر المعلّم بعصاه على جبينها. "فقط الأموات غير المقدسين يعوون كما فعلتِ؛ وحدهم الملعونون يستقبلون، أعذب الكلمات هذه، بمواء كهذا". أصدر حكمه: "سوف تتركين صفي. لن تعودي إلى هنا في أيّ وقت قبل أن أصدر مرسومًا بأنّي تعافيت من هذا الاعتداء". فرّت أيانا من الغرفة وهي تعبر بين الطلاب. بكت بغزارة، ثمّ قرّرت أن تتوقف عن البكاء. إنّها فتاة كبيرة!

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، عملت بجهدٍ مضاعف حتّى تقوم بكل ما أمكنها

لكي تكون "مثل" الآخرين: المشي بخطى واسعة مثل خديجة، قلب الكلمات في فمّها قبل أن تبصقها مثل عطية، رفع طرف شفتها العليا قبل أن تبتسم مثل ميمونة، وصيد السلاطعين في غابات المانغروف ومن ثمّ التبرّع بأفضل ما تجد للصبيان مثل سليمان. لكن في بعد الظهر ذلك، عاد والد عطية الذي كان في الخارج إلى الجزيرة ووجد الأطفال يلعبون في ملعبٍ قريب. بينما كانت فرح ومواناجوما ورحيمة ورقية يعدّن البذور، كانت أيانا تلعب بالقفز على الحبل. كان الحبل لعطية التي بدأت تتذمّر، فاقدةً الصبر لأن يحين دورها. صاح الأب بأيانا كما لو أنّها كلب ضال وصرخ: "يا ابنة الجرح". ثمّ شرع في كسر غصنٍ من الشجرة القريبة لتهديدها.

في البداية، ضحكت صديقات أيانا. ولكن بعدها بدأت فتاتان بالبكاء، من دون أن تفهما تحديدًا ما السوء الذي حدث. هربت أيانا، وهي تمزّق بخطاها الطريق القديم تحت قدميها. ألقت نفسها من الباب نصف المفتوح لمنزلها، ترتجف من الرعب الغيبي الذي حملته والذي أساء للآخرين، ولم يكن بوسعها إصلاحه.

في وقتٍ مبكر من المساء، عادت والدتها منيرة إلى المنزل، وهي تحمل سمكتين ومجموعة جديدة من الملابس الأفريقية ونبات عطري. عبرت العتبة وهي تنادي: "أيانا". لم يكن هناك من مجيب. كانت تعبر غرفة الجلوس للوصول إلى غرفة النوم حين رأت شكلًا مشوهًا لابنتها، متجمعًا على كرسيّ أزرق باهت. ألقت منيرة الأغراض التي حملتها واقتربت من الشكل. كان رأس ابنتها مضغوطًا على ألبوم صورٍ ذهبيّ رث، كانت تعض شفتيها بضراوة، ومن وقتٍ لآخر تفرك الرطوبة على وجهها. ركزت نظرة منيرة على الألبوم، وتذكرت مع الثرثرة المعتادة، الأشخاص الموجودين هناك، المجمّدين بالضوء، والغائبين عن حاضرهم، وربما عن مستقبلهم. لم تخبر ابنتها من هم هؤلاء.

بعد ذلك بوقت طويل، أخفت منيرة الألبوم مرة أخرى في زاوية مظلمة رطبة من خزانتها. كانت لا تزال عاجزة عن رميه بعيدًا، واستمرت تصلّي أنّ النمل الأبيض سيحلّه من أجلها. ركعت منيرة أمام أيانا، وسحبت الألبوم حتى غادر يد ابنتها. رفعت أيانا رأسها وحدّقت بنظرة أمها. تسمّرت عينا منيرة على مرأى عينيّ طفلتها المجوفتين، والحزن العميق الذي غمر وجهها -مستنقع أحزان الأجداد والجراح الموروثة والغياب. اختنقت قليلًا وهي تبحث عن الكلمة المناسبة. ارتجف صوت أيانا وهي تسأل: "أ-مّ-ي، أنا أيضًا لي أب؟".

صمتت منيرة.

"أين هم أهلنا؟".

أخفضت منيرة رأسها.

همست أيانا: "أمّي، ما اسمنا... اسم عائلتنا؟".

أغمضت منيرة عينيها وسمعت مرّة أخرى لعنة والدها التي أتت من قلبٍ مجروح: "لقد خسرت حقّك باسم عائلتنا".

كانت قد كرّمت حزنه وحكمه، وقبلت بترها من نسبها العميق والواسع الذي فتح لعدة قرون أمام أسرتها المجال للوصول إلى الأماكن والمساحات السرية في العالم. كلّ هذا انقطع. تمّ نفي منيرة وأيانا إلى اللامكان. أشارت أيانا وهي تدلّ إلى الباب باتجاه العالم: "هم... لا يريدونني أبدًا".

"من؟".

كانت منيرة تعرف الإجابة، لكنها سألت بجميع الأحوال.

"الناس الكبار".

"كيف؟".

داخل الطفلة، تقاطعت كل الاعتراضات على وجودها: حين قفزت على الحبل، قالوا لها توقفي. حين حاولت الصيد، طلبوا منها المغادرة. حين لعبت بالحصى، طردوها. حين جمعت الأصداف، قالوا لها اذهبي إلى المنزل. حين حفرت ديدان الأرض، قالوا لها اختفي. حين لعبت الغميضة... لم يصلها الناس الكبار حين احتمت داخل غابات المانغروف.

التفتت إلى والدتها وتجرّأت أيانا على طرح السؤال الذي خشته أكثر شيء: "هل أيانا سيئة؟". أمسكت نفسها، رافضة البكاء. حبست دموعها. واستمرت الطفلة كما لو أنّها تتلو جريمة: "السيدة أمينة... السيدة أمينة... تقول إنّ أيانا لعنة وجرح! أيانا جرح".

رمشت منيرة.

جرح. هذا القول. فكرةٌ من شدّة ما تكرّرت أصبحت واقعًا. تحولت هذه المخالب المألوفة الآن للبحث عن ابنتها كذلك. بعد أن شاهدت منيرة ضوء النور من عيني طفلتها، شعرت منيرة بأن أحزانها تطفو. في تلك اللحظة، كانت ستستسلم لروح الجن الأولى ذات الريش الرمادي التي يمكن أن تعلمها كيفية تجنيب ابنتها اضطراب الألم الموروث.

امتصّت منيرة غضبها. رفع قبضتها وذقنها بتحدٍّ. كان لديها قوة الكلمات: استدعت اسمًا آخرًا، اسمًا مستحيلًا وهائلًا. كان صوت منيرة قاسيًا. "لدينا اسم". توقفت مؤقتًا. "القمر" - ترددت - "أعطاه لنا". همست الآن. "اسم السماء. نحن لا نقول ذلك بصوت عالٍ، إلا في الليل، خشية أن" -أشارت إلى العالم الخارجي بذقنها -"يأخذوه منا". اتّسعت عينا أيانا، كما لو أنّ الوضوح تجلّى وأيقظ ضوءهما. كانت فيهما لمعة. "اسم سماء؟"، همست. "ما هو؟ ما هو؟".

غصّت منيرة بطابة الملح التي علقت في حلقها، لعنة أرادت أن تبصقها في وجه العالم. نطقت بالكذبة وهي تنظر إلى عينيّ ابنتها. "الجبار". ردّدت العبارة كما لو أنّها تزرعها في روح أيانا من خلال أذنها اليمنى. "الجبار". كوكبة كاملة. "هذا هو اسمنا، سرنا"، تمتمت منيرة. كانت أيانا تضغط على كفيها معًا، تفكر في روعة هذا. تنامى الشعور في داخلها، حتّى شعرت بالدفء في قلبها ورفعت رأسها إلى الأعلى. لم تتوقّف عن النظر صوب السماء ذلك المساء. أمسكت عندها منيرة بيد أيانا اليمنى، وشدّتها نحو قدميها، وقالت بصوتٍ ادّعى البهجة: "هيا يا لولو. تعالي نتعقّب الورود يا لولو". تنفّست أيانا الصعداء.

البحث عن الورود، استعارة الورود، الروائح التي تنزف من الحنان. لقد سعت نظرة منيرة القلبية إلى الجمال لأن الروح المجففة تشتهي المياه. متطلعة إلى المحبة، بنت الألوان حتّى أصبح الأخضر أكثر خضرة كما يجب أن يكون. كانت تثق في الرائحة. كان لها وجود غير مفلتر، وبالتالي حقيقي. زرعت الأزهار والأعشاب، اعتنت بها وداعبتها بكثرة حتّى كشفت النباتات عن جوهرها الحقيقي بعطورٍ مثالية أيقظت طريقة معيّنة من الرؤية. كان الاعتناء بالنبات أيضًا من نشاطات أيانا المفضلة لإضاعة الوقت، بالإضافة إلى عد التموجات على البرك والبحر، وتوقع حدوث العواصف، ومشاهدة الصخور في البحر تتحول إلى الظل قبل غروب الشمس، ومصادقة القطط الصغيرة بأعين كبيرة.

وضع ميل القطط على الاختفاء مع بداية المد والجزر أيانا في دائرة من المودة والحسرة وعودة المودة مرة أخرى. التقطت منيرة وأيانا بتلات صغيرة من شجيرة الورد البري الملتفة فوق المقابر القديمة. كان ازدهارها غير منتظم -في بعض الأحيان مضيئًا للحلاوة، وأحيانا أخرى مظلمًا للتطهر. جمعتا البتلات وحلمتا بماء الورد. غسل ماء الورد العار، وملأ شقوق الأحزان، وغسل الذنوب. خفّف ماء الورد من المخاوف والأشواق. عادت منيرة وأيانا إلى منزلهما المرجاني اللطيف مع ما جمعتاه من الورد. غسلت منيرة قدرًا حتى تتمكن من غلي الماء لنصف الورود.

نظرت ثلاث مرات إلى أيانا، طفلة الهجر، طفلة الضياع، ثمرة الأحلام الكاذبة.

وصلت المياه إلى درجة الغليان. أخفضت منيرة رأسها، لتتصل بجبين أيانا. التقت أعينهما، وتداخلت رموشهما كما لو أنّ روحيهما الرقيقتين تتلامسان. بدأت المياه تبرد. تنهّدت منيرة. "لولو، ضعي نصف البتلات في القدر، واحدة تلو الأخرى". قامت أيانا بما طُلب منها، وهي تضع كل وردة وتحرّك المياه. لاحظت أنّ أمّها انشغلت عنها، مركّزة نظرها إلى البحر، دسّت أيانا ورقة ورد في فمها، فأحرقت أصابعها من الحرارة. نظرت إلى أمّها، ثمّ عادت لتراقب البتلات تستقر في الماء، والتقطت واحدة لتأكلها. في قدرٍ آخر، كانت بتلات الورد الأخرى في الانتظار. في وقت لاحق، نزفت هذه البتلات جوهرها في زيت جوز الهند النقي، لتقطيرها إلى إكسير مكلف لخدمة عمل منيرة، وكان ذلك لتغطية النساء بالجمال، حتى أولئك اللواتي وصفنها بأنها عاهرة عطرة.

[8]

بعد ظهر أحد أيام الأحد، مشى محيي الدي قرب الواجهة البحرية، يصفر ويرجح بيديه أربعة أسماك طازجة اشتراها للتو. رأى أيانا تجلس القرفصاء تحت شجرة اليلانج القديمة والمنحنية. كان هناك ثقب ضحل في التراب أمامها، وأسندت أصابعها على رخام مزرق متقطع. ابتسم، وكان ليكمل مسيره لو لم يسمعها تنشهق بالبكاء وتحاول مواساة نفسها: "لا! أيانا، مهما جرى، لا تبكي".

محاطًا بأصوات بهجة الأطفال الذين يلعبون بعيدًا، والتي ارتدت أصداؤها في جميع أنحاء الأرض، ألقى محيي الدين الأسماك قربه بحذر قبل أن يركع أرضًا. تظاهر بتجاهل أيانا، نظر حوله ورأى حصاة سوداء بيضاوية، حفرها خارج الأرض. نظرتها. ثاقبة. لا ترفّ.

في نهاية المطاف، سحبت أيانا ببطء شديد رخامًا أحمر لامعًا من جيبها وأعطته له. أخذت الحصاة السوداء من يده ووضعتها في جيبها. مسحت وجهها بأصابعها المغبرة والملطّخة ببقع من الطين. رفع محيي الدين إصبعه، عضّ لسانه بأسنانه، ضيّق عينيه وترك

حجر الرخام. أخطأ الحجر هدفه بمترٍ كاملٍ تقريبًا. كانت ابتسامة أيانا تعود ببطء. ثمّ ارتسمت كاملةً على وجهها. تبخّر بؤسها. لعبا بالحصى لما يفوق الساعة، يضحكان على كلّ شيء وعلى لا شيء. من خلال أسئلته المبطّنة، اكتشف محيي الدين أنّ بعض الأطفال أبعدوها عن مجموعة اللعب. قالت درّة إنّ عددهم فاق ما تحتمله اللعبة وعلى أحدهم أن يغادر، فاقترحت ميمونة أيانا. اعترضت فطومة أنّ هذا أمرٌ غير عادل وأنّ عليهم تداول الأدوار وانتظار أوقاتهم ليلعبوا. لكنّ سليمان دفع أيانا أرضًا. وقعت وارتفعت ساقاها في الهواء، وضحك الأطفال لمرأى لباسها الداخلي. كان الشعور بالإذلال ما جرحها. التقطت ثلاثة حصوات وهربت بعيدًا.

استمرّ صوت الطرق يحفر في حلم محيي الدين الذي أتاه بعد منتصف اللّيل. استغرقه الأمر ست دقائق أخرى ليفهم أن الطرق الآن كان يأتي من بابٍ فعليّ ليس في أحلامه. فتح عينيه. استمرّ الطرق عنيفًا. نهض من سريره منزعجًا ومتأففًا، لفّ لباسه على خصره ومضى باتجاه الطابق السفلي، متعثرًا على الدرج، وجرح إصبع قدمه الكبير.

صرخ: "اللعنة!".

بينما جرّ قفل المنزل جانبًا، علق جلد إبهامه بين المشابك وعوى مرّة أخرى. فتح الباب على مصراعيه وشعر أنّه جاهز لارتكاب جريمة. كانت هناك مرّة أخرى. فتاةٌ صغيرة، تنتقل من القفز على قدمها اليسرى إلى القفز على قدمها اليمنى، لمعت في عينيها نظرة ملحّة في ليلةٍ لا يزال القمر الباهت الموشك على الغياب يضيئها.

"تعال وانظر".

أمسكته من ذراعيه في محاولة لجرّه إلى الخارج. صاح حائرًا: "ماذا؟"، لكنّه تبعها. "هيّا بسرعة"، قالت له. هل هناك أمر طارئ؟ ركض خلفها. سبقته بخطوات وبقيت تنظر إلى الوراء. أشارت له بيديها أن يسرع. ربما ثمّة ما حدث لأمّها. تساءل عمّا إذا كان يجب أن يحمل الضمّادات.

وصلا إلى رعن. تحتهما، تضخم المد. أعطى النسيم البارد صوتًا للمخلوقات الليلية – ردّت على ألحانه الزواحف غير المرئية برتابة. ملأ الياسمين الليلي الهواء، والسماء قذفت أضواءها فوق الأبدية، وانتشر الشرر الأبيض والأزرق والأصفر والأحمر في السماء، منعكسًا في المرآة السوداء للمياه.

حاولت الطفلة التي كانت تمسك بذراع محيي الدين أن تهمس وهي تشير إلى القمر في السماء: "من كسر القمر؟". كان صوتها قلقًا ومضغوطًا. التفتت لتنظر إلى وجهه كأنّه من المؤكد أنّه يعرف، كما لو أنّها ظنّت أنّ هناك ما يمكن أن يقوم به إزاء العبث بالقمر.

تفحّص محيي الدين الأرض، رأى سماء الليل كما لو كان يراها لأول مرة. "من فعل ذلك؟"، كانت تمسك وجهه كما لو كانت الإجابة الأكثر أهمية في العالم. كذب محيي الدين، لأنه لا يريد أن يبدو عاديًا في ضوء الجوع الذي يعرفه في عينيها الكبيرتين. كذب لأنه لم يؤمن. قال محيي الدين: "الأبديُّ". "سبحانه وتعالى"، قال: "يهدّم ليجدّد".

كرر عبارة "سبحانه وتعالى" لمشاهدة ملامح الدهشة تستحوذ على وجهها. نقل دهشتها إلى ملامحه، وجلسا معًا يراقبان السماء وغيوم اللّيل الهائمة والنجوم المسافرة. "اقرأ"، قالت وكلتا يديها منبسطتان نحو السماء. انتظر. "اقرأ أكثر"، أمرته. لكنّه كان قد نسي كيف. بعد أن اعتاد أن يتجول في مسارات عشوائية كما كان حاله، فقد طريقه. لذا راقبا السماء. مالت أيانا برأسها إلى الخلف، أغمضت عينيها، ثمّ فتحتهما، وسألته: "والمحيط، ماذا يقول؟". استمع محيي الدين: "من أنتِ؟"، ترجم لها ما قاله المحيط: "من أنتِ؟".

صرخت للمياه في الأسفل وهي تتكئ على الحافة: "أنا أيانا! الآن أنت".

تمتم: "أنا محيي الدين".

صاحت: "بصوتٍ عالٍ!".

"أنا محيي الدين!"، رفع صوته إلى الريح والأمواج. ضحكا. راقبا السماء. سمعا البحر يسأل: "من أنت؟"، وفوقهما، راقبهما القمر المكسور.

التفتت وأمسكت بوجهه مرّة أخرى، كان تريد أن تقول شيئًا، لكنّها نسيت ما أرادت أن تقول وهي تتفحّص وجه محيي الدين. "لقد دخل جزء من نجم إلى عينيك". مدّت إصبعها وسألته: "هل يمكنني أن أتلمّسه؟". لم تنتظر أن يجيبها بنعم أو لا. لمست الدموع، أجزاء النجمة التي لمحتها. جلسا على حافة الرعن، رجلٌ مسنّ وفتاة صغيرة، يتجسّسان على النجوم ويشهدان عبور الغيم. بينما أشارت إلى السماء، رأى بلدانًا ما بين النجوم وسمع صمتًا بين المد وتدفق المد. جلسا على الحافة واستمعا إلى الريح، الرجل والفتاة، وبدا تدفق الحياة محدّدًا بغصن صغير تقطّع من الشجرة. في أفق المحيط البعيد، شقت سفينة ضخمة طريقها، محدثةً ظلًا عملاقًا خفيفًا. همست أيانا: "إلى أين تذهب هذه السفينة؟". من دون

وعي، قرّب محيي الدين الفتاة إلى جانبه. أجابها: "إلى المنزل".

تمتمت: "أين المنزل؟".

"في مكانٍ ما. في مكانٍ ما"، أجابها محيي الدين.

غفت الفتاة وهي مستندة إلى جسده، مغرقة وجهها فيه. استمع إلى أنفاسها وراقب النجوم واستمع إلى صوت المحيط، بينما غرّد له عصفور. استمع إلى البحر لمدّة طويلة قبل أن يشرق الفجر على أيانا ومحيي الدين اللذين كان يجدر أن يكونا في سريريهما. متردّدًا وخائفًا من أنّها هي وأحلامها قد تتبعثران بين يديه، انخفض إلى الأسفل حتّى يحملها. حملها ومشى بخطى بطيئة. حين وصل إلى الباب الأمامي، وقف هناك عابسًا. لو طرق على الباب، سيورّطها في المشاكل. لذا همس: "يا طفلتي". فكرةٌ في غير مكانها. صرفها عن ذهنه. "عبيرة"، ناداها محيي الدين. تحرّكت، تثاءبت ورأته. حين أدركت أين أصبحا، سألته: "هل حملت أيانا؟ هل أحضرت أيانا".

"نعم يا أيانا".

"الآن سأذهب"، قالت له. "لا تخف".

وضعها أرضًا.

أمرته بالانتظار: "لا تذهب حتّى أصبح في الداخل".

راقبها محيي الدين حين أصبحت على بعد خمسة أمتار تقريبًا. رفعت ساقها ووقت عند حافة النافذة ورفعت الساق الأخرى لما بدا نافذة أخرى. قفزت في الهواء وتمسّكت بأنبوب مياه وهي تتسلق إلى النافذة العالية. دخلت منها. وسرعان ما أطلّت عليه يدٌ تلوّح له الوداع قبل أن تختفي. في مكان ما على بعد، صاح ديك. وبصرف النظر عن تنفس محيي الدين الناعم والمذهول وصوت الأمواج المتواصلة، عاد كل شيء هادئًا مرة أخرى.

[9]

كان بطول إصبعها الأوسط وبرفع إبرة خياطة أمّها الأكبر. رأسه أصفر ذهبيّ وأحمر، وهناك احمرار داخل عينيه. كان صدره الصغير زيتونيًا وبنيّ اللّون، وكان بإمكانها أن ترى الطاولة من خلال جناحيه بلونهما البرتقالي الباهت. طلب محيي الدين من أيانا تكرار اسمه بأربع لغات مختلفة: "اليعسوب". كرّرت أيانا: "اليعسوب". ضمّت يديها وضغطتهما ببعضهما البعض. سألته: "لماذا بأربع لغات؟".

همس لها محيي الدين: "لكي تشعري بجوهره، يجب أن تتذوقي اسمه على لسانك بثلاث لغات على الأقل". بدا محيي الدين جادًا في تعابير وجهه، التي انعكست على وجه أيانا.

مستلقية على بطنها بالقرب من غابات المانغروف، انتظرت أيانا معظم الظهيرة حتى يظهر اليعسوب المناسب. لم تذهب هذا اليوم إلى رصيف المراكب لانتظار العائدين ومراقبتهم. عندما هبط اليعسوب على غصين، زحفت وطاردته حتى التقطته. التف على شكل كرة لولبية ليلدغ إصبعها، لكنّها وضعته داخل أحد أطباق والدتها الصغيرة التي لها غطاء. بخطواتٍ بطيئة، أمسكت أيانا الطبق وذهبت به إلى محيي الدين.

كان يقرأ أحد كتبه حين ظهرت عند بابه قبل ساعةٍ من الضحى، ونادت: "جدّي... بابو". ردّ عليها مرتبكًا: "مرحبًا". دخلت إلى حياته وهي تشعر بأنّ أحدًا لا يريدها، غير مرغوب بها، حاملةً قلبًا هشًا في عينيها الكبيرتين، قدّمت له كلّ هكذا من دون أن يطلب شيئًا. قالت: "لقد وجدته، من أجلك". بانت البهجة بوضوحٍ في عينيها. وضع الكتاب جانبًا. وتنهّد: "أوه؟". "أنظر"، قالت له. بتردّد، أخذ محيي الدين الوعاء. فتحه ووجد اليعسوب في الغيبوبة. كان لا يزال مذهولًا حين مدّه على سطح الطاولة المنخفضة وجثم قربه ليتمكّن من النظر إليه بشكلٍ أفضل. انحنت أيانا إلى الأمام وأمسكت بكتفيّ محيي الدين. وضعت قدمها اليمنى، وقد ارتدت نعالًا أحمرًا على قدمه اليسرى. سألته: "أعجبك؟".

"هذا الحضور المضيء. طبعًا. شكرًا لك".

تأرجحت أيانا جيئةً وذهابًا: "لقد وجدته أنا، أنا وحدي".

راقبا المخلوق معًا، ثمّ راقبت هي محيي الدين. تذكّرت أمرًا آخر: "لقد عضّني هنا". أرته

إصبعه، فلمسه محيي الدين، وعضّ على شفتيه. "لقد كان خائفًا".

"لماذا؟".

"إنّه صغير جدًا وعبيرة كبيرة جدًا. هل ترى؟".

أدمعت عينيّ عبيرة على الفور، وهمست له: "أردت فقط أن أعطيك شيئًا جميلًا". توقّفت قليلًا عن الكلام، ثمّ تابعت: "أيانا ليست سيئة، لم أرد أن أخيفه أبدًا". هزّت رأسها. شعر محيي الدين بتشنج ناعم ودافئ على صدره. عبيرة. ارتبك ولم يعرف كيف يتصرّف. ثمّ طلب منها أن تردّد اسم اليعسوب باللّغات الأربع. بعد أن فعلت ذلك، كانت تحمل سرًّا آخر لمحيي الدين. تنهّدت، وعضّت شفتيها. أمسكت معدتها وتنهّدت مرّة أخرى. لم يرغب الناس الكبار يومًا بالاستماع لما لديها لتقوله. نقروا ألسنتهم. قالوا إنّها أشبه بصفيح نصف فارغ لا يتوقف عن الهز. شاهد محيي الدين تغير الحالة المزاجية على وجه أيانا الصغير، ورأى كتفيها يرتفعان كما لو كانت غاضبة، ثم أنزلتهما، تاركةً سؤالًا لم تنطق به يتدلى على شفتيها. ابتلعته ووضعت وجهها على الطاولة وعيناه بموازاة اليعسوب المتحرك ببطء. أدارت بعدها عينيها الكبيرتين باتجاه محيي الدين.

لا تتكلمي، أراد محيي الدين فجأة أن يترجاها. ابتعدي أو ارحلي. لكنّ صوتًا داخليًا آخر قال: ماذا يا عبيرة؟

صمدت أيانا لمدة خمس عشرة ثانية. ثم نهضت الطفلة فجأة، كأنّها اتخذت قرارها. نظرت إلى محيي الدين. كان صوتها حازمًا: "أنت الآن والدي". ثم انفجرت في البكاء، ارتجف جسدها من صدمة سماع كلمات تشوقت لها بصوت عالٍ.

"أوف!"، قال محيي الدين بوجع كما لو كان له ثقبًا في المعدة. يا لتلك الكلمات! رجع إلى الخلف، ثم وقف بلا حراك. كانت أذناه تطنّان وأفكاره تتدفّق. لقد سافر لفترة طويلة وحيدًا، ولم يتمسّك يومًا بشيء. اعتاد على المغادرة. لم يطالب به أحد من قبل. كانت تبكي، وكتفاها يرتفعان. انحنى ليفهم ما جوهر هذا، ما طبيعة الكلمات التي يمكن أن تمزق قلب رجل كبير في السن.

الطفلة. يعسوبها. هذه الكلمات. بكت، مجردة، كما لو أنها فقدت كل شيء.

لذلك، مدّ محيي الدين يديه ليمسك بيد أيانا الصغيرة بينما شعر بأنّ جسمه كلّه ينذره من هذه العلاقة. هذه الطفلة. يعسوبها. أيدٍ متشابكة. كانت يداه أكبر وأكثر حكمة.

خشنتان ومشعرتان ومعقودتان، ومحفوفتان بذاكرة الأشياء البذيئة والفاحشة التي سعى إليها ولمسها. سحبهما بعيدًا عنها. هذه الطفلة. دموعها. لامست يداه رأس الطفلة الباكية. تمتم محيي الدين: "هيا يا فتاة. هيا يا عبيرة". غصّت أيانا بدموعها لكي تتوقّف. ابتلعت نفسها. نظرت إلى محيي الدين. مال برأسه. ألقت بنفسها عليه بالكامل، متشبثة بعنقه، يداها على وجهه. داخل محيي الدين، ساد الانتظار والتساؤل. كانت تتحدث عن شيء وتضحك وأنفاسها الدافئة على رقبته. اندفع سائل ما داخل جمجمته. كان يكافح من أجل التنفس. كانت تغيره. كان يشعر بنفسه يتغير. قالت شيئًا آخر. لا بدّ أنّه كان سؤال. توقّفت بنبرة عالية، ثمّ صمتت. هذه الطفلة. في ذراعيه. تتنهد وتنجرف إلى النوم. تنهد هو أيضًا. التفت رأسه في الوقت المناسب لرؤية اليعسوب الأحمر العينين يقظًا في حالة تأهب، يزحف إلى نهاية طاولة صغيرة، ينشر جناحيه، ويطير بعيدًا من خلال نافذة مفتوحة. امتزج مع لمسة المساء الحمراء التي سادت في الغرفة.

تعلّم أن يميل دائمًا حتّى يصل إلى مستوى عينيها. لقد توقعت منه ذلك: محادثات مباشرة. كانت بحاجة لرؤية كل شيء توحي به روحه. حافظت على عهدها: أحبته كما كان. أخبرت أيانا الجميع -باستثناء والدتها -أن محيي الدين أصبح الآن والدها.

[10]

في الفجر التالي، وهي ترتدي زيّها المدرسي وتحمل حقيبة مدرسية قماشية ممزقة، ظهرت أيانا عند باب محيي الدين. "أنت تدرسني"، قالت أيانا. "اذهبي بعيدًا"، قال محيي الدين. "اذهبي إلى المدرسة". أغلق الباب بوجهها. عندما خرج بعد ساعتين، كانت أيانا لا تزال هناك. "ماذا تريدين؟"، صاح بها محيي الدين. "أن تدرّسني أنت". كانت نظرتها واضحة.

"اذهبي إلى المدرسة".

"لا! المدرسة سيئة".

"أنا ذاهب إلى لامو".

"أنا قادمة معك".

"لا، لن تأتي".

"أنت ستدرّسني".

"لا. انظري... سوف يفوتني المركب".

تبعته أيانا وهو يهرول باتجاه محطة ماتاتو، ويصرخ للآخرين لإيقاف الشاحنة من أجله".

"اللعنة! لقد تأخرت بالفعل".

حين عاد محيي الدين ذلك المساء، وجد خطوطًا رسمتها أيانا بالفحم ومنحنيات وأشكال ومعادلات رياضية على طول الدرجات المؤدية إلى بابه. انتظرها محيي الدين في اليوم التالي حاملًا قطعة قماش ودلو من الماء والصابون. ظهرت مع مخلوق أبيض قذر هزيل يتخبط على كتفيها. حدّقت إلى ملامحه الغاضبة. قالت بصوتٍ يرتجف: "هل فعلت أيانا أمرًا سيئًا؟".

هدأت تعابير محيي الدين. "لا. فقط الوسيلة كان خاطئة".

وضعت القطة أرضًا.

سألته: "ماذا يعني الوسيلة؟".

قال لها: "سأريك عندما تكون أحجاري نظيفة مرة أخرى".

بعد أن انتهت من تنظيف الحجارة، أحضر محيي الدين عدّة الخط. كانت لديه النية يومًا ما باكتشاف الفروقات بين النقض وخط الثلث. أعطاها الكتب ومجموعة من الأوراق البيضاء. أخذتها أيانا وسألته: "هذه لي؟".

عبس محيي الدين. "الآن يمكنك أن تنغمسي في الكلمات التي تحبينها. على الأقل حاولي أن تجعليها جميلة"، قال بلهجة جزيرتهم. انغمسي: كلمة التقطتها أيانا. لذا تقريبًا عن طريق الخطأ، بدأ محيي الدين بتعليم أيانا أهمية كيف ومتى ومن؟ طلب منها أن تنقل أسئلتها واستفهاماتها للكتب، مسترجعة واحدة أو أخرى من وسط فوضى مظلمة. قرأ لها كتابات حافظ الشيرازي.

سألته أيانا: "ما معناها؟ في ثلاث لغات؟".

طلب منها أن تكتب إجاباتها بكلماتها الخاصّة، وقال لها إنّ ذلك أفضل من

التحدث بثلاث لغات.

قال لها محي الدين: "الكتب بمثابة رُسل من عوالم أخرى". "عندما تعبرين هذه العتبة، ستتكلمين بالإنجليزية"، قال لها كلمة العتبة باللغة الإنجليزية، وهو يتّخذ دوره الجديد كمعلمها بفرح. فهمت إنّ الكلمة التي قالها تعني العتبة باللغة السواحلية. كلمةٌ أخرى لتحفظها.

سألته: "لماذا؟".

تنهّد محي الدين: "هذه قواعد المدرسة".

هزّت أيانا برأسها. استمرّ محي الدين بالكلام: "في هذا العالم، الإنجليزية تحظى بأكبر آذان".

سحبت أيانا أذنيها وهي تفحص حجميهما. ثمّ أخبرها محي الدين أن كلمات العالم كانت في متجره وتتآمر لتشكيل عبارة مثالية واحدة، قد يمكن أن تحتوي على معنى الحياة. صدّقته أيانا.

"هل تتنتهت؟ الكلمة؟ هل تمّت؟".

صحّح لها محي الدين: "انتهت".

"نعم".

قال محي الدين: "لا لم تنتهِ. قولي هل انتهت؟".

ردّدت "انتهت" وهي تمشي على رؤوس أصابعها باتجاه الغرفة الممتلئة بالكتب.

مال محي الدين برأسه للاستماع، ثم هز رأسه. "متى؟" - همست. قال محي الدين لأيانا أن تترك سؤال "متى" للصمت. عادت إلى منزله في اليوم التالي والذي بعده. في غضون شهرين كانت تهرع إلى منزله عند الفجر لتخبره عن شخصيات في كتب القصص التي قرأتها، ما الذي فعلوه وفكروا به، وشبّهتها له بأرواحٍ أقرب إلى صداقات يمكنها التفاخر بها.

نهلت أيانا كلّ ما قدّمه لها محي الدين. "أين مكانكِ؟"، سألها في أحد الأيّام وهو يريها خريطةً ممزّقة. "لا أعرف". أشار لها إلى نقطة في الخريطة. حدّقت إلى أصبعه وتلته بإصبعها. "هنا"، كرّرت وراءه. "جزيرة بيت: فازا، بات، سيو، كيزينجيني... وشانغا"، ردد محي الدين. أربكت النقطة التي أشار إليها في الخريطة أيانا. كانت أفكارها مضطربة. كاتن أيانا مروعًا بالمكان الذي أشار إليه إصبعه. اضطربت أفكارها. كان هناك لغز في فكرة أنّ جزيرة كاملة

بسكّانها يمكنها أن تُختزل بمكانٍ على صفحة.

مدفوعًا بجوع أيانا للمعرفة، حضّر محيي الدين الدروس في وقتٍ مسبق وأعاد اكتشاف أشياء جديدة بنفسه: الرياضيات الكلاسيكية الأساسية والجغرافيا والتاريخ والشعر وعلم الفلك، كما رصدتها اللغات السواحلية والإنجليزية والبرتغالية والعربية والفارسية القديمة وبعض الكجراتية. أرادت أيانا دائما أن تعرف عن البحر. كانت تسأله كل يوم: "كيف تقرأ الماء؟".

في أحد أيام الجمعة، التقطت أطلسًا لتكتشف مرة أخرى أين كانت في العالم. على الخريطة التي نظرت إليها، لم يكن هناك علامة مكان لجزيرة بيت. لا لون بني أو أخضر اللون للإشارة إلى وجودها داخل البحر. لذلك أرادت أن تعرف عن الأماكن التي يمكن أن تصبح غير مرئية. أخبرها محيي الدين مرّةً أنّ أفضل وأكبر جبال الأرض تعيش تحت سطح البحر. فكّرت أيانا بذلك، وشعرت فجأة أنّها امتلكت البصيرة.

سألت محيي الدين: "أين كنت أنا قبل ولادتي؟".

أجابها: "في مكانٍ ما".

"أين هذا المكان ما؟".

وضع محيي الدين إصبعه على شفتيه.

همست له: "الصمت؟".

كتم محيي الدين ضحكته.

"أين...؟".

التفتت إلى محيي الدين.

"صهههه"، أخرسها.

انتظرت. بعد ذلك فقط، شرح لها محيي الدين أنّ الأسئلة عن الأماكن خطيرة وصعبة. الأماكن يجب تجربتها، وليس أبدًا، أبدًا، تفسيرها.

جسّدت الموسيقى ما لم يتمكنا من العثور عليه في الكتب. دروس الموسيقى المسكونية. الراي الجزائري والموسيقى البنغالية وآلات الكورا الموسيقية وسيمفونيات غلام -رضا منباشيان ومهدي حسيني، وكل نوعٍ من الطرب تمكّنا من الوصول إليه. لا موسيقى معاصرة، قال محيي الدين لأيانا، معتبرًا أنّها من بقايا صراخ إبليس واضطرابه. هكذا اكتشفا مدى الموسيقى.

عند سماعها لحنًا، كان أيانا تصرخ: "ماذا تغني؟" أو "تقرأ"، وهي تضغط بقبضات مشدودة على قلبها، حيث تتصاعد المشاعر الموسيقية لشخص غريب. في منتصف الظهيرة، أحد أيام الثلاثاء، أعاد محيي الدين قراءة شعر حافظ. أولًا في اللغة الفارسية المكسورة، تلاه بترجمته باللغة: "يا قلب، لو صادفت نور الطهارة فقط، مثل الشمعة الضاحكة، يمكنك أن تتخلى عن الحياة التي تعيشها في رأسك....".

سألته: "ماذا يقول؟".

"يومًا ما ستعرفين. اليوم استمعي فقط".

تحدّثت أيانا إلى الكتب التي قرأتها والتي عاش بعضها تحت وسادتها. "أنت اجلس هنا. اختبئ. إنّها قادمة". في معظم الليالي، قرأت أيانا تحت ملاءاتها مع مصباح يدوي لفترة طويلة بعد أن تمنّت لها أمها ليلة سعيدة.

أثناء وجودها في متجر محيي الدين داخل منزله معظم اليوم، شاهدت أيانا أيضًا العلاجات دون وصفة طبية للأشخاص الذين همسوا لمحيي الدين باحتياجاتهم من خلال النوافذ المغلقة، وطلبوا المساعدة في الحب والأمل والخصوبة والسلام والقبول والرحمة والثروة والصحة.

قالت له أيانا: "علمني".

"لا".

"بلى، بلى، بلى".

تنهّد: "إذن راقبيني".

راقبت أيانا محيي الدين وهو يستخرج الحياة الداخلية للبذور والفواكه والجذور واللحاء والتوت والأوراق المكسرة والبتلات المحطمة. رأته يمزج اليانسون والريحان والبابونج والكمون والفلفل الحلو والفلفل الحار والنعناع والزنجبيل والكافيين والبرتقال والقرنفل. أخبرته لاحقًا أنّ والدتها تعمل بالأزهار والماء والزيوت، وأنّ على سطح منزلهما توجد بتلات الياسمين البيضاء الصغيرة -التي تم جمعها في الليل وغرقت في الماء المقطر -لتعطيهما جوهرها تحت الشمس. سألته عمّا إذا كان قد سبق وأكل بتلات الورد، وفي اليوم التالي أطعمته أربعة. أخبرها أن الوردة كانت نبيّة بين الزهور، وأنه عندما تمّ خلق الأزهار، تمّ إرسال الوردة لإغواء قلب الإنسانية لله. ثم أظهر محيي الدين لأيانا كيفية تجديد القلب المتدلي للأعشاب مع قطرة من زيت الورد.

قرّر محيي الدين تجميع الأجزاء المبعثرة لجهاز التلفزيون شبه الملون، والذي كان لا يزال مرتبطًا بجهاز الفيديو المنزلي في إتش أس القديم، لإعداد درس لأيانا. فتّش بين هرم من الكتب، عليه طبقة من الغبار تكاد تكفي لنمو حديقة عشبية، واسترجع مقاطع الفيديو المفضلة لديه. في هذه الدروس الجديدة، اكتشفت أيانا بوليوود، تمامًا كما كان اكتشفها محيي الدين قبل ثلاثة وعشرين عامًا. فيلم "هاثي مير ساهي – صديقي الفيل". شاهدته مرّة. مرتان. أربع مرات. أعاد محيي الدين تشغيل الشريط. غنّيا مع كيشور كومار. ردّدا كلّ يوم: "تعال نمشي يا فيلي، يا صديقي". بدا صوت محيي الدين أشبه بضفدع ينعق داخل أنبوب صرف مسدود. لكنّ هذا لم يمنعهما من الغناء. رقصا. غنّيا: "هاي هاي أوهو هو."

بعد مرور أسابيع، وبعد أن أصاب محيي الدين التعب من رغبة أيانا المستمرة والملحة للمعرفة، وافق على تعليمها ما يعرفه عن البحر. غادرا عند الفجر، ليختبرا كيف، بالإضافة إلى استخدامها حواسها من ضمنها حاسة اللمس، يمكنها اكتشاف أبعادٍ أخرى في السائل، مثل المكان والفضاء والخلود؛ كيف يمكنها أن تعرف مزاج المياه، وتكتشف بعض نواياها؛ كيف تستشعر العيون الداخلية. في عالمها المائي، في المحادثات مع الماء، والشعور بالتيارات على جلدها وتذوق الملح في لسانها، تعلمت إحدى طرق المد والجزر، واستشعرت الطرق المخفية، وأدركت أنه من الممكن تخيل وجهة باتباع مسار رحلة الطيور. شعرت بشيء مما تريده الرياح، وسمعت مجموعة متنوعة من ألحانها، وشعرت في هذه الأشياء بما كان يعرفه المازي مهدي حين كان يطلق صافرة لاستدعائها.

"المحيط هو أنا / كيف يمكنني الغرق"، غنى محيي الدين إلى الماء في صباح أحد الأيام. أيانا غنت معه. في الأمسية المقمرة التالية، شعرت أيانا في بشرتها كيف انجذبت إلى القمر. ذهبت لتخبر محيي الدين. جلس معها على الدرجات المؤدية إلى بابه تحت سماء مضاءة بالنجوم. "حديد في دمائنا"، قال لها. "القمر في بعض الأحيان مغناطيس جاذب".

متدفق: يختفي ويصبح المحيط.

عائم: يعود متدحرجًا على الرمال، يعود إلى الأرض.

رأت أيانا أن السماء كانت مرآة للمياه، وأن هناك أماكن يمكن الوصول إليها من خلال قراءة الليل؛ أن نسيج اليوم القادم قد كتب في النجوم: عندما يغرق عنقود الثريا في شمس صافية، يرتفع في المطر؛ عندما يغرق عنقود الثريا في المطر، يشرق في شمس صافية.

شاهد محيي الدين السفن التي تشق طريقها إلى مختلف الموانئ، أخبر أيانا، "القارب عبارة عن جسر". لكن رغم أنها راحت تلحّ، لم يُظهر لها محيي الدين كيفية صيد أسماك المياه العميقة بالفوانيس الليلية. "إذا سمعت والدتك...".

"إنّها لن تعرف أبدًا".

"ليس بعد يا عبيرة".

حردت أيانا. استاءت. هدّدت: "فندي مهدي سيريني".

عارضها محيي الدين: "لا، لن يريك".

كانت أيانا تعرف أنّه محق. "هل يمكنك أن تصنع قاربًا؟".

"لا".

"فندي مهدي يستطيع".

"اذهبي إلى فندي مهدي إذن".

"لا"، صاحت أيانا.

لكن في وقتٍ لاحق من بعد الظهر ذلك، لحقت بهما قطة أيانا الصغيرة، وتجولوا جميعًا في الجزء من الجزيرة حيث بقايا آثار بناء السفن لا تزال باقية. في هذا المكان الذي تلازمه الزمن والقدر، توارى كوخ فندي المازي مهدي ورائحة القوارب الخشبية المبنية والقوارب التي سيتم بناؤها من قوالب ترتكز على الذكريات القديمة.

ارتدت أصداء المطرقة على الخشب في الهواء. كانت أعمدة المانغروف منتشرة على الأرض، محروقة استعدادًا لمصيرها. عرض مذيع الراديو تقارير المد والجزر. رأت أيانا رجلا وحيدًا. كانت تتقدم نحو فندي مهدي بينما كان يعمل على مقدمة قارب أجوف، يصب عليها زيت جوز الهند وتليها النار. قبل أن يتمكن من إلقاء التحية على الحرفي، أعلنت أيانا: "القارب عبارة عن جسر". شاهدت النيران وهي تلوح في الأفق. "لماذا النار؟"، انحنت. حاولت مهدي طردها بعيدًا. رفع محيي الدين أيانا إلى بقايا قارب قريب تقطعت به السبل بعد أن كان يبحر سابقًا في البحر. قفزت القطة في القارب معها. من داخل السفينة، صاحت أيانا إلى مهدي: "لماذا الزيت؟ لماذا النار؟". تنهد مهدي فندي. "لماذا الزيت؟ لماذا النار؟"، غنّت أيانا.

ثمّ قال محيي الدين لمهدي وهو يستقر على جذع: "تحية طيبة يا أخي. اعذرنا على هذا

التطفل. لا مشكلة لدي بأن أنقل عذابي إليك. الآن ستطاردك بالأسئلة وتستجوبك. إن كان لديك جواب، أعطها إيّاه، خشية أن تسلّمها أسرارًا أعمق في استسلام يائس".

نظر مهدي إلى محيي الدين الذي هزّ كتفيه. ثمّ التفت إلى أيانا التي كانت ترقد على بطنها لتتدلى من على حافة القارب المهجور. ثم رفعت يديها كما لو كانت على وشك أن ترتفع وراحت ترتجل: "لماذا النار؟ لماذا الزيت؟". عاد إلى اللعب بالنار مع ابتسامة صغيرةٍ على حافة ثغره. بدأ المازي مهدي بالكلام: "اسمعي... حين... يلتقي القارب بالنار... على الماء... يومًا ما... سوف يعرف... ماذا يفعل".

ساد الصمت، ثمّ صاحت أيانا برهبة: "لقد رأيتك تُغرق القوارب مرّات عدة". كانت قد تجسست على مهدي بينما كان يقوم بتجربة القوارب عن طريق غمرها في البحر، وإبقائها تحت الماء لأسابيع. تابعت أيانا: "وكذلك... وهكذا، عندما تغرق القوارب وتدخلها المياه" -هزت رأسها -"حتى عندها لن تغرق، أليس كذلك؟".

خرجت أنفاس مهدي الغاضبة من أنفه المشعر. بتنحنح مسموع، التفت إلى محيي الدين والذهول في عينيه. أدار محيي الدين وجهه إلى البحر وأغمض عينيه. قام بإغلاق فمه لمنع نفسه من الضحك بينما كانت أيانا تتدحرج بجسدها جيئة وذهابًا على المركب. سألته: "هل تبني سفينة؟".

"لا"، صاح مهدي معبرًا عن استيائه. صيحات الغربان. رائحة الخشب على النفط. نجارة الخشب على الرمال. مدّت أيانا يدها والتقطت غصنًا وراحت تحدث ثقوبًا في الرمال حتى تتدخل في طريق النمل. "هل تبني قاربًا"، سألت. حدّق مهدي في يديه على السفينة التي كان يصلحها بالنار. غمغم: "هذا". قفزت هرة أيانا على رأسها. مالت الفتاة بنفسها صعودًا وخرجت من القارب. سألته: "أنت تبني مركبًا صغيرًا؟".

"ممم"، أجابها مهدي.

"يمكن بناء قارب صغير بسهولة؟".

"ممم".

"كم قاربًا صنعت؟".

انتظر مهدي ثلاثين ثانية. "ثلاثة".

"من ضمنهم مركب؟".

كشف عن أسنانه ومال بجسده وأمسك بشراع صغير أبيض اللون بات بنيّ اللون ليخيطه.

"الكثير من المراكب".

"مركبًا شراعيًا؟".

ساد الصمت لحظة. عادت الذكريات إلى مهدي. كان القارب المخيّط الشراعي خاصًّا بجزيرته، جمعت من خلاله عائلته ثروتها الأصلية.

كل سفينة تخلق الأمواج الخاصة بها. "هذه... هذه دماؤنا". حكّ رأسه. "الكثير منها...".

"حتّى دمي؟"، قالت أيانا وهي تنكز جلدها. مسحت على رأسها. تدخّل محيي الدين: "يا عبيرة، أنت تغرقين فندي مهدي بالكلمات. لكي تولد، تفضّل القوارب الصمت. كفى يا فتاة!". ماءت الهرّة وتركت أيانا واتجهت صوب مهدي، وهي تهزّ بذنبها حوله. توقف مهدي عن عمله. مسّد بإصبعه رأس الحيوان الصغير. سأل مهدي بنبرة لطيفة: "ما اسمه؟".

همست أيانا: "ياقوتي".

"اسم جميل"، قال لها. توقف لوهلة عن الكلام، ثمّ أكمل: "يومًا ما، سأصنع لك مركبًا شراعيًا".

سألت أيانا: "لي أنا؟".

استمرّت بالهمس: "أنا وأنت، نصنعه؟". عقد مهدي حاجبيه وحكّ فكه: "نعم".

ربتت على صدرها. "ومن بعدها نذهب ونذهب أنا وأنت وبابو وياقوتي... و... أنا... سأقود المركب. بابو، هل سمعت مهدي وأنا، نحن سنصنع مركبًا ونقوده، وأنت يمكنك المجيء معنا، وأيضًا... أيضًا ياقوتي".

أرخى مهدي فمه. قبل دقائق من مغادرة محيي الدين وأيانا فندي مهدي إلى عزلته، توجّه مهدي إلى سقيفة عمل، عاد وهو يحمل غرضًا في يده، اقترب من أيانا وهو يغمغم كلمات غير مفهومة. سرعان حملت بوصلة صغيرة من نحاسٍ أخضر، كانت قد تنقلت من سفينةٍ إلى أخرى. صاحت: "بوصلة!".

تمتم مهدي: "نعم".

"ابدئي باللامكان"، أشار إلى البوصلة وثمّ إلى محيطهما. "هذا الخط - شمالًا".

عدّل يدها بحيث باتت البوصلة مسطحة فيها. "اسألي نفسك: إلى أين أنا ذاهبة؟

عندما تعرفين، اذهبي". كانت عينا أيانا ملتصقتين بالبوصلة. ذُهل محيي الدين لتعبيرها. ارتجفت أيانا وهي تحاول الحفاظ على شمالها، باستخدام بوصلتها التي أتتها كهدية. ربت محيي الدين للقطة الصغيرة التي كانت تركب على ساقيه. سألته أيانا: "هل سبق وأن غرقت وأنت في قاربك؟".

أجابها: "القوارب التي أبنيها لم تنقلب أبدًا".

"ما معنى تنقلب؟".

"حين القوارب تغرق".

"تنقلب"، كانت كلمة تريد حفظها.

عادا أدراجهما. كان المساء برتقاليًا، وأضاء نوره على وجوههما وعلى الماء. قالت أيانا: "هل بنى مهدي قاربك؟".

"لا".

"شخصٌ آخر بناه لك؟".

"نعم".

"حتّى أنا، يمكنني بناء قارب؟".

"إن أردتِ ذلك".

في مكان ما على مسافة قريبة، ارتفع صوت امرأة فوق رياح وأمواج مساء.

"أيانااااا".

قبل أن يتمكّن محيي الدين من قول أيّ شيء، أقلعت أيانا مثل حمارٍ وحشي مُطارد باتجاه صوت والدتها.

تحدثت الأمّ بقلق بينما سارعت خطى مسرعة إلى المنزل. "لقد تأخرتِ. ما هذه الفوضى؟ ماذا فعلت لزيّك؟ من سيغسله؟ أنا أدفع المال مقابل الصابون -هل تعتقدين أن المال ينمو مثل الأوراق؟ اذهبي واغتسلي".

تنهّدت منيرة. "يا له من يوم. تلك المرأة! بائسة في كل شيء. هل تصدقين أنها تريد الحنّة، كما لو أنّها عروس دائمة! أيانا، هل تسمعينني؟ غيّري ملابسك. هناك سمكة على النار. امزجي الحناء لي. ضعي جيرًا أقل هذه المرة. كم مرة يجب أن أكرر ذلك لك؟ ماء الياسمين ملوث. بني اللون. تلك المرأة! لا بدّ أنّها وضعت شيئًا فيه عندما كنت بالخارج".

تنهّدت منيرة مرة أخرى. "لولو، البسي بسرعة. علينا أن نجمع بعض اليلانج قبل غروب الشمس. أيانا، هل تسمعينني أم أنّي أتحدّث إلى الجدران؟".

[11]

عبيرة. تدفق من الضوء غير المتوقع إلى جمرة الوجود.

من دون أن يعرف حتّى، انتظرت حياة محيي الدين كل صباح اللحظة التي ظهرت فيها الطفلة عند عتبة بيته، سبقتها أحيانًا قطةً بيضاء صغيرة اندفعت إلى منزله بلا توقف وتعلّمت أن تخدش بابه حتّى يسمح لها بالدخول. في إحدى الليالي، بدأ محيي الدين بالضحك مثل شاحنة قديمة تبدأ محركها. جمع في صوته قوّة مستوحاة من صوته الخاص. ابتعد كما لم يفعل من قبل، أبعد رأسه، ممسكًا بطنه المتألم. كان شيئًا ما قالته الطفلة. لم يتذكر كلماتها، لكنّه تذكّر تأثيرها عليه. شيء قاله الطفل. ضحك حتى وضع أصابعه على وجهه ولمس دموعه، التي أغرقت وسادته. خلال تلك الليلة المليئة بالفرح، أدرك كم قلّل من أهمية قوة الحب وألمه واستمراره الرهيب، ومدى الخوف الذي كان عليه أيضًا.

[12]

لم تسمع منيرة التي أجادت فنّ حماية نفسها من الإهانات والإشاعات، الهمس حول علاقة أيانا بمحيي الدين حتّى أشهرٍ لاحقة. في بعد ظهر أحد أيام الجمعة، بعد الصلوات، مشتتة بسبب الحرارة، شتمت اثنين من زبائنها الجاحدين، الذين سخروا منها حتى الإرهاق، وسارت نحو المتاجر. أثار اهتمامها مشهد معلم مدرسة أيانا، المعلم جمعة حميد. كانت نهاية الفصل الدراسي. سارعت نحوه للسؤال عن تقرير أيانا، الذي لم تره بعد. بينما كانت تقترب،

من دون أن تلتفت حولها، طلب المعلم جمعة من حذيفة الشيرازي، بائع أقمشة وقارئ متعطش، إذا كان يعرف إلى أي مدرسة من سوء التصرف تمّ نقل أيانا. توقفت منيرة. استولى الخوف على قلبها. نظرت من رجل إلى آخر، تستمع.

أكمل المعلم: "وحدها! الأسبوع الماضي، كانت الطفلة تتسكّع في القارب. وحدها، أكرّر لك. غير معقول، أقول لك. صباح هذا اليوم، كانت الفتاة تزحف على الشاطئ وكأنها بزاقة، وملنغوتي المرتد يحوم حولها، نصف عارٍ ونصف حليق. يتصرّف حولها ألفة، أقول لك. يا لها من عادات. سوقية. هكذا أراها".

حذيفة، ببشرته السوداء المثالية اللامعة والناعمة في الشمس، تحدّث بصوتٍ عالٍ بما يكفي لتسمعه منيرة. تابع المعلم جمعة، وهو يفرك شعره الرمادي، قائلًا: "ابنة العفريتة. العفاريت تتصيّد الأموال. ليس عيبًا أن تكون فقيرًا، ولكن أن تقدّم طفلك للتخفيف...". رفع حواجبه ولف عينيه، متظاهرًا بالحزن. أحب حذيفة القصص، سواء كانت متخيلة أم لا. رفع يده ليتأكد من حصوله على اهتمام منيرة. "هل هذه أنتِ يا والدة أيانا؟ كان المعلم يتساءل لماذا أخرجتِ أيانا من مدرستها. هل...".

توقّف عن الكلام. كانت أيانا قد تبخّرت. استرق حذيفة النظر إلى الحناء على أطراف أصابعه الدهنية السمينة، وهو لا يزال يمسك بترجمة المعلم جوليوس نييرير لمؤلَف شكسبير "تاجر البندقية"، الذي كان يقرأه هذا العام. "سوف تكون هناك متاعب"، قال وقد التقت عيناه المتوهجتان بعيني المعلم جمعة.

تخيّل عاصفة نارية. تخيّل أنه شيطان غبار. تخيل ضراوتها كهديرٍ يحتوي أيضًا على صوت أشق. ولكن أولًا -"أيااااانا!" - عوت الأم بجنون. في المقابل، كان هناك سكون داخل متجر محيي الدين، حيث كانت أيانا تحاول إنشاء خط على شكل كمثرى بينما درس محيي الدين خريطة البحار القديمة، مرتديًا قطعة قماش زهرية باهتة حول وسطه. كان ذلك مستوحى من حسين فهمي في الفيلم المصري خلي بالك من زوزو، الذي شاهده هو وأيانا. كانت بحاجة إلى وشاح لأدائها رقصة كرقص سعاد حسني. من الخارج، جاءت صرخة أخرى: "أياااانا". قفزت أيانا من كرسيها، وانزلقت تحت ذراعيّ محيي الدين، فتحت باب خزانة البومباي، وزحفت إلى داخلها. من داخل الخزانة، قالت لمحيي الدين: "إنها تكسر الأبواب، لذا اترك بابك مفتوحًا".

بعد فترةٍ من التوقف، أضافت: "سترفعك من أذنيك، لكن ذلك لن يوجعك لفترةٍ طويلة. افركهما جيدًا وسيزول الألم". سأل محيي الدين وهو لا يزال يترنّح من تدافع أيانا: "من؟".

"والدتي"، قالت له. "أنت، أنت ستناديها بالسيدة منيرة".

"سأفعل ذلك"، أجابها.

تلا ذلك صمتٌ قصير. ثمّ قال: "عبيرة، لماذا قد ترفعني من أذني؟".

"ممم... ربما لأنّها لا تعرف أنّك والدي. مممم... ربما لأنّني توقفت عن الذهاب إلى تلك المدرسة -فهم لا يحبونني، ولا أنا أحبهم. ربما السبب في أنّني لم أخبرها أنني أعيش هنا، ولكن فقط في النهار، لذلك لا يهم، ربما".

هزّ محيي الدين رأسه.

"أيّ سببٍ آخر، ربما؟".

أغلقت أيانا الخزانة، وجلس محيي الدين ينتظر.

تخيّل وميض البرق من السحابة إلى الأرض. هكذا ظهرت منيرة على شرفة محيي الدين، وعبرت إلى الردهة، دخلت منطقة الاستقبال التي كانت أيضًا المحل، كتب وما شابه ذلك. نزعت النقاب عن وجهها ونظرت إلى المكان، وملأته بغضب القوى البدائية. جرب محيي الدين ضربة استباقية: "إن عبرتِ النهر، ألن تلتقي بالتماسيح؟". تحوّل أسى منيرة إلى كراهية. عيناها حمراوان، هدوء ساكن مميت، ألقت مرساتها، وقالت بصوتٍ بدا يقطر سمًّا: "أنت؟".

اقتربت منه بضع خطوات. "تمساح؟". في الخارج، تردّدت أصداء انحسار الأمواج. في الداخل، اختبر محيي الدين النطاق الموسوعي لمعرفة منيرة بالشتائم والإهانات المعاصرة. أبقى محيي الدين رأسه منخفضًا وتخيل نفسه صخرة في البحر. بعد عشر دقائق، انتهى الضرب اللفظي وهدرت منيرة: "أين طفلتي يا قذر؟".

أشر بإصبعك، وابدأ المشاجرة. لكنّ محيي الدين تنهّد. كان متعبًا. كان مسنًا. كان يشتهي السلام. اتجه إلى خزانة البومباي وفتحها وصاح لأيانا: "أخرجي". خافت أيانا وغطّت وجهها. "أخرجي"، صاح محيي الدين. "صديقتك سليطة اللسان هنا".

تسللت أيانا خارج الخزانة، مرتجفة. لم يسبق أن صرخ في وجهها محيي الدين. صاحت

منيرة: "طفلتي".

صرخت أيانا: "لاااا".

"أيانا"، أخفضت منيرة نبرة صوتها.

عادت وتشبثت وتعلقت وتناوبت على أطرافها، وصرخت على والدتها: "إنّه والدي. لي أنا. إنّه والدي". حرّر محيي الدين نفسه من أيانا عبر إبعاد كل من ذراعيها الواحد تلو الآخر.

"اذهبي"، قال لها وهو يشير إلى الباب.

تسمّرت أيانا في مكانها وهي تنظر إليه.

"آه، اذهبي!"، رفع محيي الدين يده.

ركضت منيرة باتجاه محيي الدين.

"لا تفكر حتّى بأن...".

التفت محيي الدين إلى منيرة، عيناه متّسعتان. "اذهبي أيّتها الساحرة"، قال لها. "كلا كما، اختفيا للأبد". أمسكت منيرة بأيانا وسحبتها بعيدًا. كانت أيانا لا تزال مذهولة كطير صغير في فك قط بلا أسنان. لكنها أمسكت إطار العتبة، ونظرت إلى محيي الدين، وقد تضاعفت عيناها في الحجم. قالت له: "أنت تطردني بعيدًا... أنت تطردني بعيدًا عنك".

سمع محيي الدين صراخ الطفلة ما بعد العاصفة. سمع حيرة بصوت الأم.

منيرة: لماذا؟

لن أذهب.

منيرة: من يكون؟

إنّه والدي.

منيرة: ماذا؟

إنّه معلمي.

منيرة: كيف؟

هو أحبّه.

منيرة: لماذا؟

سأبقى معه إلى الأبد.

منيرة: ماذا؟

اذهبي أنتِ بعيدًا. أنتِ شريرة. شريرة!

منيرة: لماذا؟

ناحت الطفلة.

منيرة: أيانا! توقّفي حَالا. توقفي!

لاااا!

ارتدّت أصداء صفعة.

ارتجف محيي الدين.

صفعة أخرى.

ارتجف.

صفعة أخرى.

رجفة.

صمت.

نهاية الصخب.

كان منزله هادئًا جدًا. تمتم محيي الدين: "عبيرة". بدا منزله ساكنًا بما يزيد عن اللزوم. انشق قلبه حين رأى الشكل غير المكتمل للطور على الورقة وشعر كما لو أنّ سكينًا باردًا يشرح أحشاءه. سادت الحزن وتشنجاته قلبه. تمتم: "عبيرة". على مدى ثلاثة أيام، بدا الأمر كما لو أن بعض الرياح الشرقية الفظيعة كانت تطعن البحر، الذي استسلم إلى جراحه تحت نظرات محيي الدين غير المنقطعة من نافذة شرفة طويلة.

أتى طرقُ عنيف بلا توقف على بابه في غمرة الليل. خرج محيي الدين، الذي كان يصارع من أجل النوم، من السرير، ولف نفسه بثوب أزرق شاحب، ونزل الدرج. تكثف الطرق وهو يعبر الفناء إلى الردهة. فتح الباب ونظر إلى الخارج. كان جسد منيرة محدقًا بالخوف والتعب. بحثت عينا أيانا المتورمتان عن وجه محيي الدين. توقف محيي الدين عند الروح المجردة في نظرتها. ترجم نظرتها المنزعجة. ركع لتصبح عيناه بمستوى عينيها. "لا"، قال لها، "لا يا عبيرة". ارتعش فمها عندما وصلت دمعة إلى ذقنها. استنشقتها. مسّد جبينها قائلًا: "الأب يرمي ابنته؟ لا". توقّفت الدموع من عيني أيانا. استنشقت كل ما كان عالقًا منها وانحنت ليلامس جبينها جبين محيي الدين. سألت من دون أن تبتسم: "أبدًا؟ أبدًا".

"أبدًا"، قال لها.

"أبدًا؟".

"أبدًا".

وقفت على رؤوس أصابعها، كطائر طويل نصف ثانية قبل الطيران: "هل تعدني بذلك؟".

تردّد محيي الدين، ثمّ هز رأسه. كانت أيانا الآن تعضّ إصبعها وتنظر إليه بعينيها. "أنت لي".

رفّ محيي الدين بعينيه. شعر بغصّةٍ في حنجرته، نفخ الهواء وكاد أن يختنق به، ما أصابه بدوار. شاهدها تحدّق إليه. كان هناك ذعر، ومن ثمّ شرارة الغبطة لأنّه أدرك أخيرًا ماذا يعني أن يراك شخصٌ آخر، أن يراك فعلًا. مغتنمًا اللحظة، وليس المستقبل وعواقبه، ترك نفسه لينجرف بالشعور، بلا كلام. هز رأسه. أمسكت أيانا وجهه، جبهتها مقابل جبهته، عيناه في عينيه. كانت أصابعها بالقرب من حلقه، تستشعر اهتزاز كلماته للحقيقة. "نعم". مدعومة بإشارة أخرى. قلّدته أيانا، وهزّت رأسها أيضًا. لقد انزلقت تحت ذراعيه للعودة إلى مكتبها وإنهاء تدريبها على الخط الذي انقطع.

اقتربت منيرة على قدميها، لم تعرف من أين تبدأ. أشارت إلى أيانا وقالت: "لم تأكل". لم يقل محيي الدين شيئًا. أضافت منيرة وغصّةٌ في حلقها: "لقد حزنت عليك". أحنت رأسها. بقي محيي الدين صامتًا. قالت منيرة: "لم تقبل أن تتحدث معي". راقبها محيي الدين، صامتًا. "قل لي ماذا أفعل الآن؟"، اقتربت منيرة خطوةً من محيي الدين. سمعها، وفي صوتها المنخفض، سمع نداءها. شاهد نظرتها المباشرة وشمّ عطرها. لم يثق في وداعتها التي ظهرت حديثًا. ضغط محيي الدين بجفونه. "سامحني"، قالت منيرة. "لقد كنت مخطئة". راقبها. ثمّ سألت منيرة: "كيف حدث كلّ ذلك؟". كانت نظرة محيي الدين ثابتة. أضافت: "أنت... وهي؟". استمع إليها. "أصلح الوضع"، توسلته. ضحك محيي الدين. على نفسه. عليها. ضحك حتى اضطر إلى مسح عينيه.

توسّلت منيرة: "ماذا سيحدث حين تتركها؟". نَخَر محيي الدين. أشاحت منيرة بنظرها. "هل لي أن أجلس؟". انهارت على كرسي خشبي فوق الكتب التي تلوح في الأفق، وكانت على وشك أن تقع. حدقت في كتبه، وانتابتها الحيرة. اختار محيي الدين الجلوس أمامها على كرسي

مائل تظهر منه حشوة صفراء. راقبها، آثار شبابها الهائل والضائع. حالتها البائسة أرضت الصياد المستاء الذي لا يزال بداخله.

تشابهت ظلال شكلها الزاوي مع الجغرافيا المنهكة لجزيرتهم، واختلط نزوحها المرفق بالوحدة الدائمة مع عطر الياسمين الليلي في الخارج. كانت تعانق جسدها في هذه الغرفة المليئة بالتذكارات من جميع أنحاء العالم، مكدسة مثل الذكريات المشتعلة. سعت عيون محيي الدين، على غرار الكاميرا، إلى التقاط تفاصيل منيرة الصغيرة من زوايا مختلفة. انحنى إلى الأمام. كان بالفعل على دراية بظلها. الآن رأى الفجوة بين أسنانها الأمامية. داهمه شعور كما لو أنّ بقايا حياة مجهولة سقطت عليه.

"أنت تختارنا"، قالت منيرة، وهي تؤكد على سماعه أنّها تتحدّث بصيغة "نحن". أكملت: "اخترنا وستخسر سمعتك الطيبة ومركزك". كانت هناك سخرية في كلمة "مركزك". ارتعش فمّ محيي الدين كما لو أنّه على حافة الضحك. سألته: "لا تهتم بذلك؟".

ابتسم محيي الدين. لم يخطر له يومًا أن يقلق على "مركزه". أخطأت في قراءة نظرته. "نحن نسلّيك".

تحدّث محيي الدين أخيرًا: "اسمعي يا امرأة، افعلي ما تريدينه. الفتاة، حسنًا، بما أنّنا اخترنا واحدنا الآخر" – تفحّص رد فعل منيرة وأرضاه انزعاجها – "بما أنّنا اخترنا أحدنا الآخر، وبما أنّي لست ذاهبًا إلى أيّ مكان، سنتشارك حياتها. يجب أن تتعايشي مع هذا الأمر، تمامًا كما سأفعل أنا". أصدرت أيانا صوتًا. التفتا كلاهما. كانت أيانا تقف على أصابع قدميها وتستخدم جسدها بالكامل لتلوين النص الذي خلق طائرًا، باستخدام قلم أحمر. لم يفكر محيي الدين حينها أن منيرة لم توافق على عرضه بعد ولا رفضته أيضًا.

سألت منيرة: "كيف وجدتك؟". ابتسم محيي الدين نصف ابتسامة وهو يتذكّر رحلات أيانا ما قبل شروق الشمس. "وجدنا بعضنا البعض. البحر". "البحر؟"، تساءلت منيرة، وهي تبحث عن معنى الموضوع، مدركة للأشياء غير المعلنة، وعن استماع أيانا إليها من خلفها. شعرت منيرة بقرصة خفيفة في قلبها للتفكير بأنّ لابنتها حياة سريّة، وانتابها الغضب لأنّ شخصًا غريبًا كان مطلعًا على أمور خاصّة بابنتها من المفترض أن تكون متاحة لها بمفردها. لكن كان يجب عليها أن تكون حذرة. كانت أيانا قد بكت لمدة سبع ساعات دون توقف. لم يكن هذا أمرٌ تريد مواجهته مرة أخرى.

بقيت منيرة هادئة. وقالت: "إنّها تناديك والدي في العلن. هل كنت تعرف ذلك؟". تحرّك قلم أيانا. هزّ محيي الدين كتفيه. "إذن أنا كذلك". عانقت أيانا نفسها. قالت منيرة: "أنت لا تفهم".

"قولي لي إذن".

"من المفترض أنّني ساحرة شعواء، أمارس سحري على الرجال الكبار في السن" – ترددت منيرة وهي تنظر من الأعلى إلى الأسفل لمحيي الدين، أنفها متجعّد – "من هم مثلك".

اهتزّ جسد محيي الدين من الضحك. ضحكت أيانا معه مبتهجة، غير مدركة أنّ والدتها كانت تشعر بالعار والخزي من فكرة أنّ هذا الوحش المتجعد الآتي من طبقة اجتماعية فقيرة اعتقد أنّها أقلّ أهمية منه. مدّت ساقاها وانتظرت حتى يتلاشى الضحك. كانت لا تزال ممتعضة وقالت: "لا يمكن أن أتزوج منك، ليس حتّى من أجلها".

قال محيي الدين: "لن أطلب منك ذلك".

ردّت منيرة على الفور: "ماذا أناديك إذن؟ بابو؟ جدّي؟ أنت مسنّ ولكنّك لست مسنًا بما يكفي لتكون جدّي".

"نادني محبوبي"، عرض محيي الدين بخبث. هزّ حواجبه، آملًا أن تختنق غضبًا بإعلانه نفسه "محبوبها". بقيت منيرة هادئة واقترحت: "لماذا أستقر على محبوبي بينما يمكنني أن أناديك بالبغل؟". كان هناك بالفعل شيء من الوحشية في محيي الدين. ابتسم محيي الدين. سيكون من الصعب خوض هذا الجدال مع منيرة، لذا عرض عليها هدنة: "أيّ شيءٍ آخر؟".

"سأفكر بالأمر"، أجابت منيرة. لأول مرة منذ أن رآها محيي الدين، ابتسمت. تسبب هذا في ارتعاش غير متوقع داخل قلبه. أدار وجهه في الحال، ليرى أيانا تراقبه. ابتسمت له ابتسامة بلا أن تظهر أسنانها. هزّ آذانه لها. ضحكت. اختارت قلم تلوين أخضر لتلوين جناح طائرها. سألته منيرة: "ماذا تعلمها؟".

"الحياة".

"لقد أخرجتها من المدرسة؟".

"هي خرجي من تلقاء نفسها".

هزّت منيرة برأسها. كان ذلك واردًا. كانت قد خفتت حماسة أيانا حول المدرسة وصداقاتها الجديدة وحكاياها لأمّها عن طريق عودتها إلى من المدرسة إلى المنزل. كانت تعود

إلى المنزل مشوشة، تسعل بلا توقف، عيناها حمراوان، وكان الربو يعود إليها في مثل هذه الأيام. كانت منيرة تحوم حول الموضوع، خائفة من الشكوى. كانت تعرف أن الأمور ستزداد سوءًا، ولم تكن هناك مدارس أخرى في الجوار يمكنها أن ترسل إليها ابنتها. نظرت إلى الغرفة المليئة بالكتب قبل أن تسأل محيي الدين: "هل تعرف الكثير؟".

مضغت منيرة إصبعها الأوسط. هزّ محيي الدين رأسه.

"هذا يكفي".

"نعم؟".

"ممم"، قالت منيرة. "سأدفع لك طبعًا".

صاح محيي الدين: "فقط توقفي!".

حرّكت منيرة يديها: "أرجوك تحمّلني قليلًا. أنا لا أعرف... لا أعرف ماذا أفعل بكل هذا".

"وما هو هذا؟"، صاح محيي الدين.

"هذا الوضع".

سكت محيي الدين. سألته منيرة: "هل تصلي؟".

"لا".

"لا؟"، استنكرت.

"ربما تحية عرضية لخالق العواصف".

"الله؟".

"من يدري؟".

"أنت لا تدري؟".

"هل تعرفين أنتِ؟".

انحنت منيرة ونظرت إلى قدميها المزيّنتين بالحنّة.

قالت له بحزن: "يقولون إنّك مرتد".

"نعم يقولون ذلك".

لمست منيرة ركبة محيي الدين اليمنى لتصبح بمستوى عينيه.

قالت له: "هي تؤمن. أنا لا أستطيع أن أمنحها كل ما أريده، لكن يمكنني أن أقدم لها

حلمًا بخيرٍ بلا حدود. هل تفهم؟".

أحنى محيي الدين رأسه، وفاحت رائحة جوهر الياسمين الليلي بينهما. هزّ برأسه موافقًا.

"شكرًا لك"، قالت منيرة وعادت إلى مقعدها.

أحنى محيي الدين رأسه، وفاحت رائحة جوهر الياسمين الليلي بينهما. هزّ برأسه موافقًا.

"شكرًا لك"، قالت منيرة وعادت إلى مقعدها.

دقّت الساعة.

رسمت أيانا.

حدّقت منيرة في الغرفة والكتب.

راقب محيي الدين منيرة. قالت: "سمعت أنك سافرت حول العالم".

"معظمه".

"عندما كنت فتاة، كنت أنوي السفر. أردت أن أعيش في كل بلد لمدة أسبوع".

اعترى الخجل وجهها.

"كيف كان السفر؟"، سألته وهي تنحني إلى الأمام.

"الناس هم الناس"، أجاب محيي الدين مذهولًا بغرابة تلك الليلة، وبسطوع الفضول في عينيّ امرأة ملعونة.

أشاحت منيرة بنظرها. عدّلت بيديها غطاء رأسها.

"الوقت متأخر. أنا آسفة. لكنني لم أستطع تحمل ليلة أخرى من حزنها...".

قمع محيي الدين ابتسامة.

جيّد.

خفّفت الابتسامة غير المؤكدة من شدّة ملامح منيرة.

"بما أن طفلتي الوحيدة ترغب في معاملتك كالنور في عين رجل مقدس، وقد ربطت مصيرك بمصيرنا" -رفعت منيرة حاجبها -"ألا ينبغي لنا تنظيف قلعة الحصن هذه؟".

نظر محيي الدين حوله بحسٍّ من التملك.

كان غباره.

ركز بنظرة باردة على منيرة.

تراجعت حماستها على الفور.

كانت هناك حدود.

وعلى ابنتها أن تتعامل مع الربو. ليتعامل هو أيضًا مع المسألة.

[13]

ومع ذلك، في غضون اثني عشر يومًا، اختُرقت هذه الحدود بينهم بعواء شديد فجرًا، حيث سُمح حزنٌ عميق لشخصٍ بائس. كانت أبواب الجزيرة مفتوحة. سارعت خطوات نحو المصدر وتعثرت. ركضت أمّ في ثوب طويل عاجيّ اللون، شعرها مجعد، حافية القدمين، إلى موقع الجريمة، وسقطت فوق ابنتها الصغيرة الرقيقة، التي كانت تحتضن جثة خشنة حُطمت جمجمتها وكان ذيلها مبلولًا -هرة بيضاء قذرة. كانت الفتاة تبكي ووجهها مخاطي ودموي وموحل. كانت الأم، يدها على رأسها، تبكي أيضًا.

"لماذا قد يؤذي أحدهم هذا الشيء عديم الفائدة؟ من قام بهذه الإساءة؟

راقب الرجال والنساء، أو ابتعدوا. بعضهم ضحكوا. آخرون، أولئك الذين يعرفون، أو شاهدوا أي من أطفالهم قد تورطوا، تسللوا بعيدًا. رغم أنهم كانوا يقرصون آذان هؤلاء الأطفال، إلا أنهم لك يفعلوا لهم أيّ شيء آخر. ظهر محيي الدين. استوعب المشهد. رأى حزنًا كبيرًا جدًا على أن تتحمله طفلة. لذلك أمسك بالطفلة، في محاولة لاستيعاب حزنها. حملها وقطتها الميتة بين ذراعيه. كلاهما كان لا يزال باردًا ومجمدًا. "لماذا؟"، همست أيانا. كانت تتوقع محيي الدين أن يعرف. "لم تفعل القطة شيئًا سيئًا. فلماذا؟". ضغط عليها محيي الدين أكثر بين ذراعيه، وهو ينظر إلى وجه منيرة الذي سالت منه الدموع.

قالت أيانا لمحيي الدين: "داويها. قل لها أن تتحرك".

كانت في عينيها ثقة واضحة بقدرة محيي الدين فيما تعلّق بالحياة والموت. التف محيي الدين بجسده لمواجهة الناس الذين تجمهروا. "هل رأى أحد منكم ما حدث؟".

أحكم قبضة يديه. لم يجبه أحد.

صاح مجددًا: "من المسؤول عن هذا؟ تكلموا!".

لم ينظر إليه أحد. في غضون دقيقة، ذهب الجميع وتركوا الثلاثي وجثتهم الصغيرة.

في ذلك المساء، بعد أن قام محيي الدين ومنيرة بتنظيف القطة، غلفاها بشرائط من الحرير الوردي وأدخلاها في صندوق عطور كبير. حملوا الصندوق إلى حدائق منيرة، بالقرب من المقابر. حفر محيي الدين حفرة بجانب الورود ذات الألوان الفاتحة.

كانت عينا أيانا مثبتتين على محيي الدين، وهو يقلب صفحات شعر حافظ في الكتاب الذي كان يحمله، مخبئًا عجزه وراء كلمات الآخرين. "عبيرة"، قال لها، وقد توقّف عند إحدى صفحات الكتاب، "اقرئي هذا". أغلقت أيانا عينيها. قال محيي الدين، "قطتك بحاجة إلى سماع صوتك وهي تقفز إلى... إيه... النجوم.

"لا"، صاحت أيانا.

جثم محيي الدين بجانبها. "لمَ لا؟".

"القطة لا تتحرك، ألا ترى؟"، قالت وهي تشير إلى القطة.

نظر محيي الدين إلى الأرض الجوفاء. كذب. قال إنّ القطة كانت بالفعل قد تحوّلت إلى موجة، إلى نجمة، وإلى إحدى خفقات قلب أيانا، ولكي تتمكن من أن تكون جميع هذه الأشياء، اضطرت القطة إلى أن تضع جسدها على جنب. قال إنّه بإمكان القطة الآن أن تتحوّل حتّى إلى شجرة. وأضاف أنّه ما إذا كانت الشجرة ستنتج قطة أو أكثر من القطط الصغيرة يعتمد على المد والرياح. همست أيانا في أذنه اليمنى: "حتى أنا، يمكنني أن أكون شجرة أيضًا؟".

"ليس بعد يا عبيرة".

كانت ذراعاه على كتفيها.

شعرت أيانا بتهيّب من الموقف وتركت في داخلها كل الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها. نظر محيي الدين إلى كل شواهد القبور وانتظر. أخيرًا، سألته أيانا: "هل توفيت القطة؟". شوّه إجهاد البحث عن الإجابة الصحيحة ملامح محيي الدين. قال لها "نعم" كما لو أنّه ينتزع الكلمة من داخله. كانت هذه أكثر مرة يقترب فيها من العواء. سألت أيانا: "الموتى لا يتحركون؟". ابتلع محيي الدين ريقه وقال: نعم. اعترى ملامح أيانا شبحُ من الحزن الإنساني العميق المشبع بالوحدة، كانت هناك مساحة أن ينظر إليها من العالم من داخل عينيها. هذه النظرة لن تتركها أبدًا. خفضت رأسها. انتظرا. "اقرأ"، همست أيانا في نهاية المطاف. قرأ محيي

الدين شعر حافظ فوق حفرةٍ صغيرةٍ في الأرض، أصبحت بعد ذلك تلّة، وقام بأمرٍ لم يتصوّر أنّه قد يقوم به من قبل – أن يحزن على القطة الصغيرة.

"حيي نفسك بألف أشكالك الأخرى وأنت تصعد المدّ المخفي في طريق العودة إلى الوطن".

لم يستطع الاستمرار. أصابع صغيرة: يد أيانا متشابكة بيده. وقفا بصمت بانتظار لا شيء. صارعت منيرة التي كانت تراقبهما من الهامش مشاعرها المختلطة: غرابة تجربة أن تخوض معركةً دون أن تكون وحدها؛ مشاهدة مخاوف ابنتها تتبدّد ووجود من يعزيها. أحنت منيرة رأسها، كانت ما زالت تتوقع ضربة حتمية. ثمّ انشغل الثلاثي بمراقب آخر، وهو غريب غالبًا ما جاء إلى القبور القديمة في المساء للجلوس بالقرب من محتوياتها ومعالجتها. التفت ليركز نظره على الطفلة التي كانت عيناها المائلتا الشكل تمامًا مثل عينيه.

عاد محيي الدين في منتصف الليل لتغطية القبر وأيضًا زرع شتلات البابا. ذُهلت أيانا التي خرجت فجرًا لزيارة القبر، برؤية قطتها الصغيرة قد ظهرت مجددًا كنبات أخضر صغير بين عشية وضحاها. انساب هذا الاكتشاف إلى قلبها، ومن داخل جوهر وجودها، تلاشى الشعور الكئيب الذي كان قد اجتاح قلبها في اليوم السابق.

قارب صباحي مستأجر. رجل، طفلة. كان محيي الدين قد لجأ إلى البحر طلبًا للمساعدة. الآن، من الماء، ذابت الجزيرة إلى أشكال وأشكال يمكن لأيانا إعادة تسميتها، وحفرها في الذاكرة: قطار المانغروف، رأس محيي الدين، الطير الراقص وقدم منيرة. كانت أيانا أحدث شاهدة على العادات القديمة للمياه والرياح حيث اقتربت من هذه الجزيرة. قفزات يمينية متدحرجة، مقاربة خلسة، كمين، تعثر. استوعبت أيانا كل شيء. رأت كيف تحركت الحياة. عادوا مع المد في وقت مبكر من المساء. غفت أيانا بينما جدّف محيي الدين، وجفت الدموع التي كانت تكتسح روحها.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، ذهب محيي الدين إلى لامو لكي يحضر شيئًا، تاركًا أيانا في منزله، ومفاتيحه مع منيرة. عاد في اليوم اللاحق، حاملًا صندوقًا فيه مستلزمات دراسية ودفاتر جديدة، ليجد أنّ ألوانًا جديدة اقتحمت مجاله: الزهري والبرتقالي والأرجواني والأحمر والأصفر والأخضر. كان هناك أيضًا أشياء ناعمة رائحتها منعشة: قطن وحرير وساتان ودانتيل. سلاسل من الذهب والخرز الزجاجي تدلّت من المداخل، وتمّ تنظيف مقاعد

كرسيه وإصلاحها. كانت ملابسه براقة ومليئة برائحة البخور. خلقت منيرة مساحةً واسعة ممّا كان سابقًا عبارة عن أشياء مبعثرة. اصطدم محيي الدين بمنيرة في طريقها للخروج من منزله. تحولت بنظرها إليه، كانت تسير قربه حين أوقفها بيده وأحاط بها ذراعها.

"شكرًا لكِ"، قال لها.

هزّت رأسها له وهي تدمع: "لا، شكرًا لك أنت".

أفلت ذراعها ومشت بعيدًا.

بروحٍ منتعشة، واصل محيي الدين عملية التنظيف. بدأ بترتيب كتبه أبجديًا، كما كان يأمل دائمًا بفعل ذلك. عادت منيرة بعد يومين للمساعدة. كان محيي الدين يبدو قاسيًا وصلبًا. فهمت منيرة سبب ذلك عندما كنست كومة من الأغطية الورقية من أحد الرفوف ووجدت ما لا يقل عن ثلاثين زجاجة فارغة وخالية، داكنة وخضراء فاتحة اللون، فيها آثار رائحة الخمر وكانت مخزّنة وسط مجموعة من الأوراق والخرائط. لم تسأل. لم يشرح محيي الدين.

سئمت جزيرة بيت، التي كانت بحد ذاتها، مكانًا متحولًا، من الإشاعات حول منيرة ووصفها بأنّها ساحرة وعاهرة قد سحرت محيي الدين المرتد لتصبح جزءًا من حياته. ولكن بعد بضعة أيّام، وجدت منيرة رسالة مجهولة الهوية بيضاء وبنفسجية اللّون. وجدتها خارج بابها صباح يوم خميس. كان التصميم على القماش دقيقًا. كان القول المنسوج في الرسالة الموجهة إلى منيرة يعني: "ها هي الماعز الغبية؛ شاهد كيف تترنّح". حملت منيرة القماش إلى محيي الدين.

"هل لا زلت تريد أن تكون مرتبطًا بنا؟".

قرأها محيي الدين.

"لو كنت امرأة"، قال لها وهو يبالغ بتحريك وركيه، "لاستعرضت إجابتي".

فتحت منيرة عينيها المتسعتين. سارعت خطاها باتجاه الباب وتوجّهت مباشرةً إلى حذيفة الشيرازي. مسحت رفوفه بحثًا عن القماش الأفريقي. وحين وجدته، اشترت مجموعتين. بذخ. فرح حذيفة بأنّه بات جزءًا من الحكاية وأعطى منيرة خصم خمسين في المئة. كان مهتمًا بالنتيجة. كانت منيرة بحاجة إلى ثلاثة أيّام لتقصّ القماش وتحيك. في اليوم الرابع، راقب أهالي الجزيرة بأهلها الثرثارين قماشها الذي تدلى باتجاه سيو، وهي تلبسه وتترنّح فيه، بلونيه الأزرق والأبيض وقد كُتب على الثوب: "نيّتكم السيئة؛ سأقلبها

لصالحي". في اليوم الثاني، لبست ثوبًا بنيًّا وأبيض اللون. وقد كُتب عليه: "اهتموا بشؤونكم الخاصة". كان ذلك قولها المفضل.

أضاف محيي الدين إكسسْوارًا إلى عصا المشي المصنوعة من خشب الأبنوس اللامع التي كان يستخدمها في نزهاته المسائية، وكان عبارة عن خنجرٍ عند مقبضها. تجول في الواجهة البحرية للجزيرة متأبطًا ذراع أيانا. متباهيةُ بوالدها الجديد، بحثت أيانا عن معارفها القدامى من المدرسة، وخاصة الأولاد. في أعماق قلبها، فتشت أيضًا الأرض بحثًا عن الأب الغائب، الشخص الذي قد يظهر من أي مكان آخر، لكن حضور محيي الدين الهائل حجب نظرتها. "أيانا!"، التفتت. كان سليمان، رئيس الفتوة. تجاهلته وأخبرت محيي الدين عن التاريخ المؤسف حين حرك مقعدها في المدرسة عندما كانت على وشك الجلوس، لذا سقطت على الأرض. توقف محيي الدين ليعلمها ما يجب عليها فعله في المرة القادمة. أراها ركلة منخفضة وتلتها لكمة في الأنف.

هيا! هيا! اكسري إحدى عظامه. أشار بعصاه إلى سليمان، ورمه بنظرةٍ حادّة. هرب سليمان بعيدًا. عند استئناف تجوالهما، وصلا إلى رصيف أصغر لمشاهدة عودة أسطول الصيد. استمعا إلى نداء واستجابة الرجال الذين كانوا قنوعين بصيد اليوم. راقبا الماء معًا، وسألت أيانا، وهي تشاهد محيي الدين وهو يراقب البحر: "ما الأمر الجيد فيما يتعلق بالمياه؟".

"العواصف".

تردّدت أيانا وسألت: "ما الأمر السيّء فيما يتعلق بالمياه؟".

"العواصف".

ساد الصمت.

أكملا المسير.

على طول الطريق، صادفا زائرًا صينيًا كان يعبث بشبكة صغيرة، سيجارة رقيقة في فمه، ووجهه قبالتهما. كانت الشمس والرطوبة قد تركتا عليه آثار الأوساخ البنية. كان لقبه الأوّل في جزيرة بيت "مشينا نيهاو". كانت ابتسامته عريضة، عندما قابل أي شخص، وكانت إيماءاته تافهة: "ني هاو"، لم يهمل يومًا قول - مرحبًا. ولكن عندما صار يركض في الصباح الباكر، بدأ حذيفة في مناداته بـ"مزاي كيتوانا الرشيق". علق الاسم به، وبات الزائر الآن يجيب حين يناديه أحدهم به. انطلق محيي الدين وأيانا على طريق متعرّج يؤدي إلى الرمال

السوداء لمتانغوانا، حيث سيشاهدان وصول المراكب الشراعية وغيرها من القوارب. تلألأ الغسق الذهبي على الماء كما لو أنّه زجاج برتقالي. غارقة في الضوء، تأمّل محيي الدين أيانا.

"الانتماء" يتطلّب خريطة، فكّر. لا شيء حوله كان متوقعًا. أراد أن يناديها "ابنتي"، لكنّه عوضًا عن ذلك ناداها "عبيرة".

"نـ-عـ-م"، أجابته وهي تلحّن الكلمة.

استمتع بالهواء المالح، وشاهد صعود القمر على شكل سلة حمراء وصورة المرآة على الماء.

"ما اسمه؟"، سألت أيانا.

"من؟".

"القمر على الماء؟".

حكّ محيي الدين رأسه. القمر على الماء. القمر على الماء. لقد نسي معنى ذلك. اقترح "مهتابي". "ربما القمر".

"مهتابي. القمر"، قلّدته أيانا.

ولكن كان هذا أيضًا بمثابة نذير، هذا القمر الأحمر على الماء. لا يراه محيي الدين، كان مزاي كيتوانا بالقرب من شباكه. لقد أراد أن يرى القمر على الماء، لكن كان يصرف انتباهه عن مشهد أيانا، التي صارت تقف الآن على أطراف أصابعها، مطالبة محيي الدين بإصدار أمر للرياح لرفعهما عاليًا. ذكّره حضور الطفلة بحياة كان قد نسيها، وعندما أدارت رأسه، أو استدارت، أو استقرّت ساكنة أمام حضور البحر، استحضرت إليه طفلة أخرى من الصين.

Penye shwari na pepo upo

حيث الهدوء، هناك عاصفة أيضًا.

[14]

إرهاصات -الطيور التي تنقلها ريح الماتلاي واليعاسيب المغطاة بالشمس، وسمك السيف الذي يرقص تحت القمر، وسمك الببغاء المتلاحم بالرمال ـ كلّها حاكت الفصول المتغيرة للأرض، ونجومها المحتضرة، ووقت ذوبانها.

وفي بعض الأحيان، حاكت حطام الناس والأشياء ومصائرها والمآسي والحكايات التي تمّ جمعها حول الرياح الموسمية.

في أحيانٍ أخرى، ظهرت هذه الفصول مع غرباء وتركتهم وراءها على شواطئ جزيرة بيت السوداء.

إرهاصات – أحضرت أيضًا الاحتفالات الموسمية مثل عيد المولد النبوي وعيد الفطر أرواحًا من أطراف البحار عند عتبات الجزيرة وجمعتها مع بعضها البعض. من المؤكد أن ثلاثة على الأقل ممن دخلوا في ضيافة الجزيرة لم يغادروها. كان هناك من ينتمي للجزيرة، حتّى لو لم يدرك الأمر في قرارة نفسه، وكان يُعهد بالبقاء. كان هناك من حاول المغادرة، لكنّه لم يستطع ذلك. وكان هناك مَن من المتوقع مغادرتهم، لكنّهم كانوا يعودون للظهور بعد سنوات. دخل البعض إلى بوابات تلك الأرض، أحيانًا عراة، وأحيانًا وحدهم، وأحيانًا عراة ووحدهم وحتى موتى. أعادت الجزيرة تسمية هؤلاء. بعضهم حملوا أسماء مستعارة؛ لم تكن تلك مشكلة في جزيرة بيت. الأسماء هي مجرد علامات للدلالة. وحدها أخلاقهم أظهرت شخصياتهم، وكان هذا ما يحدّد إذا ما كان ينبغي عليهم البقاء أو المغادرة. عبر أشخاص آخرون الحدود إلى جزيرة بيت لتجاوز رموزها الخالدة. هؤلاء هم المصلحون المحتملون، جاءوا ورأوا ووبخوا وابتلوا ووعظوا وطالبوا الجزيرة بأن تغيّر ما فيها من أجلهم. ولكن دائمًا ما تدخلت الرياح العاتية لدفع هؤلاء بعيدًا.

وثمّ كان هناك الرجال – دائمًا الرجال – الذين بانت على وجوههم ملامح ماضيهم الذي هجروه على عجل. دخلوا جزيرة بيت ليختفوا هناك. تولى أمرهم جهاز الضيافة في الجزيرة. تحت ملجأ السقف، تشاركوا الوجبات والأخبار. وقد لوحظ وجودهم وهم يضحكون على النكات الجيدة؛ كان الضحك اختبارًا. أظهر معدن الرجال، وكشف أرواحهم

العارية. كان جوهرهم الحقيقة. بعد ذلك، كان يتمّ اصطحاب هؤلاء الرجال من قبل الإرشاد الروحي حول العائلة والمكان. هناك كان يتمّ رصد التوقعات، وبعدها يجد الضيف شخصًا آخرًا جاهزًا ليدخله في عالم الانتماء لجزيرة بيت. في إحدى المحطات من حياته، يعلن هذا الشخص الذي يصبح مرتبطًا بالعائلة ويتمّ التعامل معه على هذا النحو، الشهادة: أشهد أن لا إله إلّا الله...

بعد ذلك، يقوم المقيم الجديد في الجزيرة بطقوسٍ تعبّر عن تقديم حياته للمكان، يأخذ حمامًا للتطهّر ولإخراج الماضي من جلده، يرتدي لباسًا أبيض نظيفًا وجديدًا ثمّ يشعر كما لو أنّه في منزله. ربما عندها تُقدّم له عروس من الجزيرة. إذا تمّت الخطوبة، فإن الزائر سيباشر بالتجارة للحفاظ على منزله، ويجد نفسه مسجلًا في جزيرة بيت.

قرب نهاية عام 1995، هبط زائر -رجل جذاب ولكن شاحب، لا يبتسم، وقال إنّه من جزر القمر، على الرغم من أنّه لم يتحدّث كسكّان جزر القمر. جلس في القارب يصلي طوال الرحلة. ثمّ أغلق شفتاه حين رأى خيوطًا حمراء تتدلى من صاري القارب. عندما استعجل رفاقه في صلاتهم، وقف رافضًا هذا السلوك. كان صوته مهذبًا عندما طلب من النساء الثلاث في القارب، باللغة العربية، تغطية أنفسهن. قال إنّهنّ كنّ جميلات، وإنّ هذا الجمال يتطلب أن يحافظن عليه لله ولأزواجهن. تحولت وجوهن الثلاث إليه في نفس الوقت. وهمست إحدى النساء: "عندما تزور الضفادع، عليك أن تعيش كما تعيش الضفادع".

ثمّ أدرن أنظارهنّ عنه. انتظر الرجال رد فعل ذلك الغريب: لا شيء. حتّى الآن. عادت النساء للثرثرة حول ما بدا قصّة امرأة أنجبت طفلًا ابن حرام من الزنا، ولكنّها أيضًا هدّدت بالانتحار حين طُلب منها التستّر عن القصة وإعادة تنظيم حياتها، واستمرّت بحياتها غير الشريفة؛ وفوق كل شيء، كانت مؤخرًا قد قامت بسحر رجل مرتد الحكاية، ليشاركها في خرابها.

شعر الرجل الذي كانت يسترق السمع على حديثهنّ بعمق تضحياته: كان عليه تحمل الزنادقة الكافرين والكفار والمنادين بالتوفيق بين الأديان من أجل أن يحقق نظامًا جديدًا. غضب عندما قامت إحدى النساء غير المحتشمة اللباس بترداد أغنيةٍ كافرة وهي تغازل قبطان القارب. قال لنفسه إنّه لم يكن ليتواجد في هذا المكان لو لم يكن بحاجة إلى الاختباء. تجوّل الهارب في جزيرة بيت، كما لو أنّه صاعقة تصطدم بشجرة كبيرة قديمة من

جذورها. اعتبر أنّ ضيافة الجزيرة من حقّه. ولكن في غضون عام، رأى ووقع في حب فتاة من بيت -خجولة وسهلة الانقياد ومغرية ومتحمسة لكرمه الشديد. تزوجا.

مع مرور الوقت، جمع بعض الشبان في فريقٍ لكرة القدم وسمّاه كابول، من دون أن يخبر سكّان الجزيرة أنّه عاش وقاتل هناك. حوّل كل تمرينٍ رياضيّ إلى درس دين؛ ونادى لاعبيه بالمجاهدين. لقّب عارضتي المرمى بالـ "جنّة". أوقف المباريات من أجل الصلاة. كان صوت فضل العذب فيه لهجة مصرية وظهر ذلك في لفظه لبعض الأحرف. ومن وراء ظهره، ناداه أهل الجزيرة بفضل المصري. فضّل فضل الصلاة على أيّ شيءٍ آخر. حيّرت معرفته المعقدة بأمور الدين حتى الشيوخ. في المحادثات، كان دائمًا عاقلًا، حتى لو سخر من سكّان الجزيرة بسبب طرقهم المتزندقة. عرض عليهم تدمير مقابر القديسين القتلى. الوثنية. قابل الجميع فضل بالرفض كما لو أنّه مجنون عابر. في كثير من الأحيان، أبحر بعض المتطرفين الذين تصرّفوا كالأنبياء إلى المدينة لفرض آلهة سيئة على هذه الأرض الغامضة والحكيمة. استمعت الأرض المضيافة بأذن واحدة، وانتظرت وقت بيت لتخترق المتعصب، الذي استسلم أو غادر.

بقي فضل المصري في جزيرة بيت ثلاث سنوات. ثمّ، في إحدى الليالي، وسط موسم المطر، اختفى. ولكن بعد مرور شهرين ونصف، في السابع من آب/أغسطس من عام 1998، في تمام الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة صباحًا بتوقيت نيروبي، وفي العاشرة والتسع وثلاثين دقيقة صباحًا بتوقيت دار السلام، انفجرت القنابل وأودت بحياة أكثر من 200 شخصًا. ثمّ ظهر متطرّفٌ ملثّم وقال: "لماذا الشكوى؟ كانوا فقط الكفار من ماتوا".

بعد فضل، هبط الطاعون، وهو جيش أجنبي، بقوة على جزيرة بيت. مئة زوج من الأحذية العسكرية ساروا في الرمال السوداء. جاء الغرباء المسلحون للبحث عن فضل المصري، الذي ذهب. ومع ذلك، صرخوا بأسئلتهم: "ماذا تعرف؟ من تعرف؟ أين هم؟". ألقوا بأنفسهم على الأبواب القديمة، عابثين بالحياة القديمة، يحطمون الأشياء، يحطمون قلوب الناس الذين لن يعرفوهم أبدًا. هكذا اكتشفت جزيرة بيت أنّ البلد الذي ألحقت نفسها به قد أعطاها الظلام. اتهم الغزاة الجدد وحكموا وخشوا حتى المازي مهدي لعدم الإجابة عن أسئلتهم الإنجليزية الغريبة بسرعة كافية. مزقوا سترته الزرقاء. نزف من فمه المثقوب. استولت هذه المخلوقات الكبيرة الحجم والفارغة الذهن والرأس على سلال النساء

في السوق للبحث عن أسلحة الدمار الشامل؛ دفعوا أصابع داخل أفواه الأسماك أملًا في العثور على شيفرات سرية، وصرخوا مثل أبو منجل ليلًا ونهارًا، وأطلقوا أسلحة نارية على الأصوات غير المتوقعة.

في جزيرة كان نسيجها متشابكًا مع أشباح الأبدية، كانت الأصوات الغريبة عبارة عن جحافل. استحوذ الغزاة في وقت لاحق على جائزتي عزاء: شقيق زوجة فضل ووالدها المسن، وكان كلاهما من الصيادين، الذين غادروا المكان مقيّدين بالسلاسل. وسيتم حبسهم في زنزانة سجن مومباسا بعيدًا. سوف يتبع ذلك محاكم التفتيش الوحشية، لأنهم لم يفهموا ما هو مطلوب منهم عندما علموا أنهم "إرهابيون". حكم عليهم بالسجن لمدة عامين ونصف. بالنسبة للمحققين، لم يتمكنوا من تحمل حقيقة إنسانية بسيطة: أن فضل، الرجل، وقع في حب أخت صياد بيت، ابنة صياد بيت. لم يكن هؤلاء الواصلون بعد ظهور فضل أولى الوحوش الذين أملوا بالاستحواذ على الجزيرة، ولم يكونوا آخر من يغادرها، كم غادر آخرون قبلهم – حين يرتفع المد، لا بدّ له أن يسقط أيضًا.

في جميع الأحوال، وحتى يومنا هذا، في الجزيرة، لا تزال الشائعات تنتشر لشرح غياب بعض الأشخاص المفاجئ. إليكم واحدة: طفلة تبلغ من العمر ثمانية أعوام وتسعة أشهر سريعة النمو رقيقة وطويلة مثل سرعوف صلاة كانت تبحث عن سرطان البحر في المياه الضحلة المنخفضة. مستغرقة في بحثها، لم ترَ الغريب ذو الوجه الصلف يشاهدها مرتديًا لباسًا أبيض. التفتت. لم تكن معتادة على الخطر، فأخطأت الظنّ واعتقدت أنّ حضور الرجل من كرم الضيافة التي جرت في عروق سلالتها. أخفضت رأسها وألقت عليه التحية. ردّ عليها: "مرحبًا".

رأت عيونًا غارقة في فراغٍ واسع. التفتت إلى سلاطعينها، وأمسكت بسلطعونٍ بحجم برتقالةٍ تقريبًا بكمّاشتها. "سرطان البحر؟"، سألها الغريب. همست أيانا: "نعم سلطعون كبير".

قال لها: "أوهامٌ جميلة".

مدّ الغريب يده ليصافح يدها التي قلبها حتّى باتت تحدّق في كفّها. كان صوته شديد النعومة. "ها هي ذا. شهيدة الله الصغيرة"، "غمغم. "المختارة. دافئة جدًا. جميلة جدًا. فتاة ذكية ودائمة وجيّدة، عزيزةٌ على الله. شهيدة صغيرة".

تفاجأت أيانا. ملأت الدموع عينيها؛ كانت حزينة حول أشياء لم تعرفها. لم تتمكن من الحركة. ثمّ نثر تيار من الرياح المبعثرة ماء البحر البارد على وجهها. مدت ذراعيها، في حالة تأهب مفاجئ. عندما نظرت مرة أخرى، كان الرجل قد مضى. ولكن منذ ذلك الحين، عرف بطريقة ما كيفية العثور عليها عندما كانت وحدها، وتحدث إليها بابتسامة رقيقة. "شهيدة الله الصغيرة"، ألقى عليها التحية، "أنا آسف من أجلك". سألت: "لماذا؟". "أنت جوهرة وسط عشٍّ من الكفار والمرتدين والزناة". استمعت إليه خاملة، غير متأكدة ممّا يجب عليها القيام به.

"لكن حياتك مضمونة".

راودتها الأسئلة الضبابية طوال الليل وأصابتها بالأرق. "الطفلة المختارة". بقيت الكلمات تقفز داخل جمجمتها مثل الأغاني غير المكتملة، متكررة في حلقة؛ فكرت في الرجل الثقيل، حنانه، والنعومة التي لم تدخل يومًا عينيه. وجدها مرة أخرى في المساء التالي. "أنتِ تعرفين أنك ستفعلين ما هو صواب". لا إجابة. "شهيدة صغيرة، رائحة الجنة، جندية الخلود". لا جواب. "أنت جيدة، أنت على حق. أنت شجاعة". لا إجابة. "ستُطهرين القذارة. أمك ستُسامح وتتحرر. كم ستكون سعيدة. حرّة بسبب شجاعة بنتها، والمرتد سيغيّر أساليبه، أو سيغيّره أسلوبه". ظهر ظلّ ابتسامة على وجهه. "أنت تريدين هذا، أليس كذلك؟".

"نعم"، أومأت أيانا برأسها إيجابًا. كان صوته يحوم حولها. كانت مشلولة. كانت تستطيع سماعه فقط. قال: "سأساعدك". حدّقت، وثبتت عينيها على زبيبة صلاة على جبينه الشاحب. قال لها: "أنت تشعرين بالوحدة، أنا أعلم ذلك".

اهتزّ جسدها.

"لا أحد يبحث عنكِ حين تختبئين. غير مرغوبة. غير مطلوبة. أيّتها الفتاة المسكينة". وصلت دموعها الكبيرة إلى فمها. "يا لكِ من طفلة مسكينة". سقطت الدموع على ثوب أيانا. "هيا، هيا. ستنتصرين أيّتها الجميلة. ستنتصرين على أولئك الذين يكرهونك. ستكونين في الجنّة، شهيدة أمامهم. سوف يتشرّفون بكِ. سوف يمدحونك". تنهّدت أيانا. أضاءت عينا الرجل. اغرورقت عيناه بالدموع. "مسكينة، أيّتها الطفلة الطيبة". انحنى ليمسح دموعها بمنديلٍ أبيض، وأضاف: "لكنّك المختارة، وردة الجنّة الدافئة".

انساب الدفء تحت جلد أيانا، واندسّ في فراغات التوقف بين أفكارها. علقت في ذهنها الكلمات الباردة. أصبحت الكلمات تعويذة، تجتاح إرادتها، كلمة بكلمة. هتافات مزدحمة، بعضها كانت تتجه سريعًا إلى الرجل منخفض الصوت، تحدثت إليه كما لو كانت تنام. لن تتذكر كيف عادت إلى المنزل، أو متى.

على الرغم من أنّها كانت صغيرة، ولم يكن هذا متوقعًا منها في جزيرتها، إلا أن أيانا سرعان ما أخذت واحدًا من براقع والدتها لتغطية جسدها. استغرقت في الصلاة معظم اليوم، ضغطت رأسها على الأرض والصخور والبلاط -وبدأت من جديد إذا خافت من أنّ قبلتها لم تكن صحيحة. ابتعدت عن محيي الدين وتوقفت عن التحدث مع والدتها، دون أن تفهم السبب، شاعرةً كما لو أنّ الحياة تنفذ منها وأن قلبها كان دائمًا متعبًا.

في لقائهما اللّاحق، بدا الرجل حزينًا. "وحدة من عزّ وجلّ، وحدة الواحد أحد"، كرّر. قالت أيانا: محيي الدين... هو يعلم من هو سبحانه وتعالى". ثبّت الرجل عينيه عليها وقال لها: "أنا معلمك. لا يجب أن تتحدثي حتّى أسمح لك بالحديث". باتت ابتسامته عريضة وهو يتحدّث. تنهّد. "إنّ سبحانه وتعالى يحتاج إلى جندي شجاع ليقدّم له هبة الغضب".

"ما هو الغضب؟"، سألت.

أمسك بمعصمها ورفع ذراعها العلوي. "النصر". وضحك الغريب. على الرغم من أن صوته كان لا يزال ضعيفًا، إلا أن الصوت كان أكثر الأصوات غرابة من بين كل ما سمعت. كانت تنجرف وتنجرف وراءه. ثنى الرجل رأسه ليهمس مرة أخرى، وظهر وجهه أكبر من رؤيتها، وجعلها شيء ما في عينيه تفكر في الغرق -حتى ارتكب خطًا. قال "سوف تتخلين عن الكفار وعن المرتد محيي الدين. أنت عبدة الله المنذورة للجنّة...".

شعرت أيانا باهتزاز في قلبها كهرب جسدها كله وأنار عقلها. تطاير الشرر من عينيها. دفعت يديها إلى الأمام وصرخت: "لا! لا!". هربت، تسابقت ساقاها للوصول إلى الظلام الآمن. "إنّه والدي. لا! إنّه والدي"، كرّرت. ومع ذلك، سمعت الضحك الهامس خلفها كأنّه نوع من الهسهسة: "السر المقدس". بقيت تسمع هذا الهسيس حتّى عندما غرقت لاحقًا في النوم من فرط تعبها.

راقب محيي الدين أيانا وهي تتلاشى. كان يشعر بالقلق على الطفلة العصبية والشاحبة والباهتة والتي باتت منعزلة. لاحظ لامبالاتها. كانت تتهاوى في صلاة محمومة، مجتهدة

بشأن التوقيت، لكنها كانت تظهر منخفضة الكتفين كأنّ أحدهم وبّخها للتو. أراد محيي الدين أن يتحدّث في تلك المسألة مع منيرة. ولكن بعد ثلاثة أشهر، دفعت أيانا باب منزله، دخلت ورمت عن جسدها برقع والدتها، قفزت إلى خزانة البومباي وأقفلتها على نفسها. بعد أكثر من أربعين دقيقة من الصمت، استرق محيي الدين النظر ووجدها متكوّرة كطابة صغيرة. أغلق الباب، عابسًا. كانت الساعة الثانية بعد الظهر. في حوالي الرابعة والثلاثين دقيقة، فتحت باب الخزانة. في صوت وديع، قالت: "من فضلك، هل أستطيع أداء واجباتي في الرياضيات؟". عندما أتى موعد الأذان اللاحق، صمّت أيانا أذنيها. "يجب ألّا تسمعه"، قالت لمحيي الدين.

أتت منيرة لزيارة محيي الدين بعد ذلك بأمسيتين. مشت في الغرفة وهي تعضّ أصابعها. "هناك خطبٌ ما أيّها الرجل العجوز". انزعج محيي الدين. لم ترق له عبارة "الرجل العجوز". أمسكت منيرة بذراعه. "حين تعتقد أنّني نائمة، تأتي إلى سريري. تتمسّك بي بشدّة".

تنهّد محيي الدين.

سألته: "هل تتحدث معك؟ إنّها لا تتحدّث معي. هل تحدّثك؟".

قال محيي الدين: "لا".

راحت منيرة تبكي. تأثّر محيي الدين. "آه لا تبكي. سأكتشف ما الأمر".

أومأت منيرة برأسها إيجابًا وكذلك فعل محيي الدين.

. . .

انطلق الأذان بعد ظهر اليوم التالي – "الله أكبر" – وكانت أيانا قد دخلت الخزانة البومباي. "أيانا"، صاح محيي الدين، وعيناه تلمعان غضبًا. "تعالي إلى هنا". أغلقت باب الخزانة. "لا!". كانت أشبه بكائن متوحش صغير. اقترب محيي الدين باتجاهها، كان ينوي سحبها خارجًا. صرخت. "لا يمكنك أن تلمسني، أنا متّسخة لكنّني المختارة، وسوف أتطهر وأطهر معي الزاني والمرتد. ولكن في البداية يجب أن يجدني لكي أتمكّن من نشر نيرانه".

غطّت وجهها. قالت بتأتأة: "أنا أتعلّم الشجاعة المقدّسة عبر الاستسلام للإرادة العليا".

بدأت أيانا بالنحيب: "ولكن لا يمكنننني. لقد اختبأت من ذلك الرجل. وإن

صليت، قد يجدني سبحانه وتعالى، أليس كذلك؟ لذا لا يمكنننني".

فتح محيي الدين فاهه من شدة الدهشة. كان سؤاله الأول "ماذا؟" أشبه بالصرير. ابتلع الهواء حتّى يتمكّن من الاستمرار في الحديث. "ماذا؟"، صاح بشتيمة لم يستخدمها منذ كان في أولى سنواته في البحر. "ماذا؟"، حاول مرّة أخرى. "بحق الله، ماذا؟". "سبحانه تعالى"، قالت أيانا وقد أصابتها الحازوقة.

"ماذا؟".

همست له: "إنّه يبحث عنّي".

"ماذا؟".

أطلّت برأسها. كان الشعور بالعار مثل النار في وجهها. كانت تتعرّق. وضع محيي الدين يده الخشنة تحت ذقنها. رفع رأسها. لم ترَ أيّ اتهام في نظراته. لم يكن في عينيه أيّ نظرة اتهام تجاهها كذلك من قبل. كانت قد وعدته بأنّها ستقسم أسرارها إلى نصفين -مجموعة لها وأخرى لمحيي الدين. مسح محيي الدين الدموع عن وجنتيها بأصابعه.

"أنت تختبئين؟"، قال لها كأنّه يستخلص النهاية.

أومأت برأسها.

"أحدهم يبحث عنك؟".

أومأت رأسها بحماس، ثمّ عضّت شفتها السفلى. ساد الصمت. أفلت محيي الدين ذقنها وفرك يديه بعضهما ببعض.

"عبيرة"، قال لها؛ كانت المزيد من الدموع تنهمر على فكّي أيانا وبلّلت فستانها الطويل الذي زيّنته نقوش أزهارٍ برتقالية اللون. نظرت إليه.

كان الأمل بالنسبة لها هو رؤية محيي الدين منتفخًا وقد بدت ملامحه داكنة وأكثر ضراوة. انتفخت عينا محيي الدين وأحنى ذراعيه فاتحًا إيّاهما باتساع. أحكم قبضتيه. قالت أيانا بتحدٍّ وجرأة: "إن الله سبحانه وتعالى لن يمسك بي أبدًا". قال لها محيي الدين" لنبدأ من جديد يا عبيرة. قولي لي ببطء. لماذا يبحث سبحانه وتعالى عنك؟".

"طلب منّي ألا أخبر أحدًا".

"من؟".

كانت تنحل. كان صوتها مسكونًا، وكانت تكافح من أجل أن تتحدّث: "سبحانه

وتعالى، أرسل الرجل ليجدني".

"الرجل"، ردّد محيي الدين، وقد بدا غبيًا حتّى لنفسه.

تنفّست أيانا. "الرجل يقووول...".

ثمّ اندفع منها الكلام: "سبحانه تعالى يريد مجاهدات".

لوت أيانا أصابعها. "لكن، أنا، كنت أفكر أنّه من الأفضل أن يخبرني سبحانه تعالى عن الأمر بنفسه. أليس كذلك؟". نظرت وعيناها متّقدتان بالغضب إلى محيي الدين، وساد الغضب صوتها.

"طلب مني الرجل الابتعاد

عنك. لذا، أنا، أنا قلت له لاّ".

توقّفت عن الحديث لوهلة. لم يكن هناك أيّ رد فعل من محيي الدين. تابعت كلامها: "ثمّ هربت".

كزّ محيي الدين على أسنانه. انتشر البرد في جميع أنحاء جسده. كان صامتًا. اقتربت أيانا منه، بخطوات صغيرة، واحدة تلو الأخرى. عندما توقفت أمامه، انحنت إلى الأمام لتمسك بوجهه: "أخبر سبحانه تعالى أنّ قتل الناس من الأخلاق السيئة". أجاب محيي الدين مختنقًا: "سأفعل". ثمّ بنبرةٍ رقيقة، سأل: "الرجل؟ من هو الرجل يا عبيرة؟".

"أنت تعرفه".

أشارت إليه بيدها. "فضل المصري".

قفز محيي الدين في مكانه.

"بابو"، صاحت أيانا بذهول.

ألوت رأسها. "سبحانه تعالى غاضبٌ مني. أليس كذلك؟".

خرج محيي الدين الذي كان يفتش بين رفوفه وخزائنه، حاملًا هراوة.

"أبدًا ليس منك يا عبيرة. غضبك موجّه فقط نحو فضل".

سحب محيي الدين عصاه وخنجره المخفي ووضعها قرب الهراوة. تمتم: "منحط. هل البشر الآن قطع غيار؟". ضرب الهراوة بقبضته وهو يتكلم. "أنتِ ابقي هنا. اذهبي إلى غرفتك. نامي"، قال لها. "لا تفتحي الباب لسواي. وانتظري عودتي". تحرّكت باتجاهه، ثمّ توقفت. فتحت فمها للتحدث ثم أغلقته. "ماذا؟"، سأل محيي الدين. سألت أيانا وصوتها

يهتز: "هل سبحانه تعالى هو صديقك؟".

"نعم".

"فضل؟".

"لا!".

هزّ أيانا رأسها، ثمّ زفرت، وأخيرًا ابتسمت ابتسامة حقيقية.

في ليلة متأخرة من مايو من عام 1998، تخيّل أحد خياطي جزيرة بيت، الذي كان عائدًا إلى منزله مع ماكينة خياطة من ماركة سنجر وضعها على كتفه، أنّه لمح سبعة من البحارة في الجزيرة وهم يسارعون في اتجاه محدد في صمت. رغم أن هذا كان حدثًا غريبًا، إلا أنه لم يفكر فيه. لكن في الصباح التالي، لوحظ أن فضل المصري قد اختفى دون أن يودع أي شخص – وليس حتّى زوجته العزيزة، ولا حتى فريق كرة القدم الذي أسّسه. وبعد أشهر من استجوابه، قالت زوجته إنه غادر للقاء شخص ما في إحدى الليالي لكنه لم يعد إلى المنزل.

كان محيي الدين يصارع الشك. كان مفصله الأيمن يؤلمه، وكان هناك بقايا جلد على يده ووجهه. كان غاضبًا بسبب نقاش مع منيرة كان قد خسره قبل أن يبدأ حتّى به ذلك الصباح. تأوّه محيي الدين بشكل متقطع بينما كان يسير بخطى سريعة في الغرفة، بينما قامت أيانا، مرتديةً ثوبًا أحمر ساطعًا، بنسخ جدول الضرب سبع مرات. كان محيي الدين قد أوصل أيانا إلى منزل منيرة في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. بعد أن استقرت على سريرها، عاد إلى الغرفة الرئيسية وتراجع على طاولة، مقابل منيرة، ليشرح لها. "انا آسف. فاتني الأمر. كنت لأتصرّف بشكل أسرع لو كنت أعرف". سقط القناع عن على وجه منيرة التي لطالما ظهرت ملامحها محايدة لتظهر ملامح امرأة غامضة وغاضبة وقوّتها عارية تهدّد بأن تزجر إن استشعرت الخطر.

عاد الحجاب. سمعت منيرة محيي الدين في صمت، وكان رأسها مرتفعًا بشكل مصطنع. التقطت نهاية رداءها. تحركت شفتيها، العلامة الوحيدة التي أظهرتها للعاطفة. لكن احتوائها الذاتي تفكك مرة أخرى. انفلت منها صوت قصير كلما كرّر محيي الدين كلمة أيانا. تصاعد التوتر في كتفيه. شعر بحكة في الحلق. كان صوته بائسًا. أصابتها الحازوقة، وقالت: "لقد أصبح الله عز وجل جزارًا ليجعل من العالم مذبحًا الآن؟". لم يستطع محيي الدين أن

يشيح نظره عنها.

"شكرًا لك مجددًا"، قالت وهي تسعل. ثمّ مسحت وجهها بقطعة قماش بيضاء صغيرة. بعد ذلك، أمسكت بمعصمه المجروح بيدها بينما مدّت الأخرى لتتناول إبريقًا من ماء الورد. سكبت المياه المعطّرة فوق جلده، كان مزيجًا من مياه الورد وزيت القرنفل، ثمّ دهنته بمرهمٍ من بذور الكمون الأسود. قالت: "عيناك متورمتان". تمتم محيي الدين: "أنا ضربته أولًا".

بينما داوت منيرة الجرح، كان شخير أيانا يخفّف من الصمت المربك في الأجواء. بعد ذلك بقليل، قدّمت منيرة لمحيي الدين الشاي بالقرفة وقطعًا صغيرة من الحلويات المغلّفة بجوز الهند. كان خبز الموفا الذي تعدّه لا مثيل له. سألته منيرة: "ماذا أفعل الآن؟".

في ضوء شاحب أنار الغرفة، حدّق كلاهما بالبحر. استمتعا بالوجبة الخفيفة وتجنبا الإجابات. "هل هذا هو العالم الجديد الآن؟"، سألت منيرة محيي الدين.

ترقرقت الدموع في عينيها. ساد الصمت. ثمّ كلّمها محيي الدين الذي كانت نظرته بعيدة عن أشياءٍ كان قد سبق أن رآها. في عام 1958، قبل أسبوعين من شهر رمضان، شرح لها أنّه وجد نفسه في مصراتة في ليبيا، في شارع طرابلس، قال لمنيرة. كان في طريق عودته إلى الواجهة البحرية الزمردية في تاورغاء ، حيث رست سفينته. على أحد الطرق الجانبية، صرخ صوت خانق به: "أيّها الزنجي، يا عبد، يا أقبح من السواد". قال محيي الدين: "كان ذلك نوع الشرّ الذي يلوم ضحيته على أنّها موجودة أساسًا". استمعت منيرة. أكمل محيي الدين: "أن تكون إنسانا هو فنّ نادر؛ لا يعطى للجميع على قدم المساواة".

فرك بعدها محيي الدين العرق الملتصق بالقميص الأزرق الذي تشبث ببشرته. تغيّرت فجأة نبرة صوته وهو يجيب سؤالًا غير معروف. "ألسنا نحن أيضًا رجالًا؟ ألا نعرف شيئًا من الشرف أيضًا؟".

لفترة قصيرة، استمعا فقط إلى أصوات الأرض البسيطة في الخارج: الطيور والمحيطات والمرأة التي تغني والأطفال يلعبون ويضحكون وتدفق المد والجزر. قال محيي الدين: "لقد لاحظت أن النمل يحمل الطعام إلى أعشاشه".

"هل ستأتي عاصفة؟"، سألت منيرة.

"من المحتمل".

قالت: "آمل أن تأتي. ربما تطهّر هذا الشر". ثمّ كلمات: "أنا أحب صوتك. حتى في

حالة الغضب، أجده يحمل اللطف". نظر إليها مذهولًا. ابتسمت. تجمّد في مكانه.. "ثم": أنا أحب صوتك. حتى في حالة من الغضب فإنه يحمل اللطف. ابتسمت. تجمد. خففت الحرارة والرطوبة الكثيفة من رباطة جأشهما، وتباطأ بحثهما عن جدوى وحلول لعلاج عدم اليقين الوجودي.

جمعت الحرارة وخزنت الرائحة المنقولة بالرياح من المانجو المتعفنة وفسادها -شيء من جوهر سوائل الموت. نهضت منيرة. "يجب إحضار الأعشاب". كانت تئن من جديد وتغطي وجهها. "لماذا لا يغمرون أنفسهم في بقع خرائهم فحسب؟". أراد محيي الدين أن يطمئنها أنّ كل هذا سينتهي. مدّ يده، لكنّه سحبها قبل أن تلامس جلدها. حكّ لحيته. قال محيي الدين بنبرة صافية من حنجرته: "سوف ننقذ أيانا".

"كيف؟".

"سوف ننقذها من عبء الله".

كان رد منيرة باردًا وصعبًا: "محيي الدين ملنغوتي، يجب عليك أن تشير لابنتي فقط إلى الاحتمالات الأبدية. لم تولد لتضع لها حدودًا".

"الخطر –"، صاح لكنّها قاطعته قبل أن يتمكّن من الدفاع عن وجهة نظره.

"أصلح الوضع"، قالت منيرة غاضبة. "هذا ما يفعله الآباء".

أجاب محيي الدين مرتبكًا ومضطربًا ومبتهجًا بكلمة "الأب": "سأحاول".

تناول قهوته على عجل، وحرق لسانه وحلقه، ووقف لإطالة ظهره، وتخفيف الضيق في بطنه. عندما أطلق أنفاسه، قال: "سأستريح الآن". ساقته منيرة إلى الباب. ولكن عندما بات خارجًا، أمسكت بساعده من صدع في واجهة المنزل. سألته: "ماذا لو لم يكن هناك شيء للتمسك به؟".

فاجأ نفسه بأنْ مرّر يده على شعرها ولامس حواجبها، ولم يقل شيئًا لأنّ ليس لديه أيّ ضمانات.

[15]

لاحقًا، في الظلال الخافتة عصْرَ يومٍ ممل، جلس محيي الدين عند طاولته مقابل أيانا، ممسكًا بكتابٍ أخضر داكن. كان كلّ منهما يراقب الآخر، هو يشاهد كافة ملامحها من فكّها حتى يديها، وهي تراقب فمه ينفتح وينغلق.

علت ضحكة أيانا داخل الغرفة. "تبدين مثل... مثل سمكة كبيرة!".

"عبيرة؟".

"ممم"، أجابته.

نقشت أصابع محيي الدين وشمًا على الطاولة.

كرّر: "عبيرة. بعض الملاعين من هذا العالم يحلمون بشرب دمائنا. إنّهم بالطبع ممسوسون".

أشار إلى رأسه. احتضنت أيانا رأسها لتبعد عنها ناموسة. انحنى محيي الدين إلى الأمام ليضيف "إنهم مشركون. إنهم كفار باردو المشاعر. مرتدون".

"مرتدون"، قالت أيانا وهي تحرك رأسها صعودًا وهبوطًا.

قال محيي الدين: "صحيح".

تذكرت أيانا كيف وصف ذلك الرجل محيي الدين بالمرتد وهمست له سؤالها: "وأنت؟".

"أنا؟ لست سوى مجرد مهرطق متواضع".

وأنا أيضًا"، قالت بحماسة. "مثلك".

أمسك محيي الدين غطاء الطاولة. بعض الأشياء لم تعد مزحةً. وقبل أن تسمع منيرة ابنتها تقول هذا، سارع ليصحح لأيانا. قال لها: "لا تقولي ذلك. فقط الرجال مهرطقون". لكنّ أيانا أصرت أن تكون كذلك، مهما كان ذلك الأمر.

حاول محيي الدين مرّة أخرى: "هناك بعوض الملاريا، والتي تحتاج إلى أن تعض. إنّها تحمل وتنشر المرض والأمراض. وكذلك بعض الناس". درست عينا أيانا ملامح محيي الدين. "لماذا؟"، سألت، لم تفهم كلماته. في الخارج، صاح غراب. تغيّر ضوء الشمس، وأحاط الأشياء في الغرفة بهالة. فكّر محيي الدين مليًا. "لا يمكن تفسير البشر". توقّف عن الكلام. أدرك

أنّه لن يكون بوسعه أن يمنع رعبًا ما غير متوقّع من أن يسلب أيانا فرحها، أو مأساةً ما من أن تسرق حياتها. أحكم قبضته، واحتقر عجزه. رسمت دوائر على الطاولة بأصابعها وانتظرته لكي يجعل العالم آمنًا مرّة أخرى. همست له: "هل سيعود؟".

"لا"، أجاب محيي الدين، لم يكن يعلم أنّ جيشًا غازيًا كان في طريقه إلى جزيرتهم، وإنّ تداعيات ما حلّ بفضل من شأنها أن تشوه مصائرهم. صمت لوهلة ثمّ قال: "إذا اقترب منك أي شخص بالطريقة التي اقترب منك بها ذلك الرجل، اركضي. اركضي فحسب". انتفخت عينا محيي الدين قبل أن تصبحا حمراوين. "هل تعدينني بذلك؟"، قال بصوتٍ متكسّر. لامست دموع محيي الدين قلب أيانا. انحنت لتمسح عينيه. "لن يأتي الرجل الشرير بعد الآن. أنا سعيدة". أمسك محيي الدين بوجه أيانا، ضاغطًا إيّاه. كان صوته كثيفًا: "لماذا تحبين البحر؟". ارتجف محيي الدين. عبست. أصرّ: "تشعرين بالبحر في داخلك وخارجك، أليس كذلك؟". أومأت برأسها إيجابًا. "ذلك الشعور... هذا هو الحقيقة. هكذا يتكلّم سبحانه تعالى".

ماذا أمكنه أن يضيف؟ الجمال؟ أمسك بيدي أيانا. "باسم الله"، قال لها.

تذكّرت وحاولت أن تقلّده: "بسم الله الرحمن الرحيم...".

رجاها: "ببطء... ببطء". كرّرت العبارة. قال محيي الدين: "نعم هكذا! نعم هكذا!". ثمّ مرّر أصابعه على شعر أيانا وأعاد ربط شرائط شعرها المختلفة الألوان. لم تكن بحاجة بعد أن تعرف أنّ هناك أنواع أخرى من تجّار الأرواح القبيحين، كيانات فارغة ستحاول السيطرة على جسدها وعقلها وقلبها وذكرياتها ودمائها وروحها وإرادتها وأحلامها ورغباتها. ليس بعد. لم تكن بحاجة أن تعرف هذا بعد. ليس بعد؟

لذا تنفّس محيي الدين فوق رأسها، كان يرجو لأيانا السلامة الأبدية. أراد أن يمسك يمحو كل الفوضى من هذا العالم وينظّفه لها، أن يجد كلّ أشباه فضل ويكسر أعناقهم ويمحوهم من الوجود. تنفّس محيي الدين وتهدّج صوته: "عبيرة، اكتبي بسم الله بالأزرق والأخضر والأصفر والأحمر. ولوني الزهر والبرتقالي".

"والبنفسجي"، أضافت عبيرة.

"عبيرة"، قال محيي الدين، "هذا الكتاب – أشار إلى الكتاب الذي جثمت عليه؛ لم تتحرك أيانا – هو لكِ". استغربت عنوان الكتاب.

"شعر رابعة العدوية. لقد أشرت إلى بعض الأسطر لك. ابقي قريبة من رابعة. ستهتم

بك". كان يأمل ذلك.

على مرّ الأيّام والأسابيع والأشهر، ولاحقًا على مرّ السنوات، على مكتبٍ خشبيّ نقله محيي الدين من منزله على غرفتها – هذا المكتب الذي سيتحول لاحقًا إلى مزارٍ تحفظ فيه كل كنوزها التي جمعتها من أقلام خط وكتب – أتقنت أيانا كتابة بسم الله بخطٍ جميل. ومع مرور الفصول، تعلّمت أن تقلّب صفحات الكتاب الأخضر القديم لتجد كلمة أو عبارة أو سطرًا لكي تستمع إلى رابعة قبل أن تنهي يومها.

على الفور تقريبًا، عادت أيانا تتمتم الصلوات مرة أخرى – وهي تتحدّث عن أشياء بسيطة كأن تطلب من الله أن يحمي والدتها أو محيي الدين الذي تحوّل إلى عوضٍ عن والدها الذي كان لا يزال مفقودًا.

في أحد الأيّام، سحبت صورةً قديمة لوالدتها لتضعها على طاولتها. ثمّ ذهبت إلى محيي الدين وطلبت منه صورته. أعطاها صورةً له وهو يطلّ على البحر من سطح سفينة. لصقتها على سطح الطاولة وغطتها بالبلاستيك، كما لو أنّ هذه الصور تحرس راحتها وأيامها. ومع ذلك، خلال بعض الليالي، دخل فضل إلى أحلامها ليشعرها أنّها تستنشق الموت والنار والوهم. أحيانًا كانت تقوم من نومها وتختفي تحت سريرها. وأحيانًا أخرى، كانت تحول تذكّر محيي الدين وأنّه أقوى من فضل. وكانت تعود إلى سريرها وتغفو.

بعدما حدث مع فضل، أرادت منيرة من أيانا أن تبقى قريبةً منها. حين حطّ الجنود الأشرار، رجالٌ عطّلوا عملها وبعثروا أغراضها – رجالٌ مثيرون للاشمئزاز يتعرّقون ولا يعرفون اللياقة – أرادت أن تبقى أيانا على مسافةٍ قريبةٍ منها. انضمّت أيانا إلى عمل والدتها واستمعت مع شيء من الغيرة إلى أصوات الأطفال وهم يلعبون في الخارج. خلال عطل نهاية الأسبوع، كانت حرارة وألوان وأصوات الكثير من الإناث اللائي اغتسلن وتدلّكن وتزينّ ودهنّ أنفسهنّ بالبخور والزيوت تحت إشراف والدتها تملأ المنزل. من شدة شعورها بالملل، تنصّتت أيانا على أفكارهنّ ومشاعرهنّ وتجاربهنّ.

ساعدت أيانا في مزج الحنّة مع الليمون ودبس السكر والشاي الأسود. راقبت والدتها تعجن الحناء بملعقة صغيرة وتضعها في مخروط صغير بأحجام متنوعة، ثمّ ترسمها على بشرة إحدى النساء.

سرعان ما سُمح لأيانا بإضافة المكوّنات لخليط والدتها من العشاب، ومن ضمنها

اللافندر والقرنفل، ووضعها في وعاء داكن لاستخدامها لاحقًا. أشرفت منيرة على عملها بفخر، في البداية خلطت الحنة لعروس تدعى آشا: أجزاء مثالية من اليلانج والياسمين والعديد من بتلات الورد والقرنفل وخشب الصندل، بما في ذلك ماء الورد الخاص بمنيرة، والذي كان شديد التميّز بحيث أتت النساء من أماكن بعيدة مثل طنجة لشرائه. كانت النساء قد اجتمعن في وقتٍ سابق في المنزل لتقشير جلد آشا.

همسن للعروس حول كيف ستصبح امرأة بطرقٍ مختلفة. نساءٌ أخريات أرسلن أيانا بعيدًا في مهامٍ سخيفة لكي لا تستمع لتفاصيل ما يتحدّثن عنه، لكنّ أيانا حاولت أن تسترق السمع بجميع الأحوال. لم تفهم معنى جميع الكلمات التي تحدّثن بها عن الزوجين ولا لم تصاحبت هذه الأحاديث مع ضحكات وصلت إلى أقصاها أثناء تجهيز العروس؟ قبضت منيرة على أيانا وهي تتنصّت على النساء في الغرفة.

"لول، اذهبي واملئي الماء من البئر، وإن رأيت أيّ من أشباح أولئك الأجانب، اركضي إلى المنزل. بعد ذلك، اقطفي الياسمين من سطح المنزل. هل تتلكئين؟ لا تختبري صبري. لن أتساهل معك. يمكنك أن تستمعي في اليوم الذي يصبح فيه نهداك بالحجم المناسب. الآن اذهبي. لا تتأخري. فقط اتركي الشمس تبخر إكسيري وعندها سأناديك!".

مضت أيانا وهي تحلم باليوم حين سيحين دورها ليلامسها الجمال والروائح العطرة وتخبرها النساء الأسرار وهنّ يضحكن في حديثهنّ عن أمورٍ ستتيح لها دخول عالم النساء. فركت صدرها أيضًا لترى ما إذا كان نهداها قد كبرا. ولكن لم تكن هناك أيّ بوادر لذلك بعد.

[16]

انخفاضات أرضية. عرضٌ آخر لقمر أبيض على شكل سلة. قارب ينزلق إلى القناة. في داخله كان هناك رجلٌ، توأمٌ نجا وتمّ نقله إلى الجزيرة مع أخيه توفيق، حين كان عمرهما ست سنوات. مثل كل الأطفال الذي كان آباؤهم بحارة، اعتاد هو وشقيقه مراقبة المياه بانتظار

عودة والدهما، محيي الدين. في وقت قريب جدًا، وجد الولدين أنفسهما في نفس الرصيف في فبراير 1969، مع عمة لم يقابلاها من قبل، وانطلقا للانضمام إلى والدتهما في اليمن.

حطّا هناك ليكتشفا روابط عائلية جديدة: شقيقة ووالدٌ آخر ومدرّس حشا قلبيهما بذكرياتٍ جديدة. في ذلك اليوم الدافئ من شهر نوفمبر في سنةٍ كان الغضب فيها قد تسبّب بإسقاط برجين بعيدًا من هنا، وتدّلت خيوطٌ حمراء من صاري المركب الذي أعاد زرياب راميس، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، إلى شاطئ جزيرة بيت. ملأ الدخان رائحة ملابسه وكان شعره الأشعث والناعم غير ممشطًا. كانت عيناه أشبه بمدخلين إلى قبر. تمتم لنفسه: "المحيط بلد قديم". في حياتهم الجديدة، كان يجب أن ينتهي كل شيء بشكل جيد. لكن ذلك لم يحدث. عدّل زرياب نظاراته، ولمح خاتمه الذهبي بشريطه الياقوتي في الضوء. مطاردة النار. ثمّ الرماد. ثمّ الظلام. ثمّ لا شيء. المحيط بلد قديم. عندما كان بإمكانه الخروج من تحت الأرض التي حاولت دفنه بالكامل، ملطخًا بالدم والكدمات، كان زرياب، الذي تحرك وفق الأدرينالين الذي يسري في جسده وحده، بحاجة إلى الاختباء. المحيط بلد قديم. أولًا، مثل معظم الهاربين، استخدم الظلال والتجاويف والثقوب، وهو يتربص في الأدغال، ويختبئ في قنوات المياه تحت الأرضية، ويسرق برقعًا لارتدائه فوق ملابسه حتى يتمكن من السير بين الرجال، بحثًا عن مخرج.

قادته الغريزة إلى موانئ أقل شهرة ومواقع هبوط مؤقتة على طول الساحل الممتد الذي يعرفه المسافرون في أعماق المحيطات. سافر على متن قارب حتى مدينة المخا، جنوب الحديدة. بقي هناك حتى وجد زورقًا صيادًا يعمل بمحركٍ ليلًا خارج السجل، وكان متجهًا جنوبًا. تجاهله القبطان: إنّه يطارد الرياح. كان زرياب ينوي التخلي عن هذا القارب في مدينة كيسمايو الصومالية. لحسن الحظ، في تلك المدينة الساحلية، كان بالفعل في بلده -كان يمكنه أن يسبح إلى وجهته إذا لم تكن هناك أسماك قرش كامنة.

المحيط بلدٌ قديم. ثرثرة القوارب. استمع زرياب. كان البحارة والملاحون يسخرون من بعض "الأحذية" التي اجتاحت الجزيرة. ساد صراخ الرجال، أمرٌ من هنا وأمرٌ من هناك، ارتدى صدى صرخاتهم في الهاوية. "الإرهابيون" -الاسم الذي أطلقه عليهم سكان الجزر -قفزوا من المروحيات التي هبت رياحها على سطح المسجد. وشرعوا في ركوب القوارب وإلقاء القبض على الناس على أساس الاسم وشكل اللحية. فتشوا كما تفتش القوارض. قاموا

بتفتيش الخزائن النسائية مطاردين الظلال. استمع زرياب إلى أحاديثٍ وتمتمات بالهمس. بدا الأمر كما لو أن الإرهابيين قد علموا أن حماستهم خلقت استياءً لم يكن موجودًا من قبل. كانوا يحاولون الإغواء الآن.

قال البحار: "راقبوا السحالي المتنكرين كما لو أنّهم صفارات إنذار". ساد الضحك على متن القارب. كانت أهداف أصحاب الأحذية أن يكسبوا القلوب والنفوس ويغيروا العقول. لقد أعلنوا، في الحقيقة، أنهم جاؤوا لمساعدة سكان الجزر. أخذوا على عاتقهم أن يحفروا بئرًا. والآن، غرق جميع الأشخاص الذين كانوا على متن هذا القارب في الضحك، الضحك الذي يتسبب بالدموع. كانوا يفهمون النكتة؛ لكنّ زرياب لم يفهمها. متغلغلًا في معطفه، انتظر لسماعها. انحنى ليهمس للبحّار الأقرب إليه وسأله: "ما الذي يثير الضحك إلى هذه الدرجة؟".

"آه يا رجل، أنت زائر؟".

"نعم... من... من... تركيا"، ارتجل.

"تركيا؟ كيف الناس هناك؟ بجميع الأحوال...".

انغمر الرجل في الضحك. وبين ضحكاته، أخبر البحّار زرياب أنّ هؤلاء الرجال في الأحذية شرعوا في حفر بئر دون أن يخبروا أحدًا ومن دون أن يطلب منهم أحد ذلك.

استغرق الأمر ستّة أشهر – على الرغم من أنّ آبارًا أكبر تمّ حفرها في أماكن أخرى خلال ثمانية أيّام – وحين كانوا يبنونه، أحاطوه بسياجٍ معدنيّ كبير، فيه أربع نقاط حراسة – رجالٌ مسلّحون نظراتهم حادّة. حين باتت البئر جاهزة، كان ذلك منذ ثمانية أشهر، افتتحوها بأغانٍ وخطابات بلهجات إنجليزية متنوعة أمام وفود من بقية العالم.

بعد ذلك، قاد رجل عسكري رفيع المستوى، احتوى معطفه على المعدن أكثر من القماش، السفير لقطع الشريط الأحمر عند مدخل البئر بمقص حاد. وعندما تم سحب الماء للمرة الأولى من البئر وعرضه على السفير للشرب، شربه وظهرت له الحقيقة. أظهرت ابتسامته الصفراء لأهالي الجزيرة أنّه هو أيضًا اكتشف ما عرفه حفارو آبار جزيرة بيت منذ عقود: كانت مياه بيت تحت الأرض كريهة، وعبارة عن ملح مركز، وكانت كذلك لمدة ثلاثمائة عام تقريبًا. بعد ذلك اليوم، لم تتم الإشارة إلى هذه البئر الجديدة مرة أخرى. ومع ذلك، كانت الأحذية تخطط لمشروع جديد يكسبهم قلوب سكان الجزيرة ويمكّنهم من مساعدة أنفسهم.

كانوا يبنون حفرة مرحاض حيث لم يتم بناء أي مرحاض في المكان من قبل. أحاط بهم منظر طبيعي يحتوي على أنقاض لقنوات مياه الصرف الصحي التي يبلغ عمرها 700 عاما وحفر المجاري. كان قبطان القارب يشخر. على متن القارب، علت الضحكات الساخرة. لم يكن من المتوقع عودة الجحافل الهمجية. لقد مرت أجيال منذ أن عبر على جزيرة بيت أناسٌ لا يفهمون أيّ شيء عن الضيافة الإنسانية. ساد صمتٌ مربك على متن القارب حتّى قال أحدهم: "سوف ينسجون شباكنا قريبًا". اهتزّ القارب من فرط التسلية. "ويخيطون ملابسنا". ضحكات. بصوتٍ خافت، سأل زرياب راميس: "وأين هم الآن؟".

"لقد سلّمهم الكفار في نيروبي إلى ماندا"، صاح صوتٌ مكتئب. ثمّ ساد الصمت مرّة أخرى.

كان هذا آتٍ من جراح الخيانة: في البداية من قبل فضل المصري، ولكن الجرح الثاني كان أشدّ وكان كان أخطر ما في الأمر أن الدولة الكينية قد خرقت عهد الملكية والحماية، وسلّمت الجزيرة لاحقًا إلى جحافل أجنبية قاتلة. على الرغم من ذلك، ارتاح زرياب على الفور. كان ذلك في ماندا. ليس هنا. كان ذلك كلّ ما يحتاج أن يعرفه. والآن كان بإمكانه أن يستسلم للجوع والخوف والحزن والإرهاق. انطلق زورقهم في قناة المانغروف، وألقت الظلال الطويلة أشباحها فوق قلب زرياب الهش. مياه متقطعة. كانت هناك أحجار تحت سطح المياه؛ آلاف من القوارب الغارقة تعفنت هناك. تذكر القصص التي رواها في الليل عن حطام السفن وعن أشباح القوارب التي ظهرت في العواصف في محاولة لإعادة التواصل بالرحلات التي لم تنتهِ. ثمّ رأى أطفالًا يصطادون السلطعون بين غابات المانغروف. ارتجف. كان هذا أبعد مكان على الأرض عرفه. يمكنه أن يجعل نفسه غير مرئي هنا.

كانت هناك العطور والخلاصات التي يمكن لمحيي الدين أن يمزجها والأدعية والتعويذات التي أعدّها؛ وكان هناك طعامٌ لمضغه وإطعام ابنه العائد. كانت هناك أدعية تلاها يوميًا؛ تضمّنت كل كلمات حافظ التي عرفها. كان بإمكانه حتّى أن يتخلّى عن سريره. لكن بقي ذلك العالم الحزين وغير المرئي الذي سكنه ابنه بعيدًا عن قدرته على استيعابه. رفض ولده الكلام. حدّق زرياب راميس إلى والده بنظراتٍ فارغة؛ وحين كان يغفو، أعادته الكوابيس إلى اليقظة مع بكاءٍ حادّ.

بقي محيي الدين قرب سريره، كما لو أنّه أنثى نعامة تحوم حول طفلها، يمسح العطور

والأعشاب على مفاصله ونقاط الأعصاب في جسده وبوابات روحه. مسّد جبين زرياب وداعبه وواساه وتعامل معه كما لو أنّه طفل صغير. نم يا ولدي نم. هناك علاج لكل مرضٍ من أمراض الحياة. كانت مشكلة محيي الدين مشكلة قديمة -معرفة كيف ومتى يتعرّف على الإكسير عندما يقدّم نفسه.

بقيت أيانا ومنيرة قد ابتعدتا عن محيي الدين بعد ضجة القاء الأوّل. كان زرياب قد هبط في الماء من القارب عند رصيف الميناء متعبًا. انضم محيي الدين إلى بعض الرجال الآخرين لنقل هذا الغريب من الماء. سحب رجل جواز سفره الغارق بالماء وقرأ اسمه. عند سماع الاسم، وجد محيي الدين ابنه الذي سقط عليه ورفعه وحمله إلى منزله، ورفض كل مساعدة. كان ينتحب ويصيح بكل من أتوا للمساعدة: "اتركوا ابني، اتركوا ابني".

بعدها، أرسل محيي الدين رسالة إلى منيرة وأيانا: "إنّه يحتاج للوقت. أنا أحتاج للوقت. سنبحث عنكما حين نصبح مستعدّين".

يوم. أسبوع. انتظرت أيانا. استرقت النظر إلى منزل محيي الدين من كل الزوايا الممكنة. نظرت من تحت النوافذ وحاولت أن تفسّر الأصوات والتحركات التي سمعتها. تظاهرت منيرة بعدم الاكتراث. ولكن في أحد الأيام، استسلمت وسألت أيانا: "ماذا ترين؟ هل قال شيئًا؟". وفي منتصف إحدى أمسيات الأسبوع الثالث، جرّت أيانا منيرة إلى باب محيي الدين؛ وتركت منيرة نفسها تنقاد إلى هناك. وحملت منيرة ماء وردها المشهور إلى محيي الدين.

حين فتح محيي الدين الباب، صاحت أيانا على الفور: "حتّى أنا، ألست لك أنا؟".

رفعها محيي الدين وخبأ وجهها عند عنقه ليستعيد ذكرياتٍ جميلة – مثل أغاني البحر – بينما رقصت عينا منيرة لرؤيته. كاد يبكي حين سلّمته منيرة العطار. غطى يديها بيديه. "لقد استغرق وقتًا طويلًا"، قال لها. "ادخلي".

داخل المنزل، بدأت منيرة بالتنظيف ومسح الغبار وتعديل الأشياء وإعادة ترتيب المفروشات. "أيانا! أحضري لي الماء"، نادتها. اعترض محيي الدين. "لنجلس فحسب، لنتحدث. كيف هو العالم من دوني؟".

قالت منيرة وهي تقهقه: "أفضل من العادة".

ثمّ مسحت رفًّا كان سبق لها أن مسحته. "يا للغبار".

بهذه الطريقة، هربت من دقات قلبها المتسارعة وشعورها الغريب تجاه ذلك المخلوق

الغامض والكثيف الشعر والذي كانت بحاجة إلى أن تراه.

أخرجت أيانا أحد كتب شعر حافظ الذي كان قد سبق لها أن سحبته من رفوف محيي الدين. "اقرأ"، قالت له. ربّت على رأسها. "قولي لي أرجوك".

"لا"، أجابت.

"لا؟"، سأل محيي الدين رافعًا حاجبيه.

حدّقت به أيانا. أخذ الكتاب. "لنرى... شيء ما حول حسن السلوك".

"لا"، قالت أيانا، "شيء ما حول الاختفاء". وأضافت بتحدٍ: "و... والنسيان".

ارتعش صوتها وهي تتفوه بتلك الكلمة. انحنى محيي الدين ليحدّق في عينيها. لامس جانبًا من وجهها وقال: "أنا هنا".

اختار بيتًا من الشعر لقراءته:

"صبّ النبيذ الأحمر بهدوء مثلما تسكب مياه الورد في وعاء بينما نسيم عبق لفة...".

في مكانٍ ما في الخارج، نعق غراب؛ استدعى المؤذن الناس للصلاة؛ نهق الحمير؛ ضحك الأطفال. الحمير ترسخ. تدفق البحر بصوت عاصفة تمر في مكان آخر. مطر متناثر. في الداخل، أغلق محيي الدين إحدى النوافذ، ليحيط الموجودين بعالمهم وحبهم وكلماتهم وحافظهم. "كيف حاله؟"، همست منيرة. "حياته حريق هائل"، قال محيي الدين بنبرة يائسة: "أجمع رماد الروح بيدي. ابني يموت". هرعت أيانا ولفّت ذراعيها حول خصر محيي الدين. مسّد رأسها. "هيا لنجلس ... لبعض الوقت. قولي لي أخبارًا جيدة. كيف حال فتاتي؟". كان صوته شديدًا.

في الأعلى، تحرّك زرياب راميس. كانت الأصوات الناعمة تطوف باتجاهه. لم تكن لديه القوة بعد ليفتح عينيه، لكن كان بإمكانه أن يستنشق رائحة ملح البحر وشيئًا من الياسمين والورد. حاول فكّ شيفرة الأصوات التي سمعها. صوت طفلة مرتع: "البحر أتى به... أتى به؟". وبعدها صوتٌ عميق ومألوف كان يقول: "ابني". أجابت امرأة: "إنّه أجمل منك". عاد الصوت العميق: "ابني". تمسّك زرياب بصدى ذلك الصوت العميق وهو يحاول أن يخرج ببطء شديد من حلمه الملطخ بالسواد.

بعد خمسة أيام، ضربت عاصفة الجزيرة. هطلت أمطار دافئة على صفائح عريضة أغرقت الأرض وأسقطت البحر في رغوة مستعرة. جلست منيرة وأيانا ومحيي الدين على

بساط من القصب في معرض محيي الدين مع شرفته المطلة على البحر. تشاركوا الحلاوة والقهوة بنكهة الزنجبيل وماء الورد. نسج محيي الدين حكايات حول وحوش البحر، وطرقه العديدة في تحدي العواصف. وأوضح أنه عندما واجه موجات أكبر من الجبال لإغراقه واجتاحها من على ظهر سفينته، انهارت وتراجعت في آخر ثانية.

تحدّث عن توسل وبكاء الجنّ الذين وقعوا في غرامه، توقهم إلى أن يعطوه أيّ شيء، لو فقط منحهم ومضةً من وجهه. عندما حكى تلك القصص، لم يرفّ لمحيي الدين جفن. في معاركه التي رواها، لم يخسر يومًا. في تلك اللقاءات مع الرجال الأقوياء والشجعان، كان دائمًا الأقوى والأشجع، وبالنسبة للنساء بجمالهنّ الأخّاذ، كان هو دائمًا الجائزة. في ذلك اليوم المتهوّر، صعد إلى الطابق العلوي وعاد مع خريطة صفراء بنية في كتاب داخل كتاب.

ما رأوه: قصيدة حلم بالخط الكوفي. نجمة. خريطة. طريق. رحلة. وجهة. شيئًا ما. أخبرهم محيي الدين – نصف حديثه كان كلامًا، والنصف الآخر أغنية - كيف استعادها من الدرج الداخلي لرفّ في خزانة سوداء داخل منزل متهالك واقعٍ في النصف السفلي من متاهة. حدقوا في الورقة، كأنّهم يحثّونها على الكلام. همست بعدها منيرة كلامًا حول الخوف من الصدأ في مكان واحد، والركود وعدم السفر أبدًا لتجربة أماكن أخرى من العالم. ضربت الخريطة بيدها. في الخارج، صفرت الرياح. هووووووووو! وأجابها المحيط: واااااا! وعندما بدأت خيوط الليل بالتسلّل، شعروا أنّهم ليسوا مستعدين بعد لمغادرة بعضهم البعض.

صاحت أيانا: "ليس بعد". رفع محيي الدين نفسه ومدّ يده ليسحب أحد الأثواب الزرقاء ولفّه حول جسده. كانت عيناه تدوران في مكانهما وجسده متصلّب، حاول تحريك وركيه. ثمّ راح يدندن أغنية سرعان ما فكّ جمهوره الهستيري شيفراتها وعرفوا أنّها أغنية عمرو دياب "حبيبي":

"حبيبي يا نور العين يا ساكن خيالي، عاشق بقالي سنين ولا غيرك في بالي...".

كانوا متحمّسين. قوّست منيرة، التي لم تشعر على هذا النحو منذ كان عمرها 19 عامًا، ظهرها كما لو أنّها طفلة تقرأ النجوم وتختلط داخلها ألحان الطرب. أخذت فكرة محيي الدين عن الأغنية وأضافت لها ألحانًا مبالغًا لمغني زنجباري معروف بإطالة أحرف العلة في الموسيقى لجعلها تمايل وتتذبذب. غنت منيرة:

"لا أرى زهرتي التي أخذتها؟ اسمح لي أن أشجعك على إعطاء أزهاري القديمة المسيجة...".

حتى في تقليدها للغناء، فتحت منيرة بوابات مجهولة وكشفت عن مآسٍ مالحة ومرّة وهزّت الاستقرار الذي كان سائدًا. بينما غنّت، فتحت براعتها الطريق للأرواح المرصوفة بالحصى. توقف محيي الدين عن الغناء، وتوقفت أيانا عن ضحكها الهستيري. استمعا بكل بساطة لغناء منيرة، بينما رفرفت أجزاء من كائناتهم فوق الشرفة لينظروا عبر الضباب إلى الأمواج الزرقاء الفضية في محيط من الرغوة، يبحثون عن شيء لا يمكنهم تسميته.

من سريره المغطى في غرفته، استرق زرياب راميس السمع على حديثهم. كان هناك كتاب من شعر طاغور مفتوحًا أمام رأسه المتعرّق. كان جسده يرتجف من الحمى ويشتعل غضبًا. اعترف لاحقًا بأنّه شعر بالغيرة بسبب استبعاده عنهم، تقطعت به السبل في الفراغ بينما تدفقت الحياة من دونه. من وسادته، شمّ رائحة قهوتهم، وسمع ضحكهم وضجيجهم. امرأة تغني: صوتها قطّعه؛ كرهها. تململ وتحرّك في السرير. حاول أن يسد أذنيه. تقيأ ثلاث مرات. رفعه الغضب من السرير.

ظهر زرياب راميس فجأة في الغرفة. خدّاه متورّمان، وجه مصفر طويل، رموش طويلة، وعينان تقريبًا قاتلتان بالدماء، يدان نحيلتان: كان أشبه بخيال. صدم وجوده المفاجئ في الغرفة منيرة ودفعها إلى الصمت. لو كان وزنه أكثر قليلًا، فكّرت، لكان هذا أكثر الكائنات روعةً. بدا وجه زرياب مشوهًا، كأنّ هناك كائن آخر تحت جلده. في الخارج، كان الرعد. تنقلت نظرات زرياب بين الأشخاص الثلاثة الموجودين. استقرّت نظرته لاحقًا على منيرة. "عاهرة. زانية. منحرفة". برق. عادت منيرة إلى قناعها بسرعة. كيف أمكنها أن تنسى؟ كيف انزلقت إلى السعادة؟ كيف نسيت شعورها الدائم بالخطر الذي أبقاها يقظة؟ كيف أمكنها أن تنسى التنمّر الدائم الذي كان يظهر ليمنع عنها حتّى أصغر الأفراح؟ كانت هنا تجليّاته البغيضة كيف أمكنها أن تنسى؟

"إذن هو بيت دعارة؟!". أشار زرياب بيده إلى محيي الدين. "حين تنتهين منه، انظري إليّ. كم مقابل خدماتك؟". مدّ يده إلى جيب قميصه وسحب ورقة نقدية بعملة أجنبية. "أم سيكلفني الأمر أكثر؟". وقعت النقود أرضًا. وزحفت نظرة زرياب راميس على جسد منيرة.

مدّت منيرة يدها إلى فنجان قهوتها الفارغ ورمته في وجهه. لامس الكوب أذنه وهو يقفز فوق رأسه. لطّخت بقايا القهوة ثوبه. ثمّ كانت امامه، ممسكة بحلقه، يداها حول عنقه؛ عضّت يده بأسنانها، وكان صوتها يغصّ بالدموع: "لقد متّ من قبل". أمسكت بشعره:

"يمكنك أن تهينني، ولكن أمام طفلتي؟ أيّها المريض!".

"منيرة!"، أمسك بها محيي الدين.

"أمّها"، قفزت أيانا فوق إبريق القهوة لتصل إلى والدتها. جرّ محيي الدين وأيانا منيرة بعيدًا عن زرياب. كانت العاصفة قد باتت الآن داخل الغرفة: عينا زرياب المتّقدتان بالشرارة، كدمة على فكه؛ منيرة تبتلع الهواء، شعرها منكوش. وضع محيي الدين ذراعه بحزم على كتفيها وبيده الأخرى سحب أيانا إلى جانبه. حدّق بابنه. كان خياره واضحًا. نظر محيي الدين إلى زرياب بازدراء. "أعوذ بالله، ماذا يمكن للإنسان أن يفعل؟".

فجأة سكن الجميع، تنفّسوا وانتظروا، كان أحدهم ينظر إلى الآخر. مسحت منيرة وجهها المتعرّق؛ كان صوتها يرتعش وقالت: "حسنًا... الآن سنرحل. سوف نستعير مظلتك. تعال لرؤيتنا حين تحتاج لذلك. هيا يا لولو، تعالي".

انحنت أيانا وهي تراقب زرياب بعينين مذعورتين. في الخارج، كان البرق. قال محيي الدين: "سأذهب معك". صوت الرعد. برق. صوت الرعد. كانت العاصفة الخارجية داخل الغرفة، ثمّ، وبشكل غير متوقع، ضربت قلبين.

شعّت الحواس. انفتحت الدواخل بقرار مسبق. داخل محيي الدين، شعّ أمرٌ جديد كالماس ينير قلبه. نظر إلى العالم بخفة ورآه من خلال زرياب. الخوف والرعب والصدمة. ثمّ التفت لينظر إلى منيرة، ضاق نفسه وتسارعت دقات قلبه. حاول أن يصل إليها، لكنّه تراجع وعدّل ردّ فعله. لمع العرق على جبينه؛ كانت شفتاه جافة، وهرع الدم وتراكم في رأسه. صوت الرعد. برق. صوت الرعد. أحاط محيي الدين منيرة وأيانا بذراعيه الكبيرتين مرة أخرى ليقودهما بعيدًا. وأيضًا، حامت قدماه فوق الأرض ونورها الفاتر. منيرة، منيرة، منيرة. نبض القلب. منيرة.

شعر زرياب بالدوار وحاول أن يستند إلى شيءٍ ما، بينما كان يلهث. ثمّ ضحك، تقطّع صوته وتصاعد. عبس. ارتعشت شفتاه، وتناغمت دقات قلبه مع فكرة واحدة استولت على عقله: تلك المرأة. تلك المرأة. لا شيء يمكنه أن يهينه الآن، ولا حتّى حزنه. ظهرت النشوة كرعشةٍ سرت في كل أنحاء جسده. تمتم "شكرًا" لصوت ورائحة وأغنية وغضب وجلد وعيني تلك المرأة، تلك المرأة.

حين دخل زرياب الغرفة، كانت منيرة قد مدّت ذراعيها. التفتت بوجهها قليلًا

باتجاهه، وحام ضوءٌ قرب رأسها. وجهها: فيه 53 نمشة. على الرغم من أنّه كان قد بصق عليها، كان مرتبكًا. خلف انزعاجه من موقف والده، كان هناك توق في داخله. تحوّل فجأة عالم زرياب المظلم إلى مزيج من الروائح والعطور: الورد والياسمين والفانيلا والأرض والماء والملح والجرح والغضب والأسى. قرأ نظرة الحزن على وجهها، فقد كانت تلك النظرة آتية من كتاب الجروح التي عرفه جيدًا. أراد ان يصيح لمنيرة، لنبدأ من جديد، كما لو أنّه كان يحدّث ذاته. قرّر أن يكون كبش فدائها، أحمقا. أراد كسب عطفها ورحمتها. كان ليتوسل قلبها حتّى تدرك أنّها بدايته الجديدة. عندما عاد المنزل إلى حاله الفارغ والحزين، ركع زرياب لاسترداد الأموال التي كان قد رماها. خرج إلى الشرفة، ورماها فوق الدرابزين. هبت ريح عليها. أحضر قطعة قماش وركع على الأرض لمسح القهوة المنسكبة.

كانت هناك خطوات ثقيلة تتصاعد على السلم. انتظر زرياب. وصل محيي الدين إلى البيت، وتفاجأ. قبل أن يتمكّن من أن يتلفظ بأيّ كلمة، وقع زرياب أمامه، يداه على رأسه، يتوسّل، تتقطّع كلماته، يعود ليجمعها، يعيدها على مسمعه، وعندما استجمعها بعد دقائق، بكى قائلًا: "اليوم ألحق بك العار... أهنت زوارك... أتوسّل إليك... سامحني. أرجوك، دعني أبقى هنا. سأتغيّر، أعدك. الرحمة. سامحني".

ترقّب شراسة محيي الدين الذي صمت قليلًا قبل أن يومئ لابنه ويساعده على النهوض. نظر إلى وجه ابنه وفهمه. بلحظة قصيرة، شعر محيي الدين بخسارة ابنه وبأنّه ربما تعثّر في درب الحياة. كان يعرف. من إرادة الحياة الجديدة التي لمعت في عينيّ ابنه، كان يعرف. شيئًا فشيئًا، اختفت ظلال ابنه المظلمة وطلب منه بنبرة صوتٍ رقيقة: أخبرني عنها، منيرة. تلك الجملة جعلت عينيه تتألقان.

"لقد حلمت أنّنا رقصنا ليلة أمس"، قال زرياب وهو يشرب الحليب والعصير والأعشاب. قل لي ماذا ارتدت اليوم. حاول محيي الدين أن يتناسى تفاصيل منيرة، سلوكها، بداياتها، عطورها، حديقتها وضحكتها الرقيقة الخافتة. كل تفصيل أخبر ابنه به ترافق مع المديح. تلميحات عن حبّ غير متوقع ظهر وغيّر جغرافيا روحه إلى الأبد، أكثر بكثير ممّا أمكن البحر تغييرها. كان محيي الدين يحتضر، لكنّه مُنح الحياة من جديد.

[17]

سرعان ما بات بإمكان جسده أن يبقى مستيقظًا، اتّجه زرياب إلى منزل منيرة، مرتديًا أفضل قمصانه، حليق الذقن وأنيقًا، حاملًا بيده سلة من المستلزمات المنزلية. وقف خارج باب منيرة، خائفًا من أن يطرقه. حين فتحت الباب ورأته واقفًا هناك، أغلقته بوجهه على الفور. وقف خارجًا ينتظر. بعد حوالي ساعةٍ تقريبًا، فتحت أيانا الباب. تفحّصته بدقة.

سألته: "هل أنت رجل سيّء؟".

"نعم".

"ماذا تحمل؟".

"الطعام واعتذار".

"هل يمكن أن أرى ذلك؟".

"إنّه لوالدتك المجيدة، تلك الملكة المعطرة، فاتنة قلبي. أنا، أسير أغنيتها، ألقي قلبي المعذّب تحت كعبها الحبيب والرحيم".

قهقهت أيانا. عاودت منيرة الظهور، حدّقت به وجرّت ابنتها إلى الداخل، ثمّ أغلقت الباب بقوّة. حين أشرق ضوء الغسق البرتقالي الناعم، كان لا يزال هناك، جالسًا كما يجلس بوذا، سلّة هداياه عند قدميه، ونظرته مركزة على باب منيرة. من حينٍ لآخر، أطلّت عليه أيانا من النافذة لتمدّ له لسانها.

"توقّف عن إذلال نفسك أيّها الأحمق"، همست والدة سليمان، السيدة آمنة محمود، لزرياب في طريقها لشراء بعض القماش والمعكرونة.

"لماذا تتوسّل ما يُقدَّم مجانًا؟ استرجل!".

لم يقم زرياب بأيّ رد فعل. استغرق في التفكير على صوت الأمواج الهادئة وسكون غامض ساد في جزيرة بيت، وهو يسمع حفيف أوراق الليل ويشمّ الروائح المتذبذبة للشبت وإكليل الجبل والنعناع والمريمية، إلى أن خرجت إليه منيرة في وقت قريب من منتصف الليل، تحمل له كوبًا من ماء جوز الهند المعطر بالورد. مدّ يداه ليأخذه وضغط برفق على يديها. "شعرت بالغيرة...". بدأ بالكلام. سحبت يديها من يديه.

قالت له: "لقد قبلت اعتذارك. اذهب الآن بعيدًا".

قفز بسرعة. "أرجوكِ خذي هذه يا ملهمتي و...".

مضت بعيدًا. ناداها. "إذن تزوجيني؟". هربت منيرة. سمع زرياب الباب ينغلق مرة أخرى. فكّر وهو يرتشف العصير، منيرتي، بثينتي، غزالتي، الحمّة المشتعلة في داخلي. عاد إلى بيت محيي الدين، تاركًا وراءه السلة، مراقبًا نجوم الليل كما لو أنّها جواهر.

بعد ذلك بأسابيع، قالت منيرة بنبرة لطيفة لزرياب الذي كان يتتبّع خطاها بين الصيادين وهي تشتري السمك: "أنت ثور وحمار منغمس. أذناك أشبه بزعانف سمك القرش، وأنت فظ ونحيل وجاهل. وأنت تعض أظافرك وتمضغ العلكة كالبقرة". وافقها زرياب الرأي، وراح يخبرها عن عيوبه الأخرى التي لم تكن تعرفها: شخيره المزعج وكيف ينام وفمه مفتوح فيسيل لعابه، وأنّه على الرغم من أنّه كان يحاول أن يصبح صيّادًا الآن ويتخلى عن مهنته السابقة كمحاسب، فهو لا يتحمّل رؤية الأسماك وهي تتحرّك حين تعلق في شبكته باحثةً عن الهواء تصرخ في صمت، أعينها الذهبية تتوسّل الرحمة، لذا كان يتركها ويعيدها إلى المياه. ثمّ ناداها منيرته وبثينته وغزالته وحمّاه المشتعلة. توقفت عندها منيرة ونظرت إليه بحدّة: "والآن تقرّر أن تضورنا جوعًا وتحرمنا أنا وابنتي من السمك!".

أخفض زرياب رأسه. ماذا؟ لم يعرف إن كان يجب أن يضحك أو يبكي. وعوضًا عن ذلك، انقلب لونه إلى البنفسجي. في بعد ظهر اليوم التالي، ظهر مع كرتونة محمّلة بالسمك لمنيرة. اعتذر لها أيضًا عن كلّ كلمة قاسية كان عليها احتمالها. أخبرها أنّه قتل كل سمكة بنفسه وأنّه استمتع بفعل ذلك. زجرت منيرة به: "قتلت هذه الأسماك المسكينة؟ ماذا فعلت لك؟". أغلقت بابها. تفاجأ محيي الدين وفتح فمه مقلدًا نظرة الأسماك التي كانت في كرتونة، ثمّ ركل الصندوق.

بإلحاح، لاحق زرياب منيرة بالهدايا والأغاني والقصائد، وأغانٍ معاصرة مستعارة من الأفلام الهندية والتركية والمصرية. في إحدى المرات، استعان بفرقة بسيطة لتأدية الأغاني لها، أغنيتان من ضمنهم كان قد ألّفهما هو فيما كان يأمل بأن يشبه شعر طاغور.

قارنت هذه الإيقاعات والأغاني المروعة منيرة بالكركديه ووجدت أن الكركديه يشعر بالرغبة. عندما أمطرت، انتظر زرياب منيرة خارجًا حاملًا مظلة لمرافقتها أينما أرادت أن تذهب. عندما كانت تتسوق، ظهر لحمل سلعها. انتظر خطواتها عندما حضرت إلى زبائنها،

واستنشق الروائح المتنوعة. في لحظاتها الهادئة بالقرب من بحرها الليلي، فكرت منيرة في هذا التحول في الأحداث في حياتها: السعي وراءها ومتابعتها، أن تكون مرغوبة، وأن ينظر أحدهم إليها كما لو أنّها لا تقدر بثمن، حتى أن الإهانات التي وجهتها اعتبرت كأنّها أشعار. حاولت أن تختبئ، لكن في سرّها، تعطشت لامتصاص ذلك وأخذ رحيقه، حتى حين انتظرت عودة البرد واللدغة المعتادة. والهواجس.

في كلمة واحدة، محيي الدين. الآن. حضوره. صمته. أحجيته.

تعرّق كفّاها وارتعشت ركبتيها عندما تقاطعت طريقهما للوصول إلى منزل محيي الدين.

"مرحبًا".

"كيف حالك؟".

ومضة من الحقيقة. انكشاف خاطف.

وقفا قرب بعضهما البعض، لم تلتقِ أعينهما.

سألته منيرة: "هل أنت موافق؟".

"سيعطي هذا الصبي حياة جديدة".

"أنت موافق؟".

"إنّه يحلم بك".

"انت موافق".

لم ينظر إليها محيي الدين.

وقفت منيرة بلا حراك، مترددة. أمرٌ ما آخر بينهما كان يتوق ليعبرا عنه، كان يخفق.

شرح لها محيي الدين: "قبل أن يراك، كان يريد الموت".

سألته: "وماذا؟".

قال لها بصوتٍ حزين: "إنّه ابني".

سألته: "أنت موافق؟".

التفت محيي الدين متظاهرًا بأنّه يحضر غرضًا من على طاولته.

"إنّه يحتاجك... لكي يعيش... لا يزال شابًا وفتيًا جدًا... إنّه ولدي".

ساد الصمت.

ثمّ تمتمت: "محبوبي"، وهي تختبر وقع ذلك على مسمعها وليس مسمعه. محبوبي. لم يكن

من المفترض بمحيي الدين أن يسمع ذلك، لكن حين ظنّ أنّه سمع، كان يجب أن يسألها ما معنى ذلك. لم يسأل. غطّت منيرة وجهها. ومشت بعيدًا عن منزل محيي الدين العاجي.

بعد عيد الفطر بأربعة أيّام، في ليلة ضبابية، رضخت منيرة. كان زرياب قد اعتاد أن يقف قريبًا من بابها ليلًا. كان قد رآها وهي تغادر المنزل وتتبعها خلال رحلاتها الليلية. من مسافة آمنة، شاهدها وهي تمشي على الشاطئ. ولكن عندما انهارت في البكاء، اتخذ خطوات بطيئة تجاهها. لم يتكلم. كانت حزينة. مدّ يده لها وساعدها. لم تنفعل رغم شعورها بالخزي من أن يراها أحدهم بلا قناع، على الرغم من أنّه كان جزءًا من أسباب تلك الدموع الأخيرة. ولكن، لدهشتها، أدركت أيضًا أنها لم تكن خائفة من أن يرى زرياب حزنها. وقفا الكتف يلامس كتف الآخر. تساءلا إن كان الفجر سيشرق. عندما ظهر، كان بمثابة خط ذهبي مضاء في السماء، ممتع. ثمّ تكلم زرياب، وكان صوته عجوزًا ومعذبًا وعميقًا. "أحاول أن أمزّق بشرتي. أحاول أن أخفي نفسي". قال إن الجنون ملجأ له رائحة الصدأ. ثم أخبر منيرة أن شيئًا ما قد حدث في أكتوبر، قبل عام تقريبًا. تعرضت قافلة بحرية أجنبية للقصف في مسقط رأسه. قال زرياب: "أحد الذين... هم... أحد من فعلوها... أنا أعرفه. اسمه... كان... توفيق". صمت قليلًا. "أخي... الآخر مني".

سكون. لحظات من الرهبة. ارتعشت منيرة.

أكمل زرياب: "كان عالمًا يا منيرة. رجلٌ طيب. أفضل مني. شقيق جيّد".

كان صوته متقطعًا وبدا الانزعاج في نبرته. "لم ألاحظ التغيير".

انسابت دموعه بينا ارتعش جسده بالكامل.

"أخٌ جيّد. أستاذ جامعة. علم الأحياء المجهري. لقد كان أكثر ذكاءً مني. دموع رجل عديم الفائدة وعاجز ومكروه، دموع غير مرغوب فيها. كان المخاط يقطر أسفل وجه زرياب ويشوّهه. أشار بيديه إلى السماء وهمس: "لماذا؟". وتحوّلت سماء الصباح إلى اللّون الأزرق واستقر الندى حولهما.

بينما استمعت منيرة وزرياب إلى صخب الطيور البهيجة، قال زرياب: "كان توفيق يحمي حتّى الصراصير. كان يقول إنّ الله خلق وهبنا الحياة لنعبده وإنّ هذه الكائنات الصغيرة تكمّل أغنيتنا". سعل زرياب. استندت منيرة عليه. استمعت إلى نحيبه المكتوم. بعدها ببرهة، أكمل زرياب: "عندما مات توفيق مع الآخرين، عندما اكتشفنا الأمر... لم يعد

بإمكاننا البقاء. تركنا منزلنا". بعدها بأسبوع، هربًا من الأمن، غادرت العائلة الكبيرة بأكملها في قافلة مؤلفة من أربع سيارات متجهة إلى الجنوب. كان زرياب يقود عربة المحطة التي كانت على متنها زوجته؛ حماته الغنية؛ زوجة أخته؛ زوجة توفيق؛ وستة أطفال.

قادوا دون توقف خلال النهار والليل. بعد يومين، توقف زرياب. كانوا على بعد أقل من ساعة ونصف من القرية التي ستكون مخبأهم. قال إنّه كان يحتاج إلى التبول، لكنه كان بحاجة إلى مساحة للتنفس بعيدًا عن تعليقات حماته المتواصلة والخانقة، التي كانت تعرف أفضل منه، كما هو الحال مع كل شيء آخر، القيادة، وكيفية رؤية الطريق إلى الأمام. تخلل حديثها إهانات متنوعة ضد توفيق: عاره وخزيه وعدم استحقاقه. قال زرياب إنّه لو لم يتوقف، لاختنق حتّى الموت أمام أطفاله. في هواء المساء المنعش، والنسيم البارد والرائع، كان زرياب يرتشف القهوة ويستمتع بالهواء المنعش. سائقو السيارات الأخرى انطلقوا بمحركاتهم يريدون الوصول بأسرع وقت ممكن. كان على وشط أن يطرد ذبابة قريبة منه حين سمع ما تخيّل أنّه صوت سرب من النحل.

"كان هناك طنين، طنين، طنين. ثمّ انفجر الهواء".

هبط شيء غاضب وناري وكبير وحار من السماء وطمس كل الحياة داخل دائرة نصف قطرها اثني عشر مترًا. "أوه،" صرخت منيرة. "الجحيم. ثم لا شيء. لكنني، أنا فقط أتساءل ما إذا كانت تلك الشيطانة، حماتي، قد تبخرت بالفعل". ضحكت منيرة وزرياب. "إنّه عاري"، قال زرياب. تمسّكا ببعضهما البعض. ثمّ كرّر زرياب: "إنّه عاري". ثمّ انتحبا، الخد إلى الخد، وتمتم زرياب بأسماء: نور وجبريل وعيسى وأولاده عطية وسيف وأومي وأبناء أعمامه وزوجته دريّة. "كنتما لتصبحان صديقتين"، قال زرياب. "صديقتان مثاليتان". منيرة، داخل الدائرة الضيقة لذراعيّ زرياب، أجابته: "سوف أتزوجك".

[18]

كانوا ينخلون ماء زهر البرتقال، ويبخرون الزهيرات. كانوا يقومون بتليين المياه التي كانت ستنتشر فيما بعد على جثة امرأة عندما أخبرت منيرة أيانا: "سأتزوج من زرياب". كانت أيانا قد استشعرت ذلك. شعرت بمعنى صمت محيي الدين ونظراته المحبطة والتجعيدة الحزينة فوق شفتيه، وشروده، ورفضه أن يقول اسم والدتها. درست أيانا شكل يديها في الماء المعطر. نظرت منيرة إلى أيانا. "سيكون لك أب حقيقي".

"لا"، قالت أيانا.

"ماذا؟"، سألت منيرة.

سؤال مقتضب. وضعت أيانا يديها في الماء. كان صوتها محايدًا. "لديّ أب". كان هناك ثمانون شيئًا أرادت منيرة أن تصرخ بهم. كلمات مختلطة. "يمكنك أن تجربي يا لولو"، همست لها.

"لا"، أجابت أيانا.

ساد صمت معطّر.

بعد ذلك بأسبوعين، في يوم خميس، زوّج قاضٍ شرعيّ من الأئمة منيرة وزرياب في حفل صغير في إحدى زوايا جامع رياض الجنة في لامو. لعب عمّ منيرة من بعيدًا جدًا، وهو سائق شاحنة يتمتع بسمعة أنّه لا يبالي، دور الوكيل وأعطى الإذن للزواج، وهو مشهد لم يسبق أن يحدث من قبل. وجد فكرة الزواج مسليّة. قبل الحفل، توقفت منيرة وزرياب وأيانا ومحيي الدين عند مرقد القديس علي حبيب صويلح للدعاء بالنعم.

في وقت لاحق، كان أحد الموجودين في المسجد شاهدًا على الزواج وشاهد منيرة وزرياب وأيانا ومحيي الدين يسيرون معًا. كل القصص قابلة للتغيير داخل مشاعر الإنسان: يمكن الضغط عليها حتى تصبح شكلًا من أشكال الحقيقة. لذا مشت أيانا ومحيي الدين في الجزيرة مع الزوجين الجديدين، مقتنعين تقريبًا بسعادتهما أيضًا.

وفي النهاية، تحوّلت مطاردة زرياب راميس لمنيرة إلى قصة وشعر للسخرية من الذين لوّعهم الحب. نادت أيانا زرياب باسمه "زرياب" واستمرت بمناداة محيي الدين بـ "والدي".

وكانت تشير له إلى أشياء سبق أن أشارت إليها فقط لتتمكّن من تكرار كلمة "والدي". أزعج ذلك منيرة، وبقي زرياب غافلًا. كتم محيي الدين ضحكته، على الرغم من أنّ مظهره ظل مضطربًا. "تستمرون في تحديي في هذا الشأن"، صرحت منيرة بابنتها ذات يوم في مطبخها. أثناء غسل كومة من الأطباق، سألتها منيرة: "لماذا؟".

"لديّ بالفعل أب"، أجابت أيانا.

Yapitaio hayageukani; yajaio hayaelimiki.

لا يمكن تغيير الماضي؛ لا يمكن معرفة المستقبل.

[19]

صعد المد والجزر، وبسرعة كبيرة. هادئًا. حالمًا. اختفت المياه، وفجأة بات قاربه، الذي كان في أعماق البحار، محاطًا بالرمل الأسود والبني. تخبطت بعض الأسماك المتلألئة ذات الشكل الرائع على مسافة في متناول اليد. مشهد ساحر. ولكن لو كان صيادًا لفترة أطول، لما فتنه لهذا الحد. كان ليعرف كيف يقرأ ويفهم تحركات الأسماك التي هجرت مكانها ذلك اليوم، وما كان حاول قراءة أو مصارعة التيار الآتِ. لم تكن الأمور السرية التي انكشفت حول البحر قد أثرت به أو تركته هكذا جامدًا. ربما كان ليضع جسده وقاربه في وجه الأمواج الهائلة والسريعة الآتية. ربما كان ليفهم أنّه لن يتمكّن من العودة إلى الشاطئ في الوقت المناسب. ربما كان أيضًا ليسمع أصداء 250 ألف شخص يصرخون من الشواطئ على امتداد المحيط، وقد ابتلعهم البحر في خمس ثوانٍ، وكان أيضًا ليسمع صراخ الناس اليائسين الذي حاولوا التمسّك بهم. مثل زرياب راميس، كان الكثيرون قد نسوا بمَ تنبئهم عادات الحيوانات التي سارعت للاختباء قبيل الفجر. ضربت الموجة الثانية قاربه من الجانب وحطمته. كان يتنفس في المياه التي قذفته خارجها وداخلها ثمّ سحبته إلى داخلها وقذفته مجددًا. تاق لنظرةٍ واحدة من منيرة، التي مضى 18 شهرًا على زواجه منها، زوجة حياته، بثينته وغزالته، وحمّاه المشتعلة.

في يوم الأحد ذلك من عام 2004، لفظ تيار مجنون زرياب رامسيس، في جزيرة مرجانية غير مأهولة، حيث كان الصيادون يتوقفون أحيانًا. كان منهكًا وعاريًا، بلا اسم ومن دون قارب. وبعد دقيقة من اللاشيء، استنشق وزفر وتقيأ مياه البحر. كانت حواسه مشتعلة، وسمع امرأة تغني. تلفظت باسم، وتذكّر أنّ ذلك هو اسمه. والأغنية كانت بكاء زوجته تتوسله العودة إلى المنزل. صوتها سكب اسم. لقد تذكر أن الاسم كان اسمه. وكانت الأغنية تبكي زوجته في المنزل. بدأ زرياب راميس بالسباحة في البحر. فكّر أنّه والبحر قد يجدان ويتبعان أغنية بثينته وغزالته وحمّاه المشتعلة. شرب ماء المطر من البركة وأكل السمك النيء. كان قد شحذ عصا الرمح التي اصطاد بها أسماك الأنقليس.

كان يأكل سلطعونًا متوسط الحجم ويحلم بصلصة الثوم كتوابل له. بعد ثمانية

أيام ونصف، في منتصف الصباح، رأى ستة صيادين في زورق صغير من مقديشو. من مسافة بعيدة، تراءى لهم كخيال، واقتربوا ممّا اعتبروه شبحًا، ليتّضح أنّه إنسان عارٍ يصدر أصواتًا غير متماسكة ويلوح بذراعيه. "السلام عليكم"، قال قائد الرجال. "الحمد لله!"، صاح زرياب.

ضحك ضحكاتٍ طويلة، وتفحّص الرجال في القارب الرجل الذي بدا أمامهم مجنونًا.

"ما الذي أتى بك إلى هنا؟"، سأله القبطان الحازم.

"لقد رماني التيار هنا، كما لو أنّ هذا المكان قبري".

بعدما فهم ما قد حدث، رمى أحد الرجال ثوبًا لزرياب وقفز آخر إلى المياه للمساعدة في دفعه إلى القارب الصغير، حيث امتدت إليه أيدٍ أخرى.

"إذن كيف الحياة؟"، سأله الصيادون الذين سحبوه وغطّوا جسده بثوبٍ أخضر اللّون.

"هل الصيد جيّد هنا؟".

"مع أو من دون ملابس؟"، أجاب زرياب.

هزّت صاعقة من البرق القارب. أُخبروا زرياب ما قد حلّ بالمحيط: "تسونامي". لم تكن الكلمة مفاجئة بالنسبة إليه، ليس بعد كلّ ما اختبره. لذا قال: "ضربة".

"ضربة"، وافقوه الرأي، وكانت تلك الكلمة الأكثر غرابة في وصف ما حلّ بالمحيط في ذلك اليوم من شهر ديسمبر. قضى زرياب ومنقذوه طوال بعد الظهر في الصيد، وهو يرمون شباكهم في المياه. كانوا لا يزالون قلقين من المياه ودفعتهم الرياح الباردة إلى تغيير وجهة الشراع والاتجاه في البحر الأزرق إلى جهة جزيرة بيت. سمع زرياب امرأةً تغنّي. انسكب اسمه من صوتها. بدا كما لو أنّ زوجته تناديه للعودة إلى المنزل.

. .

كانت تنتظره في المياه – كما لو أنّها قضت كل الساعات التي غابها في انتظاره. منذ الدقيقة التي هاج فيها البحر وغطّى الشاطئ الأسود، وأخبرها الصيادون الذين عادوا أنّ موجةً بحجم تلّة التقطت زرياب وجرفته بعيدًا هو وقاربه، سارعت منيرة إلى المياه لتصب الصلوات في أعماقها. توسّلت البحر، وهي تمشي بين أمواجه. وصرخت بوجه كلّ من حاول أن يثنيها عن فعل ذلك. أكّد أهالي الجزيرة أنّ منيرة كانت مضطربة وأنّ جنونها بدأ منذ

زمنٍ قديم. في البداية، وقف محيي الدين وأيانا عند حدود الشاطئ، وأبقيا منيرة تحت ناظريهما. راقبا البحر يلتفّ حول وركيها. بانت خطوط عريضة على جبهة محيي الدين، كانت عيناه حمراوين. "المحيط هو أنا"، تمتم لأيانا، "كيف يمكنه أن يأخذ ابني".

راقب محيي الدين الغيوم وشاهد صخوره، تفحّص المياه؛ كان قد سبق أن فتّش المحيط برفقة صيادين آخرين وعاد فارغ اليدين. نادت منيرة زرياب في غناءٍ امتلأ بالبكاء والنواح. خفق قلب أيانا، وتمنّت لو أنّ عادات والدتها الغريبة لم تكن لتسبب كل ذلك الإذلال في حياتهم. أدمعت عيناها. هنا كان فراغهم مفضوحًا، وأثار قرف العالم. أغمضت عينيها. لماذا لم تكن أمّها مثل سائر الأمهات؟

التفتت إلى محيي الدين وقال له: "اجعلها تغادر المياه".

حدّق محيي الدين فحسب. التفتت منيرة ونظرت مباشرة إلى أيانا ومحيي الدين. التفتت أيانا لتركض وتختبئ في منزل محيي الدين. "يجب أن أرحل، يجب أن أرحل، يجب أن أرحل"، كرّرت لنفسها. انتظر محيي الدين. كان يصلّي لإرادة منيرة؛ كان مؤمنًا بقدرتها على إحياء الموتى. كان منتصف الليل. بعض أهالي الجزيرة كانوا نيامًا، بينما وقف محيي الدين ومنيرة ليحرسا البحر. وفي ظلمة خزانة المومباي، سمحت أيانا لأفكارٍ أخرى حول غياب زرياب أن تخطر لها. في ظلام مخبئها السرّي، سمحت أيانا لنفسها بأن تشعر بالراحة حول اختفاء زرياب.

. .

راقبت أيانا البحر الأسود من شرفة محيي الدين الزرقاء. كانوا جميعًا غارقين في مخاوفهم. وداخل أيانا، كانت هناك همسات لأملٍ غريب – ربما كان زرياب قد رحل فعلًا. ربما طهّره بحرها من حياتهم. وعند غروب الشمس، اقترب قارب صغير في الصخور السوداء المخفية إلى جزيرة. صاحت امرأة اسمًا، فتراءى زرياب من القارب وفتح ذراعيه لزوجته. ووسط البهجة، حملت الريح الباردة إلى محيي الدين وأيانا أغنية رجل: "منيرتي، بثينتي، غزالتي، حمّاي المشتعلة".

جلبت ريح البرد إلى محيي الدين وأيانا أغنية رجل: "منيرة بلدي، بثينة، غزالتي، حمّتي المرتفعة".

"لن يحدث أيّ شيء سيّء بعد هذا"، بكت منيرة على صدر زرياب في تلك الليلة.

"لن يمسّنا أيّ شرٍّ بعد الآن. لقد قهرنا الموت".

كانت مخطئة.

Dunia mti mkavu, kiumbe usiuelemee.

العالم شجرة ذابلة؛ لا تلقي بثقلك عليه.

[20]

ركضت أيانا عائدة إلى المنزل حاملةً علبةً من دقيق العدس، التي سيتم تحويل محتوياتها إلى عجينة لصنع قناع منظف للوجه. تسابقت ساقاها وتسارعت دقّات قلبها، وقد كانت لا تزال منزعجة من تعليق والدتها على الموسيقى التي كانت تستمع إليها وتكرّرها. تنهّدت أيانا. كانت غارقة في السنوات التي بدت فيها أنّها لا تقوم بأيّ شيءٍ صحيح، وأصبح العالم – عدا عن محيطها – مكانًا غريبًا.

كانت الأيام تخنقها وشعرت أنّ كلّ شيء يدور حولها يشكّل عقبة. سرعان ما كانت تخطو خارج منزلها، كان يظهر أحدهم لتأنيبها وتهذيبها ووعظها وتحذيرها ويضيف لها قاعدة جديدة أو عادة عليها أن تكتسبها: لا تتكلمي بصوتٍ عالٍ. غطّي قدميك، ذراعك، وجهك. لا تركضي. أسرعي. امشي ببطء. لا تدعي طلاء أظافرك يتقشّر. عطّري جسدك. غطّي فمك حين تضحكين.

مشت وهي تتجنب البحر حين كان لا يزال هناك ضوء النهار، لأنّ الأعين المتلصصة كثرت في تلك الأوقات، جاهزة لاتهامها بأنّها ترتكب خطأ ما. انعكس قلقها في حياة أقرانها، لكنهم، على عكسها، كانوا يتصرفون بصوت عالٍ وثقة بالنفس. أنشدوا الأغاني الحديثة بكلمات لم تتمكن من الوصول إليها. كانت أيانا قد عادت إلى المدرسة حتى تتمكن من التسجيل في الامتحانات. وكانت دروس محيي الدين قد جعلتها تتميّز على بقية الطلاب في صفّها وجعلت الجميع يودّون رفقتها لتساعدهم في دروسهم، خاصة في اللغة الإنجليزية والرياضيات. وقد استمتعت بهذا الفضاء من الانتماء بين أقرانها على الرغم من أنها كانت تعرف أنه لن يدوم.

نما جسدها وازدادت طول قامتها وبانت تضاريس جسدها وباتت لها رائحتها المميزة، كان طعمها كالملح وشيء آخر، وقد أرادت أشياء غير مرئية ومستحيلة؛ أصبح جسدها الآن هدفًا للعديد من القيود والارتباطات والأغطية، ما دفعها ذلك لتعقيد مظهرها وإلباسه ومجموعة من الابتسامات اللطيفة وإكسسْوارات أخرى. وقد انتبهت النساء في منزل أمّها لجسدها الآن وسمّوها شابة.

كانت جسدها لغزًا وأفكارها احتجاج. أحاطتها أشباح غير مألوفة بغرض تخويفها. وأعادت أحلامها تشكيل نفسها، وبحرج، استدعت في ذهنها صورة سليمان الرهيب، وكلّ يوم حين فكّرت به أيانا، رقّ قلبها. لاحظت طوله وكيف سبق الجميع. بدأت تظهر في مباريات كرة القدم التي لعبها الفتيان مساءً فقط لكي تتمكن من النظر إليه. لم تتفاجأ أنّه كان الحكم والمدرب وقائد الفريق وحارس المرمى.

باتت أيانا الآن حذرة في أحاديثها مع منيرة، لأنّها على الرغم من أفضل واياها، انتهت هذه الأحاديث دائمًا على شكل جدال. بينما كانت تركض على عجل في الطريق الذي يقود إلى منزلها، سمعت ضجيجًا. ركّزت أيانا نظرها على الرجل الأصلع من الصين، مزاي كيتوانا الرشيق.

تلصصت أيانا من تحت حجابها ونظرت إلى الرجل الذي وقف ساكنًا وجامدًا قرب مقابر الجزيرة التي كانت على شكل قبة. ماذا كان فاعلًا؟

"أياناااا"، استدعاها صوت من وسط الظلمات، قاطعًا عليها تأملاتها.

كان صوت آمنة محمود "ماما سليمان"، التي عادت منذ أسابيع من رحلتها العاشرة إلى مكة واستضافت حفلة للاحتفال بهذا الإنجاز. والآن، وقفت عند المدخل مثل مغنية أوبرا تركية، عيناها متّقدتان، ويتّضح من شكلها شغف حسي ومركّز. ثدياها مندفعان إلى الأمام، كل شيء فيها أوحى بالإغراء، كما لو أنّها لن تترك الجوع البشري من دون إشباع. كانت مغرية في علوها، وكانت متزوجة، ولكن لم يكن من الواضح لمن، أو في أي من عوالم الأرض عاش زوجها.

كانت ماما سليمان ثرية، لديها ستة سفن تجارية تبحر شمالًا إلى سلطنة عمان حاملة قرنفلًا من جزيرة بمبا، لتعود محملة بالسلع، بما في ذلك المعكرونة المعفاة من الرسوم الجمركية، والتي انتهى بها الأمر في متاجر زنجبار وومومباسا. في الغرف السرية لمنزلها الكبير، كانت تتاجر بالذهب والمجوهرات، خارج رقابة سلطة كينيا للإيرادات. كانت هناك شائعات أيضًا حول اتجارها بالفتيات وإرسالهن بعيدًا.

انسكب جسدها المزخرف بالجواهر. كانت دائمًا مبخرة ومعطرة ومتزيّنة. رفعت شعرها اليوم على شكل كعكة، وقد تحدّت شيئًا غامضًا وساحرًا ومتحللًا من باطن الأرض، بصوتها وعينيها البنيّتين. لطالما استدعت ماما سليمان أيانا لكي تتنبأ لها بمستقبل داكن

– كان ذلك جزء من حربٍ بالوكالة مستمرة ضد منيرة، التي كرهتها آمنة محمود منذ كانتا صديقتين في الطفولة وانفصلتا حول خلافاتٍ تافهة متعلقة بالألعاب. كانت ماما سليمان تقول لأيانا: "أنا أرى المستقبل أيّتها الفتاة الصغيرة، وحين أتأمل بمستقبلك أنتِ، أشعر بالرعب". أو كانت أحيانًا تسخر من يتمها: "كم طولك؟ أظن يا أمّاه أنّه لا بد أنّ والدك الحقيقي من شعب الماساي". قهقهة خفيفة. في لقائهم الأخير، قالت لها: "أنت نحيلة جدًا. كُلي أكثر أيّتها الفتاة الصغيرة. سيظن النّاس أنّك مريضة بالإيدز". ثمّ أضافت بنبرة ناعمة: "هل تعرفين ما هو حالك في هذا الشق؟".

ازدادت كراهيتها لأيانا بعد أن أظهرت نتائج امتحان المرحلة الابتدائية أنّ أيانا أتت في المرتبة الأولى في المنطقة بأسرها. تفوّقت على ابنها، سليمان. احذري أولئك الذين يقفون طويلًا، خشية أن يسقطوا، كانت قد قالت لأيانا.

كانت ماما سليمان مختصّة بزرع الخلافات عبر قلب القصص – غيّرت الشخصيات ونشرت تلميحات ضمنت أنّها بعد أن تخبر رواياتها، سيتوقف ربع سكّان الجزيرة عن التحدث بعضهم إلى الآخر، بينما بقي الآخرون مرتبكين حول ما هو حقيقي وما هو وهم. استمرّ الأمر على هذا النحو عادةً حتّى يطلب أحدهم بعد حوالي أسبوع، من الطرفين المتخاصمين تلاوة آية الكرسي. ربع الجزيرة سيتوقف عن التحدث إلى ربع آخر، بينما الباقي مرتبك بشأن الحقيقة والوهم. استمر هذا الأمر حتى طلب أحد الأطراف بعد أسبوع من الأطراف المعارضة تلاوة آية الكرسي. كانت هكذا تنتهي الكراهية – لا أحد يريد أن يُتّهم بأنّه يفضل الارتهان بمزاج الإنسان على قوّة الله – على الرغم من أنّ رواسب الشك كانت تبقى عالقة في قلوب الناس.

على غرابة الأمر، وجدت أيانا في أنوثة ماما سليمان الملتوية شيئًا أرادته، دعوة لتصبح أشبه بالنار. "أيانا – اا"، صاحت ماما سليمان بانزعاج. شعرت أيانا بالجبن، عالقة ما بين خوفها وندمها لأنها أرادت أن تهرب. تحرّكت قليلًا وقالت: "مرحبًا، احترامي". هاجم فائض من عطر بنت السودان أنفها بينما مدّت ماما سليمان يدها وهي تهتز بأصابعها لتقبلها أيانا. انحنت أيانا على الطرف المعطر وتخيّلت أنّها تلوثه بلعابها.

قالت ماما سليمان بنبرة آمرة: "أيانا، أيّتها الحشرة الخاملة، هل أملك أنا، سيدة مشغولة للغاية، طوال اليوم لأنتظرك؟ أجيبيني. تشنّجت أيانا من الرعب الذي شعرت به في

داخلها: هل يعقل أنّ ماما سليمان رأتها في المحيط ليلة أمس؟ كانت أيانا قد استسلمت لنداء ربع القمر الذي كان في السماء وتسللت بعد منتصف الليل للقفز في البحر. لفت ذراعيها على شكل كرة لولبية حول بطنها وانحنت أمام قدميّ المرأة المرسوم عليهما بالحناء. كانت الرسمات من أعمال أيانا، أزهار وريش ذيل طاووس وخطوط أخرى. كان ينبغي عليها أن ترسم أنياب أفعى. لمعت عينيّ ماما سليمان وأكملت توبيخها: "تضيّعين الوقت. الوقت هو المال. ماذا أقول؟ المال ليس أمرًا تعرفينه أيّتها الفتاة التي تضيّعين الوقت". كشفت عن ذراعيها المرسومتين بالحناء كذلك. "حاولي أن تستفزي أخطبوطًا. لا يمكنك أن تتعاملي معي. أنظري إلى أطرافي، هل هذه أزهار اللوتس؟".

خفق قلب أيانا وحاولت أن تتمالك نفسها. يا لوحشيتها، فكرت لنفسها. تمتمت ليبدو حديثها كما لو أنّه اعتذار. كانت تعرف أنّ خدمات والدتها اعتمدت على نوايا سيّدات متعجرفات كهذه. كانت ماما سليمان قد أعملت السماوات والبحار والفصول كلها أنّها أرادت رسم زهرة زنبق الماء المصري الأبيض، ولهذا كانت قد اشترت الحنّاء اليمنية الباهظة الثمن، والتي سكبتها عليها أيانا كأنّها تسكب لعابها.

أزهار اللوتس! أغمضت أيانا عينيها. لن يعرف الحبار الجاهل أن يميّز أزهار اللوتس من سمك السلور. على الرغم من أنّ أيانا أشاحت بنظرها بعيدًا، إلّا أنّها أيضًا سألت نفسها لماذا تجاهلت حدسها بأن تضيف زيت اللافندر أو القرنفل إلى حنّاء المرأة. حين لمست جلد ماما سليمان المترهل، كانت أطراف أصابعها قد شعرت بأحجام زائدة من الجلد ونتوءات غير ظاهرة. وعندما لامست هذه النتوءات، فتحت ماما سليمان عينيها ليظهر، لوهلة، حزنها المتحجر.

كانتِ أيانا تعرف أنّها يجب أن تدعّم الحناء بالزيوت، ولكن أمام أوامر ماما سليمان التي تصرّفت كأنّها تعرف كل شيء، وتوقعاتها الهائلة، ومبالغتها بالتبجّح بقيمة الحنّاء التي اشترتها من اليمن، شكّت أيانا بحدسها. والآن قالت ماما سليمان: "قولي لوالدتك إنّني لن أدفع مقابل جهود من الدرجة الخامسة. أنا لست حقل تجارب. من الآن وصاعدًا، وحدها فقط متاح لها أن تلمس جسدي. لقد أعطيتك فرصة، ولكنّك فشلت. لقد فشلت. اتركيني وحدي الآن". زفرت ماما سليمان وابتعدت وهي تهزّ جسدها، وتحرّك يديها لكي تظهر أساورها الذهبية التي تلألأت في ضوء هذا الموسم الخصب والمضطرب.

وقفت أيانا متصلّبة كالحجر، وهي تنتظر أن يعبر هذا العار الذي شعرت به، بالإضافة إلى مشاعر مضطربة أخرى أصابتها بتوعّك في المعدة. لماذا لم تضف الزيوت؟ كانت تعرف ما ينبغي بها فعله، لماذا لم تفعله إذن؟ ثمّ أتاحت لنفسها وهلة من الحلم بأن تملك وركين وذراعين ممتلئة مثل ماما سليمان. نظر إليها المارّة، بعضهم كان يضحك. كاد رجلٌ يجرّ عربة أن يصطدم بها، قفزت بعيدًا، ووقع أرضًا كيس دقيق العدس الذي كان تحمله.

جمعت أيانا نقابها على وجهها، أرادت أن تختفي. كان الدمع في عينيها وهي تتمنّى لو أمكنها أن تنسحب إلى الظلمة الآمنة لخزانة المومباي حيث كانت تختبئ عادة. هل سيكون محيي الدين صاحيًا؟ كان قيلولته بعد الظهر قد بدأت تبدو أطول. مضغت إصبعها. كانت تشعر بالقلق على محيي الدين. كان جلده ناشفًا؛ وأفكاره مبعثرة. ابتسم لها دائمًا، لكنّها كانت ابتسامة وحيدة. ركلت دقيق العدس المبعثر على الأرض بقدمها.

الحقيقة. كانت هي ومحيي الدين قد خسرا مكانتهما عند منيرة. منذ عاد زرياب من العاصفة، لم تنفصل عنه منيرة أبدًا. كانا يطبخان معًا، وغالبًا ما ذهبت منيرة مع زرياب في قاربه لصيد السمك. وكانت أيانا تعرف أنّهما يستحمان معًا، وأشعرها ذلك بالقرف. أربك انفتاحهما الجنسي العلني أيانا، كان محرجًا بالنسبة لها وأبعدهما عنهما، خاصّةً حين شعرت كم كان مزعجًا بالنسبة لمحيي الدين. تظاهرت باللامبالاة، ولكن كلّ ليلة، قبل أن تخلد إلى النوم، تمتمت الشتائم لزرياب. ولكن، أكان هذا معنى أن يكون رجل وامرأة معًا؟

عضّت شفتيها. كانت هناك أسئلة باتت فجأةً محرجة أن تطرحها على محيي الدين. والآن حين جلسا معًا، نادرًا ما تحدّثا. قرآ الكتب أو استمعا إلى الموسيقى وركّزا على البحر. نعيق الغرابيب. لم يكن بإمكانها إنقاذ دقيق العدس. داست عليه أيانا. جرّت قدميها، متعبة من التفكير، قلبها يحترق، ودموع الانزعاج عالقة في عينيها. كان خلفها وقع خطوات. ابتعدت أيانا لتفسح الطريق لصاحبها. كان مزاي كيتوانا الرشيق.

"مرحبًا، مرحبًا".

ذُهلت أيانا وفركت عينيها. فعل نفس الشيء، ثمّ مدّ يده ليريها أن في كفّه بتلة وردة زهرية ذابلة. حدّقت بهذا الشيء الرقيق والجميل. رفع كفّه كما لو أنّ البتلة ستقع في الغبار. لكنّها أمسكت بها بكلتا يديها حيث وقعت البتلة. كانت ضحكة ذلك الرجل حنونة جدًا لدرجة أنّ أيانا نظرت إليه وعيناها تبحث عن مصدر تلك الرقة. عيناها بعينيه،

عيناه تشبهان عينيها، ولوهلة كان هناك شعور بالألفة بينهما، كما لو أنّ القدر كشف عن يده السرّية حين لم تتوقع ذلك وأعاد النظام إلى هذا العالم. لم تدرك أنّها كانت تبكي حتّى رأت الرجل يمشي بعيدًا. كان يلمع أمامها. قرّرت أن تلحق به، راغبة بأن تطرح عليه أسئلة لم تكن قد حضرتها بعد. بعد ذلك بسنوات، وهي تنظر إلى بحرٍ آخر، تساءلت إن كان شيء من القدر قد تحوّل في بتلة وردة انسكبت من يديّ غريبٍ إلى يديها.

تسلّلت جزيرة بيت إلى روح مزاي كيتوانا الرشيق. كان الآن يصارع السؤال حول مغادرة بيت. كل يوم، كرّم احتياجات أشباح البحارة الذي شعر كما لو أنّها أشباحه. حين لم يكن يصطاد، كان، كان يهتم بالمقابر التي اشتبه الآن أنها مؤرخة من عهد أسرة تانغ، وليس فقط المينغ. إرث قديم. مجتمعه الظل.

أتاحت له رعاية المقابر أن يعتقد أنّه كان يكفر عن أشباحٍ مفقودة كان قد خلقها في عمله السابق. في وقت آخر، في عالم آخر. وفي كل يوم وجد سببًا آخر للبقاء في الجزيرة. لكنه كان يعلم أن النأي بنفسه عن الصين لم يكن كاملًا كما كان يمكن أن يكون. حفّزه التدخل العسكري العنيف للعمل. فكّر أنّه في جزيرة بيت، ربما يكون هناك طريقة ليكون له تراث من الانتماء الصحيح والحقيقي. تسارعت الأفكار في رأسه.

في وقت لاحق، في رسالة رسمية وجّهها لمنزل رجل رفيع المستوى بعنوان "الحزام والطريق، الثقافة والفرص"، أوضح كل ما عرفه ورآه في جزيرة بيت. ألمح إلى المقابر على شكل الهلال والطاقة والمنقبين عن الأحجار الكريمة من دول أخرى جنت ما زرعته الإمبراطورية تاريخيًا. وقد كتب عن الأدميرال تشنغ خه، وأشار إلى رحلاته غير المكتملة. وأضاف "مبعوثونا موجودون هنا". ثم وقع اسمه. بعد أيام، أخذ قاربًا بطيئًا إلى لامو، حيث أرسل الرسالة بنفسه.

البدايات.

كانت حياة ذلك الرجل في بكين قد انتهت في تمام الساعة الثالثة، في بعد ظهر أحد أيام الجمعة من عام 1997، كانت سنة الثور. كان خبيرًا في الحرمان من النوم ومحاكاة طرق الغرق، فنان رائع على عتبات الألم البشري. على الرغم من أنه كان موظفًا جيدًا، فقد جمع أيضًا السموم من الكآبة التي نشأت بسبب إيصاله للمعاناة للآخرين. كما عُهد إليه بأسرار عميقة لم يعد بإمكانه تحملها.

في ذلك اليوم، أتته جثة مراهق حذق ارتكب جريمة ضد الدولة، وتسببت إدارة الكهرباء في وفاته غير المقصودة. في ملأ الاستمارات لشرح حالة وفاة أخرى في الحجز كان يجب ألا يلاحظها أحد، كان كل شيء مزعج داخل الرجل. ألقى نظرة من نافذة مكتبه على أوراق الشجر الخريفية وشعر أنّه هو أيضًا فانٍ. في اللحظة التالية، عندما كانت الأوراق ترفرف أمامه، قام عن كرسيه الأسود وهرب من غرفته. صرخ برفاقه. تم التعجيل بخطط تقاعده، وبحلول ذلك المساء، انتهى عمله كمحقق في السجن التأديبي للحزب.

لم يذهب إلى المنزل، مسترجعًا كل الصور المشوهة لحياته: زوجة شديدة الجاذبية تعمل في مجال التصدير، محظية تسامحت معه، وابن كبير السن تحدث معه فقط في جمل كاملة وصحيحة نحويًا. انفصل عن كل شيء وسارع بعيدًا عن كل ما يعرفه، بما في ذلك نفسه، وسافر إلى مدينة ووهان، في محافظة خوبي في الصين. محشورٌ هناك بالغرب من نهر يانغستي بين اكتظاظ العديد من الأشخاص، ظنّ أنه قد يجعل نفسه غير مرئي. وأصبح هذا الجزء من العالم معبده.

صدمته حاجات الناس الذين كانوا يصارعون لحياتهم، وسعى إلى تبديد شعوره بالذنب في الوحدة. كان يمكن لمراهق مسكين و118 رجلًا و13 امرأة، مزّق حيواتهم بنفسه، أن ينظروا إليه بشفقة.

سكون.

أولئك الذين كان من الممكن أن يبحثوا عنه استكانوا لعاداتهم الجديدة وأدائه للجنون – صمت الصمت. أيّ من النساء الثرثارات أو الأعين المتلصصة كان بإمكانهم أن يؤكدوا جنونه. لم يكن بحاجة إلى المال؛ كان يريد فقط أن ينقذ حياته. أينما كان، درس الإيماءات والعادات البشرية. وفي الليل، بكى.

مرّت سنة كاملة على هذا الحال.

في أحد الصباحات، ترجل من أحد الباصات وتعثّر بحجر. توقف لينظر إليه. كان حجرًا مقلدًا، متروكًا ومكتوب عليه "صنع في الصين"، وعادة ما كانت تباع هذه الأنواع من الأحجار للسياح. كان على وشك رميه بعيدًا قبل أن يلاحظ ما حُفر عليه.

لقد اجتزنا أكثر من 100 ألف لي من المساحات المائية الضخمة ووجدنا في المحيط أمواجًا ضخمة مثل الجبال التي ترتفع في السماء...

"نحن". كان يعرف من هم هؤلاء الـ "نحن". قائد الأسطول الشبح، الأدميرال تشنغ هي العظيم، وقد فسر الرجل ذلك على أنه رسالة، فبحث عن المكتبات والمتاحف حيث كان بإمكانه أن يجد الصور القديمة والتاريخية، وقراءة الرحلات والممرات البحرية، ودرس خرائط الوجهات مع أسمائها الغريبة: باليمبانج، ملقا، ساموديرا، مقديشو، ماليندي، جانبالي، كاليكوت. اكتسبت الفكرة شكلًا. عزم على أن ينطلق في رحلة معافاة وأن يجد التناغم الروحي في الرحلة السابعة المأساوية للأدميرال. بعد ذلك بعد شهرين، مع اسم جديد – أحد الأسماء الخمسة التي وضعها جنبًا لنفسه – وحقيبة فيها الكثير من الأوراق، صعد إلى طائرة متجهة إلى كينيا في شرق إفريقيا. كانت وجهته: جزيرة بيت.

Dunia ni maji ya utumbwi

العالم مثل الماء في الزورق.

[21]

في صباح أحد الأيام، بعد عامين من كارثة تسونامي، بينما كانت يعاسيب ماتلاي على أطراف أصابع أقدامها تنتظر اللحاق بحشد الكاسكاز لعبور المحيط، أخذوا زرياب راميس. ثلاثة منهم قفزوا من تحت الأمواج -كائنات باللون الأسود. استولوا عليه من القارب الذي انطلق فيه برحلة صيد مبكرة. كان زرياب يدندن الأغاني القديمة برضا، يجذب قاربه الذي جدّده للتو، ويشعر بقوة جديدة في جسده. شعر بتشنّج في عضلاته أثناء تجوله وهو يبحث عن الأسماك متصارعًا مع المحيط -صراع صداقة جديدة. لمعت أمامه الحياة. في بعض الأيام، سمح للقارب بالانجراف حتى يتمكن من مشاهدة العالم، وتخيل منيرته، بثينته، غزالته، حمّاه المشتعلة.

كان يبحث عن شواطئ في يقينه بأنّ جميع أحلامه كانت حقيقية، وكانت تنتظر برائحة معطّرة بالياسمين والعود، وكذلك كان خاتمه المرصّع بالياقوت، الذي تركه عادةً في المنزل كلما ذهب للصيد في طقس غير مؤكد، وكانت زوجته تضعه في إصبعها رسميًا كل ليلة، كما لو أنّها تختاره مرة أخرى.

ولكن اليوم، أتت الكائنات المرتدية ملابس سوداء ولوت أطرافه، قيّدته وغطّت رأسه بقطعة قماش سوداء، ورمته في قارب تحدّى الأمواج باتجاه جزيرة دييجو غارسيا العملاقة البعيدة المتخذة شكل القدم، في أرخبيل تشاغوس -حيث اعتاد شعب شاغوسيين العيش قبل حرب الاحتقار التي حرمتهم منها. كانوا سيأخذونه إلى هناك لتحطيم جسده دون فتح جلده، وإغراقه إلى نقطة ما قبل الموت مباشرة حتى يتمكنوا من إحيائه، ليعيدوا إغراقه مرة أخرى، حتى تنكسر روحه، حتى يتمكن بصوته الخاص، من أن يتّهم نفسه بأنّه "إرهابي" ويسمّيها بذلك.

كان الغزو حميمًا ووحشيًا ومفاجئًا لدرجة أنّه لم يكن لزرياب الوقت للتساؤل عما حدث له. لم يصرخ حتى. أخذوا زرياب راميس بعيدًا. كما أغرقوا قاربه، مع معدات الصيد الفاخرة التي كان قد اشتراها من متجرٍ في مومباسا بالأموال التي وفّرها من عائدات الصيد وحساب ضوء القمر، ومن بطاقة الائتمان. ما تركوه وراءهم كان الانحلال وفراغ

مليء بغيوم قاتمة من الشك والحزن، التي انتشرت في حياة عائلة مؤقتة صغيرة.

[22]

أحيانًا سمع الجيران العائلة تنتحب. بعضهم فهموا الأمر. معظمهم كتموا ردود فعلهم: النظرات القلقة والكلمات الغاضبة التي كان من الممكن أن تترجم على أنّها خيانة أو تعاطف. انتهت الأيام الخوالي، كان يمكن للحزن أن يلقى التعاطف من الكثيرين. ولكن الآن واجهه الغضب، وحوش أجانب في الحرب لهم شعور إنساني – الرعب. قام الغزاة، غرباء غاضبون غارقون في الجنون، بالسير مستعرضين في الجزيرة كما لو أنّهم الأسياد الجدد. كم كانت عميقة خيانة فضل المصري لجزيرة بيت وأهلها. ألقت الحرب غير المعلنة التي حفّزها ظلالها على الكثير من الأرواح البسيطة. استولت على أفضل رجال جزيرة بيت، الذين تورطوا في هذه المسألة فقط لأنّهم كانوا أفضل الرجال. معظم الذي أخذوهم لن يعودوا أبدًا، ليس حتّى كجثث.

أُجبر الذين تركوهم وراءهم على تعلم لغات السكون والصمت الأبدي. غيّرت ظلال آلاف الوجوه الغائبة ملامح جزيرة بيت مرة أخرى: حدود جديدة وجدران جديدة وحصون جديدة للقلب. لذلك، عندما رأت "بيت" محيي الدين يركض من منزله منهارًا يبكي على رصيف الميناء القديم، سلّمت بهدوء مصيرها إلى الله وانتظرت ضوء السماء لتتضح أمامها الرؤية. لم تكن الجزيرة تعرف بعد أنّ محيي الدين كان قد علم للتو بمصير ابنه توفيق، شقيق زرياب، ما أعطاه سببًا إضافيًا للقلق بشأن مصير زرياب. أخبرته منيرة كيف مُحِيَ توفيق وعائلته وعائلة زرياب من الوجود، بمن في ذلك أحفاد محيي الدين الذين لم يلتقِ بهم.

"لم يخبرني"، كرّر محيي الدين مرّاتٍ عدّة. صاحت منيرة ردًّا عليه: "كان يريد أن ينسى".

"لقد أخبركِ أنتِ"، قال محيي الدين بنبرة اتهام.

صاحت منيرة: "أنا نسيت".

سمعت أيانا التي دخلت للتو محيي الدين يصيح وهو ينقر جبين منيرة بإصبعه: "ألست أنا أيضًا شخصًا؟".

"أنتِ مدينةٌ لي بابن"، صرخ وهو يندفع خارج المنزل.

لكن جزيرة بيت لم يسبق لها أن حفظت الأسرار بشكلٍ آمن إلى هذا الحد. كانت مركزًا للمخبرين الذين حملوا الضغائن، على استعداد أن ينقضوا كالصقور على أيّ نوع من الكذب. بعضهم أقسموا أنّ زرياب الذي وصفوه بالجاد غير الكفء، قد غرق في البحر.

"والله شاهد على ما أقول"، آخرون قالوا وهم يجزمون أنّ زرياب كان لصًّا توفي في شوارع مومباسا وقد كان ضحية ثأر أرادته عصابة. همس ضابط مخابرات ثانوي متقاعد تحوّل للعمل كصائغ لأيانا أن تحثّ محيي الدين على نسيان زرياب، لأنّه انضم إلى المجاهدين في أفغانستان وفي باكستان وفي العراق.. في مكان ما. كانت أيانا تتساءل: "كيف عرفت؟". لم تقل شيئًا لمحيي الدين. أخبرها الخياط فيما بعد أن "شخصًا ما" رصد زرياب في القاهرة وهو يعبر شارع قصر النيل: "كان على عجلة من أمره". كانت كلها تدخلات في حياة أولئك الذين عاشوا مع الفراغ الذي تركه "مفقوديهم".

عاشوا في حميمية غير مرغوب بها مع الدولة غير الكفؤة وغير المبالية وغير الواعية عندما ذهبوا يائسين للبحث عن أحبائهم في المقابر والمستشفيات والمساجد ومراكز الشرطة. وجدوا أنفسهم في مواجهة غرباء لا يرحمون ولا ينتهون من الأسئلة، استعراضًا من البلاء الذين ارتدوا أزياء عسكرية من أمم متنوعة، يبحثون عن الإرهاب: "متى كانت آخر مرة رأيته؟". "أين كان ينام؟". "أين كان يصلي؟". "من كان أصدقاؤه؟". "هل هو إرهابي؟".

كانوا يطرحون الأسئلة كما لو أنّ المفقودين مذنبون بإبادة جماعية مستقبلية. اتهامات. "وأنت، هل أنت كيني حقًا؟".

وفي إحدى الأمسيات الرطبة، نصح رجلان هما موظفان سابقان في الخدمة المدنية، منيرة ومحيي الدين وأيانا، بأن مقاربة مسألة اختفاء زرياب راميس بسرية هي الخيار الأفضل. همس أحدهم: "موّهوا استفساراتكم. تخيّلوا العالم على أنّه طريق من الملح وأنتم مثل الرخويات التي تعبره".

. .

أخبرت منيرة الجميع أنّ زرياب سيعود، وأصرّت على ذلك. حافظت على نظام عالمها القديم عن قصد، لكي تبقيه مألوفًا لزرياب، لكي لا يبدو أيّ شيء خارج مكانه، ولا حتّى الطقس، حين يعود. لبست خاتمه. ارتدت أجمل ملابسها وتعطّرت وعطّرت ثوبها وسريرهما، واستمرت في عملها بالتجميل.

ما تغيّر كان شهيّتها: صارت تشرب القهوة بلا سكّر ولكن حارّة مع رشّة جوز الهند وبعض القطيفة ولا شيء آخر. بعد شهرين تحديدًا من اختفاء زرياب، رأت أيانا والدتها غارقة في أرضية المطبخ تحدّق بها، مستسلمة للجاذبية. صاحت أيانا وركضت لكي ترفعها. لكنّ منيرة قامت بسرعة قبل أن تصل ابنتها إليها. "لقد تعثرت"، قالت لها. "أنا بخير. ربما سأذهب لأستحم". بعد ساعة ونصف، اضطرت أيانا إلى الدخول لإخراج والدتها من مغطس الحمام، كانت تتجمع في زاوية، عارية وباردة، حيث أمطرت عليها المياه.

في رأس أيانا، دارت محادثات بينها وبين منيرة أولًا وبعدها مع محيي الدين. التقطت خيوط الأفكار من خلال استراق السمع على الأحاديث. تحدّثت مع توفيق متخيّل لتسأله أيّة حماقة قد تدفع رجلًا ليمزّق ويدمّر حياة جميع الذين أحبّهم. تفجير الحياة. لماذا قد يدمّر إنسان حياته بإرادته؟

انسحبت منير إلى غرفتها، حيث جلست بين أحذية زرياب وملابسه وقمصانه وكتبه وأقراصه المدمجة وهاتفيه. لم تحرّك شيئًا من مكانه، والآن لم تتحرّك هي.

استيقظت أيانا وهي ما زالت تشعر بطعم الصمت مخيمًا في الغرفة. الضجة لا معنى لها، والعواطف متناثرة. راقبت منيرة ومحيي الدين وهما يتحوّلان إلى مجرّد انطباعات على سطح مساحة غير مصقولة. مشى جميع من حولهم على رؤوس أصابعهم. حين أتى الإمام ليعبّر عن تعاطفه معهم وقال: "لترقد روحه بسلام" -قبل أن يكمل جملته، رفعه محيي الدين وهو يرتعش وصاح به: "ابتلع هذه الكلمات على الفور! لا تتكلم عن الموت. ابني حيّ!".

خشيت أيانا من اللحظات حين كانت هناك مناوشات أو مشاكل في الأماكن العامة، من تحديق الآخرين بهم. بات الوقت مشارًا إليه بتوقيت ما قبل اختفاء زرياب وما بعد اختفاء زرياب. كان الحزن متاهة يدورون فيها. مفككون. وجدت بعض الكلمات طريقها إلى مشاحنات لم يكن من الممكن تصوّرها من قبل. بعض هذه المشاحنات كانت حول الشراب: أبلغت منيرة محيي الدين أنها بحاجة إلى الماء المنكّه ليساعدها على النوم. تشبث

محيي الدين بزجاجاته الصغيرة، رافضًا المشاركة. استمعت لهما أيانا، يتشاجران بحماسة.

انتظار.

لم يكن هناك منقذ سيأتي ليخلّصهم. ولكن كان محيي الدين بالنسبة لأهالي الجزيرة، على سذاجة ما يبدو الأمر، هو الأقرب لما قد يشكّل الحكيم في المكان الذي صارع للبقاء؛ وقد أتاه الكثير من التاريخ في وقتٍ واحد. وجدوا عزاء في طقوسهم اليومية وإيقاع المدّ والجزر. حفظت منيرة ومحيي الدين مكان زرياب من خلال الصمت. لمن أتوا لمواساتهما، حفظا سطرًا واحدًا ورddاه لهما: "لقد شفينا من مصابنا".

إحدى الشائعات كانت أنّ زرياب حرّر نفسه من منيرة وتعويذاتها وهرب ليكوّن حياة جديدة وأفضل. كانت ماما سليمان هي من أطلقت هذه الإشاعة. ظهرت في منتصف عاصفة رياح، مزيّنة بالذهب والزمرّد، لتعلن أنّ زرياب راميس تزوّج من امرأة خلوقة ومقدّسة من عائلة جيّدة من الفانجا. قالت إنّه ذهب إليها لأنّها ولدت له صبيًّا.

كانت المرأة، التي كان اسمها نظيفة وسيمة، سيدة حقيقية، لها صوت جميل وتعيش في تيودور، بالقرب من الأرصفة في مومباسا. تأثرت منيرة بكثرة التفاصيل التي روتها ماما سليمان، فاستأجرت قاربًا إلى لامو بعد ظهر اليوم التالي. من هناك استقلت حافلة إلى مومباسا. عادت منيرة بعد عشرة أيام إلى الجزيرة، شفتاها نحيفتان، عيناها تتقدان من الغضب. وجدت ماما سليمان تحدّث حذيفة عن كيف يمكن تمييز بنت السودان الحقيقية من المزيفة. صفعت منيرة ماما سليمان التي لمست وجهها. بقيت بلا حراك. ثمّ قالت: "رحلة موفقة؟". ضحكت. "أقسم لك أيّتها الفلاحة، يومًا ما، سأحطم جثتك المثيرة للشفقة تحت قدمي. راقبي ظهرك يا عزيزتي".

أجابتها منيرة: "استعجلي بفعل ذلك".

عادت إلى منزلها وهي تتجاهل الأعين المحدّقة بها. دخلت إلى المنزل وألقت بثقلها على إحدى الطاولات، وعلى وجهها، بدت نظرة استسلام. ارتدى محيي الدين بزّةً رمادية اللون لم يسبق له أن ارتداها. أخبر أيانا ومنيرة أنّه متجه إلى مومباسا ليتحقّق من بعض الأشياء. حين حطّ في مرفأ مومباسا القديم، لم يذهب إلى مركز الشرطة. ذهب إلى المدينة القديمة ليبحث عن محقّق خاصّ ويوظفه. في المساء، تقدّم إلى ماليندي ليوظّف محققًا ومتفاوضًا مع عالم الأرواح. ضمن الرجلان أنّهما سيجدان زرياب، حيًّا أو ميتًا. حين عاد محيي الدين إلى

جزيرة بيت، بعد أربعة أيّام، كان يشعر بالانتصار. ولكن سرعان ما تحوّلت الأيّام والليالي إلى أشهر من دون أيّ نتائج ملموسة من الطرفين، وبدا أن مصدرهما الغامض كان نفسه: "نحن نقترب أكثر وأكثر من رؤية الهدف، الذي يبدو أنّه وراء جدار هائل مصنوع من مجموعة من الظلال". ثم لم يعد هناك شيء. لا شيء. باتت المكالمات الهاتفية لمحيي الدين لهما تصطدم دائمًا بإشارة مشغول.

بات على أيانا أن تصبح مبعوثة بين عالمي شخصين انفطر قلبيهما. مرتان في اليوم، رفعت وجه محيي الدين من القيء، ونظفت الفوضى على الطاولة، ومسحت فمه. عيناه غائرتان. فاحت منه رائحة الخمر، كما لو أنّه على جلده. عندما لم يكن مستغرقًا في التفكير، كان يعبث بأجهزته الإلكترونية: يصلحها، يفككها، ويعيد إصلاحها مرة أخرى. في الليل، استمعوا جميعًا للأصوات غير المتوقعة التي قد يصنعها الإنسان العائد: الطرق أو الصرير أو الاصطدام، أو أي شيء قد يوحي بعودة زرياب.

اهتمت أيانا بأعمال محيي الدين ومنيرة وزوّدت زبائنهما بالخلطات التي احتاجوها. باعت كتب محيي الدين واقترحت لهم جملًا له قدرة على شفائهم، معظمها كانت ارتجالات من شعر حافظ. هدّأت من روع النساء اللواتي أتين للاستفادة من خدمات منيرة، ولمستهنّ بأيدٍ دفّأتها بزيت الياسمين ورسمت بالحنّاء رموزًا عبّرت عن الأمل على الأقدام والأيدي والظهور. وجدت أيانا أيضًا في بعض هؤلاء الأشخاص أشكالًا غير متوقعة من الحنان الإنساني -دفعات إضافية أو الطعام الموضّب الذي تركوه لهم أو الصلوات التي تمتموا بها أو الأيادي التي باركتهم.

رعد، برق، يومان من المطر.

قفزت أيانا فوق برك المطر. غطى ضباب أزرق غير عادي جزءًا من الجزيرة، وزينّها بنوع من الجمال الملعون. سارعت بالتجول في جميع أنحاء الجزيرة، ونظرت فوق كتفها، شعرت بألمٍ في حلقها، والبرد في عمودها الفقري، وأحاط بها مستنقع من الشيء من الخوف الذي تحدث إليها أحيانًا في همسات فضل المصري. تسلّل إليها الشعور بالذنب، كما لو أنّه كانت لها علاقة بهذه الاختفاءات. نعم، لقد صلّت من أجل أن يختفي زرياب راميس، لكي تعود هي ومحيي الدين ومنيرة كما كانوا من قبل. لكنّها لم تكن تعرف أنّ صلاتها سيُستجاب لها. في المحادثات الاجتماعية، بات يُشار إليهم على أنّهم "عائلة زرياب المفقودة".

تظاهرت أيانا أنّ هناك نهاية "للفقد". هؤلاء الذين تقربوا من العائلة تكلّموا عمدًا عن مواضيع أخرى -الطقس وأخبار الصيد والولادات وأخبار من فلسطين، التي لم تخطر على بال أو مخيّلة سكّان الجزيرة قبل "الحرب على الإرهاب".

. .

شغلت أيانا نفسها بالقراءة. سكنت حياة شخصيات لتظنّ أنّ بإمكانها أن تهرب من عالمها. درست كلماتهم. حملت نسخة من كتاب "مجنون ليلى" من تأليف الشاعر نظامي الكنجوي كانت قد أخذته من رفّ محيي الدين للكتب. قرأت فيه عن الرغبة والرغبة التي تشابهت مع رغبات أمّها، وأحزان تخطّت محيي الدين. عرّفتها الكلمات إلى أسئلة بقيت من دون إجابات. في وقتٍ لاحق، استلقت أيانا تحت النجوم -كان المنزل مكانًا معكرًا -وهي تستمع إلى رياح اللّيل. كانت تلك أولى الليالي حيث سمعت صراخ الجن في نبراتٍ عالية شعرت في لحظات أنّها تتصاعد من عمق البحر. استمعت إليهم، نفسًا تلو الآخر، تلك الليلة، ووجدت أيضًا مكانًا للصمت، ركن لطيف فصلها عن باقي العالم. تحرّك البحر. قمر على المياه. القمر.

.

عوالم أخرى. عوالم أفضل.

اختبأت أيانا من ضوء النهار لكي لا تضطر أن تجد إجابات للمستفسرين. رفعت ذراعيها لسماء الليل. تخيّلت أنّها كانت ترسل إشارات عبر المسافات، حتى تصل إلى زرياب راميس. على امتداد الشاطئ، مشت أيانا وعبرت الكثبان الرملية وتكدسها في الشقوق، انغمرت في سماع الأصوات، لكي تتطهّر من خطيئتها السريّة، صلوات الغيرة التي نطقت بها لله متمنية أن يأخذ زرياب بعيدًا. الآن كان غيابه خرابًا. كانت تصلي له في المنزل. عُد. في الأدنى، انتشرت الأمواج عند الصخور.

رياح عالية صافرة.

في تشقق الضوء على الماء الأسود، للمرة الثانية، سمعت تنهدات الجن. انضمت إليهم وهي تتوق إلى شغفها بأن تجتاح روح العاصفة حتى تكون بلا خوف، بلا شكل، وقوية.

لقد تجرأت. غطت. كان البحر فحمًا سائلًا مبعثرًا بأطراف ضوء القمر. سقطت في إغواء عميق، حنين شعرت به. الماء ينبض. لا ثغرات في المحيط، ولا مسافات بين البشر. غرقت أعمق، وفقدت الشعور بالصعود أو الهبوط.

البحر.

طبقاته وألوانها القزحية. مخلوق يحترق حريقًا داخليًا. ظهرت أذنيها في المياه الباردة. سبحت الكائنات المائية من مختلف الأشكال والأنواع حولها، أسماك شفافة، أعين مستديرة حولها، ومجموعة من الأسماك الفضية الصغيرة التي كانت تحوم حول قدميها العاريتين، وتدغدغ بشرتها. غمرتها النعومة الهادئة والهدوء المألوف، ما أشعرها بتلاشي الوقت والمتاعب. ضغط المحيط بشدة على رئتيها، لكنها حبست ما يكفي من الهواء في السطح لكي لا تبالي. استقرت في أحضان محيطها. شرنقة سكون. كان من الأسهل الهبوط إلى داخل الماء من الخروج منها.

العودة للوطن.

نفحات الجن.

تذكرت آنذاك أن تحرّك جسدها لتدفعه مرة أخرى إلى السطح، ركلت الماء، وتركت دموعها تذوب في البحر، مثلما فعل الضوء من قبلها. كانت بحاجة إلى التنفّس وابتلعت المياه وهي خارجة إلى السطح. باتت على سطح الماء وتركت جسدها يختار وجهته. انجرفت.

كل يوم، قامت بالأمر نفسه. كل ليلة، نفس لون اللاشيء. أيانا أن "اللا مكان" كان أيضًا مساحة مأهولة.

بطريقة ما، مرّت سنة كاملة.

[23]

قرّر محيي الدين أن يقوم بالأمر الذي لم يتخيّل أنّه قد يقوم به مرّة أخرى: غادر جزيرة بيت. ظهر محيي الدين عند باب منيرة حين كانت أيانا في المدرسة. تمتم أنّه ذاهب إلى نيروبي لتسوية الحقيقة مرّة واحدة وإلى الأبد؛ لم يكن يعلم متى قد يعود. غلّبت منيرة كبرياءها ولم ترجوه أن يبقى هنا. لم تقل له إنّها خائفة وإنّ نقودها نفذت، وأنّ دين زرياب كان 73080 شلن من دون أن تضيف إلى المبلغ قيمة الفائدة.

بنبرةٍ عالية، قالت له منيرة: "حسنًا. اذهب".

وقف محيي الدين كأنّه ينتظر المزيد. ثمّ سحب من جيبه رسالة كان قد كتبها لأيانا – كان قد اختار أن يغادر بينما كانت هي في الصفّ. ترك مفاتيح منزله مع منيرة.

"لأيانا"، قال لها. "المنزل وكلّ ما فيه".

بقيت المفاتيح عالقة بينهما. "في حال..."، لم يكمل جملته لكنّ منيرة فهمت أنّه يقصد في حال عدم عودته وهزّت رأسها بسرعة.

غادر محيي الدين.

فتحت منيرة الرسالة التي تركها محيي الدين لأيانا. قرأتها وعيناها تدمعان. "عبيرة، لقد ذهبت لأجد زرياب. سأعود. كوني شجاعة وتولي حماية والدتك. ادرسي بجدّ. إنّه أنا والدك، محيي الدين".

شاهدت أيانا زبدًا بالماء الأخضر في المقلاة. الأوراق الخضراء التي عالجت الملاريا وعالجت أيضًا تسعة وثلاثين مرضًا آخر. غلت أوراقها وجذورها وبذورها. كان بإمكان ذلك الإكسير المرير أن يشفي كلّ شيء. ومع ذلك، لم يكن بإمكانه أن يعالج الحزن.

Mtupie Mungu kilio, sio binadamu mwenzi.

متضرعًا لله، ماذا يمكن للإنسان أن يفعل؟

[24]

تعرضت أيانا لنوبة ربو في منتصف شهر مارس، بعد أن أخبرتها منيرة أنّه لا توجد أموال إضافية لتغطية رسوم مدرستها لفصلٍ دراسيّ آخر. كانت تصفر تحت البطانيات، حاولت منيرة أن تساعدها على التنفس. "سوف أجد طريقة"، قالت لها، بينما استنشقت أيانا البخار من البخاخة وتنفّست وهي تمتصّ ظلالًا من العار والخوف. "سوف أقرأ كل يوم"، قالت أيانا وهي تحاول التقاط نفسها. سعلت. ثمّ أكملت: "لكنّني سوف أساعدك في العمل".

. . .

مرّتان يوميًا، انتظرت أيانا عند عتبة دار محيي الدين.

اتّصلت برقمه.

"الرقم المطلوب ليس بالخدمة".

مرّت سنة.

عبرت سنة.

صباح بداية عامٍ جديد.

مرّتان يوميًا، انتظرت أيانا عند عتبة دار محيي الدين.

اتّصلت برقمه.

"الرقم المطلوب ليس بالخدمة".

.

موسم رياح الكاسكازي.

ظهر زائران غير متوقعين وخرجا من يخت صغير اسمه بتشبا باللونين الأبيض والأزرق رسا على رصيف الميناء المتدهور، حضر لاستقبالهما أفراد طاقم يرتدون الزي الرسمي باللون الأزرق الداكن والأبيض. فاحت رائحة الجلد الجديد والذهب والعطور مع نضارة الأوراق النقدية الطازجة. ظهرت علامات الثروة غير الشرعية من خلال الأكمام

المزخرفة وربطات العنق الفاخرة والخواتم الباهظة الثمن والقمصان المنقوشة. "المشرقيون". هكذا وصفتهم الجزيرة، رغم أنهم ربما جاءوا من مكان آخر.

بعد خمسة أيام. باللغة الإنجليزية المقطوعة، قال أحد الرجال همسًا "صحيح، صحيح جدًا". تعثرت أقدام منيرة على مسار الأوساخ. كان بإمكانها رؤية منزلها على مسافة بعيدة. "النساء هنا..."، قال الرجل. وهو يتنفس الصعداء، يغمض عينيه، ويزمّ شفتيه بطريقة شهوانية. "سمعنا. لقد جئنا لنرى بأنفسنا. نحن جامعون. ماذا نجد؟". ابتسم وعبست منيرة. تجاهلت سرورها: هل كانت هذه الكلمات لها؟ ثمّ امتعضت. لا مكان" ابتسم. منيرة عبوس. تجاهل دغدغة السرور: هل كانت الكلمات بالنسبة لها؟ تهيج خفيف. لا مكان للإطراء في حياتها. خطا خطوة إلى الأمام. صاح الرجل مرة أخرى. "يجب أن نتكلم. أنت وأنا بجدية".

التفتت لتنظر إليه. وجدت ندبات على وجهه وجلده الأنيق بلونه الذهبي. بدت الندب متعمّدة، كأنّ الرجل اختار تقاطعها على وجهه بنفسه. حتى الأسنان وعيناه الصفراوان تقريبًا، مثل مفترس قانع، يداه فوق بعضهما البعض، مستقرتان قرب قلبه.

قال لها: "جمال مثل هذا يُقصد به أن يُنظر إليه".

أشاحت منيرة بنظرها ورفعت رأسها إلى الخلف، واستأنفت سيرها.

قال: "يجب أن نتحدث حقًا، يا سيدة منيرة".

تعثرت عندما سمعت اسمها. فوق كتفها، نظرت إليه وصاحت: "أنت تعرف اسمي؟".

"في مسائل التجارة المربحة، إنه مطلب، يا سيدتي"، قال وقد استمر بالنظر إليها.

"ما الذي تقدمه؟"، نظرت منيرة إليه صعودًا وهبوطًا. "ماذا تعرف عما أحتاجه؟".

أظهر الرجل أسنانه وهو يبتسم بخبث. عدّد الخيارات على أصابع يديه.

"أولًا، لن تضطري أن تعملي لحساب أحد أو لأيّ شيء في حياتك مرة أخرى. ثانيًا، ستتمكنين من أن تدفعي الثمن مقابل أحلام من تحبين. ثالثًا، سيمكنك أن تذهبي حيما تريدين، كيفما تريدين ومتى ما تريدين، في الدرجة الأولى على طول الرحلة. رابعًا"، أخفض نبرة صوته، "املئي الفراغ بما يناسبك".

كانت نظرة منيرة الخارجية ثاقبة، لكن في داخلها كانت ترتعش. لم تصدّق ما يحدث. اقشعر بدنها.

استمرّ الرجل. "رسوم الاجتماع الأول. مدفوعة مقدمًا، لا أسئلة. في نهاية الاجتماع،

نفس المبلغ. نسميها بدل الجلوس".

ضحك قليلًا ثم تابع: "إذا تمت الصفقة بنجاح، فستتلقين شيكًا. يمكنك ملء الفراغات. اكتبي ما يصل إلى مليون ونصف دولار أميركي. المبالغ الكبيرة تخلق ضوضاء هنا. نحن لا نحب الضجيج".

ضاقت عيون منيرة. كان عقلها في دوامة. ما كان هذا؟ هل كان صحيحًا؟ دفعت كل ديونها للمجتمع؟ كل صراعاتها تقترب من نهايتها؟ هل يمكنها أخيرًا مغادرة جزيرة بيت؟ تخيّلت نفسها تهبط في زنجبار مع حاشية تبحث عن عائلتها. يمكنها التسوق في باريس ولندن، وحتى تونس. يمكنها أن تبدأ حياتها من جديد. ماذا يريد منها؟ ماذا يريد معظم الرجال من النساء؟

"كم عمرك؟"، سألت منيرة الرجل.

"أربعون عامًا"، قال مبتسمًا.

ابتسمت له بدورها. ابتسما لبعضهما. ثمّ تنهّد الرجل. "هذا الترتيب ليس لي. آه ولكن لو أمكنني ذلك، لفعلته".

ابتسم. ابتسمت هي.

"أنا مجرّد حامل رسائل"، تابع: "مَلاك يمهّد الطريق نحو الرّب"

ضحكت. ضحك هو أيضًا.

عدّلت جسدها. سألته: "في هذه المسألة يا "ملاك"، الرّب هو...؟".

"ستلتقين به قريبًا. لقد سبق أن رأيته من دون شك".

تذكرت منيرة بشكل غير واضح تمامًا كائنًا كان قد رافق هذا الخاطب الوسيم. ثمّ تجاهلت الفكرة ورفّ جفناها وسألت: "إذن؟". عدّل الرجل من طريقة وقوفه ليبقى عينيه في عيني منيرة. باتت نبرة صوته أكثر برودًا: "نحن جامعون كما قلت لك. نبحث عن الروائع. نجدها وإن كانت مغطاة بالغبار".

انتظرت منيرة. هاج البحر. لم تكن الشمس شديدة الحرارة على جلدها.

ضعف قلب منيرة وبدأت دقاته تتسارع في صدرها. "أيانا"، أضاف الرجل.

قفزت منيرة. قال: "هي".

ساد الصمت.

"هي".

علقت أنفاسها في حلقها وحدّقت منيرة.

قال الرجل: "إنّها توقظ عوالم خيالية. تستحضر الأحلام. تتجلى، وتجعل ما حولها يتجلى. رأيناها. يجب أن نحصل عليها. سنقوم بتنظيفها وتوضيبها وتزيينها. سنضعها حيث يمكن أن ينظر إليها بشكل أفضل وأن يُستمتع بها بشكل أفضل. هل هي عذراء؟ العذرية مهمة بالنسبة له. ختم أصالة. يجب أن يحصل عليها".

شعرت منيرة بسيل أسود يتحطم على رأسها. استحوذ على قلبها. شعرت بالكهرباء داخل جسدها، يحرقها ويرسل الشرائط الباردة الساخنة من البرق الأحمر في روحها. ولفترة من الثانية، بدا الأمر كما لو أنّ أحدهم دفعها عارية خارج طائرتها الوهمية إلى باريس. ظهر عليها الغضب أولًا ثمّ تغيّرت ألوان وجهها.

"ابنتي؟"، قالت متلعثمة.

"نعم هي".

لوى رأسه.

"لمن كنت تعتقدين أنّي أشير طوال هذا الوقت؟"، قال ممازحًا. "نحن نبحث عن الكمال كما ترين".

ظهرت أسنانه برّاقة ولامعة. احمرّ وجه منيرة بينما حاولت أن تتنفس. عصفت الريح بملابسهم. صاح ديك.

قال الرجل: "بوتيكات (محلات ملابس)! يمكنك أن تفتحيها في أي مدينة في العالم. عملك... مذهل. يمكن لأحد مصانعنا تحويل أقمشتك وتصاميمك إلى منتجات. تبلغ قيمة هذه الصناعة في جميع أنحاء العالم أكثر من تريليون دولار. أميركي. يجب أن تكون لك حصة في هذه الصناعة. سنرتب منتجاتك وسترتدي النساء ملابسك. كل شيء ممكن".

كانت منيرة تحرّك أصابعها، تغلقها وتفتحها، تدفقت الأفكار في رأسها وخفضت رأسها وقالت بصوتٍ مرتعش: "من أجل ابنتي؟".

"نعم".

نظر الرجل إلى أظافره، منتظرًا. تخيّلت منيرة ابنتها. أيانا. تخيّلت كيفَ يمكن لعوالم هذا المخلوق أن تطبع... طفلتها. فكرّت أيضًا بأّن أيانا ستحظى بالأمان لمدى الحياة. تخيّلت

نفسها وهي تدفع للعمّال ليصلحوا ويوسّعوا المنزل، وهو يزيّنونه بكل الأشياء الجميلة التي أرادتها. تصوّرت نفسها وهي تدفع مقابل الاستقصاء عن مكان زرياب.

أيانا.

هروبهما الرابح.

أيانا.

سيكون بإمكانهما الابتعاد عن الظلال التي قتلت الأمل.

أيانا.

الحرية.

همست منيرة: "ابنتي؟ صغيرتي؟ طفلة؟".

قال الرجل: "بكل تواضع، لا أوافقك الرأي".

كانت نبرة صوته منخفضة ومكثفة وعقلانية: "اللوحة الجميلة تبقى لوحة، سواء كانت صغيرة أم كبيرة. الفن – "، نظر إلى الأعلى – "لا يعرف زمنًا أو عمرًا. هي. بكر. جمالها يضيء من الداخل. لقد راقبناها... نعمة... مثل طائر في المياه العميقة. عظام صغيرة. سوف تزهر بلمسة خفيفة. وهو يتوق للجمال".

أشار الرجل. "ليتذوّق ضوءه".

نظر إلى عيني منيرة.

"إذن أخبريني يا عزيزتي، متى لا تكون الفتاة امرأة؟".

ابتسم. "إنّه مسحور بها. تفهمين ذلك".

عجزت منيرة عن التقاط نفسها.

"فن؟".

"قطعة أصلية".

حرّكت منيرة حجابها لتغطي وجهها. نظرت حولها. كانت الطيور البيضاء بريشها الناعم حول قدميها، قطتان، وديك عجوز – هل بات عمره الآن عشر سنوات؟

سألته: "هل تفعل هذا كثيرًا؟".

"ماذا؟".

"جمع الفتيات؟".

عبس الرجل.

"نحن خبراء. نحن نحب الجمال. ما الخطب في ذلك؟".

"ماذا عن الفتيات؟".

"لا توجد شكاوى حتى الآن. بالتأكيد ليس منهن. يمكنهن السفر في الدرجة الأولى إلى أيّ مكان".

ضحك. بريق نحاسي في العين.

"عزيزتي، عزيزتي، كيف يمكنك أن تحسمي قراركِ؟".

همست منيرة: "أحتاج إلى وقت للتفكير".

اهتز جسدها.

تذمّر الرجل. "الوقت هو السلعة الوحيدة التي لا يمكننا أن نوفرها".

تنهّدت منيرة.

قال الرجل: "أنت مندهشة".

أصدرت منيرة صريرًا بأسنانها.

"عندما استيقظت اليوم، لم أكن أعرف أنّ هذا سيكون اليوم حيث سألتقي أولئك الذين يتحكمون بالوقت والمصير. هل هو صحيح أن أمثالك معفيون أيضًا من الموت؟".

نظر إليها الرجل وهو يحرّك فكّه: "آه السخرية. ها ها. رفاهية لمن هم مثلك. أحسنتِ. ولكن لا يزال بإمكانك أن تقرري. أنتِ أم. سأعطيك خمس دقائق. إن لم يكن الترتيب ملائمًا بالنسبة لك، سنرحل الليلة".

ضحكة خفيفة.

"حير يقرّر أنّه يريد شيئًا، فهو يريد هذا الشيء فقط وليس سواه. التقليد لا يشعره بالرضى. وهو واثقٌ دائمًا بخياره الأوّل. خياراته الأولى جعلته ثريًا. إنّه لا يفكر بالاحتمالات البديلة، ولكنّه كذلك لا يفرض أبدًا إرادته على أحد. القرار بيدك".

كان فم منيرة مفتوحًا من الدهشة.

"سيكون أمامك ثلاثة أيّام لتهيئة الفتاة".

هزّ الرجل بضع مفاتيح أخرجها من جيبه. وهي تحدث صوتًا، قال لها: "رتّبيها وألبسيها ونظّفي عنها الوحول. إنّه يحب رائحة الورود. ورودك؟ لقد جذبته إليها. مرهفة. ملهمة. يجب

أن يحصل عليها".

تمتمت منيرة: "هل لديك رأي بالموضوع؟".

رفع حاجبه. "نعم، رأيه هو".

في سكون المكان، شعرت منيرة كما لو أنّ فراغًا لا شكل له يخرج من الأرض تحت قدميها.

أضاف الرجل: "نلتقي في منزلك. المسألة سرية. ما رأيك بيوم الخميس للقائنا الأول؟".

مدّ يده إلى جيب قميصه وسحب رزمة من الأوراق النقدية.

"75 ألف شلن. للتحضيرات. هل يكفي هذا لسدّ ديون زوجك؟ أنت مصدومة، هيه هيه؛ نحن نقوم بأبحاثنا. ونحن نشعر بالهموم العادية للناس".

حين تنهّدت منيرة، ابتسم الرجل. "معظم الشركات تفشل عندما تتجاهل العناية الواجبة. السياق يحيرهم. نحن لم نفشل أبدًا".

ضحكة عالية.

"ألبسي الفتاة ملابسًا في غاية نعومة. الباستيل. يا أمّ اللؤلؤة؟".

انحنى إلى الأمام.

"الساتان على الجلد الأنثوي...".

قبّل أصابعه. كما لو أنّها خضعت لتنويم مغنطيسي، ثبّتت منيرة عينيها على النقود. كان الصمت حاضرًا، تمامًا كما لو أنّه كائن بينهما، وقد طغى حتّى على أصوات البحر. راقبت منيرة. انتظرت. أربع دقائق. مشاعر مختلطة. رعب. صرخة مكتومة. اهربي!

رأت نفسها تهرب، لكنّ قدميها كانتا ثابتتين في مكانهما.

75 ألف شلن.

كان بإمكانها حتّى أن تشمّ رائحة صدأ بقايا أحلامها، وأن ترى الحسد في أعين من سخروا منها، شعرت بنفسها ترتقي وتصبح المرأة التي أرادت أن تكون.

ثلاث دقائق.

تكلفة ابنتها؟

صمت. همهمة جوعها داخل أذنيها.

انتظرا. لم يتحرّك أيّ منهما.

"دقيقتان"، قال الرجل.

صرخت منيرة: "ما اسمك الآخر؟".

نصف ابتسامة.

"حقًا؟ هل هذا ضروري؟".

رجته منيرة: "أتوسل لبعض الوقت".

صمت.

دقيقة واحدة.

التفت منيرة لتبتعد.

لم ترَ الاستغراب في عينيّ الرجل، ولا الارتياح الذي حطّ على كتفيه. لم تتعرّف على نظرة النصر التي لمعت في عينيه. ربما لو فعلت، لتراجعت عن إعادة النظر إليه والقول: "الخميس. الساعة السادسة والنصف في منزلي. كما تقترح. سأحضّر وجبات خفيفة. أم أنّ أمثالكم لا يأكلون الطعام؟ ستكون جاهزة".

رفعت منيرة أنفها. غطّت وجهها.

سمعت ضحكة تلاحقها، وفهمت أنّ إبليس نفسه كان ليصدر نفس الصوت.

[25]

في نفس تلك الساعة، كانت أيانا التي فاوضت الصيّادين لتشتري السمك لتحضيره للعشاء، تتجول عند الواجهة البحرية، تتنصت على محادثات المارّة، غير مدركة لانعكاس الأضواء الآتية من اليخت عليها. كانت تمشي عند البحر، وتنظر للأشياء، لم تكن بحاجة إلى معرفة طبيعتها على قدر ما أرادت أن تتخيل من أين أتت وكيف انتقلت وسافرت، حتّى تتمكّن من ملامستها.

رُسل.

اختلقت الرسائل: الأخشاب الطافية، كان شكلها هو الحكاية.

أسماك الأنقليس كانت أسماكًا ميتة.

سلحفاة بلاستيكية زرقاء: طفل يضع لعبته لتتجوّل حرّةً وتجمع القصص من حول العالم.

في خيالها، ركبت على ظهر السلحفاة البلاستيكية وأبحرت إلى موانئ العالم التي كانت تتخيلها وتحبها، وكانت قادرة على استرداد زرياب من مكانه المختبئ، حتى يعود محيي الدين في النهاية.

في ذهنها، لم تكن جزيرة بيت تُفرّغ من أهلها، ولا كانت هناك أشكال جديدة من الظلام في النوافذ الليلية حيث أكدت الفوانيس الوامضة وظلال الشموع ذات يوم الحياة والحضور.

جثمت أيانا، أصابعها في الرمال، غير قادرة على الوصول إلى كتاب دونا فلوز وزوجاها الاثنان الذي كان في جيبها، تتساءل ما إذا كان ينبغي عليها أن تقرأه، ولكنها كانت تقرأه بجميع الأحوال. كان شيء غريب قد حدث هذا الصباح. كان سليمان بشعره الأشعث قد فاجأها وهي تغسل الملابس. "أيانا"، صاح بها بنبرةٍ أليفة وهو يرتدي ملابسه الأشبه بأسلوب الهيب هوب. كان شعره السميك بتسريحة أفريقية. تنفّست أيانا عميقًا وهي تغسل طوقًا وتغمسه دلو الصابون.

وقف سليمان قبالتها. "لقد رأيتك".

تنفّست أيانا مجددًا.

"أنا مشغولة".

كانت فكرة أن تخسر فرصة الدراسة ترعبها؛ وأمام زملائها، كانت دائمًا خائفة.

قال سليمان: "لقد رأيتك تسبحين في البحر".

أفلتت أيانا الملابس التي كانت تغسلها من بين يديها. خفق قلبها.

على الرغم من أنّ حضوره حوله كان يربكها ويجعل يديها تتعرّقان، كان سليمان ثرثارًا.

"أنت جيدة"، قال لها، "لكنّي أفضل منك".

نظرةٌ إلى الأعلى.

"لن تخبر أحدًا؟".

كان هناك رجاء في صوتها، وكرهت ذلك.

عضّ سليمان على شفتيه. أراد أن يراها تقع في المتاعب أكثر، لكنّه كان بحاجة إلى أن يتفوّق عليها في السباحة ويؤكد لنفسه أنّه أفضل منها. في الهمسات السرّيّة لأقرانها من المراهقين، كانت أيانا قد تحوّلت إلى موضوع خيال مراهق بذيء، ليس بسبب أي شيء شاعري بل بسبب أصولها غير الشرعية، مما حوّلها إلى ثمار محرمة.

كان هناك رهان بين الفتيان حول من سيفوز بالجائزة. في مرحلة ما، كان سليمان متأكدًا أنّه حاصل على اهتمامها، لكن حين اقترب منها، غالبًا ما مضت في اتجاه مختلف.

كان هناك شيء ما حولها أشعره أنّه يريد إيذاءها. لو كانت فراشة، لقشّر جناحيها عنها وقطّعهما إربًا. بعدما تركت أيانا المدرسة، بات سليمان الأوّل على صفّه الثانوي. حاز على علامة مرتفعة في الامتحانات. أدار رأسه وقال لها: "لديّ أخبار رائعة".

دقّق في وجهها ليرة ردّ فعلها. "سوف أذهب إلى جامعة الشارقة في الإمارات"، قال لها. "كما تعرفين، درجاتي هي الأعلى في المنطقة. أحتاج إلى أن أكون في مكان يمكنني فيه تنمية ذكائي".

انتظر قليلًا ثمّ أضاف: "كينيا صغيرة جدًا عليّ".

أرادت أيانا أن تصرخ بصوتٍ عالٍ. لم يكن ذلك عادلًا. كانت التلميذة الأفضل. لكنّها أخفض رأسها. من كانت تخدع؟ سألها عندها سليمان: "ماذا ستفعلين بحياتك؟".

"أفعل؟"، سألته وصوتها يتقطع.

"نعم".

مالت أيانا بجسدها ونظرت باتجاه البحر.

دموعٌ تلمع.

اتّهمت الحياة.

لم تكن عادلة.

قد تكون حياة شخصٍ ما أشبه بأفقٍ لا ينتهي من الفرص، وحياتها هي أشبه بدلوٍ أحمر مثقوب تتسرّب منه المياه.

لم تجبه. تحرّك سليمان من جانبٍ إلى الآخر. أخفضت كتفيها وتعمّقت الظلال في وجهها.

سألته: "ماذا ستدرس؟".

كانت نبرتها شديدة الحزن.

"الهندسة الصناعية والإدارة. علوم".

بدت نبرته كما لو أنّه سبق وحصل على الشهادة.

هزّت رأسها.

"أحتاج أن أنهي الغسيل الآن".

"أيانا"، قال لها، "يمكنني أن أخبر الناس أنّك تسبحين وحدك في البحر". كان يبتسم بخبث. حاولت أن تبدو لامبالية، لكنّ قلبها كان يخفق. "لكنّك تعجبينني".

توقفت لتنظر إلى سليمان. كانا بنفس الطول، لكنّه بنيته كانت أشدّ. وبدا عليه الثراء، كما لو أنّ له نسيج خاص ورائحة. أمسك يدها اليمنى المبللة، ومسحها بيده الناعمة ثمّ وضع داخلها قطعة قماش فيها لؤلؤة زهرية اللون بحجم حصوة من عقدٍ كانت والدته ترتديه. تسمّرت أيانا في مكانها ونظرت إلى الشيء في يدها. ثمّ رفع سليمان معصمها بمستوى فمه، ليمتصّ جلدها.

"يجب أن تنتظريني حتّى أعود"، قال وهي تغمض عينيها، مؤمنة أنّه بإمكانها أن تغيب في تطمينات سليمان لوهلة. كان ليحاول أن يقبّلها لو لم تخفض رأسها لتخفي ارتباكها. كان ليحاول مرة أخرى، لكي يعلن النصر لأصدقائه، لو لم يسمع صياح والدته من بعيد.

"سليمان!".

أفلت سليمان يد أيانا كما لو أنّها سمكة صخرية وهرب بعيدًا.

نادته أيانا: "سليمان؟".

نظر إليها من بعيد. قبّلت يدها ثمّ لوحّت له بها. صاح سليمان، لكنّ قلب أيانا لم يبرد. غسلت بقية الملابس وهي في حالة ذهول.

والآن كانت تمشي عند البحر مع الرياح والطيور. نعق غراب. ومع طقطقة الرمال تحت قدميها، تذكرت أيانا فجأة الوقت. ركضت وحجابها يتطاير، والأسمال في يديها. أخفضت رأسها حتى تتجنّب الغبار المتطاير الذي أزعج كل الكائنات، بما فيها الماعز، التي لم تتوقف عن الثغاء.

شبه عمياء، اصطدمت أيانا بجسدٍ أمامها.

"سامحني"، تلعثمت.

رأت أمامها رجلًا صيني شبه أصلع، مزاي كيتوانا الرشيق. توقّفت يده للحظة.

. . .

"إنّه القدر"، قال لها. نظرا إلى بعضهما البعض، ومن دون أي سبب سوى تجربة اللحظة، غرق كلاهما في الضحك. تذكرت أيانا فجأة بتلة الورد الجافة المطوية في كتاب بالخط الفارسي. ربّت مزاي على رأسها وغمز لها.

انحنى إلى الأمام ليتهرّب من الرياح كما لو أنّه يرقص، متّجهًا إلى كوخ الصيد قرب شاطئ المانغرف، حيث كان يطهو الأعشاب البحرية والسمك ويعتني بالطيور المصابة والنباتات والقطط والحشرات والأشياء الحية الأخرى التي تبحث عنه الآن في الخارج. القدر. همست أيانا لنفسها بنفس نبرة الريح. لملمت الأسماك عن الأرض ومسحت عنهم الغبار. يا له من يوم! وبماذا وعدها سليمان بالضبط؟ أمسكت اللؤلؤة الوحيدة وهي تسير في طريقها إلى المنزل.

[26]

أحاطت أيانا بأمّها. لم تكن منيرة متوازنة. سعيدة، ثمّ حزينة؛ مبتهجة، ثمّ مكتئبة؛ تحضنها، ثمّ تبعدها. كلامها أشبه بالأحجية، منشغلة بمصائر النساء.

قالت لها منيرة: "النساء الذكيات حين يرين الفرص، يغتنمنها".

كانتا تغسلان الصحون، فكّرت أيانا بكلماتها وهي تلعب بالصابون.

"سأذهب إلى المدرسة. أبلي بلاء حسنًا، تعرفين... ثمّ إلى الجامعة".

"من أين آتي بالمال لأدفع لهذا؟"، صاحت منيرة.

"أنا أستطيع...".

"ماذا؟ أن تساعديني في تزيين النساء؟ تعلمين اللغة الإنجليزية للصيادين؟ تتزوجين سكيرًا يقود شاحنات؟ تصبحين خادمة في بِلاد ثريّة، ثمّ تعودين إلى هنا جثة؟ لماذا لا تتزوّجين من تاجر نُوقٍ عجوز؟ العازب الذي لا أسنان له من كسمايو؟ هل هذه الحياة التي

تريدينها؟".

تصاعد الغضب في صوت منيرة، وعبست بها أيانا.

بعد العشاء، جلست منيرة على حصيرة أرضًا ونادت أيانا إلى جانبها.

بدأت بتمشيط شعر ابنتها. انحنت أيانا باتجاهها وقالت: "يمكنني أن أصبح مهندسة. سيمكّنني ذلك من رؤية العالم".

استمعت منيرة وهي تجدّل شعر ابنتها الأسود. راحت أيانا تحلم. "سأدرس إدارة الأعمال. يمكنني أن أبدأ عملي الخاص. أمّي. سأدفع لك لتعيشي في بيت كبير. في مومباسا".

قالت منيرة: "مومباسا صغيرة جدًا علينا يا لولو".

صمت.

"اليوم سأغسل جسدك. يعجبك ذلك يا قلبي؟".

أضاءت عينا أيانا. تنفّست. ستدلّلها كالعروس!

ياسمين، عصفر، يلانج، القرنفل، خشب الصندل، وبتلات الورد في ماء الورد على جسدها.

أتاح لها العطر الذي يفوح منها نومًا خفيفًا ولطيفًا.

"من العريس؟".

لم تضحك منيرة.

قالت لها: "سأريك كيف يمكنك أن تطبقي... أسرارًا... حتّى لا يتمكّن أيّ رجل من تركك".

تمتمت أيانا: "آه حسنًا".

التفتت أيانا إلى والدتها وأدركت أنّ هناك أمرًا ما غريبًا يحدث.

"أمّي؟".

لم يكن الوضع سهلًا.

"هل تبكين؟".

فركت منيرة عينيها.

"هناك آثار حرّ على أصابيعي! يا لسخافتي. فركت عينيّ بهم".

ضحكت.

كانت عيناها شديدة الاحمرار وهي تعمل على جسد ابنتها. زيّنت أصابع قدميّ أيانا بطلاء الأظافر الأحمر بعد أن مسّدتهما بالقرنفل. غطّت ذراعي أيانا وظهرها بالحنّاء.

جلد وتواصل ولمسات وحميمية وأم وابنتها، امرأتان.

فضاءٌ خالد.

ماذا مع السماء في ذلك اليوم -زرقاء داكنة ملبدة بالغيوم – ومع رائحة الليمون والنعناع والقرفة، وانخفاض أنين الرياح التي تسببت في انحراف البحر بكثافة قوية، اعتقدت أيانا أنها قد تظل هكذا إلى الأبد. أجسام غير واضحة مغمورة بالروائح الدقيقة والوجبات الفاخرة. نسيت أيانا أن تشتاق لمحيي الدين.

غرقت منيرة في اللحظة ونسيت هدفها، وراحت تغني:

"يا زهرة الجنة، يا زهرة مشرقة...".

التفتت أيانا إلى والدتها، وكانت والدتها مضيئة، ولم تكن تحب شيئًا أكثر من ذلك. مدّت أيانا يدها لتزيح خصلة شعر كانت تحوم فوق عينيّ منيرة. فركت منيرة جبهتها كما لو أنّها تزيل وصمة عار. القلب مرن، قالت لنفسها. يمكنه أن يتعلّم أن يحب أيّ شيء. كان هذا أملها. هي بنفسها كانت تشتهي النار على مدى سنواتٍ طويلة، ثمّ أتى زرياب، وعرفت أنّ الرغبة قد تحققت. التهمت كلّ دقيقة من المتعة. والآن على الرغم من كونها مسكونة بالزمن، أرادت المزيد.

"الحب وحش ذو وجهين"، قالت لأيانا.

كانت على وشك القول إن الرغبة والمعاناة كانا من نفس المادة، ولكن بعد ذلك صمتت وركزت على التأكد من توهج جلد ابنتها.

. .

صياح الديك في صباح خميس مشرق. صاحت منيرة: "أيانا؟".

ظهرت أيانا من تحت ملاءاتها. انزلق كتاب الجغرافيا المدرسية الذي كانت تقرأه في الأمسية السابقة من نهاية السرير وسقط على الأرض، مصدرًا دويًا. رمشت منيرة. ثمّ قالت: "نامي اليوم، نامي. سأعود غدًا بعد الظهر".

في منتصف النهار، دخلت منيرة إلى غرفة أيانا وفتحت شيئًا جعل الفتاة تقفز من

سريرها. حدّقت أيانا إلى قماشٍ أبيض.

نظرت إلى والدتها وعيناها واسعتان: "لي؟".

"لدينا زوار"، قالت منيرة.

زمّت شفتيها. "استيقظي، إنّهم هنا لرؤيتك".

"أنا؟ لماذا؟ من؟".

راحت أيانا تفكر. "أخبرتيهم عن المدرسة؟".

مسحت أيانا بقعة عن الحائط.

"سوف ألبسك وأزيّن وجهك، وهم سيشرحون لك".

"تزيّنين وجهي؟ أمّي؟ ماذا يريدون؟".

مسحت منيرة بقعة أخرى عن الحائط.

"أن يناقشوا مستقبلك".

سعلت منيرة.

"أمّي، هل أحضر نتائج امتحاناتي؟ سيرون أنّ نتائجي جيّدة".

صمتت منيرة.

"أمّي؟".

"إن أردتِ ذلك".

دخلت أيانا إلى الحمام، وهي تصرخ: "لديك تقارير مدرستي؟ يجب أن أعلق خطي على الحائط. عندما يرون، سوف يسألون، من فعل ذلك؟ يجب أن تقولي إنّها أيانا".

بقيت منيرة صامتة، تفرك جزءا من صدرها حيث خفق قلبها واحترق وانكسر.

[27]

قصاصات قماش شيفون بلون السلمون. كانت ملابس أيانا ممزّقة ومرمية في الزاوية.

وجهان مذعوران، جسدٌ واحد يرتعش. مياه التبريد على الأرض – بقعة لا تزول على

الإسمنت في لحمٍ مدنّسٍ جزئيًا. غرقت الوجبة التي كانت على الطاولة بماء السكر اللزج. تسرّبت إلى طفولة أيانا السابقة وأيقظتها وباتت مرآةً لجذورٍ لا تعرف عنها شيئًا.

سارعت منيرة وهي ترفع رأسها بشكلٍ مبالغٍ به. كان قد رافقها أحد المرافقين إلى زاوية حديقتها حيث نمت الورود البرية. ملأت رائحة اللافندر وإكليل الجبل الهواء بينما حام النحل حولها.

نظرة سريعة على المقابر القريبة، وتعليق مفاجئ من الرجل الخطاب: "العفن والعطور في مكانٍ واحد، أكمل حديثه وهو يرى بتلة وردٍ تتساقط أرضًا، "جمالٌ متحلّل. لكنّه يبقى مرغوبًا".

نظر حوله واستنشق الهواء قبل أن ينظر إلى منيرة التي كانت تبعد خمارها عن وجهها.

"هل تعرفين أنّ كلمة رغبة مأخوذة من اللاتينية وتعني انتظار ما ستجلبه النجوم". جوزاء، تذكرت منيرة، كان هذا اسم إحدى النجوم التي استدعتها لروحين. سارا معًا. بلّل العرق جبينها. تنشّق الهواء مجددًا.

"نفحة من الرغبة ممزوجة بالدم والدخان والظلال و -ما هي؟" - كان صوته خشنًا غريبًا -"الحزن؟".

أتى صوتٌ غريب من اتجاه المنزل. ثمّ توقف. التفتت منيرة ثمّ عاودت النظر إليه. كان الفضول البارد محفورًا على وجهه. "الرغبة! الأحلام!"، انحنى ليهمس لها.

ثمّ صرخت منيرة، استدارت وهرعت باتجاه منزلها. اندفعت من الباب، شعرها يتطاير، تصيح: "يا مسكينة!". كانت أصابع الرجل الممتلئة بالخواتم الذهبية تلفّ جسد ابنتها، تنفّس الرجل بثقلٍ وهو يحاول أن يطوّعها ويركبها، بينما وضع يده على فمّ الفتاة ليحاول أن يكتم صرختها. كان ذلك المخلوق قد مزّق الفستان الذي ابتهجت الطفلة به. امتدت يد منيرة لتحضر مقلاةً مليئة بماء السكر كانت قد تركتها على النار. كانت تحضّر الحلاوة التي ستستخدمها لإزالة الشعر عن أجساد زبوناتها.

بيديها العاريتين وشبة مخدّرة، غير شاعرة بما تقوم به، سكبت منيرة تقريبًا كلّ سائل الحلاوة على جسد الرجل السمين، رأسه من الخلف وظهره، كأنّ تلك إشارة رحمة على ما قد تفعله به إن لم يبتعد عن ابنتها. كانت مستعدة لسحق رأسه بالمقلاة. انسكب بعض السائل أيضًا على فخذي ابنتها. كانت آثار الحروق لتبقى إلى الأبد على جسدها، وكذلك آثار

عضّات فم رجلٍ قبيح وثري.

ابتعد المشرقي الضخم بعد الصرخة الأولى من المفاجأة والأذى، دون نطق صوت آخر. حتى حين احترق جسده، لم يرمش. راقبته منيرة. عرفته. أثبت لها أنّه لم يكن من نفس طينة البشر التي خلقت هي منها. راقب الرجل أيانا وقد وقعت وتكورت على نفسها فوق فستانها الممزق وأطرافها الطويلة والنحيلة، عارية الصدر – ظهر نهديها – زينتها تشوّهت، وشعرها كذلك، كانت أكثر ضعفًا ممّا حسبها في البداية. كانت ممزقة. ابتسم ابتسامة عريضة في وجه منيرة. قرأت الرسالة في وجهه كما لو كان يقول لها: ربما استسلمت في نهاية اللعبة، لكنك خسرتِ طفلتك الوحيدة. خسارتك هي الأفظع.

تمتم الرجل الكثير من الكلمات في طريقه إلى الخارج.

"أميركية"، تمتم.

ترك منيرة وأيانا لصمتهما ولرائحة الحلاوة. في الخارج، تضاربت الرياح مع أمواج البحر، واستراحت الأمواج عند الشاطئ.

"قومي"، قالت منيرة لأيانا، بدل أن تقول لها أنا آسفة. "سوف أحرق هذا الفستان"، قالت لها، بدل أن تقول لها أنا آسفة. "لا يمكنك أن تتحملي مشقة الغرق في الدموع"، قالت لها، بدل أن تقول لها أنا آسفة. "اذهبي ونظفي نفسك. سوف أنظف الغرفة. اشربي الحليب، هناك بعض منه هناك"، قالت لها، بدل أن تقول لها أنا آسفة.

"نعم"، قالت لها أيانا، مطيعةً وحزينةً، باتت فجأة أكبر سنًّا وحكمة.

تظاهرتا كلاهما أنّ مساء يوم الخميس ذلك لم يحدث، على الرغم من أنّ آثار الحلاوة بقيت عالقة على الأرضية، كما لو أنّها شاهدٌ معلّق فوق قبر. الطريق للتطهّر، وصفة لتجاوز الألم: سبعة ملاعق كبيرة من زيت القرنفل، وثلاث ملاعق صغيرة من الليمون، تضاف إلى دلو من مياه الاستحمام البخارية. رعن والبحر تحته: إغراء للقفز. وأصوات مختنقة في ظلمات الليالي.

لو اهتمّت أيانا الصامتة والتي تشعر بالغثيان بالنظر، لأمكنها أن ترى والدتها مستلقية في السرير، وقد أصابها الأرق، خائفة ممّا كادت أن تضحي به من أجل أن تمسك بحلمٍ مدفون. وقفت منيرة لتسمع ابنتها تنتحب داخل غرفتها. عدّت اللحظات التي توقّفت فيها أيانا عن البكاء لتلتقط أنفاسها، ورأسها مسنود إلى الباب المغلق. كانت لتدفعه

وتدخل لو لم تعرف أنّها ستقع في شرّ أعمالها. استرقت منيرة النظر إلى أيانا من الباب. كانت الفتاة تراقب السماء.

قمر مظلم.

قمر غائب.

رعن والبحر تحته: إغراء للقفز.

راقبت منيرة من البعيد، قلبها مكسور.

بعد سبعة أيّام، تحت ظلال عاصفةٍ صباحية مبكرة وسماء زرقاء مائلة للون البنفسجي، خرجت أيانا مندفعة من منزل ملطخ بالظلال الباردة لضمير مشوش. مشت عبر منظر طبيعي بات بالنسبة لها مليئًا بالإهانات. بللها رذاذ رشاشات المياه. المياه العذبة النظيفة. توقفت لمشاهدة الأمواج الضخمة التي أغرقت قوارب الصيادين، واستمعت إلى الاضطرابات، والرياح العاتية، ورعشة من الرعد أثارت خوف الناس. شقت طريقها كالعمياء فوق الحجارة، قرب شجيرات صغيرة، وباتجاه كهف فندي مهدي حيث أصلح القوارب، معتمدةً على المزاج وحاسة الشم لتجد دربها. سمعته يحفر شيئًا ما، وتوقفت تحت شجرة جوز الهند الضخمة التي حام حولها نسيج عنكبوت عملاق، مع ضحايا الكائن المفترس البني اللون.

شاهدت فخ العنكبوت لوهلة قبل أن تمحوه وتحوّله إلى لا شيء بقبضتها العارية. حين ظهرت أمام مهدي، وقفت ثمّ انحنت بانتظار أن يحكم عليها. نظر إليها. رأت سبعة جراح جدد على وجهه بسببه "حربه على الإرهاب". نظر إليها ولم يقل شيئًا، ثمّ أكمل عمله. لذا خطت أيانا كالقطة باتجاه القارب المكسور وصعدتِ إليه.

جلست هناك، مغمورة بالمجهول، لم تبكِ كما كانت تحتاج، ولم تفحص الأضرار والكدمات البنفسجية على أطرافها كما أرادت، وهي تفرغ نفسها لتسمح للبحر وصوته الرائع أن يدخلها. برأسها مستند إلى الخلف ومن دون قصد، تبعت عيناها طائرًا بنيّ اللّون يلعب وسط تيارات الهواء العاصفة. انحسرت أشباح أيانا. في الخلفية، كان صوت الراديو حيث أعرب أحد علماء الأرصاد الجوية عن أسفه لحالة المد والجزر.

في مكان آخر. منيرة. نظرت إلى نجمة الصباح عند الفجر ورأت الدم. ذهبت لنزع الورود الشاحبة، وخز الشوك إبهامها ورأت الدم.

رأت منيرة أيضًا الدماء على الماء عندما تغربت الشمس البرتقالية القاتمة فوق المحيط المكسور. عندما غرّقت أخشابها بالزيوت الثاقبة والتوابل لصنع العود، كانت رائحة الدم فقط.

. . .

اليوم. كانت تصنعين زيت الورد حتى ينطفئ العطر الخفيف من الرائحة الكريهة من الجسد والقلب والروح والدم. لقد قصدت من الروائح أن تزيل الحزن ثم تعيد طفلتك إليك في هذا الموسم من الشعور بالوحدة الذي لا يطاق. لقد تجولت في اتجاه هامش الجزيرة في فجر مهجور، وجثمتِ حيث تنمو عتبات الورود البرية، لاختيار بتلات قبل جفاف الصباح. لقد جمعتها في سلة قصب منسوجة وتجاهلت الدماء من الأماكن حيث كانت يدك مثقوبة بالأشواك. استخدمت أصابعك للضغط على الدموع في عينيك. ثم أسرعتِ بطريق العودة، متجاهلة، مرة أخرى، النظرات المزدوجة التي رمقك بها الناس، والذين كانوا الآن مقتنعين باعتقادهم بلعنتك.

لقد قبلتِ بذلك الآن. في مطبخكِ، غسلت بتلات الورد بالماء العذب وبكيت صلاة لا توصف. اشتهر زيت الورد الخاص بك بصدقه. قليلون عرفوا كيف كنتِ تضربين قلب الورد وتوسّلت السماح لحاجتك إلى تمزيق حياتها. قدمتِ للبتلات الحنان الذي كنت ستقدمينه لابنتك إذا استطعت. ستخلط قريبًا، ستخلطين زيوتك -الزيتون وجوز الهند وبذور العنب -بالنسب التي عمّقت كيانها. كان عليك أن تؤذي بتلات الورد. لقد فعلت ذلك بأسف عندما أسقطتها في الزيوت المخلوطة في مرطبانات بنية داكنة، والتي حملتها إلى سطح منزلك ملفوفة بقطعة قماش ساخنة. هناك بقيت في الأواني الفخارية التي غذيتيها بالماء الساخن.

كنت تضعينها على رفوف على طول سطح منزلك المتحلل، بجانب كومة من قطع الخشب، حيث أزهرت أزهار الياسمين والليمون والبرتقال بماء مقطر تحت شمس جزيرة بيت، تحت سطح القمر.

اليوم، ستقفين ساكنة لساعات بانتظار أن تنتهي من طبخ زيت الورد. في الليل، ستسترجعين الماء المعطر بزيت الورد والذي أعدته لابنتك. نعم، ماء الورد الخاص بك كان

معروفًا، وكذلك عطر الورد الذي كنت تصنعينه كان ينفذ ويباع قبل حتّى أن تتمكني من تخزينه. الآن أخذت ماء الورد. قمت برشه حول منزلك بينما حامت في السماء الطيور الليلية.

لكنّ الرائحة زادت من ألمك وأنت تسمعين أنين ابنتك في غرفتها. في ذاكرتك، دوت عبارة الملعونة. في وقت لاحق، كنت تسمعين من الثرثرة المعتادة حولك أنّه يجب عليك أنتِ وابنتك أن تدركا أنّ هذه اللعنة قوية ولن يخمد مفعولها أبدًا. سارعتِ من جزيرة إلى أخرى، ترسمين خريطة للمسافات حيث لم تتمكني من إخفاء ابنتك.

[28]

مرّ الوقت وكان على أيانا أن تنسى. شعرت أنّها لم تعد مرئية بالنسبة لذاتها. فقدت شعورها بوجود مستقبلٍ تقفز إليه، وفقدت شعورها القدم بأمان "الأم". تعلّمت أن تنظر إلى منيرة بعينين جديدتين. تحدثت منيرة مع أيانا. قالت لها: "ينبغي أن نكون حذرتين. إنّهم يسعون للانتقام".

حدّقت أيانا بأمّها وهي جامدة وساكنة.

قالت منيرة: "لم يحصلوا على كلّ ما أرادوه".

كان رأسها مطأطأ. كل ما دفعوا ثمنه، تذكرت. ارتعشت. لو أنّ محيي الدين... بدأت أيانا بالفكرة قبل أن تدفنها داخل قلبها.

توالت الأيّام مع حضورٍ أخفّ وأقلّ لأيانا كإنسانة. حين ذُكر اسمها مرّة أخرى، كان ذلك كعروس محتملة لحوالي 30 رجلًا، تتراوح أعمارهم بين ثلاثين وثمانين عامًا، وتختلف ثقافاتهم من الصومال إلى الهند. كان أحدهم من ولاية غوجارات، أراد عروسًا رابعة من ساحل شرق إفريقيا من أجل توطيد ارتباطه بالمحيط الهندي. أسماء وأسماء وأسماء أتى بها المبعوثون. تمّ تأكيد ملاءمتها كزوجة بناءً على أربعة أفكار: كانت صغيرة، أنثى، وملوثة بفضيحة كافية لتكون مثيرة للاهتمام وفاسدة قليلًا فقط. أسماء وأسماء وأسماء اقترحت النسيان والنسيان. أسماء شكّلت بالنسبة لها إغراء لأنها كانت وسيلة لشيء آخر، بعيدًا عن نفسها.

بعد ذلك بقرابة شهرين، التقت أيانا وجهًا لوجهٍ مع سليمان مرة أخرى. كانت تتجنب الناس منذ حادثة يوم الخميس. كانت متّجهة إلى مستنقع أشجار المانغروف، متجاهلةً النظرات حولها التي انطوت على الكثير من الأسئلة. خشخشت مفاتيح منزل محيي الدين في جيبها. كانت تنوي أن تجلس لاحقًا في خزانة المومباي. توقّفت أيانا. اعترضت طريقها أربع حقائب خضراء اللّون. كانت ماما سليمان تنهي محادثة هاتفية مع أحدهم. أحاط ذراعها الآخر بابنها الذي ارتدى بزة زرقاء نظيفة.

"أنت ذاهب؟"، سألت أيانا من دون تفكير.

من دون أن تنظر إلى أيانا، قالت ماما سليمان: "اذهبي بعيدًا. أنت تشوهين منظرنا. سليمان، توقف عن القلق؛ أنت لست طائرًا. أيانا، هناك وظيفتان كخادمة إذا أحببتِ العملَ بعيدًا، وراتبهما جيّد يا فتاتي".

ابتسمت. "لن تكوني بحاجة لتقديم الخدمات للغرباء ولا أن تبيعي كنوزك الحميمة بأبخس الأثمان. تحركي يا فتاة".

حدّقت. كان هناك الكثير من الغضب في نظراتها. أحكمت أيانا قبضتها. كانت غاضبة ويائسة. ابتسمت ماما سليمان. ضحك سليمان. ذبلت أيانا.

بإرادتها فقط، لم تسمح لدموعها أن تنهمر. غمز لها. "آه... أيانا، هل ما زلتِ ترين أشباح قطتك القبيحة؟". تظاهر أنّه يمسح الدموع من عينيه.

هناك، تعلّمت أيانا الكراهية المطلقة. الصوت الذي تسلّل من شفتيها دفع سليمان للاحتماء تحت ذراع والدته.

تقدّمت آمنة إلى الأمام. "اذهبي أيّتها الفتاة. أليس أمامك حيل لتتعلميها؟ نحن أناس مشغولون... سليمان، ارفع رأسك! ظهرك مستقيم. هل لديك تشوّه خلقي؟".

التفتت إلى أيانا: "ماذا؟ أيّتها الشيء الجريء. ماذا؟ أنت لا تزالين هنا؟".

ركضت أيانا. وصلت إلى الخليج الصغير الذي لم تكن تعرفه بعد والذي كان أيضًا مكان اختباء والدتها. جلست على الرمال. الحزن، مرة أخرى، هريرة رمادية قذرة. تدفق الوقت عبر أيانا. أعشاب بحرية، صخرة لمعت من شظايا الكثير من الآمال الميتة. هناك شعور بالوحدة يدخل إلى الكائن كأنّه يفصل الجسد عن النخاع.

في وقتٍ لاحق، ركعت أمام بحرها للتفاوض. خذني بعيدًا. نظرت من فوق كتفها في

الوجود مزعجة التسرع في وجهها. التفتت إلى البحر. خذني بعيدًا. نداء جائع. اقتربت من المياه، كأنها بحاجة إلى الوقوع فيها. لكنها لم تتعثر. تنفست.

غطّت جسدها، بدت أشبه بظل مظلل باللون الأسود في نزهة سريعة وناعمة. بعد ذلك، في الظلام المملح الذي حجب شكلها وهويتها، تسللت عبر الطريق المؤدي إلى منزل محيي الدين. استمعت هناك عند الباب، على أمل سماع ضجة الحياة في الداخل. ثم فتحت الباب ودخلت، وسعلت بسبب الغبار الذي خلّفه الغياب. قلب. نبض قلب متسارع. غضب مفاجئ. صرخت أيانا. مسحت الكتب على الرفوف. أمسكت بسكين مطبخ لتمزق الأقمشة والمفروشات. اخترقت الوعود المكسورة للرجال. كسرت أواني محيي الدين. ثم صعدت الدرج، قفزًا، للدخول إلى غرفة نوم محيي الدين.

راحت تقفز على السرير، للأعلى وللأسفل في حذائها، كما لو كان قطعة من القماش المشمع، وسّخت الأغطية، وركلت الوسائد. أثناء قفزها، شعرت بأن مسارها مقيد بأشياء صلبة تحتها. قفزت إلى الأسفل ونظرت تحت السرير. صندوق محيي الدين. بعد دقائق، دمرت أيانا القفل. في الداخل، أشياء متنوعة، سجلات السفن، أدوات الإبحار. وجدت الكتاب البني الداكن. في الداخل، وجدت الورقة الصفراء اللون في صفحاته الوسطى.

قصاصة من الورق: رائحة القمر ووعود بأماكن بعيدة. لم تتمكن يداها من تمزيقها. عتبات مسكونة. ثم رأت ذلك. من خلال الدموع. ذكرى مساء عاصف. أضاءت رؤية النار الورقة، وقرأتها الآن كما لو أنّها وعود. كانت هناك موسيقى. كانت هناك موسيقى. وكان هناك شعور. جفت دموعها وتلاشى الضوء وتلاشت معه الأغنية على الورقة. ومع ذلك بقي الأمل. مزقت قصاصة من الورق لصياغة رسالة إلى محيي الدين، تركتها داخل الصندوق. غادرت المنزل مع الكتاب والورقة. كانت تعرف أيضًا ما يجب عليها فعله.

. . .

في اليوم التالي، تسابقت أيانا عبر الجزيرة إلى السياج الذي حدّد حدود مدرستها القديمة. انتظرت طوال اليوم تحت الشجرة حتى يظهر المعلم جمعة. في المساء، قام بإغلاق الفصل الدراسي الكبير. كان يعبر المجمع قبل أن يراها. نهضت. "أنتِ!"، صاح. قالت: "نعم. ماذا تريدين؟".

"يا معلم، أريد أن أتقدم للامتحانات".

فكّر المعلم جمعة لوهلة. "الامتحانات ستنقذك من الحماقة؟".

انهمرت الدموع على وجه أيانا.

"أجيبي. هل يمكن للامتحانات أن تنقذك؟".

لا رد.

"اليوم تبحثين عن المعلم جمعة؟ اليوم بات ذكيًا؟".

حرّكت أيانا جسدها، كل أملٍ مخبوء لديها تجسّد في كلمة واحدة: "أرجوك يا معلم".

سعل المعلم جمعة. ضايقه البؤس. كان جازمًا. "اسمعي، لا يمكنني أن أجهزك بنفسي، ولكنك ذكية. سوف أحضر لك بعض الأوراق. الدراسة ثمّ الدراسة".

بكت. تنازل أكثر.

"لديك – كم؟ خمسة أشهر؟ ستة أشهر؟ بسرعة، تسجلي في لامو. كم كادر؟".

فركت أيانا وجهها.

"عدد المواد؟".

سرد لها: "الإنجليزية والساحلية والرياضيات...".

أكملت أيانا: "علم الأحياء والكيمياء والجغرافيا والفن والتصميم وإدارة الأعمال".

"لا تدرسي الفن والتصميم؛ ادرسي الزراعة. ما تريدينه هو أن تحصلي على درجاتٍ جيدة. ثمان مواد، تكلفتها خمسة آلاف شلن. هل لديك هذا المبلغ؟".

صورة المال يسقط أرضًا. تفحصت الأرض، ولم تقل شيئًا. كان صوت المعلم جمعة أكثر نعومة. "وفري المبلغ يا فتاة. ثمّ عودي، بسرعة، بسرعة".

ذاك المساء، اقتربت أيانا من منيرة. "أحتاج إلى خمسة آلاف شلن".

لم تسألها منيرة لماذا. ذهبت إلى غرفتها وأحضرت المال.

بعد خمسة أشهر، على مدار أسبوعين، قدّمت أيانا امتحاناتها مع اثني عشر مرشحًا آخر، بمن فيهم أرملة تبلغ من العمر 65 عامًا، داخل مبنى متحف لامو. كان بإمكان أيانا أن تكتب وترسم أغشية الخلايا وتملأ تفاصيل العيون البشرية وتحسب الزوايا وتكتب المزيد من المؤلفات لفاحصيها.

في فبراير التالي، عندما تم الإعلان عن نتائج الامتحانات الوطنية، جلست أيانا في سريرها وهي تسمع الإعلان يتكرر في الأخبار الصباحية. بعد أربع ساعات، رنّ هاتف أيانا

المحمول، وهو الهاتف القديم لوالدتها. النتائج. لم تسأل منيرة أيانا عن نتائجها؛ لقد فقدت القوة لتحمل خيبة أمل أخرى.

. . .

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء، حملت أيانا الهاتف إلى الخليج القريب من حوض مهدي لبناء السفن. تحت ملجأ البحر والرياح والهواء الرطب، ضغطت على زر "الفتح". أظهر لها ضوء الهاتف عن نتائجها: اثنان أ+، وثلاثة أ-، واثنان ب+، وواحدة ب-. رفعت أيانا ذراعيها وصرخت بصوت عالٍ. ثم صارت تتدحرج وسقطت على الأرض، راحت بالنجوم وأخيرًا ضحكت. لم يرها أحد. لم يسمعها أحد. ونظرًا لأن مسؤول التعليم في المقاطعة، الذي يقع على مسافة بعيدة في فازا، كان في إجازة، لم يسأل أحد في كينيا مطلقًا عن الشخص الذي أتى في المرتبة الثالثة في المقاطعة. كانت "أيانا عبيرة ملنغوتي".

راقبت منيرة الليل بانتظار عودة ابنتها. استمرّت الغمامة السوداء من يوم الخميس ذاك تلاحقهما. سمعت همس التهديدات ووعود الانتقام. نباح السكارى، لكنها ذهبت إلى الشيخ للحصول على المشورة. وقد نصحها بالصلاة. قالت له إنّها قد تضطر إلى التقدم بطلب للحصول على المساعدة من الحكومة. نصحها الرجل الصبر وأخبرها أن عيون واقية أخرى راقبتها. ومع ذلك، انتظرت منيرة عودة ابنتها. ورأت شخصًا نحيل البنية يقطع الطريق. استغرقها الأمر عدة لحظات لتدرك أنها كانت طفلتها. لذا أغلقت فمها، مخبئة خوفها وأملها. تراجعت إلى غرفة نومها، حيث تجمعت وسط رائحة صامتة من الصلوات التي لم تستجب. استرقت النظر عبر بابها لمشاهدة ابنتها تقفز في المنزل. سمحت منيرة لنفسها أن تبتسم.

عند فجر اليوم التالي، جلست أيانا بين الأعشاب والزهور في حديقة والدتها. كانت تحفر حول الياسمين بالقرب من ظل شجرة الباباو. همست خبرها لشبح قطتها الصغيرة. فوق الحجارة من الملاجئ المدمرة، شاهدها الغربان الجائعون وكانوا يراقبونها. حدقوا بها. سمعت حمارًا ينهق. رنين جرس دراجة، واستدعاء المؤذن. اقترب رجل يحمل شبكة صيد من المنطقة. توقف مؤقتًا في مقابر المواطنين القدامى، كما فعل كل صباح ومساء. رأى ضوء الصباح يحيط بأيانا، التي بدت في تلك اللحظة كأنّها انتقلت إلى هناك من تشاوتشينغ.

Lipunguze omo tanga, kuna kusi la hatari.

أخفض الأشرعة؛ الرياح الجنوبية الشرقية العاتية تهبّ.

[29]

حطّت الرياح الجنوبية الباردة على الشاطئ قبل أن تكشف عن قدوم 11 زائرًا جديدًا، زوّار ابتسموا وانحنوا أثناء هبوطهم إلى جزيرة بيت. كانوا قد سافروا عبر الساحل الجنوبي الغربي، إلى مدينة بيت، حيث مدوا أيديهم بحماسة لإنشاء صداقة جديدة. كان مزاي كيتوانا الرشيق الذي لفحته الشمس متوترًا وخائفًا من أن تفسّر تصرفاته تجاه الجزيرة التي كان قدره مرتبطًا بها على أنّها غير محترمة. كان مزاي كيتوانا يتحضّر لتقديم الزوّار إلى عضو البرلمان المحلي ومسؤول المقاطعة ومفتش الشرطة طويل القامة والهزيل والمكتئب دائمًا، بالإضافة إلى مجموعة من الأئمة والشيوخ اختارهم من فازا وسيو وبلدة بيت. شعر بشيءٍ من الفخر لأنّه تمكّن من لعب دور المضيف والقيام بطقوس الضياف لبلدة بيت، كشخصٍ ينتمي إلى هناك. حتّى أنّه قدّم نفسه لهؤلاء الضيوف باسم مزاي كيتوانا الرشيق، ما أثار دهشتهم. أجاب على استفساراتهم باللهجة المحلية السواحلية التي اكتسبها من دراسته للكتب الكلاسيكية في بيت.

عبر الزائرون العتبات وسرت القوة الكاملة لرموز الضيافة في الجزيرة. تقاسموا وجبات العائلات، وناموا في منازلهم. استمعوا إليهم وضحكوا في الأوقات المناسبة. كانوا قد أحضروا معهم الكثير من الهدايا الملفوفة بالأحمر. تحدثوا كثيرًا عن رغبتهم في مواءمة الماضي؛ تحدثوا عن شعورهم بالامتنان وكيف أنّ ذلك بمثابة دينٍ لهم. لم يكن واضحًا على من شكّل هذا الدين عبئًا، الضيف أو المضيف. وقفوا بجانب المقابر، حيث ألقوا بعض الدموع المهذبة. استمعوا بإنصات إلى تفسيرات مزاي كيتوانا بلغة الماندرين الصينية. تحدثوا في كثير من الأحيان عن حاجي محمود شمس الدين، الشخص الذي أطلقوا عليه أيضًا اسم تشنغ خه.

تحدث أحد موظفي الخدمة المدنية المتقاعدين من "بيت" كما لو أن الأميرال لا يزال على قيد الحياة وأن الأحداث التي تداولوها كانت ذات ذاكرة حديثة: "ألم يكن رجلًا عسكريًا دوره إنشاء إمبراطورية؟ ألم يكن في مياهنا لغرض استخراج الجزية؟ ألم يهدد شعبنا؟ ألم يكن شعبنا مجبرًا على تسليم ما طالب به، أو المجازفة بحرب؟ هل هذا هو الشخص الذي تشير إليه؟".

مرّت بعدها ذبابة وسط الصمت. أجابه أحد الزوار الذي احمر خجلا لأنه اضطر إلى الخروج عن النص الرسمي: "كان ذلك في عصرٍ مختلف، كانت الأمور تتمّ بطريقة مختلفة". ثمّ استأنف رفاقه حديثهم ليتحدثوا عن موانئ مثل تايكانغ، عن الملاحة ورسامي الخرائط، عن البحارة الأجداد والتيارات والرياح والتجارات والذكريات.

في وقتٍ لاحق، طلبوا السماح لهم برؤية الأواني الموروثة والمقالي والأطباق والأكواب في بعض منازل الجزيرة. في المساء، جلسوا مع الرجال لسماع تلاوات متعاقبة من ملحمات الأنساب، والاستماع إلى صوت الأسماء المألوفة. بعد ذلك بأيام، خرج أربعة من الرجال للصيد مع الصيادين في الصباح، كان مضيفوهم من رتبوا الرحلة. وقد روعوهم حين طلبوا منهم خلع ملابسهم. على متن القارب، شاهدوا أساليب الصيد، وساعدوا في نقل الشباك، وتعرفوا على طريقة تحضير الأسماك وطهيها، ووزعوا المزيد من الهدايا الصغيرة الملفوفة بالأحمر. وإن شكلت أيّ من هذه الهدايا خيبة أمل، فلم يقل المضيفون ذلك. انضم اثنان من الزوار إلى رجال الجزيرة للصلاة في المسجد. حتى هناك، حين كانت لديهم الفرصة للتحدث عن أنفسهم، تحدثوا فقط عن حاجي محمود شمس الدين. صوّر الضيوف كل شيء. بعد ذلك، في أحد الأيام، بعدما اعتدت بيت عليهم، أعلن الضيوف عن مغادرتهم.

بعد ثلاثة أشهر، عاد ستة من هؤلاء الزوار إلى بيت قبل موسم الماتلاي والطيور واليعسوب. كانوا بصحبة موظفي من المتحف الوطني الكيني، بينهم امرأة راقية كانت تشرب المياه المعبأة في زجاجات طوال الوقت وثلاثة رجال -تحدث أحدهم في فقرات كاملة. خبراء التراث. جاؤوا لشرح "الحمض النووي" لسكان الجزر، ولماذا أتوا لجمعه.

الماضي. بعد عاصفة عملاقة في المحيط، قبل 600 عام، انقلبت حشود الأميرال وغرق على الأقل ستة آلاف من رجاله، طاف بعض الناجين على غابات المانغروف وشواطئها الرملية الداكنة، عبروا الحدود. بعد سنوات، ظهر عدد قليل من السفن التي تعمل للعودة إلى الصين. ومع ذلك، بقي معظمهم، بعد أن أعلنوا الشهادة وأخذوا الحمام المطهر. عاودوا الظهور في ثياب بيضاء تحت أسماء جديدة، مع زوجات جديدات ووعدوا بالولاء لجزيرة بيت فقط. يقال إنهم استسلموا للماضي بتسمية منطقتهم المعيشية "شنغهاي"، مكان ذاكرتهم وأشباحهم. اختصر كل من الوقت والتراجع وجزيرة بيت الاسم إلى "شانغا". قلادة أو قيد، يمكن للذاكرة المهجورة أن تتحوّل إلى زينة أو سجن.

[30]

في جزيرة بيت، جلبت موجات الرياح وناقلات الأخبار كلامًا غريبًا عن الأراضي العربية: رائحة الثورة. تجمع الناس حول أجهزة التلفزيون وأجهزة الراديو التي تعمل بالبطارية، وتناقلوا القصص، ليس لكي يستلهموا من الثورات على ما قدر ما أرادوا فهمها. في مكان آخر، أكدت نتائج اختبار الحمض النووي بعض "خطوط" العلاقة الحميمة التي تربط بيت بالصين. قال الزائرون إنهم يبحثون عن شخص ما يجتاز المسافة بين الماضي والحاضر، بحيث يمكن مشاركة المستقبل. سعوا لإيجاد من يمكنه أن يعيد روح أولئك الذين "دخلوا الغرفة المظلمة" بعيدًا عن الوطن، هؤلاء الذين انتظروا ستمائة عامًا لهذا اليوم. في المسجد، تحدث أحد الرجال. قال إنهم يسعون لإيجاد من يتحدّر من هذه السلالة.

اجتمعت اللجنة الرباعية في منزل منيرة وأيانا. حملوا الهدايا -مجموعة من البورسلين، وهاتفين محمولين، ونسيج حريري، ومغلف أحمر كبير مغلق، وصندوق خشبي طويل مستطيل يحتوي على ستة وعشرين مزيجًا عشبيًا وخلاصة خشب الصندل في أنابيب زجاجية رفيعة، وكانت هذه الهدية الأخيرة ما أنبأت منيرة أنّ هؤلاء الغرباء يبحثون عن شيء في حياتها ليعرفوا علاقتها مع خشب الصندل. لكنّها بقيت صامتة. كانا رجلين وامرأة من الصين، ورجلًا من نيروبي -شخصًا بوزارة الخارجية لم يسبق له أن غامر بالمضي قدمًا أقرب من متيتو أندي، على بعد أكثر من خمسمائة كيلومترًا، وحين وجد نفسه في جزيرة بيت، تفاجأ أنّها كانت أيضًا جزءًا من كينيا. تم تبادلوا المجاملات المفصلة.

"تشرفنا بك...".

"إنّه شرف لنا".

كان هناك اهتمام كبير بالأم منيرة. كانت حذرة. ماذا أرادوا؟ لكنّها حثتهم على الجلوس وانسحبت لتحضّر لهم الشاي بماء الورد. أرادت أن تستمتع لما لديهم أن يقولوه. مرة أخرى، في وقتٍ لاحق من اللقاء، كرّر الرباعي كما لو أنّه جوقة يقودها بيروقراطي يرتدي نظارة، وجهًا لوجه، كما لو أنّهم تدربوا على الأمر: "تشرفنا بك".

"إنّه شرف لنا".

"نحن...".

"لدينا معروف نريد أن نسأله منك".

"معروف".

"لفتة"

"نعم، لفتة".

"... زهرة عبقة من كينيا...".

"مبعوثة إلى الصين...".

"جسر".

"صديقتنا...".

"نتمنى حضورها...".

"إنّها من سليلتنا...".

"نعم...".

"من سليلتنا...".

سفيرة...".

"من شعب كينيا الطيّب...".

"إلى شعب الصين ذي النوايا الحسنة...".

"نعم...".

"حاملة كنز الماضي المهمل".

"نعم".

"ستجد صداقتنا...".

"نعم...".

"واللطف...".

"اللطف".

"هناك بحر خالد يجمع شعبينا"، ختم الرجل حديثه قائلًا. "بسبب المياه، مصيرنا واحد. خيط القدر يربط أقدامنا".

"نعم"، قال الرجل النيروبي.

"خيط القدر؟".

عبست منيرة.

تكلّمت المرأة ببطء: "الصين تسري في دمكِ".

ثمّ نظرت إلى منيرة كأنّها قريبتها. لوّحت منيرة بيدها، متسائلة ما معنى هذا. ماذا أراد هؤلاء الأشخاص منها؟

"شكرًا لك. كما ترين، على هذه الجزيرة يسري دمّ جميع العالم. إنّها بيت".

انحنى الرجل من بكين إلى الأمام. "ومع ذلك، فقد اختار القدر هذه اللحظة ليدعونا... نحن وأنت أيضًا... لنقوم بواجبنا تجاه التاريخ".

رمش نظيره النيروبي بعينيه، لم يختلف وجهه وتعابيره عن وجه الخراف السعيدة.

"القدر"، كرّر الرجل من بكين.

"القدر"، ردد الرجل نيروبي. نظرت منيرة إلى الرجل الكيني.

تحدثت بسرعة ب: "من هم هؤلاء الناس؟ ماذا يريدون؟".

أجاب الرجل بلطف: "خذي ما يعرضونه عليكِ. إنّه مجانيّ".

"لا شيء مجاني"، قالت منيرة.

قال المسؤول الكيني: "استمعي لهم فقط".

"ابنتك"، قال الرجل من بكين.

"نعم؟"، أجابت منيرة وهي مستعدة لمهاجمته.

"الصين. للسفر. للدراسة. لمشاركة الذاكرة".

ابنتها؟ مرة أخرى؟ وعندما كادت أن تهاجمهم، رأت بوضوح كيف يمكنها أن تهرب من تلوّث المشرقي.

تنفّست، كان وجهها مشتعلًا. أمل غير معقول.

سألت: "أيانا؟".

"أيانا"، أجاب الرباعي بنبرة واحدة.

ثمّ ضحكت.

"يبدو أن مصيركم يجب أن يأخذ مني كل أحبائي".

بدأت منيرة بالبكاء. انتظرها الرباعي.

هربت أيانا إلى ورشة فندي مهدي في اللحظة التي سمعت بها الهمسات في بيت. من مخبأ المانغروف، شاهدت الرباعي ينزل عند رصيف الميناء. رأتهم يتجولون ضائعين، يبحثون عن وسيلة للوصول إلى منزل والدتها. "منيرة-أيانا-منيرة-أيانا". انتشر الهمس في جميع أنحاء المدينة. هربت أيانا. في حوض بناء السفن، نظرت إلى نفسها. الخوف واندفاع في المشاعر. مثلها مثل أقرانها، نظرت باتجاه البحر من أجل حياة أكبر وأكثر صدقًا وأكمل -مدى الحياة. هل يمكن أن يكون هذا هروبها من رائحة يوم الخميس الذي ترك علامة حرق على فخذها الداخلي، هربًا من انتظار زرياب ومحيي الدين وأب لم يسبق لها أن تعرفت عليه، هروبًا من نفسها؟

عندما اكتشفت ماما سليمان أن أيانا هي التي اختيرت للسفر إلى الصين على أنها "المتحدة من سليلتهم"، ارتعش جسدها، وحكت جلدها، وغمر وجهها الغضب. بكت حتى تحولت عيناها إلى اللون الأحمر. لو كان ابنها سليمان هنا، لكان قد استفاد من هذا الشرف. لقد كان هو "المنحدر". في غضون لحظات، سارعت لتشتكي إلى حذيفة. "لا أستطيع تحمّل المزيد! أرفض حتى إلقاء نظرة على عبارة "صنع في الصين" مكتوبة على أي شيء. لا أريدك أن تخزّن أو تريني أيّ شيء منخفض الجودة ورخيص الثمن. هل تفهم؟".

انتشرت أخبار اختيار أيانا. عادت ماما سليمان إلى حذيفة.

"ليس الأمر كما لو أنّها أفضل منّا".

هزّت إصبعها في وجه حذيفة بمختلف الاتجاهات. "أمّها ساحرة. حتّى أنا، لديّ دمّ صيني – هل ترى عينيّ؟ هل ترى؟".

سحبت جفنيه إلى الأعلى. انحنى حذيفة إلى الأمام لينظر. لم يعد الربيع العربي محور الاهتمام بعد أن عمّت أخبار اختيار أيانا.

"الطعام!"، صاحت ماما سليمان مرة أخرى في وجه حذيفة في إحدى رحلاتها اللاحقة للتسوّق. "كنت لأذهب بنفسي لولا طعامهم السيّء. هل كنت تعرف أنّهم يصنعون الأرز من البلاستيك؟".

"أخبريني عن ذلك"، قال حذيفة مؤكدًا حديثها.

"والخضروات من الورق الملون والبلاستيك. أمر مثير للاشمئزاز!". ابتسمت أمينة محمود. أصبحت مطاحن شائعات الجزيرة الآن ممتلئة بآراء ماما سليمان.

سيكون على أيانا أن تأكل الكلاب والقطط والحمير؛ والخنزير ولحم الخنزير. كرات الخنزير وقدماه. أسماك القرش. ضرع البقر والماعز؛ رؤوس الأرانب. الأشياء التي تتحرك والأشياء التي لا ينبغي أن تتحرك: الحجارة والعقارب والجرذان والثعالب والثعابين والعناكب، والصراصير. "الضفادع! الصراصير العملاقة المحمصة"، وسّعت ماما سليمان قائمة أمنياتها لأيانا. وأكدت أن أيانا ستصبح من بين الأشخاص الذين يعبدون قرون وحيد القرن وأنياب الفيل وحصن الفهد ويستشيرون المنجمين، ويبنون الأضرحة لسياراتهم. وقد يبيعون أيانا مقابل أجزاء جسمها.

"ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع"، اختتمت ماما سليمان، وشعرت بتحسن كبير. وتذكرت شيئًا آخر: "تلك الفتاة ستأكل أيضًا القطط وتمضغ عظام النمر". ثم طلبت مزيجًا طازجًا من عصير الأفوكادو والليمون والزنجبيل من بائع الفاكهة المجاور. تلألأت عينا حذيفة. يا له من منعطف لذيذ. بقدر ما كان يستمتع بانتصار المستضعف، فقد كان يفضل النهايات الدموية الملتوية. يا له من مشهد! ضحك. علاوة على ذلك، عندما كانت ماما سليمان حزينة، اشترت الكثير والكثير من الأقمشة. كان عليه أن يضيف إلى مخزونه.

[31]

ذاك المساء، وقفت منيرة بالقرب من أيانا، أرادت أن تقرص خدها. الطفلة المسكينة، شديدة النحول. ماذا كانت ترتدي؟ فستان منيرة البنيّ الباهت اللون. قالت منيرة: "هذا حظك. في الصين، يمكنك أن تكوني ما تريدين".

كانت نبرة منيرة حزينة. لمست يد أيانا -كفاها الخشنان وأظافرها غير المتساوية. "لنذهب إلى مومباسا"، قالت منيرة فجأة. "لنشتر لك فستانًا جديدًا". تراجع رأس أيانا. عندها فقط، تذكرت منيرة الدخان التي تصاعد من فستان أيانا الجديد الأخير الذي ملكته، ثمّ تراجعت.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، كان قلب أيانا يخفق بقوى كل ما حدث لعائلتها،

غرابة القدر وانعطافاته؛ نهضت من سريرها وأضاءت مصباحًا لتدخل إلى غرفة أيانا. كانت هناك، فتاتها الصغيرة. حدّقت منيرة بأيانا، التي ألقى ضوء المصباح انعكاسًا برتقاليًا خفيفًا على وجهها. تدفّق حنان الأم لأجل الشابة الصغيرة النائمة التي تدلّت قدمها اليمنى عند حافة السرير. جمعت منيرة ملاءة السرير لتغطي أيانا. انحنت وتنشّقت رائحة الليمون والياسمين، مرارة الباتشولي، والبلانج الحالم، وإغراء نباتات الدفلى التي كانت رائحتها أشبه بالتوقعات. قبلت جبين ابنتها، شفتاها على جلدها.

يا لها من طفلة مسكينة.

تذكرت منيرة امرأة أخرى كانت قد أقصتها من تفكيرها. صورٌ ضبابية من الماضي: مخلوقة لا تهدأ، لعوبة، محاطة باهتمام الأكبر سنًا وواثقة من انتمائها من كونها محبوبة، خاضت العالم مذهبة بنفوذ والدها وماله وتساهله. كما لو أنّها كانت خالدة. كانت الشابة قد رفضت ذات يوم هذه الجزيرة التي أحاطتها أشجار المانغروف للمخاطرة بكل شيء من أجل تذوّق المزيد. شربت الحياة ومآدبها، وضخت الإيمان بالوعود المتلألئة في العالم، والرجل الأكثر وسامة الذي التقت به مع صديقاتها اللواتي تغيّبن عن المدرسة في كل فرصة.

كنّ جميعهن في الكلية يدرسن الكمبيوتر، وكنّ يتهرّبن من شبكة حرّاسهن المنشغلين. كانت الأجمل والأكثر أناقة بينهنّ. كانت الفاحشة والمرصّعة بالجواهر والأكثر شجاعةً وجرأةً والأذكى. في تحدٍّ من قبل صديقاتها، صعدت لتحية الرجل الطويل القاتم والأنيق ذي الشعر الأسود، بخط الفك العلوي المربع، وجبهته الواسعة، وعظامه المرتفعة، كان يرتدي بدلة من الكتان البيج. مائلة الرأس، همست له: "سلام يا سيدي ما هو الوقت؟". التفتت ونظر بعينيه إلى الزوايا ووجدها.

"لقد رأيتك"، أجابها بلطف. كان عليها أن تميل نحوه لسماع كلماته.

"أرجوكِ، اقبلي دعوتي لفنجان شاي. أنا وحيد وتوّاق للجمال".

تبعته وجلست قربه، مندهشة بهذا الكائن الرائع وصوته الحنون وعينيه الحزينتين. شعرت بالإطراء ولكن لم تستغرب أنّها لفتت نظره. حدّثها. أخبرها أنّه انتقل إلى مومباسا منذ عامين وأنّه يعمل في قطاع التعدين، مرتبطًا بشركة في الساحل الجنوبي. "الوقت"، قال لها.

"ماذا؟".

"لقد سألتِ عن الوقت؟".

"لقد فعلت".

انتقل إلى جوارها حتى يتمكنا من قراءة ساعته معًا. "أربعة وثلاثون دقيقة مساءً"، همس في أذنها.

تمامًا كما شاهدت الإناث في الأفلام التي أحببتها، وعلى الرغم من أنها شعرت أنها ذائبة، نظرت إلى عينيه؛ ممثلة، سألت، "حقًا؟".

التقيا كل يوم بعد ذلك. وبارك كل أفكارها وجمالها، الذي عرفته، ولكن ليس بالطريقة التي وصفها بها، كيف أنّه يلوّن أحلامه، وكيف لم يكن يفكر دون أن يستدعيها كملاك لحظاته. سألها أن تمشي وتدور من أجله. كانت غزالًا. هل فكرت يوما في عرض الأزياء؟ والدها لن يوافق أبدًا، كما أوضحت. هز رأسه. "يجب أن نكرم الآباء. يجب أن نطيع حبهم". ثم تذكر أنه بحاجة للذهاب والصلاة.

أخبرها لاحقًا عن باريس ولندن وداكار ونيويورك وكوالالمبور وأنقرة وبيروت. في اليوم التالي، أظهر لها الملصق على بدلته، هوغو بوس. وفي اليوم التالي، اشترى لها وشاحًا حريريًا وعطر "أوبيم". مشاعره. كانت تظهر الوشاح لأصدقائها. قال إنه يحتاج إلى معرفتها بشكل أفضل. قال إنه لا يستطيع النوم لأنها تمتلك أفكاره. كان قد احمر خجلا كما لو كان محرجًا بكلماته. اعتذر متلعثما. ذابت في توهجه. في يوم آخر، أشعل سيجارة وشاركها معها. عندما جاءت فرقة نادي إخوان صفاء الموسيقية من زنجبار، اصطحبها إلى عرض خاص في منزل صديق ثري. "كوني حذرة"، حذرتها إحدى صديقاتها. فكرت أنّها تشعر بالغيرة. بدأت بتجنب صديقاتها في الكلية، فرغ صبرها من كونهن تقليديات ومن رضاهن عن الأشياء الصغيرة. شعرت بالغضب بسبب افتقارهن إلى الفضول، وعدم رغبتهن بسماع حديثها المضجر عن فضائل الرجل الذي تعرّفت به.

عرّفها الرجل على شركائه في العمل: رجال صاخبون يرتدون البزات الرسمية وينادونه "الرئيس" ويستسلمون لآرائه، التي بدت كما لو أنّها تتركهم معقودي اللسان. حسده شركاؤه على صحبته. "يا لها من فتاةٍ جميلة، أين وجدتها؟". راقه أنّ الرجال الآخرون حسدوه. أرادها أن تفكر بتعليمها على نطاق أوسع. وقال إنه على استعداد للذهاب إلى والدها وإقناعه بالسماح لها بالدراسة في سنغافورة. قال أيضًا إن لديه شيئًا أكثر أهمية ليحدّث والدها بشأنه. شعرت بالخجل. لا بدّ أنّه يعني الزواج. أرادت مزيدًا من الوقت لتجربة العالم، لكن كان

هذا قدرها. سيكون أطفالهم جميلين. قال إنه سيحميها دائمًا، وقال إن الحياة في سنغافورة أو ماليزيا كانت مختلفة تمامًا عن أي شيء تخيلته -أكثر ثراءً وأفضل وأسرع.

في إحدى الليالي، بعد عودتهما متأخرين من فيلم تلته حفلة، اقترح عليها أن تنام بشقته بدلًا من أن تقود سيارتها عبر المدينة إلى غرفتها الصغيرة. وافقت. كان الأمر بسيطًا جدًا. كان لديه سرير واحد فقط -سريره الخاص. هذا هو المكان حيث نامت. لم يكن الأمر كما لو كان لديها خيار، حدّثت قلبها. راحة عفيفة. بعد ذلك، أصبح النوم أسهل بين ذراعيه، ذراعيه الآمنة. كان يتحدث دائمًا عن الصلاة ويهدهدها لتنام. لم يكن اغتصابًا. لم يكن بإمكانها القول إنه دفع جسده داخلها وجعلها تنزف دون موافقتها. لكن لا يمكنه أن يدعي موافقتها عندما استيقظت مختنقة، لتجد أنه علق ذراعيها فوق رأسها، وجر ثوب نومها حتى عنقها، حتى لا تقاوم أو تصرخ أو تخدش، أو تركله أو تلكمه أو تترك على جسده علامة بأظافرها المشذبة المطلية. بعد أن انتهى، مع نخر ممتزج بالكلمات والدعاء، تخلص من جسدها وطرح سؤالًا منطقيًا على تنهداتها الصامتة: "إذا كنت لا تريدين هذا، إذن ماذا كنت تفعلين في سريري؟".

ليس هكذا، فكرت وهي تنظف جسدها وتجمع ملابسها. عيناها جافتان.

"ابقي هنا"، قال لها. "نحن متزوجان بالفعل الآن. تعالي، المرة الثانية أفضل".

بعد ستة أسابيع، عندما أخبرته أنها حامل، حمل وجهها بين يديه وقال: "إن شاء الله".

رهنًا بنزقه وتفكيره ونيته، كانت حياتها تعتمد تمامًا على اختياره. كان يعرف ذلك. صلّت أن تكون نيته صافية. استغل يأسها لتحويلها إلى خادمته: افعلي هذا، افعلي ذلك، اذهبي إلى هنا، هناك، في كل مكان. لذلك بدأت تحلم بالسير عبر أبواب النساء اللواتي أخرجن من الوجود غير المرغوب فيه. الكلمة التي همسوها خلف هؤلاء النساء في المدرسة: "الطرد". مطرودة. مختفية. كانت لتشق طريق العودة إلى المدرسة، متطهرة وغارقة في النسيان. وربما كان ذلك الشيء الغيب، داخل جسدها، يتخبط في أفكارها. ربما شعرت حقا بيد صغيرة دافئة حول وجهها. ربما تخيّلت ذلك، تمامًا كما تخيّلت كل شيءٍ آخر. انتظرت خطوة الرجل التالية.

بعد شهرين، قال لها: "سنصلح كلّ شيء، سأنتهي مع مستخدمي في غضون ثلاثة أسابيع أو أربعة على حدٍّ أقصى. سآخذ النقود وسوف نرى عائلتي. سنتزوّج، في جزيرة بيت؟".

"لا"، أجابته، وهي تشعر بالراحة الشديدة حدّ أنّ صوتها كان يرتعش. "هنا في مومباسا".

"حسنًا".

ثمّ بعدها ركعت على ركبتيها: "لا تتركني هنا أرجوك".

نظر إليها وهو يضع يديه في جيبيه: "تبدين حمقاء هكذا. لماذا لا تثقين بي؟".

"أنا خائفة".

بكت.

قال لها: "حين تنتحبين هكذا، أنت مضجرة. عاهرة سوداء مضجرة".

سمعته. محت صوتها. نهضت من على ركبتيها وسكتت.

غادر.

بعد ثلاثة أشهر، كان لا يزال غائبًا. جاء صاحب المنزل ليأخذ الإيجار.

قالت له: "لقد تأخّر. سوف نتزوّج قريبًا".

"ستة أشهر وأنا أنتظر. ستة أشهر وأنا صبور. ستة أشهر لا إيجار". هذه الأشياء التي لم تكن تعرفها. ستة أشهر بدون إيجار. انهارت منيرة على الأرض وهي تتقهقر، عاجزة عن النهوض كما لو أنّها مشلولة.

لاحقًا، دخلت إلى غرفتهما ومدّت يدها إلى حقيبتها لتسحب كل المال الذي كان لديها. كانت حقيبة يدها ملقاة على طاولة سوداء لامعة عليها تلفزيون كبير لامع. استغرقها الأمر ساعة. عادت إلى المالك الذي كان ينتظر حاملةً قصاصة من الورق ضمّ لائحة بأغراض المنزل وعليها توقيع مزور، وتوقيعها هي كشاهدة: الأريكة الجلدية وغسالة الملابس وتلفزيون 32 بوصة ووحدة الترفيه وغسالة الصحون والأواني الفولاذية المقاومة للصدأ والمقالي، ومجموعات غرفة النوم، وبدلتان رسميتان يمكن بيعها لتسديد الإيجار المستحق. بعد ظهر ذلك اليوم، أخذت العبارة إلى الساحل الجنوبي وسافرت إلى مناطق التعدين الجديدة للبحث عن الرجل. "آه هو"، قال الناس من الشركة. "هل تقصدين مستشار الجيولوجيا الذي كان معنا قبل عام؟ هرب من الخدمة، على الرغم من أننا دفعنا له راتبه بالكامل. يا للأسف! جاء بتوصية جيّدة. أين هو الآن؟".

يا للأشياء التي لم تعرفها. أصابها اليأس. في الطريق وفي العبارة وفي الطريق مجددًا، أرادت ألا تتوقف رحلتها أبدًا؛ لم تكن ترغب بأن تصل إلى وجهة ما وتضطر لاتخاذ قرار،

لكنّها فعلت. في الشقة، اتّصلت بوالدها، والدها العزيز. قالت إنّها بحاجة إلى المزيد من المال لتنهي صفًا جديدًا في تدبير الموارد المالية. مازحها وقال إنّه سيرسل قريبًا لإعادتها -هل كانت تخطط للاستيلاء على ثروته؟

لا! تظاهرت بالضحك.

قالت إنّها تريد أن تتعلّم كيف يعمل المال.

"أنت فخري"، قال لها والدها، "ابتسامتي".

"اشتقت إليك"، قالت له.

دموع صامتة.

"عودي إلى المنزل بسرعة"، ألح والدها.

أرسل لها المال على الفور، وأكثر ممّا طلبت، وتركت هي الجامعة. ملأت حقيبة بأشياء من الشقة -لم تكن حقيبة كبيرة، فقط أشياء كانت ستحتاجها في مكان سكنها الجديد المؤلف من غرفة واحدة مع دش / مرحاض في غانجوني. كانت صاحبة الأرض الجديدة امرأة راقية تدير حانة / بيت دعارة / مركز تجميل في مجمعها الفسيح، وأرادت إيجارها في الوقت المحدد، ومستأجرين يهتمون بشأنهم فقط. عادت منيرة للحصول على المزيد من الأشياء من الشقة -الملاءات والمناشف والعطور -ثم اختفت من نفسها وأصدقائها وعائلتها.

نما الطفل في أحشائها، وعندما لم تكن منيرة تتقيأ، كانت تغمرها الرغبة الشديدة في تناول العصير الطازج والخضروات والأسماك المقلية. كانت عواطفها متأرجحة، وكانت تكافح لمعرفة ما يجب القيام به. لقد أنفقت بعض المال على البرقع، الذي أمكنها من خلاله أن تحدق في العالم. خرجت في أمسيات متأخرة، وهي تعبر الليالي، على أمل أن تتعرض للهجوم من قبل المتصيدين الليليين الذين سيوفرون لها ذريعة من شأنها أن ترفع عنها عبء المسؤولية. ليس خطئي. لم يحدث لها شيء. لم يقترب منها أحد. ذهبت في بعض الأحيان إلى الشقة لمعرفة ما إذا كان أي ضوء قد عاد. لم يحدث ذلك أبدًا. جلست في معظم اليوم على مرتبتها، معقودة في الداخل، تحتسي الشاي المتبل، تستمع إلى الثرثرة الإذاعية، موسيقى الطرب، أفكارها معلقة، بكت لأنها كانت بحاجة إلى والدتها. لكن والدتها كانت لتخبر والدها، وعندها يموت قلب والدها، وهذا ما لم يكن بإمكانها أن تتعايش معه.

تناهت إلى مسمعها موسيقى الطرب من الحانة القريبة من غرفتها. غنّت امرأة بصوتٍ

من الحنين المجروح:

"يا زهرة الجنة أخرجتك الوردية القاحلة من مسكنك...".

أنهى اللحن تقدّم منيرة. استمعت حتى انتهت الأغنية. حين انتهت الأغنية، شعرت بنوعٍ من التحرر.

كوابيس.

في صباح أحد الأيام الباردة، استيقظت غارقة في العرق والخوف. ظل الرعب معها طوال اليوم، حتى أنها من يأسها، في المساء، اشترت مبيدات الأعشاب وسم الفئران. كانت ستفرغ هذا الشيء بداخلها. بدلًا من ذلك، ماتت تقريبًا، وانجرفت إلى شيء آخر، وعلقت على حافة الحبل الذي كانت متشابكة فيه. ورأت هناك صورًا لعائلتها ووالدها، وكيف أن وفاتها ستأكله. تقيأت كل شيء. بعد أسبوعين، تعبت من الخوف من كل شيء، شربت علبة من أقراص مكافحة الملاريا. عجل هذا بآلام المخاض. أخيرًا، فكرت. كانت مستعدة للرعب.

ماء، أحواض، مقصات، مناشف، ضمادات، أكياس قمامة بلاستيكية. تحركت مع الأمواج، دفعت الشيء من جسدها، كانت تعضّ على شفتيها ولا تصدر صوتًا. الفوضى -الدم والعرق والقرف والفوضى. ثمانية وعشرون ساعة. في الساعة 2:00 صباحًا، بينما كان الطلاب في أمة بعيدة يكشفون عن تمثال آلهة الديمقراطية في ميدان تيانانمن، ظهر شيء متشابه يشبه ترابًا من الطين البيج الفاتح خارج جسم منيرة.

لم يكن الجنين يتحرّك. مدّت منيرة يدها لتلتقط مقصًا لقطع الحبل السري الذي لا يزال يربطهما ببعضهما البعض. للقيام بذلك، كان عليها أن تلمس المخلوق الدموي الذي لا يزال دافئًا، وعندما شعرت به، ترفرف داخلها شيء ضعيف، وتحولت الرفرفة إلى ضوء متفجر طعن داخل روحها، وأصبحت كبيرة مثل الكون، وبوعي تام راحت تتنفس الطفل، وتمتص المخاط، وتزحف وتنزلق حتى تتمكن طفلتها من التنفس بمفردها، حتى تسعل طفلتها وتفتح عينيها الكبيرتين، ثم ترفع يدها نحوها. كانت منيرة تبكي. "آه انت! هل هذه أنت؟ أيانا". صاحت "آه أيانا" وهي تضمّ الطفلة إلى جسدها.

بعد ذلك بدقائق، عندما رضعت الطفلة، حدقت منيرة للطفلة بنظرات ثابتة، وكانت أفكارها تسقط مثل الطوب الصغير. لا يهم، إذن، ماذا سيفكر بها أي شخص. أي شيء

يمكن أن يحدث لها الآن. هي لم تهتم. هي أحّبت. هذا كل ما في الأمر.

كان بإمكانها أن تتحمّل كلّ شيء -أن تذهب إلى أيّ مكان، أن تقوم بكل ما ينبغي عليها فعله -أن تعيش من أجل أيانا. من أجل أيانا، خاطرت منيرة بأن تحتقرها مالكة المنزل. ذهبت إليها ترجوها أن تعلّمها أن تصفّف الشعر وتعتني بالبشرة والأظافر والتدليك. بدأت منيرة بكنس القطع البشرية المقطوعة والمقطعة من الأرض -الشعر والأظافر والجلد. تعلمت اللمس، اكتسبت لغتها. غسلت الشعر. سمحت لها بالقيام بالأظافر، ثم الحناء، ثم كل شيء آخر. عملت مقابل عمولة. تعلمت كيف تتجنب انتباه الرجال الذين جاؤوا لقص شعرهم، ولصدمتها، تنظيف أظافرهم. تعلموا أن يسألوا عنها. وتعلمت هي أن تقدم لمسة ناعمة، ونظرة جانبية، ضحكة صغيرة حافظت على غرورها الهش وأخفت نفورها. استخدمت منيرة الأموال التي كسبتها لشراء حليب لطفلتها وتأمين بعض خدمات ما بعد الولادة. كان فستانها رثًا. وحرمها انشغالها من الحلم في بحر بيت ومنزلها. عملت منيرة لمدة خمسة أشهر أخرى، إلى أن دفعها الضغط الذي لا يطاق في جمجمتها، وعدم القدرة على الانتظار بعد الآن، إلى أخذ ابنتها والخروج من غرفتها الفردية. تركت الباب مفتوحًا على مصراعيه. مشيت طوال الطريق إلى الميناء القديم، حيث وجدت صيادًا على استعداد للإبحار إلى جزيرة بيت إذا كانت ستساعد في الطهي على متن الطائرة. لأيانا، فإنها ستفعل أي شيء. وقد فعلت.

وها هي الآن أيانا. كان قد أصبح سنّها تقريبًا 21 عامًا، مستغرقة في النوم. راقبتها منيرة. انقلبت شكوكها إلى تأكيدات. الأشياء الذي كان على الأم القيام بها. لم يتحدث أحد أبدًا عن مرارة هذا الألم الذي يتجاوز الشعور، والعوالم التي تتجاوز الحدود، والاضطرار إلى الابتعاد عن أكثر الأشياء المحبوبة. لم تتحدث النساء مطلقًا عن مثل هذه الأشياء، وعن الأسرار المحفورة في الغياب المقفر. كانت الولادة رحلة لا تنتهي، وأحيانًا تعمق طابعها المريع مع مرور الوقت. الاختيارات التي كان على الأم القيام بها. غادرت منيرة الغرفة. غادرت للبحث عن البحر. المهزوم لا يغني. أغنية واحدة. تحية. تنفست منيرة تتنفس من زاوية. غنت للبنات. هي أيضًا كانت ابنة شخص ما. غنت لأبيها، والدتها الميتة منذ زمن طويل. غنت أكثر لزرياب ومحيي الدين. ثم غنت لأيانا.

"يا زهرة الجنة، التي هي الناصعة...".

توقفت منيرة. تضارب الأمواج. هسهسة النجوم. أصوات الليل صامتة. ألن تسمح هذه الحياة بأي شيء؟ غطت منيرة رأسها وصعدت إلى الظلال وهي تتسكع على طول الخط الساحلي.

لم ترَ منيرة محيي الدين، الذي كان ينتظر الليل بالقرب من خليج مهدي. لم تسمع أنفاسه المختنقة. كان قد سمعت همسات، في مساء عودة هادئة على متن قارب صياد، أن أيانا ستغادر المنزل.

دخلت منيرة غرفة أيانا عند الفجر. "اذهبي يا لولو! اتركي هذا المكان. لا تنظري إلى الوراء". نظرت أيانا إلى والدتها التي كان شعرها منكوشًا وعيناها متوحشتين. كانت منيرة تتنفس بشدة، ورفعت يديها. يجب أن نذهب إلى مومباسا للحصول على جواز سفرك. أنت محظوظة، بعض الناس هنا لا يحصلون إلا على شهادة وفاة من كينيا". تنفّست وهي تتراجع إلى الجدار. وفجأة، بالنسبة لأيانا، كانت أربعة أسابيع فترة طويلة تفصلها عن الحياة.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، تسللت أيانا إلى مهدي مرة أخرى. لم تكن معتادة على شعبيتها الجديدة: تحيات كبيرة، دعوات إلى أكواب الشاي والوجبات المتواصلة والصور الفوتوغرافية. في كل هذا، كان الثابت هو مهدي. لقد اعتاد على ظهور أيانا المفاجئ واختفائها. كان الأمر مشابهًا للأخبار اليومية من المد والجزر التي تلقاها. أعلنت عمن مكانها على القارب المكسور، بينما كان مهدي يرفع لوح خشب: "سوف أذهب إلى الصين". كان الراديو الصغير يذيع تقارير الطقس. كان المحيط في تدفق. أذاع الراديو أن المد والجزر سيبدأ في الساعة الخامسة و43 دقيقة. تمتم مهدي: "محيي الدين. لقد عاد، أليس كذلك؟". تفاجأت أيانا. هز رأسه. كانت ترقد في القارب المكسور وتحدق في السماء.

كان الوقت ليلًا. وقفت أيانا خارج بيت محيي الدين، تطرق على بابه. كان يجلس على كرسيٍ منخفض، يحدّق بشاشة تلفزيونه الملون القديم، وأمسك محيي الدين بأحد كتبه. كان قد وضع داخله الورقة الصغيرة التي تركتها له بعد أن عبثت بمنزله. "لقد تركتني"، كتبت له. شعر بالحزن، وجعلك الورقة. سمع أيانا تطرق على بابه.

"هل تريد أن أعيد لك خريطتك السخيفة؟".

تشابكت أصابع محيي الدين وهو يمسك بورقة أيانا التي جلست عند عتبة منزله واتصلت برقمه. "الرقم المطلوب غير متوفر حاليًا".

لم تكن هناك إجابة.

صاحت أيانا: "هل وجدت زرياب؟".

كان محيي الدين جامدًا.

في الخارج، فركت وجهها.

"عندما ذهبت بعيدًا، جاء الأشرار"، قالت الجملة وهي تلحّنها.

أخفضت رأسها على ذراعيها. انتظرت القمر أن يتحرّك إلى السماء المنخفضة قبل أن توضّب أشياءها وتذهب إلى منزل والدتها.

داخل الغرفة، مسح محيي الدين فمه الدامي لأنّه كان يعضّ لسانه. حين تلاشى صوتها، وصل إليه صدى كلماتها الأولى. عبيرة. اندفع محيي الدين إلى باب منزله وفتحه. نظر إلى الخارج متوقعًا أن يرى فتاةً صغيرة وقطتها، لكن كل ما رآه كان الظلام الدامس.

[32]

قاتل محيي الدين من خلال ربتات الفجر في يوم أسود صنعته سماء تتدفق من أمطار عاصفة. ارتطمت الريح بمعطفه، الذي كان يحتمي به، بينما كان يخوض في المياه المتدفقة من الممرات المغمورة بالمياه. طرق باب منيرة، مستعدًا لقول الحقيقة، ليطلب الحقيقة. تحرك مقبض الباب. وقفت هناك وشعرها في ضفيرة طويلة واحدة ممسكة بإبرة وخيط وثوب برتقالي كانت ترممه. عندما قطعت الخيط بأسنانها، قالت من دون أن تنظر، "نعم؟".

قال محيي الدين: "منيرة".

رفعت رأسها إلى الأعلى، أسقطت عدة الخياطة حول قدميها. رأى محيي الدين عينين واسعتين تحملان أعباءً لم يسبق أن حملتها من قبل. لعقت شفتيها. لاحظ يديها النحيلتين وهما ترتعشان بينما لمستا خدها الأيمن.

تنشقت الهواء وقالت: "أنت؟".

أجابها: "لم يكن بإمكاني الاتصال".

كان أشبه بحائط، فكرت، وخلف عينيه الساحرتين، كان هناك ألم وجرح ما.

انتظرت.

كرر: "لم يكن بإمكاني أن أتصل".

سألته: "هل كان يجب أن ألاحظ ذلك؟".

انحنى تحت المطر في الضوء الخفيف. مشاعر متضاربة، الكثير من الغضب.

كان قد سمع بزيارات المشرقي الغريبة. الصينيون. نيروبي.

توق كبير: أمسك نفسه عن الإمساك بها، عن عصر جسده وروحه وقلبه فيها كي يتمكن من تذوق الحياة مرة أخرى، كي يطفئ عطشه الجديد وحنينه إلى المنزل وإلى أن يكون في مكانه مرة أخرى.

لكنّه تراجع بسبب كل الحواجز غير المرئية.

صاح: "أيانا".

كانت منيرة باردة كالثلج.

"ابنتي".

حاول مرة أخرى. "أردت أن أعود إلى المنزل".

"لقد تحققت أمنيتك الآن".

"لقد أخبروني أنّه كان هناك غرباء هنا. أريد أن أسمع الحكاية منك".

نظرت إليه منيرة من فوق إلى تحت ولوت شفتها العليا.

تذمّرت: "بصفتك من؟".

صراع.

آلمته الجراح الجديدة التي حملها في جسده وروحه.

عضّ محيي الدين على أسنانه وسأل: "ماذا تفعلين؟".

خيبة أمل. سكون. هذا الوجه. هذا الجمال. فيه المزيد من الصلابة والتجاعيد وآثار طازجة للحزن.

ولا زال بإمكاني أن أجد وجهك في قسوة هذا العالم.

أشاحت منيرة بعينيها عن نظر محيي الدين.

كانت تشعر بالذنب.

ركزت على جسد محيي الدين الصلب، وكم بدا متعبًا.

وجّهت له الاتهام قبل أن يقوم هو بذلك: "إذن الآن وقد فات الأوان، تأتي".

سألها: "الصين؟".

بلّله الماء المتساقط من السقف وشعر بالقمع من قرف منيرة: "الصين يا منيرة؟".

أشارت له: "ماذا تعرف عمّا لا تعرفه؟".

على الرغم من أنّ نبرتهما كانت حضارية، ووقفا كأنهما ظلال عاشقين، تسبّبت وقفتهما وحضورهما بأن يلتفت إليهما المارة.

قال محيي الدين: "زرياب... أنت تفهمين... كان علي أن...".

قاطعته منيرة: "كما عليّ الآن من أجل طفلتي".

ابتسامة مزيفة.

"من الجيّد أنّك تفهم".

"عبيرة...".

لمع البرق في السماء.

تأفّفت منيرة: "أيانا؟".

مدّ محيي الدين ليده ليلتقط ذراع منيرة.

"أنتِ...".

كانت منيرة مهذبة وهي تبعد يدها.

"أنت جيّدٌ في الرحيل، يا محبوبي؛ لقد تعلمنا أن نتدبر أمورنا من دونك. اغرب عن وجهنا الآن".

شعر محيي الدين بصفعةٍ في قلبه. بعد عشرين ثانية، وبعد أن أمسك نفسه كي لا يحطّم وجه منيرة بقبضته، استدار ليمضي بعيدًا، انحنى كي لا يقع أرضًا، تعثّر مرّةً، لكنّه لملم نفسه. استعجل، كرجلٍ يحرقه صدره. كان رجلًا عجوزًا، نجح مرّةً واحدة في خسارة كلّ من حاولوا أن يحبوه. خلفه، انغلق الباب بشدّة لدرجة أنّه شعر بارتداداته تحت قدميه.

بعد أربعة أسابيع، اجتمعت القرية للصلاة ومباركة الطريق التي ستقود أيانا خارج الجزيرة إلى قدرها. حضّروها للرحلات التي حلموا هم لها بها فقط: النصائح والتوجيهات وأشياء يجب القيام بها وأشياء لا يجب القيام بها واستدعاء الله. استمعت أيانا لكل هذا،

لكنّها أبقت مسافة لنفسها. فكرت في مدير المقاطعة، الذي هدد في الغالب أكثر سكان الجزيرة غير المبالين بأنه يومًا ما "سيمسح غبار هذه الجزيرة عن قدميه".

والآن لو كانت أيانا جريئة بما يكفي، لأبلغت سكان جزيرة بيت بنيتها بأن تمسح غبار الجزيرة عن وجودها. كانت لتلعن من أثاروا الشائعات واحتقروها هي وأمّها في السابق. كانت تشعر بالقلق تجاه إزالة نفسها من أحزان الأرض والأشجار والأشباح والوجود والغياب. حملت أيانا القليل: سجادة أمها وأقلامها الخطية وبعض الحبر، عبوتين من الحناء من السودان؛ ثلاث قطع ملابس، بنطلون جينز وقميصين، بعض المجوهرات، بوصلة مهدي، وخريطة محيي الدين التي علقت بها بتلة ورد مزاي كيتوانا الجافة.

تركت لؤلؤة سليمان على الطاولة. أضافت منيرة أساورها الذهبية لمجموعة ابنتها. وضّبت أيضًا خمس زجاجات بلاستيكية صغيرة بنية اللّون: ماء الورد وزيت بذور الورد وماء الزهر وزيت الياسمين وكريم القرنفل السميك. أضافت لوحتين مطبوع عليهما -الشجاعة هي سر الحياة. وضعوا جميع الأشياء في حقيبة قماشية زرقاء داكنة متوسطة الحجم معبأة بإحكام، مكتوب عليها "صنع في الصين".

تأخرا ساعتين وحاولا تجاوز الريح والاستفادة من المد القادم. كانت منيرة تنتظر بالفعل على متن الزورق الأبيض الذي يحمل أمتعة أيانا، وثيابها ترفرف -والدة "السليلة". كانت هذه هي ساعة انتصارها. كانت ستقضي هي وأيانا ليلة في لامو، حيث ستغادر أيانا مع حارس محدد للميناء في مومباسا حيث تنتظر سفينتها.

كانت أيانا قد تأخرت بسبب التشريفات الرسمية وتعريفها إلى مرافقتها، سيدة صينية من السفارة، وكانت بسرعة باتجاه الميناء حين سمعت بين الحشد صوت محيي الدين. "عبيرة!"، صاح لها بينما أوقعت الريح قبعته.

التفتت منيرة بعيدًا عن المرأة حين حاول محيي الدين الوصول إليها.

صاح وهو يقرّب أيانا إليه: "أين خريطتي".

بكت. "سأمزقها. نصفها لك ونصفها لي".

"كيف؟".

"نتقاسمها"، قالت له.

أمسك كتفيها. "عبيرة...". هزّها. "لقد وسّختِ منزلي وسرقتِ كنوزي".

اتّقد عيناها كالنيران.

صرخت: "أين كنت أنت؟".

تراجع محيي الدين متأثرًا بمعاناتها.

قالت أيانا: "الشيء السيء... لقد جاء. لم تكن أنت هنا".

ضربت ذراعيه. بات رأسها الآن على صدره، كما في أيّام الطفولة: "لا أجدك".

أبعدت الريح وشاحها الأسود. كان محيي الدين يئن. اهرب، فكّر لنفسه. تذكّر منيرة، وزرياب.

استذكر تشابكه الأخير مع "كينيا". نظر إلى المستقبل ولم ير أي شيء جوهري متروكًا لأي منهما. اركضي! عيناه حزينتان، وقلبه مفطور. اركضي أيّتها الطفلة. "أنا هنا الآن"، قال لها. كان محيي الدين قد ذهب إلى نيروبي، وهو مواطن يطلب من السلطات ببساطة شرحًا لفقدان ابنه. ولكن بدلًا من ذلك، أُجبر على إثبات أنه "ليس من الشباب" ولا "القاعدة" -أنّه لم يكن جزءًا من أشياء لم يعرفها. لم يكن هناك من يدافع عنه حين تعرّض للسرقة والتعرية والاتهامات والاعتقال، ولم يكن هناك من يعترض على توقيفه. لم يرتفع أيّ صوت للاعتراض على تعذيب شخصه وانتهاك كرامته وتاريخه ومهنته وشعبه، وإهانة هويته الكينية من قبل أولئك الذين كان لهم أدنى حقّ في أن ينسبوا قصّة كينيا وتاريخها لأنفسهم، أولئك الذين لم يستطيعوا حتّى أن يشيروا إلى جزيرة بيت على خريطة كينيا. لم يأتِ أحد ليشرح لمعذبيه أنّ صمت محيي الدين الذي استمرّ على مدى سنتين لم يكن دليلًا على أنّه مذنب. لم يكن الأمر كما لو أنّ "لديه ما يخفيه"، لكنّه كان فقط مصدومًا بمدى اللا معنى لكل الأشياء.

لكي يهرب، كان عليه أن يتاجر بقيمٍ لم يعرف أنها لديه. لم يكن لديه أيّ أغراض قيّمة ليعطيها أو يرشد إليها ولم يكن لديه من يتّصل به للخروج من هذا المأزق. اختار هو والآخرون الذين تشارك معهم الزنزانة، الجشع لتهدئة الجذام النابح في قلوب حراسهم. المال. كان هناك ستة آخرون في الزنزانة معه، كينيّون صوماليّون. تشاركوا جلسات المحكمة. وجدوا رابطًا مع محيي الدين، وعاملوه كما لو أنّه أخيهم. رفعوا حصّته من الرشوة إلى سبعة آلاف شلن، ثمن الروح الشريدة للأمّة. حين أتى لحراسهم يوم الزيارة، تركوا أبواب زنزانتهم مفتوحة. كانت فترة اثني عشر دقيقة كافية للمساجين السبعة ليغيروا ملابسهم ويخرجوا من

الزنزانة ويختلطوا بالضيوف ويتركوا السجن. أعطوا بعدها محيي الدين أربعة آلاف شلن لكي يغطي مصاريف رحلة عبر الساحل في شاحنة حمولة.

حتى الآن، لا يزال محيي الدين يشعر بالفساد، كما لو أنّه جثة قبيحة كريهة من القبح، شيطان خاص بكينيا، تشبث بروحه. الآن، وبينما كانت الرياح تهزّ ملابسهما، نظر محيي الدين إلى أيانا، وقفتها الغريبة، قلبها الباحث عن الأمل. ابنته. لقد فضل تسليمها إلى مستقبل كان أشبه بلعبة النرد حتى تتمكن من اتخاذ خيارات أكثر عمقًا وصدقًا وثراءً. وقال بلهجة غير متكافئة: "لقد زرت الصين".

كان يكذب. "سوف تكونين سعيدة هناك".

ترقرقت في عينيها دمعتين كبيرتين. كذب محيي الدين مرّة أخرى خشيةً من أن تفسّر أيانا كلماته على أنّها نوع من الهجران. "سأجدك، تعرفين ذلك؛ دائمًا أجدك". أصابتها الحازوقة. "لديّ جواز سفر". مدّت يدها داخل حقيبتها الخضراء الجديدة وسحبت غرضً أزرق اللون. فتحته لتقرأ: "أيانا عبيرة ملنغوتي واجوزا". قالت له، "بات الأمر مكتوبا. أنت والدي". قبّل محيي الدين جواز السفر. وقال لها: "أنا آسف لأنّي ذهبت بعيدًا. تركتك أنتِ وأمّكِ بلا حماية. سامحيني...".

ارتجف صوته ولمست أيانا وجهه المتعب الملامح. "لا يجب أن تبكي". أمسكت بوجهه كما كانت تفعل حين كانت أصغر سنًّا. ثمّ أراد محيي الدين أن يحذّر أيانا: الوجهات سريعة الزوال. لا شيء يدوم، سوى أصوات القلب والأمعاء. بدلًا من ذلك، قال لها: "اسمعي، اسمعي، أهم الأشياء مخفية في الغيب؛ أهم الحقائق تسكن فقط فيما هو غير معلن". ثم تابع: "حيي نفسك / بألف أشكالك الأخرى / وأنت تصعد المدّ الخفيّ / في طريق العودة إلى الوطن...".

ثمّ توقف محيي الدين عن تلاوة شعر حافظ وتمتم لها: "أنت تعرفين يا ابنتي أنّي سأحبك".

تمكّنت أخيرًا مرافقة أيانا من سحبها من تمسّها بمحيي الدين. صاحت المرافقة: "لقد تأخرنا".

"جواز سفرك!".

ناول محيي الدين أيانا جواز سفرها بينما سحبتها المرافقة إلى القارب السريع. خلع

محيي الدين ساعته بسرعة. "عبيرة، خذي هذه".

وضعها في يد أيانا.

"سوف تجدني؟"، صاحت أيانا.

لو وعدها بذلك، لضاع وعده في زحمة رحيل أيانا والمدّ المرتفع.

لوّح الحشد المجتمع لأيانا ووالدتها ومرافقتها. صعدن القارب. التقت نظرة محيي الدين بمنيرة. أشاحت بنظرها عنه وركّزت على تهدئة أيانا وقادتها إلى مقعدٍ في الزاوية. أدار القبطان محرّك القارب.

"عبيرةةةة"، صاح محيي الدين.

بقيت أيانا تنظر إليه حتى استدار القارب شمالًا. سمعت محيي الدين ينشد: "اسمحوا لي أن أرحل يا أصحابي...".

وسرعان ما لم يعد هناك صوت سوى القارب السريع يشقّ طريقه وسط المدّ.

Pweza kwambira ngisi
Wapitao kimarsi marsi
Tutwafutwao ni sisi.

قال الأخطبوط للحَبّار، عندما تراهم [البشر] يخترقون المياه، فنحن من يسعون إليه.

[33]

في يومٍ من أيّام عام 1995، عندما غطى ضباب أزرق قذر جزر كينمن الصينية، تحت مرأى قمرٍ باردٍ ينزف ضوءًا على مياه فوجيان، جال رجلٌ رقيقٌ ذو وجه مدبب على معظم مواطنيه بينما كان يواجه البحر. بيديه المرتعشتين، قام لاي جين بإزالة نظاراته الشمسيّة المتشققة ليمسح عن عدساتها بقع المياه المالحة. كانت هناك طيور لها أرجل رفيعة وأجنحة بنيّة متدرجة تطوف على الشاطئ.

متأثرًا بالرياح العاصفة، كان هناك سليل عائلة لاي، الابن الوحيد للابن الثالث (الذي تزوج وسط فضيحةٍ في القرية من امرأة متحرّرة أكبر منه سنًّا، تنتمي جزئيًا للأوريغور، وتعمل في الخزف الياباني واسمها نورا) للابن الأوّل للزوجة الثانية من فرع ذي جذور يابانية بعيدة ومغمورة ومؤسفة في محاكم الإمبراطور الثالث. كان لاي جين قد عاد للتو من جزيرة ميزهو، حيث تتبع الحجاج المتجهين إلى معبد الإلهة مازو، راعية البحار والمكافئة بكرم، والمتحكّمة بالمد والجزر. كانت هي من تقرأ النجوم والمياه وأيضًا من تملك هبة القدرة على الشفاء. لم يكن هو رجلًا مؤمنًا أو أيّ شيء من هذ القبيل، ولا تمنّى أن يكون كذلك. لكن كان هناك ما حدث حين تجوّل في الجزء القديم المظلم من الضريح ليبتعد عن العديد من عبدة مازو الذين تجمعوا لإبعاد الأرواح السيئة عن أنفسهم. بينما كان يسترق النظر إلى الداخل، شعر بنعومة عذبة وغير مسبوقة في داخله، عذوبة تسرّبت إلى قلبه وانتقلت إلى أفكاره وهدّأتها.

حين غادر المعبد بعد ساعات، كان أشبه بشخصٍ مذهولٍ بهدية فُرض عليه قبولها. لم يشعر بالسلام على قدر ما شعر بأنّه وصل إلى قرار. اختفت من داخله ببساطة الرغبة التي دفعته على مدى شهرين ونصف الآن إلى أن يقود ويقود بلا توقف.

عند الاستماع إلى المد والجزر والموجات التي انطلقت في فترات زمنية طويلة على طول شاطئ من الحجر الأبيض والحصى الأبيض، اكتشف أن تصوره المتكرر للدخول في المد والجزر والهبوط في أعماق البحار قد فقد حافته المغرية.

صفارات إنذار.

نذير عن مصيرٍ من شأنه أن يربط لاي جين بأرض لا تزال بعيدة.

تدفّق حزنه وذكرياته نحو ثلاثة هياكل وهمية، وسفن رمادية صدئة تتجه إلى مكان آخر بينما غرقت الرياح الباردة في الميناء.

صفارات إنذار.

يفرك لاي جين ذراعيه لتحميتهما. كانت هناك بعض الأشياء الجديدة عن الحياة التي اكتشفها لاي جين: أن الأرض لا تزال متقلبة من الغرب إلى الشرق؛ أن الحياة لم تتوقف عن رثاء وزن قدم الفيل الذي سحق صدر الرجل؛ هذا الوجود مضطرب ليس متماثلًا ولا متناغمًا، ولكن منسوج من قوام غير محدود وأشكال العدم التي تتغير بفعل نزوة.

في البداية، كان هناك حريق. تناقل الآخرون هذا الخبر. في بداية لاي جين الثانية، كان هناك حريق عادي. حوّل حريق اندلع في احتفالات رأس السنة مطعمًا في بكين إلى فحم ورماد، وفي نفس الوقت أثّر على روح لاي جين. بعد أن اندلع الحريق وفرّ 258 شخصًا من المحتفلين، كان هناك صمت، وما كان في السابق ستة رجال وسبع نساء، يشكلون الرموز المتألقة والشابة لعصر "كايجانغ" الصيني، بما في ذلك زوجة لاي جين الجميلة، مى شينغ، تحوّلوا إلى منحوتات سوداء شاذة تتدفق من الدخان، ملقيين على ظهورهم وأذرعهم وسيقانهم منحنية إلى الأعلى. تجمّدت أفواههم في تجهم الكلمات الأخيرة، النقيض الشديد للتنفس.

دمّر الحريق شهية لاي جين للاحتفالات التي قدمها الجهاز الجديد ودعوته كعضو في مجتمع الأرستقراطيين في الصين الجديدة. كان لاي جين متأخرا عن الاحتفالات في المطعم. كان يتصرّف كما لو أنّه مستثمر محتمل محتاج ولكن ثري في خطة لإطلاق فضاء تجاري كان يحلم به. عندما وصله خبر الانفجار عبر الهاتف، توجه إلى بحر اليعسوب على الفور.

عند الوصول إلى هناك، اندفع من خلال الحاجز الصلب حول المطعم بقوة خارقة. متجاهلًا الرائحة الكريهة للعديد من الأشياء المحمصة، اندفع جيئة وذهابًا، وهو يقلّب الأشياء المتفحمة بالنار، بحثًا عن مي شينغ. صرخ باسمها. ذكّرها بالاحتياجات المتزايدة، والرغبة المتلألئة، وعشرات آلاف اللمسات الناعمة اللينة، وسحر القبلات البطيئة التي تمتعت بها الليلة الماضية. كان قد بحث عن الفتات وتآمر لإجبار مي شينغ على العودة إليه، الآن بالكلمات ثم بالإرادة وحدها. ذكّرها بأطفالهم، أولئك الذين لا يزال عليهم أن يولدوا. انتهى به الأمر وهو يجثو على الرماد ويخدش سطح المكان المحترق.

كان لاي جين قد سقط في بركة السخام. في الداخل، رأى جمجمة مبيضة. للوصول إليها، كان قد لامس انعكاسه الخاص. كانت مياه ستيجيان قد نزعت جلده، إذ جلس لاي جين على الفولاذ المشتعل. كانت النار قد أحرقت من ملابسه وجسده وكربنت روحه.

الجزء الخلفي من ذراعه الأيسر، نصف ظهره. خشخشة وشرارة.

ثمّ شعر بقلب مي شينغ ينبض بداخله. سمع نفسه يبكي بصوت حزن مي شينغ. سحبه رجلان مصابان. كان لاي جين تقريبًا ميّتًا – عيناه ثابتتان، جسمه يعرج. عندما تعافى لاي جين بشكلٍ كافٍ من الحروق من الدرجة الثانية واستنشاق الدخان، عاد إلى الموقع بعد ثلاثة أشهر. وجد أعمال الإصلاح كاملة تقريبًا كما لو أن الحريق كان مجرد فاصل. غمره طعم سحق باللا معنى. محاولة للهروب من إحساسه، سعى ووجد أعضاء من زمرته القديمة.

كانوا قد هاجروا إلى أماكن أكثر لمعانًا، ليحتفلوا بصخبٍ أكثر من ذي قبل. "أن تكون غنيًا هو أن تكون مجيدًا!"، أتاه صوت من حانة الكاريوكي حيث كان سهرانًا. تخيّل أنّه قد يكون بإمكانه أن يستأنف حياته من حيث تركها ويتخلص من اليأس. لذلك شرب. وتقيأ. شرب. وتقيأ، وحاول الغناء مع الأصدقاء، وارتداء الوجوه التي تناسب حركتهم التي لا تتوقف، وحاول أن ينسى أن أيًا من هؤلاء، المذّهبي، لم يأت لزيارته في المستشفى.

غثيان.

كان المشهد قد تحوّل إلى مجرى مروع تحولت فيه الموسيقى إلى عواء زوجته وكل حلم لامع إلى رماد. تذكر القبر حيث تمّ دفن أي شيء كان مصممًا على أنه محتوى بشري من الحريق. نظر حوله وأدرك أنه أصبح عضوًا على مدى الحياة في ملجأ صاخب كان في جوهره باطلًا. كان لاي جين قد تعثر في طريقه إلى منزله، شعر بالقرف والمرض والخسارة.

في اليوم التالي، ذهب إلى مكتبه وقام على الفور بإفراغ الأرض الرئيسية في شنتشن، حيث كان هو وزوجته يعتزمان تصميم وبناء وتأجير المنازل الفخمة للأجانب الأغنياء. قام بتدمير المخططات كلها. باع جميع شركاته وشقته، وكل ما كانت تحتويه.

بسبب علاقات مي شينغ فيما تعلّق بجو الحفلات وهداياها الاحتفالية بالأشخاص المؤثرين، اكتسب الزوجان حقوقًا كبيرة في إحدى الجزر الأقل شهرة في مقاطعة شنغسي النائية، جنوب شنغهاي. مصالح للمستقبل، فكرا. خدمات مصرفية للأراضي. سيحاول التخلص من ذلك أيضًا -في النهاية. احتفظ لاي جين بمعظم الأعمال الفنية التي جمعها،

وكل مجموعة أعمال زاو ووكي، وأعارها إلى معرض صغير له مالك غريب الأطوار، دون تحديد تاريخ الإرجاع.

انطلق لاي جين في سيارته الرياضية الحمراء التي كان قد اشتراها لعيد ميلاد مي شينغ العام الماضي. كان نيته أن يقود نفسه للموت، لكن حين وصل إلى مقاطعة تونغان في شيامن بعد شهرين ونصف، تردّد. الآن. بعد خمسة عشر عامًا، تسبب هبوطه هناك بتلبك في معدته. على بعد يوم تقريبًا من ميناء كيلينديني في مومباسا، على متن السفينة التجارية كينغروي، وقف قبطانها، لاي جين، على الهاتف الفضائي الأسود والكروم. جمع صوته قوى السياسة والتاريخ والدراسات الثقافية والفلسفة والجغرافيا لقيادة سفينته.

كانت لكنة شانغهاي التي تحدّث بها الصوت الذي توجّه إليه خالية من كل الشوائب، دقيقة مثل أوتار العود. سأله الصور: "كيف ستنقل زوجًا من الزرافات؟". حبس لاي جين أنفاسه. على الرغم من أنّه كان يقول نعم للكنة شانغهاي، لكنّه في داخله، كان هناك صوت آخر يقول "اغربي عن وجهي" كوسيلة للحفاظ على ذاته من الألم.

وجد نفسه يستمع للرجل، متفاجئًا. أوضحت لكنة شانغهاي للاي جين كيف انعكس حاضره ليس فقط على السنة والموسم ولحظة رحلته الكارثية القديمة فحسب، بل كان ذلك أيضًا بالتزامن مع اكتشاف بحر اليعسوب وإنقاذ حطام سفينة مينغ الرئيسية، إحدى السفن القليلة التي تكسّرت في عاصفة قبالة المحيط الغربي قبل ستمائة سنة. سمع الصوت بلكنة شانغهاي: "عندما يلقي القدر خنجرًا عليك، فهناك طريقتان فقط للقبض عليه: بالشفرة، أو بالمقبض".

أكمل الصوت لتهنئته بمدى ملائمة تواجد سفينته وحكمة مستخدمه الذي لفهمه لعبة القدر، كان قد وافق على استخدام السفينة كـ "جسر" لتنفيذ نصب تذكاري رمزي لرحلة المحيط الغربي المظلمة للأدميرال تشنغ خه.

"كانت هناك نتائج للاستيراد"، أضافت لكنة شانغهاي. قطع أثرية من السفينة المفقودة والأخشاب والأواني الفخارية وقطع اليشم. "بما في ذلك" -هدوء -"قوس صيني!". وقفة. كان لاي جين مدركًا أن لكنة شنغهاي اللكنة كانت تتأمل أن تستحوذ على انتباهه وتعكس له الإثارة. ولكن بدلًا من ذلك، كان رأسه يؤلمه وبقيت أفكاره عالقة مع رؤية حيوانات بنية اللون طويلة القامة ومرقطة على ظهر السفينة الحاملة للسلع.

تكلمت لهجة شنغهاي مرة أخرى. هل أدرك لاي جين شرف كونه الشخص الذي تم اختياره لإعادة أجزاء مجزأة من رحلة الأدميرال تشنغ خه -المكسرة من الأواني الفخارية المأخوذة من شرق إفريقيا إلى شعب الصين؟ اشتدّ الصداع النصفي الذي أصاب لاي جين وآلمه أكثر.

مزّق جيوبه بحثًا عن مسكنات للألم، وهو يسعل، ويحاول مقاومة وجعه. "عسى ألا تشعر بالمرض سيدي، إلا في سفينة تمّ تجهيزها بشكل ملائم أكثر – بالنظر إلى أننا، كما رتبنا سابقًا يا سيدي"، -ارتجل – "سنسافر مع ركاب آخرين. ألم يشرح لك صاحب العمل هذا الأمر؟ لا؟ آه! ربما هذا المشروع المرموق ينتمي إلى سفينة أعظم يا سيدي وينبغي أن يشمل شخصية مرموقة أكثر مني؟".

قاطعته لهجة شنغهاي: "طبعًا سأكون في شيامن لاستقبال سفينة كينغروي".

وقفة.

"كينغروي؟"، صوت منزعج.

"ليس هذا الاسم المناسب".

أمسك لاي جين نفسه عن الكلام. لم يكن بإمكانه الاعتماد على مستخدميه بأيّ شيء. كانوا ليضحوا به لآلهة الروبيات لو كان ذلك يعني الربح والمكانة. استمع إلى لهجة شنغهاي وهي ترفع الاستعارات من أحواض الأساطير الضبابية -التنين، وأشجار التوت، والنمور، وثمار البرسيمون، وعجلات اليشم، وتسع قطرات من الدخان. عقد لاي جين حواجبه. الزرافات؟ هزّ رأسه. اهتزت سفينته. ماذا سيقول لطاقمه؟ أن التاريخ استدعاهم؟ هل كانوا سيشخرون فقط، أم سوف يشعرون بالارتباك؟ نخر لاي جين.

الآن وقد كذب عليهم، كان عليه أن يجد ركابًا ليثبت أن هذا العر لم يكن صالحًا. يا لها من فوضى. كان كينغروي سفينة حمولة. لو أراد هو، لاي جين، أن يحمل الركاب على متن سفينته، لكان أبحر بسفينة أخرى. لكنّه كان بحاجة إلى أن يُترك وحيدًا مع أفكاره في البحر.

كان قد حارب لكي يكسب البحر: جامعة شانغهاي البحرية، تعويذة من سنغافورة، وعمله الجاد لكي يصبح قبطانًا. كان يحب سفن الحمولة. لم تتحدّث هذه الأنواع من السفة ولا طالبت بالترفيه. كانت سفن الحمولة بسيطة. فرك العرق على جبينه، كان منفعلًا. "ما المبلغ الإضافي الذي سأتقاضاه؟". كان يعرف الإجابة مسبقًا، وقد أكّدها الصمت الذي أتاه

من سماعة الهاتف للتعبير عن الرفض وخيبة الأمل.

انتظار.

أيّ صمتٍ يطول أكثر؟

كان لاي جين من استسلم أولًا. سأل عن "المتحدر من السلالة" واحتياجاته المتوقعة. احتياجاتها، صحّحت له لهجة شنغهاي. شدّدت: "مختارتنا".

اختنق جين. سأل منهارًا، "الزرافات؟".

بدت لهجة شنغهاي كما لو أنّها نسيت أمرها. "الـ.. زرافات".

كانت تلك المساومة لآلهة البحر. كان ليأخذ الإنسانة ولكن ليس الزرافات. فكر في سفينته وتصميمها. متقشفة وصلبة.

عالم رجل منعزل.

أين سيضيف "السليلة"؟

كانت كينغروي سفينة متساوية مع خطوط حمراء وبيضاء، طولها أربعة وخمسين مترًا، اسمها مكتوب باللون الأسود. واليوم كانت ترفع العلم الكيني، تكريمًا لميناء وجهتها. كانت السبب الرئيسي لبقائه في هذه الوظيفة. كانت سفينته المحظوظة، وهي صندوق حمل به سطح واحد. مع دباباتها السفلية المغطاة بالصلب، مضت من محيط إلى محيط. ومنذ ظهور التبخير البطيء -انخفاض تكاليف الوقود -سافرت بثلاثة وعشرين عقدة بأسرع وقت ممكن. فضّل لاي جين السفر البطيء، لكن مستخدميه لم يفضلوا ذلك.

رغم أنّه لم يكن من الأشخاص الذي يستسلمون للتخيلات والخرافات، كان لاي جين مقتنعًا بأنّ سفينته مشبعة بروح مرحة وشجاعة. واجهة أمواج بحر اليعسوب العاتية عبر توقع التحركات القادمة في المحيط. حمت طاقمها وحمولتها. ودائمًا ما وصلت إلى وجهتها. لو كان بإمكان لاي جين أن يحبّ أيّ شيءٍ في هذا العالم الآن، لكانت سفينة كينغروي.

الضباب عند الفجر.

قدمت مومباسا نفسها كمتوسع ذهبي-برتقالي، شاهد على التاريخ الطويل للوافدين والخارجين من البشر. أبطأ لاي جين في القيادة، ساد داخله الخوف. عانت ذكرياته في الأرض؛ كانت كوابيسه محددة أكثر. كشفت أنّ لاي جين كان سجينًا لتوقٍ لا ينتهي. أتته المشاعر من الهاوية وأغوته للاعتقاد بأوهامٍ بأنّ مي تشينغ كانت لا تزال حيّة، لذا أيقظ ذلك

داخله جراحًا وآلامًا لا تزال حية.

في معظم الموانئ، إذا لم يظل على متن سفينته، كان يتجول في الشوارع ليلًا، بحثا عن الأشكال الأخرى من العزلة والمشروبات والطعام. مع شروق الضوء، كان ينشغل بإصلاح أيّ مساكن لديه في الوقت المناسب لتناول الإفطار. في وقت لاحق، كان لا يزال مستلقيًا في السرير في انتظار الغسق. ألقى الليل بضبابه على كل شيء. في الليل، كان بإمكانه أن يذوب في أنفاسه.

[34]

تدرج عن زورق القطر الذي رافق سفينة كينغوي إلى الميناء قبطان كانت عيناه شبه مغمضتين وهو يقود السفينة إلى ميناء كيليينديني. عندما رست السفينة، غرست مرساتها لتتوقف في الرصيف على جانب الميمنة. سرعان ما صعدت مجموعة من الرجال -مسؤولي الهجرة، فضلًا عن البيروقراطيين من سفارة جمهورية الصين الشعبية في جمهورية كينيا -على متنها، رافقهم وكيل السفينة، وهو رجل أحادي الشكل عرفه لاي جين من العام السابق.

كان طاقمه في أيد أمينة. تنفس لاي جين. كان لكل ميناء رائحة مميزة، كما لو كان البحر يقطر المناخ والآمال والخبرات من كل مكان إلى جوهر فريد من نوعه. كيليينديني. الروائح العليا، الأرض، النار، زهور القمر، والدم؛ النوتة الوسطى، الملح، تعفن الأعشاب البحرية، والصدأ؛ الروائح السفلية والخشب ودفء الشمس في الشفق والعرق. الإيقاعات المنعشة، والعواطف المضطربة، وجرس المعبد الذي يرسل الأصوات العالية، والضحك من مكان ما، ودعوة واستجابة ما لا يقل عن سبعة أنواع مختلفة من الطيور. الحاويات والرافعات والسفن. أصوات الناقلة.

نظر لاي جين إلى كل هذه الأمور كما لو أنّها بقايا حروق جراحٍ قديمة لسعت جسده مثل الذكريات المتخثرة التي كانت تتربص به. نظر إلى السحاب. تسرّبت حرارة مومباسا إليه. على الرغم من وجود نسيم مالح ومبرد، كان لاي جين يتعرق بالفعل. قوّس

ظهره واستعد للقاء مضيفيه وتبادل المجاملات. حركة. رنين وصوت نقل البضائع الثقيلة. تحذيرات صرخت – "انتبهوا".

هتافات.

بعد يومٍ ونصف، تمّ تفريغ القمح الموجود على متن سفينة كينغروي. انتظر لاي جين لتحميل شحنة جديدة من الشاي والخردة على متن سفينته لرحلة العودة. ربما كان سيخرج ويخاطر باحتساء نوع الشاي الذي شكّل جزءًا من حمولته.

الحشرية.

سعت بلاده، منزل الشاي، إلى أحفاد أحفاد الشاي من أماكن بعيدة. تذوق الشاي لاختبار مدى تطور نكهته بعد أن غادر الصين. بحلول الساعة الثانية بعد الظهر، استلم فريق عمل من الصينيين، يشرف عليه مسؤول بالسفارة ومالك شركة إنشاءات كان يجيد اللغة، سفينة كينغروي. حزم لاي جين حقيبة يده وحقيبة ملابس وابتعد عن الأنظار. في قلقه لتقييد الاتصال مع البيروقراطيين والبنائين، تذكر فقط السماح لضابط في مكتب مدير الميناء بمعرفة أنه بحاجة ماسة للركاب.

"كم راكب؟".

"أربعة، خمسة. يمكنك أن تحتفظ بخمسين في المئة من أيّ مبلغٍ سيدفعونه. لا أسئلة".

لمعت أسنان الرجل حين ظهرت ابتسامته.

ظهر لاي جين في فندق نيالي بيتش. من خلال قلم حبر مملوء بالحبر الأسود الكثيف، حاول أن يستدعي جوهر حبيبة مي شينغ. على ورق الأرز، كانت الخطوط والكلمات ولطخات الحبر والدموع.

انتظاره لشعور، لصورة، إشارة إلى الهوة التي سقطت فيها زوجته وحياته. تصبّب منه العرق على فترات متباعدة. كانت ثاني شخص في الحياة لا تعامله على أنه انحراف من المثل الأعلى لشعب الهان. الأولى كانت والدته، الخزفية نارا، التي سلمت نفسها للجنون. ولد لاي جين في تيانجين بعد فتاتين تم إجهاضهما. أراد والده صبيًا: كان ذلك ليرسّخ اسمه ومكانته في الحزب. كان الابن سيعوّض عن زوجته الفنانة التي لم يكن بإمكانها أن تخدم الحزب بتفانٍ كعاملة في مخططاته الزراعية ولا كانت تجيد الطهي.

بالنسبة للاي جين، كانت نشأته تعني العيش في رفقة شقيقتيه الميتتين وحياتهما

المدمّرة وغير المكتملة -أشباح لاحت دائمًا حين حاولت والدته أن تصنع أوعية طينية رائعة لاحتواء روحيهما المتسربة دائمًا. إلى أن جاء أحد الأيام ولم يجد والدته حين عاد إلى منزله من المدرسة، كان تعليق والده الوحيد: "لقد ولت الآن".

في غضون عام، دخلت امرأة أخرى، أصغر بكثير من والدته، أسرته. كانت كريهة ومتألقة في الوقت نفسه، وكانت لطيفة مع لاي جين في الأماكن العامة ولكن كانت تقرصه حين يصبحان وحدهما. أدخلت نفسها بين لاي جين ووالده، بحيث أصبحت صلة الوصل الرئيسية بينهما.

لكي يتعايش معها، أغرق لاي جين نفسه في الدراسة، مختارًا أن يتفوق حين لم يكن يخسر نفسه في تخيّل حياة أخرى بين أنقاض مملكة صناعة الأواني لأمّه المختفية، وأشيائها التي لم تكتمل. هناك، كان بإمكانه الانسحاب إلى بحرٍ متخيّل لونه أزرق ساطع وكله طيبة وحبّ وجمال.

حين كان لاي جين في الثانية عشرة من عمره، انتقلت العائلة إلى قوانغتشو في قوانغدونغ، ما أثار استياءه. كانت زوجة أبيه تخبره في كثير من الأحيان أن ترقية والده لشغل منصب أعلى في الحزب محظورة لأنّه -أي لاي جين -دخيل، مثل والدته، كان موجودًا.

نادته "نيكي". جرح ذلك قلبه: بسبب مظهره وطوله، كثيرًا ما كان يتم التشكيك بهويته. طلبت منه المرأة العودة إلى اليابان من خلال القفز من الجسر. "كاميكازي، أنقذ والدك". ركز على القيام بعمل جيد في امتحاناته. أرسله والده أولًا إلى هونغ كونغ، لتعلم اللغة الإنجليزية والحصول على شهادة أولية، ثم إلى مونتريال، كندا، لتأمين العالم وجواز سفر غربي. لكنه كان يشعر بالحنين إلى الوطن لدرجة أنه عاد بعد أربعة أشهر فقط.

في طائرة العودة إلى منزله، التقى بمي شينغ التي أصبحت زوجته بعد ثلاثة أسابيع فقط. كانت من بكين، لكنّها عاشت في كندا على مدى سبع سنوات مع والدتها التي رحلت إلى هناك على أثر فضيحة. هذا، العار المتخيل الذي جلبه مثل هذا التحالف إلى اسم لاي، إلى جانب حقيقة وجود ابن جديد يبلغ من العمر ثلاث سنوات وضعته زوجة الأب، وكسر الحبال الهشة بالفعل بين لاى جين ومنزل والدته. الآن. العرق يسقط على صفحة، وهناك غطس برتقالي غامق في مومباسا. نظرت إليه ثلاث غربان سوداء تبكي عند نافذته وكأنها أقرباء ينبغي له التعرف عليها. راقبهم وشاهدوه. تراجع هو أولًا.

[35]

بعد إحدى عشر يومًا من وصوله إلى مومباسا، عاد لاي جين إلى رصيف الميناء وشق طريقه على طول الرصيف. توقف، وحدق في الهيكل أمامه لفترة طويلة جدًا. كانت سفينته هناك. ببطء، ارتفعت أصابعه ليفرك ذقنه. لم يكن يدرك أن بشرته قد احمرت وتوهجت عينيه. بعد نصف ساعة تقريبًا، أتى نائب مدير الميناء لتفحص السفينة معه. بعد خمس دقائق، تكلّم الرجل: "سيدي القبطان، أعذرني".

التفتت لاي جين وانحنى للرجل الأسمر القصير القامة والممتلئ الجسد. "أيّها القبطان"، قالها بنبرة كما لو أنّه على وشك مشاركته سرًا، ثمّ أشار بإصبعه إلى صورٍ توضيحية على أوراقٍ رسمية وأراه كتابة باللغة الصينية. وسأله إن كانت الكتابة متشابهة. نظر لاي جين إلى الورقة ثمّ إلى سفينته. ماذا كان بإمكانه أن يقول؟ أعاد قراءة اسم سفينته الجديد. غولونغ: تنين الأمّة، مؤطرة بخلفية من السحب المظلمة. فكّر بسؤال الرجل، ملاعبًا الحقيقة. انسحب. كان بإمكانه أن يتراجع ويقول مثلًا "لا أفهم".

من أجل أن يحقق التناغم الداخلي ويخفف تعقيدات البيروقراطية، كان بإمكانه أن يحرق كل تلك الكتابة. التمويه في استخدام الكلمات حين يكون الأمر مناسبًا يؤكد عدم يقين الآخرين عنك. أجاب لاي جين: "أسماء كثيرة، الأسماء نفسها، نفس القلب ونفس الشعور". نظر إلى الرجل وهزّ رأسه. "السفينة نفسها". لكنّه تنهد داخليًا. غولونغ؟ فعلًا؟ ألم يكن هناك صورة نمطية أخرى من الصين لتضخيمها؟ تنين الأمة؟ سفينته ذات الروح الخفيفة؟ شعر لاي جين بقرصة فوق عينه.

أمل أن يكون البلهاء المعنيين قد اهتموا بالأوراق. انتشرت الغيوم الذهبية العاصفة التي تغمرها الشمس على الميناء. "ستمطر"، لاحظ نائب مدير الميناء. "نعم"، أجاب لاي جين. "هل سأراك قبل أن تذهب؟".

قال لاي جين، متسائلًا عن الرحلة المقبلة وعن اسم السفينة الجديد الذي شعر أنّ مفروض عليه، "نعم". مضى المسؤول بعيدًا، مستهجنًا بالمستندات. حدق لاي جين إلى سفينته التي أعيد تسميتها باستياء.

سوف يغادرون مومباسا في غضون أسبوعين. على متنها، يسير لاي جين. بقيت قاعة الطعام الخاصة به، مثل خلية الراهب -مع اللون الرئيسي الذي قدمته طبعة زاو وو كي، والتي توقف قبلها كثيرًا -دون أن تمس. كان قد قال إنّه لن يستمر بعمله كقبطان إن تدخّل أحدهم بالمقصورة. الاستسلام لقيادته إذا تم التدخل المقصورة. وتوقع لاي جين أن يُعاقب في وقت ما على هذا الفعل من عدم التعاون. تجول في المقصورة التي تم تجديدها من أجل السليلة، المقصورة المعينة سابقًا لكبير المهندسين.

انهار أمام تفسير البيروقراطية للطاوية المعاصرة المخلوطة بمزيد من الكليشيهات الصينية. إذا كانت النية هي تقليل سكان المقصورة مع وجود فائض من الصين، فسيكون ذلك ناجحًا. كانت هناك تنانين حمراء على أحد الجدران، تكملها مطبوعات فنية من المناظر الطبيعية الجبلية -شروق الشمس والمغنوليا -ومشاهد الحياة اليومية -صيد الأسماك وصب الشاي. نسخة مطبوعة من الحجارة الخشبية تعود للقرن السابع عشر تصور سفن كنز الأميرال تشنغ هي وصورة لتمثال تشنغ هي نفسه.

قال لاي جين متوجهًا بحديثه للصورة: "هذه سفينتي".

عدّل قميصه واندفع إلى الخارج. كان صدى وقع خطاه مسموعًا على الأرضية المعدنية.

غولونغ؟

كان لا يزال مندهشًا، يراقب طيورًا غير معروفة تظهر وتغطس في المياه.

كان هناك، يطلب آلاف الطرقات، ودائمًا ينتهي بالعودة إلى طريقٍ واحد – الانتظار. الانتظار دائمًا. انتظار ماذا؟

بدأت عاصفة في الخارج.

اسودّت السماء.

وانتظر لاي جين.

Kupoteya njia ndiyo kujua njia.

تتعلّم الطريق بعد أن تتوه.

[36]

حجز راكبٌ واحد فقط تذكرة عبور على متن سفينة كينغروي/غولونغ، وليس خمسة أشخاص كما أمل القبطان لاي جين لكي يعطل مشروع البيروقراطيين. ولكن، كان واحدًا أفضل من لا أحد. ثم صعد ثلاثة ركاب إلى السفينة كركاب مسجلين ولكن مرتبطين بمخطط البيروقراطيين. درس لاي جين ملامح الركاب وتساءل ما هي الأقدار التي أتت بهم إلى هنا.

لم يكن قد سبق لشو رولان أن ركبت سفينة في حياتها. أخفت خوفها وأجادت لعب دورها الجديد كمساعدة للسليلة. لقد كانت مخلوقةً هشة، مظهرها غير معتاد، بشرتها شاحبة، وشعرها أسود ناعم مصفف مناسب لشكل واجهها الذي كان أشبه بشكل قلب. كانت تتقن العديد من اللغات، ومنها الإنجليزية، في لهجة تشبه ما تذيعه قناة بي بي سي، التي كانت من ضمن العناصر الرئيسية لطفولتها.

كانت أمّها قد أصرّت على ذلك. بينما انغمس أقرانها في أغاني مايكل جاكسون، ثابرت هي على قراءة أعمال شكسبير وجاين أوستن. بعد تخرّجها من الجامعة، أصبحت مترجمة ومضيفة ومعلّمة لغة إنجليزية للبيروقراطيين رفيعي المستوى. كان كل شيء ليسير على ما يرام بالنسبة لـ "رولان المدرّسة" لو لم تكن قد أصبحت محط اشتهاء وتنافس من قبل أربعة ضباط، كان أحدهم قد أحضر لها خاتم خطوبة من دون سابق إنذار؛ ما دفعها فورًا إلى الانتقال إلى منطقة في شرق أفريقيا حيث اللغة السائدة هي الإنجليزية. جلست شو أمام والدتها ترتجف.

"ما هي أفريقيا؟".

غادرت إلى كينيا برفقة ما اقترحته عليها شبكة الويب العالمية باعتبارها أدبيات سفر إفريقية ضرورية: أعمال لكل من بول ثيروكس وريتزارد كابوتشيني وف.اس نايبول. وجدت في هذه الكتب كتابات لمغامرين واضحين أتقنوا الوصف المقتضب ولم يتفاجؤوا من عدوانية كائنات معادية صرخاتها الحديدية – كما كشفت الكتب – وشت عن نية بتفكيك لحوم البشر.

عندما هبطت طائرة شو رولان في مطار جومو كينياتا الدولي في نيروبي، أشعرها أول مسؤول جمركي كيني قد قابلته على الفور بالفزع. لم يكن السبب ظله السمور، أو لون أسنانه غير المتساوية -هذا ما كان متوقعًا. كانت لغته الإنجليزية، كما لو أنّه كان قد نشأ وترعرع في حديقة ساسكس المرقطة. وبما أنّها كانت منغمسة في أنثروبولوجيا البيروقراطيين، تعرّفت على مختلف عينات البشر في كل مكان.

ولكن بعد ثمانية أشهر، كانت شو على متن سفينة كنغروي/غولونغ، في طريق العودة إلى الصين. كان مسؤول حكومي رفيع يتحدث بلهجة شنغهاي قد أقنع السفارة بإرسال امرأة لمرافقة مسافرة يافعة معروفة بـ "السليلة" وتعليمها الأمور الأساسية فيما يتعلق بالصين. كانت شو الأسهل للتحية بها. كانت قد بدأت للتو تشعر بالراحة وهي تمشي بين الجثث السوداء، حيث كانت روحًا غريبة.

أدرج نيورغ ماري نغوبيلا كراكبة. كانت جبهته عريضة، ذقنه مقسوم إلى نصفين، لونه مائل للسمرة، شعره قصير، عنقه طويل، وصدره واسع، قدماه مقوستان وطوله ستة أقدام وأربعة إنشات. حمل هذا الرجل البالغ من العمر خمسين عامًا، والمتحدر أصلًا من جمهورية الكونغو الديمقراطية، جوازات سفر متعددة -أعلام الراحة. كان يقود سيارته إلى الميناء في سيارة خضراء كبيرة تحمل لوحات ترخيص موزمبيقية، ركنها بعدها في موقف السيارات.

قلة من الناس فقط أزعجوه: حجمه.

سلوكه.

مهذب.

بعيد.

كان مرتبطًا بفرق حرب العصابات في أنغولا. والآن بات يعمل بشكل مستقل لشركة "خدمات خاصة". لقد كلفوه بمهمة السفينة، وهو مشروعه الرابع المرتبط بالمحيط. كانت السفينة أصغر مما كان يتخيل. حمل كيسًا جلديًا وحقيبة ظهر من القماش وتوجه إلى الرصيف، ثم توقف مؤقتًا عند رؤية طائر -أخضر، أزرق، أبيض، وبرتقالي -نحيل، يدور طويلًا ويتحدث إلى العالم بينما يبحث عن الحشرات. إنه الطائر الذي منعه، في ذلك الوقت، من مصادفة الكائن الذي سيحول مسار حياته.

أول ما لاحظه الناس حول ديلشكا تارانجيني سودامسو كان بقع نبيذ برقوق على

شكل أرجواني أسفل أذنها اليسرى. اليوم، قد يرون أيضًا يدًا ملطخة بالدماء. كانت هذه المرأة التي يبلغ طولها خمسة أقدام، والتي علق شعرها الأسود الناعم بخمس خطوط رمادية معلقة حبلًا حول وجهها، ترتدي نظارة شمسية بنية داكنة كبيرة الحجم كان لونها أغمق من بشرتها المتلألئة.

غطوا اللون الأزرق والأحمر لكدمة عينها اليمنى. وصفت نفسها بأنها كانت ممتلئة مثل النساء اللاتي كان يرسمهن الفنان بيتر بول روبنس في أيامها الطيبة. كانت قد تراجعت مرتين، لكنها عادت بعد ذلك. عندما اقتربت من مكتب مدير الميناء، استعدت وشدت شفتيها واندفعت من الباب.

كانت لغتها الإنجليزية المتقطعة فيها نوع من النجومية التي أكملت ابتسامتها المشرقة والهشة للغاية. "مساء الخير، اسمي السيدة ديلشكا تارانجيني.. ".

خذلتها الكلمات. حاولت مرة أخرى. "أنا أحاول ألا أبكي"، أوضحت للرجل الذي أصابه التوتر فجأة والذي كان جالسًا على المنضدة. كنت أقرأ كتابًا قبل أيام، لمؤلف من أمريكا الجنوبية... حسنًا، يجعل أحد شخصيته يدخل حانة ويصعد إلى حارس الحانة ويطلب دعوة للاهتمام -كلمة جميلة -الاهتمام، تثير الشعور بالحماية. لذا هل يمكنني أن أزعجك وأطلب منك مأوى؟".

في عينيها، كانت تتخيل سريرًا بسيطًا أبيض اللون، نسيمًا يهب من خلال النوافذ الواسعة، أصوات في الشارع. أضافت: "أحتاج للعودة إلى المنزل لأمي". فتحت الحقيبة وأظهرت جوازين سفر. "أي واحد؟ أتوسل إليك، أي واحد سيعيدني إلى ولاية كيرالا؟".

نظّف الرجل الذي صعقته كلماتها التي لم يسمع بها من قبل حلقه لكي يتكلّم بطريقة "عقلانية"، الطريقة التي لطالما عانى منها البيروقراطيون في كينيا.

"الآن يا سيدتي – يا سيدتي – اسمعيني يا سيدتي، هناك إجراءات ينبغي أن نتبعها، القواعد هي...".

ذبلت أمامه وخجلت. وجعلت دموعها الكحل ينساب على وجهها، مما جعله أسودًا. "رجاء... رجاء..". من يأسه، خلط الرجل الأوراق. العاطفة لم تكن قوته. "ماذا أفعل؟ أنظري... يا سيدتي... ولاية كيرالا؟ أين كانت ولاية كيرالا؟ سيدتي، إذا كان لديك... هل لديك 52 ألف شلن لكابينة في سفينة شحن؟ الصين. من الصين ربما يمكنك... آه.. آه..

ولاية كيرالا؟".

مدّت ديلشكا يدها إلى حقيبتها وأخرجت جميع شلنات كينيا التي حملتها، وحتى القطع النقدية. أحصى الرجل 74793 شلن. قالت "لو كان لدي أكثر من ذلك، لأعطيتك كل شيء. خذ كل شيء". راقبها الرجل المندهش بعناية. لقد أتت من العدم. تحولت إلى شكلٍ أمامه. تدفقت في اتجاهات متعددة مع عواقب غير متوقعة بالنسبة له. نظر إلى سطح مكتبه، وإلى قلمه البيك.

ملأ الاستمارة لها؛ كان ذلك كفيلًا بجعلها ترحل بسرعة. "يدك يا سيدتي"، تمتم لها، "تنزف". قالت له: "نعم، لقد شعرت بلحظة تجلي". أدرك الرجل متأخرًا أنّه كان من الأفضل له ألّا يتكلم. كانت ديلشكا تنظر عابسة إلى الضمادات في يدها. "لقد عضّني بونتيوس"، قالت للرجل. "إنّه كلب دوبيرمان ألا زي".

عمل الرجل بعناية فائقة على استمارة ديلشكا. "الكلب يشفق عليّ"، قالت للرجل. كانت تلك أخبار سارة. فهم الرجل أن المرأة كانت تغادر كينيا. "كيرالا؟"، سألها. "ستكونين سعيدة هناك".

"شكرًا لقولك هذا. يمكنني أن أقبلك".

"لا أرجوكِ يا سيدتي".

تسمّر في مكانه لا يجرؤ على التحرّك حتى لا يشجعها لاتخاذ أي خطوة.

"أرجوك".

بقي صارمًا في موقفه.

حين ذهبت ديلشكا، حضّر لنفسه كوبًا ساخنًا من الشاي.

بصرف النظر عن الكابتن لاي جين وضابط المراقبة، كان هناك رفيق أول وتسعة من أفراد الطاقم: بحار قوي وفريق هندسي بقيادة الكثير من الرجال. كان هناك مؤرخ لطيف لهذه الرحلة تم إرساله من شانغهاي، وهو يحمل جهاز كمبيوتر وكاميرا. كان القبطان قد بثّ فيه الرعب وهو يحذره من التدخل في أيّ من الأمور، وقد كان أيضًا على متن السفينة وأسند إليه طاقم.

كان رجل آخر قد يكون أو لا يكون من جنوب إفريقيا، جبهته عريضة، مهندسًا ثانيًا. كان الطاقم كبيرًا وتضمّن ماليزيين، من بينهم طهاة ومضيفين مهمتهم جمع الركاب.

كان هناك صرير السلاسل وتصلب المواد الصلبة. أضاءت الأضواء الكاشفة على متنها، وتولت الرافعات مثل العمالقة النحيلة فوق سفينة الشحن.

كانت معظم الحمولة الشاي الكيني وبنّ فائق الجودة تسرّبت رائحته من أكياسه المغلقة بإحكام وفاحت في معظم أنحاء السفينة، واختلطت برائحة البحر لتعطي شعورًا بالخفة. كان هناك قسم كامل على السفينة يحمل الخردة لتصديرها.

كان القبطان يراقب عند الفجر حين اقتربت أيانا من السفينة. كان ضوء النهار قد ظلّل عليه، ليبدو لوهلة كأنّه نصف موجود ونصف غير مرئي. نعقت غرابيب الصباح حين بدأت أيانا تقطع المسافة التي فصلت بين عالميها، القديم والجديد.

بدأت بالتنفس بعمق. شعرت بالخوف والاستغراب من حجم السفينة الكبيرة والأجسام الصلبة والزوايا الصعبة والصلب والأصداء التي يصدرها صوت تقطع الآلات واحتكاكها مع بعضها بالسلاسل والحافات التي كانت بحجم الدراجات النارية الكبيرة، بواسطة طبقات الحاويات، ومعظمها من الصدأ، التي هيمنت على المنظر قبل فترة وجيزة في المحيط الأزرق.

عالم من الفولاذ الأزرق والأبيض، وممرات ضيقة، وسلالم صغيرة تؤدي إلى ارتفاعات من دون نوافذ. طفايات الحرائق والحبال والعوامات وطوافات النجاة والأشياء الغامضة التي أصدرت صوت همهمة وفقاعات وصفير ونخير. أنابيب سوداء عملاقة تؤدي إلى ثقوب في الجدار. رافعات صفراء تشير إلى السماء، مداخن، وجهاز يدور حولها وأمامه رجال بزيّ عاجيّ اللون وقبعات متطابقة، كانوا هم الطاقم الذي استخدم بعضهم أدوات كبيرة جدًا.

خلّفت السفينة رغوة الماء من فتحاتها الخفية وراءها وفارقت مرساتها. وفجأة شعرت أيانا في داخلها بغيابها عن جزيرة بيت وعن كينيا وعن نفسها القديمة. كانت المعلمة روان قد أمسكت بمعصم أيانا وقالت لها بنبرة حازمة ولكن فيها الكثير من الاحترام: "القبطان". ثمّ عدّلت من وقفة أيانا. وقالت: "قائد السفينة المحترم، القبطان لاي جين".

كانت أيانا تتفحص الرجل الحزين ذو الكتفين المربعين بعينين بعيدتين وتنظر إلى وجهٍ تساوت فيه الندوب والزوايا والسلاسة التي بدت تحت شعره الأسود. وقف في مكان كان بإمكانه أن يكون محور العالم. "نحن أصدقاء منذ فترة بعيدة". كلمات ناعمة تدفقت الكلمة تلو الأخرى. حدّقت أيانا. كان الجانب الأيمن من وجهه مكتوبًا بعلامات الحروق.

بلا تفكير، سألته: "كيف كتبتك النار؟".

ثمّ التقت أعين الغريبين. كان وجوده عارم وأشبه بانهيار جليدي يهرع إليها، مزدحمًا بها. بعد ذلك، تنافر. شعورٌ خاطف بجوهر الوقت. شعرت بعمق بحماقتها وفمها المليء بالكلمات الخارجة عن السيطرة. وحتى عندما أغلقت عينيها، كانت مسكونة بذكرى وجه هذا الرجل الذي لا يبتسم، ووجوده الذي أثار قفرًا مهجورًا بلا أفق. لا تلال، لا شقوق، لا أشجار. لا نهاية في نظرته. بدا مستاءً من قربه من الأشياء المضطربة التي كانت. تصفح الصمت. انتظرت أيانا تفسيرًا لهذا، السكون.

كان السؤال يحوم حولهما، وشعرت أيانا بألمٍ في معدتها. كانت راحتيها رطبتين. أغلق لاي جين عينيه لمدة نصف ثانية، وتنفس رائحة الورد والحمضيات في الورد والمسك في الورد وبراءة الورد ورحيقه المتنقل. يا له من سؤال، فكر. بات لون المعلمة رولان قرمزيًا بعد سؤال أيانا. نكزت المعلمة رولان أيانا، وهي تهمس بكلمات قاسية، "أنت آخر من يتكلم، آخر من يتكلم!".

طأطأت أيانا رأسها لترى أصابع قدميها المطلية باللون الأحمر وهي تظهر على أطراف صندلها المربوط بالكرتون المربوط بالخرز، فوق أطراف بنطلون جينز محجر وقميص أسود. لا كلمات. إذا لم ترفع المعلمة رأسها، فستستمر أيانا في مشاهدة ألوان أصابع قدميها وهي تندمج في صلب السفينة. ثم، من الممشى، خطى على الأخشاب، ضحك شديد. أصوات أخرى. كتيبة من الرجال والنساء في الملابس الرسمية. كان هذا هو حفل انطلاق رحلة أيانا الرسمي.

اصطف البيروقراطيون الكينيون والصينيون لالتقاط صور بلا نهاية مع أيانا. سرعان ما اندمجوا في مجموعة من التهنئة بالنفس. قدّم الدبلوماسي الكيني الرفيع لأيانا هدية لتقديمها لشعب الصين من أهل كينيا -قطعة من الخزف الصيني تم إنقاذها من المحيطات، وهي من بقايا خردة عثر عليها للتو. كانت ملفوفة باللون الأحمر مكتوب عليها "صنع في الصين" وموجودة في صندوق خشبي باللونين الأسود والذهبي من نسيج ناعم مصنوع في ماكويني.

سيتم تأمين الطرد في قاعة زعيم السفينة. بعد الخطب، تليها طقوس الصباح الباكر التي كانت طويلة وتسببت بالامتعاض على بعض الوجوه، وقلصت الكلمات على ألسنة

أخرى، تراجع لاي جين. المزيد من الصور مع أيانا. انزلق حجابها أبعد وأبعد عن وجهها، وكان من الأفضل السماح لمرافقتها بالتقاط جمال "عينيها اللوزيتين"، جفناها أحادية الشكل على جلد بني ذهبي غامق. المزيد من الخطب. أكد مسؤول رفيع المستوى من السفارة لأيانا لعظمة الصين.

فكّرت أيانا ببحارة من ستمائة عامًا، لم يكونوا ليفكروا بأنّ هذا سيكون مصير مخطوطتهم. فكرة جريئة أخرى. استدارت بجسدها باتجاه باب السفينة. حين كانت تنتابها الرغبة بالهرب، لمست يدٌ معصمها. تنهّدت. كان القبطان. هزّ رأسه. ثمّ ابتسم.

ضاغطًا على معصمها؛ تبعت خطاه. فصلتها كوّة عن الحفلة مؤقتًا. أمسكت أيانا الهدية بيد وعدّلت حجابها باليد الأخرى. راقبا معًا الحفلة المرتجلة تصل إلى نهايتها. انتظرا دقيقة أطول هناك. ثمّ تنهّد الرجل. "الآن"، قال لها.

تبعت أيانا القبطان حتى يتمكنا من الوقوف في الحفل النهائي حيث تمنى لهم البيروقراطيون رحلة آمنة. نزل صانعو البهجة بشكل متموج، وحرصوا على دعم بعضهم البعض، وإظهار دليل على قدرة الشمبانيا الرخيصة على إقامة علاقات حب بين دولتين غير متساويتين.

غابت أيانا عن نظر المعلمة رولان التي كانت تتحدّث مع رئيسها في السفارة. كانت تبحث عنها على سطح السفينة حين لمحتها واقفة مع القبطان بقربها. أسرعت لتحشر نفسها بينهما. بعد أن غاب البيروقراطيون، قادت أيانا على درجات عالية من الصلب وأسفل ممر ضيق. عبرتا قرب امرأة التفتت أيانا صوبها، كان شعرها الذي لاعبته الرياح مثل شعرها. "أين أنا؟". توقف. كان فستان المرأة الأبيض ملطخًا؛ عيناها مختبئتان خلف نظارات شمسية سميكة. لمعت على صدرها، فوق ثدييها الكبيرين المتوترين، قلادة من الفيروز والتيجيرا. كانت تتمسك بحقيبة نيلية اللون كما لو كانت كائنًا عاطفيًا؛ سيجارة رقيقة بيضاء غير مضاءة معلقة بين أسنانها، على الرغم من علامات "ممنوع التدخين".

غادرت عشرين روحًا على متن سفينة كينغروي/غولونغ وهي تبحر عبر ميناء كيلينديني في مومباسا، مع ارتفاع المد في منتصف الصباح، على الرغم من الأمواج الكبيرة والرياح الباردة التي انفجرت في فم الميناء. اصطحبهم قبطان في الميناء بعيدًا عن شواطئ كينيا. بدت السفن الأخرى كأنّها تلوّح الوداع. ظهرت سفينة تنين الأمة. في الأفق، نجمة

الصباح. في المياه الدولية، نُكّس علم كينيا الأحمر والأخضر والأسود والأبيض.

[37]

في أوّل أمسية على متن السفينة التي كانت تصدر أصوات صرير وهدير، تفوح منها رائحة الديزل والنفط، وبينما كان الركاب بحالة فوضوية غير مبالين بقطعة بلاستيكية تذوب كان من المفترض أنها تمثل زهرة الزنبق، رافقت المعلمة رولان أيانا إلى حجرة القبطان العارمة بالفوضى، مع العديد من اللوحات وصور السفن.

كانت مشاعر أيانا خارج السيطرة كطائرٍ غير قادرٍ على الاستقرار في مكان، لذا حاولت أن تشغل نفسها بالتركيز على يد المعلمة رولان على ذراعها. عندما جلستا، حدّقت أيانا ببقعة على غطاء الطاولة بدت أشبه باللطخة. كانت الإعدادات عليها كافية لشخصٍ واحدٍ فقط: كوب واحد ووعاء على طبق وعيدان على حامل وملعقة خزفية. نظرت أيانا إلى الطعام في وسط الطاولة. لم يتحرك أحد حتى أشار القبطان. "من فضلك"، قال.

شعرت بالصعوبة تجاه فهم كل إيقاعات اللغة الإنجليزية، الاختلافات اللونية التي لم تتخيلها على الإطلاق، كانت أيانا غير متأكدة فجأة من فهمها للغة. أصابها الذعر من ألا تستطيع أن تكتسب لغة أخرى كذلك. كانت تستمع بإمعان، حريصة على ألا يفوتها أيّ شيء. وكانت أيضًا تراقب المعلمة رولان من تحت رموشها الكثيفة، وتحسدها لتوازنها. التفتت المرأة إلى أيانا، وأظهرت لها العيدان السوداء الرفيعة التي ستستخدمها لتأكل من الآن فصاعدًا. التقطت أيانا ببطء العيدان، وأثناء ذلك أوقعت ملعقة الحساء المصنوعة من السيراميك. اصطدمت بالأرض وتسمّرت أيانا في مكانها.

لم يبدُ أنّ أحدًا قد لاحظ سوى المعلمة رولان التي رمقتها بنظرة قاسية وهي تشير إلى الطعام: "المعكرونة بالبط المحمصة مع الفلفل الأخضر والبيض والزنجبيل... لكِ . . اتسعت عينا أيانا، تلك الأشياء السوداء الباهتة ذات المراكز الخضراء التي تنبعث منها أبخرة كانت بيضًا؟ "الفول السوداني المسلوق مع صلصة الصويا والمخللات والخيار، وخاصةً بالنسبة

لك، يا ضيفة الشرف، ساق البط".

حدّثت أيانا نفسها أنها إذا استسلمت لرغبتها بالاندفاع إلى البكاء، فإنها ستخون جزيرتها وأمتها. لقد كانت جائعة. تفحصت الوجبة. اعتقد لاي جين أن وصف معناها سوف يساعد. قال، "قرن البيض -بيدان. بطة. أعدت على مدى عدة أشهر".

الكلمات. كانت لديها القوة لإغلاق الأبواب التي لن يتم فتحها أبدًا في هذه الحياة.

حدّقت أيانا بالبيض، متوقعة أن ينفجر. استدار لاي جين نحوها لكي يضع عيدانه في الوعاء، وبحركة واحدة، التقط كمية من البيض وقرّبها إلى فمه. أمسكت أيانا بعيدانها كما لو أنّها كانت شوكة. راقب لاي جين أيانا تتحارب مع وجبتها، عيناها تبرقان. نظرت أيانا إليه. التقت أعينهما. ولوهلة، كانت مجددًا الفتاة الصغيرة التي تجلس على حافة غابة أشجار المانغروف، خوفًا من القادمين. بدافع طفولي، انتظرت القبطان ليبعد نظره أولًا. فوجئ مرة أخرى بشعوره بأنّه يعرفها – كانت في الوقت نفسه معقدة ومتوازنة، مثل روائح الكمثرى والخشب. مثل لها رائحة وردها الخفية.

رفّ بجفنيه. هل كان عقله من يستحضر الروائح؟ ابتسم. تحرّكت يديّ أيانا فوق الوعاء، وأصدرت معدتها صوتًا. أرادت أن تضع أصابعها داخل الوعاء لكي تخرج الطعام، لكنّها راقبت المعلمة رولان وهي تأكل البط على مهل، عيدانها تعملان مثل إبر الحياكة، ولا شيء يخرج من فمها: لم يكن هناك أي لطخة ولا حتّى أيّ صوت مضغ.

أحضرت بعدها المضيفة وعاء شوربة الزلابية مع المزيد من الشعرية. شعرت أيانا باليأس. كانت الملعقة التي أوقعتها لغرض تناول هذا الحساء. التفتت أيانا إلى وعائها. أخذت قطعة من البط ووضعتها بسرعة في فمها. قوام جديد. ناعم. يا لها من نكهات. حاولت أن تلتقط الشعرية، لكنّها انسابت من بين عيدانها. أسندت أيانا عيدانها على الوعاء وراقبت الحساء. مدّت يدها لالتقاط العيدان التي باتت بمثابة أعدائها الآن وهي تصوّبها نحو الخضار. حاولت أن تستخدم العيدان لكي تغرف الطعام. فستق، مخلل، حلو، بارد حار، مر، أتت النكهات إلى فمها كأنّها نسمات وليس مواد. ابتهجت بالطعام.

"ربما شوكة؟ ونعم، ملعقة أخرى". أشار قائد السفينة إلى المضيفة. نظرت المعلمة رولان بدفء إلى قبطان السفينة، وقد تأثّرت بلطفه. الآن نظر إليها، وكانت أول من ينظر بعيدًا.

ابتسم عندما التفت إلى وعائه.

زبد.

صرخة تذمر أصدرها الجن في الليل. بعد هدير المحرك، مع رائحة الديزل العالقة بالخياشيم، وصوت المعادن فوقها وظلالها، وصرير الأشباح، وكدح الرجال غير المرئيين، سمعت الترانيم من تحت الماء. والآن، لو طُلب من أيانا أن تنحت كل هذا هذه باللغة الجديدة التي طُلب منها أن تسكنها، فستظهر كـ "ذاكرة".

كانت شو رولان تحضّر منهجًا لإعداد أيانا لـ "وصولها الميمون". في غضون أربعين يومًا، يجب أن تلمّ السليلة بمعرفة ما لا يقلّ عن خمسين حرفًا من الأحرف الصينية. في الصباح الأول، ابتسمت المعلمة رولان لأيانا وظهرت أسنانها النظيفة. الآن سأريكِ. الرمز التصويري: إفريقيا. الصوت: فاي زهو. كتبت المعلمة رولان الكلمة. فاي تعني لا شيء، أمر خاطئ، ناقص، بشع، منفي. زهو تعني البلاد أو الهوية أو الدولة. إن جمعتِ الكلمتين، معناها غير موجود. أصدرت أيانا قهقهة خفيفة. "آه عزيزتي". توقف. "والآن نكمل". أصدرت مجموعة من الأصوات. "الصين"، صاحت أيانا. "مملكة وسطى. صحيح. ممتاز".

راقبت أيانا. استمعت أيانا. تخيّلت معني كلمة معلمة في الكيباتي: أوجيناميزي. كابوس. اسم.

خلقت قطرات المطر المتناثرة تيارات صغيرة غاضبة في الأخاديد المعدنية: في الأعلى، البحر رمادي؛ في الأدنى، موجات بيضاء تصدرت. تبدّد الضباب والزبد. نحيب الجن قبل الفجر. سفينة عثرة ومتصدعة. خطوات الصدى. ظلال الحركة. اعتدت أيانا على حياة الظلال المضطربة من جزيرتها، ولم تتفاعل مع أصوات السفينة التي لا يمكن تفسيرها، أو الصور الظلية الغريبة التي ولدتها، والتي كانت تسير في ممرات ضيقة بدون مرافق. تحت الضوء، لا يهدأ السفر في مساحات صغيرة.

خطى تحت سطح السفينة.

اختبأت أيانا، خائفة من أن يتم القبض عليها. كان من المفترض بها أن تحفظ الرموز التصويرية الجديدة. انحنت ورأت قائد السفينة يتجول ويداه خلف ظهره وعيناه مركزتان

على الماء. رقص طاقمه في دوائر واسعة من حوله. لم يصرخ أبدًا بأيّ أوامر. ظهر كشبح، وغادر قبل أن يتم التأكد من وجوده. فكرت أيانا في علامات النار على وجهه. كانت مثل النقش، رسالة منحوتة في الجلد. تراجعت أيانا بعيدًا عن الممر الحديدي. مشت إلى الوراء، انزلقت عبر الممر إلى باب مقصورتها. فتحته واختفت في الداخل. بينغ! ساعة محيي الدين.

توترت أيانا. انحسرت الخطى.

البحار الغامضة.

في الصباح، وجد الركاب أن الطاقم كان لديه نسيج من أسلاك شائكة في جميع أنحاء منصة الطقس: أداء عام وقائي للدفاع عن السفينة ضد القراصنة. "تدابير السلامة" كان ما كتب على اللافتة. اضطر الركاب للقيام بأداء تجريبي على استخدام قوارب النجاة في بعد الظهر ذلك. عندما انطلقت أجهزة الإنذار، هرعت جميع النفوس على متن الطائرة إلى نقطة التقائهم للتدرب على البقاء على قيد الحياة.

كانوا يرتدون سترات برتقالية زاهية اللون مسلحة بالصافرات والأضواء. ارتفعت الأسماك الطائرة من البحر، لامعة مع أشعة الشمس المنعكسة، ثم سقطت مرة أخرى محدثة بقع صغيرة في المياه. حالوا أن يشغلوا أيانا. ارتاحت الطيور على الحاويات للراحة قبل استئناف رحلات الهجرة.

لحظات هادئة.

كانت فكرة الكارثة بعيدة عن ذهن أيانا. تم تعيين المعلمة رولان وأيانا في نفس قارب النجاة. وقفتا مع بعضهما البعض.

انطلق جرس إنذار آخر ليحضّرهم لتمرين ما إذا كان هناك "فائض رجال" على متن القارب. صاحت المرأة الصاخبة، التي كانت ترتدي اللون الوردي، للنظر في عبارة "فائض نساء". لم يهتم أحد. كرّر عضو الطاقم المدرّب عن ظهر قلب: "للبقاء على قيد الحياة، يجب أن تحرسوا حياة بعضكم البعض".

انتهى التدريبات. انتشر الركاب وعادوا إلى حجراتهم الخاصة.

في الليلة الثانية بعد العشاء، طُلب من الركاب أن يبقوا في غرفهم حفاظًا على سلامتهم بينما يقوم الطاقم بـ "تحقق تقني" للتأكيد على سلامة عمليات السفينة. لم يسأل أحد لماذا. انتظروا بانضباط جرس الإنذار الذي أعلن ضرورة إخلاء المكان. بعد أن انسحب الركاب

إلى حجراتهم، حين أبطأت سفينة كينغروي/غولونغ سيرها، استمعت أيانا للأصوات، وهي تحاول أن تكوّن تصوّرًا عمّا كان يحدث. سمعت هدير المحركات السريعة، أصواتًا مكتومة، وتضارب أشياء كان يتمّ جرّها على سطح السفينة. وفوق ضجة محركات السفينة، وصراخ أجهزتها، سمعت أيضًا فجأة الصمت البشري.

بعدها بقليل، شعرت أنّ سفينة كينغروي/غولونغ تعود إلى سرعتها الطبيعية. ماذا كان يحدث؟ لم يتحدّث أحد. عكس غياب الثرثرة على متن السفينة وحدة القبطان الجليدية. كانت برودته مطمئنة، كما لو أنّ كلّ شيء كان بيد إله لا يتحرّك ولا يتأثر.

والآن كانت أيانا داخل حجرتها لتصلي صلاة الظهر. فكرت بانطباعاتها وهي تتمسّك بثوب الصلاة كما لو أنّها في جزيرة بيت. تنفّست الصعداء لتستوعب كل الارتباك الذي شعرت به وكل أحداث بعد الظهر. دفنت رأسها على الأرض، دفنت رأسها على سجادة صلاة والدتها، وفركت وجهها برائحتها، رائحة الورد، وما حملته من ذكريات ومعانٍ. حين هزّت منيرة أيانا في يومهما الأخير معًا لكي توقظها في لامو، كانت الليلة كما لو أنّها تركت آثارًا على جلد والدتها. عانقتها منيرة وهدهدتها. "اكبري يا لولو". ضغطت أصابع أيانا على جلد منيرة.

شاعرة بالعار من يوم الخميس ذاك، همست أيانا في أذن والدتها: "ارسمي لي".

"الآن؟"، سألت منيرة.

رفعت أيانا ثوبها، لتظهر صدرها وظهرها. أسرعت منيرة لتحضر الحنة. كانت قد مزجتها بالأعشاب وأضافت ماء الورد. عادت لكي ترسم بعض الأشكال على جسد ابنتها. لامست منيرة أخيرًا علامات الحروق على جسد ابنتها الناتجة عن يوم الخميس ذاك. سالت من عينيها الدموع وهي ترسم على جلد ابنتها. بكتا معًا. رفعت أيانا نفسها عن السجادة ولمست رسومات أمّها بأصابعها. كانت كلمات. نظرت أيانا وهي تتأمل من خلال فتحة، وصول قطيع مثير للإعجاب من الطيور الصغيرة المرقطة باللونين البني والأبيض، والتي استقرت على رافعات السفينة وقضبانها ورادارها. زيارة الزهور. خارج مقصورتها، لاح طيف المعلمة رولان. حضّرت أيانا نفسها لمجموعة جديدة من الشكاوى. الأخيرة منها. كانت أيانا تتحدّث بصوتٍ عالٍ للغاية، وكانت كثيرة الإيماءات. غالبًا ما انتفخت عينيها مثل الضفدع. عبست أيانا كثيرًا. لم يكن ينبغي بالسيدات العبوس. كان بشرتها بلون لحم الخنزير المحروق. صوتها الرجولي لم يساعد كثيرًا. السيدات لا تنبعث منهن كذلك هذه

الرائحة النفاذة. لم تكن أيانا متعلمة بما يكفي. قال المعلمة إنّ أقاربها الصينيون كانوا ليشعروا بالخزي منها لو رأوها. لكنّ المعلمة الذكية أخفت الإهانات في أسئلة غير مباشرة: "أليس أمرًا بربريًا أن يكتب أحدهم على الجلد؟".

المعلمة حين تتحدث بالسياسة: "إنّ إنجازات بلادك قليلة جدًا وتكاد لا تُذكر. هل تشعرين بالعار إزاء ذلك؟".

المعلمة حين تتحدّث بالأمور الخيرية: "هل تعرفين ما هو الجوع".

المعلمة حين تتحدّث بالفلسفة: "هناك أنواع مختلفة ممّن يصوّبون السهام، بعضهم يجيد ذلك والبعض الآخر لا".

دروس في الجمال: "لماذا أنت أطول من الرجل ولكن لست بنفس مستوى الجمال؟".

تعريف بالمشرق: "حين أراك، أفكر بالهندن".

توقف.

"هندن. هل أخبرك عن معنى الكلمة؟"، سألت المعلمة رولان. ابتسمت. "حسنًا، سأخبرك". قالت إن الكلمة وصفت الفوضى البدائية، وهي مظهر من مظاهر الاضطراب الناشئ عن الظلام السحيق. "إنه جنون معين". صفقت المعلمة بيديها ودرست رد فعل أيانا.

تقلصت أيانا في الداخل. أصبحت نظرتها كأنّا تصطاد. إعلان معركة غير معلن، لكن المعركة كانت لصالح المعلمة رولان؛ كانت هي من يملك الكلمات. كلمات مثل "هندن". لم يكن بإمكان أيانا أن تتجاهل الكلمات. الكلمات الصورة. إصلاح الصور الظلية للعالم الخاص بها. "أحتاج إلى تأدية الصلاة"، أبلغت المعلم رولان، وضبطت حجابها لتغطية وجهها. هربت من مكتبها لتعود إلى مقصورتها للتنفس. قرأت المعلمة رولان "إفريقيا" -كان من الأفضل لأيانا أن تفهمها. اليوم كانت ريزارد كابوتشينسكي: ظل الشمس.

تناولوا الغداء في وقت متأخر. حدقت أيانا في وشم التنين والجمجمة الذي وضعه ستيوارد على ذراع علوية مكشوفة وهو يضع الأطباق بدقة للركاب الذين تلقوا الطعام بصمت. سمك مطهو على البخار مع الأرز، طبق من الخضار المطبوخة المزينة بالفلفل المقطوع على شكل أزهار. مرق سمك. أرز: عذاب أيانا الجديد. وبطبيعة الحال، تنهدت من الداخل، وكانت هناك قواعد لتناول هذه الأطعمة كذلك.

قالت المعلمة رولان: "كلي الأرز والوعاء مرفوع إلى الأعلى ولا تصدري أصواتًا وأنتِ

تأكلين". تجعّد أنفها الصغير عند مجرّد التفكير بعدم إصدار أيّ صوت. تدلّت حفنة من الأرز من عيدان أيانا السوداء، بانتظار أن تقودها إلى فمها. في منتصف الطريق، وقع الأرز من بين العيدان. تأفّفت المعلمة. ضغطت أصابع أيانا ولفّتها حول العيدان، رافضة أن تجعلها تستسلم، وصفعت يدها كلّما حاولت أن تضع بعض الطعام في فمها بأصابعها.

"ليس أمامنا وقت"، قالت المعلمة همسًا.

"أحتاج أن آكل"، أجابت أيانا.

"تعلّمي أو تضوري جوعًا".

هزت الأمواج القارب. تجول الكابتن لاي جين وسط الفوضى. توقف مؤقتًا وانحنى للركاب، غمغم شيئًا ما على المرأة الصاخبة المرتدية ثوبًا أخضرًا جديدًا. كانت لا تزال ترتدي نظارتها الشمسية وتلتقط صحنها. كان القبطان ينظر إلى طاولة أيانا. تشوان تشانج، تذكرت أيانا، وهي تتشاجر مع وجبتها، واستدعت أحد الرموز التصويرية ومعناه قائد. تذكرت الليلة الماضية. كانت أيانا قد خرجت من مقصورتها لتختبر البحر ليلًا. عندما نظرت إلى الأعلى، كانت قد لمحت القبطان أثناء دوره في المراقبة، وجهه للأمام، ونظرته مثبتة على الماء، جسمه مستقيم وطويل القامة.

نداء الأعماق: شاهدت رجلًا غيّره البحر.

[39]

من كرسيه، راح قائد السفينة لاي جين يطوي ويعيد طي منديل أبيض. عكس فراغه هذا صورة ضبابية. قبل أن تصعد الفتاة إلى سفينته، كان قد تدرّب على قول: "نحن أصدقاء منذ زمن طويل"، كما أوعز له بلكنة شنغهاي وهو يتحدث عن الشعور بالفخر والعظمة والاستمرارية الكونية التي كانت للصين. لم يكن كل ذلك يعني شيئًا له. لكنّ لكنة شنغهاي أصرّت: "هذا هو واجبك تجاه التاريخ".

"نحن أصدقاء منذ زمن بعيد"، كرر لاي جين نفسه لنفسه حتى أنهى مشاعر الاستياء.

حين اقتربت السليلة من السفينة – مرتدية اللون الأسود آتية من البوابة كما لو أنّها من ذاكرة غير واضحة – وصله عطرها الذي فيه طبقات مختلفة من رائحة الورد قبل أن تصل هي. غطّاها ثوب أسود فيه تفاصيل فضية على جوانبه، وقد أخذ شكل جسدها. تفحّصت عيناها نصف المغطاة العالم حولها.

حضورها: مسافته.

لاحظ السوار الذهبي الوحيد في يدها وساعة رجالية كبيرة على معصمها. كان معصمها الآخر عاريًا. كانت هناك علامات وأشكال وخطوط شبيهة باللون الأحمر والبني والبرتقالي تحت الضوء على ذراعيها. فكر في شى قنغ تشيانغ وى – وردة نحيلة تغذيها العزلة السرية. ثمّ توقفت أمامه. مدّت يدها إلى ذقنه. انحنى ونسي الكلام. سعى وراء عيون مؤطرة بقطعة قماش سوداء وعلى الرغم من أنه كان مستعدًا، فقد شعر بالدهشة عندما بادلته النظرة.

كانت هناك حكمة غامضة مكتوبة في عينيها البنيتين الشاحبتين. اندفعت هذه الحكمة إليه مثل موجة قبل أن تعبر. نظر إليها لمدة أربع ثوانٍ طويلة، ثمّ فصلتهما المسافة. كان يريد أن يهتف، ما أنت؟ ثم تذكر أن يعلن على عجل، "نحن أصدقاء منذ فترة طويلة". بقيت نظرتها على الجزء المشوه من وجهه، الذي تظاهر آخرون بعدم رؤيته. فتحت فمها. كان عليه أن يرمش مرتين لسماع سؤالها: "كيف كتبتك النار؟". قبل أن يتمكن من الرد، تذكرت أين كانت. تذكرت أنّهما غرباء.

لطخت بقعة سوداء بشرتها. حرّكت أصابعها، وثنت رأسها. تلعثمت بكلامٍ ما، ثمّ صمتت صمتًا ثقيلًا. قال لنفسه على الفور إنّها أكثر الأشياء غرابة التي شاهدها على الإطلاق. ولكي يضطر أن يتحدّث معها بالإنجليزية، لم يكن متأكدًا من أنّه كان لا يزال يتمتع بالسيطرة الكاملة على المسافة بينهما. كان قد تحول بوجهة نظره الآن، لينتقدها. كانت نحيلة جدًا، غصنًا متدليًا على صفصاف يبكي، بل أشبه بغصين لم يكتمل. لم تكن مهمة. غيّر زاوية رقبته كما لو أنّه يصرف وجودها. ولكن بعد ذلك تسببت الريح بأن ينزلق حجابها عن وجهها، وصعقته رؤية وجه شفاف غير مألوف، مع عظام عالية للذقن، وذقن مدبب، ورموش كثيفة مجعدة، وأنف دقيق، وشفتان ممتلئتان على فم صغير، ما خلق صفًا مثاليًا من الأسنان، وبشرة ذات لون بني ذهبي دافئ.

في وقت لاحق، من مكانه الذي جعله في مأمن من البيروقراطيين، راقبها وهي تحاول التهرب من المسؤولين، كما لو كانت غزالًا مكتومًا. فهم على الفور حين مال جسدها نحو الهروب. من غير تفكير، خرج للوصول إليها وأخذها إلى مخبأه.

من هناك، شاهدا موظفي الخدمة المدنية بفرح كامل، وسمع قلبها ينبض. شعر بقلبه يتوحد بقلبها. شعر أنّه مسكون بروائح من عوالم أخرى، وأنوثة شابة لم يكن يفكر بها كثيرًا، وشعر بخوف مفاجئ، لأنّه على الرغم من خياراته وتفانيه الزاهد في طقوس البحار، وجد نفسه مفتونًا بها.

لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للوصول إلى شيامن، طمأن نفسه في ذلك الوقت، وطمأن نفسه الآن.

قرقعة صحون.

بدا لاي جين بالأكل عندما قدمت المضيفة وجبته. كان الطعام مثل الركاب الآخرين ولكنّ حصّته كانت أكبر. نظر إلى المرق ولاحظ لونه وكثافته، وهو يحاول أن يبقى متماسكًا.

بكى جنّ الليل.

اقشعر شعر بدنها وعمودها الفقري. شعرت بالحرارة على ظهرها. ظل على شكل شخص يستخدم الضوء المستعار من وميض الليل المظلم. لم تستدر لتنظر. انحنى لاي جين على الدرابزين. لقد استمعا إلى البحر، والقمر.

كان قد سمعها تنتحب. قال: "مرحبًا". ظهرت نبرته كهمس طويل، وليس الإغاظة التي كان ينويها، وفاجأه ذلك. بقيت صامتة. راقب البحر معها. الأشياء التي تشاركاها: التظاهر بالاختيار، القشرة الوهمية للاحتفال، الإرادة الإنسانية ضد قوى المصير ولعب الأدوار. هي سفيرة وفتاة المصير تتحرك كما قيل لها؛ إنّه قائد سفينة الرحلة التي استولوا عليها. استولى عليها. ني شي شي؟ طلب المحيط.

من أنتما؟ سأل المحيط.

في وقت لاحق من تلك الليلة، في غرفته المظلمة، حلم لاي جين بالنار. استيقظ. أطفأ مصباحًا واستخدم ضوءه في النظر إلى زاو ووكي، حيث رأى البرتقال والصدأ والحبر الأحمر -ألوان الدم.

لم يعد للنوم.

[40]

رطم! رطم! رطم! ترا تا! قسم صوت الأسلحة الآلية البحر عند الساعة الثانية فجرًا. كان لاي جين قد دسّ نفسه للتو في فراشه تحت الشراشف في حجرته عندما طرق أحد الضباط الرئيسيين في مراقبة الملاحة بابه. قفز لاي جين من سريره، لبس قميصًا بسرعة، وسحب سرواله إلى الأعلى وهو يخرج مسرعًا ويسأل: "كم؟".

"ثمانية يا سيدي".

كانت خراطيم الحريق مثبتة بالفعل وتطلق النار على الجانبين، وكانت الأنوار مشتعلة على متن السفينة. أذاعت أجهزة الراديو الخاصة بالطقم الاستراتيجيات والأسرار. على الرغم من ذلك، في لحظات كهذه أصبح كل شيء واضحًا ومعروفًا، وسمع لاي جين حتّى صوت تنقيط الماء من صنبور مفتوح في إحدى المقصورات. كان جسمه مفتوحًا وجاهزًا وغير خائف. ثمانية زوارق سريعة للقراصنة. لم يكن يمانع؛ كان غير مبال بالموت أو الحياة. لكنه الآن مسؤول عن حياة الآخرين.

انزعاج.

لم يكن لاي جين يتوقّع الاعتداء، وبالتأكيد ليس في وقت الرياح الموسمية الجنوبية. فقاعة! اشتبه لاي جين بقذيفة صاروخية. لكن السفينة كانت مستعدة. عرف طاقمه التدريبات. وكان البعض منهم قد جمع جميع الركاب وأرشدهم إلى غرفة آمنة في الطابق السفلي. كانت مجموعة أخرى ستهتم بالترتيبات الباقية للسفينة.

كان هناك صراخ وقصف خارج مقصورتها. استيقظت أيانا من حلم كانت تجري فيه وراء الشاعرة والمتصوّفة رابعة العدوية. تعثرت عند الباب، والتفت ملاءة حول جسمها. وعندما فتحت الباب، لم تتعرف على الرجل الذي كان يصرخ على الجانب الآخر. أمسك معصمها، قائلًا، "إنها حالة طوارئ! تعالي معي الآن".

سمعت أيانا صفّارات الإنذار ومكبرات الصوت، وامرأة تقول في مكان ما "آه اللعنة".

كانت تترنح وتتعرق، ولكنها سمحت لنفسها بأن تُجرّ باتجاه غرفة محرك السفينة. خدرة. حافية القدمين. أوقفت إصبعها الصغير على شيء وصرخت. قال الرجل: "أسرعي يا آنسة".

باب معدني أخضر داكن.

ثقب في الجدار الصلب، وأضواء ضعيفة في الداخل.

دخلت أيانا رابضة. شعرت بالدم في قدميها. ومضت الأزرار والأضواء من المعدات خارجًا في الغرفة الطويلة. أرفف محملة بالطعام والماء ومواد الإسعافات الأولية والمزيد من البطانيات.

بينما كان ثلاثة من أفراد الطاقم يستعدون لسحب الباب الصلب السميك، دخلت امرأة قوة البنية. قفل الرجال الباب بثلاثة أقفال. نظرت المرأة ديلشكا في أرجاء الغرفة وهي ترتعش. كانت ترتدي ثوبًا أسود لامعًا وضيقًا يصل إلى ركبتها، وفوقه روبًا رائعًا وأنيقًا من الحرير الوردي، وحذاء غير متناسق أبدًا مع ملابسها. بدت الضمادة البيضاء حول يدها مثل إكسسْوار لأزيائها. كانت هناك دموع على وجهها. حين اندفعت بحثًا عن الأمان، ترسّخ لدى ديلشكا اعتقاد بأنّها رأت رجل بعيدًا – لكن كان يبدو مرئيًا لها فقط. انفصل عن الفوضى وجثم كما صخرة عملاقة قديمة في نهر عاصف. كانت هناك بندقية عند قدميه.

لم يكن هذا ما فاجأ ديلشكا ولا سترة النجاة من الرصاص المموهة التي ارتداها؛ كان مشهد طائر صغير يرفرف في يده، حيث سكب عليه حنانه. تجسست عليه. ربما رآها لأنه أغلق بابه مرة واحدة. ولكن في تلك اللحظة، زال كل خوفها. عندها فقط، قامت مجموعة أخرى من البشر الذي كانوا يهرعون إلى الغرفة الآمنة بسحبها معهم.

. . .

تحدث إليها صوت شاب: "لا تخافي".

نفحة ياسمين ممزوجة بالورد.

أدارت ديلشكا رقبتها لتنظر ويصبح أنفها بمواجهة جلد أيانا.

وجدت يد أيانا وأمسكت بها.

كانت تنتحب قليلًا وهي تهمس: "لقد قبّل عملاق للتو طير صغير مجروح".

أمسكت أيانا بيدها.

اللمس، مثل الروح، لا يمكن أن يكذب.

إنها مرساة في حالة عدم اليقين، مثل بعض الأصوات التي تصدرها الكلمات: عملاق. قبلة. طير.

انتظرت أيانا.

مسحت ديلشكا عينيها. قالت لأيانا: "تعالي واجلسي معي أيّتها المخلوقة الرائعة".

تحرّكت أيانا. جلست المعلمة رولان على الجانب الآخر من ديلشكا مرتدية ثوب نوم أحمر، شفتاها شاحبتان وكذلك وجهها. أمسكت أيانا بملاءة سريرها وهي تتوجّع اشتياقًا لوالدتها ومحيي الدين وجزيرة بيت بحرارةٍ كبيرة لدرجة أنّها كادت أن تتقيّأ. تحرّك إصبع قدمها الصغير المحقون بالدماء.

"اسمي ديلشكا تارانجيني"، قالت السيدة لأيانا. "ولا بدّ أنّ هذا ميز ريو لين — يبدو برازيليًا. أنتما أيضًا ممتلئتان كالنساء هناك، هل أنتما من البرازيل؟ تبدوان دائمًا مشغولتين".

مدّت يدها إلى يد أيانا. لمس. اتصال. صلة. خدّر ذلك الخوف، وصرفهم عن الضربات القادمة من العالم الخارجي. اختفى الوقت. كان صوت أيانا ناعمًا. "ما الذي يحدث؟"، "ربما قراصنة"، قالت ديلشكا.

"يقتلون؟"، سألت شو رولان.

عدّلت ديلشكا ثوبها وبدأت تجدّل شعر أيانا وهي تتأمل: "لدينا الكثير لنحاول القيام به... أليس كذلك؟ سيكون من الخطأ الخروج من العالم الآن. من الضروري أن نطلب أشياء جيدة في الحياة. لقد أبلغت الله... هل أتحدث كثيرًا؟ أفعل ذلك دائمًا عندما أكون عصبية. ها ها. يا لها من مشاجرة، من شأنها أن تولّد صرخة كارثية. مثيرة بشكل رهيب، مخيفة بشكل رهيب. القراصنة -لا يريدون قتل الرهائن، فقط يطلبون منهم جمع التبرعات. منظمون جدًا".

تعثّر صوت ديلشكا. تخيّلت أن يتصلوا بزوجها لطلب فدية. كان ليدفع فقط حتى يتمكن من الظهور كبطل، ويلتقط الصور. "أنا أفضل الموت"، قالت ديلشكا لنفسها. استدارت أيانا باتجاه ديلشكا التي اتجهت أفكارها نحو العملاق الذي رأته. وجود كهذا لم يعاني من الخوف. كانت لتؤمن به. لقد أنقذ طيرًا من الخوف. رفعت ديلشكا وجهها لتشم

كتف أيانا. رائحتها.

"عطر جلاب جال؟".

"ماذا؟".

"ما هذه الرائحة؟".

"إنّها لأمّي".

كانت أيانا بحاجة إلى أن تقول اسم أمّها، أن تستخدمه كتعويذة.

"منيرة".

شعرت بالراحة.

اسم أمّها كتعويذة.

"يجب أن أحضر بعضًا منه لنفسي. لماذا أنتِ ذاهبة إلى الصين؟".

"للدراسة"، أجابت أيانا.

"مذهل".

فركت المعلمة رولان عينيها وأنفها. كانت كلّ تلك الفوضى تضغط على جمجمتها. تاقت المعلمة رولان للانسجام والهدوء والنعومة. تاقت للنظام. اشتاقت لمنزلها، لقطتيها السياميتين، وثبات الأرض، وأمها. ألن تتوقف هذه المرأة عن الكلام؟ قامت بتعديل نفسها لتضرب ديلشكا بكوعها، كما لو أنّها لم تقصد ذلك، وقدّمت لها اعتذارًا مزيفًا. فعلتها مرة أخرى. كانت السفينة تهتز. "البقعة ضيقة، هيه، أليس كذلك؟"، قالت ديلشكا. "لا ينبغي إجبار الناس على العيش في ثقوب صغيرة. لكن ها نحن هنا. الموت سيكون مضجرًا. سيغضبني ذلك كثيرًا. يجب أن يكون الموت أنيقًا؛ ألا تعتقدين ذلك؟".

كان على شو رولان أن تسأل، على الرغم من أنّه آلمها أن توجّه سؤالها مباشرةً إلى ديلشكا: "هل يؤذون النساء؟".

أدارت ديلشكا رأسها. "لم أفكر بهذه المسألة".

التفتت إلى أيانا: "أعتقد أنّك تعرفين بعض الأشياء عن الحياة يا عزيزتي – عن الطيور والنحل والحيوانات الأخرى. أنت مسلمة. ينبغي أن يساعدك ذلك. إنّهم لا يغتصبون المسلمات... إلا إذا كانوا من النوع الخاطئ في الإسلام" – استرقت النظر إلى وجه أيانا – "وقد تكونين كذلك يا صغيرتي العزيزة. ابقي قريبة مني. أنا أرتدي حذاء لو بوتان. إنّها

أحذية متينة. ستكون كافية لكي تصيب خصية أربعة قراصنة على الأقل".

مودة جديدة من الخوف؛ لسعته القاسية. أشباح أمورٍ لم تكتمل.

لمست ديلشكا شعر أيانا: "كيف تلفظين اسمك؟".

أرادت أيانا أن تقول "عبيرة".

هنا كان بإمكانها أن تكون أيانا مختلفة.

استراحة.

"أيانا، عبيرة"، قالت لها.

أجابت ديلشكا: "أحب صوتك. يوقظ داخل المرء الرغبة بالسفر والقهوة. آه توقفي! لا تبكي. لن يلحق بنا الأذى. لقد أخبرت الله أنّي لن أموت هنا. ولا أنتِ كذلك. أنا أنوي أن أموت في سريري: ملاءات من الساتان شديدة الدفء. ما رأيك؟ إنّ التُّبلَ من صفات الله، وسيُحقّق لي نيّتي".

مدّت ديلشكا ساقيها أمامها، وثنت أصابع قدميها. "هل أعجبك حذائي؟". صوت طقطقة في المفاصل المجهدة. فجأة شرعت أيانا بالضحك. التفتت ديلشكا إليها. "الهستيريا يا عزيزتي ليست أمرًا صحيًا في مثل هذا الوقت".

حاولت أيانا أن تتوقف، لكنّها أطلقت المزيد من الضحك عوضًا عن ذلك.

إذن هذه كانت الحياة؟

في البداية، جزّت المعلمة رولان على أسنانها، وأصدرت صوتًا مسموعًا.

ثمّ تبدّد خوفها حين سمعت ضحكة أيانا العالية والرنانة، التي كانت يافعة وطازجة كمطر أيلول. ارتسمَت ابتسامة على ثغر المعلمة رولان. رأتها أيانا. اتّسعت أعين كلتا المرأتين. ومرّ طيفٌ من الدفء بين امرأة وأخرى. علقت اللّحظة قبل أن تتبدّد. تراجعت المعلمة رولان وتذكّرت أنّها يجب أن تبدو جدّية. عبست. كان عليها أن تتحدث مع قائد السفينة عن الركاب الجامحين – رمت ديلشكا بنظرة – يمكن لبيضة سيئة أن تؤثر على مهمة معقدة بالفعل مع السليلة. دمار في المحيط الغربي؟ ارتجفت.

القدر كمرآة – نهاية شاعرية.

ولكن أرجوكم لا. عادت لتركز بنظرها على رجلين من طاقم السفينة كانا يراقبان باب الغرفة الآمنة كما لو أنّهما بانتظار مخلوق آلي ليخرج من هناك.

في المرة الأخيرة التي تمّ فيها حشد سفينة كينغروي/غولونغ، قبالة مضيق باب المندب، كانت فرقاطة صاروخية إيرانية قد استجابت لنداء استغاثة السفينة. عندما ظهرت، انطلقت أجهزة الإنذار الصارخة والأسلحة، وكان القراصنة قد انسحبوا. كان موقفًا جيدًا فيه شيء من حسّ الدعابة. الصراخ والصياح والشتائم: "وداعًا، سفر ممتع". وعدٌ بالالتقاء مرّة أخرى، بإذن الله. لم يكن لاي جين يستطيع أن يعترف علنًا بإعجابه بهؤلاء الرجال الذين أعادوا تعريف قواعد البحر، والذين أعادت جرأتهم المغامرة إلى المياه. شجاعة الرجال الصغار الذين بدوا قادرين على دفع جميع الأساطيل البحرية في العالم للتتدفق حول المحيط الهندي على أمل إيقافها. وقف لاي جين على السكك الحديدية في تحية خفية إلى المحتالين في قواربهم الصغيرة السريعة، وشاهد المياه وراءهم، وتساءل للحظة، عما سيكون عليه الوضع لو كان أحدهم.

الآن. اللعبة كانت مستمرة. مثل الركض على طول الهاوية. مشيئة الله. أم لا. وبطبيعة الحال، لم يكن الكابتن لاي جين قد رأى "رسميًا" أيًا من الأسلحة التي قام المهندس وفريقه الثاني بنقلها وتجميعها على متن السفينة. في الليلة التي قام فيها الضابط الرئيسي بتخفيض سرعة السفينة "للسماح بفحص المحرك"، تمكن زورق سريع أخضر غامق من اللحاق بركب سفينة الشحن. على متن الطائرة، وخارج السجل، كان طاقم مكون من أربعة أفراد، تضمنت أمتعته قنابل صاروخية وبنادق آلية.

عمل طاقم السفينة كما فعل القراصنة -خارج نطاق السلطة القضائية، مقنعون ومسلحون يبحرون تحت ذرائع زائفة. كان الطاقم صيادين عرضيًا، أحدهم كان صيادًا رياضيًا كان قد سجل حجمًا قياسيًا قبالة قناة بيمبا. وقف الرجال جامدين أمام المهندس الثاني، الذي كان الوجه الأقدم العلني لشركة الأمن الخاصة التي ركزت خدماتها على الاحتياجات البحرية للمحيط الهندي، وجمعت أرباحًا بسبب القراصنة، والتي كان يصلي كل ليلة لنموها ورفاهيتها.

حوّلهم القراصنة جميعًا إلى أشخاصٍ أثرياء. كان الراكب نيورج ماري نجوبيلا مرتبطًا بنفس الزي من خلال شركات خارجية، ولكن صعد إلى السفينة بإذن من مجموعة أقدم من الأقدمين من الجنود الشقيقين الذين سعوا أو خلقوا حروبًا من أجل متعة المعركة ومن أجل المال أو العينية. تضمنت الأمور العينية الآن ناقلات النفط الخام، وامتيازات

التعدين، وأسهم شركات Fortune 500. لو كانت مسألة مثل هذه لتظهر إلى العلن، كان بإمكان لاي جين أن ينكر بصورة شرعية أيّ معرفة بوجود عناصر أمن على متن السفينة. أطلق لاي جين صفارة الإنذار، وزاد سرعته إلى 20.2 عقدة، وأرسل إشارات عبر اللاسلكي إلى المناطق المجاورة حول "تهديد هجوم القراصنة".

كانت الزوارق السريعة التي تطاردها خلفه، وكانت تتحرك بسرعة حوالي 27 عقدة. رمز أصفر. تصدّع الهواء. فكّر لاي جين بفكرة ساخرة: الأدميرال تشنغ خه سيوافق. استعرض القوة. امنح مساحة للميل البشري للحفاظ على الذات. قُل القليل. اختر الوئام.

رمش لاي جين بعينيه. صورة في ذهنه، مثل رائحة الياسمين الليلي -السليلة. تهيج مفاجئ. كان مضطرًا للنجاح. لقد كان مجبرًا الآن على التصرف، عن طريق القدر والقراصنة والبيروقراطيين الغبيين. لا خيار أمامه. في خطر، مع الخطر، من خلال الخطر، كانت الحياة مرنة وواضحة وملموسة. كان يفضل قضاء حياته بذكريات الأشباح والظلال المرافقة. أحبّ لاي جين بحره كما أحبّ المتوحد مساحته الخاصة. الحدّ الأدنى من الواعد، قلب مركز على أمرٍ واحد، البساطة؛ ولكن الحياة في البحر كان فيها الكثير من الغموض، ولأنّه كان هو القبطان، اختار هو الدرب. كان ملك السفينة. وشعر بأنّ حياته محددة جيدًا. غمر الدم سطح جلده. كان يتذكر لهجة شنغهاي والعواقب الوردية لأهوائه.

بعد سفره، وعد نفسه بأنّه سيجد طريقًا آخر – شيء ما سيحدّ من تواصله مع الناس. رطم! أضاءت آر بي جي على متن الطائرة في الليل. اشتبكت جولة من الذخيرة مع ضجيج أمواج البحر، حيث انتشرت النيران في الظلام مثل اليراعات العملاقة المميتة.

رطم! تباطأت القوارب الثمانية المطاردة، رافقتها موجة من الصيحات. الشتائم؟ ثم استدار القارب الأول، بعيدًا عن السفينة، تلته القوارب الأخرى. لم يكن هناك ضحك في تلك الليلة، ولم يكن هناك وداع وهمي. وبصرف النظر عن الأمواج ومخلوقات الظلام، فقد تحول كل شيء إلى هدوء. في الخارج، سماء عميقة، تساقطت فيها النجوم. راقب لاي جين كل هذا من جسره. شعر بنبض وتدفق تيار المحيط، مثل الثعبان العملاق تحت قدميه. شعر بجوعٍ آخر: ألم في أن يمتلكه هذا الوجه الوحشي للحياة، هذا الصديق المفعم بالحيوية الذي أخرجه من الظلال المألوفة. زاد لاي جين من سرعة سفينته، لكنه تراجع بعد ذلك.

أضاع قراصنته. بحلول الوقت الذي عادت فيه السفينة إلى مسارها، اختفت الأسلحة

والملحقات، مثل نظارات الليل التي كانت معروضة. قام الرجال أيضًا باستعادة السنانير والسلالم التي تعمل بالدفع الصاروخي، كدليل على محاولة القراصنة اختراق السفينة. سوف ينتهي الدليل، مع الأسلحة، في قاع البحر الأزرق العميق. معاملات إدارية أقل. عندما يصلون إلى خليج عدن، يمكن أن يعتمدوا على حماية أي واحدة من العديد من أساطيل العالم التي كانت تتربص هناك باستمرار.

انتشرت الكلمة بين القراصنة، بمجموعاتهم المختلفة، بأنّ سفينة كينغروي/غولونغ كانت مسلحة، وبالتالي لم يعد أحد لإزعاجها. حاول لاي جين أن يعيد الحياة طبيعية. ركابه! نخر لاي جين. "انطلقوا". أصدر أمرًا في المضيّ بالهجوم. رمش الضابط وهو يتولى القيادة. نزل الكابتن لاي جين إلى السطح للتشاور مع الطاقم الذي تمّ جمعه. بعد نصف ساعة، سمع سكان الغرفة الآمنة قرعًا على الباب الصلب. قام الطاقم بفك الباب وسحبه جانبًا. ملأت الأضواء الساطعة السفينة. فرك الركاب المغادرون عيونهم وظللوا وجوههم بأيديهم، كما اعتذر الكابتن لاي جين عن إزعاجهم. وقال إنهم احتاجوا لتقييم الموقف خشية المخاطرة بسلامة الركاب. ولحسن الحظ كان الإنذار كاذبًا.

لاحظت المعلمة رولان روعة قائد السفينة وقوته المتناغمة وآدابه المزروعة. وأعربت عن إعجابها بقيادته التي خلت من الإزعاج، ما كان بالنسبة إليها علامة على الشجاعة الداخلية. عندها فقط، أعلنت ديلشكا، التي كانت تضغط على فخذها بقبضتها، "لا بد لي من التبول".

نظرت المعلمة رولان بغرابة لهذه البربرية المتوحشة. كانت أشبه بالغمغمة المتواصلة في آذان أيانا. نظرت للوراء إلى الغرفة الآمنة. كانت حدودها محطمة. أمسكت الريح ضفائرها ولفتها حول وجهها، وطافت صفحتها حول جسدها. يد قوية في كوعها: المعلمة رولان. تحولت أيانا نحو البحر، كانت لها رغبة في رؤية العالم من جديد. نظرة الكابتن لاي جين في طريقها. بادلته النظرة. انقسم العالم: عالمهم وعالم الآخرين. توقفت عيناه على الحناء في ذراعها اليسرى. تراجعت كما لو أنّ أحدًا لمسها. قال شيئًا. لم تفهم. جرّتها المعلمة رولان إلى الأمام. خطوات غير مستوية. تعثرت أيانا في طريقها إلى مقصورتها، وسحبت ذراعها من قبضة المعلمة رولان.

[41]

أصداء الصور من عالم الليلة الماضية الزئبقي: تحطيم الضمانات الوجودية. كانت هناك امرأة قصيرة ذات منحنيات كثيرة وكلمات كثيرة، كانت هناك ابتسامة معلمتها. كان هناك قبطان مع نظرات في عينيه. جلست في غرفة فولاذية تنتظر معرفة ما إذا كانت ستعيش أو تموت. جلست أيانا على سريرها، وجهها بين ركبتيها. عندما استيقظت، كان المحيط لا يزال يتمتم، من أنت؟

زحفت إلى سريرها في محاولة للنوم.

. .

قلّلت أحداث ليلة أمس من تحفظات الركاب تجاه بعضهم البعض. تحدّثوا معًا أثناء تجمّعهم حول الطاولة لتناول الفطور والشاي الأخضر في الأكواب الزجاجية، وهم يتناولون الطعام الذي قدّمه إليهم النادل والذي حمل خلاصة تجاربه. كانوا جميعًا يشجبون استنكار القبطان لما حدث.

"أنا أعرف ما رأيت"، قالت ديلشكا. استمعت أيانا، مفتونة بكيفية اندماج ديلشكا بسرعة في الأماكن وآراء الآخرين. حاولت شو رولان أن تقول إنّه كان من الأفضل تصديق قائد السفينة من أجل الحفاظ على الوئام. "قبطان القيل والقال"، أجابت ديلشكا. كان ذلك عندما ملأ الجزء الأكبر من نيورغ المدخل. دخل وجلس على طاولته البنية المعتادة لشخصين بمواجهة المدخل. وبينما كان يضبط جسده على الكرسي الصغير جدًا، وضع منديلًا في قميصه باللون الأزرق الداكن. أحضرت له المضيفة صينية الإفطار. توقفت ديلشكا في منتصف حديثها. كانت صامتة. أدارت ملعقتها فوق صحنها. ثم راحت تنقر بأصابعها على الطاولة. استنشقت قبل أن تستدير لتحدق مباشرة في نيورغ.

"تعال واجلس معنا"، قالت له. نظر نيورغ باتجاه الباب. "لم تكن معنا أمس في الغرفة الآمنة".

"لا"، قال من دون أن يلتفت إليهم.

"كنت معفيًا من التدريبات؟".

"أفضل النوم".

مضغ نيورغ طعامه.

"مع كل الضجيج؟".

وضع نيورغ لقمة أخرى في فمه. اشتمّت دبلشكا رائحة الشاي الأخضر العطر. شعرت أيانا بالتوتر في الأجواء وحاولت أن تشغل ديلشكا وقال لها: "أعجبني فستانك". كان فستانًا حريريًا بطبعة زهرية مزينة بزخارف نباتية. لكنّ فم ديلشكا كان يترنح كما لو أنها كانت على وشك البكاء. نظرت إلى أيانا نظرة فارغة. التفتت ديلشكا إلى نيورغ وقالت له على عجل: "لقد رأيتك".

لا إجابة.

ثمّ ضغطت المعلمة زولان على الطاولة والتفتت إلى أيانا ونظرت إليها نظرة ذات مغزى، حتّى قفزت الفتاة من مقعدها وهي تفرك فمها. انطلقت أيانا وهي تعرج بشكل ملحوظ. عبرت العتبة، في عرض البحر الأزرق الداكن، ووسط الغيوم الزرقاء الداكنة والأمواج التي كانت تدور على نحو سلس، بدل أن تتكسر على الشاطئ. هدأ قلب أيانا.

"كيف حال الطير؟"، سمعت ديلشكا تسأل فريستها. "جاوبني على الأقل".

"لا"، أجاب الرجل.

تلك الليلة، بعد أن تناول الركاب وأفراد الطاقم البازلاء والثوم والدجاج في صلصة الصويا ولحم البقر المقلي مع البصل الأخضر، وبعد المحادثات والألفة بعد العشاء، انكسر وقع العاصفة التي أحدثتها ديلشكا. كان القبطان لاي جين غائبًا، وإلا لخفّف وجوده من وقع ما كان يحدث.

"ما نوع هذا الطير؟"، صاحت ديلشكا لنيورغ بنبرةٍ حادّة.

بدأ نيورغ بتحريك كوب الماء أمامه.

"فقط أخبرني باسم الطائر الذي أنقذته"، أصرّت.

نظر الآخرون من نيورج إلى دلكشا وتساءلوا: أي طير؟ دفع نيورغ كرسيه ووقف. ألقى منديله وأعطاهم إيماءة. قامت ديلشكا محاولةً أن تعرقل طريقه. "سوف تتحدث معي". وقفا عند الباب كما لو كانوا منقوشين على الأرض، مدافعان غير متكافئين، يتذمران من

بعضهما البعض.

اقترب نيورغ. وقفت ديلشكا بقوة. أخفض نيورغ رأسه. مال بديلشكا نحوه، وضع يده على ظهر عنقها، وثبّت قدميها عن الأرض. قبلها نيورغ على فمها. واحد اثنين ثلاثة ... تسع ثوان. أعادها إلى الأرض. لامس شعرها. انحنى. اتجه إلى اليمين وخرج من المكان. تسمّرت ديلشكا في مكانها. ثم وضعت يدها على فمها. خصلات شعرها تتطاير. دموع. انزلق المخاط أسفل يديها. ذوبان من الداخل.

شاهدت أيانا منزعجة. التفتت إلى الأستاذة رولان، التي رأت نظرتها، فنظرت إلى أسماكها، ثم ألقيت نظرة على المرأة في ثوبها الليموني التي كانت تبكي وحدها عند الباب. تمتمت كلمات غير مفهومة. لم يتكلم أحد. ترك الركاب وأفراد الطاقم الفوضى تحوم حول رأس ديلشكا. تحرّكت أيانا. عندما حان دورها للمغادرة، كانت خطواتها بطيئة. لمست ذراع ديلشكا في طريقها للخروج.

[42]

حمام بالبخار.

بدأت خطوط الحناء التي رسمتها والدة أيانا على جسدها بالتلاشي. لمست أيانا لحمها، ليونته، وعظامها -نحولها. لمست فمها وتساءلت ماذا تعني الشفاه للجسم: لتذوق ما نكونه؟ الشيء الذي يرفرف، الشيء المشوش، الشيء الذي يتوق إلى داخل المرأة. عادت إلى غرفتها، وارتدت ملابس النوم. استلقت على السرير ويدها تحت رأسها. التفتت ولمحت مكان وجود حقيبة يدها. نهضت لسحبها إلى أسفل.

ودت أيانا ديلشكا مستندة إلى الجدار، تحدق في البحر وتعانق جسدها. ذهبت ووقفت بالقرب منها.

"الحناء؟"، سألت أيانا. "يمكنني أن أرسمه لكِ هنا".

التفتت إليها ديلشكا.

"أعرف ما رأيته".

ثم أعطتها أيانا زجاجة صغيرة بنية داكنة نصفها مليء بماء الورد.

بخجل: "من فضلك، خذيها".

"أملكِ؟".

أومأت أيانا وهي تركع.

بدأت في نشر الأساسيات: حقيبة شبه بلاستيكية على شكل قرن؛ معجون أخضر في كيس محكم الإغلاق، أسود في ضوء المساء الفضي. جثمت ديلشكا بجانبها.

"عزيزتي، لا أستطيع".

نظرت إليها أيانا. "احتفظي بها".

وضعت أمامها عدة الحناء.

"اجلسي"، قالت لها وهي متفاجئة من مدى ظهور نبرتها هادئة. جلست ديلشكا قبالتها. جلست أيانا وقدماها متقاطعتان. كانت هذه المرة الأولى التي ستضع فيها الحناء دون أن تكون والدتها قريبة.

"سأبدأ بقدميك".

استدارت ديلشكا. سحبت أيانا حذاءها بالكعب الأسود الكعب الأسود ووضعت قدمها اليمنى على فخذها.

"ساق الكرمة"، قالت أيانا وهي تستخدم معجون الحناء لرسم خطٍ رفيع على الكاحل.

"بتلات الياسمين. أولًا سأمسح قدميك. كان ذلك أسلوب والدتها".

جلستا في صمت وملأت الجو رائحة الورود البرية لوهلة، متفوقة على رائحة النفط والديزل التي فاحت من السفينة. بعد ساعتين تقريبًا، ظهر نيورغ وهو يلبس قميصًا أبيض لم يظهر بسبب عتمة الليل.

سكون.

أمواج ورياح وقمر في سماء سوداء.

سعل قبل أن يتكلّم.

"اعذريني يا آنسة. لقد سمحت لنفسي أن استفز. أنا آسف. أرجو أن تسامحيني".

صمت المرأة -القدرة على أن تكون وتتصرف كما لو أن شيئًا لم يقل أو يسمع.

رسمت أيانا الأزهار على الكرمة التي طوفت أقدام ديلشكا مثل رقصة درويش، مثل نسج تعويذة؛ في تلك الزاوية الضيقة من سفينة الشحن، كانت نقطة ارتكازها هي المحيط والرياح وأيدي أيانا. انتظر نيورغ ثمّ مال برأسه.

ابتسمت ديلشكا. رأت أيانا الابتسامة وتساءلت عن معناها. ثم انحنت إلى الأمام لتنفخ على كاحلي ديلشكا.

"لا تتحركي. دعيها لتنشف"، همست لها.

قالت ديلشكا: "آه يا عزيزتي، يا عزيزتي".

كانت تقصد أن تقول "شكرًا لكِ".

جمعت أيانا أشياءها.

"أنا آسف"، كرّر نيورغ.

"هل أنت آسف حقًا؟ أنا لست آسفة"، أجابت ديلشكا.

زبد أبيض على سطح البحر.

قطرات البحر متناثرة أمامهم، تنتشر البرد. نبرة نيورغ منخفضة وهادئة: "أورتولان. هورتولانوس".

سألت ديلشكا، "أوتو من؟".

"الطائر"، قال نيورغ.

هدوء.

"لا بدّ أنها هربت من شبكة أحدهم".

توتر جسدي أشبه بغضب مكبوت.

"فقدت أطفالها".

صمت.

"وجدتنا".

هبت ريح ناعمة وباردة فوقهم.

صراخ مخلوق غير مرئي في الليل، ثم تلاشى.

نهضت ديلشكا، هزت ساقيها المتشنجتين. شبكت أصابعها، رفعت ذراعيها

فوق رأسها، كفّاها إلى الأعلى. قالت نيورغ وهو تشاهد الضوء الخافت قبالة أقدام المرأة العاريتين: "ستهب العاصفة في غضون أيام قليلة".

سألت: "كيف يمكنك أن تعرف؟".

"الرياح على الأمواج".

ابتسمت. "إذن الأسلحة الآن بات مسموحًا بها على متن سفن الشحن.

حدّق بها نيورغ بنظرة قاتمة. تراجعت ديلشكا.

"الحقيقة يا عزيزي، يمكنك أن تمنعني عن رؤية كل شيء... فيما عدا الطير". تعثرت أيانا، التي كانت تبتعد عنهما. انتابها الفضول حول الأجواء التي أحاطت كل من نيورغ وديلشكا. ازداد التوتر.

قال نيورغ: "أنا أعمل في مجال الأمن".

"للسفينة؟".

"هذا أيضًا".

قالت ديلشكا عندها: "شكرًا لك".

"علامَ؟"، سألها.

"الحقيقة".

صحح نيورغ عبارتها. "حقيقة واحدة".

"إنّها تكفي"، قالت ديلشكا.

"هل يمكنني أن أثق بتكتمك يا آنسة؟".

"طبعًا. و... ديلشكا هو اسمي".

إيماءة احترام.

"مساء الخير إذن".

"لا، ليس بعد"، قالت ديلشكا. "شكرًا لإنقاذ الطائر".

عبس نيورغ.

أكملت حديثها محاولةً أن تشرح.

"نظرتك... تلك اللمسة. أردتها لنفسي. تقت لأن أكون الطير في يدك".

مذهولًا، قال نيورغ: "يجدر بي أن أذهب".

تحرّكت ديلشكا على الفور لتضع يديها على نيورغ.

كانت جاهزة للمحاربة لإبقائه. لاحظت أيانا أنها تتدفق وعيناها كبيرتان تصب منهما الحياة. كانت تتدفق عبر "لا" لتحولها إلى "نعم".

قالت ديلشكا: "انا متزوجة".

"أعتذر مرة أخرى"، أجاب نيورغ.

أكملت غير واثقة بإلحاحها الذي بدا أشبه باليأس، كما لو أنّه كان عليها أن تتكلم، كما لو أنّها كانت الطير الصغير بين يديّ الرجل الرقيقتين.

"ولكنّي هربت من المنزل".

"هكذا إذن".

ابتسامة صغيرة، عيناه مثبتان على يديها.

"ليس بعد. لقد عضّني الكلب".

مدّت يديها لتريه آثار العضة.

"أنا تلك الزوجة الخرقاء التي تصطدم بالأبواب والنوافذ والأشياء الصلبة الأخرى... حتّى عضني الكلب. اسمه بوتيوس. أعني الكلب".

انتظر نيورغ.

قالت له: "لقد سمعته".

"ما هو؟".

"نبضك. شعورٌ عارم في الروح، الخوف قبل الاعتداء".

أغلق نيورغ يديه على يديّ ديلشكا.

التجريب.

قالت له: "أنا أخلط الكلمات. الحقيقة هي أنّني أشعر بالخزي من إحدى الحقائق".

"أيُّ هي؟".

"حزني".

صمت.

ارتبك. متعب من هذا الغزل المتشابك. كيف وجد نفسه ينظر إلى فوضى ديلشكا؟ كان يقظًا مثل الحارس المحاصر. عبس. تضخم المحيط حوله. تدرج لون أحمر مؤقت في

سماء الليل. كانت بقعة الضوء هي الذاكرة الوحيدة المتبقية من اليوم الذي اختفى. سألته، "هل أنت متزوج؟".

"منذ فترة طويلة".

"ماذا حدث؟".

تنهّد نيورغ.

"يمكنك أن تخبرني الآن، أو تخبرني لاحقًا، لكنك ستخبرني".

على أمل أن يخرسها وهو يبحث عن الأكاذيب، شعر بالإغراء للتخلي عن أقنعته، ثمّ كاد أن يضحك. كان ليخيفها. "كانوا جميعًا موتى حين وجدتهم".

انتظر ليرى ردّة فعلها. نظرت إليه. "هم؟".

"زوجتي وأبنائي الأربعة – ثلاثة أبناء وفتاة اسمها أنيك...".

توقف عن الكلام. دفنت ديلشكا وجهها بين ذراعيّ نيورغ. اغرورقت عينيها بالدموع.

باختناق، قالت: "أيّها الرجل المسكين، أيها المسكين، أيها الرجل الطيب. ماذا حدث بحق الله؟".

"الحرب".

ارتبك. مسكين؟ طيب؟

"تشمل حدود معركة القرن الحادي والعشرين الآن المنازل وغرف الطعام".

تصلب. حاول ألّا يفقد السيطرة.

"اسمحي لي يا سيدتي".

تنهّدت.

"أنت شجاع الروح. يا له من شيء فظيع، ما مررت به".

ولأول مرة منذ تلك الليلة من الرعب، تذكر الرائحة الكريهة وموت الحزن. لقد كان موسمًا مختلفًا. إرجاع الحجاب على الذاكرة. العودة إلى فقدان الذاكرة. المحيط، ارتفاعه. هذه المرأة، جنونها.

قفزت مجموعة من الأسماك الصغيرة خارج الماء. نادت الأمواج وأجابت الريح. كان بحاجة إلى الهرب.

"تصبحين على خير".

قالت ديلشكا: "إن أغرقت العاصفة السفينة، سنكون من يأتي الآخرون ويجدونهم أمواتًا، مهاجرون جدد إلى المملكة حيث لا عودة منها".

كان صوتها رقيقًا.

"أنت جندي؟".

"نعم".

"بسبب ما حدث لهم؟".

أغمض نيورغ عينيه.

"أصبحت جنديًا من نوعٍ مختلف".

صوت في الماء -شيء مجهول وكبير.

ثمّ قالت ديلشكا: "اسألني أي شيء".

توقف.

"اسألني عن البدايات".

"لماذا؟".

"لأنّ هذه إحداها".

"ماذا؟".

"بداية".

"نعم؟".

"بدايتنا نحن".

"نحن؟".

"نعم".

"هذا أمرٌ لم أفكّر به مسبقًا".

"أنت تفكر كثيرًا".

"نعم".

"لا يمكن التفكير بهذه الـ نحن".

"نحن؟".

تعجّب.

"ما هذه الـ نحن؟".

"امرأة، رجل، فضول... رغبة. لذلك اسألني عن البدايات".

"حسنًا، كيف تعرفت بزوجك؟".

تأففت.

"لماذا هو؟".

"الأشباح مثيرة للاهتمام. إنه وسيم، بلا شك؟".

"نوعًا ما".

كانت ديلشكا قد أطلقت عليه لقب "العدو" على سبيل المزاح، عندما التقيا في رواق قسم العلوم الاجتماعية بجامعة أكسفورد في إنجلترا، وأكرها بعضهما البعض في جلسة استماع أولية خلال نقاش حول "الربا وديون العالم الثالث".

في إحدى الأمسيات المتأخرة من فصل الربيع، في برنامج تعليمي مشترك، وجدا بعضهما البعض مرة أخرى، واتخذا على الفور مواقف متقابلة في مناقشة "الإشراف الائتماني والبنك الدولي". بعد الجلسة، أكملا حديثهما في الشارع وانقادا إلى مطعمٍ منزوٍ حيث أكلا وتناقشا وشربا النبيذ وتشاجرا حول من يجب عليه أن يدفع الفاتورة -إلى أن تمّ إسكاتهما بأدب من قبل الإدارة. استمرا بالنقاش حتى وصلا إلى غرفة ديلشكا المستأجرة، في حالة سكر معتدلة، حيث اتفقا أنّ كليهما يريدان تغيير العالم، ولكن بشكل مختلف. تحولت الحجة إلى منهجية وعقيدة، وتعرٍّ محموم وبعدها تزاوج شرس.

قالت ديلشكا لنيورغ: "انجذاب سيء".

تغيّرت ملامحها.

"بشعري الأسود المجعد، والشفاه الحمراء الكثيفة، والعقل المعقد، وفتنة الكاما سوترا، كانت لي اليد العليا". ضحكت. "هكذا ظننت على الأقل. تزوجنا بعد عام، في جريسنس. أقيم حفل مدني في رومانش، حضره غرباء سويسريون مملون".

"مبروك"، قال نيورغ.

"اللعنة عليك"، أجابت ديلشكا.

ضحكات مكتومة. قعقعة كالرعد تلتها سلسلة من الضوء الأرجواني الساطع في سماء

بعيدة. قعقعة أخرى. ارتجفت ديلشكا. "أخذنا العمل إلى كينيا. كان من المفترض أن نكون هناك لمدة عام".

الريح على الماء.

"لكننا كنا ملائمين هناك، الزوج والبلد وأنا. ولدت أطفالًا هناك. كانوا أيضًا مناسبين هناك".

حرّكت الريح شعر ديلشكا حول وجهها. لماذا أثرثر كثيرًا؟ سألت نفسها.

"هل هو صحيح"، سألت ديلشكا نيورغ، المعترف الغريب، "أن هناك خفافيش يمكنها أن تمتص دمك وأنت نائم، وكل ما قد تشعر به أثناء ما دمك يصفى هو الحلاوة، وفقط عندما تستيقظ، تدرك مدى تشوهك الحاد؟".

ارتعشا من الفكرة.

تمتمت ديلشكا: "نحن نتأقلم كما ترى".

في رأس نيورغ، بدأ صداع شديد. كان يستمع على الرغم من الضيق الذي شعر به. ما الذي أسمح لنفسي بالانقياد إليه؟ عادت ديلشكا بذاكرتها إلى الماضي: عندما كانت تتنقل من شخص لآخر في غرفة كبيرة مضاءة جيدًا ومليئة بالثرثرة.

في تلك الليلة، أمسكت امرأة كانت رموشها على رقبتها بديلشكا من ذراعها وابتسمت، "ما هو سرك؟ أخبريني كيف أكون سعيدة". كاد السؤال أن ينسي ديلشكا أنّها تعيش بما كان أشبه بطنجرة ضغط. بإرادة صلبة، قبّلت خد المرأة قبل أن تبتعد ويتلألأ ثوبها الأزرق الداكن في الضوء.

ابتعدت ديلشكا الآن عن نيورغ واستندت إلى الدرابزين.

كانت أيانا مذهولة، تستمتع بإنصات، وانتابها خوف من الحياة وألغازها وكيف كانت النساء يعشن خاطبت ديلشكا العتمة. " امتصاص يستهلك كل شيء جيد لأنه يدّعي الجدارة النبيلة. إنه يجعل من نفسه "مؤلف الحق"، ويسمح لنفسه برئاسة حياة الآخرين وموتهم". وصلت الدموع إلى فك ديلشكا. قضمت أظافرها. "تخيل أنك بحاجة إلى حل مشكلة كهذه".

مالت ديلشكا نحو نيورغ، هزّت قضبان الدرابزين ومسحت وجهها.

راقب نيورغ شكل تلك المرأة وتضاريس جسدها وقد بدأ ينعكس عليها ضوء الفجر

الوردي. أمسكت الريح بشعرها ولوّحته باتجاهات مختلفة. كانت بلا أقنعة.

تنهيدة.

شعر بقناعها يتحطم. ليس لأنّ تلك المرأة الغريبة تفضح له روحها العارية، بل لأنّه فجأةً بات قلقًا من تلاعب الناس في هذه الحياة. مسح نيورغ على المكان الذي شعر فيه بالضيق في صدره. هذا أيضًا سيمّر.

صفعت الأمواج جانب سفينتهم، وأغرقته في ذكريات النساء في حياته. الأمواج وجوقة المخلوقات البحرية، السفينة التي تتحرك، وظلالها، كانت تظن أنّها لا تُرى، لكنّ الفتاة الكينية الشابة الآن كانت تتجسد وتثيره فيه الحيرة.

الوقت يوشك على الانتهاء.

كانت ليلة مظلمة وقبيحة، الإعداد الأمثل لالتقاء المخلوقات الساقطة والآيلة للسقوط.

انحنت ديلشكا على القضبان، ثمّ حاول نيورغ الوصول إليها، متخيلًا نفسه كبطل يمنع الموت بدلًا من تسليمه. لكنها كانت فقط تحاول الحصول على زاوية أفضل لمراقبة السفينة. كانت ذراعاه قاسية حول جسدها، ومالت برأسها نحوه.

"أنا طائرك".

ضحكت، ثم سألت، "هل تشاركني سيجارًا؟".

فجأة هز رأسه. هز جيئةً وذهابًا، تمهيدا لضحكة ضخمة بلا صوت. آلمه جانباه. الجانبين له آلام. من هي؟ تراجعت ديلشكا لاسترداد أجزاء من قصتها. "لا شيء يمكن أن يطهر النواة التي استكن فيها الرعب. هل تفهم؟".

تنهد نيورغ: "نعم، أفهم".

"أطفالي يشعرون بالعار منّي"، قالت ديلشكا. "لهذا رحلت".

اقبت نيورغ وهي تتوقع أن يحكم عليها. ولكن لا شيء. لم يكن أطفالها معجبين بسكرها وتصريحاتها الجريئة واللاذعة.

قالت ديلشكا: "الآن أنا ذاهبة إلى المنزل إلى أمّي".

ضحكة ناشفة. فكرة: سأمشي إلى المكان حيث تلتقي المياه. أين قرأت ذلك. ارتجفت شفتاها.

"ستتفاجأ جدًا لعودتي".

كلمات أيانا وأصداء شاعريها -حافظ، رابعة -رأت نفسها وهي تنظر إلى العالم بلا صلاة. رأت أيانا كلمات ديلشكا، وقصصها، ورموزها، وإيماءاتها، وخطوطها، وصمتها، كدلائل في خريطة الحياة الناشئة. شاهدت أيانا إنسانين مرتدين من المعارك يصلان إلى بعضهما البعض، مظهرهما عارٍ، فظيع للغاية لدرجة أنها اضطرت إلى الابتعاد، لكن ليس قبل أن ترى المساحة تكيف نفسها لاحتوائهما. رفع نيورغ يدي ديلشكا إلى الضوء الخافت. لمع الحجر في خاتم زفافها. لمس نيورغ الخاتم.

"ما هو أملك؟"، سألت ديلشكا.

"الخلاص".

"كيف؟".

"عبر التطهّر. أحتاج إلى النار".

لامس نيورغ الجانب المتورّم من يدها.

"النسيان أفضل".

نفخ على يدها المتألمة.

"لا توجد توقعات".

"هذا الزوج -إذا كنت ترغبين في ذلك، سأعيدك له".

توقف نيورغ لتذوّق ثغر ديلشكا.

سألته: "وسيزول الألم؟".

"يمكن موازنة الأمر، لا.".

"آه يا عزيزي".

سحبت وجه نيورغ إلى وجهها.

"ما أرغب به هو ضغط زرّ لمحو كل شيء والبدء من جديد".

أومأ نيورغ برأسه. أمسك بيدها وسحب منها الخاتم. مدّت ديلشكا أصابعها أمامها بخفة. حين بات الخاتم في يده، دسّه في يدها. راقبت أيانا ديلشكا وهي تلتفت إلى البحر لكي ترمي الخاتم فيه. شاهدوه جميعًا يرتفع ويهبط.

صمت.

أحاط نيورغ ديلشكا.

قال لها: "أنت أيضًا نجمك يطير".

"نعم".

"تلاحقه الشياطين أيضًا".

"ماذا؟".

"الطهاة الفرنسيون مثلًا".

"أخبرني عنهم".

ضحكة وغصة في صوت ديلشكا.

سمعت أيانا بعد ذلك حديثًا عن طائر مغنٍّ -طائر عذب الكلام له ريش برتقالي وبني ورمادي وزيتوني تمّ اختطاف رحلاته إلى إفريقيا من قبل رجال قاموا بتربية شباك نيابة عن طائفة من الطهاة الذين سعوا إلى حبس هذا الطائر الصغير وتخزينه في قفص أسود. سمعت كيف أن بعض هؤلاء الأشرار انتزعوا عيون الطير، بحيث لا يدرك ليله من نهاره ويدفعه ذلك لأن يأكل كميات أكبر. ثمّ سمعت أيانا كيف كان يتم إجبار الطائر على الأكل حتى يصبح جاهزًا للانفجار. كانت تلك علامة بأنّه أصبح جاهزًا للطهي. بعد أن يتمّ قتله، كانوا ينتفون ريشه ويحمّرونه ويقدّمونه كاملًا من دون أن يسحبوا عظمه. يلتهمه بعد ذلك مجموعة من الأشخاص ويتذوقون طعمه، ويسكرون لطعم الطائر وعذابه ولا يهتمون بنظرات ملائكته إليهم.

عضّت عندها أيانا شفتها الداخلية، غير قادرة أن توقف تدفق الدموع من عينيها. أمسكت بيدها كيس عدّة الحناء. شعرت بالغثيان وبعدم الحيلة تمامًا كما الطائر. اختنقت من رائحة رجل ونفسه الذي فاحت منه رائحة الهيل والقرنفل.

أسندت ديلشكا كتفيها إلى صدر نيورغ وهي تبكي.

خفّف نيورغ عنها: "بعض الطيور تهرب من أقفاصها ولا تجد سبيلًا للعودة".

[43]

مشوشة. مخمورة بالأمل. الخوف. الحزن. الحاجة. الوجع. الشك، والشك، والشك، ماذا -يعني -الشك. تفكك الثقة في المطلقات، بما في ذلك هياكل الحياة وقيودها -لقد تعرضت للخيانة بسبب الزوال، واصطدمت بشكلٍ كامل بهذا الجدار.

أحاطت الأحلام الخيالية المشاعر الجديدة بقلبها وخلقت ثقوبًا في بطنها. في سريرها في المقصورة، تدحرجت أيانا وكأنها زغب. عبيرة. ليس صوت أحدهم يتكلم، بل صوت عادي. صوت يتنفس كالرياح الجافة، وقد ملأ عالمها بأسئلة. شعرت أيضًا بالتحدي لأنّ هذا الصوت أشعرها بالراحة. عندما فتحت عينيها، كان ذلك بعد فترة طويلة بعد ساعة الفجر. وجدت أنها فقدت شهيتها للصلاة. لأول مرة منذ فترة طويلة، بقيت أيانا تحت الأغطية في ساعة الصلاة، في انتظار أن يهدأ تمردها أو أن يُكتشف.

لم يحدث شيء.

تاهت في صمت كل الأشياء التي لم تقدرها. ماذا كانت الحياة إذن؟ الكلمات الصينية: أن تحيا. نهضت أيانا من سريرها واتّجهت نحو الحمام للاستحمام. غسلت شعرها، التصقت بها خصله السوداء وهي ترشّ الماء على جسدها.

مشوشة.

الخوف والبهجة: لم تكن هناك مسارات محددة سلفًا. لم تكن هناك ضمانات. قرست فخذها المشدود، وضربت وجهها تحت الماء.

شعور.

أغلقت المياه، وخرجت، وجفّفت جسدها.

رشت على نفسها ماء الورد الذي صنعته من عطار ورود أمها. سحبت بنطلون جينز وقميصًا أبيض. أمسكت بحجابها ورمته نحو سقف المقصورة المنخفض. شاهدته وهو يقع أرضًا. نقلت سجادة والدتها إلى الجانب الآخر من الغرفة. ركضت في المكان الضيّق وهي تحرّك أصابعها.

أخذت نفسًا عميقًا وخرجت لتبدأ يومها. الوقت مطاطي. الأزمان تتقاطع. كانت أيانا

تلوح بشعرها وهي تتجول في اتجاه الجسر. وكان القبطان في نوبته، عيناه إلى الأمام. ظهرت أيانا. انغمس الرجل في عزلته تمامًا، وكل شيء آخر كان غريبًا: هو وسفينته وبحره. في تلك اللحظة، إذا كانت أيانا تشتهي أي شيء في حياتها، فكان هذا: أن تكون جزءًا أساسيًا من هذه الفسيفساء الزاخرة التي رسمها لحياته.

"تعالي".

استدارت أيانا.

تعرف عليها أحد أعضاء الطاقم، رجل طويل القامة له ندوب على وجهه. فتح شمسية كبيرة. دخلت تحتها. تبعته على السلالم المعدنية إلى الجسر. كانت المعلمة رولان بانتظارها هناك. حين رأت أيانا، أمعنت النظر إليها. نظرت أيانا إلى المعدات التي كانت هناك بكل تفاصيلها: كمبيوترات.

خرائط، أمور حية أصدرت أصوتًا وإشارات. ألقى عليها رجل يرتدي بذلة رسمية التحية. استدار لاي جين ليراقب البحر. أشار الرجل إلى أيانا لنظام تحديد المواقع العالمي. اصطدمت أصواته بصوت عالٍ من جهاز راديو، والكلمات الإنجليزية، التي كان بإمكانها فهم بعضها.

همس من العوالم غير العادية، مفاتيح إلى العديد من الوجهات. مقابض وأزرار وأضواء وامضة. ملأ شعور كهربائي أيانا. كانت هناك فسحة البحر. كانت هناك السماء. هنا كانت كيفية اجتياز كلاهما، القوة في يد الإنسان. علقت السحب منخفضة في السماء وبدت قابلة للوصول. كان فمها جافًا.

تسارع نبض قلبها. امتدّ أمامها المحيط وغلاف الشحن باللونين الأحمر والبرتقالي. كانت تدور حول البوصلة العملاقة الموجودة في وسط الغرفة وتنظر إليها كما لو أنّها جسم مقدس. مشت على رؤوس أصابعها باتجاهه، كانت الأسئلة تتدفق في داخلها. عندما دارت حوله مرة أخرى، انحنت على طاولة الرسم البياني لإلقاء نظرة على أنظمة تحديد المواقع.

"أين نحن الآن؟"، سألها الرجل طويل القامة، مستمتعًا باستغرابها، وأظهر لها المسافات البعيدة. ثمّ قاد أيانا إلى حجرة القيادة حيث القبطان لاي جين ترأس الأدوات والشاشات والرادار الذي خرجت منه ومضات الضوء. قرب القبطان، تراقب معه البحر.

عصفوران من الفرائس يهبان على الرافعات بينما ترتفع السفينة وتغرق في الانتفاخ. تصرفت مجموعة من الدلافين مثل مرشد للسفينة، حيث قفزت داخل وخارج الأمواج قبل

أن تختفي. طافت جالت الطيور في المنطقة، وبقيت على مقربة من السفينة. حلقت الأسماك. كانت عوالم المياه المالحة مليئة بالحياة. انزلقت أيانا للتفكير بالسفينة وقاع البحر، وللحظة أمكنها أن ترى المسارات في البحر واضحة مثل الضوء، وأن تتحرك مع القارب كما لو كانت تقود طريقه.

لمحت نزول الشمس وظهور أوّل النجوم. رأت المجرات ونسيت أن تتنفس. رحلة صامتة. طيور بيضاء وعاجية اللون تتجوّل على رأس السفينة. ضباب على الماء، ضباب في عينيها، حتى مرّت خمس عشرة دقيقة وحلّ الظلام على المياه. همس لاي دين عندها في أذنها: "تنفسي".

التفتت إليه أيانا وقد خانتها الكلمات.

"أعرف"، قال لها وهو يبتسم وينظر إلى المياه.

"الميمنة"، قال لها. كرّرت الكلمة. "توقعات الطقس"، قال لها بالصينية. "توقعات الطقس"، كرّرت.

راقبتهما المعلمة رولان بطرف عينيها، وشعرت بالضيٌ. مشت باتجاههما وهي تقول لأيانا: "لديك الكثير من القراءة".

وضعت يديها على كتفي أيانا. قالت للقبطان: "شكرًا للطفك".

كانت شفتيها جامدة. حلّ الذعر محل الوحي في عيني أيانا. استدارت لتمشي على الجسر، بينما استعجلتها المعلمة رولان. التقى الجزء المرتفع من السطح العلوي بالمحيط وجهًا لوجه. جينغ يو -حوت -الجمال الأزرق العملاق اخترق جانب ميناء السفينة.

[44]

كان الصبح قد بات مظلمًا، والسماء ثقيلة ومكثفة. استيقظت أيانا قلقة. ماذا كانت الوجهة التي شعرت بها من الجسر حيث وقف القبطان؟ كان بإمكانها أن تعيد تخيّل نفسها. تحرّت السفينة وارتجت. فتحت أيانا باب مقصورتها. راقبت طيور المحيط تحوم

حول السفينة وسمعت أصوات تلاطم الأمواج. سمعت صوت ضحك وشمّت رائحة قوية اكتشفت لاحقًا أنّها رائحة دخان سيجار.

نعم، كان هذا ليكون يومها. سار لاي جين على طول السطح المغطى بالأمطار. لم يستطع النوم. قبل أن يضيء أول ضوء، كان يجلس أمام مطبوعته التي قرأها، في انتظار رؤية أو فكر أو شعور. كان قد وجد عطرًا لهذا. كانت مصنوعة من الورود السرية -المسك، الدافئ، الحلو، مع أمزجة السوائل. راقب البحر. تلاشت خطوط حمراء برتقالية في السماء، حيّة مثل ندبة الشفاء.

الرعد البعيد كان بمثابة التهديد. كانت العاصفة قد أخفت نفسها عن الأدوات التي استخدمها الأنبياء الكاذبين، أولئك الذين لم يسمعوا بهم. إذا لم يعتمدوا على إحساسهم بالمياه، فقد تكون العاصفة قد نصبت لهم كمينًا. كان الضابط الرئيسي يراقب مسيرها. بدأوا بمناقشة كيفية التعامل معها. لم يكن هناك شيء مؤكد. كان يريد أن يتسلّل وراءه، بدل أن يواجهها وجهًا لوجه. استدار لاي جين نحو النجوم ورأى لونًا زهريًا – وشاح طائر تلاه صوت!

كانت أيانا هناك، جسدها يمتد نحو خمسة آلاف يعسوب ذهبي، يطوفون على سطح الماء ثمّ يغوصون في داخلها. كانت تحركاتها أشبه برقصة صباحية ولمع وجهها.

أعادت ضحكتها المعدية لاي جين بالذاكرة إلى صورة طفلٍ عاري القدمين يركض خلف طائرته الورقية الزرقاء، يطارد الرياح شاعرًا بالفرح الخالص. كان قد طارد طائرته الذهبية خلف التلال، حتى تاه. كان قد تعلّم كم يمكن للحياة أن تكون مسكرة كيف نسي ذلك؟ راقب لاي جين بينما بللت إحدى الأمواج أيانا.

بينغ! ضحكت وهي لا تزال تحاول الوصول لليعاسيب، غير مدركة للخطر الذي تعرّض نفسها له. يمكن للموجة المارقة سحبها حتى وفاتها. لكن فقاعة من الضوء أضاءت فم لاي جين. بدلًا من تحذير أيانا، تراجع بعيدًا. كان دافئ القلب. كان من الميمون أن يلجأ اليعسوب إلى سفينته مع الطيور. كانت الطبيعة تثق به. مهما كان قراره، سيكون القرار الصائب. انتشرت الفقاعة من فمه إلى جميع أنحاء جسمه. مع عدم وجود أحد في الأفق، سمح لنفسه بدور محوري. نظر حوله. لم يره أحد. قوّم عموده الفقري.

[45]

البرق مع حوافه الخشنة التي وصلت السماء بالماء. رائحة العاصفة: حموضة نفاذة في الهواء. انتفاخ. زبد مخضب على المياه الزرقاء. رياح العاصفة التي حطمت حياة اليوم؛ السفينة المتدحرجة والسحب الخانقة في السماء. انحنى القوس السفينة في الاضطراب، ثم ارتفع. اشتبك الرجال على رأس العاصفة.

رياح ضباب وخمسون عقدة، موجات علوّها خمسة وعشرون قدمًا. ضرب البرق الماء مرة أخرى. لم يعرفوا بعد أن أيانا كانت مثبتة بين الأنابيب في رأس السفينة دون سترة النجاة. عندما انحنت فوق سطح السفينة لتتطلع إلى الأنابيب، كانت ساعة محيي الدين قد ارتخت على معصمها وهبطت إلى الأسفل. دون تفكير، ضد التيار، انحنت لالتقاطها. بحثت عن ساعتها وسط زخم من الأنابيب. زحفت على الأرضية الفولاذية، وأصبحت أكثر حماسة في بحثها، كما لو أن فقدان هذه الساعة كان له نفس مذاق فقدان المنزل. لم تستطع أن تدع ذلك يحدث.

كانت الريح تصطدم بأيانا كما لو أنّ حزمة من الضباع تطوقها. نظرت بذهول إلى العاصفة. كان شبح الوحدة هو الذي عصف بروحها في منزل والدتها؛ هناك كان كل جوعها. ابتعدت عن الصاعقة، تاركة ساعة محيي الدين. تحطمت موجة على طوابق السفينة الثلاث. كانت مبللة تمامًا، ومدركة لعدم حيلتها.

هنا كان ملاك يطاردها، وحضور كبير؛ هنا كانت الضخامة، وكانت هي بداخلها، وكل ما كان بوسعها أن تفعله هو الانتظار حتى تطلق الأنابيب المعدنية التي كانت تُودع بها سارح ساعتها. لكنهم احتجزوها. امتلأ فمها المفتوح مرة واحدة بمياه البحر، التي بصقتها، وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها، وجسدها يميل شمالًا يمينًا مع حركة السفينة. في تلك اللحظة لم تكن هناك كلمات صلاة - كانت اللحظة هي الصلاة، ثم فقدت إرادة المحاولة. كان لسع البحر على جسدها جديدًا. كان البرد جديدًا. وكلما سعت إلى العيش، كانت تفهم أكثر أنّها لن يكون بإمكانها أن تفعل ذلك. وكلما حاولت أن تبكي بصوت أعلى، كلّما زادت اقتناعًا بأنّ أحدًا لن يسمع بكاءها. كلما عرفت هذه الأشياء، حاولت أكثر أن تعيش

وتبكي. يداها لصقتها على الأنابيب. الحزن، على وفاة حياتها. انزلق فيها الوقت وعذّبها، وكذلك غضبها من عجزها أمام عيون القدر.

يدٌ على الأنابيب باللون الأسود. طلاء أظافر وردي متكسر على أظافر قصيرة -مستديرة، غير مربعة، كما كانت والدتها تحبها. غرقت في السكون والصمت، وراء الخراب، وراء صخب وقوة موجات العاصفة التي تضرب جسدها. ثمّ. لا شيء.

[46]

كان يرتدي سترة صفراء قوية مضادة للماء، مريلة ومثبت فوق سترة نجاة. كان يتعثر في الظلام، ويصرخ، "حيان! حيان!".

كان ينادي الفتاة. لم يكن هناك جواب. ليس مجددًا. لا يمكن أن يصاب بخسارة إنسان آخر. ليس الموت مرة أخرى. تحول صراخه إلى ما يشبه نداء مساومة. هلع. لم يطلب أن يكون مسؤولًا عن إنسان؛ تم فرض الأمر عليه.

حوار داخلي؛ لكنّه كان هو القبطان. حيان! نادى. قواعد غير واضحة: يجب ألا يترك القبطان حجرته في وقت الأزمات، وليس عندما يكون الهواء كثيفًا بالكهرباء ورائحة الاحتراق. لكن مع اندفاع مجرى السفينة في أحواض البحر، خرج من أعماق البحار زاحف مكلل بالنار مع عواء دموي اخترق عظامه ولا يزال يتردد في رأسه. كان قد استولى على سترة نجاة وهو يسلم القيادة إلى كبير ضباطه وخلعها، في أعقاب الصوت الذي كان مي شينغ. زلة الوقت الماضي. وصل إلى أدنى سطح السفينة ورأى وشاحًا ورديًا على الأرض. حيان!

رأى كتلة متجمعة. وجدها. سلطت الشعلة التي كان يحملها الضوء على شكلها. كان يعلم أنها ماتت، وأن العاصفة سحقتها. كانت تنزف، وكان القرم يتسرب من الملابس التي التصقت ببشرتها. أسقط الشعلة وأعطى ظهره للبحر.

القاعدة: يجب ألا يدير البحار ظهره على البحر. لكنه استخدم جسده لحمايتها. دون علمه، أوقف الموجة التي شكلت نفسها في وعاء عملاق عن ابتلاعها في البحر. ضرب ماء

البحر جسده. عندما نظر فوق كتفه إلى الماء، أظهره البحر ثأرًا مرة أخرى رحيل الحبيب.

راقب شبح زوجته الفضي يتراجع إلى موجات الليل، وفي لحظة لا حصر لها من الجنون أدرك أنّها هي من كان البحر قد أتى ليأخذها. عوت الريح. نظر إلى الخلف، وأثارت حزنه الفتاة التي كان جسده يحميها، ولثانية أخرى، تخيل أنه إذا ترك البحر يأخذها، فستعود إليه زوجته. ومع ذلك، عندما كان ينبغي أن يسمح لأيانا بالرحيل، لم يستطع أن يفتح ذراعيه اللتين طوقها بها.

القاعدة: يجب أن يكون قبطان السفينة عاقلًا وواضحًا في جميع الأوقات. الفزع الوجودي المتجسّد في كيان لاي جين. كل شيء يضر ويبكي ويحزن في هذا الظلام المائي.

لقد ظن أنه قد يسمح لكلا جسديهما بالانزلاق على الحافة. لكن ارتجفت أيانا وبدأت بالسعال، وفتحت عينيها قليلًا، وعندما رأته، تخيل أنّها تبتسم. خفف ذلك الخوف من كيانه، كما لو أن الأمل قد يقتل. أخفض فمه بالقرب من فمها ليعينها على التنفس. صلّى أن يعود الدم على وجهها. كان يساوم على الصراع بين اليأس والرغبة، الآن. الحياة، الحياة، الحياة. لن يحدث مطلقًا مرة أخرى. أبدًا لن يمرّ موت آخر تحت نظره. تسارع خفقان القلب، لذلك قام بفك سترته وتغطيتها.

التفتت أيانا نحو الوجود الدافئ الذي كان يحرس حياتها. كانت أطرافها قد تقلصت. تحرّكت السفينة. همسات بلغة غامضة يلفظها البحر. سمعت أيانا من البحر ومن الرجل. تشبثت بهما -كل وعودهما الجديدة. من حولهم، عظمة الوجود الصاخبة، خطر الموت حيث جربت أمواج العاصفة طرقًا أخرى لإزاحة الأجساد التي كانت تبحث عن ملجأ. هزتهم وقرّبتهم من بعضهم البعض، حتى لم يعد هناك، كما هو الحال دائمًا، سوى الانتظار.

انخفضت سرعة الرياح إلى ثمانية وعشرين عقدة، وخفّت العاصفة قبل ساعة من الفجر. وجد طاقم البحث أيانا والقبطان بعد مرور أكثر من ساعتين، مسحوقين ومغمورين، ويكادان أن يموتا من البرد. كان لاي جين يتفوّه بكلمات غير متماسكة. قال الضابط الرئيسي، "ملابسك يا سيدي". استمع لاي جين. "إنها مبللة". يا لها من بصيرة استثنائية، فكّر لاي جين وهو نصف نائم.

تابع الضابط، "أنت ترتعش. شفتاك زرقاوان. قد تموت. هل تسمعني؟".

هل هي آمنة. ظلام.

في مقصورة القبطان لاي جين، الوحيدة الكبيرة بما يكفي لكي تسع أكثر من شخصين في الوقت نفسه، تمّ إنشاء مشفى مؤقت. كانت الأجساد هناك ملتحفة بالملاءات، تتعافى من العاصفة. بعضهم كان يضع الضمادات. لم يكن هناك أيّ كسور على ما يبدو. بعينيه نصف المغمضة، شاهد لاي جين رجاله يخطئون مثل النمل المضلل. سمع عبارات المعلم رولان الحادة التي ألقيت على الرجال. قطة متوحشة، فكر. أرادت أن تجلس حارسة على أيانا، وأراد الضابط أن يبقى على مسافة منها.

ارتعش جسد أيانا وفصل بين ذواتها الثلاث: أحدها كان يغير مسار السفر البحري بحثًا عن والدتها، واحتلت ذات أخرى لحظة الانكسار الحالية كلاجئ يبحث عن كوخ يحتمي به، والثالثة استدعتها العاصفة، لتخرج منها وتدخل إلى العالم بنية وعزم لشرب ظلال الحياة والارتفاع في ضبابها.

شعرت بيدين عليها-يدين صلبة وقاسية وقلقة – والمزيد من الهمس. صداع. سائل دافئ. قماش يمسح جسدها. صوت امرأة خافت وهي تطرح سؤالًا. فكرت بصور في رأسها، انسكبت داخل جمجمتها. طقطقت أسنانها بينما نظّف أحدهم جراحها التي كانت تلسع. انزلقت على عوالم النوم حيث كان كل شيء ممكن، ولم يظل أي شيء مخفيًا، وكانت الوحدة مجرد ضيف مؤقت. قابلت أسلافًا لم ترهم من قبل: الجد والجدة والعمات والأعمام الذين قادوها عبر باب مغلق. رفعت قبضتها لفتحها، لأنها عرفت أن والدها كان يقف وراءها. سقط الباب، وتربص لها منه المشرقي وفضل المصري. كافحت لتصل إلى اليقظة، واستدعت، لهذا الكفاح، غضب محيي الدين.

تمايل القبطان لاي جين مع سفينته النارية، متجاهلًا وجع ظهره المتوتر والكدمات، ذراعه الضعيفة، وخفقان ندبة النار على وجهه. وضع السليلة في سريرها المرتفع، وكان يتساءل في كآبة عن ماورائيات الحياة. التفت إلى الفتاة. العديد من الجروح الصغيرة على جسدها لم تعد تنزف. ستشفى. ومض ضوء في الفضاء. ألقى القمر الداكن والأثقل والأكثر دموية بظله على كل شيء محوّلًا إيّاه إلى اللون الأحمر الفاتح؛ تعلق مصيره باستعادة الشابة الغريبة عافيتها.

تحت قيادة الضابط، عادت سفينة كينغروي/غولونغ إلى مسارها. تحسنت الرؤية في أعالي البحار بعد ثمانية عشر ساعة. قام كبير الضباط بتصحيح السفينة في مسارها الشرقي،

والسفر في اثني عشر عقدة، وتجنب تشابك الاضطرابات البشرية من حوله، وسرق الوقت لقبطانه -كان يدعي إدارة الوقود – لأنّه كان بحاجة أن يتولى لاي جين مسؤولية السفينة قبل وصولهم. كان يمكن قراءة مرض القبطان، على الرغم من العاصفة، على أنه آفة على سجل لا تشوبه شائبة. لهذا رفض الضباط استدعاء المساعدة المحمولة جوا.

. .

سفينة مدمرة. طعجات، مكونات، معادن مجهدة، صمت البشر المهددين. الذاكرة كتلسكوب. في الأسطول على البحر، استعارات متنوعة لشرح حطام كسر الإنسان، وتغيّر الإنسان.

[47]

انجرف ببطء إلى السطح، ضغط على صدرها ودغدغ حلقها. القتال من أجل التنفس. سحبتها الأيادي من كل ذلك. وعندما فتحت عينيها، كان قبطان السفينة يمسك بكتفيها، ويهزها وهي تهتز من أجل الهواء.

صوت: "يجب أن تتنفسي!".

تمتمت السؤال الذي طرحته عليه أولًا: "كيف كتبت النار لوجهك؟"، ثمّ، "ماذا؟". "الغياب"، همس بإجابته. قالت: "أوه"، تذكرت العاصفة، وما حاولت أن تخبرها بها. سقط رأسها على الوسادة، وغرقت في أعمق النوم. لفترة طويلة وطويلة، وقفت تراقب، مستعدة ألّا تتوقف أبدًا عن التنفس.

كانت السماء تمطر بلا توقف. بلا حركة في سرير القبطان، أمضت أيانا ساعات في النظر فقط من خلال ثقب صغير. شاهد لاي جين من سريرٍ آخر في الطرف الآخر من المقصورة. عندما فتحت عينيها، كان لا يزال يراقبها. التفتت إليه. هكذا تعلما بعضهما البعض، من خلال نظرة. تدفق صمتهما إل المعلمة رولان التي كانت تنتظر خلف الباب

المغلق. كانت لا تزال ترغب في نقل أيانا إلى مقصورتها. ولكنّ حين تقترب الأزمات إلى هذه الدرجة من الموت، تسقط كل الحمولة والأقنعة. تتغيّر الأمور المفروض القيام بها والأمور التي لا ينبغي القيام بها.

في وقتٍ طويل بعد منتصف الليل، طرح لاي جين على أيانا سؤالًا غريبًا نظرًا لما كانا فيه: "هل يمكنكِ أن تخبريني عن بحرِك؟". كان صوتها ما يسعى له، الكلمات التي تربطها بالحياة. من خلف المقبرة الحجرية الداخلية التي كانت ملاذه مع شبح مي شينغ، تحطمت بلاطة وأجبرت الهواء النقي على دخولها. دخلت العاصفة الفجوة ورسبت هذه المخلوقة الغريبة هناك. راقب لاي جين الفتاة. كانت تدرسه، عيناها مضاءة من الداخل. ومن الغريب أنه أراد أن يراها. عندما حاولت الكلام، اختنقت. لذا قفز ليدعمها ويدم ظهرها حتى تتمكن من التنفس مرة أخرى.

في الفجر، حين فتحا عينيهما كلّ من زاويته في المقصورة، شاهدا اليعاسيب الذهبية المسافرة التي وجدت ملجأ لها في السفينة. "إنّها اليعاسيب"، قال لاي جين.

أنصتت. كانت لتتذكر ذلك.

"إنّها من الهند"، أضاف، وهو يحاول أن يحثّها على الكلام.

كانت عيناها ترنو إلى المستقبل.

"لن تبقى هنا".

كلمات في لغات مستعارة.

كررت صدى كلمة اليعاسيب بالصينية، لكي تكمل الحديث.

ساد بعدها الصمت.

ركّز لاي جين بعدها على خطوط الحنّة التي كانت تتلاشى عن جلدها. كان قد لامس هذا الجلد من قبل، أولًا لتنظيف الجروح ومداواتها، وثانيًا ليتتبع خطوط الحنّة.

"لكنّها سوف تعود"، وعدها.

كلمات كالخيمياء: إذا قالها، فسيبقون. التفتت إليه. في عينيها، الشفقة التي تأتي من المعرفة القديمة.

غادرت اليعاسيب الذهبية قبل مغيب الشمس. حطّت نظرات أيانا التي كانت تبحث عن شيء ما على مطبوعة لاي جين. تتبع نظراتها. سألها: "ماذا ترين؟".

حدّقت أيانا بالمطبوعة. اقترب لاي جين من عمله، وهو يميل برأسه إليه، يلمس الجزء من وجهه الذي كان مصابًا بالحروق.

صوتها: "هل يؤلمك؟".

"اللوحة؟".

"النار على جلدك".

في الخارج، صرخت رياح البحر بصوت عالٍ – أثّرت على التفكير. أجابها: "عندما أتذكر".

حلّ الصباح. كانت الغرفة تحت تأثير ضوء باهت. وكانت عينا أيانا على زاو وو كي. رأت شكلًا داخل ضربات الفرشاة الحمراء الشاشية. شاهدته أيانا حتى غمرت الشمس الغرفة وتغلبت على منظر اللوحة. في اللوحة، تخيلت أنها يمكن أن تعطي معنى لصدمة الانجذاب إلى هذا الرجل، هذا الشخص غريب جدًا عن أي شيء عرفته أو أرادته من قبل.

قال لاي جين: "إنّها الصورة الظل".

حين نظرت إليه، كانت العاصفة تتربّص في عينيها. تكسّر صوت لاي جين وهو يقول: "إنّها نسخة". اقترب من أيانا ونظر إليها، ثم اقترب من مطبوعة زاو وو كي وهو يقرأ المشاعر بالألوان. سال لاي جين أيانا: "هل ترين؟".

قرأت أيانا إشارات الريشة الزرقاء والحمراء والسوداء كما لو أنّها ندب على صفحة من الضوء. رسم خرائط العالم والذاكرة، مثل تلك السكتات الدماغية غير المرئية التي تركتها العاصفة على جسمها -والتي يمكن أن تتحملها -ولمسة الغريب الوحشية، التي تركت أثرها على روحها أيضًا.

قراءة الجراح.

كانت العتمة قد تسلّلت إلى داخلها. لا يمكن أن ترسم فوقها، ولا حتى بالصمت. لكنّها فهمت الآن أنّها لم تكن بعد لغة كاملة للعار، كما لو أنّ هذه كانت عاقبة امتحان فاشل للوجود. رمشت بعينيها. ها هو! خيط من الضوء الأصفر على اللوحة، رأت مرة أخرى خلاصة رقصة الحياة التي استخرجتها ديلشكا من نيورغ. في تلك الألوان، تمّت دعوتها كشاهدة على الوحي الرفيع. تراجعت أيانا، وابتعدت مرة أخرى عن المطبوعة لتستعيد مرة أخرى صور تلك الليلة من يوم الخميس. يدٌ عجنت جسدها، وفم كبير خفيف التنفس

كان ينوي أن يمزقها، ويعضها، ويأكلها، أطراف سمينة تحاول أن تفرض عليها أن تفتح ساقيها لغزو فاحش.

كانت أمّها تعرف. وكان هذا ما يؤلم. كانت منيرة تعرف معنى ذلك الجسد المتوحّش والمعطّر الذي انتظر ابنتها كما لو أنّها فريسة، كانت تعرف لماذا يتذمّر رجل ناضج كالأطفال ويقول: "أريد هذه الحلي". كانت لمسة والدتها قد نعّمت جلدها وتولت تعطيره -لمسة ناعمة تكسر قشرة الثقة. هناك! الآن يمكنها أن تلمس الأجزاء المكسورة من نفسها، ملطخة وساقطة، تمتزج فيما بعد مع ملح البحر. الآن كان بإمكانها أن تتذوق لسعات الغدر والخيانة التي استرجعتها من قصة حياة امرأة صامتة. كانت ترفرف في قلب الطير. كانت هي المطاردة. كان هذا ما همست به ضربات الفرشاة المظللة المتعددة للفنانين. هذا ما وجدته في النار المنقوشة على وجه قبطان السفينة. كان هذا ما جاءت العاصفة لشرحه لها.

عبرت الساعة منتصف الليل مرة أخرى. كانت السفينة تسير. رغوة على الماء. كانت هناك أيضًا طرطقة الحمولة والأصوات التي أصدرتها كما لو أنّها وحوش تتعذب. الفتاة نفسها على وجه لاي جين – لم يكن عفنًا ولا أي شيء، بل فقط دافئ. كانت مستيقظة تستمع إلى هذا ولأصوات العاصفة كما لو أنّها وسط عتمة لا شكل لها.

اختراق.

كيف تجرأ؟ أخبر نفسه أنّه كان يحاول أن يمنعها عن أذية نفسها، لهذا أحاط بها. ثمّ انتابه الفضول. لم يكن فضوله تجاه الأخر بالمطلق، بل تجاه جانبها الأنثوي. ما هو عكسه. ثمّ شعر أنّ جسدها بين يديه ناعم وبارد وذائب. لذا فكّر بأن يدفئها بجسده. كان لا يزال يحتضنها ويتذكر كيف كان شعور أن يكون جسد قريب من إلى هذا الحد. كانت مستيقظة مثله تمامًا، تستمع إلى نبض قلبه كما استمع هو لنبض قلبها.

كانت تنتظر بسكون، تمامًا كما فعل هو، وكل الجوع الذي ألقاه لاي جين في البحر خرج الآن من أعماق لا تشوبها شائبة مثل كيان ما قبل التاريخ ليترك أثره على وجهه ويخلف ألمًا في بطنه. وابل من الذكريات الصدئة والمكثفة والأبدية والنعم العابرة. المداعبة -يدها على الجانب المحترق من وجهه – ما غيّر نواياه السابقة. كان قد خطط للحفاظ على مسافة بينهما. استثارة بطيئة. خوف مفاجئ. ليس من الفتاة، ولكن من خطر الخسارة مرة أخرى.

شبح رمادي. سخر من نفسه. وهم. قال لاي جين لنفسه إنّها صغيرة، على الرغم من أنّ أصابعها لمست أذنيه وفكّه وفمه. جمع التفاصيل. هو أيضًا. هذا الجلد، هذه النظرة. كانت رائحتها من ماء وملح، من مكان آخر كانت رائحتها من الغبار والأرض. كانت رائحتها كنعومة وردة، وعلم أن السلاسل التي ربطها باحتياجاته قد تحطمت.

تخطت يدا أيانا، في رحلتهما المستقلة، وجه لاي جين – وكان هذا التخطي مقدسًا. فائدة القوانين أو تحكيم الأنبياء، كل الأشياء تمّ محوها من قبل عالم ما بعد العاصفة -لا توجد أرصدة، ولا وسطاء. تملكها الجسد، ذاقت ملمس ندوب حريق هذا الرجل في ليلة مكتومة بالمحيط، عالقة في مكانها الضخم، ملتجئة بالمجهول. جسدها مقوس في جسده، يحاول الوصول لشيء ما. أدهشها الاندفاع السائل من الرغبة، الكثير من الرغبة.

جسدها مجهول. حذر وفضول. من هذا؟ هي، هو. قفزت أسئلتها الواحد تلو الآخر.

"هل تصلي؟"، سألته وهي تميل بوجهها إلى وجهه.

"كلا لا أصلي"، أجابها.

قبّل ثغرها.

"أين منزلك؟"، تأوّهت.

قال لها: "أحمل منزلي معي".

كانت شفتاه دافئتين.

"أخبرني عن بحرك"، تنفّست بعمق وهي تتعرّق وتشعر بحرارة جسدها.

كانت عيناه سوداوين ثابتتين، ووشت بأمرٍ واحد فقط؛ وكاد فمه أن يلمس جلدها مرة أخرى.

ثمّ رفع نفسه عنها، كان تقريبًا يبتسم.

"الأفضل هي المياه العميقة... وإلا تطوفين على السطح مثل بطة بلاستيكية يحرّكها التيار".

صمت لاي جين.

نيران باردة في الذاكرة. "الحياة" – انسحب إلى أفق داخلي ما – "لا أحد يعرف أين تعيش".

نظر إليها، ثم حوّل نظره.

"ربما تكتشف ذلك أنت".

جلس قربها، وهو يصارع قوّته.

"لا تزال يافعة"، تمتم لنفسه.

كانت لا تزال تراقبه. انحنى لاي جين، مكافحًا لكبح ما حرّكت العاصفة في داخله.

"يناير 1992، في المحيط الهادئ، سقطت تسعة وعشرون بطة صفراء من سفينة حاويات. البطات البلاستيكية. تطفو بعيدًا. تسافر حول العالم".

وأضاف: "داخل الصندوق، كانت هناك أيضًا الضفادع والسلاحف. لكن البط "-هنا ضحكة كبيرة -" يذهبون بطرقهم المنفصلة". كانت ضحكتها مكافأة. وتابع: "في بعض الأحيان، على الماء، أرى أشياء فُقدت من سفن أخرى؛ في أحد الأيام رأيت سيارة، فولفو... على جزيرة عائمة في وسط المحيط. مثل شبح مجنون".

ابتسامة أخرى. شبح مجنون.

"زرياب راميس"، قالت أيانا في النهاية. "في يوم من الأيام، أتى التيار وحمله بعيدًا".

أومأ لاي جين برأسه كما لو أنه كان يعرف، أيضًا، زرياب راميس.

داخل العالم الذي خلقته العاصفة والذي فصلها عن الواقع، كان يمكن لأيانا أن تتأمل بحث والدتها ومحيي الدين عن الأشباح، الرسائل التي أتتهما في الأحلام، البحث البشري والانغماس، الكسوف الذي أصبح زرياب، وكيف استولى على عاداتهم وتسبب في ظهور مخلوقات جهنمية أخرى، مثل المشرقي. الاختناق. يرتفع من بين الأموات، ومع ذلك لا يزال محروقًا بماء أمها الساخن. حبست أنفاسها وانغمست بحرية في الصمت، وانجرفت مع مسحة الذاكرة الخضراء الدافئة.

تحت الماء، لم تكن بحاجة لتسمية الأشياء لاحتوائها. الشعور والإحساس والتجربة – كانت هذه المعرفة. هناك، في هذا السكون، استحضرت ألوانه أيانا، مخلوقًا ذو ريشة خضراء، منشدًا الأغنية، محكومًا بنكهات الحياة الكثيفة التي يمكن للإنسان استهلاكها في الظلام في عضة واحدة.

كانت والدتها محيطًا، تتدفق في مواسم ترسلها الحياة، وتتسلقها كجبل بحري، غير مستقر ويُعطى لحد من الحدود، حتى الحدود الضرورية. كانت والدتها واحدة من العواصف التي تم تسليمها إلى الأرض، وكانت تحبها، نعم كانت تحبها، لكنّه كان نوعًا من الحب الذي

يغني. وهي ... ترددت أيانا، عضت شفتها السفلية وفكرت. التفكير. وهي ... نعم، كان عليها أن تحتضن ملء هذه الأم. "أنت تعرف طائر أورتولان؟"، سألت لاي جين. "لا"، أجاب.

قطع اللغز: زرياب راميس، طائر الأورتولان. جمع لاي جين الكلمات كما لو كانوا زوارًا نادرين من عالم غير مرئي.

دخلت ليلة المحيط مقصورة القبطان من الباب المفتوح. انحنى لاي جين ليقبل جبينها. ثمّ باتت شفتاه على شفتيها. في الأحلام، فكرت، أسافر داخل النجوم وعلى النجوم. أحاطت عنق لاي جين بذراعيها. في الأحلام، أنا نفق مصنوع من الظلمات وأنا أعرف الطريق. لست وحدي، حتّى حين لا يكون أحد معي. كانت قد عرفت الرعب، ولكن في عزلة هذا الخلود غير المؤكد، كانت تعرف أمرًا واحدًا فقط، السلام.

"أخبرني عن البحر"، قالت له.

تحوّل.

الحر، قال لها متنهدًا، "لا يمكن النطق به".

فركت يديها على فمه، شفتيه، صارعت نفسها، رسم وشكل وشعور فمه على جلدها. كانت هناك ندبة أخرى، أسفل شفته السفلى. أفكار متسارعة، عواطف متتالية؛ خوفٌ من القادم، أيضًا. خطر للاي جين ثم أنه يمكن إعدامه لهذا الاختيار. لكن هذه الليلة كان يستطيع أن يعيش -بابتسامة -مع ذلك.

كانت الجوهر هذا: التوق الشديد المفاجئ، لفك الغموض عن جسد المرأة ذي اللون البني الذهبي، وشكل الثديين وشعورهما، وتجعّد الشعر الداكن الذي كان يحجب نصف وجهها، ورائحة وردها، ليشعر مرة أخرى بانعدام الوزن في جسده. من داخل قفص ذهنه، سمع صوتًا: "هذا وهم، أنت مجرد رجل." "أنا كذلك"، أجاب عن نفسه. وتبدد البريق من مزاجه. الآن عزم على تقبيلها مرارًا وتكرارًا كما أخبر نفسه أنه، إذا سأل أي شخص، فسيقول إنه كان يساعدها على التنفس. رشفات خفيفة، تذوق مؤقت، شفاه، فم، أسنان، لسان، شفاه مرة أخرى.

أحتاج أن أعرف، قال لنفسه، وكانت أصابعه على وجهها وكتفيها وخصرها الصغير، ثم على ثدييها برفق شديد. انتقلت يديه إلى الأسفل، إلى فخذيها. انتظرت. كان الأمر هكذا عندما تركت جسدها يغرق في مياه البحر، في السعي لاستدعاء تجربة ما يسكن الأعماق،

والسعي لتقريبه إلى نفسها، ولتشعر به على جلدها، وتصل إلى أحلامها التي يتعذر الوصول إليها. شاهدها. شاهدته. رنين في الرأس، ثم اندفع داخلها شعورًا بالوحدة، وغطى البرد جسدها.

انزلق لاي جين من السرير. اجتاز الغرفة ليقفل باب المقصورة، استند عليه رافضًا أن يريح رأسه. نظر إلى أيانا. في الخارج، السفينة والبحر؛ وفي الداخل، الحاضر فحسب. عبر الغرفة وحشر نفسه بجوار الفتاة.

اختراق.

التأقلم مع المرأة مرة أخرى. تصارع مع وجعه الخاص لاختراق الماضي وإدمانه وتذكره، وفقدان هذا العالم وأهميته، وجرحه. هذا، حسب اعتقاده، كان هذا ما تركه في معبد مازو إلهة البحر. كانت قدميّ الفتاة العارية ملفوفتين حوله. كان الانزلاق. التفاوض حل وسط مع نفسه. سحب قميصه. كانت أصابعها على صدره. رغبة النحت. يمكنه تحديد حدوده.

هي صغيرة، يئن على نفسه. كلمة. كلمة. "أنا ... شاب"، قالها.

هزت الموجات التي لا تهدأ السفينة، وظلت مخلوقات الليل تبكي. روحان مستلقيتان في مقصورة مظلمة -أصبح إيقاع البحر من أجسادهما. كان يفكر أنه سوف يلف جسدها حوله ويسمح للمحركات بنقلهما. قمر منحوت. كانت الليلة إمبراطورتيهما.

كانت تنجرف بإحساس بينما مدت يدها لقيادتها نحو مكان آخر تشتبه في وجوده. كانت في التيار، مع التيار، مستلمة؛ وجهت يديه في طريقها، ثم كانت تلهث. لكنه توقف. انتظر حتى عادا لوتيرة التنفس الطبيعية، وعندما فعلا ذلك، بدأ مرة أخرى.

كان هذا الآن جسدها، شعورها، ورغبتها.

هذا الغضب، الالتواء، البحث، كان هذا أيضًا ما كانت عليه، والمشاعر التي أثيرت بسبب لمسة هذا الرجل، ورأت ما تملّك المشرقي في القيود التي فرضها هذا الرجل على نفسه وهو يحرك جسدها ويبكي ثم ينسحب بعيدًا عنها ويستمع لعودتها إلى السكون. ثم رتبها لاي جين حتى كانت على قمة جسده جزئيًا، وأمسك بها، وضغطها عليه، واستسلم للإحساس. وتعهد بأنه لن يفعل أكثر من ذلك، ولا شيء أكثر من ذلك. تذوق الآن. هذا يمكن أن يقدم نفسه، وهو ينهب الأمل. ساعات لضوء النهار. لم يضطرا بعد للتفكير في المعاني والكلمات في العالم.

[48]

كان جدال القبطان مع الأستاذة رولان، التي كانت تلوح بملاحظات منهجها الدراسي، مختصرة وفي اللغة الإنجليزية. مكثفة ومعلنة بعناية: "نحن بطيؤون". يحدق في المعلم رولان. "فقط سبعة عشر كلمة". قالت. "بطيئة جدًا".

قال القبطان: "إنّها مريضة، ليست على ما يرام".

"إنها تسمع، إذن يمكنها أن تتعلم. لا وقت".

لوّحت بالأوراق. "أيضًا" – أشارت إلى المقصورة – "الآن بات بإمكانها البقاء معي".

غضب لاي جين. نظرت إلى عينيه شو رولان. "مقصورتك أنت، قائد السفينة؟ ليس لائقًا أن تبقى هناك".

"يمكنني أن أراقبها".

"أين تنام؟".

"في سريري".

قالت المعلمة رولان بصوتٍ ناعم. "يا قائد السفينة، أنت رجل".

تراجع لاي جين وتصرّف كأنّه شعر بالإهانة. "أيّتها المعلمة رولان، ما الذي يدور في ذهنك؟".

تلعثمت شو. احمرّ وجهها.

"أيّتها المعلمة رولان، تذكري أنّك ضيفة في سفينتي".

"يجب أن أبلغ عن ذلك".

أومأ القبطان برأسه.

"سوف أساعدك في قصتك".

تفحصت المعلمة رولان وجه القبطان بحثًا عن آثار السخرية. لا شيء. تمتمت كلامًا غير مفهوم قبل أن تلتفت إليه.

"متى تصبح جاهزة؟".

تأفّف. انسحبت وهي تقول: "سأنتظرها في الصف".

مشى لاي جين بعيدًا.

مسرح التظاهر.

إذا لم يكن قد عبر آلاف الحدود مساء أمس، لكانت أيانا تتعلم أسماء الماندرين اليوم. توقف. ماذا بي؟ انحنى على السور، ليحمي عينيه من ضوء الشمس. فكر – ما معنى هذه العبارة؟ - "إخماد عطشه بالنبيذ المسموم".

نثر البحر رذاذه على قميصه. راقب البحر. بحره. أظهر الخطوط -الظلال والنور والظلام والممرات... والكلمات. في البحار، كان هو القانون. لم يكن هناك قول مأثور لشرح مصير أولئك الذين حدقوا في عيون الموت معًا. التفت بعيدًا، متجهًا إلى مقصورته. في طريق العودة، أخبر طباخ المطبخ أن يترك صينية الطعام خارج المقصورة. كان سيحضرها بنفسه.

في الساعة التي تسبق الفجر، جلس لاي جين، وهو يلبس بسطًا حول خصره، وأيانا، في ثوب نوم مزهر عائم ينتمي إلى ديلشكا، على كرسي لإلقاء نظرة على زاو وو كي. وضع لاي جين أيانا على حجره ولف ذراعيه حولها؛ كان أنفه على جلدها، فوجد آثارًا باهتة لرائحتها الوردية. تواصل مع الجلد، وشعر بمنحنياتها مرة أخرى، ولمس روعة خصر المرأة. نظر إلى يديه على جسدها، ومدى قوته وكبرهما. كان أنفه في شعرها. قالت أيانا: "عندما تسقط النجوم بالقرب من الماء، فإنها تتحول إلى رمل".

أمسك لاي جين بيدها.

"لقد رأيت نجومًا تقع".

"لماذا تقع؟"، سألته.

مال برأسه واقترب منها ليهمس في أذنها كلمات "الأحمر" والأبيض" و"الأسود" و"الأزرق" و"البرتقالي" بلغد الماندرين. هزّ كلّ من جسديهما مع إيقاع المحيط؛ يداه على أردافها، أصابعه تحفر في اللحم، كرّر الكلمات حتّى ما عاد بوسعه الكلام.

في وقت لاحق من اليوم، حفظت أيانا هذه الألوان. ورسمت الصور التوضيحية على قصاصات من الورق. أشرفت لاي جين على صقل الخطوط الموجودة على بعض الكلمات.

"هذه هي الطريقة التي تكتبين بها اليعسوب". تذكرت.

"انتظري"، قال لاي جين. كانت أيانا قد قالت، "اليوم أعود إلى مكاني". كانت يده اليمنى صغيرة على ظهرها. انحنت مرة أخرى إليه. "انتظري"، تمتمت لنفسها.

وضع النادل صينية العشاء المبكر عند باب المقصورة. كان هناك إبريق خاص لعصير التفاح. بعد العشاء، وضع لاي جين أيانا في سرير المقصورة، جلدها إلى جلده، أجساد دافئة، لا يفكران. جلد لاي جين الباهت، جلد أيانا البنيّ اللون. فركت جسدها بجسده، وضغطت على جلده، متفاجئة بالنهم المستمر لشغف الإنسان، بكل تنوعه. كان يجب أن تكون قلقة. لكنها لم تكن كذلك – ليس فيما كانت منغمسة به.

أنت لا تزال شابًا، حدّث لاي جين نفسه. أنا فقط عابر من هنا. شعرت بالتحذير بروحها، وبآلام مجوفة داخل بطنها. لا أستطيع البقاء. كان يتراجع إلى ملجأ بعيد. زوجتي الوحيدة هي البحر، في البحر.

[49]

قبل الفجر، حين بدأ الجنّ بالعويل، فتحت أيانا أخرى باب مقصورة القبطان لكي تجد معنى في هذا العالم. مزاج جديد مع نضارة الصباح؛ كانت تغمرها الأحاسيس وروح التغيير، والشعور بالألم بسبب نوع مختلف من الإجازات. استنشقت الهواء وشاهدت طيور الصباح المارة. كانت تتكئ على الدرابزين لتنظر إلى شريط الضوء الرقيق لليوم الذي يقترب. من أنتِ؟ وصل البحر إليها حتى لمسها.

تجولت أيانا على سطح السفينة ورائحة تبغ قوية تفوح في الهواء، ثم سمعت ديلشكا تضحك من داخل مقصورة نيورغ. مرّت قرب زاوية ركن المعلمة رولان للوصول إلى غرفتها. حرّكت مقبض الباب. لا شيء. مقفل. عندما استدارت، كان لاي جين هناك. "مفتاحك"، قال لها. أخذته. انتظر خمسة عشر ثانية قبل الابتعاد. القفص المفتوح. صعدت إلى الغرفة، ولاحظت ازدحام صور الصين فيها. نظرت إلى شبه الأميرال تشنغ خه. انزلقت على سجادة أمها. كان كل شيء في الغرفة بالضبط كما كان قبل العاصفة. لكنّها هي لم تكن كذلك.

ذلك المساء، عادت أيانا إلى مقصورة لاي جين وعدة الحنّة في يدها. كانت قد أمضت اليوم في مقصورتها، ترسم على قدميها وتغسل جسدها وشعرها بزيوت جزيرة بيت. كانت

الحناء محمية النساء. ولكن، وقد طانت على ركبتيها الآن، لامست أيانا جسد رجلٍ في الضوء الذهبي لمساء البحر. أراح لاي جين رأسه على ذراعيه، بينما لمست أيانا الأجزاء المحروقة من جلده، وأخبرت لاي جين قصصًا كانت قد سمعتها عن جزيرة بيت حيث عاشت. كانت ترسم على أجزاء من جسده ستغطيها الملابس لاحقًا وتقيها من عين المراقب: ظهره وصدره والجزء الأعلى من فخذيه.

تحدّثت. "تعيش بلدتي في شبح مدينة كانت يومًا مركز العالم"، قالت له. "الكثيرون يأتون إلى هنا ليبقوا".

تحدّثت عن محيي الدين. "لقد اخترت والدي. اسمه محيي الدين".

أيقظت الجراح.

"أمّي منيرة في أفضل مغنية في جزيرة لامو، لكنّ أحدًا لا يعرف ذلك سواي وسواها".

غطت جسد لاي جين من أسفل الرقبة برسوم اللوتس والزهور. استمع لها، شعر بدغدغة فرشاة أيانا والسائل البارد على جلده الناعم. حفرت بيت هناك بصوتها. نقلت ذاكرتها. قالت: "الأجنحة"، "مثل اليعاسيب".

وعندما انتهت من ذلك، اتكأت على لاي جين لتقبل الندوب على جانب وجهه. مسّدت رأسه وطلبت منه البقاء حيث كان لمدة ساعة على الأقل قبل أن يغتسل. ثم جمعت ما كان لها وغادرت المقصورة.

فتحت أيانا باب مقصورتها عند الفجر. كان الليل يتحول إلى النور عندما سمعت صرخات الجنّ.

إنّها صغيرة، قال لاي جين لنفسه، والدمع في عينيه.

مصيرها هو لها وحدها.

Maji hufuata mkondo.

المياه تتبع التيار.

[50]

غادرت أيانا مقصورتها في الساعة التاسعة صباحًا. ارتدت قميصًا أبيض واسعًا وبنطلون جينز. كانت حافية القدمين. شعرها مربوط إلى الأعلى. لم تتناول طعام الفطور. حملت كتب دروسها وذهبت لكي تنتظر المعلمة رولان في غرفة الدراسة. كعادتها، أتت المعلمة رولان في الوقت المناسب. وجدت أيانا جالسة. تصلّبت ولم تعلق على قدميّ الفتاة الحافيتين. كانت قد تعافت. بأصابع ترتجف، قلبت أوراق الكتاب المرجع.

قالت لها: "في درسنا الأخير، تعلّمنا عن نجوم الصين؛ عن تو مو، نجمة الإمبراطورة التي لا تهدأ".

التقطت أيانا قلمًا أزرق لكي تدوّن بعض الملاحظات. تذكرت مرة أخرى أنه أحيانًا حين تقع النجوم، تتحول إلى رمل البحر.

عاد القبطان لاي جين إلى مكانه عند الجسر. كان بنفس كفاءته السابقة، وتصرّف كأنّ العاصفة لم تكن. قفزت ديلشكا لملاقاة أيانا وهما في طريقهما إلى العشاء.

تنشقت جرعة قوية من عطر الورد، أمسكت بأيانا في عناقٍ قريب وقالت لها: "أيّتها السخيفة، السخيفة الصغيرة! بماذا كنت تفكرين وأنت تتجولين في عاصفة دموية؟ كنت شبه ميتة حين وجدوك يا فتاتي. أخفتني كثيرًا!".

لمست أيانا وجه ديلشكا. طائر الأرتولان، فكّرت. حدّقت ديلشكا في أيانا.

"آه يا عزيزي، يا عزيزي!"، صاحت ديلشكا لنيورغ. "نيو انظر إلى هنا! لقد عاد طائرنا المهاجر".

أومأ نيورغ برأسه لأيانا، كانت نظرته غامضة. "مساء الخير، أنت بخير. نعم".

قالت ديلشكا: "نيو حبيبي، أنت متهور جدًا".

قبل نيورغ ديلشكا على جبينها. ابتسمت أيانا.

"أين الطائر؟"، سألت ديلشكا وسط قعقعة السكاكين والأواني الفخارية في الفوضى والمطبخ: "البائس الحلو. بعد أن أكل وشرب معنا، واستمتع باللجوء ونحن نصدر إقامته،

غادر سرعان ما هدأت العاصفة. لكنّه نظر إلينا قبل أن يغادر، أليس كذلك يا نيو؟".

ضحك. "كائن غريب". وقفة.

"أخبرينا يا أيانا الصغيرة"، تابعت ديلشكا، "كيف هو قبطاننا النبيل في الأماكن القريبة؟ لقد كان يحميك تمامًا – لم يتحمل فكرة أنّك قد تموتين. لم يكن الأمر كما لو أنّك أردتِ قتل نفسك لكي تغيظيه. كان يجب أن أقول له هذا".

انقلبت معدة أيانا. استدارت بوجهها لتنظر إلى ديلشكا.

تمويه. "لطيف"، قالت أيانا.

تنهّدت ديلشكا.

"حين تقولين لطيف، تقصدين فعليًا ممل إلى درجة بعيدة. آه حسنًا تعالي، لتناول بعض المعجنات. أقسم أني لن أتناول أيّ عجين بعد اليوم. كان نيو يخبرني عن سفينة مارسك. هل سبق أن سمعتِ بالسفينة الشريرة؟ قبطان شيطاني. مقرف. صيني".

"إنّه تايواني"، صحّح لها نيورغ.

"نفس الشيء"، تابعت ديلشكا. "شيطاني. كان عليّ أن أقنع نيورغ أن القبطان لم يطعمك لسمك البينارا. أليس كذلك يا نيو".

"نعم"، تنهّد نيورغ.

التفت إلى أيانا. "لقد كانت بين أيادٍ آمنة". سعلت أيانا.

"نعم"، أومأ نيورغ. "ديلشكا، ليس في البحار أسماك البيرانا".

"أنا متأكدة أنّها موجودة، لكنّ البشر لم يعثروا عليها بعد"، أجابت ديلشكا.

وصلوا إلى الطاولة. كان الحساء الساخن مسكوبًا في صحون كبيرة. صاحت ديلشكا: "أوه انظر! هناك كائنات خضراء تلهث للتنفس داخل الحساء. أسرع بإنقاذها يا نيورغ".

كانت ديلشكا تضحك.

"آه يا فتاتي العزيزة، تعالي واجلسي قربي".

راقبت أيانا ديلشكا في ثيابها المشرقة، وجهها غير المصطنع بعينيها المشرقتين الواضحتين، وشعرها، وفرحتها. اختفت هالة المعاناة التي كانت تحيط بها. مالت أيانا برأسها لدراسة نيورغ سرًا. بدا كما لو كان صخرة قديمة في البحر، ولكن نظرته المرتبكة والمتساوية كانت تتحول في كثير من الأحيان إلى ديلشكا. التفتت أيانا إلى حسائها ولمحت

شظية من زاو ووكي التي كانت تتسرب إلى حواسها.

رنة آلات ثقيلة، وصيحات طاقم يحضرون مهام غير مرئية. داخل الفوضى، على الطاولة، كانت ديلشكا تتحدث عن المطهر مرة أخرى. كان نيورغ قد تحدث عن التعاقد الأمني -الذي استفاد من الحرب، وقامت ديلشكا بتصحيحه -من ساحات الصراع في العالم.

قال إنّ حقيقة ما اقترف البشر بالعالم بحروبهم الجديدة ستظهر يومًا ما؛ وأقسم ونظرة حزنٍ تملأ عينيه، أنّ البشر في ذلك اليوم سيخبئون وجوههم من بعضهم البعض من شدّة ما سيشعرون بالعار. لم يشرح ما كان يقصده. حين توقف، سألته أيانا: "لماذا؟".

قال لها نيورغ، "لا تخطئي الاعتقاد يا أيانا الصغيرة، الإنسان ذئب بحق أخيه الإنسان؛ ليس هناك أشخاص جيدون". كان صوته جافًا حين أضاف، "لكن الذئب أكثر شرفًا. على الأقل يتصيّد وفق معايير أخلاقية". تحولت نظرة نيورغ إلى الداخل، ساطعة ولكن يائسة. تمتم: "أخشى أنّنا أورثنا جيلك عالمًا محطمًا". لكمت ديلشكا ذراع نيورغ. "لا تخفها يا نيو – لا يجدر بك ذلك".

"ديلشكا يا عزيزتي. من الجيد لها أن تفقد الأوهام الآن، هنا، معنا".

التفتت ديلشكا إلى أيانا. "منذ سنوات، كنت في روما مع الوحش الذي تزوجته. تجولت ووجدت مبنى بواجهة بيضاء محصورة بين الصرح البرتقالي والبني. كانت كنيسة". تنهّد نيورغ. قرصت ديلشكا يده.

"كنيسة القلب المقدس". أخفضت صوتها: "مكرسة للمطهر وحرائقه".

"ما هو..."، بدأت أيانا بالأسئلة.

قاطعتها ديلشكا. "فضاء بعد الموت الفضاء للتطهير والتوبة... مثل منتجع صحي يستخدم النار كعنصره الوحيد". "نظرت إلى نيورغ، التي تأفف منها. "يطهر الوصمات البشرية والعفن".

انحنت أيانا إلى الأمام لتستمع.

"داخل الكنيسة مزار ملون يعود إلى الأرض بأطراف من النار". سألت أيانا ساخرة: "هاا"،"لماذا ننظر إلى الوراء؟". أمسكت ديلشكا بوجه أيانا، "النفوس" -التفتت إلى الوهج في نيورغ -"تتطلب مساعدة الأحياء -نعم، نيورغ -لمساعدتهم على إدراك الأبد. إنّهم يعودون لإخبارنا – نعم يا نيورغ – أنّ هناك مزيد من الحياة ممّا نرى".

أكملت ديلشكا: "في ذلك المكان، فهمت أنّ الحياة قائمة على أسس الفرص الثانية".

تذمّر نيورغ: "ديلشكا، لا توجد حياة خارقة، لا آخرة، لا...".

قاطعته: "لا موت؟".

"ماذا إذن؟".

كانت تصيح: "هل تجرؤ على شرح الموت؟".

"أعلم أنه يهلك الحياة، ديلشكا. أنا ممثل في حروبنا الإنسانية البشعة. لا توجد إجابة عن الحريق الذي يحول الأخ إلى شريحة لحم مقطوعة الرأس ومحمصة... أليس كذلك؟".

نظرت إليه ديلشكا، نظرات بلا تعاطف. "ما تقصده هو أنّك لم تحلم بعد بمعادلة رياضية مناسبة لتفسير اللامعنى".

استدارت لتلتفت إلى أيانا. "النساء في عوالمنا لديهن حواس أخرى أعمق وأوضح. احتفظي بحواسك يا عزيزتي، لكي تتمكني من قراءة الرسائل ما خلف الظلال. إنّها موهبة".

توقف.

"والآن، دعونا نأكل ونتكلم عن أشياء أخرى... نيو، لم أنته منك بعد.... أنظري يا أيانا، الشعيرية!".

ابتسمت أيانا، لكنّ أفكارها كانت في مكان آخر. حدّقت بالحساء والخضروات الخضراء اللزجة في الحساء. مالت إليها ديلشكا كأنّها تقرأ أفكارها. "الحب يا عزيزتي"، قالت لها، "هو بمعظمه للتطهر. إنّه أحد أشكال العتمة الكثيرة".

نظرت إليها أيانا بذهول. ابتسمت ديلشكا. "أخبريني يا عزيزتي، ما أكثر ما تحبينه في هذا العالم الآن؟".

فكّرت أيانا: "جزيرة بيت".

"للأسف، لم أصل يومًا إلى هناك"، قالت ديلشكا.

"ما معنى أن نحب؟"، سأل نيورغ.

المكان المثالي هو المكان التي نأتي منه، وتقوّي المسافة هذا الشعور. تحوّلت رؤية أيانا إلى موطنها كما لو أنّها كانت من العائدين. ارتاحت تعابير وجهها وهي تتذكر عطور أمها والنجوم المتلألئة في بيت. في معجم أيانا، كان يمكن رؤية محيي الدين ومنيرة وبحار بيت التي أضاء فوقها القمر ومراقبتها من برج رملي في الليلة المعطرة برائحة الياسمين. كانت

جزيرة بيت، كما تخيلتها أيانا، ترياقًا للعوالم المُدنسة، لذا، عندما أنهت أيانا تذكرها، كان هناك صمت. التقطت العيدان لتناول الطعام، بينما أرسل لها المحيط أسئلة لا أجوبة لها. انزلق قناع نيورغ القاسي. "يا آنسة أيانا، سنقوم بزيارة منزلك، أليس كذلك؟".

التفت بعدها إلى طعامه. أمسكت ديلشكا بيد أيانا.

"لا تدعي العالم يغيرك".

كان كلام ديلشكا موجهًا لكل من أيانا وجزيرة بيت.

[51]

تصارعَ مع رغبةٍ مفاجئة بالتخلي عن كلّ ما كان يعرفه ليتبع مشاعره التي لم يكن يثق بها ولا كانت مؤكدة. مخاوف مبهمة. تمسك بالقوقعة التي خلقها لنفسه. خاطب القبطان ركابه باللغة الإنجليزية: "نصل إلى شيامن خلال خمسة أيام". لا عاطفة في صوته. رأى أن أيانا خفضت رأسها. التفت بعيدًا.

اقترب منها لاي جين: "امشي معي". سارا على ظهر السفينة معًا. ثمّ قال لها: "ستجد الصين نفسها فيكِ؛ أنتِ أيضًا ستجدين ذاتك الصينية".

مفضوحة. تدفقت دموعها. الحبار! قالت بيأس. ألا تستطيع تغيير الشكل واللون وتختفي في المشهد؟ قال لاي جين، "هل ستنسين هذا؟".

"نعم"، قالت متحدية نفسها. استدارا إلى الزاوية، أسفل ممر محكم، أمسك بها هناك، التفت يداه على شعرها الكثيف ودفع جسده باتجاه جسدها.

تخبطت في الألم. ارتجفت، اقتربت منه، إليه، ابتلعت الخوف. كانت ذات بشرة ساتانية وشابة. كانت طويلة وناعمة. وكانت عيناها داخل روحه المنهكة. دفن رأسه في عنقها. تنفس بقوة. وجدت أصابعها طريقًا إلى صدره وصولًا إلى بطنه. لمدة دقيقة، كان بإمكان لاي جين حملها؛ كان بإمكانه التمسك بها لمدة ستين ثانية. تنفسها. "العالم في انتظاركِ ... وأنا. ".

استعجلا الخطى على السفينة. ابتعدا عن بعضهما البعض. سرعان ما عدّل ملابسه

وملابسها. حدقت في هذه اللحظة التي لا حول لها ولا قوة، والتي وجدت طريقها إلى أعماقها. كانت هنا ذكريات مصنوعة من فروة الرأس اللاذعة. ماذا فعلتُ؟ سأل لاي جين نفسه. ربما أيضًا أيانا سألت نفسها السؤال نفسه.

Maji hayakosi wimbi.

المياه دائمًا لها أمواج.

[52]

كانت الحمولة تنزف. ملأت رائحة الدمّ المتعفن السفينة. كانت ليلة مرعبة. كانت الأمواج أشبه بأبراجٍ تعترض طريق السفينة. ولكن الآن وقد بات الوضع أكثر هدوءً، بدت السفينة كما لو أنّها كانت تنزف. أرسل الضابط المسؤول أحد أعضاء الطاقم ليتفقّد الحمولة. وبعد نصف ساعة تقريبًا، ظهر رجلٌ ضخم وملامحه قاسية، لكنّه كان يبدو شاحبًا. تكلّم مع الضابط المسؤول الذي توجّه على الفور إلى الجسر وطلب أن يلتقي بالقبطان.

اجتمع الجميع على سطح السفينة تحت المطر وكانوا ينظرون إلى الأسفل في محتويات ثلاث حاويات منقسمة. خمسمائة من الكائنات الإفريقية الميتة: الأسود والفهود والبنغول والحمر الوحشية والغزلان. أحصت أيانا مرّة تلو الأخرى أنياب الفيل، ليس العملاقة، بل العاجية الصغيرة غير المشوهة للأفيال الصغيرة. تحركت بعض جثث البنغول – لم تكن قد ماتت بعد -وكان ذلك أكثر ما أزعج الجميع. كانت هناك أشياء لم تعرف أنها تؤمن بها، ولم تتخيل أنها قد تشعر بها. لم تفهم أنها ربما تبكي على هذا، الدليل على نهب وهدر كنوز وطنها. ومع ذلك، كافحت للحفاظ على رباطة جأشها أثناء الفطور.

أبطأت سفينة الكينغروي/غولونغ إلى خمسة عقد. خطت ديلشكا باتجاه الجسر وهي تصيح. حاول نيورغ أن يهدئها وهي تصيح: "أيها الفاشيون الصغار الرهيبون والجشعون. قتلتم كل شيء. أيّها البرابرة مهدّمو الجمال، لماذا لا تموتون؟ دعني أذهب". صاحت في وجه نيورغ الذي كان يجرّها من ظهرها. "دعني أذبح هؤلاء السفلة. لصوص أصليون! أليس هناك ما لم تدنسوه؟ آه! نيورغ، توقف عن حمايتهم!".

وسط هذه الفوضى، سمع القبطان لاي جين الإهانات وهو يتفحّص بيان الحمولة للمرة الخمسين. توقف مؤقتًا ليذكر نفسه لماذا، في الظروف العادية، لم يسافر أبدًا مع الركاب. عند ضبط الأوراق في يده، لاحظ مرة أخرى أن الحاويات المعنية كانت مدرجة تحت علامة "خردة المعادن". ركز لاي جين على الاسم المرفق بقائمة الشحنات. لقد كانت شركة استثمار وتجارة، وإذا خدمته الشائعات العامة بشكل صحيح، فقد كانت مرتبطة بالشخص الذي تكلّم بلهجة شنغهاي. رجل له لدغات صوت تم ترتيبها مسبقًا لتمويه

النية الحقيقية. في الخارج، أحاط نيورغ ديلشكا بذراعيه. صاحت ديلشكا، "القتلة!".

مالت بجسدها. "أين تلك المرأة؟". كانت تبحث عن شو رولان، ورأيتها واقفة بجانب الدرابزين.

"اشرحي هذا أيّتها العاهرة، العاهرة التي تتظاهر بالعفة!".

"ديلشكا"، وبّخها نيورغ.

"ماذا، نيو؟ ماذا؟ كل شيء قابل للتفاوض بالنسبة لك، أليس كذلك؟".

"كوني عقلانية".

"لماذا؟".

"ليس خطأهم".

"إنّهم هنا، أليس كذلك".

ثمّ انهارت بين أحضان نيورغ، ذراعاها مفتوحتان له ومتعبة. شقّ لاي جين طريقه بين الركاب، تجاهل كل النظرات ومشى بخطى ثابتة. راقبته أيانا وهي مصعوقة. أبطأ الخطى. ماذا كان بإمكانه أن يقول؟ أنّه تمّ استغلالهم؟ نصحه طاقمه الأقدم بأن يقوموا بإغلاق الحاوية قدر الإمكان والإبحار بها. كان بإمكانهم أن يتحملوا الرائحة الكريهة لبضعة أيام أخرى، لكنّهم شعروا بأنّه تمّ استغلالهم والتلاعب بهم، وهذا – الافتراض بأنّه غبي -أصاب فخره وشرفه أكثر من غيره. لقد ذهب إلى البحر من أجل إعادة كتابة حياته، ولكن الآن نسج أشخاص أشرار مصيره. اليوم، شعر بثقل الحياة في داخله. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالتهريب الدموي على سفينته، ولكن أيضًا بالشكوك القوية التي هزّته. ماذا لو كان قد استقال من تفويضه في اليوم الذي سمع في لهجة شنغهاي؟ ولكن فات الأوان. كانت الفوضى مزهرة بالكامل في الداخل والخارج. تراجع لاي جين إلى سدة السفينة. انطلق في مسار أسرع. لم يتكلم أحد. عادت السفينة إلى كونها سفينة من الصمت البشري يقابلها أنين الآلات.

كان لاي جين يتوقّع الطرق على باب مقصورته. فتح الباب. كانت عيناها حمراوين من شدة البكاء. خفض رأسه.

"أنا أعتذر"، قال لها. لمست أيانا كتفه. عدّل لاي جين وقفته على الفور. عينان ملأهما القلق. جلست على حافة السرير. حين نظر إليها، كان هناك استسلام في نظرته وانسحاب. وقف ليقف أمام مطبوعة زاو وو كي، متوجهًا بالحديث إليها وهو يفرك الجزء

المحروق من وجهه.

"أنا بطة بلاستيكية عائمة في المحيط".

كانت هناك مرارة على شفتيه. استدرا ليتفحصها.

"اذهبي إلى النوم. يوم غد سأقوم بفعل أمرٍ ما".

لامست أصابعه أصابعها. "هل تصدقينني؟". كان صوته باردًا.

حدقت به أيانا قبل أن تتمتم. "أحتاج الى الهواء". غادرت. عدّل لاي جين هندامه وخرج للعودة إلى الجسر وتخفيف الأمر الليلي.

عندما جاء الصباح، كان الكابتن لاي جين يرتدي الزي الرسمي. لم يمارس مطلقًا السلطة القانونية التي أعطاها له أمر السفن البحرية. تجرأ على المشي على حافة الهاوية. اللعب بالخوف، اللعب بالنار. المقامرة. أولًا، استدعى الطاقم بأكمله واعتذر عن تعريض وظائفهم للخطر لأنّه لم يتوقع الخداع الذي سمح بشحنات غير مشروعة ومدانة عالميًا على متن سفينتهم. انطوى اعتذاره على تحذير خفي. كان من مصلحتهم ألا يتم ربطهم بهذا النوع من السلع المهربة إذا أرادوا مستقبلًا أن يعملوا في مجال الشحن. وقال إنه توصل إلى قرار بشأن الشحنة التي كانت مسؤوليته وحده وكان هو الذي يتحملها. أبلغ طاقمه أنه في الليل، تلقى أوامر لمقابلة سفينة أخرى في أعالي البحار من أجل نقل هذه الشحنة المعينة. وأضاف أنه يعتزم تجاهلها. وطالب بالتعاون من طاقمه.

في ذلك اليوم، عادت دروس ايانا مع المعلة رولان إلى الأساسيات: "ما اسمك؟ أين تقيمين؟ كيف تعرفين؟".

كانت سماء ما بعد الظهر بنفسجية عندما تم تنفيذ الخطة. بناءً على تحريض من كابتن الفريق المعتاد، تخيل بعض أفراد الطاقم الرئيسيين على متن السفينة غولونغ عاصفة. يا لها من عاصفة، لأنها جعلت الأدوات التي تخزن وتنقل البيانات عديمة الفائدة. فشل إلكتروني. تسبب في فقدان سفينة غولونغ في "محاملها". سأل لاي جين كبير الضباط، "ما السفن الموجودة في الجوار؟".

"لا أستطيع أن أؤكد. ربما ثلاث". تفقّد الرادار.

"قوارب صيد".

"اسمح لها بالمرور"، قال القبطان.

بعد ثلاث ساعات، تنفيذ الوهم.

"البحار القاسية".

"الأمواج الضخمة".

"السفينة المتدحرجة".

"درجة الحرارة 35 درجة؟".

"اجعلها أربعين".

"الخطر القاتل".

"خطر" انقلاب السفينة أجبر القبطان على اختيار تفريغ الحاويات في البحر. تم تنفيذ تعليماته. بعد ثلاث ساعات، كانت ست حاويات فولاذية مليئة بـ "الخردة المعدنية" تغرق بعيدًا عن الأنظار.

خسارة ضرورية – هكذا تمّ تسجيل الحادثة. نظرًا لكونها "بعيدة عن المسار" بعد "العاصفة"، فقد غابت سفينة غولونغ عن موعدها مع السفينة التي انتظرتها. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك تداخل ثابت غير مألوف مع نظام اتصالات غولونغ، ولم ترد أية رسائل. ذهبت السفينة أبعد من ذلك عن مسارها. سجلت السفينة ممرًا مسكونًا بشكل غير عادي إلى شيامن.

عاد النظام على متن السفينة. كان هناك استمرار همهمة البحار اللطيفة التي تنتشر فيها العديد من قوارب الصيد التي سارعت بعيدًا عن طريق السفينة العظيمة المتثاقلة.

[53]

توجّه لاي جين إلى مقصورة أيانا، حاملًا مطبوعة زاو وو كي في ملفوفة محكمة التغليف بالبلاستيك. وجدها جالسة على الأرضية، وهي تنظر إلى خريطة الصين. لم تنظر إليه. جثم بجانبها. امتدت أصابعه ليلعب بتجاعيد شعرها، يفردها، ثمّ يشاهدها وهي تعود إلى حالها. أراد أن يخبرها عن إلقاء الحاويات في الخارج، لكنه كان يعلم أيضًا أنه كلما كان الركاب أقل معرفة، كان ذلك أفضل للجميع. كان الرجل الذي تكلّم بلهجة شنغهاي رجلًا

طويلًا، ولم يكن من الممكن الاعتماد على كل من على متن السفينة للحفاظ على الصمت. شخص ما سوف يكسره. وقد تكسره عواقب فعلته إن انكشفت... لكنّه لم يرد أن يقلق الآن. تفحّصت أيانا خريطتها.

"كم من الوقت بعد؟"، سألته.

"ثلاثة عشر ساعة"، قال وهو يمسّد وجهها. لمسة. والآن نظرت إليه وهي تسأله بحذر: "ألن أراك مجددًا؟".

أعطاها مطبوعة زاو وو كي من دون أن يجيبها. أخت المطبوعة. "أمر آخر"، قال لها. أعطاها صندوقًا أحمر اللون منقوشة عليه عبارة "صنع في الصين".

كانت قطعة الخزف الصيني التي أنقذتها المحيطات، وهي من بقايا الأميرال، هدية شعب كينيا لشعب الصين. أخبرها: "احتفظي بها بأمان". لكنه اضطر أيضًا إلى مسح الدموع من وجهها باستخدام يديه. غمرهما الصمت. ثم استردت أيانا عبوة ملفوفة من حقيبتها، كانت تحتوي بوصلة فندي مهدي. قدّمتها للاي جين. قالت له: "احتفظ بها، إنّها من بحري".

لم يقم بأي رد فعل.

"خذها".

ما فعله كان أن يميل برأسه ليراقب عينيها ويقبلها ويعض شفتها السفلى. بعدها، كانت تبكي. رفعت يدها. حكّت وجهه في مكان ندبة النار. رَجَعَ، لكنه ضحك ثم جرّها من قدميها. اقتربا من بعضهما البعض، ملابسهما متشابكة، يميلان معًا، إذ لم يكونا يتلامسان فعليًا. مال برأسه ليستنشق، كما لو أنّها آخر مرة، رائحتها التي بدت مثل تفاح الخريف الأخير، مثل الانتظار في المطر، مثل اللحظة التي تسبق انسكاب نهر تشيانتانج مباشرة في بحر الصين الشرقي: رائحة البحر والحياة والأرض والخوف، والظهور في السماء كحمل المد والجزر. كانت هذه رائحة الآن و-كما هو الحال دائمًا-رائحة الانتظار. غمغم شيئًا في رأس آيانا. مهما كان، فقد أمّن التعويذة. توقف قليلًا، ثمّ قال: "مهما كان، إنّها الحياة يا أيانا. الوحدة أشبه ببلدٍ ليس فيه سوى صوت المعلم".

ظنّ أنه كان واضحًا، وأن الكلمات التي قام بربطها معًا كانت منطقية. "أيضًا، -كوني ما تجدينه في وجهتك". ومع ذلك، سمعت أيانا فقط الأصوات التي تحطمت على رأسها

وأثقلت قلبها. أخذ هدية البوصلة وسار، بخطى سريعة، من مقصورتها. وقف لاي جين في الخارج لمدة ثلاثين ثانية، ولمس وجهه، الجانب المحترق، المخدوش، بدلًا من الوداع. العاصفة التي أجهضته من طريقه كان يجب أن تنحسر داخله. لكنّها هاجت فقط. كان من اللافت أنّ أولى نظرات أيانا للصين كانت عبر دموع انسكبت من عينيها، وجسد ارتعش كما لو أنّه مصاب بالملاريا يصارع إحساسًا داخليًا جديدًا، مسكون بشعورٍ أنّه مطارد.

Bahari itatufikisha popote.

المحيط يقود إلى أيّ مكان.

[54]

كان من المفترض أن تعلن طيور البلشون الأبيض وصول القادمين الميمون. ولكن اليوم، وبسبب الضباب، بدت وكأنّها غارقة في الكآبة والقل. نظر لاي جين من فوق كتفه إلى البحر. كان مضطربًا ومنزعجًا كما كان هو تمامًا. هبت ريح باردة مثل تحذير البرد. وكان لاي جين يأمل في الدفء. كان القلق مثل حكة في لسانه. شدّ شفتيه. أيًّا كان مصيره، كان سيلقاه.

تذكّرت أيانا معنى كلمة المرفأ باللغة المندرينية. قالت لها المعلمة رولان أن تتخيّل الأشياء التي ستراها من الآن فصاعدًا بالمندرينية فقط. اصطدمت نظرات أيانا بالعديد من الرافعات والحاويات، وأسطول يقترب من الميناء. إلى الشرق، كانت تايوان ترشح بالدخان. وجدتها على الخريطة. بحثت عنها من خلال نافذتها ورأيت كينمن فقط. الكلمات الكبرى أفسدت رسالة رددتها شيامن. كانت يومًا ما لتفكك معناها. رأت المباني البيضاء العالية والهياكل الكاسحة للأمة تسير نحو رؤيتها للتقدم. مساحات خضراء والعشرات من المباني السكنية. فحصت عينا أيانا التلال البعيدة.

القدر.

نسيت أيانا فجأة معنى كلمة القدر بلغة الماندرين.

داخل مقصورتها، شعرت تشنج في بطنها. من سطح السفينة، تسرّب الهواء البارد. رائحة الملح والزيت المسكوب: كانت تلك الرائحة المتعارف عليها للموانئ. كانوا بحاجة إلى أن ينتظروا قبل أن يظهر القبطان الذي سيرافق السفينة إلى الميناء. سمعت الصفارات. هل كانت في المنزل؟

أصوات الوصول، قعقعة المرساة؛ أصبحت السفينة شيئًا على قيد الحياة. تهتز، آلات تطقطق، أصوات الميكانيك، وهمهمات وتذمر. ارتفعت الأصوات، والصراخ، والأوامر. أضواء. الشعور بالارتياح للوصول. داخل الوداع، أجبرت النفوس على الابتعاد عن هذا العالم المؤقت التي سكنته، للعودة إلى أرض الواقع.

صراع الفراق، على الرغم من أنّ هذا الوصول كان بالنسبة للكثيرين نوعًا من

العودة إلى المنزل. كانت ديلشكا تتجول منذ ساعات، مرتدية معطف نيورغ الأسود، وحين اصطدمت بأيانا، همست لها كما لو أنّها تحضر لمؤامرة: "هنا الحياة! هنا الحياة!".

مشت أيانا كما لو أنّه كان محكومًا عليها. كانت تتألم للعودة إلى الحياة على متن السفينة. من أنتِ؟ كان البحر لا يزال يناديها.

من أنتِ؟ تجاهلت نداءه.

ساعات مفككة.

سلّمت أيانا نفسها لتوجيهات المعلمة رولان. بحثت ديلشكا عن أيانا وخنقتها في عناق ضيق ومليء بالدموع بينما كانت المعلمة رولان تتوهج. "أنت شيء، أنت شيء جميل. يمكنني أن آكلك. أنا أحبك بشدة يا طفلتي. سوف نأتي ونراكِ -أليس كذلك يا نيو؟ سنسافر إلى جزيرة بيت معك -أليس كذلك يا نيو؟ نيو، أعطها رقمك. يجب أن يكون بمثابة عنواننا ووسيلة اتصالها بنا في الوقت الحالي".

مندفعة، التفتت أيانا إلى وجه ديلشكا وأمسكت بوجهها لتقبيلها على جبينها، كما اعتادت منيرة أن تفعل لها. "شكرًا لك"، قالت. وسلم نيورغ بطاقته لأيانا، مع رقم واحد عليها. أومأ إليها. "لديكِ شعبكِ". ربت على كتفها. احتضنته أيانا. حولهم، تضخمت الأصوات وتمايلت أجسادهم، كما لو أن كانت السفينة لا تزال محاطة بالأمواج.

صعد المسؤولون المتنوعون على السفينة لفحص وثائقهم. كان هناك مزيد من التأخير. وكان اجتماع الطاقم وقبطان السفينة مع مجموعة أخرى من المسؤولين قد أسفر عن مباراة صياح مدوية. وجاءت مجموعة أخرى من المسؤولين على متن السفينة، أحدهم كان صاحب لهجة شنغهاي ذات الذقن المربعة الشكل، وكان يرتدي قبعة بنية داكنة.

حدّق إلى الكابتن لاي جين الذي وقف أمامه بسهولة. غادرا معا لمسح البضائع. وبعد بضع دقائق، سُمع صراخ من أسفل السفينة. كلهم عادوا بعد ساعة تقريبا. وبدا صاحب لهجة شنغهاي شديد الغضب، وفمه خط رفيع. وكان الكابتن لاي جين شاحبًا على غير عادته، خط أحمر عبر وجهه. كانت هناك ابتسامة لا مبالاة على فمه، في عينيه، النظرة المستقاة من شخص اكتشف أنّه سيواجه بعض الألم.

"مع أدلة من تقرير الطقس في الرحلة، سيتم إطلاق النار عليك كاللصوص".

لم يرد لاي جين.

بدت سفينة كينغروي/غولونغ، العزيزة والمخلصة، كما لو أنّها تتضاءل بالفعل بسبب عجزها عن الحركة، وأصيبت بما كان سيأتي.

[55]

حامت أيانا على عتبة الخطوة التي من شأنها أن تقودها إلى الصين. قبل أن تغادر مقصورتها، كانت قد تقيأت خوفها. مضت قدمًا الآن، عندما صرخ كل شيء بداخلها للتراجع. وقف القبطان وبعض أفراد طاقمه في الطابور ليقولوا وداعًا. عندما وصلت أيانا إلى لاي جين، خفضت رأسها، كما فعل هو. لا كلمات. غرقت المعلمة رولان وأيانا في الصمت. بعد أن غادر المسؤولون القارب، كانت المعلمة رولان أول من سافر من شرق إفريقيا للنزول من السفينة، مع أيانا في أعقابها.

حمل حمّال أمتعتهم. لم تكن هناك حاشية للترحيب بهم، ولا أناس يلقون الخطب، فقط سيارة سوداء واحدة لإبعادهم. لم تنظر إلى الوراء. داخل السيارة، زفرت شو رولان. "الآن نبدأ من جديد". أومأت أيانا برأسها إيجابًا؟ خفضت شو رولان رأسها للنظر إلى هاتفها الخلوي، الذي نقر فجأة وعاد إلى الحياة. سألتها أيانا، "إلى أين ستذهبين؟"، استمرت المعلمة رولان بالنقر على هاتفها لمدة دقيقة تقريبًا، قبل أن تتجه إلى أيانا. "أعود إلى العمل. مثلك".

كانت السيارة في طريقها إلى جامعة شيامن، حيث تتكشف إقامة أيانا في الصين. سافرا على أوسع الطرق التي شاهدتها أيانا على الإطلاق، وسط أكبر عدد من الأشخاص الذين رأتهم على الإطلاق يستخدمون رصيفًا واحدًا. حدّقت في كل الجسور العائمة. شاهدتها أيانا كما لو أنّها كانت أمام شاشة تلفزيون.

كانت الشمس مرتفعة وباردة فوق الأرض الرطبة. ووسط غمر الروائح الكريهة، استنشقت الحمضيات في الهواء، وحدقت عندما شاهدت أول أشجار اللهب مضاءة بأزهار حمراء، وشعرت كما لو أنّها منفية من عالمها. عَدَّت أشجار اللهب وتخيلتها كعائلة حتى

لا تشعر بلعبة الوحدة التي كانت تختبئ بالفعل في عظامها، ثم تحولت لمشاهدة الحشود المتحركة، وكثافة أعدادها. شعرت بنفسها تتقلص بينما تسارعت السيارة على طول الطرق وقرأت شو رولان الرسائل على هاتفها.

[56]

من بين آخر من نزلوا من سفينة كينغروي/غولونغ، كان نيورغ وديلشكا. وقد اضطرت ديلشكا أن تنتظر حتّى انتهاء تنظيم الأوراق الخاصة للسماح بدخولها المؤقت إلى جمهورية الصين الشعبية. قهقهت في سرّها حين تمّ تسجيلها على هذه الوثائق، لتسهيل معالجتها، كزوجة نيورغ. بعد سبعين ساعة، في منتصف الطريق أسفل الممشى، ركزت ديلشكا على المزاح مع نيورغ، الذي كان ينقل أمتعتهما. سمعا صوت بعض الآلات. كان هناك أيضًا صياح عدة رجال حين أشارت ديلشكا لنيورغ إلى المسحة الخضراء في السحب التي تحوم فوق الأرض. كانت على شكل مركبة فضائية عملاقة.

[57]

عالقًا بالقدر وأعصابه على الحافة، رفض الكابتن لاي جين مغادرة سفينته. علاوة على كل شيء آخر، لم يتقاضَ لا هو ولا أفراد طاقمه أجورهم. الطاقم على الأقل لديه خيارات، والناس ينتظرونهم، لكن لم يكن للاي جين سوى سفينته فقط كينغروي، ومأواه في البحر. توعّده أيضًا الرجل الذي كان يتكلم بلكنة شنغهاي: "سأجعلك تنزف؛ سأغلي عظامك بلعابي".

أراد لاي جين أن يضحك على هذه التهديدات، وارتكب خطأ التقليل من شأن

عمق الخبث البشري. حُمّل الكابتن لاي جين مسؤولية جميع الخسائر والمآسي المرتبطة الآن بالسفينة وممرها. واستخدمت "القوى" هذه الذرائع لجعل القبطان يدفع ثمن فقدان شحناتهم غير المشروعة. على الرغم من أن طاقمه أكدوا شهادته، إلا أنه كان لا يزال متهمًا بعدم الكفاءة وتجاوز ولايته. بعد ذلك، فُرض على أصحاب السفينة عقوبة قدرها مائتي مليون يوان – وكان المبلغ بعيدًا جدًا عن قيمة خردة المعادن المفقودة -والتي تجاهلوها بإعلان إفلاسهم قبل أن تصبح أوامر المحكمة سارية المفعول. بين عشية وضحاها، تبددت الشركة في ضباب صباح شيامن.

تُرك لاي جين على متن سفينته. عاد الصداع إلى رأسه ومعه الألم. أغمض عينيه. وبعدها، في ظلام الليل، في الجزء المحكوم عليه من الميناء، والذي تم إرساله هو وسفينته، بينغ! فتح عينيه. انتظر. صوت آخر. وبعد ذلك، بدأ الصوت يملأ السفينة وفراغها وثقبها الذي فتح بداخلها، وبعد ساعات، حاملًا الشعلة، انطلق للعثور على المصدر.

كان مركزًا ودماغه مفرّغ من كل الأفكار الأخرى، فتّش سفينته وهو يستمع. كان في غرفة المحرك عندما تخلى الصوت عن مكانه المختبئ. استرجع لاي جين الساعة من داخل زاوية فوضى متشابكة من الأنابيب. للحظة، شعر بالغبطة. فرك الغبار ونفط الزيت عن الساعة بإصبعه وحدق في يده الدقيقة. في لحظة أخرى ممتدة، انتابه الشعور بالخسارة الوجودية. لمس الأشرطة الجلدية، وربط ساعة محيي الدين بمعصمه.

Fuata mto uone bahari.

اتبع النهر لتجد البحر.

[58]

أوراق تتساقط، ريحٌ تصفر. غيمةٌ تملأ السماء. مشت بخطى مترددة على شوارع بكر، خاضت قصصًا لا يمكن التغلب عليها في أرض لم تكن ملكًا لها تمامًا. التفتت إلى السحابة، في محاولة للحصول على لمحة من الشمس النهائية، متجاهلة صرخة بائعي المواد الغذائية في الشوارع. الشمس. كانت تعرف أنّها هناك لأنّ فستانها التصق بجسدها المتعرّق.

تأثر عالمها بغرابة ساطعة، وفي مكان ما هناك، في التنافر الساحر، كان وعد السعادة التي كانت حريصة على اكتشافها. سمعت قلبها ينبض بسرعة كما لو أنّها كانت تجري. حين سارت في شارع جامعة شيامن، كان الجميع ينظرون إليها. سمعت أصوتًا، أصوات الآخرين. أصوات، ضوضاء، كلمات، سلاسل من الحروف التي تبددت حولها، دون معنى.

تآلفت مع ما هو غير معلن، غير مذكور، والمعالم التي شكلت هذه الوجوه الأخرى التي كان من المفترض أن تكون جزءًا منها. لكنّها جنحت. عدّت التلال والأشجار والجسور العملاقة وسمعت الطيور وحاولت مرارًا وتكرارًا رؤية البحر أمامها. تحلل. لا شيء أعدها لتخيل هذا المكان. كيف كان عليها أن تقابل هذه الأرض العملاقة بقلبها المكسور، المحطم بالغياب، أمّا روحها فقد أعيد تشكيلها على يد شخص غريب؟ هرعت أيانا إلى زقاق أكثر هدوءًا، هربًا من حشد عطلة نهاية الأسبوع الكثيف وطبقات الروائح والوجوه والأصوات والهمسات.

حيثما التفتت، كان هناك من يراقبها. والآن تقلّصت، كما لو أنّها أصبحت غير مرئية. شعورٌ باللاجدوى: كانت أطول من معظم الحشود. كان هناك بعض السياح، الغربيون أيضًا، يحملون نظرة المتفاجئ الدائم. تفحّصت المارة بنظرها، كما لو أنّها مبرمجة ذاتيًا، بحثًا عن أيّ شخص قد يبدو مألوفًا. كانت صامتة في بحثها. عندما نظرت إلى العلامات الموجودة فوق المتاجر وعلامات الشوارع، بدا الأمر كما لو كانت عمياء، ولأول مرة في وجودها، أصبحت واعية للون بشرتها.

تدافعت في رأسها كل العبارات التي اكتسبتها على متن السفينة؛ كانت تمشي وتحمل

قاموسًا على الرغم من أنّها كانت قد حفظت الصور التوضيحية إلى درجة أنّها باتت شبه صامتة. ولكن ربما لم يكن صوتها مهمًا في هذه الأرض المليئة بالضوضاء والضجيج. كانت اللهجة الرئيسية هنا الميتان، وليس لغة الماندرين. عبرت شارعًا عريضًا، كانت تنظر إلى اليسار واليمين، متوقعة أن تسرع سيارة برية في وجهها وتدهسها. لكن السيارات توقفت، مطيعةً قوانين السير. هذا أيضًا -مشهد الحياة السريعة التي تتحوّل إلى الطاعة لكي تتيح لشخصٍ ما أن يعبر الشارع – هذا الأمر صدمها، وكانت ردة فعلها بالجلوس على مقعد الباص والتفكير. جلست امرأة عجوز ملفوفة في شال أزرق سماوي بجانب أيانا وبدأت في التحدث إليها.

مدّت يدها ولامست شعر أيانا، ثمّ على الفور أشارت إلى الأعلى، يداها مذعورتان. حين نظرت أيانا إلى الأعلى، رأت عصفورين صغيرين زيّنتهما طبقة من الذهب الأصفر؛ أحدهما منقاره يشير إلى الأسفل بحثًا عن شيءٍ محدد. ابتسمت المرأة لأيانا وحدّثتها بلهجة كانت أيانا قد بدأت لتوها التعرف عليها. كانت السيدة مسنة، ولمعت عيناها، وفركت جلد أيانا كأنّ لونه قد ينزف، وتحدثت طوال الوقت. انحنت أيانا لتستمع حديثها، بحثًا عن بعض التطمينات. غرّدت الطيور. ظهرت حافلة شبكية. نهضت السيدة المسنة ببطء وتذبذبت على متن الباص وهي لا تزال تتحدث مع أيانا وتشير بيديها. شاهدت أيانا الحافلة وهي تمضي، ونظرت إلى الأعلى لتجد طريقها عبر مراقبة السماء بحثًا عن سقف جامعتها المغطى بالقرميد الأحمر. شعرت أنّها تفقد صوتها -ما هي لغتها الآن؟ مشت حتى وقفت خارج المكتبة في معبد نانبوتو. وكان الأمر كما لو أن الهواء الموجود في وجودها قد تم سحبه منها وتمّ بعدها رميها على بحرٍ لا اسم ولا شكل له.

استدارت أيانا وهربت. مزقت الطرقات، وأسفل الطرق الجانبية، مرورًا بالشوارع، وفي المبنى ذي الطوابق الذي كان نَزل الطلاب، دخلت في المصعد، وركضت على السلالم التي أدت إلى باب مُرقّم - 454 – أدى إلى غرفة صغيرة، كانت في الوقت الراهن ملاذها، قبل أن يظهر مضيفوها في النهاية مع خطة وبرنامج لبقية حياتها.

إغواء الأماكن، الطبقات القزحية الألوان الخاصة بها. استمعت أيانا إلى تعليمات الخريطة وهي تتظاهر بأنّها تفهم كل شيء وتنطلق بين مواطني شيامن. كانت محاطة بالأجساد، لكنّها اكتشفت أنّه يمكن للإنسان أن يكون وحيدًا وسط حشد من الناس.

تعثرت وأصبحت أشبه بمساحة سلبية.

عظمة أحلام هذه الأمة، وقوتها المذهلة، وآلاتها العملاقة -لم يعدها شيء لتستطيع أن تتخيل وتخطط لما سيكون عليه الانتقال إلى مكان فيه ملايين الناس على جانبٍ آخر من عالمها. مواطنون من أشكال وألوان مختلفة حدقوا بذهنها المتسارع. تعثرت عندما داس أحدهم على أصابع قدميها. قادتها الخريطة في نهاية المطاف إلى متجر ضخم للسلع التكنولوجية حيث كانت ستشتري هاتفًا جديدًا.

في وقتٍ لاحق، اتصلت أيانا بالمنزل. سمعت صوت والدتها تجيب: "نعم".

"السلام عليكم"، بدأت أيانا بالحديث، بخجل وبطريقة رسمية.

"مرحبًا يا عزيزتي".

ضحكت والدتها. "ماذا الآن يا صغيرة؟".

لم تكن منيرة صبورة. "كيف الأمور؟ أخبريني".

ضحكت أيانا فحسب. "إنّها كبيرة فقط"، قالت لها. "كلّ شيء هنا كبير. أشخاصٌ كثر".

"أنتِ سعيدة، أليس كذلك؟".

سؤال بسيط، لكنّه أربك أيانا. ظلال في داخلها. توقفت عن الحركة قبل أن تغيّر الحديث: "كيف حال والدي؟".

ثمّ تحرّك في داخلها شوق قديم، كما لو أن أحدهم وضع سكينًا تحت ضلعها: تنتظر والدًا غائبًا لم يعاود النظر أبدًا. "محيي الدين"، أوضحت لنفسها.

"من يعرف كيف حاله؟"، بدت منيرة غير مبالية ومنزعجة.

"كيف حال الناس هناك؟".

كانت ضحكة أيانا مسطحة، لكنها بدأت في استعادة عادات والدتها بالحديث عند استقبال ضيوفها. احتاجت فجأة إلى الحفاظ على أسطورة وغموض العوالم الأخرى المختلفة عن عالم أمها. "إيه! لديهم مبانٍ تصل إلى الشمس وتغطيها".

"ما شاء الله!". وقفة. "هل تشبهينهم؟".

لا. "في بضعة طرق".

تحدّثتا قليلًا بعد. حفظت أيانا صوت أمّها وسجلته في ذاكرتها وفي قلبها – نبرته

كاملة. كانت هذه خارطتها للعودة إلى المنزل. استمعت والدموع تتدحرج على وجنتيها.

قالت منيرة: "كينيا أشبه بطائر الباز. إنّها لا تهتم بصيصان الدجاجة. لا شيء هنا... مشاة البحرية، حركة الشباب... الآن البعض هنا يبحثون عن النفط".

قالت بسخرية: "لقد طاردوا شعبنا بعيدًا مثل الماعز، من منازلهم".

قالت بنبرة يائسة: "الحكمة هي في البقاء بأمان. جِدي طريقًا جديدًا يا لولو".

"نعم"، أجابت أيانا.

"حاولي"، أصرّت أيانا.

تحدّثتا حتى فرغ رصيد أيانا. ثمّ جلست، وهي لا تزال تمسك سماعة الهاتف قرب أذنها مستمعة إلى لا شيء كما لو كانت صدفة تحلم بمحيط مختلف.

كان على أيانا أن تتعلّم كيفية قيادة دراجة هوائية. كل يوم، كانت هناك دروس في لغة الماندرين توجّب عليها حضورها، واستمعت عبر سماعات الأذن المتصلة بقرص محمل إلى عبارات بلغة الماندرين وتاريخها البصري؛ كانت تقوم بتنزيلها إلى أحلامها، حيث كانت الصور هي اللغة. كانت تضع القاموس الذي صاحبها تحت وسادتها، يدها على اتصال به. كانت المعلمة رولان قد زرعت بذور الأرض جيدًا. يجب أن تنتمي، أصرّت عليها، كما انتمى الجميع. كانت اللغة هي كلمة المرور، كما تخيلت أيانا. الخط -لكنه كان بسم الله محفورًا مرارًا وتكرارًا.

سحبت أيانا البطاقة التي طلب نيورغ من ديلشكا إعطاءها إليها. كان عليها أن تفهم كيفية شفاء قلبٍ ينزف. في معظم الأمر، كانت تريد أن تخبر ديلشكا أنّ شيئًا ما حدث على تلك السفينة وأنّه تسبّب بأن تضع نفسها في مكانٍ غير مناسب. طلبت الرقم. رنّ الهاتف واستمر يرنّ، لكن لم يجب أحد على اتصالها. لم يجب أحد أبدًا على اتصالها في أيّامها الأولى في شيامن. حاولت أن تتّصل كل يوم. وفي وقتٍ لاحق، حين حاولت الاتصال بالرقم مرة أخرى، أعلمها صوت سيدة أجنبية، في نفس نبرة الأصوات المبرمجة على الهواتف في جميع الأماكن، بأن المشترك لا يمكن الوصول إليه حاليًا.

حامت أيانا خارج ميناء شيامن للعبّارات، محاولة أن تسترق النظر إلى جزيرة جولانغيو، والمعروفة أيضًا باسم جزيرة بيانو، عبر المياه الخضراء الشاحبة، عبر القوارب البيضاء الخمسة عشر المربوطة بالأرض. مكان للفنانين والموسيقيين. ظنت أنها قد تعطي

لنفسها استراحةً من السقوط وهي تتعلم قيادة الدراجة. كانت بحاجة للهروب من غزو الصور التوضيحية في أحلامها. أرادت أن تشاهد الناس. أرادت أن تنظر إلى الوراء دون أن تتجنب عينيها. أرادت أن تمد مضيفيها بنفس مجاملة الفضول التي قدموها لها. كانت بحاجة إلى الشعور بالعيون تحدّق بها.

فيما بين فصول اللغة والتراث الصيني، قامت أيانا بـ "واجبها تجاه التاريخ". أدركت أن مهاراتها اللغوية تحسنت عندما رأت أنها تستطيع متابعة نقاش همس بين أستاذين كانا يتجادلان فيما إذا كان من المفترض أن يصنفاها على أنها أجنبية قديمة أم مجرد فتاة سوداء. في العلن كانت "السليلة" مع النوع الصحيح من العيون. تقدمها اللغوي، وإن كان بطيئًا، تم الاعتراف به، وتم البحث عن آرائها حول الصين واللغة الصينية. في المناسبات القليلة التي تحدثت فيها أيانا -حيث كانت ترتدي الثياب الصينية، بصوت كانت لا تزال غريبة عنه -تحدثت البوتونغهوا الأساسية.

كان يمكنها الآن أن تلقي مزحة في لغة الماندرين الأساسية، وفي النهاية صفق لها الخمسمائة شخص الموجودين في القاعة وابتسموا وضحكوا، وشعرت أنها مشرقة قليلًا من الداخل. في المرة التالية التي تحدثت فيها إلى الجماهير، كانت بالقرب من ميناء تايكانج، على بعد خمسين كيلومترًا شمال غرب شنغهاي، حيث بدأ الأدميرال تشنغ خه في رحلاته إلى عوالم شملت بلدها.

استخدمت أيانا كلمات حضرتها جيدًا واختارتها بعناية. أشارت إلى أسلافهم من البحارة المشتركة، إلى خزف أسرة تانغ ومينغ، إلى مقابر الهلال المميزة. تحدثت عن طفل يتعثر في منزله في إحدى الليالي على ضوء القمر ويلتقي رجلًا عجوز، هو يوي شيا، صانع التعارف الذي أنشأ صلات بين الغرباء. قالت إنها وسكان الجزر الآخرون نادوه بمزاي كيتوانا الرشيق. ضحك جمهورها.

أضافت أيانا أن القدر خطب جزيرتها الصغيرة إلى أمة هائلة. صفق الجمهور. لقد صفقوا بشكل خاص عند الحديث عن مزاي كيتوانا الرشيق، الرجل الذي ضحى بحياته لتقديم الرفقة إلى أشباح البحارة المفقودين. في وقت لاحق، سافرت أيانا إلى الداخل، حيث جاء العديد من عشرات الآلاف من البحارة من سلالة مينغ، وأماكن لها أسماء نسيتها على الفور. لقد راقبت علاقة محتملة -كان هناك تطابق في الحمض النووي من نوع ما،

ويفترض أن لها عم هنا – كله حدده البلغم من فحص الحمض النووي. هزّ ذلك الأرض. وقفت بين الكثير من الأقرباء المحتملين. تقاسموا حيرة بعضهم البعض. لامست أربع عمّات مفترضات شعرها وفركن جلدها.

مع مرور الوقت والبعد عن الأعين الرسمية، كان يمكن أن ستطور شيء له معنى. ذكرت نفسها بواجبها تجاه التاريخ، وبأمّتها، حيث كانت تنتظر أن يتم إخبارها بما يجب فعله وإلى أين تذهب.

"أنت صينية"، كانوا يقولون لها. وأرادت أيانا بشدة أن تشعر بذلك. ولكن كلما تكلمت أكثر، كلما ازدادت صور جزيرة بيت في أحلامها، حتى لم تعد قادرة على التحدث عن بيت دون البكاء. كانت محاطة بمعارف جدد. عرضت عليهم أجزاءً من قلبها. تخيّلت أنّه قد يمكنها أن تنتمي.

"الآن أنتِ صينية"، قالوا لها. وتخيّلت أنّهم محقون. ثمّ بعد أربعة أسابيع، دعتها إحدى زميلاتها إلى حفلة شاي لتجد حوالي 30 شخصًا بانتظارها مع كاميرات. ومييض الأضواء، كانت عليها أن تلتقط صورًا مع الحاضرين، وشعرت أنها مجرد أمر جديد يمكن استعراضه أمام الأصدقاء والعائلة. كان ذلك الإدراك أشبه بنبأ عن الموت. أحدث تصدّعًا جديدًا في قلبها المفطور مسبقًا. ازدادت الصعوبات فقط عندما ذهبت إلى مقاطعة نانجينغ لزيارة ضريح الأدميرال تشنغ هي. كان عدم وجود التابوت بمثابة ضربة مربكة. لا يمكن حتى للتوقف في المتحف الجديد الصارخ المخصص لشرفه أن يخفف من شعورها بالانجراف. بالتفكير في الأدميرال: "إلى أين ذهب؟"، سألت مضيفيها. كان من المفترض أن سؤالها كان بلاغيًا.

عندما كانت أيانا تعود إلى غرفتها، كانت تنام وتصلّي حتى يؤجل الفجر وصوله. الانجراف. الانجراف في مكان اختنقت فيه أبخرة صناعية وهياكل شاهقة. كيف يمكن أن توضح لشعبها في كينيا أن هناك أماكن في العالم يقوم فيها البشر بشراء الهواء النقي وتعبئته وبيعه في علب؟ نامت، لكنّها لم تكن مرتاحة، وكانت أولى أحلامها في الماندرين. "ماذا تقول رابعة العدوية؟"، هذا ما سألها إيّاه محيي الدين همسًا عبر الهاتف، حين تحدّثت له، وله وحده فقط، عن عدم رضاها. أخبرها أنّ رابعة كانت لتقول "استمعي".

انحنت أيانا لتسمع السؤال بشكل أفضل من الجمهور: "هل ستتمّ إعادة عظام أسلافنا

من جزيرتك إلى الصين؟

قالت أيانا: "لا، إنّها تنتمي لجزيرة بيت الآن".

بعد ذلك، لم يُسمح بأيّ أسئلة أخرى. وتلقت أيانا تعليمات بأن تقول "كل شيء في أوانه".

بعد يومين، أتاها سؤال من جمهور آخر: "ماذا تعني لك الصين؟".

أجابت أيانا: "كل شيء في أوانه".

الصين الخاصة بها؟ كانت مجمّدة في مطبوعة زاو وو كي، مطبوعة بسلوك قبطان سفينة عرف جلدها يديه. ابتسامة. سخرية على الذات. تعلّم فنّ الإخباء. مع أمّها، تحدّثت عم الألوان والأصوات وحواس شيامن كما لو أنّها كانت سفيرة شيامن للسياحة. لم يكن هناك من ظلال. حين سألت منيرة، "كيف المدرسة"، درّبت أيانا نفسها لتجيب بأنّها على ما يرام. خفّفت نزهاتها غير الرسمية. تضاءلت دائرة معارفها. كانت مؤلفة من تشن شنغ، المعروفة أيضًا باسم شالوم -التي كان مهووسة بالشاعرة الميتة هاي زي، ومارست لغتها الإنجليزية على أيانا -وسونغ هي، الكورية الجنوبية.

وأصبح هؤلاء الأصدقاء صحبة أيانا عند التسوق وشراء الملابس والاستماع إلى الموسيقى الشعبية الكورية، والمشي، والتنزه، والمشاركة في الدراسة. ذهبن إلى غرف بعضهن البعض لغلي الماء للشاي والبسكويت. كانت الفتاتان الأُخريَان تأملان في أن تعيشا مصيريهما وأزواجهما في المستقبل في أمريكا الشمالية، حيث ستذهبان إلى ما بعد شيامن. تساءلت أيانا عما تنتمي إليه، ثم انزلقت إلى المكتبات لتزاحم القراءة. لتحسين معرفتها اللغوية، اشترت العديد من قصص الأطفال المبتدئين -القصص الشعبية بالصور. بعد القيام بذلك، كافأت نفسها بالذهاب إلى الرف باللغة الإنجليزية. لاحظت عنوانًا، كتاب الحرباء، وأخذته، بينما كانت صديقتاها تستعجلانها.

كجزء من جولة السليلة، اصطحبها مضيفوها إلى شيان بمقاطعة شنشي، وهي نقطة الصفر في طريق الحرير، والتي كانت منسوجة في تاريخ بحار أيانا. وسط الأناشيد الإسلامية، والصلاة في المساجد وألفاظ المؤذن، عندما لمحت موضوعات إسلامية على سجاد صلاة للبيع، انهارت دون سبب. كانت تتألم لأمها وتشتاقها بشدة لدرجة أنّها انحنت. في الحدث العام الذي حمل عنوان "رحلة السليلة السابعة"، أحصت أيانا الحجاب على رؤوس النساء،

ومجموعة من الظلال وأشكال الوجوه؛ كانت الفتاة ترتدي ملابسها تمامًا كما كانت ترتدي الجينز والقمصان، وعندما تم وضع الطعام أمامها، لم يكن هناك لحم خنزير في القائمة. قدموا لها سلطانية كبيرة من حساء اللحم البقري. ابتلعت طعامها دون خوف.

في بعض الأحيان، نجت أيانا من تحمل مسؤولياتها من خلال البحث عن القطارات السريعة والقفز فيها لتجربة الحركة والعيش في وهم السفر على بعد أميال من الأرض في أقصر الأوقات. كانت قد حصلت على راتب سفر سخي. كانت تسافر بطريقة واحدة لإيجاد مدن عملاقة تربيها إرادة الإنسان وحدها. لقد سافرت من وإلى الحركة والتنقل بين الناس والنمو والدمار، للبدء مرارًا وتكرارًا. سافرت للهروب، للراحة. عندما ذهبت إلى بكين، دخل الضباب جسدها وضرب حلقها. اختنقت. لكنها بقيت، في دوامة الدوران، وهي مدينة في العالم، لكل العالم.

شاهدت التجارة والترفيه والعروض والضوضاء والألوان والحشود والروائح. قام أحدهم ببصق البلغم، وتناثر على حذائها. لا مساحة أو وقت للتوقف والرد. حركة مستمرة. كل شيء كان للبيع وعلى ما يبدو للبيع. لم يكن هناك شيء لا تستطيع شراءه إذا أرادت ذلك. كانت تفقد التنفس. أخذت القطار الأكثر بطأ مرة أخرى إلى شنغهاي، ثم شيامن.

بهذه الطريقة يمكنها أن تنام على متن القطار وتتخيل أنها على متن سفينة. عادت إلى سيمينغ في اليوم التالي. في الليل، بينما كانت النجوم تحاول أن تطل من السماء الملبدة بالغيوم، أصابها تشوش وتوق دفعاها لتسأل إلى أين تنتمي هي حقًا؟ في قوانغتشو، التي زارتها لاحقًا، كانت هناك مستعمرة من غرب إفريقيا مستقرة هناك. كان هناك الكثيرون الذين بدوا كما بدت، فيما بين الأطفال، لذلك كانت هي التي فتنشت العيون بفضول أكبر. ومع ذلك، بعد تسعة أشهر من أداء دور "السليلة"، بدأت أيانا تحلم بأنها كانت مختبئة داخل خزانة بومباي محيي الدين، وكان محيي الدين خارجها، متجنبًا هجمات الأشباح. في ضوء النهار، عندما كانت تطفو على السطح، كانت تبدو وكأنها غرقت.

Mtumi wa kunga haambiwi maana.

معنى السر لا يُباح لحامله.

[59]

ارتفع قمرٌ أحدب متزايد في سماء الشمال مثل منارة محجبة، وغطى رطوبة منطقة سيمينغ بإضاءة شاحبة مساء الثلاثاء في أوائل شهر فبراير. نظرت أيانا من نافذة بيت الشباب حيث كانت تقيم في الطابق الرابع عشر إلى بقايا مهرجان الربيع، تشون جي، وأشباح الفوانيس الحمراء المتدلية عبر الشوارع، متذكرة الإفراط في تناول الطعام، وهي تنظر إلى أضواء السيارات وسط حركة المرور أدناه. كان ارتفاع المد على بعد كيلومتر واحد، وتناثرت القوارب على الخليج. كان جسر هايكانج مثل صولجان هيكلي يطارد المياه.

أصواتٌ ناطقة بلغة هوكيين في الشارع - كان الأمر كما لو أن جميع سكان منطقة سيمينغ قد تجولوا ليهتفوا في الليل. في الطابق العلوي، نفخت أيانا أنفها المزكم وبدأت بالسعال. كانت الأيام باردة بشكل استثنائي. صراخ حاد من الخارج ممزوج بخلطات مكتومة من داخل ممرات نزلها. صداع ناتج عن الانفلونزا في رأسها. الآن كانت تلهث من أجل الصمت. كانت تحبس أنفاسها. نظرت إلى الناس في الأسفل كما لو كانوا أسماكًا وهي طائر غوص. سكون.

طفت المشاعر والألوان في مكان صعب فيه التنفس. فتحت فمها وابتلعت الهواء لتدخلها الضوضاء مرة أخرى. بعينين نصف مغلقة، تتبعت الخطوط العريضة لقمر منتصف الليل، تفكر بالذاكرة، وعدم استقرارها وقابليتها للتغيير، كيف تفكّكت، مثل البيضة التي تذوّقتها منذ شهر. قُدّمت إليها على رغوةٍ زرقاء، وكان طعمها كالسمك المالح. قيل لها إنّها "بيضة"، وكان عليها أن تثق بأنّها كذلك.

الآن، عادت إليها صور مفككة عن الحياة في جزيرة بيت التي ظنّت أنّها نسيتها. لقد غمرها التاريخ القوي لشيامن، ثم قذفها إلى لهجاتها وألوانها وشوارعها ومحلاتها وموسيقاها وحدائقها المائية وحدائقها النباتية ومحلاتها التجارية، وعروض الدمى، والطعام، والمحلات التجارية، والأصوات، وحركة التجار، والأشخاص المهزومين، شعب يتعايش مع ثقافات أرسلها إليه البحر.

كانت تريد أن تعرف، أن تصبح ذاتها أكثر. هنا، كانت هناك طرقات ووسائل للسفر

إلى أيّ وجهة على وجه الأرض: عبر البر أو المياه أو في السكك الحديدية أو عبر الطيران. كانت قد علقت في تلك الموجة المتواصلة من الحركة، ودخلت، في موسم واحد، في زحمة إنجاز ما كان عليها إنجازه. لكنّ مشاعرها بقيت في دائرة ضيّقة. كانت قد تعثّرت بأماكن اكتشفتها وكان بإمكانها الانسحاب إليها: جزيرة البيانو وقرية شيامن للرسم، والشوارع اليومي، حيث راقبت العمال أثناء العمل، يصلحون الطرق والأنابيب والأضواء؛ شوارع الليل، مع الأضواء المتلألئة، ساطعة، مبتهجة، تلغي أشباح الظلام. استهلكتها الدعوات إلى المشاعر والأحاسيس الجديدة والروائح الجديدة والطرق الجديدة للسمع والتذوق والرؤية. نعم، كانت تشعر أنّها تغوص في المكان. وكانت أسئلة جديدة بلا إجابة تتردد في ممرات وجودها.

قمرٌ أصفر كبير. راقبت أيانا عالمها كما لو أنّها كانت داخل قفص زجاجي. سعلت مرة أخرى ومسحت أنفها بمنديل. كلمة متباينة بلا صوت: "لا". كلمة أخرى بلا صوت: "ماذا". "ماذا بعد؟". بالأمس، بجرأة وجسارة، كشخص أحرق الطريق الوحيد خلفه، قررت الهرب من "واجبها تجاه التاريخ".

منذ خمسة أسابيع، في الاحتفالية حيث أكلت ما كان "أشبه بالبيضة"، أعلنت لها مضيفتها في خطابٍ مؤثر: "هناك ذاكرة واحدة فقط. مثل الدّم. هي في جلدك".

أرادت أيانا أن تحمي أعضاء جسدها. ثمّ أحست رؤوس أولئك الذين نظروا إليها كما لو أنّها إرث. مئة وثمانية وعشرون رأسًا. كان الإرث، الكلمة التي قرأتها في الماندرين، موضوعًا ذا قيمة يخص عائلة موجودة منذ أجيال. لذلك وقفت بجانب ملصقات الأدميرال تشنغ خه. "نحن أصدقاء قدامى". تمّ توضيح ذلك بأربع لغات: الكانتونية، الماندرين، الإنجليزية، و. بعد رحلة عامة أخرى، حلت كلمة "العائلة" محل "الأصدقاء". الأمر الغريب بالنسبة لها، كان أنّها بسبب الأسئلة، أجبرت على تفحّص ماضٍ لم تكن تعرفه من قبل.

استعادت مسارات الأميرال الأفريقية لتوقع ما كان من المفترض أن تصبح. درست كونجزي وكونفوشيوس، وفتح ذلك أمامها طرقًا أخرى لمعرفة العالم وقراءته. التعايش مع الظلال -كان هنا وزن ثقافة ذات تاريخ ضخم تستعد الآن لهضم قارتها؛ كانت هنا، شيء من هذه الأرض موجود بالفعل في دمها، لكن تمّ تحويله إلى شيء متشابك مع هذه الأرض: "السليلة".

انجرفت سحابة رفيعة بجانب وجه القمر الكبير. الظل والضوء داخل وخارج نافذتها.

وبينما مالت أيانا رأسها لتفحّص ظلال الأسطح المنحنية، تحوّل الصداع من وسط رأسها إلى جانب جمجمتها. في وضح النهار، يصبح المشهد أدناه أخضر في الغالب وسط أشجار ملتهبة، مستوردة من عالمها الواقعي في شرق إفريقيا، تمّ نقلها كشتلات ثم استعمرها المشهد لتصبح شعارًا لمدينة شيامن. حول هذه الأشجار، كانت أيضًا أشجار النخيل العملاقة، والبجعات السوداء، والمقاعد الخضراء، والمياه الرمادية التي أحاطتها الغابات الخضراء والدراجات للاقتراض، والأشجار ذات الجذور الضخمة التي أمسكت بالعالم.

رنّ هاتفها المحمول الذي كان قد وقع تحت سريرها. سحبت أيانا يدها رأسها من النافذة وهي تعضّ على شفتها السفلية. على سريرها، تبعثرت أوراق قبولها ودخولها لجامعةٍ أخرى، كقطع أحجية. سقطت على ركبتيها، ومدّت يداها لالتقاط هاتفها. كان قد توقّف عن الرنين. التقطته. مكالمة لم درد عليها: شالوم، صديقتها الأكثر ثباتًا. حدقت في الهاتف، في البعد الذي كان جزيرة بيت والذي أتت منه مكالمة تشكيل الاختيار.

رمز الاتصال في البلد 254. كينيا. صوت والدتها تقول بابتهاج: "أيانا!".

كلمات تتسارع إلى بعضها البعض، تتراجع، تدور، تتوق، تعود. كانت كلمات أيانا مليئة بعبارات والدتها، والتقاط الصور لعرضها، لذلك كانت تخبر منيرة الآن عن الاختلافات في ألوان الضوء. "إنه ليس نفس القمر هنا"، قالت. "ماذا!"، صاحت والدتها.

ثمّ سألتها: "هل تأكلين جيدًا؟ ه لديك أصدقاء؟ كيف هم أساتذتك؟ هل تعجبينهم؟ هل تشعرين بالدفء؟ هل ستصبحين محامية؟".

تذكّرت أيانا = جلسات الوخز بالإبر في فصل الطب الصيني. محامية؟ ها! قالت لها: "ممم". المزيد من الأخبار من الجزيرة، وحالة المد والجزر، وعودة أنواع الأسماك التي كان يتم اختطافها من قبل سفن الصيد قبل أن يؤمن القراصنة التيارات، وموت اثنين من الصيادين -حادث غريب على رصيف الميناء -نوبة قلبية كانت نتيجتها موت المؤذن عبد الرؤوف. لم يكن هناك من سيحل مكانه.

بات صوت منيرة أعمق. قالت لها: "لديّ أخبار مهمة".

"نعم؟".

"هل أنتِ جالسة؟".

تسارعت دقّات قلب أيانا. ملأت وحوش الخوف المسافة بينها وبين أحبابها، وأثارت

لديها أسوأ الاحتمالات: الموت، المرض، الخسارة. عضّت أيانا على أظافرها بينما قالت والدتها: "أمرٌ ما قد حدث".

استنفرت أيانا لتسمع.

قالت منيرة بسرعة: "لولو... لا تعترضي... الآن محيي الدين، والدك..."، قالت. "حسنًا يا أيانا... لقد قرّرنا... ماذا أقول؟ نريد أن نكون معًا. نريد أن نتزوج".

سكون.

"أيانا؟".

كان العالم يدور بأيانا. تردّدت كلمات منيرة في رأسها. عبر في ذهنها خيال زرياب الغائب. هل يمكن أن ينتهي الحزن على غيابه بهذه البساطة؟ كم يكن للحياة أن تكون غير منصفة. تذكّرت أيانا شيئًا كانت ديلشكا قد قالته لها: "نحن نتأقلم، كما ترين.

قالت أيانا: "محيي الدين؟".

أجابت منيرة: "لم نكن نتوقع الأمر، ولكن... حسنًا...".

سكون مريب.

أضافت منيرة: "وكما تعرفين... كانت الظروف صعبة في جزيرة بيت، لذا يا أيانا سنذهب إلى جزيرة بمبا. الموزامبيق. هناك عمل لمحيي الدين هناك. أوه، أيانا، وأخيرًا، سوف نذهب إلى مكة معًا. أيانا، هل أنت هناك؟". توقفت منيرة.

"أيانا؟ مرحبًا؟ مرحبًا؟".

أفلتت أيانا سماعة الهاتف. جلست أرضًا، وهي تحدّق إلى الحائط لا تر شيئًا. لا شيء. عاودت أيانا الاتصال بأمّها بعد قرابة ساعة ونصفٍ تقريبًا.

سألتها: "هل ستغادران جزيرة بيت؟".

"نعم".

"دعيني أكلّمه"، قالت أيانا.

أيانا...".

"أمّي...".

كانت الأفكار تتسارع في رأسها. ألم يكن هذا ما تريده؟ لماذا هي خائفة إذن؟ كانت تعرف السبب. كانت تريد أن تكون حيث هما، أن تكون في هذه المغامرة معهما — أن

تعرف أنّهما لم يكونا سيستمران بالحياة من دونها؟ كيف أمكنهما أن يغادرا المنزل؟ أتى صوت محيي الدين عبر الهاتف. "عبـ -ير - ة"، قال لها وهو يتنفس بسرعة. انتظرت أيانا. "عبيرة"، كرّر محيي الدين. "هل أنت سعيدة؟".

سكون.

لماذا تغادران؟ أرادت أن تسأل.

قال محيي الدين: "يا فتاتي، الحياة تحدث. ماذا لديك لتقوليه؟ ممممم؟".

لم تقل أيانا شيئًا. ضحك محيي الدين. فهمت أيانا أنّه ووالدتها سيمضيان في مخططهما مع من دون مباركتها.

سألت: "متى تغادران؟".

"ربما بعد شهرين".

بلّل العرق جبينها.

قال محيي الدين: "جزيرة بمبا ليست بعيدة".

سكون.

سألها محيي الدين: "كيف حالك؟".

"بخير"، أجابت أيانا.

"الصبيان يزعجونك؟ تذكري كيف علّمتك أن تتصرّفي مع الحمقى. اركليهم، اكسري أنوفهم، اكسري عظامهم".

ضحك. لثانية صغيرة، حين تكلم محيي الدين، تراءى لأيانا الظل الطويل للاي جين، وفكرت أن هناك من يسرقون القلب. ضحكت، لكن روحها لم تكن هناك. اهتز صوتها. "هل ستصبح بمبا الآن هي المنزل؟".

"إنّها في بحرنا؛ بحرنا هو المنزل. بمبا قريبة جدًا في الجوار".

"دعني أكلّم والدتي".

قال محيي الدين: "قبل ذلك، علّميني أن أتحدّث بالصينية. كيف تقولين البحر دافئ بالصينية؟".

أخبرته أيانا كيف تُلفظ العبارة بالماندرين وردّدها. توقّفا عن الكلام قليلًا، كما لو أنّهما يلامسان رأس وأحدهما الآخر، كأنّ أيانا تقرأه من خلال عينيه رغم كل المسافة.

ثمّ عادت منيرة على الخط.

"هل أنت سعيدة؟"، سألتها أيانا.

لم تجب منيرة.

فهمت أيانا الآن شيئًا من الخوف الغيبي التي شعرت به، والذي أراد أن يهاجم الأما.

"أنا سعيدة لأجلك"، قالت أيانا كأنّها تتحدّى القدر.

ضحكة خفيفة من منيرة. سكون.

أخيرًا همست أيانا: "من هو أبي؟ أين أجده؟".

سمعتها منيرة، تجاهلتها منيرة.

قالت لها: "لقد تأخّر الوقت؛ قريبًا سنتحدّث مرة أخرى. حفظك الله".

متروكة. مهجورة.

مهجور.

يطاردها الشيء العابر الوحيد الذي كان يجب أن يكون ثابتًا -المنزل. لا ينبغي أن يكون مهمًا، لأنها أرادت المغادرة. لكنّه طاردها. شعرت بالخيانة. جعل هذا جلد أيانا متعرقًا وجسمها لا يهدأ. السؤال المطروح لأيانا ليلًا ونهارًا، والذي فاقم صداعها والانفلونزا التي عانت منها: من هي؟ ما كانت متأكدة منه كان أنّها لن تمارس الطب الصيني. تغيير الاتجاه في حياة والدتها شجّعها وأربكها في الوقت نفسه، فكرت أيانا في إعادة تشكيل عالمها الخاص.

البحر.

الأمر الوحيد الذي كانت متأكدة منه كان البحر. في البحر، كان يوجد دائمًا مكانًا لها. بعد أن ظهر القمر مباشرة، وصلت أيانا إلى رفها العريض المؤلف من ثلاثة مستويات وسحبت الكتاب الأول: مقال حول اضطرابات أضرار البرد. حملته إلى نافذتها المفتوحة. كانت قد اكتفت من جغرافية الصين، وتوقعات أن تتقن خطوط الطول وتعيين تدفقات الطاقة والأعشاب ودرجة الحرارة واللون والانسجام؛ لم تعد تريد أن تكافح مع الخشب والنار والأرض والمعادن والمياه -لفك رموز الأشياء التي لا يمكن تفسيرها. لقد حررت نفسها من تشونغ يي.

عندما طار الكتاب من نافذتها، أعلنت أيانا أيضًا استقلالها عن "الواجب تجاه التاريخ... وتجاه أمنا".

[60]

بعد أن غادرت أيانا إلى الصين، عانى محيي الدين من تجاهل منيرة له وتأفّفها في حال حاول التحدّث معها. أجابته بأمثال وأقوال مأثورة ورفضت أن تخوض معه في الحديث. في إحدى الأمسيات، بعد أن رمت منيرة للمرة الثالثة خلال شهرين المياه الغزيرة على رأسه وهو يمر تحت شرفتها المنخفضة، هتفت مرة أخرى -لا تسقط شجرة على من يقف جانبًا – ردّ عليها محيي الدين أخيرًا. كان مبللًا بالماء حين راح يقرع على باب بيتها لما لا يقل عن نصف ساعة، وهو مستعد تمامًا لتدميره.

فتحت منيرة الباب أخيرًا وقالت: "أيّها الحمار والسكّير"، فقام من دون أن يتحدث، بإرجاعها إلى داخل مطبخها ودفعها إلى أعلى الطاولة ممسكًا بوعاء من ماء الورد، بحيث لمسه وانسكب. تنفّس محيي الدين. أرادت منيرة أن تسخر منه مرة أخرى. بدلا من ذلك تنفست، "ماذا تريد؟".

"أنت، بالطبع"، أجاب محيي الدين.

تسارع الدمّ في رأس منيرة بينما أخفض محيي الدين رأسه ليلامس فمه وسط رقبتها. قال لها: "بما أنّني رجل ملتزم بالتقاليد، فأنا لم أقبل بالزنا، يجب أن نتزوج".

أجابت بمحاولة خدش جلده. مزّقت قميصه بأصابعها. تضارب المشاعر. "أيّها الضبع!"، قالت وهي تئن. جرّها محيي الدين إلى الأرض معه. في تملك العاجل، هبطا سويًا إلى فجوة الشوق. "كنت في حاجة إليك"، كرر محيي الدين لها. "أنا بحاجة إليك. أنا بحاجة إليك".

سحق أحدهما الآخر، الآن وقد لم يعد هناك ما يمكنهما الاختباء وراءه. السقوط، الوقوع في أحدهما الآخر.

قبل الفجر بقليل، كانا يبحثان عن البحار الليلية معًا. قال محيي الدين: "هذا هو المكان الذي رأيتك فيه أول مرة". هناك تحدثا عن الأشياء الخفية. تحدثت منيرة عن البدايات -"أنا لا أؤمن بالإنسان"، قالت. "سوف تؤمنين بي". أخبرته كيف تعلّمت أن تموت كل يوم. وأضافت: "لا يمكنك تجاوز ظلّك". سألها، "من يقرر؟". أجابت، "توقف عن ذلك. نحن نعرف الحقيقة. حتى ونحن نكذب". وأضافت: "سنتحدث عن الموت قبل أن نتجرأ

على التحدث عن وحدتنا".

صلاة الدجاج لا تحرّك الصقور. "لكن أنا على قيد الحياة. أليس هذا جيدًا؟". قالت جملتها ضاحكة على نفسها ضحكة صفراء. هزها محيي الدين. "أوقفي هذا!". ارتعدت منيرة. "أنا هنا"، قال محيي الدين. كانت منيرة تبكي بصوت عالٍ. قال محيي الدين، "من سيؤذينا الآن ونحن معًا هكذا؟"، أرادت منيرة أن تصدق محيي الدين.

في أحد الأيام، بعد شهرين تقريبًا، قال محيي الدين لمنيرة: "سنغادر جزيرة بيت".

اتّسعت عيناها. الخوف، وبعده شيء من الإثارة. "ماذا يا محيي الدين؟".

لم يجبها على الفور. صاحت منيرة: "آه! لا تودّ أن يراك أحد معي".

ابتعدت. سحبها محيي الدين من كتفيها.

"منيرة... اسمعي... حين غادرت... حين ذهبت" – أخفض رأسه – "إلى نيروبي لأجد زرياب... هناك اقتادوني إلى السجن. كنت في السجن. أبقوني هناك. هل ترين يا منيرة؟".

انهار محيي الدين.

"لماذا؟"، سألت منيرة.

"قالوا إنّني إرهابي".

مسح محيي الدين وجهه.

"لا محكمة ولا قاضٍ. كلّ يوم أسئلة حول ما أعرف وما أفكّر به وما أفعله؟ أين كنت حين حدث هذا الأمر أو غيره؟ من هو إلهي؟".

صمت.

ثمّ "ما هو الإرهابي".

نظرة صعبة.

"هويتي – هي ليست لي. لقد سرقتها، هكذا قالوا".

ضحك.

"يومًا ما سيعودون ليبحثوا عني".

"لماذا؟"، مسّدت منيرة وجهه.

تمتم محيي الدين: "الساحل ليس كينيا".

أخفض منيرة يدها. "أكره السياسة".

"لا يا عزيزتي، هذا ما تقوله كينيا لي".

"هل تشرب يا محيي الدين؟".

أشرق وجه محيي الدين. "كينيا شفتني".

تنهّد وتابع: "إن بقيت هنا، سأصبح هذا الشيء. ثمّ سيقتلونني، سيقولون لدينا إرهابي. وحين أموت، من سيقوم بحمايتك؟".

"إذن سترحل؟".

"سوف تأتين معي؟".

"لماذا؟".

"لن أتركك مرة أخرى".

"زرياب".

رمش محيي الدين بعينيه. "نعم".

"ماذا تقول؟".

"لا شيء وأنتِ؟".

مدّت منيرة يديها إلى رقبتها لإلغاء قفل السلسلة الذهبية التي كانت تحمل خاتم زرياب، الذي يحمل شريطًا من الياقوت. فتحت كفيّ محيي الدين لوضع السلسلة وخاتمها في يديه. ارتعاش في يدها. تبخرت الأشباح.

قاما بحماية علاقتهم من عيون فضولية، وأخفا خططهما. همسا توقعاتهما ومخاوفهما فقط لأحدهما الآخر. قالت منيرة أكثر من مرة: "نحن لسنا شباب. للبدء من جديد... نحن لسنا شباب".

"نحن على قيد الحياة"، أصر.

سألت، "كيف نعيش؟".

"لنذهب".

"إلى أين؟"، سألت.

"بمبا. ".

"ليس إلى زنجبار يا محيي الدين، من فضلك،" صاحت. "موزمبيق يا حمامتي. أعرف أشخاصًا هناك".

حدقت منيرة إلى محيي الدين بلا أن تحدث صوتًا. امتدت يديها نحوه. رفعهما لتغطية وجهه.

بعد أسبوع تقريبًا، اتصلت منيرة بأيانا لمشاركتها الأخبار.

[61]

بعد أيام من تلك المكالمة الهاتفية، دون علم رعاتها، بحثت أيانا عن برنامج بكالوريوس العلوم في دراسات العلوم البحرية ووجدته. مع هذا، فصلت نفسها عن دورها كالسليلة. تقدمت أيانا بطلب للحصول على قبول في فصل دراسي في جامعة شيامن البحرية. استدعت الأميرال تشنغ خه في رسالتها كحافز لها ومرجعها وإلهامها.

كتبت عن الإرث العملي. رأت نفسها كجسر، كما هي السفن، بين العالمين والناس. كتبت: "المحيط ليس سوى ممر. إنّه يحتاج إلى الملاحين".

كانت تقدم خدمتها إلى البحر. في البداية تم تجاهل طلباتها. ثم أُبلغت بأنها تعرض منحتها الدراسية للخطر وكذلك بدل المعيشة. ترددت أيانا. كان هذا يعني أنّها ربما تخسر العلاوة السخية التي أمكنها أن تدخرها بشكل صحيح لأول مرة في حياتها.

ولكن في اجتماعاتها العلنية، تحدثت أيانا عن أحلامها في المحيط، فاستدعت الأميرال المحترم مرة أخرى. تحدثت في لغة الماندرين البسيطة، مرتدية ثوبًا صينيًا من اللون الأحمر الزاهي، وبدت متواضعة وممتنة. كان أفضل أداء عام لها. لم يستطع مضيفوها رفض أحلامها دون أن يشعروا بالحرج. علاوة على ذلك، لم يكن هناك عقد مكتوب يغطي شكل هذه المغامرة الخاصة. تم قبولها في المدرسة البحرية من قبل الرعاة الذين سئموا أيضا من توليد الروايات والعروض لما كانت سليلتهم عليه.

Liwalo lolote, na liwe.

ما سيحدث سيحدث.

كان هناك سبعة عشر طلاب آخرين في فصلها في برنامج دراسات العلوم البحرية، وكانوا يمثلون بلدانًا بحرية مختلفة. صينيون وماليزيون وهنود وباكستان، وطالب من سنغافورة، اثنان من الفلبين، تركي واحد، والباقون من إندونيسيا. كانت هناك امرأتان أخريان، صينيتان، إحداهما من هونغ كونغ. كانت أيانا الكينية والإفريقية الوحيدة مع علامتها "السليلة"، كانت طويلة – أطول من معظم الرجال -نظراتها داكنة كبشرتها، لكن كانت لديه أيضًا ملامح آسيوية مألوفة، لذا كان عليها أن تتعامل مع المزيد من الفضول تجاهها. تجاهلت ذلك، وركزت على عملها، واجتازت اختبارات التقييم المستمر مع علامات جيدة.

كانت أيانا تفحص أطول خط على شبكة الكرة الأرضية الثلاثية الأبعاد، خط الاستواء، السطر الأول من خط العرض. نقطته المميزة الصفر، 40،075 كيلومترًا؛ 78.7 في المئة عبر المياه، 21.3 في المئة على الأرض، صفر درجة وجميع الأماكن في خط الاستواء في كينيا لم تتخيل أن تدعي أنها لها: نانيوكي، جبل كينيا. عبر خط الاستواء غير المرئي ثلاثة عشر بلدًا فقط -كينيا وإكوادور وكولومبيا والبرازيل وساو تومي وبرينسيبي وغابون وجمهورية الكونغو وجمهورية الكونغو الديمقراطية وأوغندا والصومال وجزر المالديف وإندونيسيا وكيريباتي -ثلاثة عشر بلدًا كانت مركز العالم، وكان بلدها أحدهم. تعهدت بأنها ستذهب في يوم من الأيام وتمشي المساحات بنفسها.

حولت أيانا نظرتها إلى المنطقة الزرقاء في العالم، إلى 78.7 في المئة من خط الاستواء الذي كان من المفترض أن تنعكس عليه. كان المكان في البحر. الكثير من القوى التي يجب مواجهتها. لقد عرّفتها جلسة الملاحة السماوية بالأمس على النجوم الزائفة، تلك الثوابت النائية المنتجة للطاقة والتي وضعت منها أجهزة نظام التموضع العالمي مرجعها. في الأسبوع السابق، ركز الفصل على السونارات النشطة والسلبية.

تعلّمت أنّ للبحر العديد من مصادر الضوضاء، وتفاجأت أنّ معلومات واضحة كهذه تدرّس. واليوم كانت أيانا تتأمّل صورة مكبّرة للمحيط. في وقت سابق، كان الفصل

يراجع أنظمة الملاحة الإلكترونية بينما كانت تحلم بقضاء يوم مع مهدي أو محيي الدين، أو ركوب القوارب الليلية من بيت إلى لامو مع منظار تراقب منه السماء والرياح، وتقرأ أسطح البحر.

تراجعت وعادت إلى العمل، خاب أملها لتخيل أن الوصول من النقطة أ إلى النقطة ياء يتطلب الآن الكثير من وحدات التصفير التي تحكم المياه نيابة عن الملاحين الحقيقيين. كانت تدرس البيانات من قراءات نظام المعلومات الجغرافية من جهة وتلعب بالأزرار الباقية في محاولة لوضع خريطة لتصورها الخاص للبحار. نقلت أيانا مؤشر الكمبيوتر الملاحي قبل الضغط على زر كشف عن خط الطول لنقطة طريق طويلة المدى: "جزيرة بيت".

ستتعلّم أيانا أنّه لا يوجد أمور مطلقة في هذا العالم، فقط رموز وأسئلة وضمان وجود عواصف. عند إدراكها لذلك، قامت بالتنقيب عن أصداء محادثة الطفولة: كانت قد سألت محيي الدين، "ما هو الأمر الجيد فيما يختصّ بالماء؟". كان محيي الدين قد قال "العواصف". ثم سألت، "ما هو الأمر السيء فيما يختصّ بالماء؟". أجاب، "العواصف مرة أخرى". الآن، في الفصل الدراسي، حدقت أيانا بشدّة في الأدوات التقنية التي ستقوم بتحليلها واكتشاف البحر غير المعروف. رفعت يدها، ثمّ خفضتها. ماذا كانت على وشك أن تسأل؟ مسألة المسافات، مكان العلاقة الحميمة: ما هي قصة الإنسان داخل الملحمة التي كانت البحر؟ مضغت إصبعها ونظرت حولها واختارت الصمت. كان عليها أن تتخلى عن شعورها بالماء لمصلحة الأرقام والبوصلة الملاحية وقواعد نابيير والإحداثيات والجغرافيا السياسية. شاهدت محاضرها. هل يمكن أن تقترح أن البحر يتعرق بشكل مختلف حسب الوقت ونكهة النهار والليل؟ أن هناك مداخل داخل البحر وبوابات في الريح؟ أنّها سمعت أنّ الأرض والقمر والبحر يتلاقون كرياح واحدة تحملها العاصفة، وهؤلاء دعوها للرقص، وأنها رقصت ليلًا معهم تحت قمر خصب؟ ابتسامة سرية.

كان ليتم ترحيلها. صوت خلط الورق، صورة مختلفة على جهاز العرض. كانت المحاضرة عن الطرق البحرية تسير مع شرح آخر لـ "مبادرة الحزام والطريق". كانوا يراجعون المبادئ الخمسة للتعايش السلمي. فجأة وصف المحاضر اسم أيانا. قفزت أيانا عندما أشار إليها

المحاضر. "مستقبل مصير مشترك، نعم؟". التفت الصف إلى أيانا. تقلّصت أيانا في مقعدها، مركزة على صوت الشعارات: "الشرف في التجارة، والازدهار للجميع". تابع المحاضر، "محيطنا الغربي هو بوابة العظمة المتبادلة".

في رواية حياة بحرها، رأت آيانا أن مبادرة طريق الحرير البحري قد تحولت إلى مكان بيت في مجمع مونسون العالمي. بحضورها، شعرت أيانا بأنها متورطة، كما لو كانت تخون روحها. غرقت في مقعدها، غارقة أيضًا في هذه الأرض اللانهائية من الجيوش اللانهائية والكلمات اللانهائية، والآلية التي في إشارة واحدة، يمكنها أن تتدحرج في السماء والمياه والأرض للوصول إلى منزلها وتسبب اختفاءها. لقد أتت إلى المدرسة راغبة في الدخول في لغة البحار من خلال أشخاص كانت تتخيلهم أنّهم شعبها. بدلًا من ذلك، كانت تتعلم كيف كان العالم يعيد تشكيل نفسه وبحرها بكلمات لا تعني سوى الطاقة والاتصالات والبنية التحتية والنقل. انذار بعاصفة.

لم تكن بيت ولا كينيا لهما خيال واسع بما يكفي ليعرفا أنّ هذا الكون الذي هما مركزه يخطّط لابتلاعهما. حبست أيانا تنهداتها وتنصتت على ما كان يقوله الطلاب الأجانب الآخرون الذين كانوا يتحدّثون أحاديث عادية ويناقشون تفاصيل إقليمية صغيرة لن تغيّر شيئًا، بينما غرقت أفكارها هي في الاضطرابات.

في أحد الأيام الحارة والرطبة، لاحظ آري، وهو طالب في الهندسة البحرية من الهند، أن مبادرة طريق الحرير البحري استوعبت المحيط الهندي -فقد أكد على كلمة "هندي" -إلى "الآخرين". "ليس من أجل لا شيء أن المحيط يسمى بالهندي"، قال.

ثمّ ردّت عليه أيانا، كما لو أنّها ترفض التنازل عن الأرض.

أجابها آري: "سنناقش ذلك في اليوم الذي يحصل فيه بلدك على زورق آلي لبدء البحرية".

شدّدت أيانا على وجهة نظرها وقالت له: "لدينا قوات بحرية".

"مما لا شك فيه أن خيرات الأسماك تستحق الثناء، ولكن ماذا بعد؟".

ثمّ دخل في النقاش طالب إندونيسي وآخران باكستانيان، وانزلق الفصل في ضجة لم تغيّر السياسة الخارجية الصينية. صاح المحاضر، الذي شاهد تفكك النظام في صفه، وأصبح وجهه صاخبًا، أخيرًا، "المحيط الغربي! أنتم في الصين". "غرب المحيط"، غمغمت أيانا،

وهي تنظر إلى آري وتفكر في أسماء المواقع الجغرافية، وقلبها فرح سرًّا بسبب المناوشات التي لا معنى لها التي حركتها. كان المحاضر يصرخ لتفسير وجهة نظره. وعادت أيانا لتدوّن الملاحظات حول تخيّل أمّة أخرى لبحرها.

"حزام واحد، طريق واحد"، كتبت. كان عليها أن تسأل محيي الدين عن أسماء كيباتي المختلفة لبحرها. عاد الجدل إلى الخارج، واتخذت المزيد من المواقف، والتي انقسمت بعد ذلك إلى دول قومية وملحقات ثقافية. كانت أيانا في منتصف الجدال، واقفة على المياه المتغيرة للتاريخ، وذاكرتها، وصمت رجال مثل مهدي. كانت لا تزال تشعر بالدهشة من الأوهام التي بنيت فوق حطام حياة شعبها، والقصص التي تم هدمها واستعادتها من قبل الآخرين، والغرباء -على سبيل المثال، ينتمي الداو إلى مكان آخر. لم يكن لديها المعجم، وعرفت الخوف من عدم القدرة على التوضيح، والاستعادة، والتملك. حاولت أن تتحدث عن شعر الحياة البحرية، وعن الانكماش المتواصل وتدفق شعبها إلى عوالم أخرى -كتجار وطالبين ومعلمين؛ كما الملاحين، بناة السفن، والمستكشفين -وعودتهم.

"والعبيد"، أضاف آري.

حدّقت أيانا به. لم يكن قد سبق لها أن تحدّثت كثيرًا مع زملائها في الصف. قالت لآري بخبث: "نريد أن تعيدوا لنا المهراجا". وعندما تسارع غضبها، شعرت أيانا بوطأة افتقارها للغة الحاضر، الصامتون والمدمرون في هذا الحاضر، الرعب من ألا يكون هناك من يبقى لينقذ اسم المحيط بالكيباتية. مشت بعيدًا. ما الفائدة؟ في هذا البلد، تحدثوا عن مستقبل البحر في الماندرين والإنجليزية، وليس في لغتها، أو اللغة الغوجاراتية أو الملايو أو الكيباتية. مشت أيانا نحو المياه المتلألئة، بحثًا عن الأنماط. غيوم زرقاء داكنة في سماء جنوب غرب البلاد -كانت جبهة باردة تقترب. لقد تخطت طالبة أكبر سنًّا، وظهر رجل كان ينظر إلى أيانا بغرابة. كانت تفكر في المخططات التي لم تدرسها استعدادًا لجلسات الملاحة البحرية الجارية في المياه المفتوحة في اليوم التالي.

[63]

قلّل المطر والضباب من مستوى الرؤية إلى الصفر عندما ارتفع دخان انفجار تسبب في مقتل سفينته. لقد عاشت فوق عمرها، هكذا أبلغه صاحب لهجة شنغهاي، مستمتعًا بالألم الذي تسبّب به له. رفع لاي جين صوته في غضب من الخطة، وبذلك كشف عن غير قصد نقطة ضعفه. كان صاحب لهجة شنغهاي يريد الانتقام لفقدان ما أراد تهريبه. سيتم إلغاء سفينة كينغروي. استغرق الأمر بعض الوقت بالنسبة لهم للحصول على جميع الوثائق لإتمام الإلغاء قانوني. تزامن هذا مع انتهاء عقوبة سجن لاي جين.

والآن ما رآه لاي جين آلمه. انفجار. رآه. سمع دويّه. عرفه. كان مقصودًا، على الرغم أنّه تمّ تسجيله كحادث. مسكونًا بقلة الحيلة التي عزّزتها إقامته في السجن، راقب لاي جين حبيبته، سفينة كينغروي، تموت دون داعٍ. وكان هناك رجل غير قادر على الحزن على خسائره الأخرى استعانت به سفينة بحرية عابرة كانت تجلب معها قبطانها وطاقمها إلى الميناء. حياها وتمنى الموت لهذا العالم البائس....

كان القبطان لاي جين قد اعتُقل واتُّهم ووُجد مذنبًا بالإهمال والعرقلة والمسؤولية الجزئية عن وفاة راكب غير مسجل رسميًا في السفينة. قبل أن يتمكّن من الاعتراض، متخيّلًا أنّها مزحة، وجد نفسه محكومًا بالسجن لمدة ثلاثة عشر شهرًا.

فقدان ماء الوجه. خسارة الحياة. فقدان النفس. فقدان القلب. لم يغمَ عليه. فقد صوته. كان قد هبط من سفينته وعاد إلى بلده بالسلاسل، وكان بيته مهجعًا يحتله القتلة والمختلسون أيضًا. عملوا جميعًا للاستيلاء على ما هو له.

كان المعنى الوحيد الذي وجده في الروتين. إيقاع، كما لو كانت هذه نسخة من أمواج البحر -هذا والصمت أبقى عقله متوازنًا. لقد تعلم أن يتجاهل كوابيسه حتى يفقدوا أصواتهم أيضًا. بعد مرور عام وشهر، وبعد انقضاء مدة العقوبة، أعادت إليه سلطات السجن أغراضه الأرضية. وشملت هذه ساعة محيي الدين. بينغ!

في النهاية، مرة أخرى، كان هناك حريق. لقد قيل هذا من قبل. في نهاية لاي جين، كان هناك حريق. إذ تساءل المارة عن الرجل المتعجرف وهو يتجه نحو البحر وينحدر بجوار

مكب نفايات مؤقت، فإنهم لم يقولوا شيئًا. بينغ! الساعة: علامة المشاعر. ذكرته بها. وقال إنّه سيعيد الساعة لها.

الانتهاء من الماضي. لقد كان نتاج بلده وعاداتها في إعادة كتابة نفسها والبدء دائمًا من جديد. بينغ! لقد دفع ديونه. لقد شاهد يد الساعة الدقيقة وكأنها قد تتراجع. بينغ! كان هناك الآن فقط. النار الصفراء، الدخان الأسود الفضي الكثيف، ورائحة الأحلام الميتة: في البداية، كان هناك حريق. في المسافة، انجرفت خمس سفن من الصدأ والرمادي باتجاه مناطق أخرى. كان يقف أمام العتبات مرة أخرى. قام لاي جين بحكّ قدميه الواحدة بالأخرى لتسخينهما. ضغطوا على كائن هش، تمّ تكسيره وتشققه. انحنى والتقط مزهرية مكسورة، مع ظلّ أحمر غير عادي ترفرف على عزر من الأمواج الزرقاء. كان لها طلاء أبيض رقيق. لم يكن هناك ما هو مميّز فيها. الانفجار الثاني الذي سمع دويّه كان تفكّك سفينة كينغروي. دخان أسود. ربما كان لاي جين ليصرخ مرة أخرى لو لم تأتِ روحها للتهدئة من روعه. سنبحر مرة أخرى، ربما يكون قد وعدها باللغة الإنجليزية، والتي كانت لغة المياه المشتركة المتفق عليها. لكن كل شيء يتلاشى. حتى الوعود. فوق النار، الغيوم الداكنة مثل جلد الغنم عبر السماء. شاهدها لاي جين. سمع طيور النورس تبكي وهي تلعب بالهواء وتغوص للحصول على الأسماك.

كانت تلك الحياة. ماذا كانت وجهته الآن؟

نظر إلى التزجيج على الإناء، وقرأ نسيجه بأطراف أصابعه. كيف سافرت المزهرية إلى هنا؟ ترك المطر والشمس والغبار آثارًا على هذه الأجزاء الهشة. قلب مضطرب. لامس الأجزاء المكسورة من المزهرية، كدماتها. نظر حوله إلى الأشياء الأخرى، واسترجع كيسًا بلاستيكيًا مهملًا، وبدأ في جمع قطع السيراميك. لمن كانت تنتمي عندما كانت كاملة؟

الذكريات.

والدته، نارا، في فرنها. كانت تنسج يديه الصغيرة في الطين الرطب. ضحك. ضحكا لأنه لم يكن متوقعًا منهما ذلك. قيل لها إنها كانت مجنونة، وضحكت بصوت عالٍ للغاية، وسحبت حيوانات غريبة من يديها وحولتها إلى أشياء عاشت. "السفن"، كانت تهمس له، عندما كان أصغر من أن يفهم، "إنها لتخزين الأشباح". ضحكا مرة أخرى قبل أن يتم العثور عليهما وأخذها منه. لكنه عرف أن الليل كان لصنع الأشياء. كان يزحف من السرير

ليجدها على عجلتها، ثم يشاهدها حتى يغفو.

راقبها لأنه كان يخشى أن يجعلوها تتركه. سيفعلون. لقد فعلوا. لم يخبروه قط. في الليل، وقبل تفكيك عجلة نارا وفرن الطوب، كان لا يزال يذهب إلى العجلة ويجعلها تعمل. قال إنّه سيفعل ذلك حتى يتم إرساله بعيدًا عن المنزل -للدراسة، كما أخبروه. ظهر ولي المكب. طارد قائد السفينة السابق بعيدًا، متخيلًا أنه كيان آخر محترق، أحد الملايين الذين بحثوا عن قصاصات من طاولة الحياة. سارع لاي جين مع حقيبة سوبر ماركت على كتفه. كان منتفخة لشدة ما امتلأت بالشظايا المكسورة.

[64]

كانت أيانا قد لفت نفسها في شرنقة الليل كواحدة من العديد من الأشخاص المجهولين في شيامن. نبض الليل بخفقانه الخاص. من حجرة مشجرة حيث كانت البجعات ترتعش، على مقربة من الواجهة البحرية، شاهدت أيانا وميض الأنوار الليلية البشرية كما لو أنّها كانت نجومًا تحتاج إليها للجلوس تحتها. مشهد آخر، كانت تفضله، ظهر بعد منتصف الليل. هنا نسيت أمر ذلك اليوم. كائنات غير واضحة. عدم وضوح العواطف. خطوط مشوشة. كانت لتكون ليلة سعيدة لو تمكنت من النوم لمدة أربع ساعات. لكن لم يعنها شيء على ذلك. نظرًا لأنها لم تفضل أن تستعين بحبوب النوم، فضلت أن تشاهد الليل كما لو كانت على جسر سفينة، وهي تتنقل على سفينتها عبر التيارات الكثيفة، تحت أنظار النجوم المستمرة.

سكون.

ثمّ تحرّك شيء ما في الغابات – غصنٌ ينكسر، الرياح، ورائحة الملح، وصراخ طير وحيد محموم. لم تكن رائحة البحر هنا كما كانت في بيت، ولا كذلك الصمت. في الليل، كانت تستطيع رؤية حواف قلبها وسماع آمالها الصامتة تتردد أصداؤها. سرعان ما انتابها شعور بأنّها لم تكن وحدها. ليلة واحدة -بينغ! كما لو كانت ساعة محيي الدين ووقتها

الضائع قد وجدت طريقًا لها. لم تستدر. أغلقت عينيها وتذكرت نفحات الجن في البحر.
بعد يومين، تم تسليم حزمة ملفوفة بدقة إلى أيانا. عندما مزقت غلافها، وجدت ساعة محيي الدين. لم يكن هناك عنوان المرسل. نبضت الساعة. انتابها انقباض في قلبها. كان نفسه الذي شعرت به حين كانت مرئية ومعروفة من قبل لوحة زاو ووكي.

اتّصلت منيرة بأيانا. "هنا شائعات تتردّد بأنّه تمّ التغرير بسليمان للانضمام إلى جبهة تحرير سوريا الإسلامية. الجبهة السورية الإسلامية للتحرير. صمت مفاجئ.

"تتجوّل آمنة محمود بين الأراضي، تلعن النجوم، وتطلب من الله أن يخلّص ابنها".

ارتعشت أيانا. تذكرت فضل المصري. تذكرت كيف أثّر ذلك الرجل بكلماته ونظراته ولمساته على إرادتها. حكّت جلدها ونظرت فوق كتفيها.

"أمّي، هل عادت اليعاسيب؟".

"قريبًا ستعود، لماذا تسألين؟".

"ليس هناك سبب".

اشتاقت أيانا إلى لمعانها الذهبي. اشتاقت إلى تشوّقها لوصول اليعاسيب، وإلى كيف استدعت الأخيرة المطر والرياح الدافئة.

"ليس هناك سبب"، كرّرت لأمّها.

ولكن في وقتٍ لاحق، كانت تهمس لليل بأنّ اليعاسيب ستحطّ قريبًا على جزيرة بيت البعيدة، وأنّ صبيًا تعرفه ربما تمّ استدراجه إلى هاوية الكراهية.

في مكانٍ آخر، بعد أن فرغ من مراقبة سفينته وهي تنهار على مدى ساعات، استغرق الرجل قرابة عامٍ كاملٍ تقريبًا ليعود إلى مكانٍ كان يعتبره بمثابة وطنه. غوانزو في مقاطعة غوانغدونغ، المكان من حيث رحل ليدخل إلى العالم، مخلفًا وراءه الأب البيروقراطي وزوجته الفاخرة. ذهب لاي جين إلى بكين لدراسة الأعمال والفيزياء والفنون البصرية قبل أن يرسله والده أولًا إلى سنغافورة ثم إلى كندا.

تخلى لاي جين عن جهوده الحثيثة للبقاء على اتصال بالعائلة التي أدرك أنها أعادت الحياة من دونه. ركّز على التميّز في العمل، وبعد أن التقى مي تشينغ، أصبح الزوج الجيد الذي لم يكنه والده مع والدته نارا. ولكن الآن، خطوات حزينة إلى الوراء. شعر بالفراغ. توقف ليحدّق إلى المجمع متعدد الأغراض الذي حلّ محل المبنى السكني الذي كانت تعيش فيه

الأسرة. بحثًا عن عمل، بحث لاي جين عن شريك تجاري سابق.

عرض الرجل، صانع الغلايات للتصدير، على لاي جين مهمة حارس ليلي في المصنع. حاول لاي جين الاعتراض. حاول أن يسأل كيف يمكن للطخة واحدة -سجنه -أن تمحو حافة كونه الكلي في عيون الشخص الذي كان يتخيله قريبًا منه. كانا قد شربا معًا مرات عدة على حساب لاي جين. ولكن صدع واحد في سجل حياته نمنع الرجل من أن يراه كما كان عليه ولا يزال.

قام بجمع أشيائه القليلة، تلك الشظايا المكسورة من الأواني الزجاجية التي كان قد التقطها من حوض بناء السفن، ومشى بهدوء، وهو مجوف العينين، ومكسور الشفاه. ذات محطمة، أوهام محطمة، أفكار مبعثرة، والقليل من ذاكرة العاصفة -كم كان حيويًا حينذاك -على متن سفينة لإبقائه على حاله. تجول، قطعه التي تم جمعها تمشي في قافية مع خطواته، لم يعرف ما إذا كان يمكن أن يتوقف هذا الوقت.

في الغسق، وهو ينظر إلى البحر خارج قرية الصيد السابقة حيث بدأ العمال بالعمل، وكان آخر ضوء يضيء في عينيه، تذكر فجأة ممتلكات مي تشينغ في خليج هانغتشو. كان لديه كل أمل في أنّ أحدًا لم ينتبه إلى هذه الممتلكات حين صادروا أصوله بعدما فقد حريته.

[65]

ربيعٌ جديدٌ سعيدا وعسى أن تتحقّق كلّ أمانيكم. مودّة يشوبها الحنين. ضحكت امرأة شابة في الغرفة المزدحمة التي كانت تنبعث منها بالفعل رائحة الدخان غير المشروع. شعرت بأنّها تلتف في داخلها، مع الموسيقى. كل شيء اكتسب عمقًا إضافيًا. لقد كانت الحياة مليئة بالاحتمالات الساحرة لدرجة أن أيانا ألقت جانبًا حذرها العادي. قام شخص ما باستبدال نفس الأصوات الصغيرة، والأغنية نفسها، ولحن من البوب الكوري بمنافسات معقدة لمغنٍّ ذكر غير معروف.

ومضت ثلاث شاشات تلفزيون مثبتة على الحائط. وبدت المخلوقات التي ظهرت

وأومأت في الشاشات كالظلال الغارقة. لم يكن هناك من يشاهد البث. في جميع أنحاء الغرفة، تناثرت بقايا الطعام الذي تمّ تحضيره خصيصًا لشون جي، احتفال رأس السنة الجديدة: فطائر مملوءة بكل أنواع اللحوم، لفائف الربيع، والأسماك لزيادة الازدهار.

تجنّبت أيانا تناول الشعرية. كان هناك أيضًا مشروبات وعصائر غازية، ومشروبات مهربة تحتوي الكحول، كان الدليل عليها المحادثات البطيئة والأطراف المألوفة التي تلتف حول أجسام غير مستجيبة. الحمضيات الدائرية والذهبية، ديكور الغرفة باللونين الأحمر والذهبي. الأصوات والكلمات في الماندرين والكانتونية، الهوكين، والإنجليزية. كانت الغرفة مليئة باللاجئين في عطلة الربيع -الغرباء الذين ليس لديهم عائلة في مكان قريب لزيارتها. ابتعدت امرأة شابة قليلًا بينما كانت تشاهد الراقصين، ولم تكن تعلم بعد أنّ لغزًا سيأسرها. شاهدها كوراي تيرزيوغلو. كانا الوحيدين اللذين لم ينضما إلى الجلبة العامة.

اجتمع الطلب الأجانب لكي يحتفلوا معًا، ولكن ليس برأس السنة، بل بالشعور الجماعي بالحنين إلى أوطانهم. كان كوراي يتفحّص الغرفة وفرك أنفه بخاتمه اللّماع. اتكأ على الوسادة البنفسجية اللون ليراقب المرأة التي كانت تضحك. كان الطلاب يؤدون أغنية أفعوانية، إلى الموسيقى التي، بالنسبة له، كانت فرطًا من التنفس المستمر. كانت المرأة بجوار النافذة تعرف الكلمات. كانت تتحدث إليهم. لم يهتم كوراي بالموسيقى المعاصرة للهند من قبل، وسيحاول ألا يفعل ذلك مرة أخرى.

كان كوراي أحد أقدم الطلاب، له عضلا كبيرة، عيناه بارزتان وكذلك شفتاه. كان لشعره الكثيف الأسود اللامع المجعد وسمًا خاصًا به على تويتر. تدلّى قرط من طرف شحمة الأذن اليمنى -وهي تجربة سيتخلى عنها في تلك الليلة. كان كوراي، وهو عبارة عن معبود في الحرم الجامعي، أحد الطلاب القلائل الذين يمكنهم تحمل تكاليف الإقامة في شقق فاخرة مطلة على البحر. كانت لغته الإنجليزية جيدة؛ حيث دفعت عائلته الكثير من الأموال لمدرس اللغة الإنجليزية. كان بمثابة صيدٍ موفق، وكان يعلم ذلك. كقائد فريق كرة السلة، أنشأ أيضًا أول نادٍ للسقاية في المؤسسة. احتفظ بسجل للحصول على أفضل الدرجات في حساب التفاضل والتكامل، مما أثار غضب نظرائه الصينيين، حتى أتت امرأة شابة من بقعة أفريقية غامضة وأخذت الاهتمام. علم أنّها كانت نوعًا من الرموز الصينية.

كان فضوليًا، وسعى للتعرّف عليها، وتفاجأ حين مرّت قربه شابة سمراء نحيلة ولم

تعره أيّ أهمية. كانت تضع سماعات أذن، وكانت عينيها منخفضتين. لم تره يتابعها أبدًا. هذا ما أزعجه. قرر كوراي أن يدرسها كما لو كان يخطط للسيطرة على المنطقة.

قاطعت أغنية جديدة أفكاره. استمع إليها كوراي. ربما كانت هذه نفس الأغنية التي استمع إليها منذ دقيقة، من قبل نفس المغني الذي لم يكن ينبغي أن يكون قرب أيّ مايكروفون في الدرجة الأولى؟ راقب فم أيانا. من المؤكد أنها تحركت بينما كانت تتحدث بكلمات ما ربما كان أغنية عن طائر مائي يصطاد الضفادع بنجاح غير عادي. انحنى كوراي إلى الأمام لتصويب أكمام قميصه. أعاد عقد رباط حذائه الرياضي، ونهض في حركة واحدة. جذبت حركته انتباه بعض أتباعه. "كوراي، كوراي!"، كانوا يدعونه إلى حلبة الرقص. تجاهلهم. مشى قرب طاولة مليئة بالمشروبات. استقرت عيناه على نوعٍ رخيص من مشروب الساكي. كان كوراي قد شرب بالفعل نصف كوبٍ من المشروب، بينما كانت أيانا تشرب عصير فاكهة مع ثلج.

ألقى كوراي عليها التحية بلهجة مسطحة. التفتت أيانا. "شرابك لا يحتوي على الكحول؟". دخل إلى حيث كانت تقف، فأُجبرت على التراجع قليلًا. نظرت أيانا إلى الأعلى. نظرة غموض وتفحّص. كان عليها أن تبتعد مرة أخرى عن حضوره. من بين كلّ الطلاب في الحرم الجامعي، كان يعطي انطباعًا بأنه غير مبالٍ، بأنّه ليس مهمًا إن نجح في الامتحانات أو فشل. راقبت عيناه أيانا. "شرابك" – نظرت إلى العصير الشاحب البرتقالي اللون – "ملوث".

ضحكت.

"جيّد. كنت أريدك أن تضحكي من أجلي".

مالت برأسها.

"قولي لي، من أين تعلّمت الكلمات من أجل هذه اللعنات؟". عبست أيانا. أشار كوراي إلى المتحدثين. "أظنّكِ تشكّين بأن تكون هذه موسيقى؟".

انفجرت أيانا ضاحكة. "دلبرة" من دوم.

رفع كوراي جبينه مستغربًا.

"لماذا تعرف أفريقية ذلك؟".

شعرت أيانا فجأة بالحرج. كيف تفسر الشعور بأنّ عالمها أصبح أكبر وأكثر غنى بالألوان والموسيقى بسبب مشاهدتها لأفلام بوليوود برفقة محيي الدين. كانت تستدير حين

قال لها: "كنت أريد أن ألتقي بك منذ فترة يا آنسة أيانا". استدارت أيانا مجددًا. مدّ يده إلى ذراعها، مخطئًا حين اعتقد أنّ اللمعة في عينيها كانت تعبيرًا عن اهتمامها به.

أعلن لها: "لدينا الكثير من الأمور المشتركة، الصين والصفوف والإيمان والتاريخ والبحار... القدر؟".

كان هناك تألق في عينيها الكبيرتين اللتين نظرت بهما بعيدًا وهو يتحدّث.

كان يمزح وهو يهزّ إصبعه في وجهها: "لا تتجاهليني".

أثار استغرابها. تذكّرت أنّها سحبت يدها من قبضته.

قال لها: "علاماتك في التفاضل ممتازة. أنا أحاول أن أسجّل علامات أكثر منها. أنت تغيظينني".

انحنى ليهمس في أذنها: "أنا لست معتادًا أبدًا على الخسارة.

تحدٍ وتحذير. صُدم تشويشها مع شعورٍ غير متوقع، كان مزيجًا من لمسة كوراي على جلدها ورائحة عطره التي بدت كما لو أنّها تجمع بين رذاذ البحر والمعادن. كان له الطول والبنية الجسدية التي تخدع الفتيات دائمًا للظنّ أنّه يمكن أن يقدم لهنّ نوعًا من الحماية. نظرت إليه بنظرات أشبه بتلك التي تنظر بها القطط. "اسمي كوراي"، قال لها.

كانت تمشي في الاتجاه المعاكس من الغرفة حين ناداها: "آنسة أيانا". التفتت إليه. "أنوي أن أستولي على قلبك وأحتفظ به لنفسي". اتّسعت حدقتاها. ثمّ ضحكت عليه، ويا لها من ضحكة: خفيفة ومتّزنة. أولئك الذين سمعوه ضحكوا أيضًا. ضحك كوراي أيضًا حين بدأت الألعاب النارية. ضحك لسببٍ آخر. كان ضجره قد تلاشى. وكان الآن في صدد ملاحقة لعبة نوعية. راقب الطلاب الآخرين يسارعون إلى الشرفة للتحديق بعرض الألعاب النارية.

حدّقت أيانا بجمال الليل المضاء، وسمعت مرة أخرى النية الجريئة لرجل غريب. لقد سئمت من عدم قدرتها على حل مشكلة الأرق. ظهر الانزعاج على وجهها. استدعت الألعاب النارية في داخلها شيئًا من التهور. عدّلت عمودها الفقري ونظرت إلى كوراي. كانت قد سبق وأن رأته في أحد فصولها الدراسية. وقد ذكّرتها توقعاته بأن يُعبد بسليمان، قاتل قطتها، لذا تجاهلته. كان هناك مع من عبدوه من الذكور والإناث. هناك، كان يتجاهل العناصر الإضافية بلا خجل بعبارات لا معنى لها في لغة الماندرين السيئة التي تحدث بها:

"وأنت بلا طيران، يا منقار طائرتي". ابتسمت أيانا، والتقط كوراي نظرتها.

أشار إلى الأعلى، نذر. التفت بعيدا لرؤية عجلة كاترين تحرق نفسها .. . "عفوًا"، عطست أيانا قرب الفتاة التي كانت تقف قرب كوراي. وقالت لكوراي بصوتٍ ناعم: "ليلة سعيدة". انزلقت من الغرفة متجهةً إلى نزلها. كانت خطاها على عجل. صوت كوراي: "سأصحبك إلى بابك". انزلقت يدا أيانا إلى جيوبها. "يمكنني العثور عليه بمفردي".

قال كوراي، "أنت جميلة".

"كما أنت"، قالت أيانا. "تسخرين مني، ملكة جمال أفريقيا، أليس كذلك؟".

نظرت أيانا إلى السماء، ولم تقل شيئًا.

الدبوس الأزرق والألعاب النارية ذات العجلات الصفراء.

أضاف كوراي "بعيدة عن المنزل". تنهدت، "كما أنت".

اقترح كوراي، "الألعاب النارية. ألوانها رائعة. يجب أن نتحدث؟ لماذا نضيع الليل؟".

"لا" ، قالت أيانا، وسارعت عبر مجموعات أخرى من الناس يشاهدون السماء. احتج كوراي. "تمهلي يا فتاة".

لحق بها.

"أنا أعيش في اسطنبول. هل سمعت عن تركيا؟".

نظرت إليه.

"أنت تدرسين الملاحة"، أقال بإصرار.

سارعت خطاها، وقد انتباها الندم على رهانها.

في الخلفية، فوق الضباب القادم من الميناء البحري القريب، اختلطت رائحة الفوسفور برائحة شيامن المعتادة. تنفست أيانا هذه الروائح. حامت غيوم الليل وراء آلاف الفوانيس الحمراء المعلقة عبر الشوارع. من الجنوب، اقتربت رياح باردة منعشة. قال كوراي، "أين تعلمت لغتك الإنجليزية؟".

عضّت أيانا على أسنانها. أضاف كوراي: "هل تعلمين أنّ هناك أفارقة في تركيا. يأتون على متن قوارب للهروب من الحرب والفقر. نحن ملجأ لهم"؟

كانت لهجته مهيبة. "بعضهم كانت عائلاتهم موجودة هناك منذ قرون. من هم أسلافهم؟ عبيد؟".

توقف أيانا فجأة.

"كم عدد البلدان الموجودة في أفريقيا؟".

لوح كوراي بيديه في حركة عرضية.

منذ أن حطّت في شيامن، كانت موضع فضولٍ كبير بسبب قارة ولادتها. بحكم وجودها هنا، كان يُتوقع منها أيضًا أن تكون "مترجمة أفريقيا".

كانت مضطرة أن تقوم بالبحث والتقصّي عن قارّتها لكي تكون مستعدة لهذا السؤال الأبله. كانت الأسئلة نابعة من خبث، هكذا ظنّت في البداية، حتّى فهمت أنّ هناك أبعاد كثيرة للجهل، وأنّ كلمة أفريقيا أثارت إطلاق شيء هرمون الغباء، وعرفت أنّ أستاذة الفيزياء حين تساءلت بصوتٍ عالٍ لماذا يأكل الأفارقة الأفارقة أثناء وجود الأسود حولهم - لماذا لا يستطيع الأفارقة ببساطة أن يأكلوا الأسود؟ - كان السؤال آتيًا من اهتمام وليس جنون. حاولت أيانا في البداية تقديم المشورة للحماقة، واكتشفت صوتًا جديدًا داخلها. لكنّها وصلت إلى حدّ عدم الاحتمال.

ببطء، كما قد تفعل ماما سليمان، لاحظت القرط اللوبي على شحمة أذنه. ضاقت عيناها. "كوراي" - كانت نبرة أيانا باردة وجافة - "استغل وقتك هنا للتعلم عن العالم. أنت الآن تبدو أكثر سمكًا من جذع الباوباب".

نظرت إلى مبنى دائري مع أضواء فيه نوافذ متناثرة. "هذا نزلي".

مشيت بضع خطوات إلى الأمام قبل أن تنظر فوق كتفها. "هل هذه حلقة أنف الثور متصلة بأذنك؟ لماذا يفعل الإنسان ذلك بنفسه؟".

متفاجئًا، شاهد كوراي أيانا تتلاشى من خلال باب. هل شبّهته للتو بالماشية؟ لمس قرطه. أثخن من جذع الباوباب؟ بدأ يسير بخطوات بطيئة، غاضبًا. فرك رأسه ثم سمح لنفسه بضحكة باردة.

أتمنى فقط أن أواجه البحر، حين يزهر.

- هاي زي

[66]

نسيج الطين.

التجاذب في المد والجزر ورسم الوقت للداخل. الشعور، اللمس، الري، صب الحياة الجديدة، السفن. كان الغبار يبدو مسنًّا. وكانت هناك ذكريات ورماد من مرور النفوس على الأرض. عندما لمس الصلصال، كان الأمر بمثابة صلاة، وكان يعلم أن الصلاة كانت لمدى الحياة. لقد كان هذا أو الموت.

نسج الطين، كما لو أنّه يخيط الثقوب في حياته. صبغ الكاولين لطخ وزرة الرجل، بينما أصابعه ملفوفة حول كتلة رمادية مستديرة رطبة من الصلصال تضغط على رأس عجلة دوارة. حرّك الطين بيديه المبللتين ليجعله متساوٍ. ضغط وسحب وشكّل الطين. حرّكه بإبهامه ليصل إلى الوسط، ويضغط على الكتلة إلى الداخل. ضغطت يده اليمنى على الطين للأسفل.

بلّل يديه. كان يتحسّن في تشكيل الطين، وبات يعرف متى يمدّه وكيف يجعله أملسًا ومتى يضيف المياه ويمسّده. حرّكه إلى الأعلى بينما دارت العجلة واتّسع الثقب في الوسط. بيده اليمنى وأصابعه، حرّك الطين ليعطيه شكلًا. خفّف بيديه من سماكة الجوانب للطين. كان السفينة قد بدأت تتخذ شكلًا، داخل الملجأ المهجور الذي اتّخذه مسكنًا له. كان قد بدأ من الأساسيات، وهو يتذكّر أحلام والدته الصامتة. مثلها الآن في هذه اللحظات، كان قد فقد نفسه. الآن، عاد ليمتلك المعنى، ذكرى تلو الأخرى، وهو يشكّل السفينة التي كان في صدد صنعها، ويزيل عنها الزوائد. كانت هذه محاولته الخامسة والثلاثون ليصنع سفينة. ولو كان شاكرًا لأيّ شيء من السجن الذي كان فيه، كان فقط للعمالة الصعبة في الحقول والطرقات التي جعلته على احتكاكٍ ومعرفة أفضل بالأرض والتربة.

[67]

كانت أيانا تهرع خارج مسجد البلدة الصغير، رأسها مغطّى بحجابٍ لونه ورديّ، وجهها ينمّ عن علامات عدم الرضا. أزعجتها رائحة الطهي التي فاحت من الحيّ. غطّت أنفها، لكنّها لم تتجرأ على أن تخفض حجابها، فقد أخفى النتيجة الكارثية لزيارتها لمصفّف الشعر الذي حدّق إليها في البداية برعب، كما لو أنّ شعرها على وشك أن يعضّه. ثمّ سمح لها أن تمدّده فوق المغسلة، حيث راح يفرك شعرها لمدة خمسة عشر دقيقة، وهي يتذمّر حول مدى خشونته.

مهما كان ما يتمتمه، فقد جذب حشدًا من الموجودين في صالون التجميل حول رأسها بنظراتٍ أشبه بنظرات التنين القاتلة والتساؤلات ظاهرة في نبرة أصواتهم. فرك بعضهم جلدها، كما لو أنّهم يتوقعون أن يزول لون بشرتها الأسمر الذهبي. تحمّلت كلّ شيء. ما كانت تتوق إليه هو أن تشعر بدفء يدين بشريتين على وجهها وشعرها. كانت تريد أن تُدلل وتحصل على الاهتمام وتتبرج حتّى تخرج من المكان جميلة. لكن حدوث ذلك لم يكن مقدّرا.

على الرغم من شعور مصفّف الشعر بالانتصار، وثقته بأنّه حقّق لها مظهرًا خارجيًا ساحرًا، أرادت أيانا أن تقطع رأسها عن عنقها، وليس فقط شعرها. كانت قد مشت بخطى متعثرة باتجاه الضوء، وبحثت بيأس عن محلٍّ لبيع الملابس. في محلٍ لبيع أغطية الرأس بأغرب الألوان التي رأتها على وجه الأرض، اشترت الحجاب الذي كان لونه أقرب للون الوردي، من دون أيّ تردد. وعلى الفور، قامت بتغطية رأسها.

بعد أن أحبطها شعورٌ عارمٌ باليأس، خاطرت بالدخول إلى المسجد حيث كانت تنوي الذهاب. هناك، قرأ إمام الجامع بلحيته الحمراء الأحاديث الشريفة، متكلّمًا بلغة الماندرين، التي كانت لا تزال لا تفهم معظمها. لكن حين سمعت باقي المصلّين يتلون صلواتهم، قال لنفسها إنّها يجب أن تشعر بالامتنان. لقد كانت الآن تتحدّث مع والدتها لوقتٍ أطول وأكثر، وكان شعرها قبل ذلك أشبه بكرة صوفٍ متشابكة.

كانت راكضة خارج المسجد حين سمعت صوتًا يناديها: "مساء الخير يا آنسة أيانا".

إنّه كوراي. كان ينتظرها هناك. قال لها، "ظننت أنّها أنتِ".

نظر إليها رافعًا حاجبه ومبتسمًا. "الالتزام الديني صفة جذابة في امرأةٍ جميلة".

لم تشأ أيانا أن تتحدّث مع أيٍّ كان. عدّلت حجابها. "هناك دائمًا أمر جديد خارج أفريقيا"، ردّد لها كوراي هذا الاقتباس. مشى قربها. نظرت أيانا حولها في الشارع. كانت رائحته أقلّ شدّةً الآن. حاولت أن تسدّ أنفها. فيما مضى، كانت تفرح بالروائح وتخطّ رحلات جديدة استنادًا على العطور فحسب. انحنى كوراي باتجاهها.

"أربعة وخمسون دولة ذات سيادة، واثنتان بحكم الأمر الواقع مع الاعتراف المحدود، وعشر مناطق مغتربة، بما في ذلك ريونيون ومايوت ولامبيدوسا. ست وستون دولة في المجموع".

تنهّدت أيانا، "ماذا؟".

"البلدان في أفريقيا. أنا أيضا أبحث في كينيا". لفظها طريق خاطئة. "بلدك". بدا راضيًا عن نفسه. "أنا أستعد للفوز بكل حججي وجدالاتي معك".

دفع بهما الحشد المتدافع لتناول طعام الغذاء تجاه جدران أحد المباني. كان كوراي على أتمّ جهوزيته. "أمير علي بيك... تركي. بقي في جزرنا، حارب إلى جانبنا ضد المحتلين الأوروبيين".

ابتسم. "يا لها من روابط تلك التي تجمعنا، أيّتها السليلة".

بدت أيانا حزينة ومضطربة. كان صوت كوراي هادئًا حين نظر إليها.

"ولكنّنا لن نتجادل اليوم".

نظرت إليه.

"لا"، قال لها، وبريق في عينيه. "أنا أنوي أن أسحرك"، تمتم لها. لامس كتفها. "أظنّ أنّك بحاجة إلى أن تضحكي، وربما، كما آمل، تكونين بحاجة إلى صديق؟".

شعرت بغصّةٍ مالحة في حلقها. أشار إليها كوراي: "أتفهم الأمر".

نظرت إليه، ربّت على خدّها. "أعرف كيف يكون الأمر حين يشعر الإنسان بالضياع في حلمٍ واسع لشخصٍ آخر. من المفترض أن تعتبري الصين وطنكِ، أليس كذلك؟ تظنين أنّه ينبغي بك أن تنتمي. ولكن هذه الأرض تحرس روحها بتنينٍ باردٍ لا يسمح لكِ بالدخول، وبالنسبة لكِ، أنتِ التي لا تشبهينهم كثيرًا، لا يكفيكِ أن تجدي نفسكِ وأنتِ تراقبين من

خارج البوابات".

اغرورقت عينا أيانا بالدموع، ثمّ حاولت أن تبتسم. تشجّع كوراي وأحاطها بذراعيه. "إذن ما الذي يزعجكِ فعلًا، أخبريني يا حلوة".

نظرت إليه من خلف الحجاب ولم تقل له شيئًا. سارا لمسافةٍ قصيرة، قبل أن يسألها كوراي. "إذن هل يمكن لغريبين يتشاركان تاريخًا كبيرًا معًا أن يتناولا الطعام معًا؟".

شعرت بحضورٍ دافئ معها، يلامسها، وأدركت أنّها كانت جائعة. "موافقة؟"، ألحّ كوراي. أومأت أيانا برأسها في إشارة إلى أنّها موافقة. ضحك كوراي، وضغط على يدها.

"إذن إن كنت تسمحين لي... هل يمكنني أن أريكِ المكان الصغير حيث يقدمون الدجاج والشعرية؟ ويا آنسة أيانا، لديهم أيضًا الحلوى".

دموعٌ حقيقية. استدارا في أحد الزوايا. تنفّست أيانا وتماسكت. "حلاوة؟"، صاحت وهي ممتنة لأنّه لا يفهم قصدها. "حلاوة"، كرّر كوراي. أصبحت عيناها حالمتين: "حلاوة؟".

"نعم يا آنسة أيانا، حلاوة".

أومأ كوراي برأسه ببطء. انسحب لكي يركض إلى الخلف، واصطدمت بأحد المارّة. تبعته أيانا. "الناس..."، صاحت.

"يمكنني أن أتجنب الارتطام بهم. أسرعي! الحلاوة!".

"الحلاوة!"، أنشدت الآن أيانا.

"حلاوة"، صاح كوراي بينما تباعدت الجموع لتتيح الطريق لزوجٍ من الأجانب يجوبان بلدهما، بحثًا عن الحلوى.

تسربت الظلال من الأضواء الخارجية عبر النوافذ المفتوحة للمطعم القذر. الحادية عشرة مساءً، كان هنا شاب وفتاة لا يزالان يتناولان قدرًا يخرج منه البخار، بقايا ما انغمس في أكله بوقتٍ سابق -العظام والجلد والأصداف. كانا يشربان القهوة من نفس الكوب، يلتفان في الكون الصغير الذي اكتشفاه أو بالأحرى صنعاه، غافلين عن أصوات حركة المرور، وخطوات المواطنين على الرصيف. من وقت لآخر، كانا يتوقفان للاستماع إلى الموسيقى، التي لم يكونا قد سمعاها من قبل، لكن لا تزال مألوفة نوعًا ما بالنسبة لهما. يكن هناك سوى اثنين آخرين في المطعم الصغير، جلس صاحبه في كشك في الزاوية، يراقب العالم وضيوفه....

غاص الزوج في دوامة. لعبة النظر إلى عينيّ أحدهما الآخر كانت أشبه بتلميح لشيءٍ آخر. أشعل كوراي سيجارة وعرضها على أيانا التي جعدت أنفها واستدارت بحدة. بدأت في السعال. "التدخين ليس قوتك"، قال كوراي بينما راقب أيانا وهي تختنق بالدخان، ثم ضرب بيده على ظهرها. تمتم: "كان صديقي سابقًا يدخّن. أكره رائحة النيكوتين". أشارت إليه لتقول "لكنّك تدخّن أيضًا".

أطفأ السيجارة وحدّقت به أيانا. قبل أن تتمكّن من أن تحضّر السؤال الذي أرادت طرحه، رفع كوراي معصمها إلى أنفه. "الورد الدمشقي". قال لها، "من تركيا". اللّمس. لكنّ رائحته كانت أكثر حميمية، كما لو أنّها تتنفسه. ولكي تخفي اهتمامها المفاجئ به، قالت له: "دمشق تقع في تركيا، أليس كذلك؟".

"فصيلة الورود هذه نعم".

لمعت أسنانه، وانحنى إلى الأمام ليقبّل جبين أيانا وأنفها. قبل أن تتمكّن من أن تقوم بأيّ رد فعل، كان قد عاد إلى مقعده ضاحكًا. كان حجاب أيانا الوردي الجديد قد وقع أرضًا. واجه شعرها المكشوف العالم، متحديًا، وهي تعترف لكوراي بتجربتها السيئة في صالون التزيين. تنهّدت. قال لها إنّ الجمال حالة دائمة. ضحكا حيال تلاعبه بالكلمات. بدأ قلب أيانا ينبض؛ لم تكن تعرف أنّه يمكن للمرء أن يضحك بهذا الشكل مع إنسانٍ غريب.

"ماذا تعني كلمة السليلة بجميع الأحوال؟"، سألها كوراي، وهو يمسك بمعصمها. "صلة الدم".

"ربما"، قالت له.

توقّف قليلًا. "ولكنّكِ من كينيا".

"نحن نتشارك بحرًا وتاريخًا".

"نحن نتشارك البحر أيضًا، يا قريبتي السليلة!".

ضحكت أيانا. ولكن أيضًا توقفت. تساءلت. الشقوق في كلمات والدتها. من هو أبي البيولوجي؟ راقبها كوراي وهي ترتعش.

"الأشباح؟"، سألها.

رفعت رأسها.

أكمل كوراي: "أخبريني كلّ شيء".

"لا"، قالت له.

"أنا أصرّ".

حدّقت به، بلا أيّ حركة. تحرّك كوراي في مقعده، ووضع أصابعه في صحن السكر.

"أريد أن أعرف يا أيانا"، اسودّت عيناه، كما لو أنّه يوجّه اتهامًا.

"أنا أفكّ الألغاز... كلّها" -ابتسم -"وأغوص في روحها".

أغمضت أيانا عينيها. كان هو الأغرب بين جميع الطلاب.

"لماذا أنتَ في الصين؟"، سألته.

رفع حاجبيه. "لكي أتعلّم عنها. بيني وبين الصين أوهام عن واحدنا الآخر أيّتها السليلة". مدّ يده ليمسك بيدها. "لا تخبري أحدًا، ولكن الحقيقة هي أنّ العائلة تريدني هنا في شيامن. المسألة استراتيجية بالنسبة لنا".

بدت أيانا في حيرة من أمرها. شرح لها كوراي: "المعرض العالمي الصيني للاستثمار والتجارة؟"، هزّت أيانا رأسها. "في شهر سبتمبر، تدور فعالية الحديث بين المدن". نظر إليها. "ينبغي لكِ أن تحضري. تعالي كضيفتي".

حرّكت جسدها كما لو أنّها ترفض أن تعطيه علامة التزام. انحنى كوراي ليراقبها. "أنا هنا أساسًا لأبني شبكة علاقات وأتقن اللغة، أراقب عادات السكان الأصليين. من الأسهل القيام بذلك بواسطة تأشيرة دخولٍ كطالب".

انحنى قربهما طائر غريب، ليستقر مثل الضباب حولهما. نقر كوراي بأصابعه على الطاولة. "هل أنت سعيد؟"، سألته، "أنا سعيدة لوجودي هنا".

"ليس نفس السؤال"، قال لها.

على الرغم من نفسها، قالت: "أفتقد المنزل... حتى لو ... ".

الكلمات التي تخرج من فمها هذه الأيام أزعجتها.

"في معظم خرائط العالم، جزيرتي غير موجودة".

تجعدت عينا كوراي. "ها! شبح من شقوق المكان والزمان. عندما رأيتك، عرفت ذلك!".

ضحكت أيانا بصوت عال.

الصمت.

ثم قال كوراي: "المنزل متخيل يا آنسة أيانا".

رفعت أيانا رأسها. وتابع كوراي: "نحن جيل آخر، شعب مختلف. نحن بحاجة إلى خيال جديد مدى الحياة. بيتنا في أي مكان وفي كل مكان. أينما نريده أن يكون. المستقبل ليس بلدًا، لا بالنسبة لي ولا بالنسبة لكِ".

سحرت كلماته أيانا. مال كوراي رأسه للنظر إليها. شيء بارد ولكن مؤذ يكمن في نظرته. ارتفع الشعر الموجود على عنق أيانا. نظرت بعيدًا، وارتكبت خطأ تخيل الإحساس المرعب المنتشر في جميع أنحائها لجذبها.

الصمت المحمّل بأشياء كثيرة.

أصداء الطيور البحرية وهي تبكي.

أحضر النادل طبقًا من أجنحة الدجاج بالفلفل الحار. لاحظ كوراي أيانا. "حزينة مرة أخرى؟".

لمست كوب الماء.

نصف ابتسامة.

"ليس صحيحًا".

"جربيني".

التقت عيونهما.

أشارت إلى طبق الأجنحة.

"صغيرة جدًا".

تذكرت أقدام طائر الأورتولان.

نظر كوراي إلى الطبق."الحياة غارقة في السخافات؛ حتى أنها منسوجة بمعاناة الطيور".

رسمت أيانا خطوطًا غير مرئية على سطح الطاولة. استخدم كوراي أصابعه ليمسك بأحد الجوانح ويضعه في فمه.

"لذيذ"، قال لها.

نظرت أيانا باتجاه الباب المفتوح على مصراعيه. شاهدت امرأة بشعرٍ طويل وصل إلى ظهرها تقريبًا وهي تكنس الأرضية. كان هناك موسيقى قربها. استمعت إليها وإلى صوت كوراي وهو يمضغ. ثمّ تناولت أيانا قطعةً من الحلقوم بطعم الورد ووضعتها بالملقط قرب

الحلاوة بالفستق. كان قلبها وعقلها يتسارعان. لم تكن الألفة التي قدّمها كوراي أمرًا هي معتادة عليه أو تعرف التعامل معه. كانت أيضًا قد أكلت الكثير من الحلويات.

قالت له: "ينبغي أن نعود".

"الآن؟".

كان مرفقيها على الطاولة. "لدينا محاضرة غدًا".

"آه أنت تعملين بجدٍّ يا أيانا".

"نعم يا كوراي".

بدا جادًا. "نحن أصدقاء؟".

نظرت إلى الأعلى، ثمّ إلى الأسفل، كما لو أنّها تفكر بأنّه يطلب المزيد.

نظر إليها: "أيانا؟".

تنفّست. مالت برأسها.

أمسك كوراي بيدها كما لو أنّه يقول بردّ فعل. "لا تقولي نعم أو لا بعد... ولكن أرجوكِ... لفرصة شهري أغسطس وسبتمبر، قبل أن يبدأ المعرض، تعالي معي إلى تركيا. سوف تحبين اسطنبول. سيكون لكِ وقتكِ ومساحتكِ الخاصة. ستكونين ضيفة عائلتي. ستستمتع والدتي برفقتك. سيؤكد لها وجودكِ أنّي لست غارقًا في الوحدة في هذا البلد الأجنبي".

رفع يده. "لا، لا تجيبي بعد. دعي الفكرة فقط تتسلل إلى رأسكِ الآن" قفز من مكانه. "الآن نعود إلى العالم البارد. سأرافقك إلى باب منزلك قبل أن أعود إلى سريري، حيث سأحلم بكِ وبِـ" - لمعت عيناه -"وبجزيرتكِ غير المرئية".

لكمت أيانا ذراعه لكمةً خفيفة. ضحك كوراي. "أنا ألكم الفتيات اللواتي يعجبنني". أمسك بذراع أيانا. "وأنا معجبٌ بكِ يا آنسة أيانا".

سلكا الطريق الأكثر تعقيدًا إلى المنزل، ولعبا الصيد بشظايا وجداها، وطاردا أجسامًا عشوائية طيارة، وركضا وراء أحدهما الآخر. سبقا الناس حتى وصلا إلى مكان يمكن أن تدور فيه أيانا تحت سماء الليل ويراقبها كوراي. ضحكا كثيرًا. أمسكا بيديّ أحدهما الآخر بعد ذلك. تحدثا ومشيا في صمت، متفاجئين بالألفة التي شعرا بها. خارج بابها، قبّل كوراي أيانا على خدها. قبّلها مرتين.

كانت الأيام مثل ظلال النسور التي تنقض على الطلاب في الحرم الجامعي. كان هناك

تهديد العواصف الكبرى لأسماء مختلفة، ولكن ما ظهر هو الرياح التي جعلت البحر زبدًا أبيض. وبالنسبة لأيانا، كانت هذه الظروف التي أصبح فيها كوراي فيها بالنسبة لها مذهلًا، لأنه حرص أن يكون غالبًا في جوارها: صديقة ساحرة، زميلة أنيقة كان من الواضح للآخرين أنّه يفضل رفقتها. عندما كانت في حضرة كوراي المهيبة، تساءلت أيانا عما يعنيه "الرجل"، ولاحظت أشياء غريبة -إيماءات الأيدي الناعمة، وهبوط شفته السفلية عندما توقف للتفكير -وخز ذراعيها من لمساته.

المداعبات.

كان من عادته أخذ ذراعها ودعوتها للسير معه.

كانت عادتها الآن أن توافق.

Aingiaye baharini huogelea.

من يذهب إلى البحر، يجب أن يسبح.

من الجو، بدا مضيق البوسفور شريطًا فيروزيًا يصب نفسه في بقع زرقاء داكنة على جانبي البحر الأسود وبحر مرمرة. "اسطنبول بوزازي. في الداخل، نهر تحت سطح البحر... يعتبر سادس أكبر نهر في العالم. إنّه يغذي البحار"، هكذا أبلغ كوراي أيانا، الذي كانت عيناها مثبتتين على ألوان المياه. "أوروبا، هناك" – أشار كوراي إلى المحيط البنيّ – "وهنا آسيا".

أشار إلى كتلة بنية أخرى. "فصل المسافات والأماكن بالاسم فقط". كانت هناك بعض الرؤى للأماكن التي لا توجد كلمات لها. مالت أيانا إلى النافذة، وعيناها تتجولان في المكان. تفحصتا البوسفور. لقد كانت بوتقة اختبار للملاحين الذين اضطروا إلى التعامل، في بعض الأحيان، مع تعديلات من الدرجة الخامسة والأربعين وحتّى الثمانين أثناء محاربة التيارات غير المتوقعة، والانحناءات العمياء، وحركة المرور البحرية الثقيلة في نفس الوقت.

شكّلت ممرات المياه الضيّقة بالنسبة لهم تحدٍ كبير، وكان هذا الممر هو الأصعب. تسارعت دقات قلب أيانا. كانت تعرف أنّها ستعشق البوسفور. حطّت طائرتهما القادمة من جنوب الصين. "أهلًا بك في تركيا يا آنسة أيانا"، كان كوراي يمسك بيدها، واستندت عليه. لامس شعرها وقال لها: "سيعجبك المكان هنا". فكّرت أنّه سيعجبها فعلًا. حين خرجا إلى الهواء الطلق لتلك الأمسية الدافئة، تنشّق كوراي الهواء وهو يميل برأسه إلى الأعلى. "هذه بلادي"، قال لها.

شعرت أيانا بعبق التاريخ يدخل في مسام جلدها. لقد كانت هذه بالفعل بلادًا عتيقة. راقبت أيانا المارّة يعبرون أمامها. كان المكان ساحرًا بقصائد بحرها تكريمًا لأولئك الذين أتوا إلى هذه الأراضي، ثمّ عادوا ليكرروا حكايا البوسفور الغامضة، الذي كان مرتعًا لوحوش البحر السريين.

نسيم في الهواء، ألوان وأصوات. وإذ كان بالكاد سماع الهمس، لامس قلبها وأذنيها صوت الآذان القادم من بعيد. نبض قلبها، متحمسًا رغم الأمور غير المؤكدة، وانغمست أيانا في إغراء الدراما وما قد يعنيه الانتماء إلى مكانٍ كهذا، حيث تخيّلت أنّه قد يكون بإمكانها أن تجد صدى عميق لبلادها. اقتربت أيانا من كوراي، ثمّ ضحكت حين رفعها

كوراي عاليًا والتف بها.

كانت قد نسيت أوّل خطأ ارتكبته. حين كان كوراي يقوم بإجراءات السفر، وطلب منها جواز سفرها، أعطته إيّاه. وحتّى بعد أن دخلا وأنها الإجراءات، وضع في جيبه مع وثائقه هو. كان يتسلّم زمام الأمور. لم يخطر لها أن تطلب منه أن يعيده لها. خارج بوابات الوصول، كان هناك سيارة مرسيدس لونها أزرق داكن وقد توقفت من أجلهما – كانت مركونة بشكلٍ غير قانوني ولكن لم يتجرأ أحد على الاقتراب منها. فتح كوراي باب السيارة بينما قام رجل يرتدي بذلة رمادية اللون بوضع حقائبهما في السيارة. كان صحيح أن هناك كوزموسًا قويًا تحت الماء تحت مضيق البوسفور، يرأسه نهر غواص كثيف عالي. يغذي السكان السريين المقيمين في المكان.

كان يحمل رواسب التاريخ والذهب والنفط، ويبقيها بعيدة عن الأعين. في الأدنى كما في الأعلى: انزلقت مخالب الظل ذات الحواف المذهبة فوق أيانا، مما تسبب لها في قشعريرة مفاجئة انتقلت بين أعلى وأسفل عمودها الفقري، وعندما نظرت، شاهدت ظلامًا يتعدى نظرة كوراي. قادوا إلى فيلا تيرزي أوغلو البيضاء في اسطنبول، وهي واحدة من ثلاثة تملكها العائلة في البلاد. في اضمحلال جزئي ولكن مقبول، كانت هذه أكثر ممتلكاتهم قيمة. كانت مكانًا مرغوبًا فيه في اسطنبول المتعطشة للمساحات الواسعة، مع فداناتها البكر الثلاثة من الحديقة السميكة. أخبر كوراي أيانا، "لقد نشأت هنا في الغالب. أرسلوني إلى إنجلترا للدراسة عندما كنت في الثانية عشرة من عمري".

درست أيانا المنزل كما لو أنّه مكان غريب ورائع لحلم كبير الحجم. ضغطت يد كوراي على ظهرها الصغير. استنشقت الكولونيا، ثم عادت لتتكئ عليه، ومسحت وجهها كما لو كانت تعثرت في نسيج العنكبوت. نظر إليها كوراي وابتسم نصف ابتسامة.

ارتعشت أيانا. انفتحت الأبواب الكبيرة لتكشف عن امرأة مبرّجة ذات وجه متوهّج. عطرها، وكثافة الزهور، وبعض التوابل المظلمة، فاحت في الهواء. قامت يداها الرشيقتان بإيماءات طويلة، كما لو كانت مقدمة للرقص. انتقلت في خطوات سريعة. لباس من الحرير يشبه جسدها ويحجب ثوبًا مغطى باللؤلؤ الأبيض. تم تبييض شعرها الأشقر الكثيف الملفوف في كعكة. كانت وقفتها كما لو أنّ لها جسد راقصة، وكذلك إيماءاتها المتناسقة.

كان كوراي هادئًا وهو يتقدّم ليلقي التحية على والدته ويقبّل وجنتها، بينما صاحت

هي: "دعني أنظر إليك".

وقبل أن تلتفت إلى أيانا، قال لها كوراي: "أمي، هذه أيانا".

تفحّصت نهير أيانا ومالت برأسها. "لا بأس بها"، قالت لابنها. ولأيانا قالت: "يا لكِ من مخلوقة".

انحنت أيانا بلطف. أمسكت نهير بيدها. قدّمت لها وجهها. "قبليني هنا"، انحنت أيانا التي كانت أطول قامة لتقبلها. أكملت نهير: "سنتعرّف إلى بعضنا البعض"، ثمّ عادي على ابنها: "كوراي، هذه ليست جزيرة صغيرة بحاجة إلى من يغذيها. أوصافك ليست مكتملة يا عزيزي".

اقتربت. وكان بإمكان أيانا أن تشمّ رائحة الهيل في نفسها بينما قالت: "يختلق ابني الأعذار".

ضحكت نهير كما لو أنّ هناك مزحة خفية في الموضوع. بّردت ضحكة نهير أعصاب أيانا. "اتبعيني، سوف أصحبك إلى غرفتك – بعيدًا بعيدًا عن كوراي".

ضحكت مجددًا، ثمّ التفتت إلى كوراي وقالت في حماسة: "الفتاة بريئة بشكل لذيذ – وجه غير مبرّج ولا أحمر شفاه – بريئة جدًا - سنتسلى كثيرًا معًا".

نظرت أيانا إلى الوراء متوجهة إلى كوراي. غمز لها. مرّا بالقرب من ذئبين من الحجر المتصدع يحرسان جانبي المدخل، وبعد أن صعدا بضع درجات، دخلا من خلال باب كبير تفوح منه رائحة الصدأ. سارا في ممر خافت الإضاءة تتفرع منه الغرف. استرقت أيانا النظر من خلال الأبواب المفتوحة. كانت هناك كتب وخرائط في كل مكان.

على رف كبير على طول الممر كانت العديد من الكتب لمختلف الأعمار، وكلها من تأليف تيرزي أوغلو أو كاتب آخر. بدا الهواء سميكًا؛ في تخيل أيانا، عبروا إلى عالم آخر. المزيد من اللوحات والمنسوجات مع الحكايات الشعبية المنسوجة، معلقة على جدران مختلفة، تحيط بها المرايا ذات الحواف المذهبة بحجم النافذة. السجاد الفارسي على الأرض، والسيراميك البيزنطي في التجاويف السرية. تم إخفاء بعض الغرف خلف أبواب فولاذية مقواة. كان هناك خدم في عوالم تيرزي أوغلو بكفاءة غير مرئية، وصمت، ونظرات جانبية سرية إلى أيانا.

أين أنا؟ تساءلت أيانا.

[69]

كان الروتين قاتلًا والوقت يمر ببطء في تيرزي أوغلو. كانوا يجلسون لتناول الفطور والغذاء والعشاء. وبعد ساعات العشاء، كانوا يجلسون في غرفة الجلوس حيث البيانو اللّماع في حالة انتظار، غطاؤه مفتوح كما لو أنّه تمساح يتظاهر بالموت على أمل أن يصطاد وجبة سهلة. أحيانًا تحدثوا؛ ولكن معظم الأوقات استمعوا إلى مطربة تغني أو مقطوعة موسيقية كلاسيكية.

كانت تلك طقوس الضيافة في تيرزي أوغلو، كانت كل حركة خاضعة لقواعد كان على أيانا الاعتياد عليها. كان دائمًا يتمّ الترحيب بها، ولكن في كل حركة وفي كل كلمة، شعرت أنّ هناك من يراقبها ويتفحّصها ويقيّمها. جعلها ذلك أكثر ارتباكًا وأكثر حساسية تجاه تلك الأجواء.

تضاءلت ثقتها بنفسها التي اكتسبتها في الصين أمام نظرة مستمرة كانت لديها القوة لإعادة تشكيل أحلامها.

"وبالتالي ... والدك يعمل في القوارب؟"، سألت والدة كوراي أيانا، عيناها أشبه براقصتين هنديتين ترتفعان للأعلى، ثم تنخفضان، وتنجرفان جانبًا.

"مستكشف"، تلعثمت أيانا بالكلام، وهي ترفع من شأن محيي الدين الوظيفي. وأضافت "متقاعد".

"هل قام بعمل جيد لنفسه؟".

"أمّي!"، اعترض كوراي.

ردت نهير بقولها "إنه سؤال مهم". "حسنًا، أليس كذلك؟".

"لقد بذل قصارى جهده"، حدقت أيانا في حسائها.

ركلت كوراي تحت الطاولة. هل أخبر والدته كلّ شيء؟ ابتسم.

"ماذا تفعل والدتك؟".

"في مجال التجميل؟".

"خبيرة تجميل؟"، لم تعرف أيانا معنى هذه الكلمة. قالت: "نعم".

أيًّا كان معناها.

قال كوراي: "أيانا تدرس الملاحة". تبادلت الأم والابن نظرة. عادت نظر نهير إلى وجه أيانا. "يخبرني ابني بأنك ثمينة إلى حد ما للصينيين".

تلعثمت أيانا.

"ماذا؟ أليس كذلك؟"، طالبتها نهير بإجابة.

"هل هناك أحد أفراد عائلتك من الصين؟ لا يهم. إن الصينيين، يا عزيزتي، مخادعون للغاية. يمتلكهم جوع كبير يا عزيزتي، أسوأ أنواع الجوع. ولكن ها أنتِ، تتعلمينهم -من الضروري جدًا ذلك للمستقبل".

ابتلعت أيانا بقوة، فجأة أرادت الدفاع عن الصين.

إنهم كرماء. عيونهم جريئة. إنهم يعملون بجد. أحلامهم أكبر من العالم. اعتقدت أن كوراي سيتدخل. وبدلًا من ذلك، جلس بيديه مطويتين على صدره، يراقب التفاعل بمظهر متعجرف. مالت نهير باتجاه أيانا. "ماذا يعني أن تكوني وريثة صينية؟".

أعطى كوراي صوتًا تحذيريًا مصحوبًا بإيماءة قطع اليد. ثم صاحت والدته: "الملاحة!". كما طلبت الفلفل الأسود لإضافتها إلى حسائها. "أعتقد أن جيلك يجب أن يواجه كل شيء. أفترض أنك تريدين أن يكون لديك قارب خاص بك في يوم من الأيام"-أشارت بيديها -"لاجتياز تيارات رائعة". ابتسمت لأيانا ابتسامة بطيئة وخبيثة. "المرأة بحاجة إلى الأحلام... ربما أكثر من الرجال. هل اخبرك كوراى أننا نعمل في مجال الشحن؟ سبع سفن وناقلة، أربعة منهم سميت باسمي. أميرهان، زوجتي، يدللني... كُلي كُلي ... "، قالت.

رائحتا الورد والنعناع في الشوربة الصافية.

نقلت الرائحة أيانا إلى مطبخ منيرة غير المزخرف. وجع للمنزل. رفعت رأسها لتقول شيئًا عن منيرة. صاحت نهير: "جمالك غريب، أيّتها الطفلة العزيزة". لمست عيني أيانا. "أنا سعيدة. لا يمكن لأحد أن يخطئ ذوق كوراي في النساء".

توقفت. بدأت أيانا "أنا لست -". قاطعتها نهير. "هل أنت متدينة؟". بقيت ملعقة أيانا معلّقة بين طبقها وفمها. كيف وماذا كان من المفترض أن تقول الآن؟ غيّر كوراي الحديث.

"أيانا الأولى في صف التفاضل والتكامل".

لكنّ نهي عادت تسأل: "هل أنتِ متدينة يا فتاة؟".

"أنا..."، نظرت أيانا إلى كوراي ليرشدها للإجابة. تقاطعت نظرته بنظرتها.

قالت نهير: "سواءً تكونين متدينة أم لا، هل تمارسين الطقوس الدينية؟".

"أنا متدينة".

أومأت نهير برأسها كما لو أنّها اكتشفت سرّا.

"ولكن يجب ألا نبالغ بالأشياء – كل شيء باعتدال. الماضي يتأقلم مع الزمن. يجب أن يتذكّر المرء ذلك. ينقذنا من المبالغة. أتوقّع أنّك سترغبين بزيارة المسجد؟ كوراي، أبلغ ذلك لخالدي".

التفتت نهير إلى أيانا. "سائقنا، سيكون تحت تصرفك يا عزيزتي".

لم يكن هذا ما تتوقعه أيانا لعطلتها الحقيقية الوحيدة. حين عادت أيانا إلى الفيلا بعد يومٍ طويل في اسطنبول وتاريخها ورائحة آثارها، وخيبة أملها بمستقبل غير معروف، شعرت أن! الحنين تسبب لأبشع المباني الحديثة بأن تكون مغطاة بألوان الماضي، وحين عودتها، وجدت أنّ حقيبتين ورديتين كانت مكان كيس أغراضها الأحمر. خمسة أزواج من الأحذية الإيطالية لمصممين معروفين – أحذية عالية وأحذية باليه وأحذية خفيفة وأحذية بأصابع مفتوحة، وأحذية رياضية فاخرة – كانت مكان صنادلها وأحذيتها الرياضية. احتوى صندوق آخر على ثوب نوم من الحرير الأسود. تم استبدال ملابسها بفساتين أودري هيبورن بأربعة ألوان -الأسود والأبيض والأزرق والأحمر -ومجموعة من الملحقات، بما في ذلك الشالات وحقائب اليد باللون الأسود والأبيض والبيج. انتظرت اسانا ليحين موعد العشاء.

"هل ملابسي في الغسيل؟".

"لا يا عزيزتي".

وضعت نهير ملعقة من الحساء في فمها. قطع كوراي الخبز.

"أين هي... وحقيبتي؟".

"أرجوك لا تنزعجي يا عزيزتي. أليست المجموعة التي اخترناها لكِ أنسب؟ أردت أن أفاجئك، هل هناك خطب في ذلك؟ أريدك أن تكوني مرتاحة... و. وكوراي شجّع ذلك".

كادت أيانا أن تبتلع ملعقتها.

"غدًا"، أضافت نهير، "حضّت لنا موعدًا لتذوّق الشوكولاته! ستعشقين الأمر، ستعشقينه!".

لمست خدّ أيانا وقالت: "لقد سمعت أنّك تحبين الحلويات".

انتابت أيانا آلامًا في عنقها. كانت تكافح من أجل الهواء.... حاصرت كوراي بعد العشاء مباشرة. لمسها تحت ذقنها. "أحب نظرة الهريرة الغاضبة عليك يا كانيم! تابعي. طاوعي والدتي. نيّتها صافية". تساءلت أيانا عما إذا كان كوراي يخاطبها بالهيروغليفية. قاطعها كوراي: "أنت في دار تيرزي أوغلو. لا تقولي أنا، هنا يوجد نحن".

رنّ هاتف كوراي الذكي. غمز لأيانا وفتح هاتفه. راقبته وهو يتحدّث بالتركية بنبرة سريعة مع أحدهم. أشار إليها. سمعت أيانا كلمة سوريا تتكرر في الحديث. أنهى المكالمة بغضب. تحرّك من دون أن يلتفت إليها.

"استجدّ أمرٌ ما".

توقّف وعاد ليربّت على رأسها. "ستبدين خلابة في هذه الملابس". قبّل رأسها. "نحن نحب كل ما هو خلّاب".

حدّقت إلى ظهره وهو يغادر. لقد أرادت أن تسأل عن الذهاب إلى قونية لزيارة قبر مولانا الرومي. أرادت السباحة في مضيق البوسفور. تذوق الشوكولاتة؟ كان نوم أيانا، على الرغم من عدم الراحة، بلا أحلام في تلك الليلة. في العشاء، كانت الأسرة تنزلق من وإلى التركية والإنجليزية والفرنسية والألمانية.

حتى في الوقت الذي كانت فيه أيانا تكافح من أجل مواكبة الأمر، فقد سحرها أداء القوة والثروة، بمعنى الميول غير المعلنة لأولئك الذين عرفوا أنهم خلقوا بعض القواعد التي أبقت العالم في حالة اضطراب. "هل أنت سعيدة؟"، سألها كوراي. كانت رحلة تذوق الشوكولاتة في ذلك اليوم سلسلة غامضة من التذوق والقطع والصهر والصراخ، "تعليم براعم التذوق". لم تكن تجربة أرادت تكرارها قريبًا. وأكدت لكوراي "نعم". ومع ذلك، فإن كل ما كانت تأمل فيه تم إدراجه بأي أمر أتى من قبل تيرزي أوغلو.

تحدث معها كوراي بنبرة مجهدة. التيارات. لقد كبر هنا. كان أكبر وأطول وأصلب. كان يلبس بذلة رمادية وربطة عنق، وحذاء وحقيبة جلدية. بالتأكيد ليس مظهره مظهر "طالب". شيء من القوة التي ينتمي إليها كان يشع مثل هالة مغناطيسية وحشية ومغرية. أي ضوء فيه يبدو الآن مصطنعًا أو مستعارًا. هذا ما لم تكن تتوقعه: قابلية الكائن البشري للتغيير. بعد أن خدعت، أخطأت في الخلط بين الزئبقية والمعنى، وفي عقلها الضبابي بدأت

تعتقد أنها يمكن أن تسكن العالم بشكل أفضل من خلال إعادة تصورها المتواصل للذات. بدأت بمحاولة تغيير موقفها والطريقة التي يتحرك فيها جسدها في الأماكن. خطوات أصغر، مرتبة العمود الفقري المستقيم، ابتسامات أصغر وأرفع.

كان ذلك أمرًا مرهقًا.

[70]

ارتشفت أيانا عصير البرتقال وتصفّحت جريدة بعد تناول الفطور. في وقتٍ سابق، كانت نظرة كوراي عالقة على وسط الجريدة. الصور: وجه رجلٍ في الماء؛ جثثٌ تطفو على سطح البحر؛ رجال ونساء وأطفال يتمّ انتشالهم من المياه؛ منقذون ببزّات بيضاء؛ رجلٌ أسمر البشرة ميّت ومتمسّكٌ برضيع ميّت أيضًا.

كلّ هذا.

لم يسبق لها أن أدركت ملامح اللّامكان. قال كوراي وهو يراقبها: "لقد قامروا. لقد خسروا. لا أحد مضطرٌ لتحمّل وزر فشلهم".

كادت أن تقفز من مقعدها.

"الفشل؟".

"سيكونون قد انتصروا لو عاشوا، أليس كذلك؟".

"كيف تحمّلهم الملامة يا كوراي؟".

"لا تكوني ساذجة"، صاح كوراي قبل أن ينهض. "ولا تجادليني في أمورٍ لن تفهميها يومًا".

أخذ الجريدة منها وغادر الغرفة، وأغلق الباب بعنفٍ خلفه. تسمّرت أيانا في مكانها، وهي تحدّق في نفس الرقعة من السجادة لوقتٍ طويل.

"أكثر الأشياء أهمية لا تُرى؛ أكثر الحقائق ضرورة لا يُباح بها"، كان محيي الدين قد قال لها يومًا. ظنّت أنّ بإمكانها أن تلجأ لرابعة العدوية بحثًا عن الطمأنينة. لم تكن تحمل

الكتاب الملطخ ببقعٍ خضراء الذي أعطاها إيّاه محيي الدين، لذا لجأت لمحرك البحث في موقع غوغل. كانت نصيحة رابعة العدوية: "الأمور تعود إلى القلب".

ظهر كوراي بعد بضعة ساعات، حاملًا الشوكولاتة ومعها اعتذار. "إنّه الضغط والتوتر"، قال لها. "ليست هذه العطلة التي أتمناها لنا".

خصّص كوراي باقي اليوم ليري المزيد من مدينته لأيانا. كانت قلقة. تجولا في أماكن السيّاح، وتوقفت أيانا أمام كل محلّ أنتيكات رأته أمامها. لم تشترِ شيئًا. ذهبا إلى المساجد، ولراحة أيانا، وجدت زينة إيمانها وفنه ولونه وتعابيره المبهرة. بكت أمام لوحة خُطّ عليها باسم الله. تبعتهما ثلاث قطط. كانت هناك قطط وقطط صغيرة حتى داخل المتاجر.

في الشوارع، كان هناك عدد من الأطفال الذين يصيحون: "ساعدونا".

"من هؤلاء الأطفال؟"، سألت أيانا.

"متسولون، لاجئون"، قال كوراي.

"هل نذهب إلى آيا صوفيا الآن، أم تفضلين البازار الكبير؟"، قال بصوت غاضب. ثمّ أكمل: "أيانا، من فضلك لا تشجعيهم. ضعي محفظتك بعيدًا. سيقومون بأعمال شغب".

أمسك كوراي يدها وهو يبعد الأطفال الذين يحتشدون حولهم. كل ما قاله يخيفهم، لأنهم جميعًا هربوا. "انظري إلى الأطراف – سترين ذويهم". أشار إليها في ثلاثة اتجاهات. "مقرفون!".

طيور تحلق، شمس الربيع، سماء شديدة الزرقة، وأغاني المؤذنين. انتقل العالم من وإلى نظرة أيانا. موسيقى متنوعة من الأرض، والروائح والطعام، وزيت الورد الأكثر كثافة من أيّ زيت ورد آخر في حياتها. اختارت عدّ' أشياء لوالدتها. عندما ذهبت لدفع ثمنها، وجدت أن كوراي كان قد سبق وأن قام بالدفع. التفتت صوبه لتعترض. "أنت ضيفة"، قال لها. توقف قليلًا، ثمّ قال: "أمّي... لطالما أرادت أن تكون لها ابنة لتدللها".

ضحك كوراي. وقفت أيانا غير مرتاحة. هل كانت ناكرة للجميل؟

"أين إخوتك؟".

عبر ظلّ أمام وجه كوراي.

"لقد... هاجروا... اكتشفوا أنّ كندا وتشيلي أفضل من هنا. لن ينجحوا يومًا في الانتماء".

ثمّ وضّب كوراي المشتريات.

"سيضطرون للعودة في نهاية المطاف".

عبرا إلى شارع الاستقلال. قاد كوراي أيانا إلى محلّ لصنع الحلويات وهو يقول: "أمّي مسرور أنّك هنا. لطالما أرادت أن تكون لها...".

"ابنة تدللها"، أنهت أيانا جملته نيابةً عنه.

ندمت أيانا على ما قالته حين أضاف كوراي: "يا آنسة أيانا، نحن في تناغم".

توقفت أيانا لتراقب المشاهد الأنيقة في الشوارع، المختلفة كليًا عن عالم جزيرتها. راقبها كوراي. "هذا شارع الاستقلال"، قال لها.

اندفاع اللون والضوضاء المتميزة؛ بازار لأفضل الأشياء المتنوعة التي صنعها البشر حول العالم. قبلها كوراي على جبينها. "عيناك واسعتان الآن... لدينا بضع ساعات أخرى، ولكن يجب أن نعود إلى المنزل قريبًا. أبي... لدهشتنا ... سيعود اليوم". نظر كوراي إليها بابتسامة قاتمة. قال كوراي "سوف يوافق عليك". "هل يجب عليه ذلك؟"، سألت أيانا، وهي تحسد امرأة ترتدي الجينز الضيق وبلوزة بيضاء، على حرية إيماءة يديها، التي حركتها وهي تتحدث.

كانت نبرة كوراي صارمة وهو يجيب: "نعم".

نظرت أيانا إليه، ثمّ استدارت لتنظر إلى الحشود.

شعورٌ بعدم الراحة. شعورٌ بأنّه يتمّ الزجّ بها في أمرٍ غير مرئي، وبدت الحشود كما لو أنّها من ضمن الخطة. أحاطت بهم الزحمة البشرية. نظرت إلى آخر الشارع، حيث العلم التركي بلونه الأحمر وهلاله الأبيض.

تحرّك فمها أسرع من أفكارها. "كوراي، أنا لا أعرف من هو والدي البيولوجي. لذا أنا اخترت محيي الدين".

ابتسامة خبيثة.

"ملنغوتي بدوي".

كان كوراي صامتًا لمدّة طويلة وهما يسيران. ثمّ قال: "لقد اخترتِ محيي الدين؟".

قالت له: "ربما يكون والديَ الحقيقي الريح حتّى".

نظرة عميقة، شفاه مشدودة -كانت أيانا متأكدة من أنّ كوراي سيقول شيئًا. "إنّه ...

أمر ضروري أن تعرفي ما تتعاملين معه".

كانت أيانا تسخر من نهير، ولك تجاهلن كوراي سخريتها. شبّهت إحدى البائعات التي كانت تعبر الطريق بها. ثمّ تذمّر كوراي وأصدر قراره: "إمّا نقف هكذا إلى الأبد أو نعبر الطريق ونشتري الحلاوة من مختلف الأنواع لكي نتناولها في الطريق".

"الحلاوة؟"، تنهّدت، ثمّ صاحت بفرح: "الحلاوة". كانت أيانا تواقة إلى الحرية الخالية من الجدية لماضيهما القريب. مشت وحاولت أن تفلت من القبضة التي كانت على كتفيها.

كان أميرهان رجلًا سمينًا ومذهلًا، له حضورٌ كثيف وعينان تبدو منهما الشهية لمعرفة الأشياء والأشخاص. حين وقف، اتّكأ على عصا سوداء مصنّعة خصيصًا له وكان لو لحنه الخاص في نقرها حين تنقّل في أرجاء المنزل. كان يسير وهو يعرج من خلال نظام صارم يريد به أن يحدّ من تعبيره عن الألم. كانت رائحته غالية الثمن: دخان السيجار والكولونيا حسب الطلب، رائحة ثروة مظلمة وخطيرة. توسّط شعره الداكن جدًا شرائط بيضاء تبدو كما لو تمّ وضعها بعناية بين خصلاته.

لم تتلاءم التحية المليئة بالحيوية التي التقى بها أيانا تمامًا مع هالة البُعد القبيح الذي نضح به. تمسك بكتفيها، قبضته قوية جدًا، مكثفة جدًا، ملتصقة جدًا. وقفوا في غرفة جلوس أصغر من الجلد البني والأسود، حيث تم عزف الموسيقى الكلاسيكية من مكبرات الصوت في المكان المريح. كان تأثير المكان كما لو أنهم في عزلة من عالمٍ جلدي وموسيقى.

"ما هو شعورك تجاه أرضنا؟"، تنفس أميرهان على أيانا. تدافعت الكلمات مرتبكة أمام الحضور المطلق لهذا الرجل. "إنه ... كل شيء"، قال كوراي، مضيفًا "أيانا مسحورة بضيوفنا من المشردين في الشوارع".

علّق أميرهان على انطباعات أيانا. "الحياة وتقلباتها...". رفرف يديه، في حركة مبالغ بها. "أجمع أنك نوع من القطع الأثرية الصينية؟ جيد جيد. أفريقيا؟ في أغسطس 2011، كنت مع رئيس وزرائنا في زيارته للصومال. تركيا هي شقيقة أفريقيا. "القوة الفاضلة" والكرامة والسعادة للجميع. شركاء متساوون، شيء من هذا القبيل".

ابتسم أميرهان ليبدو على هيئة ضبع يواجه ماعز رقيق -بشكل غير لائق. "ما هو عملنا؟ هل تعرفين؟".

"الشحن؟"، أجابت.

ضحك. "نعم، يمكنك تسميته كذلك. نحافظ على طرق التجارة البحرية القديمة. سمعتِ يا هانم؟ آه!". وأشار إلى خريطة على الحائط. "أليس هذا التلطيخ باللون الأخضر جزيرتك الصغيرة؟ في رحم البحار. جيد. جيد".

ذراع على كتف أيانا، وجّهها إلى مقعد. جلس وانغمس في أحد الكراسي الأربع المستطيلة والسوداء اللامعة. نقرة، ثمّ تغيّرت الموسيقى. تنفس أميرهان: "آه استمعي. لاكريموسا من قداس صديقي". غرق أميرهان مسترخيًا في أريكة من الجلد الأسود، عصاه المهددة بجانبه، وهو يضغط على رقبة أيانا: "تعالي يا فتاة، اقتربي مني". ووقف كوراي كما لو أنّه تمثال. استدار والده ليتأمّله. "أن أفكر بالأشياء الأخيرة... كما ينبغي أن تفعل أنت".

شاهد كوراي وريدًا بارزًا على جانب رأسه. "أمتنا هي الآن في خطر. سيزداد الأمر سوءًا". أصدر كوراي صوتًا ساخرًا، ثمّ حوله إلى عطس. "في الواقع، يا ابني" -نظر إلى ابنه بشكل هادف -"لدي كل سبب للتفكير في الموت. كما لديك أنت. استمع الآن إلى برايزنر".

كان ذلك أمرًا. كادت أيانا أن تقفز من مقعدها. جلس كوراي في أريكة أخرى، وهو يحدّق بوالده. استمعوا إلى لاكريموسا بصمت، مرّةً تلو الأخرى. في وقت لاحق، دفعت العواطف الأزيز التي كانت تنضح من الشقوق غير المرئية في ذلك اليوم، بأيانا للسعي لفهم كلمات الأغنية. العشاء والمشروبات أمرًا مرحًا بالقوة، مليئًا بأسماء الأماكن وحديثًا عن رفاهية العديد من الناس. ومع ذلك، على الرغم من أن كل منعطف من العبارات كان منعشًا، بدا أن آل تيرزي أوغلو خبراء في تجنب الشد الكارثي. شاهدتهم أيانا.

حدّقت إلى كوراي ثمّ والده، وهم في حديث حادٍّ بالفرنسية. عادا للحديث بالإنجليزية، هادئين فجأة. راقبت أيانا نهير وهي تتحوّل من الغزل إلى السخرية، كما لو أنها توقع أميرهان في الفخ.

نهير: "كيف الأعمال يا عزيزي؟".

أميرهان: "تدفع فواتيرك يا عزيزتي".

نهير: "هل هناك أيّ أمر سيء هناك قد يلحق الضرر بنا؟".

أميرهان: "ليس هناك ما لن تستفيدي منه؛ قومي بالترتيبات الضرورية. ويجب أن نتحدث عن المطعم في آق سراي. نحتاجه... يا عزيزتي".

تنهّدت نهير بشكل دراماتيكي، عيناها الأشبه براقصتين يعبران عن مبالغتها. "مرة

أخرى؟ لقد أعدت ترتيب ديكوره للتو. سيكلفك يا عزيزي".

"أليس هذا الحال دائمًا؟".

التفت أميرهان إلى كوراي: "كيف حال إخوتك؟".

"حسنًا".

"ماذا تعني بحسنًا؟ هل سيعودون أم لا".

بدأ كوراي بالكلام: "إن اختاروا ذلك...".

"اختاروا؟"، قاطعه أميرهان.

تدخلت نهير ضاحكة. "لدينا ضيف أيّها السادة. إضافة رائعة لمنزلنا".

كانت ضحكة أميرهان مشعّة. "سأستمتع بمعرفتك جيدًا جدًا أيّتها الصغيرة".

مدّ يده ليلمس يد أيانا. "مظهر منعش".

كانت أيانا لبعد يدها وقد اقشعرت كل شعرة في بدنها. الخوف الحقيقي.

صاحت نهير: "متي تعود إلى قواربك؟".

"أريد أن أستمتع بشيء من الراحة في منزلي يا عزيزتي".

ابتسم كل من نهير وكوراي. ابتلعت نهير باقي شرابها وتثاءبت خلف منديلها الأبيض المطرز. ثم قامت لتقبّل خد زوجها وتمتمت، "ليلة سعيدة يا أمير". مدت يدها اليمنى في اتجاه أيانا. "تعالي، يا فتاة، دعنا نمنح الصبيان مساحة للقيام بما يجب على الصبيان القيام به".

ألقى كوراي نظرة سريعة مذعورة على أيانا، ثم موهها من خلال الوصول إلى زجاجة النبيذ. قالت نهير: "أيانا". قامت أيانا في الحال، وأسقطت مسواكًا كان في فمها. تابعت نهير: "أليست هذه أمسية جميلة؟ كم هو جميل قمرنا -أبيض جدًا، وخصيب جدًا، ونقي جدًا هذه الليلة – وكما ترين، عاد أميرنا العزيز إلينا بشكل غير متوقع. هناك الكثير الذي يجب علينا أن نكون ممتنين لأجله".

سرعان أن بدأ الجدال في الغرفة ما أن أغلقت السيدتين الباب خلفهما. سارعت نهير باصطحاب أيانا إلى آخر الممر. "في منزلٍ كمنزلنا يا أيانا"، قالت لها وهي تمسك بذراعها، "تختارين جدولًا واحدًا لتعبري به حياتك، وبعدها تلتزمين به. في نهاية المطاف، هناك وجهة واحدة فقط، أليس كذلك؟ والآن يا طفلتي، لا تقلقي إزاء الضجيج. إنّه أمر طبيعي".

نصف ابتسامة.

توقفتا في صمت.

قالت نهير: "عرض عليّ زوجي فندقًا جديدًا لأصممه. سنعمل نحن الفتيات على اختيار الألوان والديكور".

تأفّفت أيانا. كانت تنوي أن تغري كوراي ليأخذها في رحلة نهرية بالقارب. أكملت نهير: "ستكون هذه مغامرتنا. أريد أن أحيي روح مراكش في هذا العمل، تكريمًا لك يا عزيزتي. الكثير من اللونين الوردي والأبيض".

التفتت إلى أيانا. "يجب أن نقبل بما تهبنا إيّاه الحياة ونجعله يتناسب معنا. هل تفهمين؟".

نظرت أيانا إلى نهير وقالت: "لا".

متفاجئة بالتحدي في جواب الفتاة المباشر، أشاحت نهير بنظرها قبل أن تتنفس عميقًا. "آه، ستفهمين". تركت ذراع أيانا. "تتعلم الفتاة أن تكتم الأمور التي لا تعجبها وتدفنها في قلبها... والآن إلى مكتبتنا الصغيرة. جدي موسيقى لطيف بولات. إنّه مذهل. تصبحين على خير. غدًا سنناقش ما تعنيه موسيقاه لنا".

استدارت نهير إلى اليسار، تاركةً أيانا واقفة هناك. كان للشعور بالقلق في المنزل الآن حضورًا بطيئًا في التنفس. داخل المكتبة الصغيرة، لم تقم أيانا باختيار موسيقى لطيف بولات فحسب، بل سعت أيضًا إلى لعب بريزنر أميرهان في وقت سابق. في وقت لاحق، في غرفتها، قامت بتسجيل الدخول على هاتفها للعثور على ترجمات للكلمات. "لاكريموسا" -النحيب. كانت مسيحية وقديمة، من طقوس مخصصة للأموات. قرأت أيانا الكلمات الإنجليزية: آه!

في ذلك اليوم من الدموع والحزن

من تراب الأرض

الذي يعود إليه الإنسان للحساب

يا إلهي ارحمه...

قرأت أيانا العبارات، وقلبها ينبض. تشابك. إلى ماذا أتت؟ فكرت أنّها ستبقى بضعة أيام أخرى، ثم تجد عذرًا للمغادرة. طرق على بابها. قامت أيانا على الفور. كانت تتوقع نهير، فوجئت عندما رأت كوراي هناك.

"أنا ..."، بدأ بالكلام. "أنا ... انظري، أنا آسف...".

قالت غريزيًا: "لا بأس". تعثر إلى الداخل. أغلقت الباب. سقط في ذراعيها، منتحبًا. تشبث. لفت ذراعيها حولها، تفكر في الكلمات التي قرأتها وموسيقاهم في رأسها. كانت صامتة بينما بكى كوراي. دموعه لطخت ثوبها. ارتجف وزفر، ثم مسح وجهه.

أمسك وجه أيانا وقبّل شفتيها. "شكرًا لكِ".

قبلها مرة أخرى وغادر الغرفة. لمست أيانا فمها ولم تحدق بأي شيء. عادت إلى حافة سريرها وجلست، بلا حراك.

التيارات القوية تحت الماء.

كلمات محيي الدين التحذيرية أثناء دروس المحيط: "بعض التيارات الممزقة تنذر بشيء، إحساس بالنية المتعمدة. هناك خط متوسط في الاندفاع الخفي الذي يرمي بالناس عديمي الحظ خارج مناطق المياه الآمنة، فلا يدركون إلّا بعد وقت طويل أنهم تحت رحمة جميع قوى الحياة غير المقيدة".

تحولت أيانا إلى هاتفها، وأدخلت اسم "لطيف بولات" واختارت أغنية عشوائية. صدحت الأغنية بينما كانت لا تزال تفكر باللاكريموسا. لم تنم. أمضت الليل في دراسة قمر نهير الأبيض النقي الخصب.

[71]

"حين أقول مراكش، ماذا ترين؟".

لا شيء، فكّرت أيانا. لكنّها قالت: "الرمل؟".

تنهّدت لمرأى كلّ عينات القماش أمامها، والتي غطّت كلّ مساحةِ غرفة الجلوس. ثمّ صاحت: "الرمل واللّون الأرجواني! القبة المرابطية. الجمال – كائنات قذرة، ولكن يجب أن نفكّر بمفهوم الصحراء. بساطة ولكن أناقة في الوقت نفسه. جميل. الرمل جميل. فتاةٌ ذكية.... الرمل بكل بساطة جميل، كل غرفة ستمثّل حبة من الرمل".

ابتسمت لأيانا: "أنا سعيدة من أدائك". بدت عليها ملامح الرضا وأضاءت عيناها

الراقصتان. حين أتى الصباح، فهمت أيانا أنّ دورها الرئيسي هو التصفيق لخيارات نهير. قالت نهير، بنبرتها المتفائلة، "هل ستعلنين أنتِ وابني خطوبتكما قريبًا؟".

"خطوبة؟"، صاحت أيانا.

تجاهلتها نهير.

تأوهت أيانا في روحها. توقفت نهير. "لم تخطر لي أفريقيا من قبل. أعترف أنني كنت قلقة للغاية. يسمع المرء الكثير من الأشياء الرهيبة. أصررت على أن يحضرك إلى هنا". نظرت نهير إلى فستان أيانا الأحمر. "أستطيع أن أرى لماذا ابني معجب بكِ. أنا كذلك". ضغطت نهير على يد أيانا. "النسيج الأرجواني اللامع، مع الخيط الفضي -هل ترينه كستارة؟". فتحت أيانا فمها. قدمت نهير الجواب. "نحلة جميلة" ... لم يكن كوراي في أي مكان أمامهم. لم يكن بإمكان أيانا أن تفهم معنى "الارتباط" معه.

كانت تبحث عن فنادق صغيرة يمكنها الانتقال إليها. ومع ذلك، أغراها ما كانت تعيشه. بدت بدايتها الجديدة براقة. شعرت أنها كانت قريبة من نوع من التآزر كانت تتوق إليه، مثل جميع الإناث المعقدات اللواتي ظهرن في الأفلام التي كانت تشاهدها هي ومحيي الدين. أوقفت البحث وقررت الانغماس في قراءة رواية هان سونغ "السكك الحديدية عالية السرعة" التي حملتها معها.

اعتادت أيانا على الاستيقاظ في الرابعة والنصف فجرًا لكي تتجول في الحديقة وسط الأزهار. كان ذلك وقت خلوتها بنفسها. في ذلك الوقت، كلما مشت إلى الخارج – كانت ترى رجلًا نحيلًا عيناه حمراوان ويتكلّم الإنجليزية عادةً ما كان يرافق والد كوراي، يدخل كما لو أنّه كان بانتظار الباب أن يُفتح كما لو أنّه كان ينتظر منذ فترة ولم يشأ أن يكون وصوله معلنًا. في البداية، انصدم من رؤية أيانا صباحًا، كما لو أنّه ينتظر رد فعل ما. ولكن بعد الصباح الرابع، كان قد غامر بابتسامة صغيرة ردًّا على سلامها الذي ألقته باللغة العربية.

حمل الرجل حقيبتين. أبقى نظرته منخفضة، ومشيته متواضعة. استمر بالنظر حوله، كما لو أنّه يتوقع أن يأتيه شيء من مكانٍ ما. كان لديه انتفاخ أحمر وبيج على جبهته على شكل مثلث. ربما كان قد تجاوز الأربعين. كان واحدًا من الثوابت التسعة أو العشرة الجديدة التي ستسرع في ممرات تيرزي أوغلو، والذي دخل من خلال أبواب ممنوعة سابقًا.

عاد ما يشبه النظام القديم في المساء، عندما تقدم عشاء تليه المشروبات. جلست

أيانا بجوار كوراي عندما كان هناك. سألها نفس السؤال: "هل كان يومك جيدًا؟". أجابت "تقريبًا"، محملة العبارة بسخرية. أجاب كوراي "جيد". ذات مساء، بينما نهض الجميع لينسحبوا من غرفة الجلوس، أمسكت أيانا بكوراي. "كوراي، مع بقاء أقل من أسبوعين على نهاية العطلة، أريد زيارة إزميت... أو قونية". "قونية! آه أنت من أتباع الرومي"، سخر.

أضافت أيانا، "أرغب أيضًا في رؤية فوهة البوسفور في بيكوز". فرك كوراي شعره. "لم يتوقع أي منا عودة أميرهان في القريب العاجل... و... مع مثل هذه الأخبار".

"أيّ أخبار؟"، قام كوراي بلفتة رفض. "إذن سأزور هذه الأماكن وحدي". كان صوتها ثابتًا. أخذها كوراي من ذراعها وتحدث بنبرة منخفضة. "لا لن تفعلي. الأمور ... الأوضاع... خطيرة".

أغلق عينيه. "عائلتنا ... لديها أعداء. كائنات خطيرة ستؤذي أي شخص متصل بنا... وهذا، للأسف، يشملك الآن. لقد شاهدوكِ معنا وأصبحتِ هدفًا بالنسبة لهم".

تنهّدت أيانا: "أريد جواز سفري يا كوراي. سأعود إلى الصين. أنا بأمانٍ هناك".

أمسك كوراي بذقنها. "لا أظن ذلك".

بدا كما لو أنّه يستمتع. خطوات. ثمّ، "أووووه"، أتت نهير، "الصبا والجمال. أسرعا يا أطفال، تزوّجا. اصنعا لي أحفادًا من عالمين... لا ثلاثة عوالم". تسمّرت أيانا في مكانها. نهرت كوراي: "هل قلت لها أنّنا مخطوبين؟".

"ليس تمامًا"، همس كوراي. "اسمعي، غدًا سأزور أحد قواربنا".

"هل يمكنني أن آتي معك؟".

"سأعود بعد الظهر. نذهب إلى إزميت معًا؟".

"والدك... سيعيش بضع أيام من دوني".

ولكنّ كوراي عبس.

كان الأب والابن يتجادلان مرة أخرى. بدأ الأمر في غرفة الجلوس، حيث كانت نهير تلعب بمفاتيح البيانو. تجاهلت كل شيء. ابتعد الأب والابن ليكملا جدالهما بعيدًا عن الأنظار.

"تصبحون على خير"، قالت أيانا بتحدٍّ، وفد اكتفت منِ التوتر. كانت هناك قواعد غير معلنة حول من يغادر الغرفة أولًا – الكبار قبل الصغار.

"أيانا"، قالت نهير، وهي لا تزال تنقر بشكل عشوائي على مفاتيح البيانو، "استمعي إليهما...".

أصواتٌ تعلو.

"ماذا أثرتِ؟".

"أنا...".

"صهههه...."، قالت نهير. "إنّه ضروري. كلاهما لديهما شغف متوحش. يحتاجان للتنفيس عنه. إنّهما يتعاملان مع أشياء صعبة".

نظرت إلى أيانا. "إنهم متشابهان، كما تعلمين. هذا بحرنا، ممرنا. هذه هي الرياح التي تهب. تلك هي المخلوقات التي تشكلها. أولئك الذين يخافون من الغرق أو يصبحون وجبات للبحر".

اختلفت النبرة. "هل يعجبك ابني؟"، خفضت أيانا رأسها. "الآن لا".

ابتسمي نهير. "بما يكفي لتكوني زوجته؟".

ابتلعت أيانا الهواء، ثمّ صاحت: "زوجة!".

توقفت نهير عن اللعب. نهضت ومشت. "يا لها من نظرة بريئة. لست متأكدًا تمامًا من أنك تحبينني كثيرًا أيضًا. لا يهم. أنا أحبك". ضحكت. "ابقي معنا؛ سوف نربيك، وسوف تسلينا... وأطفالك – سيكون ممتازًا إن أنجبتِ ثلاثة أطفال -سيساعدوننا في نسيان الأشياء التي يجب علينا أن ننساها".

لمست وجه أيانا بإصبعها. "ابقي معنا". ربتت نهير على رأس أيانا، ثم توجهت إلى الباب. نظرت إلى كتفها. "كوراي... سيطلب منك الزواج منه. من فضلك قولي نعم. سنستمتع". ضحكت. "سأعلمك الأسئلة التي يجب أن تطرحيها. علاوة على ذلك، إذا كنت لا تزالين تريدين سفينة للتنقل -حتى لا يذهب تعليمك الصيني هباءً" -ضحكت نهير-"يمكن لكوراي أن يقدم لك واحدة"، غمزت. "قولي له سيسعدني ذلك".

بحلول الوقت الذي أغلقت فيه نهير الباب، كانت أيانا تجثو على السجادة، وتعانق نفسها. شعرت بالدغدغة التي تبشر بنوبة الربو. لم يكن لديها جهاز الاستنشاق -لم تكن بحاجة إلى واحد لفترة طويلة. بدأ صدرها بالشد. تسارعت دقات قلبها. كانت تتنفس بسرعة. تنفسي، أمرت نفسها. تنفسي، واحد، اثنان، تنفسي...

[72]

كانت نظرته منخفضة. اليوم، تبعت دربه ولاحظت حذاءه البنيّ البراق. كان الحذاء مهترئًا ومفرط الاستخدام. كعباه غير متساويان. وتساءلت بشكل عفوي "إلى أي مدى سار هذا الحذاء؟". نظر إليها حينها، واتسعت عيناه. تلعثم متفوهًا بكلماتٍ لم تفهمها. حدّقت في وجهه، في الخوف الذي ترك بصماته هناك، في جماله المندوب.

اقتربت أكثر وفكّرت للتو بإله المسيحيين العارِ والمجروح والمنكسر الذي كان ينزف على الصليب. وابتسم الرجل لقلبها. "مرحبًا، من أنت؟"، همست له. التفت بعيدًا. ذهبت إلى الحديقة. في اليوم التالي، أجاب على سؤالها الأول له: "مسافات لا تعدّ ولا تحصى، لقد سار هذا الحذاء إلى ما بعد الأزل".

استمعت إلى نغمة صوته، وسألته أيانا: "ما اسمك؟". تمتم: "لم أقرّر بعد". نظر إليها بعينين غامقتين – كاد لونهما اليوم أن يكون بنفسجيًا. تنفّس وقال لها: "كوني حذرة". انتظر حتّى اعتقد أنّها فهمته. "كوني حذرة هنا"، قال لها. ولأنّه كان قد نطق هذا التحذير همسًا، في نهاية اليوم، اعتقدت أيانا أنّها تخيلت الكلمات فحسب. في اليوم التالي، تكلّم هو أولًا: "من أين أنتِ؟". أجابته: "كينيا".

"لا يعقل ان تكون مكانًا بعيدًا كثيرًا. تبدو كما لو أنّك قلتِ قونية"، قال ممازحًا.

ضحكت لأنّها كانت بحاجة إلى ذلك.

"أنا من دمشق"، قال لها.

دمشق. الورد والدم. سلسلة بصرية من الفاشيات العالمي؛ قرأت وجهه المتألم. الصمت. وحدته. في داخلها، كانت هناك حاجة للقضاء على مثل هذا الخراب، من أجل إصلاح الوجود. الطبوغرافيا: ملامح الحياة مليئة بالرعب. كانت ستحاول إبعاد هذه الملامح حتى لا تتبعها إلى منزلها، كما فعل وجهه وصوته. لمست ذراعه. ركزت على يده على ذراعها. كان يعلم أنه يجب أن تكون هناك علامات حرق حيث يلمس مخلوق غير متوقع ذراع آخر في رعاية. "كوني حذرة"، تنفّس.

"أرجوكِ، اعذريني. يجب أن أذهب"

تعثّر قرب الباب.

في فجر اليوم التالي، فتحت أيانا الباب واصطدمت بالرجل. أوقف اندفاعها بيديه الاثنتين وهو يوقع الحقائب من يده.

إحساس مكهرب.

"آسفة"، تمتمت له.

"لا داعي للأسف"، قال لها.

كانت يداه على طرفيّ خصرها.

عينان تنظران بعمق.

"متى ترحلين؟"، سألها.

ابتلعت ريقها.

أفلتها ولمس جزءًا من وجهها، ثمّ انحنى ليلملم حقائبه. كان قد نسي نفسه. وقفا معًا.

"كوني بأمان".

قرّبت أيانا معطفها من جسدها ومشت باتجاه الحديقة. عاود الرجل النظر إليها.

في اليوم التالي، حين بدأت أصوات مؤذني إسطنبول بالدعوة إلى الصلاة، أعطت أيانا الرجل علبة شوكولاتة كان كوراي قد أعطاها إيّاها.

داخل العلبة، كانت قد وضعت ورقة كتبت عليها عبارة "باسم الله". في الصباح التالي – لم تكن تعرف أنّها لن تراه مرّة أخرى – كان يحمل صندوقًا كبيرًا وضع فيه حقيبتيه. مازحته أيانا: "بماذا تتاجر اليوم؟".

تردّد وتلعثم، قبل أن تنهمر الدموع على وجهه. جعل ضوء النهار تلك الدموع أكبر حجمًا وأشبه بقطرات الدم.

"نحن نتاجر بالنفوس المنكوبة".

لم تفهم أيانا. ظنّت أنّه قال لها: "ارحلي بأسرع وقتٍ ممكن". ولكن عندما نظرت إليه، كانت عيناه، رغم حوافها الحمراء، رقيقة. قال: "الشوكولاتة رحيق، جوهرها أغنية. لقد ضمدت الثقوب في روحي لمدة موسم. أعتز بهم كما أعتز بكِ أنتِ". لمست أيانا أصابعه بأصابعها، ودارت يده لفترة قصيرة حولها. "غدًا؟"، تمتم.

أومأت برأسها.

في حوالي الساعة الثانية صباحًا من تلك الليلة، بين أصوات الرعد، انتشر نحيب بشري طويل الأمد، تبعه ثلاث أصوات فرقعة نهائية. تبع ذلك صرخة وجودية، ثم سكون. في سريرها، وهي تخشى المجهول، صنعت أيانا خريطة للأصوات، محاولة خلق معنى. أصوات صامتة. خطى. جلطات وهمسات. خلط. تخليط.

بعد عشرين دقيقة، سمعت صوت سيارة تنطلق. اتّجهت أيانا إلى نافذتها لتنظر. الرعد. البرق.

غريب. لم تكن تتخيّل المطر في اسطنبول.

في الظلال، انفتحت البوابات الكهربائية وعبرت سيارة سوداء. عادت إلى سريرها، خائفة.

يجب أن أغادر.

غطّت جسدها.

فكرة عابرة: الرجل السوري.

نامت بشكل لائق واستيقظت على صوت الرعد. كانت الساعة 4:00 صباحًا عندما أجبرها قرع بصوت عال على بابها على الاستيقاظ. قال الصوت على الجانب الآخر "كوراي". "نعم؟"، قالت. "افتحي الباب".

تعثرت وهي تنهض من السرير لتفتح الباب. دخل كوراي إلى الغرفة، تبعته رائحة غريبة. عادت أيانا إلى سريرها الدافئ، وأسندت ظهرها إلى مخدتها، بينما تسارعت خطى كوراي داخل الغرفة. انتظرت. توقف قرب سريرها.

"يجب أن تتوقفي عن أن تكوني لطيفة مع الخدم. المسافة تحافظ على التوازن. لهذا السبب، الأمور التي تستمتعين بها هنا تمشي بسلاسة. التشتت له عواقب".

قالت أيانا، التي كانت لا تزال مثقلة بليلة متعبة، "ماذا؟".

"سوف تؤجلين تجوالك الصباحي".

فركت أيانا عينيها: "لماذا؟".

توقف كوراي لبرهة، كما لو أنّه يفكر بأمرٍ ما. "لا تغادري المنزل اليوم".

تغلغلت في سريرها، وغطت رأسها. ثمّ كشفت عن وجهها، وهي تعدّ خطاه وهو ينسحب، قبل أن تسأل: "سمعت صراخ أحدهم أمس، من كان؟".

استدار كوراي. بعينين باردتين ونبرةٍ ثابتة، سألها: "إلى ماذا تشيرين تحديدًا؟".

انتشرت الرائحة النفاذة التي دخلت الغرفة معه. غرست أغطية سرير أيانا. أدارت رأسها بعيدًا عن الرائحة بينما كان هناك شيء فظيع ينبض بينهما.

التحذير. كوني حذرة.

انتظر كوراي جوابها.

قالت بحذر: "الرعد".

أغلقت الهوة. سكون.

"كوراي؟"، همست أيانا وقد شعرت فجأةً أنّها خائفة.

"نعم".

"سأعود إلى شيامن".

"ليس من دوني".

تصريح آخر: "لقد زوّجتنا أمّك".

نظرة مشدودة.

أضافت أيانا، "قالت إنّه يجب أن تقدم لي سفينة".

"هل تريدين واحدة؟"، سأل كوراي.

انحنى. "سأعطيك إياها".

التيارات الموسمية، مثل الرعد بالخارج، أتت عليهما.

"أنا ... لا أعرفك جيدًا بما يكفي".

"سأعلمك على نفسي".

انحنى كوراي، وهو يرفعها من السرير إلى ذراعيه.

"يمكننا أن نكون أيّ شيء". كان يكذب. "أنا لست مشروع زواجٍ سيء، كما تعرفين".

هزّت برأسها.

"أريد أن أستقر يا أيانا، أريد ارتباطًا عميقًا بشخصٍ واحد فقط. ألن ترغبي بأن يكون لكِ أطفال؟ ثلاثة، ربما؟".

كانت والدته امرأة متيقظة. هكذا كان الحال دائمًا. قضم قلب أيانا فيها. في الخارج،

بدأ رذاذ المطر. كانت هناك طبقة أخرى للرائحة اللاذعة.

اشتمّتها.

"هل تشتمّ هذه الرائحة؟".

"ماذا؟"، عبس كوراي.

ربما كان المطر، المزاج الغريب الذي أحدثه. قد يكون الشعور بالذنب. كانت زعيم السفينة لا يزال شبحًا يكمن في محيط نظرها. ضربت وجه كوراي. ماذا كانت تريد؟ داخل المنزل، في غرفة مجاورة، ارتفعت الأصوات في صخب. رفع كوراي رأسه، في حالة تأهب. ثم قبلها بشدة.

يد على صدرها الأيسر. درسته كما لو كان مخطوطًا بصريًا لزاو وو كي-لغز. سألت، "ل يمكنني زيارة السفينة معك؟".

أعطاها نظرة جانبية. "أيانا... لا تسألي هذا السؤال مرة أخرى... لحمايتك... ولحمايتي".

الصمت. أغلق باب في مكان ما. أصوات. صرخة. كان كوراي يقظًا وما زال. شاهدته وتخيلت أيانا أنه، لكي تكون سعيدة، كل ما تحتاجه هو التوافق. قال كوراي، "لقد استهدفت قلبك لنفسي. وأنا لا أفوت هدفًا".

تألّقت عينا أيانا. انتشرت لدغة في عظامها. اقشعر بدنها.

رؤية: شبكة تلوح في الأفق مصممة لاحتجاز عمليات هجرة طيور الأورتولان المهاجرة. كانت تحلق عمياء. كان المنزل في حالة من الفوضى في ذلك اليوم. سيارة ذات مظهر رسمي. تسابق العبيد غير المرئيين جيئة وذهابا. ومع ذلك، قررت أيانا في فترة ما بعد الظهر أن ترتدي ملابسها وتنتظر كوراي في المكتبة الصغيرة.

بعد ساعة، غامرت بالدخول إلى مكتب أميرهان. كان يجب إغلاق الباب، كما كان يحدث عادةً عندما لم يكن أميرهان في المنزل. قامت أيانا بدس رأسها. كانت الأرضية عارية. كانت هناك مخططات للسجاد. تم نشر عدة قطع من الورق على الأرض، بما في ذلك خريطة كبيرة من النوع الذي قد تستخدمه البحرية الكبيرة.

على الجدار المقابل، كانت هناك محاولة لمسح بعض البقع الداكنة من الحائط. كان الشعور بالخطر في تلك الغرفة ملموسًا. تراجعت أيانا. كانت بحاجة إلى الهواء. خرجت من المنزل متحديةً تحذير كوراي. كانت بحاجة إلى الهواء. في الخارج، كانت الغيوم ثقيلة

وسوداء مع المطر. تهديد عاصفة أخرى غارقة فوق المنزل. اتبعت المسار البيزنطي حتى تلة خلف المنزل. من الأعلى، كانت ترى المدينة ومياهها. وبينما كانت تتأرجح باتجاه التلة، رأت الحذاء. كان عالقًا في شجيرة من أوراق خضراء وبنية. بينما مدت يدها لتسحبه، سقط في الأوراق المتساقطة على الأرض. ركعت للنظر. كان حذاء رجل. إنه ينتمي إلى قدمه اليمنى. جسم واحد مفرط الاستعمال. تم ارتداؤه في طبقة رقيقة. كان هناك ثقب بالقرب من الكعب غير المستوي. حذاء أكسفورد لرجل ناجح.

كان النعل ملطخًا بتسريب داكن. كان غطاء الإصبع واللسان ملطخين والأربطة كذلك. نظرت إليه حتى كانت مرة أخرى في السابعة من عمرها، منحنية فوق جثة قط صغير عزيز. كيف تغير العالم بحقيقة أنك لم تعد موجودًا؟ غرقت في الظلام. لكنها كانت تستيقظ ببطء. استمرت في السير كما لو أنها لم تواجه أي شيء خارج عن المألوف. عمياء، صمّاء، بكماء. ماذا قال لها محي الدين؟ "أهم الأمور ما أخفي في الغيب. الحقائق الأكثر أهمية تبقى غير معلنة". ستستمر في المشي. كانت بحاجة إلى جواز سفرها. أيّ الغرف كانت غرفة كوراي؟ كان عليها أن تذهب إلى المنزل. عندما عادت أيانا من مشيتها اختفى الحذاء. كما كانت تشك بأنّ ذلك سيحدث.

حدقت أيانا في الجدران البيضاء لغرفتها، وهي جالسة على حافة سريرها. هذا اليوم. اسطنبول، مفترق الطرق النابض للعالم، بوابة للآمال الإنسانية الضعيفة وجميع الفرص التي أتاحتها الحرب. صلت أن أولئك الذين لا يستطيعون الدفع لن يكون مصيرهم الموت. صلت أن يكون رجل الصباح الذي تبخر حذاءه على قيد الحياة. صلت أن يجد طريقه إلى المنزل. صلت أنه عندما قال "محكوم عليهم، لم يكن يعني نفسه.

لم تكن هناك إشارة إنترنت. فشلت كل محاولتها للاتصال بأمّها. استمرّت بالمحاولة. كانت بحاجة إلى جواز سفرها. لم تكن تجد مخرجًا من المكان أمامها. هل كان ما يحدث حقيقيًا؟

في عشاء العائلة في ذلك المساء، ارتدت أيانا قناع الفراغ اللطيف الذي كان يشبه وجه نهير. تناسب المظهر مع فستانها الأسود أودري هيبورن بخصره المحكم. محادثة العشاء كانت كافية. بقيت قريبة من كوراي. كان يشبه حجر الأساس عندما حاولت معرفة الطريقة التي كانت بها صعودًا وهبوطًا. كان لديه جواز سفرها.

كيف تركت ذلك يحدث؟ استمعت إلى تكهنات أميرهان حول المصير الاقتصادي لليونان والحروب المحيطة بحدودها، ونظرت إلى اليسار. قال إن داعش كانت قوة تطهير، مرآة للخيارات البشرية. أومأت أيانا برأسها في الأماكن المناسبة. عندما كانت نظراتها تتجه إلى نهير، رفعت المرأة كأسها الذي احتوى الخمر، وبدت نظرتها كأنّها تتسلى وتضحك. كان واضحًا اعتراف أيانا بنهير.

"حظًا سعيدًا"، قالت نهير.

كانت أيانا تكافح لتتنفس.

الآن عرفت كيف يكون الشعور بالغرق، واستنشاق الماء، والتأمل في أن يكون هواءً بينما جسدها وروحها يعويان في يأس.

[73]

"أريد استعادة جواز سفري".

"إنّه في أمانٍ معي".

"أفضّل أن أستعيده".

"لا يا أيانا".

"ستعيده إليّ".

"لا يا أيانا".

كان يلاعبها.

"لماذا؟".

ابتسم كوراي: "لأنّه".

" تراجعت أيانا إلى الوراء، رافضة رعب اللاعقلانية، مشمئزة من عجزها.

نصبت كمينًا لكوراي وأثارت الأمر على مائدة العشاء.

"كوراي، أحتاج إلى جواز سفري. سيريحني ذلك أثناء المشي في المدينة غدًا".

ابتسمت.

هتفت نهير، "المشي في المدينة؟ يا عزيزتي، مع كل ما يحدث.... كوراي، لماذا لا تحمي أيانا بشكلٍ أفضل؟". مش المدينة؟ عزيزي. مع كل هذا الشك... كوراي، لماذا لا تحمي أيانا أفضل؟ هل شرحت لها ما يحدث؟".

كان أميرهان يراقب أيانا.

"في الأوقات الصعبة، جوازات السفر كثيرة. يا جميلتي، بالتأكيد لا تشعرين أنّكِ لستِ بأمانٍ معنا؟".

"لا ... أنا فقط...".

"سُوي الأمر إذن".

تبادل أميرهان وكوراي ونهير النظرات.

توقفت أيانا عن التكلم، مدركة أنّ كل كلمة ستقولها سيتمّ تغييرها وتحريفها ودحرجتها ككرة من الصوف لثلاث قطط بشرية لتلعب بها.

البرد. شد الشفاه.

كانت هذه لعبة تحتاج أن تتعلمها بسرعة كبيرة. نظرت إلى كوراي بنظرات ثاقبة.

قال: "قليل من الخمر، كانيم؟".

"لا، كوراي"، قالت بنبرة باردة.

"لقد كنت مقصرًا في معظم واجباتي كمضيف، يا أيانا الحلوة. أعدك بتخصيص عطلة نهاية الأسبوع لأريك الكوسموي الحميم".

ضحك والده ضحكة غامضة، وتساءلت أيانا عن سبب عدم وجود شعور بالبهجة في هذا الأمر أيضًا. أخبرت نفسها أنّها ستة أيام أخرى. ستة أيام فقط قبل عودتهم إلى الصين.

[74]

إزمراي.

سُمّي المطعم على اسم القمر المظلم. كان يقع داخل حي تارلاباسي الذي كان أشبه بالمتاهة، والذي بدا لأيانا متشابهًا إلى حدّ بعيد مع المدن في شرق إفريقيا، لدرجة أنها شعرت بالأمان. سارا جنوب غرب ميدان تقسيم، وسمحا لحشود العديد من الدول بتخطيهما.

خفقان الحياة والموسيقى والنظرات العالقة.

امرأة أوروبية أشبه بتمثال تبيّن بعدها أنها رجل.

روائح أشياء شريرة وسط الحمضيات والتوابل.

تمسّكت أيانا بيد كوراي، وقد شعرت بالارتباك من النظرات التي كانت موجهة إليها.

"إنّك تسحرينهم".

جذبها أقرب إليه، ثمّ أشار إليها باتجاه الشرق.

"شارع تارلابسي، يشتهر ببيوت الدعارة. فكري في الأمر. كانت هذه في السابق منازل عائلية. يونانية. قبل النزوح. إذا كنتِ قد أتيتِ إلى هنا بشكل غير قانوني، فربما تنجرفين إلى هذا الجزء من اسطنبول".

قمع ابتسامته.

كانت هناك وجوه أفريقية أيضًا، داكنة وفاتحة، مليئة بالأمل المتوتر، كما لو أنّ كل ما آمنوا به، حين بدأوا رحلتهم بالسعي وراء جنّةٍ ما على الأرض، عند وصولهم إلى هنا، تبخّر ببساطة. كان الطعام يُباع في كل مكان، ولكن كوراي كان يبحث ببساطة عن مكانٍ ليس فيه اكتظاظ بشري.

كان يمكن أن يكون هناك إزمراي فقط في تارلابسي، مكانٌ مزدهر على مفارقات وواجهات تغش الناظر إليها. كانت موسيقى الروك الأناتولي تُعزف حين اقتربت نادلة بحجاب ملون من أيانا وكوراي عند باب المطعم، وعيّنت طاولة مستديرة لهما في الجزء الخلفي من القاعة. جلست أيانا بثقل، وراحت تتفحّص المحيط حولها. ضاقت عيناها.

كان كوراي يقرأ مجموعة من الأطعمة غير المتوقعة: كعك ولحم بعجين ورقاقات الجبن والبقلاوة واللبنة بالزيت. أضاف كوراي وهو يلوّح بيديه: "حلاوة بالطحينة، رقاقات الحلاوة، حلاوة بالفستق....".

سألت أيانا: "كل هذا؟".

"وأكثر". لمعت عينا كوراي. "نريد أن نثير كل الحواس".

حدّقت أيانا بصمت. حضرت المرأة التي كانت ملامح وجهها مدفونة تحت مئات الخطوط وهي تمسك شرابًا مع قطعة من الليمون.

نظر كوراي إلى أيانا. "كلانا يحتاج إلى استراحة من المنزل".

سكون.

"لقد أعددت الترتيبات. سوف نعود في غضون أيامٍ قليلة".

فرك كوراي عينيه. تنهّد. اسودتّ عينا أيانا. كان نبضها يتسارع، رأسها خفيف، قالت كما لو أنّها تهذي. "ك- كوراي، ليس لدي ملابس غير هذه".

"اشترِ ما تريدين من المحلات".

فرك عينيه. "لقد كانت الأيام الأخيرة صعبة يا عزيزتي، أنا مدين لك بعطلة".

استراح في مقعده وهو ينظر إليها. "آه...". تحولت نظرته بعيدًا. "الأخبار. أميرهان... من المتوقع ... سبب انزعاجه... سرطان البنكرياس. تم تأكيده. ولكن أثق في الصقر اللعين للعثور على أكثر الطرق قسوة للخروج".

وميض في عيون كوراي. لانت أيانا. هل كان ذلك صحيحًا؟ خفضت رأسها، وفوجئت بمدى تأثرها بكالما يحدث في ذلك المنزل على التلة. نظر إليها. "موسم التسليم اليائس. هذا ما رأيته. أنا آسف؛ كنت أنوي قضاء عطلة مختلفة تمامًا بالنسبة لنا".

قالت أيانا: "أنا آسف للغاية بشأن والدك".

ولكنّها غيّرت طريقة جلوسها، وثنت رقبتها إلى الأمام. لم تكن مرتاحة. لم يفسر "موسم التسليم اليائس" كل شيء بأي شكل من الأشكال، ولا فسيفساء الرعب المصنوعة من وجوه أولئك الذين ساروا في ممرات المنزل، ولا الحذاء الملطخ بالدماء في الحديقة، ولا كيف يقيّمها كوراي كما فعل الآن، كما لو كان يختبر تأثير كلماته. حاولت أن تجبر وجهها على إعطاء انطباع التعاطف اللطيف.

قال بنبرة منخفضة: "يا آنسة أيانا، يمكنك أن تثقي بي".

لمس ذراعها وبقيت يده عالقة هناك. تساءلت أيانا: هل كانت شفافة إلى هذا الحد؟ عندها فقط، أتى شابٌ يافع له شارب خفيف بالطعام لهما. قال كوراي شيئًا ما له، وبعد دقيقة واحدة، تغيّرت الموسيقى. استمع كوراي لوهلة، ثمّ قال: "عمر فاروق تكبيلك. يمكنني تقريبًا احتماله". ابتسم لأيانا. "شراب الورد التركي؟ أوصيك به يا آنسة".

على الرغم من أنّها كانت لا تزال قلقة، استرخت في كرسيها، وتقلّصت عضلات بطنها. تنفّست بسهولة أكثر. بدأ كوراي على الفور يتحدث عن أخبار اليوم: تداعيات انهيار سوق الأوراق المالية في الصين، والآثار التي يُحدثها من اكتئاب على الناس العاديين.

أبدى ملاحظة: "عقلية تشاو غو". أخذت أيانا نفسًا عميقًا قبل أن ترد، "إنّ ما يسمى بالصغار لديهم أيضًا الحق في أحلامهم". شاهدها كوراي. غمس إصبعه في شرابه. "تخيلات غير منظمة تؤدي إلى الانهيار. هذه عملية تطهير ضرورية. لحسن الحظ، الصين الخاصة بك أكبر من أن تفشل".

ثمّ قام النادل الشاب بتسليم شراب الورد الذي طلبه كوراي إلى أيانا، وهما يتحدثان عن البحر والحياة ونهاية الدولة القومية وخيارات العمل والشحن. أطلق كوراي النكات حول التقشف في اليونان: "ما هي أكبر منظمة خيرية في الاتحاد الأوروبي؟ اليونان".

تحدّث عن الدولة الإسلامية -داعش -افتتانه. "تحوّلت الأصول الاستراتيجية إلى فرانكنشتاين! الموت كعلامة تجارية طموحة!". ضحك. "عالم فقير قذر".

كتّفت أيانا يديها، مفتونة بهذا الكوراي: الحرباء الساحر، كوراي النبي الذي يهذي، كوراي المرشد السياحي الوقائي، كوراي الرجل الذي يتحكم في القدر والمصير، كوراي الذكر بحضور فذّ.

كشف لها عن إسطنبول كما يراها، منافذ الحوائط المليئة بالكنوز والأسرار، وهمس الأشخاص الذين عرضوا عليها أي شيء وكان بإمكانهم بيعه، حتى إكسير أرجواني للحياة الأبدية. قادها إلى متجر رسام خرائط بدا وكأنه مختبر الخيميائي، وقد فقدت نفسها في عالم الخرائط وتبدلها.

عكس وجهها ارتباكها وخداعها -رهبة واشمئزاز وغثيان. تم إغواؤها. كان بإمكانها أن تنظر إلى وجهه وتجد مرة أخرى قوته وجماله. لقد تخلص من قرطه. كان هذا الكوراي

مزيجًا مستساغًا من كوراي الحرم الجامعي وكوراي إسطنبول. كوراي القادر والراغب بإعادة تصميم حياتها حتى لا تحتاج إلى التفكير في ملامح المجهول.

تخيّلت أن يلتقي كوراي بمحيي الدين ومنيرة. كانت تعرف، وهي ترتشف شراب الورد، أن محيي الدين سيغريه للذهاب معه في رحلة صيد، ويرميه في المياه العميقة ليراقب كيف يمكن أن يتعامل مع الأمر... أو لا. ابتسمت. ظهرت أمامها زجاجة نبيذ. مدّ كوراي يده إليها وسكب لها كأسًا. "اشربي أيّتها الفتاة الكبيرة. هل كانت هذه ابتسامة، يا آنسة أيانا؟".

"أميرهان"، سألته، "هل يمكن القيام بأمرٍ ما تجاه وضعه؟".

كآبة مؤقتة في نظرة كوراي. حجبها.

"يمكن أن تكون الحياة مقرفة".

مال كوراي برأسه عليها ثم وصل إلى ذقنها. "أيانا الصغيرة، أنت تفهمين أن الحياة ليست حقًّا من حقوق الإنسان، إنّها مثل رمي النرد".

أعطته نظرة طفل تمّ انتزاع حلمه وتحطيمه. وأضاف: "لقد تلقينا رقمنا".

تراجعت أيانا في مقعدها وخدشت جلدها. ألقى كوراي نبيذه. "ما الذي يمكن القيام به؟". انتظرت أيانا الجواب.

في الخارج، بدأت الريح تصفر برقة. اخترق السكون المكان. نظرت أيانا فوق كتفها عند المدخل كما لو أن بعض المشاغبين المحنكين قد يتأرجحون فيه.

الرهبة وأسئلتها الخاصة: ما هو الصحيح أم الحقيقي؟

تبعت أصابع أيانا البسم الله على المنضدة بينما كانت تفكر بمعنى الكثير من الحقائق الشريرة. النسيج المتسخ للوجود -ماذا كانت لتفعل به؟ ومع ذلك، رغم كل الجنون، كانت لا تزال تسمع الرنين من نداء المؤذن في جزيرتها: الحقيقة الإنسانية البسيطة، غير الكاملة؛ على الرغم من كل شيء، كانت هناك الكثير لِفُتات الفرح الصغيرة.

مرة أخرى الإحساس بالعالم يحترق، ورؤى النزوح، وعذاب النساء، والأطفال الذين تكسرهم الحياة، وعمرها المكسور. والآن المونتاج غير الواضح للمنزل: أسطول ناهودا علي للصيد، وانشغالاته الطويلة على مدار الجدْي، انفجار ضحكة من بطنه عندما كان الصيد جيدًا، قوله إن شاء الله إلى الحياة عندما عادت قواربه فارغة؛ حديقة أُمٍّ تنبت

من الأرض الجافة المالحة، وداخلها كانت الأم تدندن أغانيها المفضلة، ولم تدرك أن صوتها كان مثل البخور.

إحدى عواصف جزيرة بيت. الرعد والبرق والظلام والانتفاخ والأمواج العاصفة. خلصت إلى أن العوالم لم يكن من المفترض أن تكون هي نفسها. في الخارج، أصوات الحياة. المواشي والسيارات والصوت البشري والموسيقى والصراخ المفاجئ من جروح خفيّة. بدأت أيانا من هناك، ثمّ تذكرت أين كانت.

تأمّل كوراي في وجه أيانا تقلّبات مزاجها. تمتم: "لو كان الأمر بيدي، لما سمحت لأيّ كائنٍ آخر بالنظر إلى وجهك مُباشرة. لكن كنت لأرسمك وأشارك لوحتي هذه مع أشخاصٍ قلائل فقط. كنت لأرسمك بالألوان التي أختارها أنا". التفتت أيانا إليه. أضاف كوراي، بصوتٍ لطيف ومنخفض، "أنا سأحميكِ يا عزيزتي. فقط اطلبي ذلك".

رمشت أيانا. زفير. أخذت القِدْر لسكب الشاي المتبل في كوب من الفخار، ركزت على حرارة الشاي ونعومة الكوي. أصر كوراي: "فقط اطلبي".

بصقت أيانا الشاي الذي كانت تحاول شربه. "والدك...".

قال كوراي بخبث: "يموت... حتّى الإنسان البراغماتي غير قادر على المقايضة بالموت. إنه غير سعيد بوقاحة الموت".

"نهير... التي اتخذت خيارات والدي كمهمتها في الحياة، هي وريثة جديرة بعاداته".

بريق في نظرة كوراي. سألت أيانا: "لديك إخوة... ". سخر كوراي: "... ليس لديهم الجرأة للإمساك بمصيرهم. أنا الوريث الوحيد".

ثم سألت أيانا، "ما هو مجال العمل العائلي بالضبط؟". حدّق كوراي في وجهها. قال: "هذه الأسئلة ليست في مكانها". ثم طلب كوراي كوبًا من عصير التوت البري. "لا ... قم بتبديله ... أحضر لي زجاجة. شيراز. اختر نوعية جيدة". التفت إلى أيانا. "كوبك؟". هزت رأسها.

"سوف تشربين النبيذ مرة أخرى".

"ليس مرة أخرى".

كانت متأكدة من ذلك.

كان طعم النبيذ الذي تذوّقته مع صديقتها شالوم كخلطة والدتها الشريرة.

بقي كوراي ينظر إليها.

"أريد أن أخبركِ بأسراري، ولكن أريد أن يكون بإمكاني لوم النبيذ. انضمي إلي".

ابتسمت.

"إن شربت، سوف أستمع إلى أسرارك؟".

استمرّ بالنظر إليها.

"أسراري: هل أنت متأكدة، يا آنسة أيانا؟ لا يمكنك ألا تعرفي هذه الأسرار لاحقًا. إن فتحت هذا الباب، لا رجعة منه. فكري جيدًا".

صرير باب كهفٍ يُفتح. يمكنها الزحف بعيدًا. يمكنها الركض للعثور على الشمس. نظرت أيانا إلى كوراي. دوائر تحت عينيه. لقد فاتها ذلك. اليدان: طويل الأصابع، ضخم البنية، مع شعر على الظهر، حلقتان ذهبيتان. قلبها: يدق. كانت تتعرق.

كانت تنجرف. صدم كوراي رأسه. "ألا أخبركِ؟". راقبها. ثم تذكرت أيانا كيف انتظرت قطة بيضاء قذرة يومًا كاملًا حتى يخرج خلد من منزلها الآمن تحت الأرض. استولت على الخلد. حتى عندما كانت طفلة، صدمت حين ذهب الخلد، لكنها لم تتذمر. هنا دقت الساعة. كانت الموسيقى التي تم تشغيلها بمثابة محاكاة لذكر الصوفية. ليالي البحر والظلام تحت الماء. هناك وقت تنتهي فيه الرغبة بالتنفس. استرخت، وهي تعرف أنّ الوقت يتقلص. لمست حلقها، ثمّ نظرت أيانا مباشرةً إلى كوراي، فمها نصف مفتوح، مدركة أنّها كانت تغرق.

"نعم، يمكنك أن تخبرني"، تنفّست أخيرًا.

ابتسم لها كوراي ببطء. ثمّ قال: "نحن أشخاص براغماتيون يا أيانا. لطالما كنا كذلك. قوارب. سفن. تجارة. نحن نتحكّم بالمعابر. الطرق البحرية. نحن نضع قواعدنا. حين نقول عن شيءٍ ما إنّه قانوني، فهو يصبح كذلك. نجني الأموال. هذه مهمتنا، هدفنا، دافعنا. إن كانت الأرض ساحة حرب، فنحن نجني المال من هذا أيضًا".

تابع كوراي: "والدي ممتاز في اقتناص الفرص في ثقوب الوجود السوداء حيث معظم النفوس تخشى حتّى أن تنظر. البضائع، سواءً بطرق شرعية أو غير شرعية، يجب أن تعبر في العالم. وحيث تكون الحاجة إلى ذلك، نكون نحن هناك".

ارتشف كوراي النبيذ.

"هذه المساحة المتعفّنة من المدينة، معظمها لنا أيضًا".

تقطرت الموسيقى من مكبرات الصوت. نحت المغني مسار الصوت في ألحان ممزقة. استمعت أيانا لكل من المغني وكوراي.

تكلّم كوراي: "كان والدي يعرف أنّ الأرواح التي في خطر تحتاج إلى... خدماتٍ غير عادية وأنّها مستعدة أن تدفع مبالغ كبيرة مقابل امتياز الوصول إلى... السلامة. نحن نقدم، بالنسبة للمعدلات الرئيسية، البنية التحتية للوسيط".

توقف. "نعم، هناك من يحتاج بدوره إلى النفوس التي تكون في هذا الخطر".

هز كتفيه.

"بالسعر المناسب، نقدم". وأضاف كوراي وهو يكسر الخبز: "الطعام جيد". وتابع: "نحن نورد سترات النجاة وقوارب النجاة... ". مدّ يده وأخذ أحد أصابع كبابها. الصمت. قام كوراي بالتدقيق في وجه أيانا وإرباكها وخفوتها.

قال لها: "تذكري يا عزيزتي، لا أحد يجادل على لون المال أو مصدره. الهدف من الحرب هو المال -الصناعة، الوظائف من المنزل -السلطة. الناس كانوا وما زالوا"-ابتسم -"قابلون للتداول".

مدّ يده لتناول حسائه. كان يجب أن تصرخ. كان يجب عليها أن تحتج. ومع ذلك فهمت الآن استسلام الخلد في فم قطتها. التقطت أيانا طبق سلطتها، ممزقةً أوراقها. كانت أفكارها تتسارع، ولم تعد جائعة.

كانت كلمات كوراي أكثر رمادية في الظلال الخبيثة لعالم كان بالنسبة لها لغزًا. سألته: "لماذا تصلي إذن؟".

استدار كوراي في مقعده. "سؤال غريب".

"الإجابة عليه؟".

في مسجد سيمينغ، قبل أشهر، كانت تنظر إلى القاعة حيث يسجد الرجال، وقد انجذبت إلى جسد واحد نقل إحساسًا بالصلاة كما لو أنّها رقصة هجر. راقبت الرجل لفترة من الوقت. عندما وقف الرجل، أدركت أنه كوراي.

أصيبت بالصدمة كما لو أنها مصعوقة بالضوء، لقد شعرت بالحرج بسبب حاجتها المفاجئة للاقتراب منه، لرؤية وتذوق ما يعرفه. سألها كوراي: "هل أصلي؟".

"أنت تفعل".

انحنى كوراي لمسح بقعة صلصة عن ذقنها.

"ربما أحتاج إلى الاستماع إلى شخص آخر غيري". ضحك. "و... المسجد مكان عظيم للاتصالات الاستراتيجية. من المهم أن يقرأني الناس بطريقة معينة... و"-أضاف -" حسنًا، أعترف بذلك... انا فضولي. شعرت دائما أن الموت ممل. خاصة الآن ... مع ما يحدث مع أبي...".

توقف فجأة.

تغيير المسار: ابتسامة غامضة.

"أبي يقول إنني أضيعك".

مالت أيانا برأسها بانتظار أن يكمل حديثه.

"أميرهان"، أكمل كوراي وهو يدرس كلماته، "يعتبر نفسه خبيرًا بالنساء – إنّها هواية. هناك آخرون يشاركونه... هذا الميل. الرجال الذين سيدفعون أسعارًا باهظة من أجل متعة رفقتك، وحتى أقساطًا أعلى لملكية جسمك".

تحول جلد أيانا إلى البرودة. مدّ كوراي يده عبر الطاولة. صدّته. كان صوتها جليديًا. "لقد قابلت مثل هؤلاء الشياطين".

كانت عيناها مظلمة.

"أين؟"، سأل كوراي.

"في البيت".

قال كوراي، "آها! الجزيرة الغامضة ليست حميدة بعد كل هذا".

"الغرباء".

"هل ألحقوا بك الأذى؟".

قالت: "لقد حاولوا".

"آذيتهم؟".

"أمي فعلت".

كان مظهر كوراي مفترسًا. "جيّد".

اتّسعت عينا أيانا على قدر المشاعر التي تصارعت في داخلها. خوفها وسخطها،

وخوفها وانبهارها في الوقت نفسه، وإحساسها بكل ما تعرفه ولن تفهمه أبدًا، فضولها الشديد. كوراي مفتون. "آه، يا عزيزتي، وجهك!".

نظرت بعيدًا بسرعة.

"مرحبًا"، قال الآن، "مرحبًا... يجب أن يتحمل اللاهوت اختبار الواقع". أمسك ذقنها. "أنا في السوق لشخصٍ واحد فقط... إذا كان لديك اقتراح".

فتحت أيانا فمها، ثمّ أغلقته.

ابتسم كوراي: "لا تجهدي نفسك. اطلب مني أن أحميكِ، حتى من هذا العالم... ومن غربائه".

طوت أيانا ذراعيها أمام جسدها. أخبرها كوراي نكتة تركية.

ثمّ سألت أيانا: "ماذا حدث للعامل السوري".

عبس قليلًا ثمّ سأل: "من؟ آه! تعنين ذلك المهاجر الذي انبهرتِ به؟".

أرادت أن تعترض.

رفع كوراي يده. "أعرف أنّه لم يحدث أي شيء بينكما".

انتظر كوراي، كما لو أنّه يحسب المخاطر. "عملنا يجذب كل أنواع الأشخاص. لاجئون مؤهلون -وبأسعار معقولة -نقوم بتوظيفهم. كان جيدًا ووديعًا ومطيعًا حتّى ركّز عليكِ. علينا أن ندعه يذهب". توقف كوراي مؤقتًا. "لقد ألقى بحذائه علينا. هل رأيته؟".

"الحذاء الملطخ بالدم؟"، سألت.

كانت عينا كوراي مرة أخرى مفترسة، صفراء بالجوع وقوية بمعرفة القوة المتفوقة. قال: "نحن ناجحون لأننا لا نأخذ رهائن". كانت نظرته صعبة. "وهنا يا عزيزتي، تنتهي جولتك في الكهف المخفي".

استمرت الأمسية، وتخللها صراع التناقضات المتنافرة.

حين تكلم كوراي، تبددت مخاوف أيانا.

سخر من المحاضرين في الحرم الجامعي، مختلقًا محادثة بينهم بلهجاتهم وأصواتهم المختلفة. قام كوراي بالأداء، ثم نهض للرقص على البوب التركي. ضحكت أيانا كثيرًا. قال كوراي، عندما انتهت الموسيقى الحزينة، في صرخة عالية، "أخبريني المزيد عن جزيرتك الأسطورية".

لذلك تحدثت أيانا عن منيرة، ومحيي الدين. استمع كوراي. أخبرته أيانا أنّه، ذات يوم، اختفى زرياب من بيت. استمع كوراي. ثم قال كوراي: "الحياة مصنوعة من الغياب إلى الغياب".

سألت كوراي: "إخوتك؟".

تردّد قبل أن يعترف: "نعم".

ثمّ تحدّث عن الموسيقى التي يحبّها، واعترف لأيانا عن زياراته السرية إلى مركز مولانا الرومي.

"حين كنت طفلًا، أردت أن أصبح درويشًا. كنت أغطي نفسي بالملاءة".

مدّ يده ليلمس وجهها وشعرها.

"كنت مهووسًا بالرقص. لو لم تكن هناك الكثير من الأمور لأخذها بعين الاعتبار، كنتُ – ربما – أصبحت راقصًا".

مرّرت أيانا أصابعها في شعرها وراحت تتذكر مظهر كوراي خلال الصلاة. رفعت رأسها لتقول شيئًا حين لاحظت البريق في عينيه.

راح يشير بيديه ويدندن أغنية: "هل سبق أن سمعتِها؟ تعال، تعال كائن من كنت/ أيّها المسافر، العابد، عاشق الترحال – لا يهم... لقد سبق أن أخذت دورسًا باللغة الفارسية. كنت أريد أن أبقى عند مولانا".

ثمّ ساد الصمت بينهما. عبس كوراي وسرح بتفكيره.

رجل الحرباء. ماذا يكون؟ تبعت أيانا كوراي إلى هنا. ربما كانت هي... من يهرب؟ تلك الكلمة. كما لو كانت مسجونة. هل يمكنها حمل حقيبة يدها والسباق في الليل وتحرير نفسها من المغناطيس الذي كان هذا الرجل؟ رأت الأكاذيب منسوجة في حقائق جزئية.

الدمشقي.

سمعت صرخة بشرية في تلك الليلة.

كانت قد سمعت صوت طلق ناري أُطلق من بندقية. حذاء ملطخ بالدم. لقد شاهدت سيارة تُطرد في تلك الليلة. كان لديها ... كوراي -إغواء هذه الليلة بلا حدود. لم يكن رجلا "طيبًا". لم يتظاهر بأنه كذلك. لقد كان كوراي، وهو رجل أوضح عيوبه، وكان دليلها في المناطق الجغرافية الخالية من الشمس في العالم. قدم القليل من الاعتذارات. لم يتوقف

عند العثرات، بل وسّعها ليبني جسورًا فوقها.

حوّل عدم اليقين إلى الربح. لقد عامل الكذبة والحقيقة كشيء واحد -أي شيء من أجل السلطة. كان مهتمًا بالضوء، فقط إذا كان يخدم أغراضه. كل هذا قد ظهر من خلال حواس أيانا في الثانية التي استغرقها كوراي للتبديل من النبيذ إلى عصير أخضر شاحب في تلك الليلة المتباطئة. كانت كلماته تسحب أيانا إلى الأسفل، في دوامة.

كان السحر يغرق في روحها، وفي هذا استبدل غريزتها بالهروب من كوراي بالرغبة. انتظرت أيانا لما سيلي. كان صوت كوراي منخفضًا ودافئًا ومؤكدًا، وعندما ضحك، كان صوت قرقرة. أراحت أيانا رأسها على الطاولة. قلبها هادئ. قال صوته: "أنت تعرفين أنني أستطيع أن أحبكِ".

انتظرت. مدّ كوراي يديه ولفّها بيديه. قال: "أريدك أن تحصلي على هذا."

وضع صندوقًا أسود صغيرًا بينهما. فتحه لها. في الداخل كان خاتم ياقوت. وأضاف "الياقوت من مدغشقر". كان صوت أيانا هادئًا جدًا لدرجة أنه اضطر إلى الإجهاد لسماعها. "ماذا يعني هذا؟".

قال: "رهان". هزّت أيانا رأسها: "ما هذا؟".

"خذيه".

موسيقى تركيا أردوغان. الأنغام التي أرادت أن ترتفع لكنها تحطمت باستمرار في البوسفور. بدت وكأنّها قصيدة للخسارة. كانت أيانا تنحدر، دون أي فكرة عن كيف تكون أو إلى أين تذهب. نهض كوراي وقال، "تعالي، دعينا نرقص الآن".

"ولكن...".

"سأراقصك"، همس لها. "قفي على قدميك".

في مزيج من التشرد والابتهاج والخمول والتعب، استسلمت أيانا.

غدًا، سوف تستيقظ وهي تتساءل مجددًا. لكنّ هذا غدًا. الآن، كانت بحاجة إلى أن تنقاد وتُحرّك وتُحتضن وتقترب من جسد رجل – جسد عكس جسدها وتضاريسه الهشة.

تمسّكت بكوراي بشدّة، ولكن فجأة تردّد في رأسها لحن اللاكريموسا، نشيد الموت الذي كان يرافقه أشباح من هم محكوم عليهم بالزوال.

تجاهلت ايانا التحذير. أغلقت عينيها. توقفت عن الاستماع. فكرت بالغد. الآن

سمحت لرجل ذو أكتاف عريضة أن يراقصها، وسألتها كوراي، "لماذا أتركك تفلتين من يدي؟".

سمعته أيانا. ستعطيه إجابة غدًا. خفض كوراي رأسه. كان بإمكانها تذوق الدم والنبيذ والحلاوة والحموضة في فمها، ولكنها ما زالت لا تتكلم. بدأت الدنيا تمطر. أصوات الضرب من الشارع؛ الشجيرات المتقلبة لأولئك الذين فوجئوا بهطول الأمطار. وكانت هنا، ترقص بصمت، جسدها مصبوب ليتناسب مع جسد آخر.

التواء مضطرب. إلى الأسفل. كانت تدور بِحرية كما لو أنّها في دوامة.

في لحظة خالدة، كانت داخل مقصورة سفينة، محاطة بأذرع أخرى، بحيث أنّها حين فتحت عينيها، لو كانت كوراي يولي اهتمامًا، لكان قد لاحظ صدمة أنّه وجهه هو من تراه أمامها.

بقيا يتمايلان وهما يغادران المطعم. كان ذلك بعد وقت طويل من منتصف الليل في ليلة مضاءة بالنيون. ألقت الريح بحطامها عليهما.

أمسكت أيانا يد كوراي، باحثة عن اليقين، متخيلةً أنه يمكنه أن ينقل نفسه إليها. كانت مغمورة في الظلام، ولكن طالما كان كوراي يهمس لها، لم تكن خائفة. استقر الضباب الليلي الذي قدمته المياه وخطوات التخدير. ضغط كوراي على أيانا إلى جانبه. تخيلت المرات من خلال دقات قلبه ولاحظت أنه كان مرتاحًا في هذا الظلام.

ضحك هو. وأشار إلى الضباب الذي لم تستطع سماعه.

خيطٌ من الخوف... أسمته الغد.

همسة أشباح عابرة: أب مجهول، فضل المصري، المشرقي، سليمان. الشيء الفارغ والجائع الذي استهلك من أحبتهم: القطة ومحيي الدين. صمت الأم المقبب. تحدث كوراي، وكان صوته خافتًا. نسيت أن تتذكر الدمشقي. كان ذراع كوراي حولها محكمًا. طنين حولها، الدوار، كما لو كانت في حالة سكر. وكانت. كما في تلك الليلة على السفينة، مرة أخرى، سلسلة من البرق. كانت أيانا تمسك الرجل الحرباء الذي كان يقدم كلمات للآلهة الليلية، ويقودها إلى ممر، من خلال مدخل حيث يقف حارس صاخب.

قال كوراي، "قولي لهم، في حال سأل أحد، أن هذا هو نكاح المتعة".

زواج مسيار.

ضحك هو، وضحكت هي.

[75]

قال لها إنّها ستكون عروسه، لكنّها لم تهتم. ولكن في هذه الليلة – الليلة التي كانت فيها تتوق للمعرفة وللشعور وللسقوط -لليلة واحدة، علّقت الانتظار. كان هذا كل ما في الأمر.

في وقتٍ لاحق. التحول. هو. لمسة حميمة. متيقظة، محاطة به وبجرحه وبالظلمات والحرية التي خلقها الوضع، كانت في حالة سكر مزجت ما بين المتعة والألم وعاشت الحالة ولكن بعد ذلك سقطت أيضًا في الهاوية الصاخبة، فراغها الشرير.

في وقت لاحق... غمغم لها: "أنتِ لي".

الشوق والاحتواء وخيبة الأمل. لم يكن هذا -الشيء المهموس والحميم -للأبد أيضًا. نظرت إليه. جرحت وجهه. خطوط الدم. سألها: "هل ترين كما أرى يا عزيزتي؟".

رسم خرائط التملك. ماذا كانت تتوقع؟ الآن هي رهينة. تعرقا معًا. جسمان لزجان. كان فمها متورمًا. كان وجهه مخدوشًا. وسط كل هذا، بعينيه وحوافهما الحمراء، قال لها: "أنتِ لي". كتب اسمه على ثدييها العاريين. عهدٌ ملطخ بالدم. دمها. ليس دمه هو. كلا معصميها مقفلان بيديه. ضغط عليهما وقال لها كأنّه يتلو واقعة: "سأقتل من أجلك". حذاء بني ملطخ بالدماء. أخفت نظرتها. همس لها: "والآن، أريد روحك".

لن يحدث ذلك أبدًا.

داخل جسدها، في فضاءات الحلم، نظرت إلى حافة هذه الفوضى المغرية، أنامها مثل البحر ولكن من دون صدق البحر. كان يجب أن تكون أقرب إلى قلب ديلشكا لتتعلم كيف تسقط. شاهدت كوراي في ضوء الصباح المرشّح. سقطت قطعة من الشمس على جسده الكبير، وشكّلت عليه دائرة قوس قزح. عينان واسعتان، وجه زاوِيّ، شفاه استخدمت شفاهها لتقبيلها. كان يراقبها، ووجهه غارق في التفكير. المزيد من الخطوط الحمراء: حاولت عمدًا سحب الدم. قال لها: "نحن صيادون".

لكن عينيها كانتا تلمعان. مدّ يده إليها: "أريد أفكارك". عينان نصف مغلقتين. وأضاف: "يمكنني أن أحبك يا حلوة". داعب وجهها. "في اليوم الذي سمعت فيه عنك،

علمت أنك ستناسبينني".

مرّرت أيانا أصابعها على جسده. تفكير بسيط، رد فعل، مثل الحكة. ومض. هرب.

كان كوراي يتنفس بصعوبة ويتعرق. يداه وأصابعه وفمه في كل مكان، هتف: "روحك"، وصرخت بصوت عالٍ "أبدًا"، "لا".

حقيقي، ملموس، صلب. كان بإمكانها البقاء مخفية داخل كوراي، على الرغم من المذاق الحاد للدم على لسانها، مرارته الحلوة عندما لمسها. لقد ابتلعها جسده، وشعرت بالأمان لدقيقة، واشتهت هذا الوزن والتمزق والانهيار والتحطم من الشعور بالخسارة مرارًا وتكرارًا.

سكون. قرأت المستقبل على وجه كوراي. هناك انعكست في نظرته. هنا، في بوتقة التوق هذه، رأت نفسها في قطع. قال: "لدي شيء لك". انتظرت. وصل إلى جيب الجينز ليكشف عن علبة مخملية سوداء صغيرة. فتحها. احتوت على خاتم ياقوت كان نسخة دقيقة من ذلك الذي قدمه لها في المطعم.

قال "هذا لك".

أحجية.

"والآخر؟".

"هذا حقيقية يا عزيزتي". رفعه إلى النور. كان لون الحجر أزرق أكثر زرقة من الآخر. "هل ترين تدرجات اللون. دعيني أضعه في إصبعك". تفحصت عينا أيانا كوراي. "تدرجات؟"، هي لم تهتم. "إنها كبيرة للغاية".

نقر كوراي أنفها. "الشيء الغريب محبوس داخل البلورة. مثل الماء المحاصر داخل صخرة"، همس لها، "قيمته عالية".

ضحكا كأنّهما فهما المزحة.

"إنّه على قياسك".

كانت شفتا أيانا خدرة. انحسار. سمعت دقات قلبها من جديد. فهمت بطريقة أخرى لغة الأجساد المتوترة الماضية نحو العدم المخفي الذي امتد إلى شظايا، مثل شظايا الضوء الأزرق.

ما هو الصحيح؟

ضرب كوراي على حجر الياقوت. "هذا حي؛ يتغير لونه. يتنفس".

نظرت. رأت البنفسج. رفع كوراي الأحجار الكريمة إلى النور وكأنها أضحية. جزء من الضوء الأزرق انعكس على جسد أيانا. ضربة صاعقة بخرت تهديد الدموع. كراهية لنجم ساطع يلمع داخل الحجر وسحب جاذبية كوراي، نبضاته؛ قوة جوعه المغري تلاشت بين الأحجار الكريمة، المزيف منها والحقيقة.

ثمّ سأل كوراي، بسعادة غامرة بعض الشيء، عن السليلة، ما إذا كانت تدرك أنها ذات أهمية استراتيجية مستقبل آل تيرزي أوغلو في الصين، المستقبل المبهر.

لم تستمع أيانا تمامًا.

شردت مرة أحرى، كما لو أنها تتمسك بروحها.

بلا حراك. كانت تتذكر. فكّرت بالحديث عن الصين وإرثها هناك. ربما في كل العلاقات الحميمة، يجب أن يكون لدى كل طرف ما يقدمه، كوراي معارفه، وهي نفوذها هناك. الآن كان كوراي يقدّم لها النصح حول تقييم إدارة المخاطر وضرورتها، على وجه الخصوص، في جوانب الحياة المهمة، مثل اختيار المرأة. وأضاف: "سأبقيكِ".

أبدًا.

لكنها انتقلت، دون مقاومة، إلى شخصه المقفر. المفارقة. الآن تم إعادة توجيهها تقريبًا. في وقت لاحق. قالت أيانا، "يجب أن نعود إلى الوطن". كان مظهره غير قابل للقراءة، والظلال تلمع في نظرته. شاهدت. كان يدرسها أيضًا بعيون نفاذة. كانت يده اليسرى على رقبتها، وإصبعًا تحت أذنها، وشعر بنبضها.

"سنقوم بتصميم الحياة الخاصة بنا". إصبع يداعب خدها.

أبدًا.

تنفست أيانا، وأخذت جزيرة بيت، منزلها، كتعويذة أخرى. أسقطت الرياح الخارجية رثاءها عالي النبرة. الرياح كانت تتنصت عليها. فكرت أيانا: اليوم يا أشباحي، لقد شاهدتم هزيمتي.

تحوّل.

ما تعرفه: التيارات كانت تحمل وجهات. تسربت رائحة أسماك فاسدة إلى الغرفة من خلال نافذة مفتوحة. رفعت أيانا حافة الملاءة لتغطية أنفها. بدا كوراي محصنا. كلما راقبته

أكثر، قلّت رؤيته.

صمت كثيف.

تشابك الأطراف.

كانت يد كوراي مسطحة على بطنها.

"سوف أقوم بتعديل الخاتم من أجلك".

مشطت أصابعها من خلال تجعيدات شعره الناعم من تلقاء نفسها. وميض عينيه. أغمض عينيه. "والدتي تريد منك أن تحصلي عليه".

طبعًا هي تريد ذلك.

"هل هذا منزل نهير؟"، سألت أيانا.

"ومنزلي"، تمتم كوراي.

وزن ثقيل على صدر أيانا، كما لو كان الربو القديم مستيقظًا. حبست أنفاسها، كما لو أنّها تقي نفسها بهذا الفعل. تأملات في شريط الغرفة وجسديهما. روائح نفاذة للعيش. كان هناك أيضًا تلك الوحدة الخاصة التي لا يمكن أن تأتي إلا من كونها مع شخص آخر.

قبل الفجر في اليوم التالي، فركت أيانا جسدها بالزيوت المتنوعة التي تزين جدران الحمام، واختبرتها جميعًا. نواتج نهير. ارتدت ملابس ملطخة بالعرق وتركت المكان وكوراي النائم محاطين بالياقوت الحقيقي الكاذب. في الخارج، مرهقة بالضوء، على الرغم من أنه كان يومًا باهتًا، حملت لغزها بنفسها، ولمست فمها، ولاحظت بشرتها المتدفقة، المحترقة في القلب.

شقت طريقها من خلال عوالم خافتة، ورائحة الدخان، والسنوات المشبعة بالممرات الضيقة. لقد تجاهلت العيون الشائكة والمغريات المهينة للغرباء الجائعين المتعطشين الذين تخيلوا أن امرأة بمفردها في هذا الوقت كانت تبيع روحها.

لجأت إلى الذاكرة وإيقاع المد والجزر أثناء تدفقه إليها في صحبة سؤال ديلشكا: "هل صحيح أن هناك خفافيش يمكن أن تمتص دمك أثناء نومك، وكل ما قد تشعر به هو الحلاوة -حلاوة، وفقط عندما تستيقظ، تدرك مدى تشوهك الشديد؟".

[76]

عندما وصلت أيانا إلى ساحة تقسيم، تفاجأت بالحياة تعجّ هناك. حشودٌ ووجوه وأشخاص من مختلف أنحاء العالم على مفترق طريق، تصطدم رؤوسهم بأحجار قديمة تتدلى على علوٍ منخفض.

المتسولون.

الوقت.

صوتٌ من بعيد، أميركي؟

اليأس.

عويلٌ من القلب: "أين أنا؟".

نظرت حولها وعاودت النظر.

وقفت أمام الشواطئ المرغوبة لمضيق البوسفور، ولكن بدلًا من الرعب والدهشة، لم ترَ سببًا ألا يسبر غوره، من خلال الذاكرة المستعارة، هناك تتناثر الأرواح ولا تزال مبعثرة تحت المياه: كل هؤلاء الحجاج، الذين مثلها، تخيلوا النعيم في مكان آخر. بلا اسم، وغير مرئيين، ومهجورين بالفعل. تكلموا معنا عن الأرض، سمعتهم يهمسون بأصوات كثيرة.

"أين سفارة جمهورية كينيا؟"، تنفسّت. كانت تطارد المنزل.

"أنقرة"، أعلمها أحد مكاتب المعلومات.

"أحتاج جواز سفرٍ جديد".

كانت عيناها تدمعان.

"أنقرة".

تجولت في المدينة، طفلة أخرى لدايدالوس، ذلك الأحمق المبتهج الذي طار بأجنحة الشمع نحو الشمس.

شعور مزعج في قلبها، بطنها. صراخ الطيور، ملاحظات متضاربة. عبرت أيانا من خلال أبواب اسطنبول المفتوحة والممرات والنوافذ. لاحظت القطط وعيونها البشرية. لاحظوها. تجولت عبر النشاز في البازار الكبير حتى أصابها الإرهاق. تلصصت على

المكتبات الغارقة في الموسيقى، وانتقت عناوين الكتب.

كانت هناك جورنة وأغولاسا وادوما. كانت هناك تادجو. أسماء من قارتها. وهنا سيلاسي. لمست هذه. في وقت متأخر من المساء، عندما عادت إلى الفيلا، كانت أشبه بقبرٍ من الهذيان يتعثر أمام نهير التي كان فمها يتحرك. لم تسمع أي شيء. من دون أن تتفوه بأيّ كلمة، مشت ودخلت غرفتها وأغلقت الباب.

في سريرها، لفت أيانا جسدها على شكل صدفة من الرخويات، وضمت ركبتيها إلى جسدها، بينما استراح رأسها على وسادة ملطخة بالدموع. لفت كلتا يديها حول رواية هان سونغ "السكك الحديدية عالية السرعة".

لجأت للنسيان من خلال الدخول في مخيلة مؤذية لشخص آخر. لكنّ ذلك عمّق أكثر من إحساسها بالخسارة.

نبض ممل.

عندما رن هاتفها ورن مرة أخرى، تجاهلته أيانا.

[77]

كان كوراي يطرق على بابها. سمعت أيانا صرير الباب وهو يُفتح من شدة الطرق. نهضت من سريرها لكي تحرّك الكرسي الذي استخدمته لصدّ الباب. وقف كوراي عند الجهة الأخرى.

"ما خطبك؟ بحق السماء؟".

كانت ترتدي قميصًا وسروالًا قصيرًا.

"هذه ليست لعبة يا عزيزتي".

حاول أن يحدّق بها ويجلسها، ثمّ وضع علبة مخملية بين يديها.

"لقد نسيتِ هذه".

عضّ على شفتيه. "تبدين مريعة".

مشى في الغرفة.

"لماذا غادرتِ؟".

ضغط أصابعه على ذراعيها وفحص وجهها. نظرت أيانا إلى الخلف، بلا أي صوت. هزها كوراي. عبوس.

"تختفي النساء خارج شوارع الشارع، ولا يمكن رؤيتهن مرة أخرى. لقد جازفت بشدة".

"لقد علمتني جيدًا".

عاد كوراي كما لو كان قد تلقى صفعة، ثم ضحك ولف يديه في شعرها، وسحبها. رفضت الرد.

"يتوقعوننا على العشاء معًا يا عزيزتي".

تقرّح على جلد أيانا. ضياع الكلام. انقطعت كلمات كوراي. داعب جلدها.

"اغتسلي".

توقف مؤقتًا للضغط على ذقنها. سحبت أيانا ذقنها بعيدًا.

لمعت عينا كوراي.

"مخلوقة فضولية. العشاء بعد ثلاثين دقيقة يا حبيبتي".

حافة الكلمة. نحى شفتاه تجاه أذنها اليمنى. ارتجفت أيانا. الآن روتين تيرزي أوغلو مألوفة: الإفطار والغداء والعشاء والمشروبات؛ الحديث الصغير -الطقس، الأسواق، أدب أورهان باموك.

كان هناك مستوى أعمق من التدقيق في شخص أيانا. جلس كوراي بالقرب منها، ليشير بتصرفاته أنّها كانت له. كانت متعة نهير واضحة. على مائدة العشاء، علمت أيانا أن خططها للنزهة العامة كشريكة لكوراي كانت قيد التنفيذ بالفعل.

"فقط العائلة والأصدقاء المقربين".

تجاوزت نهير أيانا قبل أن تتمكن من الاعتراض. ومن بين الفوائد التي ستجنيها بعد الحدث، كان نقل ممتلكاتها إلى شقة كوراي الداخلية.

كانت نهير قد أعدّت بالفعل قائمة المدعوين المحتملين. أرادت الزنابق الأفريقية على الطاولة. التفتت نهير إلى أيانا. "أنا مسرورة جدًا يا عزيزتي".

كان نهير حريصةً على رحلة تسوق لهما. كان هناك الكثير للقيام به. استمعت أيانا. مطوقة، محاطة بعملية صنع فردٍ جديد من عائلة تيرزي أوغلو. تم ضمّها إلى الأسرة. وقفت أيانا لمشاهدة ألوان الفجر الصامتة من نافذتها، وشاهدت أنفاسها في جزءٍ منها.

يجب أن أتنفس.

في وقت لاحق، قامت بمطابقة إحدى حقائب اليد الكبيرة مع فستان أحمر أودري هيبورن. كانت ترتدي حذاءً بكعبٍ عالٍ أسود وجلدي. زيّ تسوّق آل تيرزي أوغلو.

يجب أن أتنفس.

أحدث مديرو المتاجر ومساعدوهم ضجة حول نهير وأيانا، التي كانت ستقدم نفسها في عطلة نهاية الأسبوع في فستان مزركش بلون الصدأ الذي وصل إلى أسفل ركبتيها.

لم ترَ نهير، المنهمكة في دراما التحضيرات، أيانا وهي تبتعد من صالون التزيين النسائي في المحل، لتقف بين محل بيع الآيس كريم ومحل الرجال لبيع الأحذية. كانت أيانا منشغلة بلحنٍ موسيقي تردد فيه جملة واحدة من كلمات أغنية شعرت أنّها تشبهها.

لم يلاحظها أحد، فقرّرت اللحاق بالأوتار الموسيقية. مشت أيانا داخل الشوارع وسط الزحمة اليومية وروائح الحامض في الطرقات. على مرأى من اسكي في اسطنبول، أصبحت الموسيقى الحية أعلى. استدارت إلى اليسار ورأت ذراعًا ممدودًا: الجرح الذي غطته ناز شيئًا أصفر. كان جرح أحد كبار السن الذين كانوا يلعبون العود. كان ملفوفًا في قماش أبيض قذر، يعلوه قفاز أخضر ثقيل، جسده ذابل وجاف، جمجمته مرئية، كما لو كانت مستعارة من مقبرة حديثة.

كان حزن الموسيقى الخارج من عوده شيء جميل وموحش. داخل أيانا، تدفق يأس لم تكن تعرفه سابقًا إلى السطح، حيث تحول إلى ضوء غير متوقع يمكن رؤيته. حدّق الرجل العجوز في الفضاء، وثبت عيناه بينما بكت له موسيقاه. احتضنت أيانا الجدار، ولم تر الجمهور يمر.

من بين الموسيقى، تحدّث إليها الموسيقي الذي توقعت أن يكون شرق أوسطيًا بالعربية: "ماذا ترين يا طفلة؟".

"قوارب الفجر المحملة بالأسماك آتية إلى المنزل"، تمتمت بالكيباتية.

توقفت الموسيقي، كان مذهولًا. "أين؟".

"في جزيرة بيت. بين البحار السواحلية. هناك يغنّي الصيادون".

"ماذا يغنون؟".

صمت.

"غنّي لنا".

"ولكن صوتي...".

لم يتحسّن صوتها في الغناء مع تقدمها في العمر.

"غنّي".

غنّت أيانا قليلًا، ثمّ توقفت، لأنّ تخيّل عالمها الآخر كان يحدث أنينًا في روحها.

سألها الرجل: "لماذا تغنين؟".

ثم أجاب على سؤاله. "إنّهم يغنّون لأنّ الحياة أشبه باليعسوب: يرفرف، يضيء، يطير، ثمّ يموت".

ألقى العود جانبًا. نظر إلى أيانا. "إذًا، لا تزال هناك أماكن في العالم حيث يمكن للإنسان سماع أغاني العودة للوطن؟". اكتسبت عيناه الغارقتان نظرة بعيدة. "طوبى لأحلامهم. نرجو أن يبقى العدو أعمى عن وجودهم".

توقف.

"أين يوجد ذلك المكان؟".

أجابت: "كينيا".

"وأين هذه كينيا؟".

"في شرق إفريقيا".

قرّب الرجل العود إلى صدره، وجعله ينوح وينوح.

انتابت أيانا كل المشاعر التي لا توجد لها كلمات، صرخات كائنات لا تُحصى. انفجرت، "لماذا تعزف هذه الموسيقى؟".

"هل تؤلمك؟". سأل الرجل العجوز أيانا. "إذن ابكي من أجلي، إذ في وقتٍ ما، كان هناك دفء في معلولا الرائعة. تحولت إلى الرماد بين عشية وضحاها بينما ينام من يفترض أن يحفظوها. ضرب صاروخ واحد عبر سطحنا".

عزف بشدة أكثر على العود. "سبعة أطفال. غرام، زوجتي، عصفورتي، نحيلة كأغصان

صنوبر حلب، حتّى بعد أن ولدت سبع أبناء".

عزف أكثر. "الجسد البشري يحترق كاللحم المشوي".

توقف.

"النهاية".

صاح. "الموت أيّتها الفتاة" -جرّ عوده -"كلمة بغيضة".

استحضرت الأناقة الموسيقية الغياب الشرير لدمشقي يتحدث الإنجليزية من دون اسم، وقط صغير أبيض قذر تعيس، وطائر أورتولان جريح، وروح جرحتها وجسد استخدمته للخيانة.

بكت أيانا على أشياء لم تبكِ عليها من قبل. ترك عدد قليل من البشر المارة عملات معدنية في علبة الرجل المفتوحة قبل أن يمضوا في طريقهم. توقف العجوز عن العزف ليسأل: "إلى أين الآن؟".

انكسار.

"أنا... عليّ أن أذهب... إلى المنزل".

"المنزل. نعم. يجب أن تجديه بينما لا يزال موجودًا".

فتشت أيانا في حقيبة يدها ووجدت حفنة من الليرات تركتها للرجل.

بتهور، انحنت لتمسك وجهه. أمسك الرجل بأصابعها وقال: "هذا الظلام الدامس كفن موت".

تطاير الشمس في زاوية العالم. قال لها: "اهربي يا طفلة". كان صوته خافتًا. "قُولي لشعبك أن العالم يتحول إلى دم أحمر أثناء غنائهم". أمسك أوتار عوده. "اذهبي!"، صاح.

اندفعت أيانا راكضة على الطريق الكبير، بدافع من الرعب البدائي. ألقت هاتفها في أقرب صندوق. شيء من الأسف: كان هذا أول هاتف اشترته لنفسها. ركضت بالقرب من امرأة متغطرسة تحاول إرضاع طفل لا يتوقف عن البكاء. انزلقت عليهما أثناء ركضها. كانت المرأة قريبة جدا من البكاء بنفسها. قالت لها أيانا: "أنا آسفة، أنا آسفة". ركضت أيانا.

وجدت سيارات الأجرة مصطفة في رتبة على زاوية. طلبت أخذها إلى مكتب القنصل العام الصيني.

[78]

تقدّمت السليلة أيانا، ضيفة الدولة الصينية، ببلاغ عن سرقة حقيبتها التي ضمّت جواز سفرها ونقودها. قالت إنّ أحد اللصوص نشلها منها. استمتعت بقول ذلك -مخلوق قذر طاردها وتسبب لها بالكدمات. هربت إلى القنصل العام من أجل الأمان. فركت عينيها. نظرت حول المكتب. كانت وسط وباء البيروقراطية الكثيفة.

كانت فرق التوقيت في بكين متقدمًا بخمس ساعات عن اسطنبول، ولم يكن من السهل تبادل المراجع للتحقق من قصتها. لكنها لم تستطع البقاء في اسطنبول في يوم آخر. حدّقه بها مسؤول، وليس القنصل العام. تنهّدت أيانا. وسألت: "من فضلك". وبدأت ترتجف، ثمّ مسحت وجهها. "إذا بحثت في الإنترنت، سترى قصتي. يرجى الاتصال بجامعة شيامن البحرية؛ سيؤكدون من أنا، من فضلك".

تم توجيه أيانا للانتظار. جلست على كرسي وساقها ضعيفة وهي جائمة لا تتحرك. في تحدٍّ للتوقعات البيروقراطية التي تستغرق عادةً وقتًا طويلًا، تمّ التحقق من دور أيانا بصفتها السليلة في ست ساعات قياسية. كانت قد تقدّمت ببلاغ للشرطة، وقد أخذ المسؤول الصغير على عاتقه أن يلقي لها محاضرة عن مخاطر ترك قاعدتها الدراسية دون إبلاغ مضيفيها، حتى لو كان ذلك لقضاء عطلة.

شهم!

قام بوعظها. كان واجبها الوحيد أن تدرس، هذا ما أخبرها به كلّما حاولت أن تفتح فمها لتتكلّم. خفضت أيانا رأسها ولم تُجب. كانت فقط بحاجة إلى أن تغادر تركيا. كان الوقت بطيئًا. تسارع قلبها وآلمها. كان الشك. كانت بحاجة إلى مكانٍ لتنام فيه، ولم تكن تملك النقود. تنهّد المسؤول معبّرًا عن انزعاجه، كان ليرميها خارجًا لو لم تكن ضيفة بلده. حسنًا، لم يكن أمامها خيار سوى أن تتدبّر أمرها بمخزن المكتب وسرير قابل للطي.

مرت ست ساعات أخرى. تمّ استدعاء أيانا، التي كانت نائمة بشكل جيد على الرغم من البرد، إلى زاوية في المكتب الرئيسي لإصدار تصريح سفر طارئ مؤقت. تم استرداد تذكرة عودتها من شركة حجوزات الطيران وتغييرها. كانت أيانا متّسخة وجائعة ومنهكة،

ولكنها كانت مبتهجة في رحلة العودة إلى شيامن في ذلك المساء.

[79]

في دائرة الأمتعة بمطار شيامن الدولي، ظهرت أغراض أيانا التي راقبت حقائب أشخاص آخرين تظهر بأشكال وألوان متنوعة. كان تصميم عصر الفضاء في المطار يبعث إحساسًا بأنّ هوية المكان مخفية وقد يكون أيّ مكان في العالم. صالة الوصول. على يسار المقهى، نشر التلفزيون أخبارًا عن الإفراج عن الصحفي غاو يو قبل العودة إلى برامجه العادية، والتي كشفت عن صورة أذرع متعرجة حول عجلة فخارية، تصنع سفينة.

شاهدت أيانا بثبات ظهور وعاء فخاري ممدود. انتقال الفصول على الشاشة: المد والجزر والقمح والسماء والأشجار المزهرة والسحب والغبار، ثم العودة إلى الخزاف وسفينته. ثمّ كسرت يداه القدر الذي صنعه، وتراجعت أيانا. اندفعت بين نهر من الواصلين يدفعون عربات الأمتعة إلى مساء شيامن.

في الخارج، نباتات شرق أفريقيا المنفية -تفتحت الأشجار المشتعلة في شيامن إلى أزهارٍ حمراء، وفي أواخر الضوء بدت مثل الفوانيس العملاقة. الخط المتلألئ البعيد للبحر الجنوبي، وداخل أيانا إحساس غريب بالوصول. تذكرت أنها بحاجة لشراء هاتف جديد.

في وقت لاحق، داخل غرفة نزلها، اتصلت أيانا بمنيرة. حين سمعت ذلك الصوت الحبيب فجأة، همست "أمّي" -تذوق الكلمات -"كم أحبك".

وتصدّع صوتها. قالت منيرة، "ما الأمر يا حبيبتي؟"

مسحت أيانا دموعها. لم تستطع الاستمرار. "أمّاه... مرّ وقت طويل".

صاحت منيرة: "يا ياسمينتي، يا طفلتي الوردية".

أغلقت أيانا عينيها وشعرت بألمٍ في جسدها، ومعرفته الجديدة. لقد كسرت نافذة جانبية لسرقة بعض الأسرار في عبادة الحياة. قالت منيرة، "لدي مفاجأة. يجب أن أخبرك عنها قريبًا".

توقفت. "من فضلك، صلي كثيرا من أجلي. ادعي لنا".

"محيي الدين؟".

شعرت أيانا فجأة بالرعب.

"من؟ هو؟ إنّه يزداد سمنةً يومًا بعد يوم". ضحكت منيرة. "يجب ان تستمعي إليه. لديه نظرية حول كل شيء، الآن وقد بات قبطانًا لسفينته".

"كيف هي... المو-زمبيق؟"، لم تستطع أيانا نطق الكلمة جيدًا.

"إنّها جيدة بحقنا".

ضحكت منيرة. "أنتِ بخير يا صغيرة؟ كنتِ تستعدين للامتحانات؟ لهذا السبب كنتِ أكثر سكونًا؟ أخبرت والدكِ بهذا، ولكنّكِ تعرفينه. يتخيّل عقله المتاعب حيث لا توجد".

ضحكت منيرة. "كان متأكدًا أنّ وحوش البحر الصينيين أكلوكِ!".

لمست أيانا الهاتف إلى رأسها، وأعطت ابتسامة ساخرة. كان ذلك تقريبًا ما حدث.

محيي الدين. "أين هو؟".

"ذهب إلى بيت. اتصلي به هناك. لديك رقمه؟ كيف كانت الامتحانات؟".

الصمت داخل أيانا: إذا استطعت أن أجد مرة أخرى الإله الذي يحتوي على وحدة الوجود، بما في ذلك قصة هذه الصين، ربما أتعلم الصلاة مرة أخرى. أتمنى لو كنتِ في بيت، يا أمّي؛ سأعود لكِ إلى المنزل غدًا. التعلّم عن البحر يختلف تمامًا عن أن أكون في البحر. كان يجب أن أصبح تلميذة لمهدي. أعطيت جسدي لرجلٍ أخافه؛ كان يحاول ابتلاع روحي كاملةً. أنا لست صينية يا أمّي، ولن أكون أبدًا. قلبي ينجرف في مياهٍ لا اسم لها. وأنا خائفة من الظلال.

"أنا بخير يا أمّي"، أجابت أيانا.

"الله كريم"، قالت منيرة.

ثمّ قالت أيانا: "أمّاه، هل تغنين بالموزمبيقية؟".

"ليس بعد".

"هل يمكنكِ أن تغني الآن؟".

ضحكة عالية، ثمّ غنّت منيرة.

"نعم، هذه الأغنية".

تمسكت أيانا بالهاتف جيدًا، كان ذلك أفضل لسماع صوت والدتها.

كانت أيانا بحاجة إلى جواز سفر جديد. سحبت المال من حسابها واشترت تذكرة من الدرجة الثانية من شيامن إلى بكين، وتطلعت إلى النوم طوال الليل على متن الطائرة. من محطة سكة حديد بكين الجنوبية، توجهت إلى السفارة الكينية.

عندما رأت اللون الأحمر والأخضر والأسود والأبيض للعلم الكيني، كان عليها أن تنتظر حدوث نوبة من توق عاطفي غير متوقع. داخل السفارة، أثناء معالجة طلبها الجديد، انغمست في نوبة من التحدث باللغة وشربت الكيتيبا مع دقيق الأرز المنديزي، تصفّحت الجرائد الكينية -قرأت عن الخداع المعتاد من قبل السياسيين الكينيين بعاطفة متساهلة.

كانت راغبة بالبقاء بالقرب من حصن السفارة، وقررت أيانا الذهاب للتسوق لشراء الملابس. توقفت عند السينما. كان الفيلم واحدًا من أولئك الذين أظهروا إمبراطورًا كبيرًا في أردية مشرقة يقع في حب صوت العندليب لفتاة فلاحة عمياء، غنت وهي تميل إلى حقولها الضئيلة. بكت أيانا في كل مكان. في فترة ما بعد الظهر، علمت أن السفارة ستحضر جواز سفرها الجديد بعد واحد وعشرين يومًا. أمضت ليلة واحدة أخرى في بكين – كان هناك غرفة في فندق متاحة بستة عشر دولارًا.

في اليوم التالي، كانت أيانا في قطار العودة إلى شيامن. كان بيت الشباب الجامعي لا يزال فارغًا في الغالب. كانت بداية فصل الخريف على بعد تسعة أيام. غاب عن أيانا التناغم المزعج لموسيقى البوب في العديد من الدول التي تتدفق من غرف مختلفة. لوقت طويل، قامت بترتيب وإعادة ترتيب كتبها.

في تلك الليلة، اختارت كتابًا من رفها لقراءته: كتاب الحرباء. نامت مع الكتاب بجانبها.

صباح طازج. هواء نقي.

أثناء ركوبها دراجتها، توقفت أيانا لإعجابها بلون الصدأ الجديد على متن سفينة التدريب الجامعي، حيث ستقوم بعملها العملي في الفصل الدراسي الجديد، وفكرت أنها تستطيع تسريع دروسها، والحصول على المزيد من الفصول، وإكمال نهائياتها في وقت مبكر من العام وترك الصين في أقرب وقت ممكن.

راضية، أمضت اليوم التالي في لف شعرها إلى الضفائر، وجلست على سريرها، ساقًا فوق الأخرى، وعقلها فارغ من التفكير. أضافت حبات مرجانية لأقفالها. كانت لا تزال مضطربة، أمضت اليوم التالي تتبع عبارة بسم الله وتعيد كتابتها، باستخدام خط الثلث، لتجد صوتًا في لحن العود القديم للاجئين. ثم بكت أيانا.

بعد يومين، لم تكن تبحث عن أي شيء حقًا، ولكن حيث تناولت غداءها أثناء قراءة إحدى الصحف، رأت أيانا مُدرجًا مع صورة بصمة الإبهام لطباعة زاو وو كي التي لديها الآن. ارتعشت عيدانها على الطاولة. بحثت في النص، الذي أعلن عن عرض زاو وو كي بأثر رجعي في معرض شنغهاي. تفحّصت الجداول، وجدت أن القطار سيغادر محطة شيامن الشمالية في الساعة 09:34 من اليوم التالي.

إذا حصلت على تذكرة، فستصل إلى شنغهاي هونغ تشياو في الساعة 17:42. شنغهاي، مثل معظم المدن الكبرى في البلاد، لم تنم. تجولت أيانا صعودًا ونزولًا إلى المعرض، وكان وجهها يتجه كثيرًا نحو الماء. حجب الضباب الدخاني رؤية واضحة للمدينة على الجانب الآخر، مما أعطى الصروح لمعانًا للحلم.

كانت أيانا قد لاحظت وجود سكن داخلي يقع على بعد محطة واحدة بعد محطة شغهاي الرئيسية؛ ستقضي الليلة هناك. دخلت شارع شرق زونغشان ووقعت في معرض شنغهاي للفنون. وكانت هناك أعمال زاو ووكي. كان عليها أن تتوقف لمنع نفسها من الانهيار. اندفاع العاطفة. استقرت على مقعد، تحدّق وتتذكر.

بدت الحياة ممتدة إلى ما لا نهاية على متن السفينة. شعرت بالسحر. نهضت لتغمر نفسها في لوحة زاو وو كي 4.4.85 ، 1985. زيت على قماش. لوحة حزينة.

"ماذا ترين؟"، سألها.

صدى الصوت، ربما أجابته الآن. "قصة على سطح البحر، 2004، لوحة زيتية، زاو وو كي".

جلست أيانا أمام كل طبعة أو لوحة حتى نفدت أحلامها. كانت آخر شخصٍ من الجمهور يغادر المعرض. في وقت لاحق من ذلك المساء، في مدينة مليئة بالحركة، انضمت أيانا إلى نهر من النفوس. تدفقت معهم بطريقة واحدة ثم أخرى، حشرت من قبل عدد متزايد من السكان.

تجولت إلى الأمام، منتمية إلى العدم الذي لا يفكر، محاولة تذكر البحر، البحر فقط.
عادت إلى المعرض في اليوم التالي وبقيت هناك حتى حان الوقت للعودة بالقطار إلى شيامن.

كان بزوغ فجر مشرقًا في بداية الفصل الدراسي الجديد. ملأ سيل من الطلاب وأصواتهم المساحة. رأت شين شين -شالوم -أيانا في الضفائر وهتفت: "تبدين بالضبط كما لو أنّك من التيبيت".

أخذت عدة صور شخصية مع أيانا.

وقفت أيانا لتلتقط الصور. كانت تنوي التأكيد على هويتها الإفريقية.

[80]

ركضت أيانا من صفّ حصّة الإيكولوجيا البحرية، متجهة إلى غرفتها. قفزت فوق دلو وكادت تنزلق قبل أن تتوقف أمام حقيبتين ورديتين جديدتين رأتهما خارج بابها. تفاجأت. كانت تأمل أن تأخذ قيلولة قبل أن تتوجه إلى دروسها الليلية. كانت تعرف أن الحقائب تحمل كل الأشياء التي تركتها في اسطنبول.

عاد كوراي.

نظرت حولها قبل دفع الحقيبتين إلى الغرفة كما لو أنّهما كانتا قنابل يدوية. حدقت بهما قبل أن تخطو خارج الغرفة. هربت إلى المكتبة حيث تمّ تطبيق قاعدة "الصمت التامّ" بشكل صارم.

"أيانا"، وجدها كوراي في طابور الفطور في أحد الصباحات المبكرة.

همسٌ مكثّف.

"أحسنتِ، لقد أثرتِ غضب أمّي".

كان يتذمّر، وعيناه تتقدان غضبًا.

"كيف رحلتِ؟".

كان هناك الكثير من الغضب المكبوت في السؤال.

ضحكت أيانا لكي تثير غضب كوراي، وتسخر من نفسها.

"لقد فتّشتُ عنكِ في كلّ مكان، هل يمكنك أن تتخيلي العار الذي شعرتُ به؟".

"لا"، أجابته، ثمّ أضافت بعض حبات القريدس إلى طبقها.

صوته في أذنها. رعشة. شهوة.

"نحن مخطوبان يا حبيبتي".

حافظت على هدوئها.

"لا لسنا كذلك... يا حبيبي".

عيناه: وحيدتان، طامعتان، قلقتان.

انحنى كوراي ليهمس: الحياة حرب. نحن ندفع ثمن انتصاراتنا مقدمًا. لهذا نملك مستقبلنا. نحن لا نفشل".

استدارت أيانا لكي تملأ كوبًا بشاي الياسمين.

استمرّ بالكلام: "أنا أختارك. تعلّمي أن تعجبي بالأمر، لأنّك ستتعايشين معه، سواءً أعجبكِ أم لم يعجبك".

في دفء الغرفة الرهيب، أرادت أيانا أن تعوي. قال كوراي خلفها، "قد ترغبين في اتخاذ خطوة إلى الأمام، يا حبيبتي. أنت تعطلين الطابور".

وضعت أيانا صينيتها جانبًا وخرجت من قاعة الطعام.

غادرت أيانا إلى غرفتها، حيث أغلقت على نفسها، للذهاب إلى مقعدها المطلّ على البركة والاستماع إلى الليل. شعرت أنّ المكان غير مأهول ولكنّه كان آمنًا.

سكون. نسيم ناعم ومالح.

"كوراي عاد"، تمتمت.

لم تكن سعيدة ولا حزينة.

هذا الظلام. تلك الليلة. الأفكار الدامية: إغواء الاستسلام والنسيان والخدر. ولكن بعد ذلك وصلها صوت مألوف من المياه البعيدة. صرخة الجن في الليل. همسات المياه المالحة الأخرى، عاجلة ومشوهة.

بعد ثلاثة أيام، دقت صفارات الإنذار. لقد حوّل إعصار كان يتدفق بالقرب من تايوان اتجاهه وكان يتجه مباشرة إلى فوجيان. في وقت واحد، أفرغت الشوارع والمباني

المحظورة وغطت الأمطار المكان وساد أنين الرياح. تسللت أيانا إلى غرفة تخزين في الجزء العلوي من المبنى لتشاهد كيف يبدو الإعصار. استمعت إلى الرياح التي بلغت سرعتها مئة كيلومتر في الساعة تصرخ. شاهدت واحدة من أكبر الأشجار تتدحرج عبر الشارع الرئيسي كما لو كانت من الورق المقوى، وانزلقت نحو مشهد الأمواج العملاقة التي تخترق جدران البحر. وصلت المياه للجادة. الجن كان يزأر: من أنتِظر.

مبتهجة بشكل غريب، استمعت إلى ازدهار الحياة في أشدها. تحطمت بعض نوافذ المبنى المواجهة للبحر في سمفونية رعشة. لكن الإعصار كان استدعاء. لو كانت فندي مهدي، لكانت تعرف كيف تقرأه.

Udongo utakuita.

سوف يستدعيك الطين.

[81]

كان يحوّل حياته إلى شعيرة دينية محمّلة بالطين. سافر مع الأشباح -زوجته المأكولة بالنار، وسفينته المأكولة بالنار، والمخلوقة البحرية، أيانا، التي طافت في اضطراب كل أحلامه الآن، والذي تلاقى فيها البحر والسفينة والزوجة.

حوّل قصته إلى الماء والتربة، وهو يسحب ويحرّك يديه حول العجلة. يداه كجناحين، مثل الطيور الصغيرة في بداية تعلمها الطيران، والاستماع، ورمي الطين. مقاطع، تحوّلت، وأصبح مزهرية مقلوبة، طبق متشقّق، ووعاء مخدوش.

[82]

كانت هذه أرض غير متأثرة بكوارث البحر.

بعد الإعصار، العودة إلى الروتين.

لم تكن المدرسة استثناء.

طقطقة الآلات وأدوات تعلم الطلاب وإعادة البناء واختبار الأجزاء المعدنية. النفط والوقود ورائحة النار الكامنة. كانت سفينة التدريب في البحر. انضم كوراي إلى أيانا في غرفة المحرك، حيث تدربت، وقد وضعت سدادات أذن في أذنيها، ونظارات واقية فوق عينيها.

كانت مستلقية على ظهرها، مرتدية ملابس زرقاء، تقوم بفحص الأنابيب كجزء من التمرين. قربها، كانت جمع الكابلات والأدوات تلمع. وبينما كانت تمسك برغيًا بين أسنانها وتنظف فجوة، كان وجه كوراي يلوح فوقها. كان كئيبًا، والحذر ظاهر في عينيه المقنعين. أشار لها. فتح فمه وأغلقه.

"ماذا؟". كانت فظّة.

أشار إلى الخارج.

"أخبار"، كان يتكلم فوقها.

"ماذا؟"، قالت وهي تضغط على مقبض بمفتاح ربط. أشار إلى ساعته. "عليك أن تأتي الآن". ثم كتب العبارة على ورقة ووضعها على وجهها. استمرّت أيانا بمعاينة الأنابيب.

أضاف بالحبر الأزرق: "المكتب الإداري يقول إن الأمر عاجل".

"كوراي... "، بدأت بالحديث. وأضاف: "أرسلوني لآتي بك". سحبت نفسها من تحت الآلة. شممت رائحة الديزل والنفط. أزالت معدات الحماية ومسحت يديها المتسختين بقطعة قماش بنية دهنية.

تسارعت خطواتهما على طول الممر. بعد أن أصبحا على مسافة من الضوضاء، سألته: "ما الأمر؟".

كان صوتها قاسيًا.

قال كوراي، "تعالي معي يا عزيزتي. هل لديك هاتفك؟".

نظرت إليه وبدأت في التهدج. قامت بتعديل ملابسها. صمتت فجأة. مدّ لها كوراي ذراعه. لم تتفاعل. دخلا إلى عالم شيامن، هواءه المليء بالمطر، مزيج من الزهور والتوابل غير المرئية. خلقت الرياح تموجات على الماء، وحرّكت أوراق الشجر. قفز قلب أيانا إلى ضلوعها.

كان محيي الدين.

[83]

مفتونًا بحياته الجديدة، ومسحورًا بثروته من مالٍ وأسرة التي راحت تتزايد، وفي حبّه المستجد للوجود، شعر محيي الدين بأنّه لا يُقهر. كان قد أخذ إجازة من عمله في بمبا ليعود مبتهجًا إلى جزيرة بيت. هناك أشياء للقيام بها. كان ينوي إقناع المهدي بالعودة معه إلى بمبا وإقامة ساحة لبناء وإصلاح القوارب هناك. أراد تكليفه بصنع قارب لزوجته. كما أراد أن يفاجئها بإصلاح وإعادة طلاء منزليهما. مع وضع هذا في الاعتبار، وصل إلى بيت مع ثلاثة

عمال من بمبا وموامباسا.

كانت هناك تفاصيل جمعتها أيانا لاحقًا حين ذهبت من شخصٍ إلى آخر في جزيرة بيت لتسأل سكّان الجزيرة ما كان آخر ما سمعوه أو عرفوه عن محيي الدين قبل اختفائه.

كان محيي الدين قد أعلن: "سيُعرف هذا المجال مرة أخرى".

وزّع بعض كتبه القديمة على المدرسة. كان يضايق البحارة وقال إنهم بحاجة إلى تنويع أعمالهم: كان هناك مهاجرون من أوروبا يبحثون عن طرق غير معقدة للدخول إلى موزمبيق وأنغولا عن طريق البحر من عمان، حيث كانوا ينتظرون. كانوا يدفعون باليورو مقدمًا. استمع إليه الشباب وطلبوا اتصالات مع هؤلاء المهاجرين. كان يشرف على إصلاحات المنزل في النهار، وعرض عملًا إضافيًا للعاطلين عن العمل منذ فترة طويلة. قام بالمضايقة والتخويف والتعليم والضحك وذبح ماعز، من أجل شعوره بالامتنان ومشاركة فضله. كان قد أدار المزيد من أعشابه ومقوياته، بما في ذلك القليل الذي حصل عليه في موزمبيق. أعاد ترميم زاويته في الجلسات المسائية، وروى للرجال قصصًا عن الحياة في الموزمبيق، وعن العمل كقبطان بحري على متن سفن التنقيب عن النفط. وقد أثنى على الأعجوبة التي هي زوجته منيرة.

كان حذيفة يخبر أيانا أنّ "محيي الدين كان يشع بفرح الجنة. لم يعد لديه أحد ليكرهه بعد الآن".

كان الخياط يقول لأيانا: "والدك نزل علينا مثل الشمس".

تذكرت دورا، زميلة أيانا السابقة، المتزوجة الآن والأمّ لثلاثة أطفال، محاولات محيي الدين لتهدئة ماما سليمان ومواساتها في عزلتها.

"آمنة، ابنك يظهر عبر هوتوب". كان يقصد أن يقول "يوتيوب".

"لديه لحية طويلة وسميكة. يرتدي غطاء رأس أسود. متقدّم جدًا. الكثير من الرجال يرتدون أغطية الرأس في هذه الأيام. كان يحمل قاذفة قنابل لوحده. لقد أصبح رجلًا قويًا. تسبب صوته في رفع الراية السوداء التي يمسك بها. ابنك طموح، يا آمنة. إنه يعمل من أجل الخلافة. إنه يشملنا هنا. يدعوننا الآن بالكفار، وهو أمر صادق، فمن هنا بلا خطيئة؟ الشيء الجيد هو أنه يقول إنه سيعود إلينا كنار مستعرة. أظن أنه مصاب ببعض الحماسة الأجنبية. لكن بيت مكان قديم. عندما يعود، سنهدئه".

كانت ماما سليمان تئن وتئن وتنتحب، هذا ما أخبرت به دورا أيانا وعيناها تلمعان. بدا محيي الدين مرتبكًا. أشار وسأل، "هل قلت أي شيء خاطئ؟ أخبرتها أنه سيعود إلى المنزل. هنا، ألا تريد أن ترى؟". لقد ضغط على الأزرار على هاتفه للوصول إلى الإنترنت. فشل في فتح الرابط.

أمضى محيي الدين معظم وقته على الجزيرة أيضًا مع فندي مهدي، الذي انضمّ إلى مؤسسته مزاي كيتوانا الرشيق، الذي ركّز على نقش الرموز على القوارب ورتق الأشرعة بصمت على مرأى ومسمع من البحر. نمت مؤسسة إصلاح السفن بشكل مطرد على مدى السنوات الثلاث الماضية.

أصبح مهدي ومزاي كيتوانا متشابكين، كشريكين في صنع القوارب. وفي صمتهما المشترك، وجدا شيئًا من الرفقة بين بعضهما البعض. استمعا إلى أخبار المد والجزر معًا. سارا وعملا وأكلا معًا. ثم قام مزاي كيتوانا ببناء سقيفة بالقرب من مهدي. لقد فهم محيي الدين في الحال أن مهدي لن يذهب إلى أي مكان من دون مزاي كيتوانا، لكن الأخير لم يكن مهتمًا بمغادرة بيت.

في البداية، جلس محيي الدين معهما ليحاول أن يغيّر رأييهما. ولكن بعدها، بدأ يستمتع بقضاء الوقت معهما، في موسمٍ مليءٍ بيعاسيب أكتوبر. كان يتحدّث عن فخره بالتقدّم الذي تسجّله أيانا في الصين. طلب من مزاي كيتوانا أن يعلّمه بضع كلماتٍ باللغة المندرينية ليفاجئ أيانا بها. قال لمهدي أيضًا إنّه يختبر التسامح.

"كيف؟"، سأله مهدي، وقد أثار الأمر اهتمامه علّه يقول هو أيضًا بذلك.

كان محيي الدين قد نقر على أنفه وعيناه متلألئتان. وقال إن معجزة ستظهر نفسها عند عودته المرة القادمة إلى بيت. "تحدثنا عن زرياب وعن غيابه "، قال مهدي مرّةً لأيانا. "ثمّ تحدثنا عن البحر".

كانت عيناه تصبحان بعيدتين حين يتحدّث، ليس عن الذكريات، بل عن البحر.

بعد ذلك بصباحين، جاء محيي الدين إلى الرجلين بعينين حمراوين، شعره غير ممشّط، وللمرة الأولى في أيامه الجديدة على بيت، لم يبتسم. لقد غمر نفسه بالصمت. بعد نحو ساعة، قال، "جاءني ابني زرياب في المنام. أينما كان، فأموره ليست على ما يرام".

في الحلم، كان مهدي يتذكر أنّ محيي الدين قال له إنّ زرياب ظهر له على سرير معدني

في غرفة صغيرة مغمورة بضوء شديد، حتى رأى محيي الدين أن جسده كله أصبح جرحًا. شمّ محيي الدين رائحة القيح الخضراء القاتلة في قلب زرياب البطيء. تمزّق، قال له زرياب، "يا أبي، من الجيّد أنّك أتيت. أنا احتضر". قال محيي الدين إنّه هزّ ابنه، وصفعه مستيقظًا. "لا!"، أمره.

ثمّ أشار زرياب. "انظر إلى قلبي. إنّه يتعفن".

صاح محيي الدين: "هل تحتاج إلى قلب؟ خذ قلبي إذن. إنّه كبير ويكفيك".

وفي الحلم، مزق قلبه ودفعه إلى زرياب، ولم يتركه حتى بدأ ذلك القلب ينبض داخل جسد زرياب. "وأنت يا أبي وأنت؟"، ويبدو أن زرياب تمسك به. قال محيي الدين لمهدي إنه أبلغ زرياب أنه بما أنّه حمل قلبه الآن، سيضطر إلى العيش من أجله أيضًا.

سأل محيي الدين مهدي ومزاي كيتوانا، "ماذا يعني هذا الحلم؟".

ثمّ تحول المزاج إلى كآبة.

"هذا الحلم أصابنا نحن أيضًا"، قال مهدي لأيانا.

وليطمئن الرجال أنفسهم، تحدثوا عن البحر. تحدثوا عن القوارب والأسماك والتيارات والمد والجزر. تحدث محيي الدين عن البطيخ الذي كان يعرفه. ولأنه كان بحاجة إلى التحدث، فقد تحدث أيضًا عن الوقت الذي كان فيه "عبدًا" وكيف أنقذه البحر.

استدعى المؤذنون صلاة الظهر. تقف الرجال الثلاثة ليصلوا على طريقتهم. وبعد الصمت، قال محيي الدين: "البحر حكاية قديمة".

"إنّها أغنية"، قال مهدي.

"صحيح"، قال محيي الدين، ولقد سمعت الكثير من الأغاني. هناك واحدة تحمل عبق رائحة الحامض والعسل. لقد تذوّقتها".

أجابه مهدي: "وأنا كذلك".

سأل مزاي كيتوانا الذي كان يستمع إلى الحديث: "كيف يتذوّق المرء هذا الشيء؟".

"إنّه يجدك في البحر"، قال مهدي.

ثمّ سأل محيي الدين مهدي إن كان بإمكانه أن يبني قاربًا ليسميه باسم منيرة. قال محيي الدين إنّه سيدفع ثمن القارب مقدمًا. وأشار مهدي في أحد الأيام لأيانا إلى القارب الذي كان لا يزال يبنيه.

وتذكّر مهدي كيف كانا قد تحدّثا عن كينيا، ولماذا حين تقدّمت البلاد خطوتين، تراجعت أيضًا ثماني خطوات.

تحدث محيي الدين عن بمبا والموزمبيق، عن الشعب. قال: "انظر إليّ كم أصبحت عصريًا".

أصرّ مزاي كيتوانا: "كِيف يمكن للمرء أن يتذوق أغنية البحر هذه؟".

الصمت.

كانت الثريا زرقاء مضيئة بشكل خاص في ذلك المساء. نظر الرجال إليهم. توسّل مزاي كيتوانا مرة أخرى، "هل سأعرف البحر وأغنيته التي برائحة الحامض؟".

ثم قال محيي الدين: "سوف آخذك إلى مكان في الماء حيث نصبت الأغنية لي كمينًا. ولكن لا يمكنني ضمان ظهورها".

بعد ذلك بصباحين مبكرين، أبحر مزاي كيتوانا ومحيي الدين على متن قارب أعيد تأهيله. لم يفكر أحد بالقلق بشأنهما إلا بعد مرور أربعة أيام وتوقف إشاراتي هاتفيهما. قال الصيادون المارون إنه قبل يومين، غطت الفسفورية الزرقاء المياه الليلية ووجهت رسائل لا يمكن فهمه، ولكن لم يكن هناك أيّ خبر عن محيي الدين ومزاي كيتوانا. لا شيء. خرجت قافلة للبحث. في اليوم السادس، قامت فندي المازي مهدي بنفسه بمهمة محزنة كانت الاتصال بمنيرة لإخبارها بأن محيي الدين لم يعد من البحر.

بعد أن سمعت الأخبار، انتظرت منيرة يومًا واحدًا قبل أن تتصل بجامعة أيانا. توسلت السلطات أن يضمنوا لها وجود شخصٍ ما قرب أيانا حين يقومون بإيصال الرسالة لها. أدرجت الجامعة التي نادرًا ما خفيت عنها الأسرار كوراي كالشخص الذي سيساعد في هذه المهمة.

في غرفة مستطيلة ذات زاوية صلبة، ومليئة بالملفات الخضراء على الرفوف ورائحة لحم الخنزير الذي تمّ أكله للتو، سقط الضوء ذهبيًا وناعمًا على وجه كوراي، وهو يرتدي وجه مقدم الرسالة، مما يجعل شفتيه تتوهجان باللون الوردي. اختبرت أيانا حساسية هذه الثقافة، كيف أعاد الناس تشكيل أجسادهم لنقل الأخبار السيئة. مظهر شكلي يحتوي على الجوهر المناسب للعاطفة، الانحناءة اللطيفة، الصوت المعطاء تقريبًا الذي ألقى تقريرًا مقتضبًا من دون تعبيرات لطيفة، وقفة حتى تتمكن الأخبار من ملء الفراغ، هذه الانحناءة اللطيفة مرة أخرى.

لذا حينها، على الرغم من أنها كانت تفضل أن ترمي نفسها من النافذة هربًا من النفوس المليئة بالحيوية، -تمزق، -شعرت بشيءٍ بشع ينفجر فيها جسديًا، على الرغم من أنها ربما تكون قد مزقت شعرها لتخفيف الضغط على رأسها، لم تستطع. تلك الإيماءة اللطيفة. وهنا كان كوراي، صخرة، مع ذراعيه حولها في حال عدم رغبتها في التفكير أو التحرك أو التخطيط. طفت الظلال مثل أشباح قرمزية مبتهجة لرؤيتها. ولكن بعد أن انتهى الرسول بكلماته الرقيقة، وعبر عن حزنها الشديد لألمها، جرّت أيانا نفسها بعيدًا عن كوراي. تمتمت، "شكرًا لك. لكن والدي هو المحيط. لذلك هو لا يغرق. إنه موجة. هو أيضًا المد. سيعود".

كل يوم، تحدّثت أيانا مع منيرة. في البداية، استمعتا إلى صمت إحداهما الأخرى.

سألتها أيانا: "هل عاد؟".

"ليس بعد يا لولو".

صمت.

ثمّ قالت منيرة: "لقد طلبنا الرحمة من البحر وآلهته".

في مساء يوم جمعة، قالت أيانا لكوراي، الذي كان يقف قربها: "سوف أتحدث مع الماء".

كان كوراي يحدّثها. لم تكن تستمع إليه، وخلف الكلمات العشوائية: "شلل عاطفي... وهم... غياب المنطق". راقب فمه يتحرّك. "اقبلي... القدر... استسلمي للحياة".

شعرت أيانا بأنها تطفو بعيدًا، مثل الضوء ومثل الزغب، تغادر الغرفة، تأخذ المصعد والسلالم، تخرج من الباب الرئيسي، ألم خفيف في بطنها، تجوف في القلب، لدغ في البطن، ضباب في الرأس. لكن كلما مشيت أكثر، شعرت أن البحر يقترب منها، وإذا كان البحر قريبًا منها، كان محيي الدين كذلك. زار. صرخة تذمر يطلقها الجن في الليل. لم تستطع عدم سماعها.

تحت ماء عالمها، بحثت عن وجه محيي الدين. "أين أنت؟"، تنفس.

حزن. لوحات من ظلال الحياة.

الطوبولوجيا: مؤلمة، حزينة، مريرة. حزن، جرح، انفصال، معاناة. عندما اتصلت منيرة في الليلة التالية، وسمعتها أيانا، أنّت أيانا حتى اضطر المقربون منها إلى الضغط على

الهاتف وسحبه من يدها.

عوالم التجوال بدون خريطة.

هنا لم تستطع أن تبكي في لغة والدتها.

تجمّد الانتظار في نخاعها وأليافها ومسامها، ثم كانت هناك همسات أخرى سمعتها من البحر، وأخفتها عن مراقبيها بأن زيّفت ابتسامتها واجتهدت في عملها.

كانت محاطة بالنوايا الحسنة، التي يشرف عليها كوراي الذي ارتدى دوره كـ "وصيّ أمين" في حياتها، كغطاء غامق وثقيل. كرهت أيانا الكلمات، إذ أنّها لم تساعد في العثور على محيي الدين. كان من حولها يتظاهرون بأنّهم يستطيعون فهم شعورها لعدم وجود والدها.

محيي الدين.

أحيانًا قالت أيانا اسمه فحسب. يوم أمس، غنّى الجنّ لها. أخبروها أنها يجب أن تعتاد على الاختفاء الآن. أخبرتهم أن الغيابات متقلبة، تعلّق أنفسها على أشخاص مختلفين بطرق مختلفة. توقفت أيانا عن الأكل. أصابها الجفاف. لذا أرسلوا طبيبًا، رجلًا قصير القامة، يرتدي نظارة طبية، تحدث إلى أيانا بلغة الماندرين الناعمة والإنجليزية الضعيفة، وضحك على نكاته الغامضة. اعتقد أنها تريد أن تغرق نفسها. واحتجت أيانا "لا، لا". "أنا فقط بحاجة للتحدث مع الماء".

غادر الطبيب. في وقت لاحق، حضرت ممرضة إلى غرفة أيانا بخط منتجات ترطيب. لتثبت أنها كانت في صوابها الصحيح، سمحت أيانا للمرأة بإدخالها في معصمها. اختلط المنتج مع دواء من شأنه أن ينيّمها. استيقظت أيانا بعد اثنتين وثلاثين ساعة، رأسها خفيف. كان العالم يميل أكثر، ولم تعد مرتبطة بمنتجات الترطيب، وكان الحزن أعمق، وخفتت همهمتها، كما لو أنّها كانت تبكي في سرها.

أرسلت سفارة كينيا أيانا جواز سفرها الجديد بالبريد المسجل. واعتبرتها علامة على عودة محيي الدين إلى المنزل قريبًا.

[84]

وصل طرد متوسط الحجم لأيانا. تفحصته. كان عنوان الإرجاع بلغة الماندرين، وهو مكان لم تسمع به: بو فو، جزيرة شنغسي، خليج هانغتشو، تشوشان.

أرخبيل.

فتحت الطرد بعناية. مزهرية مطلية بالورنيش الأسود على شكل دمعة كبيرة -مع كسر زجاج البحر الأحمر والأخضر والعنبر. خلقت الصور والدوامات والطيور منظرًا ثلاثي الأبعاد، وإيماءات ريشية تحترق بحيث تسابق مخلوق أسطوري مضروب بالنار تقريبًا خلال ليلة ورنيش مظلمة، والتي يبدو أنها تتحرك اعتمادًا على كيفية سقوط الضوء عليها.

انبعثت منه رائحة غامضة من الياسمين المتفتح ليلًا، كما لو كان هذا الجوهر متشابكًا مع الطين. ملأت المزهرية يدي أيانا بدائريتها الناعمة. زار كوراي غرفة أيانا ظهرًا ووجدتها تفكر بالمزهرية بين يديها. قال: "هذه مختلفة".

رفعت أيانا المزهرية إلى وجهها. سألها: "ما هذه؟".

تجاهلته.

"ما علاقة هذا الشيء بالسليلة؟"، سأل كوراي. "دعيني أرى؟ من أرسلها لك؟ "، أمسك المزهرية من أيانا ورفعها إلى النور. أولئك الذين عرفوا ما الذي يبحثون عنه كانوا سيعرفون هذا العمل الخزفي المعاصر للخزاف المنعزل الذي ظهر عمله كما لو كان من أي مكان، والذي كان يعرف باسم بو فو، مسرحية على عبارة "سفينة مكسورة". في المقابلات، أبقى الخزاف وجهه في الظل، قال إنه أشار إلى نفسه والعالم. نهضت أيانا لاستعادتها من كوراي.

مالت بها إلى الأعلى. قالت: "إنها جميلة". تابع كوراي: "أنت لم تخبريني أنكِ تحبين الفخار. لدينا مجموعة كبيرة في المنزل".

استدارت أيانا باتجاه كوراي. أرادت أن تخبره أن الرائحة الغامضة للياسمين الليلي المضمنة في إناء محفور يتم تلقيه عند الغسق في موسم الحزن تعني شيئًا. شاهدها وهي تتمسك بالمزهرية. عادت نظرته إلى المزهرية، ثم عادت إليها. أصابع أيانا تداعب المزهرية،

مداعبة، قبل أن تأخذها إلى رفها. ترك كوراي غرفتها في صمت.

وقع خطوات في ليلة سميكة وخفيفة، كما لو أن جن البحر غادر الماء للبحث عنها، وإذا لم يتمكنوا من الوصول إليها عن طريق الأغنية، فعلوا ذلك عن طريق الأحلام التي رددوا فيها أغنياتهم، حتى غمر الحزن وجهها بالدموع التي مسحتها عندما استيقظت.

أنباء من جزيرة بيت: لم يعد محيي الدين بعد.

أمطار: رعد عند منتصف الليل. قال المستشار إن أيانا خرجت من الصف في الساعة العاشرة صباحًا ونزلت درجًا طارئًا للعثور على بوابة شاطئ بيتشينغ والوصول إلى بحر تم حظرها مؤقتًا منه -من أجل سلامتها. ضغطت من خلال السياج واندفعت على طول طريق جانبي وعلى طول رصيف متعفن وتوقفت عند شاطئ صخري. انزلقت على الطحالب البحرية، والتقطت نفسها لتقفز من صخرة إلى صخرة حتى يمكن لرذاذ البحر أن يمتص جسدها وشعرها ويملأها.

ثم نظرت إلى المياه الرمادية، والأمواج المتكسرة، وشاهدت طائرًا كبيرًا ريشه ميت ينحسر مع تيارات ذلك الوقت من اليوم. فوق رأسها، تدور النوارس. مالت برأسها لمتابعة رقصهم، ودورانهم وعودتهم وتضاربهم. رفعت ذراعيها، ومدتهما فوق الماء. انتظرت وخزًا على طرف أصابعها، وهو ما يشير إلى أن محيي الدين سمع قلبها يصرخ إليه. لا شيء. لا شيء. عادت أيانا إلى الحرم الجامعي وهي تقطر بالماء، تجرّ معها تربة الشاطئ وارتعاشها والصمت.

في غرفتها، اتصلت أيانا بوالدتها. أجابت منيرة "لا" على سؤالها الذي لم تطرحه حتى.

قالت أيانا: "سمعت الجنّ ليل أمس".

أجابت منيرة بلهجة قاطعة: "لا تجيبهم".

وصل طرد آخر لأيانا عن طريق البريد. كان يحتوي على إناء أبيض مطلي باللون الأزرق الداكن يبدو أنه يمتد ليس فقط لمعالمه ولكن أيضًا له أبعاده. كان له تشطيب خشن جعل العروق تظهر على الجلد، لذلك عادت إليه أيانا كثيرًا، لفرك راحتيها وظهر يديها. رفعته للضغط على وجهها. كانت رائحته آتية من الأرض العميقة المظلمة.

[85]

تأرجح باب غرفة أيانا على مفاصلها، حركه نسيم سافر عبر الممر، بعد أن انقض من خلال نوافذ كبيرة مفتوحة. لم يكن هناك لصوص. أوقفتهم عواقب الجريمة في الحرم التي كانت الإعدام رميًا بالرصاص. كان الطرد هو ألطف جملة. لذلك كانت أيانا غير قلقة عندما دخلت إلى غرفتها المفتوحة في ذلك المساء. هبت الريح من خلال نافذتها المفتوحة. هل نسيت أن تغلق بابها؟

قطع. كلا مزهرياتها اللتان كانتا هدية.

كانت الشظايا في كومة ممزوجة على الأرض. كانت تعلم أن الريح لم تجمع الأجزاء المكسورة في كومة واحدة. غضبت حين رأت القطع هكذا. بدت الدموع المحبوسة بين قلبها وروحها وكأنها تنزف من خلال تنفسها الخشن.

هذيان. جنون. أبدًا! صرخت من قلبها عندما أفرغت حقيبتها المصنوعة من قماش الزيتون، وقلبت محتوياتها، وجمعت القطع المحطمة وصبتها. كدمت يديها وهي تفتش في سلة المهملات في خزانتها للحصول على العنوان الذي أرسلت منه الهديتان. كتبته، وكانت تحترق. استرجعت تلك العبوة ونقلت القطع المكسورة إليها. أمّنتها. في عينيها شعلة خطيرة. وحيدة، انطلقت قبل الفجر.

أمّنت أيانا حقيبة ظهرها وهي تمشي. داخل الحقيبة كانت مفكرة تحتوي على عنوان، وبعض الماء، وقطع مكسورة من المزهرية والإناء، ملابس داخلية، وقميص إضافي. سافرت، وكان يغذيها الغضب.

أبدًا!

وبينما كانت تقف في منصة محطة سكة حديد شيامن الشمالية في انتظار قطار رصاصي، لم يكن لديها خطة سوى العثور على الخزاف.

Kusi huleta mvua.

سوف تجلب الرياح الموسمية الجنوبية المطر.

[86]

في مسار شمالي شرقي، عبر قطار أيانا بين المناظر الطبيعية الواسعة، متجاوزًا مدينةً تلو الأخرى، مدنٌ كانت تشبه المدن التي سبق لها أن رأتها.

منظر من نافذة.

في المقدمة، توحّد في الإسمنت يقمع حتى السماء، مربعٌ تلو الآخر، سياج بعد سياج، وبينهم، الضباب والدخان. في الخلفية، سكون ضبابي، كما لو أنّه في الواقع، لم يتحرّك ولم يتغيّر شيء.

جلست أيانا على كرسي أحمر كبير داخل مستطيل سريع الحركة، مغلق من التضاريس. شعرت الآن أنّ لديها الوقت الآن للوصول إلى محيي الدين، يداها مسطحتان أمام نافذة قطار مغلقة، القطار مسرع يحدث صراخًا، وبين يديها حقيبة تحتوي على قطعٍ من الطين المكسور.

لمحة عن المحيط المتجزأ؛ كما لو أنّه أُخذ وتحطّم إلى قطع يمكن التحكم فيها. المنحدرات البنية، وقمم الجبال الرمادية. تحت هذه، مدينة أخرى، جسر آخر، منطقة أخرى، مكتوبة بأضواء شاشة مسطحة تضمّ كل سلع الوجود الإنساني. التهم زملاؤها الركاب طعامهم أثناء قراءة الكتب على هواتفهم، أو فصلوا أنفسهم عن كل شيء عبر سماعات الأذن.

الصوت الذي يخاطبهم كان هو الصوت الذي أعلن عن محطات التوقف واستعادة المسار وحذرهم من النزول من القطار المتحرك. من خلال النافذة، وجدت سربًا من الأوز البري. تابعتهم بنظرتها. شغلوها عن ملاحظة مدن حجرية جديدة. الوجهة تشجيانغ. مترو الأنفاق، ثم الحافلة.

اجتياز البحار والأنهار على الجسور الشاسعة، أيقونات الجنون البشري والعبقرية؛ الانكماش المتعمد للعالم، والدليل على ثقافة تشبه ثقافة العنكبوت وتنسج نفسها في عمق الأماكن والعوالم المتهالكة بالفعل.

بعد ثماني ساعات من مغادرتها شيامن، دخلت هانغتشو، تشجيانغ، التي كانت، على

الرغم من أنها لم تفكر في ذلك عندما انطلقت، على مرأى من نهر تشيانتانغ الزئبقي الذي لا جدوى منه، عرين التنين الفضي، أفضل تلك الموجات الانفرادية التي حملت المد والجزر.

الفورة المدية، تذكرت ذلك من دروسها، وهي تسير عبر الطرق، غافلة عن التحديق، متجهة إلى الجسر، في محاولة للتفكير وراء غضبها. وبينما كانت تنظر إلى الباغودا الخارجة من المساحات الخضراء في جبل يولن عبر الجسر، فقد أفسحت الطريق لبعض الدموع الهادئة.

تمسّكت بضوء النهار لكي يبقيها دافئة وربما يخفّف من وطأة شدة خسائرها. تبكي على المزهريات المكسورة؟ كادت تضحك على نفسها. تنفست بعمق.

محيي الدين.

سمحت للإحساس أن يسكنها، لكن اللدغة من غيابه كانت أقل شفقة بكثير مما كانت عليه في شيامن. وبينما كانت تنقل حقيبتها من كتف إلى آخر، كانت قطع المزهريات المكسورة تتداخل في الداخل، وكانت خطواتها طويلة.

سارعت للعثور على حافلة واستقلتها إلى مقاطعة تشجيانغ، لتستقل بعدها العبّارة التي ستنقلها إلى جزيرة تشينغسي، ومن هناك ستحاول أن تكتشف أي من الجزر الأربعمائة استضافت الخزاف الذي أرسل لها المزهريتين كهدية.

نزلت أيانا على منحدر رملي منقوع بأصداف بنية اللون، وأشياء دقيقة انهارت تحت خطاها. طافت بهدوء. حاملةً ظهرها على ظهرها، اتبعت مسار الثور المتاخم لحقول القمح الأخضر. لمع في المسافة إلى يسارها، خليج ضبابي. هبت رياح باردة عندما توقفت حتى تتسرب إليها رائحة البحر، وانغمست فيها.

توقفت لتلقط أنفاسها. مسحت المساحات الخضراء. رفعت وجهها، شعرت باتجاه الريح. ركضت عبر تلة صغيرة. تنفّست. تنفّست. استمر بالركض إلى الأسفل حتى وصلت إلى الرمال الرمادية اللؤلؤية السميكة، حيث وجدت آثار خطوات الأقدام وقطع الأعشاب البحرية. توقفت الرمال أمام رصيف مؤقت امتد على طول طريق قاتم ومحصن بمجموعة من الصخور وقفت عليها المنارة عالقة، مثل أسطورة منسية باهتة. حتى البحر البري التي كانت تحرسه في السابق بدا أنه انحسر وابتعد عنها بعد زلزال. كانت هذه وجهة أيانا. كان عليها أن تتمرّن على خطاب ستدلي به لشخصٍ غريب: المزهرية مكسورة. يرجى إصلاحها.

أستطيع الانتظار.

المساء. انقسمت الأمواج المتقطعة على شاطئ الحصى الأسود. ظهرت القوارب الصغيرة في بريق الماء البعيد. داخل المنارة التي تم إصلاحها تقريبًا، أرضية خشبية، صدف البحر على رفوف ناعمة. أطلّت النوافذ العالية المكسورة إلى الأفق والظلال على حافة الجرف.

خطوات أيانا الأولى عبر العتبة. عجلة الخزاف وطاولة طويلة. كان يجلس على مقعد منحني في الوسط. كان يشم رائحة ورودها قبل أن يراها واقفة عند مدخل منزله، وشعرها فوق جبهتها، عيناها الداكنتان عمّقتهما التجربة، وجعلتاها جميلة ومحمومة. بقي في مقعده، يحاول ألّا يستجيب.

خطوات بطيئة تجاهه. نظرت مرة أخرى. اندهشت أولًا، لكنّها لم تندهش أنّه كان هو. الخزاف. ربما كانت تعرف ذلك.

كان في صورة ظلية جزئية، على مستوى نظراته. انعكس ضوء الغسق على ملامحها. كانت آخر مرة رآها عندما سافر ليكون في حضرتها في الحدائق الليلية في شيامن. أخبر نفسه أنه جاء ليحمل لها أخبارًا عن ديلشكا. ولكن، كما في ذلك الحين، لم يقل شيئًا الآن. أسقطت حقيبتها. خطى عبر الأرضية. ارتعشت الآن. "أنا ... "، بدأت بالكلام.

اقتربت لترى ندوب الحروق على وجهه. عيناه المألوفتان الآن باتتا أعمق، وكأنه قد عانى مؤخرًا. كان الأرق. كان شعره أطول، ووزنه أقل. يداه مبللتان بالطين الرمادي. اقتربت منه أكثر. عاد إلى عمله بحركة بطيئة. "هل أنت بخير؟"، كانت كلماته ناعمة على لسانه. "بخير" -تلعثم -سحق الطين. راقبته مرتديًا مريلة ملطخة بالطين قد تكون أو لم تكن ذات لون بني. جدران مطلية باللون الأبيض. مالت برأسها على مطبوعتي زاو وو كي وسمعت المياه البعيدة.

من البحر إلى الطين، هذا ما فكرت به بينما كان ينسج الطين. وفي الخارج، انزلقت الأمواج على الصخور. استدارت لتقف على أصابع قدميها، وتلتقط الروائح: الأسماك ورخويات البحر والخيار، روث طيور النورس وعرق البحر. لفت نفسها بسترتها، شعرت بألم في بطنها.

يا للكلمات. "هذه. لقد انكسرت". أضافت: "لم أكسرها".

عندما وجدت نفسها على ركبتيها، حزينة، شعرت بالذعر. ماذا الآن؟ الدموع

الصاخبة تتراكم على الأرض. الكسور، الأسوار، هذه الشظايا. استمع لاي جين. ألقى الطين، ونسج العوالم والراحة بيديه. كانت هنا. لا يجب أن تكون هنا، لكنها كانت. نفحة الورود كانت الآن في أنفه، وعد الحياة الجديدة، مثل الحمضيات. كانت منارته القديمة مليئة برائحة الورود الخفيفة والبرية حيث تعوي رياح البحر. في الخارج، جذوع غابة من الخشب المتحجر، محاطة بملح البحر وانحناء الوقت.

سمعت إيقاع عجلة الدوران. من أنتِ؟ همست المياه، من أنت؟ طالبتها بإجابة. نهضت من ركبتيها. قالت: "لقد فقدت البحر". استرجعت الصندوق من داخل حقيبتها. تشابكت القطع المكسورة. "هل ستصلح هذه؟ لقد تحطمت. لقد أحضرتها لتصلحها".

حملت الصندوق إلى طاولته. رسم الطين. راقبته وهو يبطء العجلة، يدله تدفعان وتسحبان وتحيكان. منبهرة، اختارت السكون. من الأفضل أن تراقب يديه تخلقان عملًا. كان يعمل، وخفّف ذلك بعض الاحتقان في قلبها.

"هل ستصلحه؟".

لم تكن تقصد الإناء فقط، كانت تقصد كلّ شيء، جوهرها، محيي الدين، عالمها. أعاد قراءة الحزن الذي اكتساه جسدها ورأسها المنحني وحتى كتفيها.

أوقف عمله ليمسك بيديها. ذاب الوعاء نصف مصنوع.

لمس. اتصال. صلة.

لفت يدها حول يده. توفي الوقت. مسحت حنجرتها. "أنت هنا الآن؟".

"نعم".

"السفينة؟".

"قتلوها".

أغلقت أيانا عينيها. سفينة كينغروي: شبح آخر في مشهد الخسائر.

توقفت عن التساؤل "لماذا؟".

رسمته الجديدة لزاو وو كي، كان في الغالب باللون الأزرق السماوي. إشارات ضربات الفرشاة باللون الأزرق والأحمر والأسود، مثل الندوب الملونة على صفحة الضوء.

الغسق، تألق بريق جديد كشف عن بشرة جديدة على روح قديمة الآن.

انهمر المطر. حرجة على السطح. عصافير تجثم على الطنف. ابتعدت أيانا عن لاي

جين ووقفت خارج الباب لتراها. قالت: "طيور المغفرة".

ثمّ مسحت وجهها بظهر يديها. دموع. مطر. بللت ملابسها وجلدها. تدفق الماء الذي يُطّهر إلى مكان في القلب. عرف لاي جين متى يقابلها عند الباب بمنشفة حمراء رفيعة. شغّل الدش الساخن بالفعل. قادها إليه. كان ثوبه البيج مطويًا على مقعد خشبي لاستخدامه.

في وقت لاحق، تناولا الحساء وتحدّثا حتى الفجر. في الغالب، كانا يتذكران زاو وو كي ويبتسمان للحديث عن البط والضفادع البلاستيكية التي لا تزال تطفو في البحار المتواصلة. ستخبره أيانا عن كونها السليلة، وكيف كانت بحاجة إلى الهروب من هذا اللقب: "بحثت عن البحر". سكون. "ثم تركني البحر".

كانا يتواصلان مع الصمت الذي جلس بين الكلمات. انتقلا إليه. تحولا ليجلسا قرب أحدهما الآخر. تلامس جسداهما. رفرفت الطيور في البعيد. طيور المغفرة.

تخيل أنها تلمّح إلى كارثة حملة العصفور الكبرى التي لا تزال تطارد نفسية الأمة، والتي كانت ستسمع عنها الآن. تخيل أنها كانت تلاحظ أن العصافير، على الرغم من الرعب الذي تعرضت له، قد عادت. طيور المغفرة. كان هذا ما سيدعوها به لاي جين من الآن فصاعدًا.

"أبي"، قالت له. "محيي الدين، ذهب إلى المحيط. لم يعد".

التقت عيونهما. همست له. "نحن في انتظاره". بحثت نظراتها عمّا إذا كان يعرف شيئًا.

استمرا بتبادل النظرات. داخل عينيه، صورة تشبه دموعها. كان ما كانت تحتاجه اليوم هو رؤيته. كان هذا السبب في أنها ألقت ذراعيها حول رقبته، ورفعها إليه، لتحزن في جسده. كان يعرف ما يكفي عن الحياة حين يكون الاستماع هو الكلمة الوحيدة.

. . .

حلّ الظلام. وللمرة الأولى من إقامة أيانا في الصين، شاهدت ما أخبرتها عنه المدرّسة رولان: نجمة الإمبراطورة التي لم تستقر أبدًا. كم كانت تتوق لظلام الليل الحقيقي، بعيدًا عن ارتباك النيون والضباب الدخاني في التجارة. في أعماق تلك الليلة، بينما كان لاي جين نائمًا، سمعت أيانا، كما لو كانت من الداخل، عودًا تعزف عليه روح خيالية على أطراف شارع كان مفترق طرق بين عوالم بين الحروب. نهضت من السرير لتصل إلى نافذة كبيرة يمكن النظر من خلالها. امرأة ترتدي قميص رجل أثناء النظر إلى سماء غريبة بحثًا عن

أغنية. كانت لا تزال تبكي.

أرادت أن تخبره أنها فقدت قوتها وهي تحاول أن تفاوض على وجودها بالمندرينية. أرادت أن توضح له أن أحلامها غمرها سيل من اللغات. كانت تغرق. الصمت. لم تكن هناك كلمات لما أرادت قوله.

بعد ظهر اليوم التالي، جلسا معًا على مقعد، قام لاي جين بصنعه بجوار شجرة صفصاف قديمة. كان المقد على شكلٍ معيّن، بحيث حين اقتربا أحدهما من الآخر، تخيّلا الشمس فوق خليج هانغتشو، وراء ستار من الضباب الدخاني الذي ترك الرؤية مبهمة. في بعض الأحيان، كانت الغيوم الرقيقة. أوتار مثل الخط محفورة في السماء. وميض الماء مع الضوء النحاسي.

سارت في جوارهم أربع بطات، لا بد أنّها انتمت لشخصٍ ما. ظهرت في إحدى الصباحات، تمتم لاي جين. لا بدّ أنّهم أضاعوا الطريق. وصلوا منهكين ولم يفكروا بالمغادرة. "لماذا أنت هنا؟"، سألت. تحدث معها عن الأحداث. الاتهامات وتقرير الرحلة المدمرة. عقوبة السجن. تخيل أنها قد تستاء من ذلك؛ لم تفعل. قال لها إن سفينته قد حوكمت وقتلت بنيران. وبينما تحولت أيانا إلى التحديق في السماء المائلة إلى اللون البني، قال لها: "لقد أغرقت حاوية الحيوانات المذبوحة".

"هذا جيّد"، قالت له. ثمّ ابتسمت. "جيد". كانت يداها على جانبي وجهه وكانت عيناها متوهجة وكان مبتهجة، لأنها قبلته وقالت مرة أخرى: "جيد".

في وقتٍ متأخّر من الغسق، كانت الطيور تعود إلى المنزل. حفيف الأوراق، الرياح المتعرجة. وبينما كانت تراقب الأرض، ذكر شيء ما أيانا أن الحياة كانت ممرًا، حيث لا يبقَ شيءٌ عالقًا. أغلقت عينيها وأمسكت يدي لاي جين. استوعب الصمت بينهما كلمات غريبة. في مكان ما في المنارة، دقت ساعة.

تذكرت أيانا: "أنت من وجدت الساعة".

"نعم".

"جئت إلى شيامن؟"، هزّ رأسه.

انخفضت درجات الحرارة في الخارج، وارتجفا من البرد. كان لاي جين قد ذهب إلى شيامن لينقل لها أخبارًا حول ديلشكا ونيورغ. كان بحاجة إلى الاكتفاء بلمحة... ليس هي،

بل فكرة المساحات البديلة. لا، لقد كان رجلًا. لقد ذهب إلى شيامن لرؤية امرأة. العودة إلى الصمت.

قالت أيانا: "الآن أنت تعمل مع الأرض".

انحنى لاي جين لضرب الطمي.

ابتسم وهو يتذكر. "في البداية، بعد السجن، حاولت الطهي -أحرقت الطعام. جرّبت التجارة. اشتريت بعض الأشياء في هونغ كونغ، وبعتها في ميانمار. تكدّست بطاقات الائتمان. ولم يرجع لي أموالي أحد".

كانت نظرته مقفرة.

"عدت إلى المربع الأوّل". تحرّكت أيانا إلى جانبه. "إلى النار". استوعبت أيانا كلامه كصلاة. سألته: "هذا منزلك؟".

نظر لاي جين حوله.

"لقد تكسّر".

نفخة بعيدة.

استمعا إلى البحر المتراجع، قطع من النسيم.

من أنت؟ كان المحيط لا يزال يصيح.

كما كان من قبل، لم يجب أحد منهما.

أسندت أيانا رأسها على كتف لاي جين الأيمن. علقت الكلمات في حلقها. "الساعة. الرنّة بينغ... لقد ذهبت منها".

استقرت الدموع الطازجة تحت فكها. تذكرت محيي الدين. كانت ترتدي سترة لاي جين المقاومة للماء، التي كانت تؤويها ذات مرة. مالت إليه. راقبها. كانت أصابعها على ذراعيه.

إغراء الأعماق – عكست طبقاته المحيرة ألوان الشوق، وذاكرة الفتيل الأزرق المتلألئ الذي أضرم النار في البحر، ومعه جسدان. كانت عيناه بمواجهة عينيها. تتبعت أصابعه فمها. مدّت أصابعها لتفتّش في وجهه. عائمة. ثمّ قرّبها إليه. ضغط وجهها إلى صدره، لكنها كانت قد جمعت من الهواء ما يكفي لصدرها لكيلا تكترث.

هناك، في النقطة الوسطى بين الأعلى والأسفل، كانت متصلة بقلب. واختفت شياطين حياتها الحالية. نزلت. نزلت إلى فقاعة صمتهما. سكون شرنقة. إغراء البقاء طويلًا. مسّدت

يديها عليه. كدمات يديه على ذراعيها. "هذه المرة ... "، حذّرها. "هذه المرة...".

"ماذا؟"، همست له.

واجهته. "ماذا؟"، سألها.

مكشوف -كل شيء هناك كان يمكن قراءته. اسودّت نظرة لاي جين.

قالت له: "ذهبت إلى شنغهاي لأرى زاو ووكي".

أومأ لاي جين. أراحت رأسها على رقبته. غطاها بذراعيه.

خلال فترة بعد الظهر، شغلت نفسها وجمعت أيانا كلّ توابل لاي جين لتحضّر برياني الدجاج. شاهدت أيضًا لاي يطلق النار على الطين.

يداه. التركيز. السكون.

عرفت جسده: ملمسه وطعمه ولمسه. عرفت شعور الندوب الخارجية.

وبعد ذلك – شعرت بوخزة في روحها.

الرياح الخارجية. الحقيقة: كل ذلك كان أمرًا عابرًا.

عابر.

لاحظ لاي جين أنّها كانت تنظر إليه. شعرت بالحرج وأدارت وجهها. أخبرت لاي جين عن شيءٍ رأته في زاوية شارعٍ بشنغهاي. "كان أحدهم قد قام بنحت بوذا من أنياب الفيل المليء بالدم".

ثمّ نظرت فوق كتفها، وكأنها تتوقع ظهور شيء فظيع.

ما الذي تهرب منه؟ تساءل لاي جين. لكنه لم يختبر القدر؛ مهما كان هذا الذي أحضرها إليه. استمع عندما أخبرته أنها تنتظر عودة محيي الدين. أمسكت بطنها.

المنزل.

في الآونة الأخيرة، أصبح مكانًا سريع الزوال تسكنه، وقد رفض ضمان قدرته على التحمل. لم تتحدث عن توقعات بيت منها، أو الشيء الوحيد الذي بدأت تشعر أنها لم تعد قادرة على فعله: البقاء في الصين. لم تكن صينية.

"ماذا لو لم يكن هناك منزل؟"، سألت، حبست أنفاسها في حلقها. نظرت إليه كما لو كان مطلعًا على تسلسل أفكارها.

. . .

في وقت لاحق، أكلت أيانا حصتها من البرياني في وعاء خشبي صغير بواسطة عيدان تناول الطعام. رفعت عيدان الطعام. ضحك لاي جين على راحته معها. نظرت إليه ساخرة. نظر إلى الأرز على صحنه وهو يعبس وكأنه قد يتكلم. تذكر صديقتها ديلشكا. كان بحاجة لقول شيء ما. قالت أيانا، "أنا مثل بطاتك". ضحك بدلًا من ذلك.

منظر الليل: لا ستائر ولا حجاب، وأحيانًا وجدت الريح طريقًا عبر فتحات النافذة. كانت ترتدي واحدًا من قمصان لاي جين البيضاء الكبيرة التي خصّصها للعمل. كانت على يساره. استقر على جانبه. التفتت إليه بعد خمس دقائق من الصمت الكثيف. لمست فمه، الجانب المحترق من وجهه. رمش بعينيه. لمس وجهها كما لو كانت مصنوعة من شظايا الطين. قالت له أيانا، "رأيت رجلًا في تركيا. أعتقد أنه كان نبيًا مفقودًا". مدّ لاي جين يديه إلى جفنيها، ومسح دموعها، ورسم على وجهها كما لو كان إصبعه فرشاة رسم. جسدها الدافئ، ثدياها الدافئان، فخذاها الدافئان. صوت دافئ.

"قابلت رجلًا آخر تبخر. كل ما تركه هو حذاء بني قديم. كان هناك دم على الحذاء".

رسمت الهواء. "الحذاء نفسه اختفى".

وصلت الدموع إلى فكها. مسحها بعيدا. "هل يجد أي شخص في العالم بالضبط ما يحتاجه، يا قائد السفينة؟"، تلاشى صوتها. ارتد صوت لاي جين. "نأمل بذلك كل يوم".

الصمت.

اتهمت لاي جين: "حتى أنت تخليت عن البحر".

سمع الانكسار في صوتها. هز رأسه. أصابع على جلدها. كان لديه الكثير من الأسئلة لها. أراد أن يعرف عن الشقوق في نظراتها. كانت يده على بطنها وعلى صدرها.

سألته، "بو فو؟". فكرت في ذلك قبل اختيار الكلمات.

"اسم المنفى".

ابتسامة خفيفة. التفت إليها. رأت أيانا روحه متلألئة كما لو كانت لا تزال تعيش في البحر.

. .

اقتربت أيانا أكثر وأكثر من لاي جين حتى اندمجت في ذراعيه، التي شدّهما حولها.

لمس. اتصال. صلة.

كانت تنجرف إلى النوم، نفسًا تلو الآخر.

مسّد جسدها، موقظًا ذاكرتها.

العاصفة، عاصفتهما. ألوانها. كانت هنا. نامت أيانا طويلًا وعميقًا، ولم تستيقظ حتّى منتصف اليوم التالي.

عندما فتحت عينيها، غطى الضباب الكثيف الدخانيّ المنطقة والمنارة وسكانها القلائل.

طقس مقفر.

كانت أيانا في شرنقة.

كانت تحته، توجه قضيبه المنتصب إلى نعومتها. تأخذه. بداية أخرى. في الداخل. توقف الزمن. كانا شاغلاه الوحيدين. ولجها، ثمّ ولجها من جديد. ومرة أخر، كلاهما يذوب في النار، وفي تيارات الأحلام والرطوبة المالحة والرّغبة.

في اليوم التالي، اندفعت أيانا إلى قمة صخرة في محاولة للحصول على إشارة الهاتف التي ستستخدمها لإبلاغ مدير الجامعة بأنها ذهبت بعيدًا إلى مكان هادئ. كانت قد ذهبت إلى ضريح بالقرب من البحر.

"يا فتاة"، صرخت المرأة عبر الهاتف. "إن هذا الأمر غير لائق. عودي إلى هنا على الفور...".

أغلقت أيانا هاتفها. وقذفته في الهواء – أمسكت به قبل أن يسقط.

قال لها: "لا توجد أسرار في الصين".

كانت تقايض بالوجود وتتبادل الأشباح: بيت مقابل محيي الدين.

سارت أيانا ولاي جين على طول الطريق إلى بحر فرّ من شاطئها القديم. مسافة ثلاثة كيلومترات قبل الماء اللامع مثل طاولة فضية أمامهما. نظرا خارج المكان. تحمّلا نظرات القلة الآخرين، الأسئلة غير المعلنة. التزما الصمت وهما يمشيان على الشاطئ القاتم، يستمعان إلى الماء. انحنى لالتقاط زجاج البحر: الأبيض والأخضر والأزرق.

قلّدته. رفعت إلى الضوء قطعة من لون أحمر ناعم بوزن البحر كله. فقط في وقت لاحق، بعد أن غطت الشمس في الماء، وجدت أيانا البوابة على حافة المياه التي يمكن أن تنادي من خلالها محيي الدين في صرخة عالية تقسم الرياح وتجبرها على الاستماع – الانتظار. وإذ راقبها لاي جين، سأل البحر مرة أخرى: من أنت؟

كانا زوجًا غريبًا، يجلسان كما فعلا، غير مرئيين بسبب الظلام الذي أحاط بهما في الشاطئ عندما كانا ينظران فوق بحر ليلي. راقب لاي جين المياه بانتظار رسالة. ومع الضوء الداكن، رأى لاي جين كيف سيصلح سفن أيانا المكسورة. كان يعلم أنه سيستخدم الطلاء الذهبي للسفينة الأغمق والطلاء النحاسي للتي كان لونها أفتح.

كان رمي الطين في الليل. سألته بصوت رقيق وناعم مصنوع من كلمات منفردة وأوقات توقف طويلة، لماذا كان العالم كما هو. أخبرها أنه لا يستطيع القول، لكنه استقر على الأساسيات: التربة والطين والماء والنار والصمت. اللمس أيضًا. قال لها إن اللمسة ضرورية.

في اليوم التالي، فك الكرتون الذي وضعت فيه أوعية الطين المكسورة. اختار القطع واحدة تلو الأخرى. شاهدت وجهه.

اختبر الحواف المكسورة بإصبعه. نفخ على الأخرى. ونقل جميع القطع إلى صينية مستطيلة منفصلة، ثم تراجع إلى الخزانة وعاد بالأدوات والمعدات التي قد يحتاجها لفهم الأجزاء وإعادتها إلى الكمال. شاهدت وجهه وجسده. في النهاية، رفع رأسه لينظر إليها. ابتسمت. تنفست.

في اليوم التالي، استيقظت قبل الفجر لتركض إلى البحر وسارت في الأمواج الباردة حتى وصلت إلى وسطها – اختبرت مدى تحمّلها للماء الجليدي. هناك صلت إلى الله الذي انحدر من حياتها عندما عبرت من بيت إلى شيامن. أبلغت كل من الله والبحر أن محيي الدين هو قلبها وروحها وأنفاسها. أخبرت الله والبحر أنهما مدينان لها بحياته. أعطتهما مهلة. كان المد قادمًا. حرّك جسدها. أعادته إلى الشاطئ وإلى المنارة.

اعتادت على الجلوس بين ساقيه. مالت إليه، حتّى يتمكّن نفسه الدافئ من ملامسة جلدها: زيادة التوتر والرغبة في الجسم، والشوق المتوتر، والجلد على الجلد، والشغف الخالص. كان يخلق وعاء على كتفها، يغمس فمه في الجلد. مالت برأسها حتى يتمكن من تذوق جزء

من رقبتها تحت أذنها.

أيام صامتة. كلمات قليلة.

انتظر لاي جين مشيها. توقع الشعور بالإلحاح الذي ألقته بنفسها في اليوم، ومؤخرًا بين ذراعيه.

المصير. كان يفكر في علاقته بالمصير.

"حيان". اختبر الاسم، وشعر بقوته، كما لو كان مصيرًا.

كانت هنا. رأت شخصية حياتها الأخرى كما لو كانت متفرجة منفصلةً. وتساءلت عما كان سيحدث لو أنها لم تتلق هذه البتلة الوردية الجافة من يد الزائر الصيني إلى بيت ورنيش واضح. ورقة ذهبية. بدأ بالسفينة على شكل دمعة.

تصدع صوتها. "يمكنك جعلها كاملة؟".

أجاب لاي جين، "سأحاول".

"سوف تكون لها ندوب".

"نعم".

"إنها ليست كما كانت قبلًا".

"إنها أخرى وأكثر".

"ولكن ليس كما قبل".

"لا".

قام بتطبيق فرشاة رقيقة مع الطلاء على قطعة من السيراميك. لوح دائري يحتوي على طلاء شفاف متوازن على إبهامه الأيسر.

لمساته الدقيقة وإيماءاته الدقيقة.

جلست تشاهد. تخيلت أن البحر يتدفق الآن.

.

محيي الدين. والدها. هذا الغياب هو الأسوأ على الإطلاق. من أنت؟ بكت المحيطات.

كانت هناك إجابة بعيدة عن مسمعها.

تم إجابة الجواب للتو من سمعها.

في المساء، جلس الاثنان معًا على المقعد الحجري تحت شجرة الصفصاف القديمة. كانت هناك غيوم. كان الخليج البعيد محاطًا بالضباب.

أسندت أيانا رأسها على لاي جين. الاستسلام للمجهول. لم يطلبا أكثر من الحاضر.

كان العشاء عصيدة المحار مع الأرز والأعشاب البحرية المجففة، تقدم مع المكرونة سريعة التحضير. تحدثا عن عوالم يعرفانها وكتب قرآها؛ تحدثا عن البحر وبعض ألغاز الملاحة. تحدثا حتّى الفجر المبكر، قبل أن يتذكرا أنّه كان عليهما النوم.

في وقت لاحق، دخلت إلى الحمام، حيث كانت المياه تتدفق على جسدها. قالت إنه أصبح نحيفًا. سألته إذا كان يتذكر عاصفتهما. أجاب: "كل يوم". قالت إنها تريد تذوق الماء على فمه وعينيه والندبة على جسده. لذا سألها إذا كانت ستبقى في الصين. لكنه لم يحصل على إجابة حتى الآن. شاهدته يغلق ماء الاستحمام. كان مثارًا ومنتصبًا. شاهدته يجفف شعره. شاهدته يربط منشفة حول وسطه. راقبته وانتظرت، وسألها مرة أخرى إذا كانت ستبقى.

قالت: "لا أدري".

قال: "تعالي إلى هنا".

خطوات بطيئة وصغيرة إلى الرجل الذي كان ينتظر.

طرد الأرواح الشريرة. كشط قلبها وجلدها وصمة عار تلو الأخرى.

منفصلة عن ذاتها. لذا كان بإمكانها اختيار المساحات التي يجب تضمينها كجزء من ذواتها الأخرى.

أيقظها ليسألها ما إذا كانت ستبقى، ليس من أجله بل من أجل البحر، واستخدم يقظتها لإحضارها إلى جسده.

تقاسما الأشباح. ثم أخبرها أن اللون البني الشاحب لعينيها كان خريطة لمجرة. وتذكرت أن والدتها قد اختطفت بالفعل كوكبة الجبار لها.

لكنّه كان يناديها "حيّان"، الاسم الذي اختاره لها. كان الأمر كذلك دائمًا وقد عرفت الآن أنّ اسم حيّان به شيء من البحر. كانت تستمع إليه، تستوعبه، تخزنه حتى تتمكن من سحب ذكرياتها الآن من رفوف الوقت. وعندما كانت تتبع أصابعه جسدها شبرًا بشبر، بطراوة، كانت تذوب وتطفو.

عندما حلمت، كان لا يزال هناك، يراقبها. عندما أيقظها حين كان توهج الفجر على

جسدها العاري، كان مفتونًا في الحال بغزارة شكل جسدها، هذه الأنثى، وكيف وأين ضربها الضوء، وبقي عليها عن طريق جسده. نصف عينيها مفتوحتان فقط، همس حزين.

"لا أستطيع أن أرى من أنا".

"معي؟"، شعر بالأسى.

تحوّلت على الفور لتمسك بوجهه. ضغطت عليه.

"هذه الأمة. أنا لست من نسلها".

ثمّ وضعت رأسها على رأسه.

انهيار الفضاء. من خيالاتٍ لم تجد شكلًا لها.

همس لها: "سوف تغادرين".

كان يقول الحقيقة. تشابكت الأمور في رأسها.

إنها كلمة تبدو كما تقترح. ومع ذلك، فإن ألم المغادرة كان بالفعل طعنة في داخلها، ثم أملت أن يحتج ويطلب منها البقاء حتى تتمكن من تخيل محاولة ذلك. لكنه كان صامتًا، وبالتالي كانت هي كذلك أيضًا.

"دموع؟"، سأله وقلب وجهه حتى يغمس طرف لسانه في الملح على وجهها.

الكلام وظلال الصباح. خطوط على جسدين متشابكين.

.

أشار جدول زمني مطوي إلى أن آخر قطار إلى شيامن يوم الإثنين سيكون في الساعة 8:37 مساءً. رافق لاي جين أيانا إلى المحطة في هانغتشو. تقدمهما كان غريبًا، كأنّهما لا يزالان يتعاركان.

في اليوم السابق، كانا قد تشاجرا، ليس حول شكل الرغبة التي ابتلعتهما، وألقت بهما داخل وخارج أذرع بعضهم البعض، ولكن حول معنى الكلمات.

لم يكن يتوقع أن يخاف مغادرتها. أخفى خوفه على أنه سخط.

"ماذا تحتاجين؟"، صاح وأصابعه في شعرها.

تمرّدت: "كيف لي أن أعرف؟".

كانت لهجتها ممزقة. كما كانت طريقهما، غرقا في صمتهما حتى ألقت بهم التيارات

المشتعلة معًا مرة أخرى.

بسرعة، فم بمواجهة الآخر. الصمت مرة أخرى. تنفس. ونتشر هذا الصمت بداخلهما، وهو يدور، ويتدفق وينحسر، ويسحبهما إلى الأرض بينما تطفو عصافيرهم في الطنف.

دندنة. استماع. شعرت بنفسها غارقة في مياه أكثر وضوحًا، وجوهرها يتم نقله، استسلمت، ثمّ لفت أيانا جسدها بعيدًا، وطافت على السطح، وهربت من الرجل؛ خرجت من الباب إلى المساء. تنفست الهواء البارد ونظرت إلى المنارة. كان هناك رجل ينظر إليها من خلال نافذة. حدقت إليه مباشرة بكل شيء شعرت به مكتوبًا في عينيها: كيف أعرف؟

قبلها مرارًا وتكرارًا، وهذه المرة لم يسأل، "هل ستعودين؟".

آخر قطار باتجاه الجنوب. كانت الساعة 8:15 مساءً. جلس الشخصان على مقعد من الفولاذ الملون، يضغط جسديهما على أحدهما الآخر، يراقبان الناس يتجولون.

استعدّ لاي جين للكلام. "حيّان".

التفتت إليه أيانا.

"صديقك على متن السفينة، ديلشكا...".

ابتسمت أيانا. "نعم؟".

قطع اندفاع القطار المقترب كلماته التالية.

"كم الساعة؟"، صاح كما لو مصدومًا.

تدافع.

وضعت أيانا حقيبتها بعناية على كتفيها عندما شاهدت القطار وهو يمتد من توقفه. ذراعا لاي جين على كتفها، تحدث في أذنها، "سأرسل الإصلاحات عبر البريد".

حدقت أيانا بثبات في الركاب المتدافعين. ثم أمسك لاي جين وجهها لإلقاء نظرة عليها. أغلقت عينيها. متجاهلًا المراقبين، أغلق ذراعيه حولها. قال، "انظري، هناك. عصافير الخريف". فتحت عينيها. ضغط سريع للشفاه ترك انطباعًا عن كل شيء ولا شيء.

انتظرا كي يصعد المزيد من الركاب إلى القطار. بعض الإعلانات. قبّلت أيانا الجانب المحروق من وجهه، ولامسته بأصابع يدها اليمنى. استدارت فجأة لركوب قطارها، وتعثرت قليلًا في الخطوة السفلية التي أدت إلى عربتها.

رأى لاي جين أيانا تختفي في القطار. سمع صوت القطار المثير للشفقة. تراجع. بعد

نصف دقيقة، استقام ظهره. استنشق الليل: رائحة الملح والبحر، واليوم، لمسة من الورد البري. بخطوات بطيئة، بدأ الرحلة الطويلة عائدًا إلى ملجأه.

لم يكن يعلم متى فعلت ذلك، ولكن في اليوم التالي، عندما كان يخلع ملابسه للنوم، وجد البسم الله التي رسمتها له، حبر أسود على ورق أبيض؛ مرسومة على شكل عصفور في رحلة.

[87]

الأرق. اللّون الذهبي قبل ساعات من الفجر، وكانت الأجواء هادئة تقريبًا في المدينة. كانت أيانا تراقب السماء وهي تدور في قوة من تيارات الحياة التي تقاربت داخلها: الغياب والرغبة والاختيار واليقين.

بعد ساعة، كانت تفتش في الحقيبة حيث أخفت حلي الحنين: ساعة محيي الدين الصامتة، الخريطة الصفراء التي التقطتها من صدر محيي الدين، روائح أمّها التي غمرت الغرفة بحياتهم، ومطبوعة لاي جين لزاو وو كي.

جلست وركبتاها مرفوعتان تحدق في هذه القطع الفنية كما لو أنها قد تكشف عن طريقة.

ارتدت أيانا بدلة وردية اللون وأحذية مفتوحة، وربطت شعرها لتبدو صارمة. تمويه. ذهبت إلى مكتب مدير الجامعة للانتظار. بعد ساعة، أتت امرأة ذات جدائل سوداء جعلتها تبدو وكأنها بطلة كرتونية متحركة لتتكلم مع أيانا، وتفهمها أنّ رحلتها اليائسة قد أزعجت السلطات. درست المرأة أيانا خلسة وهي تشير إلى مقعد. جلست أيانا في صمت مزخرف، وأخفضت رأسها بتواضع. ستستغرق ساعتان قبل أن تستدعيها المديرة الرئيسية بالنيابة.

دخلت أيانا الغرفة. جسّدت الندم. بدأت أداءها في لغة الماندرين بأفضل ما كان بإمكانها أن تتحدث بها. لقد تعلمت خطوطها. "أعتذر عن التسبب لك في مثل هذه المحنة.

فكرت في نفسي فقط. لكن لم أستطع احتواء حزني. كنت بحاجة إلى المساعدة لمنع رأسي من الانفجار".

ترددت. هل كانت كلمة "انفجار" مثيرة للغاية؟ "سعيًا وراء شبح والدي، جلبت لكم العار، يا مضيفيّ الكرام. أتوسل لكم الصفح".

"شبح الأب"؟ ربما كان عليها ألا تقول ذلك. لا تريد أن تستدرج لنفسها فحصًا نفسيًا.

"كنت بحاجة إلى بحر آخر".

كان هذا صحيحًا. هنا تصدّع صوتها. توقفت وأبقت عينيها منخفضتين. راحت أيانا تعدّ البلاط الرخامي المصنوع من الرخام البيج والأبيض. في هذا الموقف، استمعت إلى محاضرة تفصيلية حول قيم البروتوكول والإجراءات، والأخلاق والسلوك الجيد، والعار الذي يجلبه شخص مضطرب على بلدها. انجرف عقل أيانا، وعاد إلى المنارة، وإلى لاي جين ينظر إليها من نافذة عالية.

انتهت المحاضرة في نهاية المطاف. كانت الغرفة ساكنة. قالت أيانا، "بعد إذنك؟". أومأت مشرفتها. "أنا حريصة على العمل بجدية أكثر بثلاث مرات. سوف أكمل دراستي في غضون عام ".

كان مشرفتها بالإنابة صاخبة.

بدأت بالكلام، "أيتها السليلة... "، تلاشى صوتها. كانت تجربة "عودة السليلة" بأكملها مرهقة. انتقلت الآلية التي جلبت أيانا إلى الصين إلى طرق رمزية أخرى للتنقيب عن الجذور الصينية وإثباتها وترسيخها في أفريقيا -البعثات الأثرية، والتعاون الثقافي، ومشاريع البنية التحتية، والهجرة الجماعية، وإغواء الائتمان. تنهدت المرأة. "اجتازي الامتحانات بنجاح". أومأت أيانا. كانت جيدة جدًا في اجتياز الامتحانات. وأضافت المرأة "ادرسي جيدًا". أومأت أيانا مرة أخرى. مشت إلى الباب، ثم ابتعدت وأغلقت الباب خلفها.

. . .

عندما عادت إلى غرفتها، شعرت قلبها عالقًا. في وقت لاحق، تجمعت تحت البطانيات، ورطبت يديها. كانت نظراتها صارمة، واتصلت أيانا بأمها. "ابنتي!"، صاحت منيرة. أجابت

أيانا: "أمّاه". توقفت مؤقتًا، "هل من أخبار؟".

"لا شيء".

قالت أيانا، "أمّاه؟".

"نعم".

"من هو والدي؟ الذي هو من دمي؟".

كل الصمت في تلك اللحظة. ارتجفت الأم وابنتها. وأضافت أيانا: "أريد أن أعرف". كان صوتها محمومًا. كانت منيرة هادئة.

صرخت أيانا، "السؤال يشبه الثقب بداخلي. أنظر إلى كل رجل وأتساءل... ".

قالت منيرة، "لا أعرف".

انتظرت أيانا، تعرقت يداها، وسمعت صدى عبارتها: "لا أعرف".

ثمّ سألت منيرة، "ألم يكن والدكِ كافيًا يا أيانا؟ ماذا عن محيي الدين الذي اخترته؟ أليس هذا "الأب" كافيًا؟".

سمعت منيرة همس أيانا "لا". كانت الآن على ركبتيها في منزلها في بمبا. "لولو، هذه الأسئلة تستهلك الغول".

صاحت أيانا: "أنا أعيش معهم. أنا أعيش داخلهم".

الصمت.

سألت منيرة بانزعاج: "ماذا حدث لكِ؟".

"لماذا؟".

"لماذا الآن؟".

"لقد سألت من قبل".

في بمبا، ركعت منيرة عند البحر. في مكان ما في المنزل، بدأ طفل في البكاء. رفعت رأسها للاستماع. توقفت. أكثر من أي شيء آخر، كان هذا، الطفل الباكي، هو الذي ألهم كلماتها التالية.

ذات مرة – تألّق صوت منيرة. بدأت مرة أخرى. "كان هناك إنسانة، ظنت أنه من حقها أن تكون محبوبة من الجميع. عرفت نفسها كملكة للتاريخ وبالتالي اعتقدت أنّه يمكنها كتابة أي حلم لنفسها". بدأت منيرة في البكاء. تخيلت أنها ستغادر بيت وتذهب إلى

إنجلترا، إلى باراغواي، إلى إيطاليا، إلى إيران... إلى أي مكان يريده قلبها".

استمعت أيانا واغرورقت الدموع في عينيّ منيرة. "كانت الأجمل بين بنات جيلها في جزيرة جمعت أجمل النساء في تلك البحار. كانت مرغوبة، ومحسودة. في الخفاء، تخيلت لنفسها كيانًا ساحرًا كزوج يستحقها، ومنحت له شرف قيادتها بعيدًا عن جزيرتها الصغيرة".

ذبل صوتها. لثانية، سمعت أيانا مرة أخرى حفيف الأوراق في أمسية الجزيرة. الظلال التي تحوم، قوافي بحارها. واصلت منيرة بصوت ناعم. "ذات يوم، في مومباسا، حيث تم إرسال هذه الفتاة للدراسة، رأت رجلًا مشرقًا مزينًا بالذهب، لامعًا بالوعد. وعندما تكلم استمع إليه الرجال. نظرت إليه وأحبته من النظرة الأولى".

أحدثت أيانا صوتًا. قالت: "والدي"، كما لو كانت تقابله للمرة الأولى. قالت منيرة: "نعم".

"كيف بدا شكله؟"، سألت أيانا. تصارعت منيرة مع قلبها، وحفرت ذاكرتها لتحاول أن تستعيد وجه ذلك الشخص الذي تخيّلت أنها كانت تعشقه أكثر من الحياة، أكثر من الموت. بقايا المشاعر -هذا كل ما تبقى.

قالت لأيانا: "لا أتذكر. أنا لا أرى وجهه. كان طويلًا. مثلك".

غير متأكدة. لم تتحدث منيرة مع أيانا عن التخلي وعن الخوف وموت الذات.

قدّمت لها أقلّ ما أمكن من المعلومات: "لم نكن متزوجين. لقد آمنت به أكثر مما آمنت بالله. هو، كان يمكن أن ألمسه. هل تفهمين؟".

كانت كلمة "نعم" التي تلفظت بها أيانا راكدة على لسانها. "عندما حملت بك، غادر. بحثت عنه. اكتشفت أن حتى الاسم الذي أعطاني إياه لم يكن حقيقيًا".

صوت آخر من أيانا، انشقاق.

أضافت منيرة: "كنت وحدي معك عندما ولدت. كان مقدرًا لك أن تعيشي. عملت، ثمّ عدت إلى بيت".

هدوء.

اختتمت منيرة حديثها: "غادرت عائلتي عندما عدت".

انتظر كل منهما الآخر للتحدث. سألت أيانا أخيرًا، "بسببي؟".

ردت منيرة قائلة: "لا، بسببي أنا".

تنفست أيانا بهدوء. "لماذا لم تتزوجي؟".

"ما استطعت أن أنقذه من حياتي يا عزيزتي، كان ملكًا لك فقط".

الصمت.

اعترفت منيرة: "كنت أيضًا بحاجة أن أكبر".

فركت أيانا قلبها. بعض الغيابات، كانت قد بدأت أن تفهم، كانت جزءًا من الوجود: بلا وجه وبلا اسم إلى الأبد. مسحت دموعها. كان لها أب. كان صوت أيانا مختنقًا: "هل سيعود محيي الدين؟".

اختنقت منيرة.

"أمّي"، قالت أيانا فجأة، "كم أشتاق إليك". توقفت منيرة قبل أن تهمس. "وأنا أيضًا يا لولو".

بعد تلك المكالمة الهاتفية، لحوالي ساعتين، جلست أيانا قرب مكتبها، غارقةً في الصمت.

[88]

جالسة في الخارج، ارتجفت أيانا عندما تغير لون المياه لتبدو ساخطة ومتجعدة مثل نبي غير مرغوب فيه. كانت ملفوفة في معطف، تأكل لفافة الدجاج، على مقعد بالقرب من نافورة أمام البحيرة، تُطعم الطيور قليلًا ودراجتها على الأرض عند قدميها. استشعرت كوراي قبل أن تراه. جلس بجانبها، وكانت يديه متكئتين على ركبتيه.

قال: "قولي لي يا أيانا".

واصلت رمي الطعام للطيور. "يشاع أنك أخذت عزلة في ضريح ساحلي. هل كانت مفيدة لكِ؟".

لم تجاوب.

"لا بدّ أنّها كانت كذلك. من المحتمل أيضًا أن تنهي متطلبات الدورة قبل انتهاء الفصل؟ أنت لا تهتمين بإخباري؟".

أجابت أيانا: "لا".

"أتريدين بعض الحلوى؟"، عرض عليها كوراي.

قالت: "لا، شكرًا".

"الحلوى؟"، أصرّ بصوته الناعم.

كانت يديه على مرفقيها. "حبيبتي؟".

ارتجفت أيانا. تظاهرت بعدم مبالاة ومضغت طعامها.

"الزنا والردة جرائم يعاقب عليها بالإعدام"، قال كوراي، وتابع ضاحكًا: "لكل أنواع الأسباب التي يمكن التحقق منها، لدي الحق في الانتقام الدقيق". ابتسم، ثم دق يديه على ظهر مقعد الحديقة. تأملت أيانا لفترة وجيزة في التهديد، ثم استأنفت مضغها. "ماذا تقولين يا حبيبتي؟".

"اذهب ومت يا كوراي".

انحنى إلى أذنها ليهمس، "هل كنت وحيدة في معبدك؟".

دافع خبيث. "بالطبع لا".

"كنتِ مع رجل؟"، سأل كوراي.

"أوه، انظر إلى تلك الطيور الخضراء الشقية". أشارت إلى الماء بذقنها. أصر، "هل لمسك؟".

تألقت أيانا. "كيف تسير دراستك يا كوراي؟".

كان كوراي يسيطر عليها بجسده. بريق في عينيه.

"أين نمتِ؟".

"هل دمّرت مزهرياتي؟"، سألته وهي تصيح به.

توسّعت حدقتا عينيه وضغط أنفه على رقبتها. صارعت لتحرّر نفسها منه.

الآن ضغط كوراي على أعصاب ذراعها وفخذها، وعندما حاولت التحرك، شعرت بالألم الحاد في العمود الفقري وتسبب لها ذلك في الانهيار. كان كوراي يتنفس على وجهها.

"من كان هذا؟".

صاحت أيانا: "آه".

ضغط كوراي بشدة. صرخت: "كوراي، توقف".

سحب شعرها. "من؟".

عضّت على أسنانها. "اتركني".

"إجابة خاطئة يا فتاة، يمكنني فعل ذلك "-يده ملفوفة حول رقبتها -" وهذا".

ضغط. "في مكان عام، مع إطلالة على بحيرة مليئة باللوتس... لا أحد يعرف أنك تموتين إلا أنا... وأنت بطبيعة الحال. هذه هي القوة". خدشت أيانا في الهواء. ضحك كوراي. أغلقت أيانا عينيها.

شعرت بنفس الإحساس الذي ينتابها حين تصيبها نوبات ربو عرضية. الظلام تحت الماء كان له شيء من هذا. كانت هناك دائمًا نقطة توقفت عندها رغبة الإنسان في التنفس. استرخاء، في انتظار ذلك. تراجع الوقت. ذابت الأصوات في همسات كوراي في أذنها -كلمات حقيرة لوصفها، عرقها، أمتها، جزيرتها، جسدها، وماذا سيفعل بها.

"قاتليني!"، طالب.

أبدًا! كان هذا آخر شيء فكرت فيه. كانت هذه القوة -انفصالها.

.

استيقظت أيانا. لم تكن تعرف متى ذهب كوراي. كانت وحدها على المقعد، مع خمسة طيور عند قدميها، وتحول اليوم إلى اللون البرتقالي. كانت دراجتها مستندة إلى أحد المقاعد. لم يكن كوراي هناك. لمست رقبتها. في وقت لاحق، عندما عادت إلى غرفتها للاستحمام، رأت الكدمات. أقفلت بابها وعززت إحكام المقبض بوضع كرسي واستلقت على سريرها، تراقب السقف وتستمع إلى خطى في الممر، وتتذكر ديلاشكا.

لا دموع. لمحت كيف يمكن أن تصبح المرأة مسكونة. تذكرت بسم الله. سترسمها مرة أخرى، كما اقترح محيي الدين، كوسيلة موثوقة لطرد الأرواح الشريرة.

في اليوم التالي، دخلت أيانا إلى الفصل المسائي مع حقيبة الكمبيوتر المحمول الخاصة بها، مرتديةً قميصًا مفتوحًا كشفت عن رقبتها وكشفت كدمات. لقد قيدت شعرها حتى

لا يكون هناك تمويه في اللون. كان كوراي أول من هتف: "أوه، هل سقطتِ؟".

مشى إليها كما لو أنه يود احتضانها.

همس لها: "تستري، ماذا تفعلين؟".

لفت ذراعًا واحدة حوله. كان يلهث. تمتمت، "هناك نقطة فولاذية طويلة حادة تخترق صدرك. إنها موجهة إلى قلبك. إذا تحركت، سأدفعها للداخل".

كان صوت كوراي رقيقًا، لكنه كان لا يزال ساكنًا.

"أيّتها العاهرة، كيف تجرئين على تهديدي؟".

"لا يا عزيزي، أنا أخبرك فقط".

سكون.

"ابتسم يا كوراي، لقد بات لونك أخضر".

سألها: "ماذا تريدينني أن أفعل؟".

نقلت طرف الفولاذ، واقترح كوراي، بغضب في نبرته، "تريدين مني أن أعتذر وأتعهد بعدم خنقك مرة أخرى أو أقوم بشيء مبتذل بالمثل، أليس كذلك؟".

ابتعدت أيانا عنه ولوحت له بما كان قلمًا في يدها.

"لا، أردت أن أرى ما إذا كان خطر الموت يؤثر عليك. نعم يبدو أنّه يؤثر".

أومأت برأسها. أدخلت القلم في حقيبتها. كانت عينا كوراي باردة وصفراء. "سيكون من السهل قتلكِ".

كان صوت أيانا باردًا: "صحيح. ولكن أقسم، سوف تنزف حتى الموت معي".

ثمّ ابتعدت أيانا ولوّحت إلى آري. قالت شيئًا إلى شالوم، وقامت بإيماءة هاتفية. انتقلت إلى كرسي بجوار الجدار قبل أن تمدّ ركبتيها. انحنت إلى الوراء، تمامًا كما شاهدت أفراد عصابات بوليوود يفعلون ذ في الفيلم. ثم علقت سماعة أذن هاتفها في أذنيها، وأومأت برأسها لصمت هاتف مغلق بينما دق قلبها وحاولت ألا تتقيأ على كتبها. أرادت أن تبدأ جلسة رسم الخرائط البحرية في الحال.

. .

سرعان ما اختفى كوراي بعد ذلك. ووتّر ذلك أيانا. كانت تنظر فوق كتفيها. أمضت

أيانا أيامها ولياليها في المكتبة. اشتركت في مهام على الماء. انتظرت الأخبار من المنزل في يأس متزايد. أين محيي الدين؟ فكرت في العودة إلى المنارة. جلبت الأيام أخبارًا مفلترة عن عالم لا يهدأ، وفي وقت قريب جدًا، كان عيد ميلادها. ظنت أنها ستتركه إلى الصمت. في الصباح الباكر، عندما فتحت بابها للخروج، كانت هناك سلة مليئة بالخوخ والشاي والتمر وبذور اللوتس ومجموعة من الزنابق وبعض حلاوة الورد. مظروف أحمر. ملاحظة. احتوت المذكرة على خمس كلمات: "ما زلت مسحورًا بكِ. كوراي المخلص لكِ دائمًا".

Lenye mwanzo lina mwisho.

ما له بداية له نهاية.

جلست بجانب البحيرة لإطعام البجع لما ستكون آخر مرة. لقد تذكرت الأصدقاء الذين كونتهم، والمعارف العابرين الذين سينتهي بهم المطاف في أجزاء أخرى كثيرة من العالم.

التشتت. يداها تدور في الماء، استحضرت رؤية الخزاف في المنارة.

مكالمة هاتفية في الليل ضمنت قرارها بالمغادرة.

لا ديباجة. كان كوراي واقعًا. "أنا في إسطنبول".

رمشت أيانا بعينيها. "مساء أمس، توفي والدي، أميرهان تيرزي أوغلو. كنا معه".

قالت أيانا بغضب، "أنا آسفة للغاية".

قال كوراي، "لم يمت بشكل جيد".

ضلّت أفكار أيانا. "سوف تأتين الآن". كانت رد فعل أيانا كما لو سقطت عليها كتلة جليدية.

ذاكرة واضحة لشعورها: الرغبة في القفز.

استدارت أيانا للتحديق في القمر البرتقالي المكتمل من خلال نافذتها.

الصمت.

قال كوراي، "أيانا؟".

كانت هناك نظرية بين الصيادين أنه في موسم اكتمال القمر، كان هناك حاجة إلى مزيد من الحذر من قبل كائنات الدم، لأن الدم، مثل المد، ينجذب إلى القمر: كلما كان القمر أكثر اكتمالًا، كلما كان الدافع أكبر لإلقاء المرء في اتجاهه، وخاصة عن طريق البحر المضطرب.

في الثقافات التي حدثت فيها عمليات طرد الأرواح الشريرة، كان الفعل الأول هو المطالبة باسم الشبح: كوراي. كان التخلي عن سلطته وفصلها وإبطالها -اقتراح مستقبل مخطط له ومضمون -بمثابة عمل وحشي ومطلق. انفجرت قوة من زاوية روح أيانا وقادت أصابعها لإغلاق هاتفها بكل قوتها. جلست أيانا طوال تلك الليلة تغطي

بيديها نصف وجهها.

في طريقها إلى عمق قلبها، المحاط بغموض الألغاز المنعشة، رأت أميرهان وشمّت حزن جميع من لم يُصلى لأجلهم في العالم. تذكرت كوراي، وجهه، هذا الغريب، هذا الحبيب، والأكوان التي عرضها عليها، مقابل روحها وأشباحها. وكان ضوء القمر على جسدها وقدم نفسه كشاهد آخر. انسال البلل بين ذراعي أيانا. ثم انتهت من الأمر.

درس آخر: النهايات كانت بروفة للموت. كان الموت جزءًا من دستور الحياة.

.

بعد ليلتين، فتحت أيانا باب غرفتها لتجد طردا بنيًا كبيرًا ينتظرها. فتحت الطرد في الفجر، بعد ليلة بلا نوم. في الداخل كان هناك أواني خزفية ملفوفة في فقاعة. استخدم الخزاف طلاء شفاف وذهب ونحاس لإصلاحها. لقد كانت أكثر مثالية مع عيوبها المصقولة.

[90]

بعد أسبوعين، عادت أيانا إلى موقع كارثة شعرها. ارتعش مصفف الشعر عند اقترابها وحاول إخفاء الذعر على وجهه. قالت له: "قص كل شيء"، وأغرقت نفسها على كرسي صغير للغاية بالنسبة لوركيها.

شعر مصفف الشعر بالحماس بمجرد أن كان يستخدم مقصه الخاص ومشط ذو أسنان دقيقة. بثقة متجددة، استدعى مساعديه للإشراف على الأدوار المختلفة في التجربة التي كانت رأس أيانا.

عندما خرجت من القص والتشكيل، كان مصفف الشعر وفريقه على يقين من أنهم قد حولوا أيانا إلى ريهانا. قال لها: "ليانا". تحملت أيانا صورًا جديدة وهو الرقم القياسي النهائي في إقامتها في الصين. نظرت إلى المرأة في الصورة. أعاد العالم وتجاربه تشكيل وجهها.

غادرت أيانا شيامن والصين.

الشعور بالرحيل: تصلبت المعدة وأصبحت أشبه بكرة. كانت حياتها في فمها عندما وجهت طائرة الخطوط الجوية الكينية أنفها نحو السماء، ترتفع وترتفع كما لو أنها لا تنوي أبدًا العودة إلى الأرض. في منتصف الطريق، نظرت أيانا إلى الأرض من نافذتها. غطت ضبابًا لا يمكن اختراقه. حضرت لزميلاتها. كانت الطائرة مكتظة بالمواطنين الصينيين. ابتسمت أيانا للمضيفة -علامة الاسم "أتشينغ".

بعد ساعات، هبوط في نيروبي. لم يعد شيئًا مهمًا عندما وصلت الشمس الكينية، التي لم تكن وحشية يومًا، إلى وجهها.

رائحة العودة للوطن. عرق الفجر تفوح منه رائحة المانجو ممزوجة بالقرنفل والأرض والنار.

سأل ضابط هجرة قوي يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق أيانا، "لقد عدتِ؟".

أجابت أيانا: "لقد عدت".

Mtumbwi wa kafi moja huanza safari mapema.

القارب الذي لديه مجداف واحد يغادر في وقت مبكر.

[91]

بعد سبعة أشهر من مغادرة أيانا الصين، كان هناك حدث شديد الغرابة في معرض فني في قوانغتشو. كان المعرض يعرض أحدث أعمال الفنان الخزفي المنعزل بو فو، بعنوان "حول هذه الأرض، امرأة". كانت هذه قطعًا متنوعة تقترح منحنيات وشكل واستدارة جسم الأنثى. وقد وصفت الصحافة الأعمال بـ "الحسية والدرامية والتطورية".

أوعية مطلية باللونين الأسود والبني. كان هناك ثلاثة أعمدة، إذا تم وضعها معًا، أنتجت شكلًا مستلقيًا، ظهرت خلفه حبات وخطوط ملونة بالحناء، وغُرز برائحة -في هذه الحالة -الياسمين الليلي، علامة تجارية لأعمال الخزف. أحد الناقدين الفنيين الذي بالغ في مقاله ضمّنه صورًا في صحيفة تشاينا ديلي. لفت المديح المثير انتباه رجل كان عائدًا إلى شيامن من إسطنبول على متن طائرة، وكان يتصفح صفحات الصحف بشكل خامل. قرأ وأعاد قراءة عبارة "مستوحاة من تجربته في المحيط الغربي التي تعلمها من خلال نظرة ولمسة سليلة".

بعد ذلك بثلاثة أيام، اندلعت كلمات أمين المعرض بينما كان يثرثر على الهاتف لمالك المعرض. دخل أجنبي لشراء أغلى ثلاث قطع. بعد أربعة أيام، اقتربت المالكة، وهي امرأة نحيفة بشكل غير طبيعي عادت بعد أن عاشت في أستراليا، إلى مساحتها في المعرض مرتدية فستانًا مصممًا باللون الأسود الضيق وأحذية منصة حمراء مبطنة بالماس، لمقابلة المشتري الذي دفع ثمن القطعة الفنية الثلاثية مقدمًا. كانوا قد تأكدوا من رصيد الشك للتو. سار المشتري إلى المعرض -المغلق للجمهور -قبل ساعة من المتوقع، حيث رتبوا له مشاهدة خاصة.

لاحظت أنّ الرجل ذو الشعر الداكن والعينان الغائرتان، والذي كان يرتدي بدلة هوغو بوس -كان مقتضبًا. كان يرتدي نظارات داكنة تلمع على عظام وجنتيه العلوية. كانت ساعته المخصصة مصنوعة من البلاتين. تفحصت صاحبة المعرض الرجل، رجل أجنبي جميل وغني. تبخرت صاحبة المعرض، وحام حوله المساعدين والمنسقين.

قال الرجل: "تأكدتم من الشيك؟".

"نعم سيدي".

"القطع لي؟".

"نعم سيدي".

"ممتاز".

اقترب الرجل من الثلاثية. ضربت أصابعه الطويلة على القطع الثلاث. قال "رائعة".

"سيدي، كيف تريد منا أن نحضرها لك؟".

قام المشتري برفع أول قطعة وإسقاطها عمدًا. تحطمت.

صرخ القيّم الفني وهرع. أوقفه كوراي عبر رفع يده اليسرى. حدّق به، وسرعان ما كانت القطع الثانية والثالثة عبارة عن أكوام مجزأة تحت حواملها المعقدة. تفحّص كوراي عمله اليدوي. تعثرت صاحبة المعرض في كعبها للوقوف بالقرب منه. نظرت المرأة إليه. "وجبة عشاء؟"، اقترحت عليه. أخرجت له بطاقة. نظر إليها كوراي ورفع حاجبه وابتسم. أخذ البطاقة. كانت تسير مع كوراي تجاه موظفيها. توقف كوراي مؤقتًا ووضع يده على كتف القيّم الفني وأمين المعرض.

"أيّها القيّم؟".

انحنى الرجل.

"أخبر الخزاف أن هذه" -أشار إلى القطع المكسورة -"هي أرض خاصة. تلك البحار وما تحتويه. سيتم تحطيم المتجاوزين".

أومأ أمين المعرض بقوة.

"الآن، كرر الرسالة... ".

تلعثم أمين المعرض بالكلمات عدة مرات، وهو يستجيب لإيماءات صاحبة المعرض. ثم ربت كوراي على كتفه. استدار كوراي وقبل صاحبة المعرض على خدها قبل أن يهتف صافرة عبارة عن أغنية كورية مزعجة ولكنها جذابة.

أرسلت صاحبة المعرض للاي جين حصته من المال من البيع. ولم تبلغه بمصير عمله. أقسمت هي وموظفوها على السرية بشأن ما كان أشبه بآلام الموت.

.

بعد ذلك بأشهر، تعرّض لاي جين للضبط من قبل ثمانية مسؤولين حكوميين كانوا يتربصون في الجوار، يحلقون مثل الثعابين العصبية. لوحوا بمخططات ضخمة، هؤلاء البيروقراطيون الذين يطالبون الآن بالمنارة وبالجزيرة وبالمنطقة. كانت المخططات لمنتجع جديد تمامًا.

أوقف لاي جين العجلة ومسح يديه قبل أن يستدير لينظر إلى الموظفين العموميين. كان الانفصال عن المكان والبلاد عملية بطيئة. كان يتوقع هذا. في الخارج، طار البط في رضا. أزال لاي جين بقعًا من الطين عن أصابعه وقميصه وفكر في العصافير، الذين سيعودون في الربيع ولا يجدون أرضًا هنا. نظر من النافذة نحو أفق ضبابي.

"في البداية كان هناك... ".

إذا نظرنا إلى الوراء: "الأحداث تلقي بظلالها على نفسها"، هذا ما قيل.

"هل تريدون الماء؟"، سأل الرجال محاولًا أن يكون مهذبًا.

لاحقًا، راقب أحد الرجل يضع علامة عند المنارة نيابة عن الأمة.

أمضى لاي جين الليلة بعد الزيارة وهو يتفحص البوصلة القديمة التي أعطتها له أيانا، بحثًا عن اتجاه الشمال.

في غضون شهر، حزم لاي جين منزله في ثمانية صناديق. زوّر سوارًا فضيًا مجوفًا، ولفّ فيه الورقة التي طبعت عليها أيانا كلمة بسم الله.

بعد أيام، حاول طرد البط المتفاجئ. كانوا غاضبين من سلوكه. ابتعدوا لبعض الوقت قبل أن يعودوا كقطيع. "اهجروا السفينة"، أمر البط والعصافير والأرض والمنارة والبحر. غادر لاي جين إلى هونغ كونغ. سيستغرقه حلّ معظم أصوله أكثر من ثلاثة أشهر، ثمّ يمكنه أن يتخيل وجهة أخرى.

Kilichomo baharini, kakingojee ufukoni.

ما في البحر سوف يطفو على الشاطئ.

[92]

تزامنت عودة أيانا مع عودة نوع مختلف من زوار البحر، نذير. كان القبطان في بيت محمد لالي كومبو واثنان من أفراد الطاقم قد استعادوه من شباك الصيد الخاصة بهم ونقلوه إلى الشاطئ. يسمونه "كلب البحر". وضعوه على رصيف الميناء، حيث راح ينظر إلى مراقبيه. انتشر الخبر بعد أن وصل إلى مذيع إذاعي قام ببثه. بعد انتشار الخبر في بيت، عُرف لاحقًا أنّ المخلوق أسد بحر من جزيرة كايب. كانت بعيدًا عن المنزل، ينتمي إلى أبعد البحار. كان نذيرًا وبات ذلك واضحًا.

لكن وجهته كانت في مكان آخر. بعد مناقشة بين الكثيرين، قرر سكان الجزيرة أن يباركوا السائح ورحلته الغامضة. أعادوه إلى قارب القبطان كومبو، وأعاده هو وطاقمه إلى البحر. طيور التَبْس -طيورٌ تُنْقَل عبر الرياح الموسمية، اليعسوب يشع في ضوء القمر، ومدارس الدلافين، أسد البحر، مواسم الأرض المتغيرة. اختفت النجوم. ظهر وقت وحطام النفوس التي تحركها الرياح الموسمية على شواطئ رمال بيت الداكنة. عادت أيانا إلى الظهور في الأرخبيل الذي كان يسيطر على جزيرتها.

ملأها شعور العودة بالحيرة.

الكلمات. اللغة. المنزل.

كان الضوء فوق رصيف الميناء. كان ينظر إلى جلود أخرى ويرى ظلالًا خاصة بها.

الكلمات، نهر قزحي الألوان.

تذكرت حواسها ألوان الفكر ونكهة الكلمات ورائحة الصور وطريقة العيش هنا وفي اللحظة الحاضرة.

تنصتت أيانا على الريح، لتلتقط أجزاء من الأغنية.

تقرير المد الأمة الكينية في دائرتها الانتخابية التي لا تنتهي، انشغال المواطنين المارين بشخصيات ساستهم: "الزبالون".

المرادفات التي استخدموها لشتمهم. ضحكت أيانا – ما أثار ضحكتها كان ألفة السخط الوطني. انتقلت من رصيف إلى آخر على الميناء، قطعتا أمتعتها بالقرب منها.

الاستماع. التميز، مرة أخرى، هذه المساحات التي تنقل الأشياء العادية: الضباع يمكن أن تثرثر مع الأرانب، كان بإمكان فومو ليونغو، الأسطورة والقائد، السير على خطى النار، الحمير كانت نذيرًا، وليس كل شخص يحدق بك شخصًا.

أقلعت الطائرة التي أودعتها في جزيرة لامو مع مجموعة جديدة من الركاب. شاهدتها أيانا قبل أن تتحول لقراءة بحارها مرة أخرى، وكأنها قصة طفولة فركت كل كلمة لها وتذوقتها وخزنتها داخل أفضل أحلامها.

واجهت أيانا المدينة القديمة على واجهة مائية. الأطفال: كانوا يضحكون. غطسوا في البحر. وأدركت أنها قد تصرخ. تحيات المارة بلا توقف. الألوان والألوان، كانت تشعر بالدوار والسكر.

المنزل: النفوس القادمة. بعض السياح. الاستماع. في الغالب كانوا من الألمان، تجاهلوا تحذيرات السفر إلى الجزيرة. زوارٌ آخرون في الخارج، موظفون مدنيون لا يملكون روح الدعابة. القادمون إلى المنزل. اليوم، كانت، منهم، قادمة إلى المنزل.

إبحار القوارب، والضوء على الحشائش، والضوء على الماء. ضوء أزرق، ضوء أرجواني، ضوء برتقالي. ضوء يضيء الضوء. لقد نسيت أن الضوء يمكن أن يكون كذلك. في حقل قريب، الدجاج والماعز والأغنام وبقرة واحدة. تباطأ قلب أيانا أخيرًا. اجتازت ريح القناة، دحرجت الأوراق الذهبية والبنية في أعقابها.

ثمّ كان صوت أذان العصر: "الله أكبر...".

إعلان. وعد.

"الله أكبر ... "، نضجت الأغنية. "حيّا على الصلاح... ". تتابعت أصداء الاستدعاءات من المساجد عبر المياه. زفرت أيانا ورفعت وجهها نحو السماء. من هناك، وصلت إليها همسة من وقت آخر: "حيّي نفسك / بألف أشكالك الأخرى / وأنت تصعد المدّ المخفي / في طريق العودة إلى الوطن... ".

كانت العبّارة العامة إلى بيت في رصيف لامو المليء بالسلع بالإضافة إلى بعض الماعز والأرواح، في انتظار القبطان لارتفاع المد. الأصوات التي صدحت بكلمات الوطن. نسج الحياة المنسوجة في الأرض، وأصوات الآخرين الذين وجدوا منزلًا هنا.

تستغرق الرحلة بالعبّارة من رصيف ميناء بيت من ثلاث إلى أربع ساعات، وساعة

أخرى أو نحو ذلك للسير إلى بلدة بيت.

إلهام مفاجئ: قررت أيانا استئجار زورق سريع بدلًا من ذلك. اختارت أحدث زورق وأقنعت صاحبه الشاب، الكابتن علي، بالسماح لها أن تقوده بعد أن وصلت إلى قناة مكندا. أسرعت أيانا في طريق العودة إلى المنزل.

[93]

أولئك الذين كانوا يعرفون أيانا الطفلة تفاجأوا لرؤية أيانا السيدة الأنيقة التي بدت أجنبية، شعرها قصير، تضع نظارات طبية كبيرة وترتدي حذاءً عاليًا وقد عادت إليهم على متن أحد زوارق لامو السريعة. صعدت إلى الشاطئ بثقة وبرودة خلقت رعبًا مؤقتًا. نظرت أيانا حولها، وهي تتنفس فقط، حيث بدأت آلة الترحيب والضيافة في الجزيرة.

قام الرجال بتفريغ أمتعتها في رصيف الميناء، وهتفوا بتحياتهم: "هل يمكن أن تكون هذه أنت يا أيانا؟".

مرت الكلمة أسفل مسارات الجزيرة: عادت أيانا. عادت أيانا كصينية.

أولئك الذين جاءوا لرؤيتها، وسعوا إليها، وجدوا إشارةً إلى أيانا القديمة، كانت عطر الورد الخفيف الذي لا يزال يفوح منها.

"أيانا"، ركض إليها المعلم جمعة. أمسك بيديها. كان قد اكتسب المزايا من نتائج امتحانها المدرسي في نهاية المطاف معه وحققت له مكافأة كبيرة. عندما حان الوقت، تم تعيينه ضابط تعليم مقاطعة. هتف، بابتسامة عريضة أظهرت لثته، "لقد عدت إلينا". لاحظ الخطوط الجديدة على وجهها، عباءة التعب التي ارتدتها. لقد أضناها العالم.

وأضاف "الحمد لله". خفضت أيانا نظارتها الشمسية لتنظر في عيني معلمها القديم قائلة، "أنا هنا".

غنّى أحد الصيادين العابرين: "قد يرتفع النسر، ولكن يجب أن يعود إلى شجرته". ضحكت أيانا. وكانت هناك صلوات وأغاني وزفير وعجائب.

المتعاطفون مع المسافرة.

غمس في المحادثة لاستيعاب الحزن، كل الخسائر.

قال لها إمام شاب أنّه يصلي لعودة محيي الدين. "المحيط هو رمز. يمكننا فقط الانتظار". صحيح. وساروا ساعة ونصف جنوب غرب بلدة بيت، هذا الوفد الترحيبي والعائد. داسوا على الأنقاض والركام.

ألفة التحلل: أطلال النبهاني، قبور ومقابر الكثيرين.

نقوش شعراء بيت وعلماؤها وقديسوها وزوارها. عبرت أيانا إلى مركز السوق حيث كانت هناك امرأة مجوفة ومليئة بالذهب، ترتدي ملابس بنية اللون. كانت تنظر إلى أيانا كما لو أنّها على وشك أن تلدغها: "أنتِ؟ لقد عدتِ؟".

ماما سليمان.

داخل أيانا، فسيفساء من العواطف، بقايا مخاوف الطفولة. نظرت المرأة إلى أيانا من الأعلى إلى الأسفل.

"تبدين كالصبي أيّتها الصين. لماذا أنتِ شديدة النحول هكذا؟ الكلب والثعبان لا يصنعان وجبة؟".

تلعثمت ماما سليمان: "لقد قاموا بترحيلك؟".

تنفسّت أيانا. من شجرة عالية، نعقت بعض الغربان الموجودة في كل مكان في الجزيرة. اختلطت رائحة البحر برائحة الياسمين البري. كان إيقاع المد نغمًا مألوفًا. الرفاه. الزفير. تنفست أيانا بعناية. "من الجيد رؤيتك مرة أخرى، سيدة آمنة. تبدين بحالة جيدة".

استأنفت مرورها غير السريع على طول الطريق المؤدي إلى منزل والدتها. قام حذيفة بتثبيت أبواب متجره على عجل نحوها، ملوحًا بمفاتيح المنزل الرديئة التي تركها عمال محيي الدين خلفهم. على طريقة العمال غير الخاضعين للرقابة في كل مكان، تخلوا عن إصلاح المنازل لتولي أعمال أخرى.

هتفت أيانا ما شاء الله عندما لمحت منزل طفولتها. لا يزال يبدو كما لو أنه انبثق من مرجان الأرض. كم كان صغيرًا. كيف ... هو قديم. على بعد مسافة قصيرة، غطتها النباتات البرية الآن في حديقة والدتها برائحتها الجامحة. كانت شجرة ثقيلة بالفواكه الناضجة. أخذت أيانا المفتاح من حذيفة وأدخلته. تحول القفل. فتحت الباب ودخلت

المنزل، وتجمع الغبار المتراكم أمام رأسها. داخل الفضاء المظلم والعفن في المنزل، وضعت أيانا حقائبها. سقطت على الأرض. تكافح لتجد الكلمات. لفت أيانا ذراعيها حول صدرها.

الألم: المنزل.

في أرض كهذه، من الواصلين والمغادرين، كانت هناك طرق عديدة لإعادة الاتصال. عناق. ضحك. صلوات. الطعام والشراب: شاي، ماء جوز الهند، مكاتي وموفا. ظهر الآخرون، الترحيب، الثناء. قالوا "والدك" وتركوها عند هذا الحد. صلى شيخ من أجل عودة محيي الدين. وأضاف أنهم ممتنون لعودة أيانا سالمة. انزلق اليوم إلى الظلام، وأضاء أحدهم ثلاثة مصابيح إعصار.

رائحة الدخان من الحرائق المخفية.

المنزل.

سؤال امرأة: "إذن يا طفلة، كيف حال الصين؟".

توقفت أيانا.

"جيدة"، أجابت بعد ثلاث ثوانٍ.

"هل أحبوك؟".

ابتسمت أيانا ابتسامة لم تدل على شيء.

"هل هم حقًا مثلنا؟"، قاومت أيانا رغبة المسافر في تجميل الحكايات.

"إنهم هم أنفسهم".

"هل ستعودين؟".

"لا أعرف".

"فعلًا؟"، شعرت السائلة بخيبة الأمل.

أضافت أيانا: "لم أجد هناك ما هو لي".

في تنفسها، الحقيقة: "لو بقيت، لكنت تبخرت. قلبي متعب. الآن تحدثني أحلامي بلغة الماندرين. حتى الشياطين أصبحت تنانين حمراء".

"أخبريني عن الطائرة -الطائرة التي لا تزال غير موجودة".

عبست أيانا.

ثم تذكرت الرحلة MH370. رأت كيف أن اختفاءها سحق القلوب في الصين. لقد

درسوا كصف دراسي عملية مسح السونار في قاع البحر لتحديد موقعه.

أجابت: "أحجية".

قال رجل، "يجب أن يستشيروا أنبياءنا". "أو الصيادون"، كانت امرأة ترفع صوتها. ضحك.

"لقد سمعت أن كلب البحر زارنا؟".

أجابت أيانا بعيون مشرقة: "نعم".

"ماذا تريد منك هذه الصين؟".

صمتت أيانا.

"ماهي شهادتك؟".

"بكالوريوس العلوم والدراسات البحرية".

"ماذا يعنى ذلك؟".

"يمكنني إحضار سفينة إلى الوطن".

"أنتِ؟".

"نعم أنا".

"فعلًا!".

سكون. راقبوها. لذلك سألت أيانا عن معارفها القديمة. مات بعضهم. غادر البعض إلى مومباسا أو نيروبي أو عمان أو زنجبار أو أي مكان آخر. قيل لها عن استمرار وضع الدولة بيد الجهلة، الصم والعميان والأغبياء، "الحرب على الإرهاب" المفتوحة التي تبنوها كما لو أنّها حربهم.

الإعدام والقتل، وجولات يوم الجمعة في مومباسا. ذبح الأغنام من قبل الرعاة لإطعام شهوة الغرباء. نعم، ذهب بعض الشباب إلى القاعدة وحركة الشباب وتنظيم داعش، متخيلين الجنة.

السكون: انعدام الغضب العقيم. إخماد الأصوات الآن. سمعت أيانا عن الخيانة والموت والألم. الحياة وحروب الآخرين. تسلل البرد إلى جسدها عندما علمت أن قناة مكندة الأبدية قد تكون مغلقة، وأنه سيتم بناء ميناء جديد من قبل الصينيين. كان من المقرر أن يبني الصينيون خط أنابيب نفط لاجتياز لامو. سوف يرتفع مصنع الفحم في لامو

البكر ويحول الجزيرة إلى اللون الأسود والكئيب. سيبني الصينيون ذلك أيضًا، وتذكرت أيانا رؤيتها لعنكبوت ينسج شبكة حول العالمين. "هل ستتحدث إليهم من أجلنا؟"، أحنت أيانا رأسها وتحولت للجلوس على كعبيها.

ظلال عملاقة على الحائط: شكل العالم الجائع الذي اعتقدت أنها ستتركه وراءها. تعرفت على الفم المفتوح المليء بالرائحة المنعشة الذي وعدت به جزيرتها. غاز. نفط. فحم. بحار.

"هل ستتحدثين إليهم من أجلنا؟".

نظرة صاعدة، تنظر إلى شعبها. ماذا يمكن أن تقول؟ ما هي اللغة التي يمكن أن تستخدمها؟

هنا كانت رائحة الكيروسين، القرقرة المألوفة للمياه العذبة في دجرباس. أضواء قرمزية صغيرة من حرائق الفحم. رائحة عسل المحمرى المقلّى. هنا جرس البحر. حدقت في شعبها، هؤلاء البقايا بأحلامهم المنقولة في البحر، وعيونهم المضيافة وغير المعقدة. إذا كانوا متناثرين، فما هو مفترق الطرق البعيدة التي ستفهم بريقهم؟ نظرت أيانا بعيدًا، دموعًا جديدة تنسكب في عينيها. مسحتها. لن تقول شيئًا عن القوى المشوشة التي تسير نحوهم. أغمضت أفكارها، ثم عدّلت عمودها الفقري.

في جزيرة بيت، هناك دائمًا طريقة أخرى، أليس كذلك؟

"هل ستتحدثين إليهم من أجلنا؟".

"سأحاول"، قالت لهم.

الموضوع التالي. ازدادت الثقة المتجددة دائمًا في مكافحة لامو، وحلقات المسلسلات من المشاحنات القديمة التي كانت ممتعة للتذكر. في الرواية، كان بيت في الذاكرة مكانًا متميزًا، مشهورًا بالمؤسسات والحضارة والمنح الدراسية -رائد البحار السواحلي.

الشفقة على قسوة الوقت، الشفقة على غدر لامو. ثم نزل الصمت الذي تستخدمه الأشباح لتأكيد وجودها على التجمع. في الخارج، كانت الرياح تتدفق كحجر. وبعد ذلك، في النهاية، سمعت أيانا صوت بحر المنزل. مسحت الدموع الصامتة. ولكن هذه المرة لم تبكِ وحدها. التفت جزيرتها حولها. كانت في داخلها. أعادتها إلى الانتماء.

ضحك طفل. كان هناك المزيد من الخبز للكسر. ماذا سيحدث لهم؟ رياح منخفضة الصفير. استمعت وتذكرت أن قوى شريرة أخرى دخلت بيت عدة مرات من قبل. لكن

بيت لطالما نجت من الشهوات المتعطشة للدماء.

كان الوقت يقترب من صباح جديد عندما غادر آخر من رحبوا بأيانا. ثم استقرت في عزلة بيت الخاصة، بين أشباحها المنجرفة البدائية. إلى هذه الأشباح، كان يمكنها أن تظهر ملامح تضاريس داخلية ذات كثافة سكانية عالية، وأجزاء من الصين أعادتها إلى جزيرتها. الوصول من خلال الغيوم، وهي تمسك... بلا شيء. عندها فقط أدركت أن كل تأملاتها كانت باللغة الماندرين. وقفت أيانا دفعة واحدة للذهاب إلى غرفة نومها القديمة. صغيرة، عارية، ناقصة بمعايير الأماكن التي أتت منها. توقفت عند المكتب القديم مع أغراضه: شعر رابعة العدوية، بسم الله أخرى على بيت، لؤلؤة سليمان؛ بطة بلاستيكية؛ صور منيرة ومحيي الدين الباهتة.

لمست هذه. الرسالة من منذ فترة طويلة، التي تركها لها محيي الدين. خراجه ما زال مظلمًا ومليئا بالوعد: "عبيرة، لقد ذهبت للعثور على زرياب. سأعود. كوني شجاعة. احمِ والدتك. ادرسي بجد. أنا من هو والدك، محيي الدين ".

ضربها إحساس مثل سكين بارد تحت أضلاعها. كان ذلك أثر عبارة "أنا والدك، محيي الدين".

ثم بكت أيانا.

بعد ذلك، نامت عارية. لم يكن قد سبق لها أن تنام هكذا. استمعت إلى البحر، أغواها نحيبه أن تذهب إليه. انتظرت. استمعت بينما كان المنزل يئن في أماكن جديدة.

بعد أن أغلقت أيانا عينيها المتورمتين، لم تستيقظ حتى مساء اليوم التالي.

[94]

نظرت أيانا إلى المناظر الطبيعية الباردة، كانت تتساقط منها الروائح، وتخللت روائح البحر الجو. بُرك تقفز في الوسط. كانت أيانا تلفّ نفسها بشال والدتها عندما وصلت إلى حافة الماء. لحملت قصاصة ورق ممروسة.

عوالم أخرى.

خاضت فيها، قفزت، وهبطت على الصخور البارزة من الماء.

الاستماع إلى البحر، كائناته الليلية، تكسّر موجات بعيدة في المياه العميقة. عندما رفعت ذراعيها لتنشر حواسها عبر البحر من أجل أن تشعر بمحيي الدين البدوي، والدها، والدها الوحيد، فعلت ذلك بألفة الطقوس.

استشعرت مراقبي الليل الآخرين، والمستمعين الليليين، وخطر أشباح الليل الذين عرفوا أماكن اختباء الغائب.

صعدت إلى أعلى صخرة. حرّكت رقبتها نحو النجوم، مستدعية الريح. أرادت أن تحمل زوبعة إلى محيي الدين جزءًا من الورق الأصفر الذي كان يعيش في باطن كتاب بني داكن. التقط النسيم البطيء قصاصة الورق من يدها المفتوحة. حلقت قصاصة الورق. التفت، حلّقت فوق الارتفاعات لكي تجول الأرض، ثمّ هبطت إلى البحر.

خلال النهار، كانت تعود لتمشّط البحر، بحثًا عن أيّ علامة – هل كانت هذه آثار اقدام رجل؟ - كثبان رملية عابرة، تبحث فيها عن أيّ شيء قد يكون وقع من جيب محيي الدين.

أنا هنا؛ عُد – كان هذا اللّحن الذي ينشده قلبها.

اتصلت بمنيرة لإخبارها بأنها عادت إلى جزيرة بيت. استمعت منيرة لابنتها. ثم أكّدت بشكل قاطع: "لكن هل ستعودين إلى الصين؟".

ردت أيانا: "لا أعرف".

الصمت.

"أنت هناك للبحث عنه، أليس كذلك؟"، تمتمت منيرة.

"نعم".

"فكري بمستقبلك"، قالت منيرة.

لم تُجب أيانا.

سألت منيرة: "ماذا ستفعلين؟".

"ربما أجد عملًا في الميناء لبعض الوقت، ريثما أقرّر".

"أيانا!". كانت منيرة غاضبة.

تنهيدة.

"على الأقل، تعالي إلى مومباسا. لا تبقي في بيت، هل تسمعينني؟".

عضّت أيانا شفتها السفلى، دون أن تقول شيئًا.

في اليوم التالي، استأجرت أيانا ثلاثة قوارب حتى تتخيل مسار محيي الدين وتتبعه. وهناك -على البحر الأزرق الهادئ، المطل على الجزر الحرجية والشاطئ الأبيض، تحت سماء صارخة حلق فيها طائر واحد، وسط إيقاع أصوات الرجال، شعبها، الذين جذفوا بها على قوارب خشبية محنكة، أرواح تقرأ الماء من أجل خيوط الحياة -في كل هذا، شيء من الجمال، هذا الحدث المتوهج، غمر النفس العميقة لأيانا، ودون توقعها، بدأت في النحيب واستولت على ذلك الشيء لنفسها، وضغطته لتقربه من قلبها وتغرق في صلاة بلا كلمات.

كانت تسعى لإيجاد محيي الدين. تركيزها كله هناك. بحثوا في البحار على مدى يومٍ كامل. عادوا إلى الماء في اليوم التالي، واليوم الذي بعده، لكنهم عادوا إلى الشاطئ بعد الظهر لأنّ البحر كان لا يهدأ.

في اليوم الخامس بعد عودتها إلى جزيرة بيت، كانت أيانا تسير من منزل إلى منزل، وتسأل الناس عما رأوه وماذا يعرفون. قال لها المعلم جمعة أن محيي الدين تعهد أنّ "هذه المملكة ستُعرف مرة أخرى"، وهو يسلم كتبه القديمة إلى المدرسة.

كان محيي الدين قد أخبر حذيفة أنه بات يعرف الآن جواب لغز السعادة. وقال حذيفة لإيانا: "لم يكن يكره أحد". قال الخياط، "عاد والدك إلينا شمسًا. كان تأثير بمبا ممتازًا عليه".

أخبرت دورا أيانا كيف حاول محيي الدين طمأنة السيدة آمنة عن ابنها سليمان.

في اليوم السابع، سارت أيانا إلى الجوف لتتحدث إلى المهدي. سيكون لديه الكثير ليقدمه. كان مهدي قد خصص قطعتين من الأخشاب الطافية: واحدة لمحيي الدين، والأخرى لمزاي كيتوانا. وقال لأيانا إنّها "علامات المكان".

"أراد محيي الدين قاربًا لزوجته. أنا أعمل على ذلك".

لمست أيانا البدن، والحجامة. وتابع اهدي: "أردت أن أذهب إلى بمبا، لكن لا يمكنني أن أترك مزاي كيتوانا. ليس لديه أحد، كما ترين".

توقف. حزن عابر. "لم أستطع الذهاب".

تحول مهدي إلى أيانا، نظرة تساؤل على وجهه.

راقبا عودة الزوارق عند الغسق، ومعها الهدوء الذي سكن أمسياتٍ كهذه.

ثمّ أضاف محيي الدين: "تحدّث عن زرياب".

سعل.

"حلم بابنه. في الحلم، قال إنّه سلمه قلبه".

ربتت أيانا على القارب. قال مهدي: "نبوءة تضحية".

ثم أضاف بصوتٍ خافت: "كيف كان لنا أن نعرف؟ كنا طلبنا من كيتوانا الانتظار".

فجأة، التفّ مهدي حول نفسه. سالت على خدّه دمعة واحدة. ولكن فجأة أيضًا، توقف. ثمّ راقبا عائلة الطيور التي انتقلت للعيش في أراضي مهدي.

توافد الكبار الثلاثة والأحداث الأربعة في مكان قريب، واثقين من مكانهم. كان أحدهم قد أحضر أحجارًا شاحبة إلى المهدي. "لا يمكنني الاستمرار في طردهم، أليس كذلك؟"، قال لأيانا. شاهدت الطيور.

"أبوك. تكلم عن الماء. تحدث عن عمّه. رجل رهيب. تذكره وهو يلعب على المزمار. كان لديه اقتباس مقدس لكل شيء. ولكن أيّ إنسان يمكنه أن يدعي أنه يعرف الحقيقة الأعمق للرجل، أخبريني؟".

نعيق الطيور التي أشار لها مهدي أن تبتعد. بالكاد رفعت أجنحتها

قال مهدي لـ "أيانا": "ذهب والدك إلى البحر. كانا يبحثان عن الألغاز. ذهب مزاي كيتوانا معه. كانا جالسين هنا عندما قررا الذهاب".

وأشار مهدي إلى مكانين بالقرب منه. ثم حدق في البحر. وتلا قصيدة لرجل البحر القديم عن البحار الغامضة. "إنهم لم يعودوا".

الصمت. شاهدا الماء ذو الخطوط الفضية. "ذهبت للبحث عنهما بنفسي". توقف مهدي قليلًا. "سألت الريح؛ لكنها لم تجب. كان عليّ أن أتصل بوالدتك لإخبارها. يا لو من يوم فظيع".

حدّق المهدي إلى الأرض مع استئناف أخبار المد والجزر. سمعت أيانا ومهدي أن المد العالي كان متوقعًا في الساعة السابعة و47 دقيقة.

جلست أيانا بالقرب من الأخشاب الطافية لمحيي الدين والتقطت شراعًا ممزقًا كان

مزاي كيتوانا يقوم بإصلاحه قبل اختفائه. بحثت عن الإبرة السميكة التي تُكمل بها العمل. راقبها مهدي لفترة من الوقت. درس الرأس المنحني، والوجه المميز والمشع بالحياة، والشعر القصير الذي تحرّك قليلًا في الريح، والمرأة النحيلة ذات الجمال غير العادي.

تحول نظره إلى الشراع المرقط والإبرة الكبيرة في يديها. لم يقل شيئًا. ولم يقل شيئًا عندما عادت بعد الفجر وبقيت إلى جانبه حتى المساء. كان مُلاك الشراع من أونجوجا. لقد فكر لنفسه أنهم لن يعرفوا أبدًا أن امرأة عملت في شراعهم. أضاء شعور الأذى في فمه. لطالما كان سعيدًا برفقة أيانا. قال مهدي لـ "أيانا": "سننظر. حتى نعلم. سننظر. حتى بعد أن نموت".

واصلت عملها.

أنا من هو والدك، محيي الدين.

لطخت دموعها الشراع.

[95]

رست قوارب الصيد من الموانئ الأخرى، على الشاطئ في جزيرة بيت لانتظار العاصفة تقترب بسرعة. مثل سكان الجزر الآخرين، تجولت أيانا للاستماع إلى حكايات البحار.

أصداء من نفس الصرخات: انخفاض المخزون السمكي، الشراهة التي تفرغ سفن الصيد من الأراضي الوعرة، صمت السلطات، الحنين إلى موسم القراصنة الصوماليين، الأبطال الذين أخافوا ناهبي المحيطات وأعادوا تشغيل سمك الخرمان. ثم سألت أيانا الزائرين عما إذا كانت لديهم أي أخبار عن بحار يدعى الملنغوتي.

قالوا إنّهم لم يسمعوا أيّ أخبار قريبة. قالوا إنّهم سمعوا إشاعات أنّ شخصًا بهذا الاسم، منذ عامين تقريبًا، كلّف معارفه البحرية بالقرصنة للبحث عن واحتجاز سفينة تدعى بتشبع، في حالة رؤيتها تقترب من ساحل شرق إفريقيا. كان على أصدقائه الملاحين أن يضعوا أرواح السفينة في العمل الإلزامي في مكان غير مرئي، للحد الأدنى للأجور، طالما

أرادوا. أبعد من ذلك، لم يسمع هؤلاء الصيادون أي شيء آخر عن الرجل. احتضنت أيانا هذا الخبر الذي أسرّ روحها: مظلة واقية من الأب الضائع تصل إلى محو مخاوف الابنة. لم يكن من المرجح أن يظهر المشرقي على هذه الشواطئ مرة أخرى.

. .

بعد أسبوعين، سافرت أيانا إلى نيروبي برًا. واستوقفها تطور خط سكة حديد قياسي صيني الصنع يتخطى المناظر الطبيعية برسائل أخلاقية مزخرفة على لافتات ضخمة: "اليوم مهارات منخفضة، غدًا يمكنك أن تصبح بين كبار المهندسين".

كان اسم أيانا في الكتاب لموعدها في الصباح الباكر في سفارة جمهورية الصين الشعبية في جمهورية كينيا. وأعلنت لافتات عند البوابة "ندوة حول تعميق التعاون الصيني الافريقي". تم فحص الحزمة المغلفة بالورق الأحمر التي كانت تحملها في حقيبة يدها البنفسجية الكبيرة.

أدخلها رجل إلى مكتب مستشار الثقافة والتعليم. بعد دقيقتين، دخلت شو رولان في أحذية جلدية. وقفت أيانا. حملت مجموعتها بكلتا يديها. كان هناك مجموعة ليزو خضراء وبيضاء منسوجة عليها حكمة. ترددت أيانا قبل أن تأخذها وقالت "شكرًا لك". ألقت عليها شو رولان التحية، ومدت أيانا يدها اليمنى، وبادلتها التحية. رفعت رأسها قبل مغادرة الغرفة. شاهدت المعلمة رولان أيانا وهي تشق طريقها عبر بوابات السفارة. فكت بيديها بهدوء الهدية. درست الألوان على القماش والأنماط. قرأت وترجمت الحكمة لنفسها، "المعرفة محيط، ليس لها جدران ولا سقف".

يجب على الطالبة تكريم معلمتها.

Usiku mwaka.

الليلة بطول سنة.

[96]

المصائر.

ركض الأطفال، الجيل التالي من سكّان الجزيرة، إلى أسفل التل باتجاه مشغل مهدي بحثًا عن أيانا، التي كانت مستغرقة في العمل وملابسها ملطخة بالزيت.

"آنسة أيانا"، صاحوا جميعهم بصوتٍ واحد.

أطفأت آلة قصّ الحديد ورفعت خوذتها الصدئة، لتستمتع لما كان لدي الأطفال لقوله.

خرجت من السقيفة، والتف الأطفال حولها. رأته، العملاق. ظهرت عليه علامات مرور الوقت، لكنّه كان لا يزال هادئا، وقربه شيء ضخم ملفوف بقماشٍ أخضر. كان يحمل حقيبة جلدية سوداء. "نيورغ"، صرخت أيانا وقد نسيت نفسها. وكما لو أنّها لم تتسبب بفضيحة كافية في الجزيرة، قفزت لترتمي بين ذراعيه. رفعها نيورغ، كانت هناك الكثير من الخطوط على وجهه، وشعره أبيض الآن.

صاحت أيانا: "ماذا تفعل هنا؟ أين ديلشكا؟".

نظرت أيانا حولها، بحثًا عن صديقتها.

قال نيورغ: "إنها هنا".

قام الحمال الذي كان يحمل حقيبته بتسليمها له. أعطاه نيورغ بعض النقود.

"أين هي؟"، سألت أيانا، وهي تتفحص الطريق خلفها. سحب نيورغ صندوقًا خشبيًا محفورًا. داخل جرة زرقاء داكنة، جرة مطلية. لم يكن بحاجة للتحدث. في السكون تبرز الحقائق الصارخة. في اللحظات، يتجسد الماضي، وما هو غير معلن عنه وهمس الحاضر، ليس بالكلمات. هناك طريقة لمعرفة ذلك تتجاوز الكلمات الدنيوية. ثم عرفت أيانا، لكنها حاولت إنكار الحقيقة. نظرت في عيني نيورغ، صوتها يكسر. "ما هذا؟".

رفع نيورغ عينيه ليتفحّص الجزيرة. نظر إلى السماء، إلى ما لا نهايتها وكيف قابلت البحر. ما بين بين. شمّ رائحة التعرق على جلد أرض المرجان، مبعثرة بالرياح بأسماء غريبة وغنائية. نظر إلى المرأة الصغيرة التي تنظر إليه بنظرة تضمّنت كلّ حياتها. أراد أن يقول، هذا هو مرور الحياة، هنا تتويجها. على عكس المد والجزر، لا نسمع دائمًا أنّ الموت قادم.

الحزن هو قدرنا، لكننا نعيش أحيانًا بما يكفي للتعرف عليه ليصبح صديقًا. كل

شيء يفسح المجال، في مرحلة ما من وجوده. حتى البؤس يفسح المجال. تبقى حقيقة واحدة: لقد كنت محبوبًا. وأحببت. آه كم أحببت.

ارتسمت ابتسامة ناعمة على وجه نيورغ. قال: "أيانا-صغيرتي، لقد أحضرت ديلشكا إلى المنزل. أنا واثق من وجود شخص حصيف سيساعدنا في الصلاة عليها على أرضكم؟".

ملأ صفّان من الدموع وجه أيانا. أحنت رأسها. في النهاية، قالت: "نعم، اتبعني".

سارا باتجاه بيت الشيخ شموم. كان تطبيق الشيخ للإيمان واسعًا وخلاقًا واستوعب بشكل كبير التقلبات البشرية.

"ماذا حدث؟"، سألت أسانا. نظر نيورغ إليها. "هذه الفتاة الجميلة... سقطت".

"سقطت؟"، كررت أيانا.

"نعم، وقعة صعبة".

الهدوء.

مشيا معًا. تحت أقدامهما، تحطمت الرمال.

انشق شيء ما وتأوّهت المعادن حيث استدار محرك سفينة كينغروي شمالًا ودفع بديلشكا إلى الأمام. سقطت على الأرض. ارتطم رأسها بجسم معدني بارز، وسُمع صوت عنقها وهو ينكسر.

ركض نيورغ صوبها بقفزةٍ واحدة وسمع صوتها وهي تصيح: "اللعنة. أنا آسفة يا حبي الكبير".

لم يكن هناك ما يمكنه ان يفعله من أجلها. ارتعش من الداخل، لأنّه لم يكن يعرف كيف يصرخ بصوتٍ عالٍ.

"لا تتركني"، تمتمت ديلشكا. "صلّي من أجلي".

"كيف؟".

"الآن أرقدني...".

"ديلشكا...".

"أحبني...".

"ديلشكا...".

وسط أجواء هذه الكارثة الهادئة، راقب المشاهدون بحيرة التجاعيد والظلال وهي

تتملك وجهًا عملاقًا أجنبيًا أسود يعضّ شفتيه ويحتضن امرأة تنزف بين ذراعيه. سارع فريق طبي مع نقالة إليهما وبدأ العمل. حين رأى ديلشكا في سيارة الإسعاف السريعة، أضواؤها تنعكس على المارة، عرف نيورغ أنّه لا توجد نظرية أو فلسفة لما سيؤكده أطباء الطوارئ في المستشفى: ماتت ديلشكا.

.

بعد أسبوعين من وفاتها، تمّ تحميل تابوت رئيسي في طائرة شرق الصين متجهة إلى روما. جلس رجل صامت يرافق الجثة في درجة رجال الأعمال، ويدرس وثيقة مكتوبة بلغة الماندرين ومرفقة بترجمة إنجليزية سيئة، وأخرى فرنسية أكثر فظاعة. ركزت عيناه على الجزء من الوثيقة الذي أشار إلى اسم "ديلشكا تارانجيني نوبيلا، زوجة نيورغ نوبيلا".

الموت لم يوقف خطتهما. نفّذ خط سير سفرهم بالكامل.

تعديلات بسيطة فقط: كانت عربة الموت تنتظر في روما. قادها. أدرج أيضًا وجهة كان قد اعترض عليها في وقت سابق -كنيسة القلب المقدس.

تحدث إلى ديلشكا هناك. بعد أشهر، حولت محادثاته المستمرة معها جرس صوته إلى صوتٍ مسكون هادئ كان أولئك الذين سمعوه يميلون إلى سماعه عن كثب. انتهت حياته الأمنية -الخدمة. أفاد أولئك الذين كانت وظيفتهم معرفة ما حدث له بأن بعض الشياطين التي كانوا على دراية بها قد استحوذوا على أخيهم نيورغ.

قال نيورغ لأيانا: "لقد صلوا من أجلها في المتحف".

وقفة.

"صلاة لروحها".

التذكر بابتسامة ناعمة.

"لم أستطع تركها. لم أستطع تركها في ولاية كيرالا أيضًا. عقل والدتها ليس... كاملًا. لن تعرف ماذا تفعل معها. لقد قطعنا شوطًا طويلًا، ديلشكا وأنا. لقد بكينا. لقد انتظرنا في العديد من الأماكن. لم أستطع تركها. اشتريت لها مكانًا في مقبرة بإسبانيا مع إطلالة على البحر. حرقتها هناك. عندما أعطوني الجرة، لم أستطع تركها. يجب أن تكون مع أولئك الذين يحبونها، هل تفهمين؟ ذات يوم حلمت أنّنا جميعًا هنا. لم أكن متأكدًا من أنك

ستكونين هنا. ولكن يبدو أنّ هذا القدر".

مسحت أيانا عينيها. أضاف نيورغ، "ستكون راضية هنا".

أومأت أيانا. رفعت يدها لتطرق على باب الشيخ، لكنه كان مفتوحًا لهما بالفعل.

دفنوا ديلشكا قبل غروب الشمس. أحرقوا البخور لها وعزوا أنفسهم بسرّ رائحته. كان مكان استراحتها مظللًا بشجرة كبيرة، تحتها عظام صغيرة لقطّة ميتة منذ فترة طويلة. وقد تم دفن ديلشكا باسم إضافي: رابعة. ضمن الاسم انتماء ديلشكا لبيت وشعبها. بعد حفل بسيط، قرر نيورغ السير على طول الشاطئ. فقد صوته. تعثر في سقيفة صياد كان آخر من استخدمها باحث في المنفى انضم الآن إلى القائمة الطويلة لـ "المختفين" في بيت. كان مكانًا جيدًا للجلوس وعدم معرفة ما يجب فعله لبعض الوقت.

اتصلت أيانا بمنيرة في تلك الليلة. "لقد دفنّا صديقا اليوم".

"من؟".

"ديلشكا. التقينا على متن السفينة".

"هل كانت جيدة معك؟".

كانت منارة.

"نعم"، بدا صوت منيرة رقيقًا.

"هذا الشيء، الموت".

سكون.

أضافت منيرة لاحقًا: "قريبًا يا أيانا، يجب أن أعود أيضًا إلى بيت".

بعد شهر تقريبًا، ظهر نيورغ من جديد. أتى ليودع أيانا. كانت أيانا صامتة وهي تمشي إلى رصيف المراكب الصغيرة. غادر نيورغ بيت، واعدًا بالعودة. غادر على متن قارب سريع إلى لامو، حيث قام برحلة قصيرة إلى مومباسا. بعد أسابيع، كانت أيانا تقرأ خبرًا صغيرًا في صحيفة كوستويك. قطب ساحلي قديم، رجل من أصل أوروبي اختفت زوجته الحيوية قبل

بضع سنوات، كان يقود سيارته من ناديه الخاص في الليل عندما ظهرت أمامه سيارة بالية من طريق جانبي وتحطمت سيارته المرسيدس.

قفز لتوبيخ الجاني الذي كان شديد الغضب. وُصِف الجاني بأنه رجل أفريقي كبير، ضرب رجل الأعمال ضربًا شديدًا وتركه على جانب الطريق مع كسر في العمود الفقري وكسور في الأضلاع والأسنان والفك والأنف. سيتعافى الرجل، ولكن، لسوء الحظ، لن يمشي مستقيمًا مرة أخرى، ولن يكون قادرًا على تناول الطعام دون المراوغة. اختفى الجاني المذكور في الليل. اتضح أن سيارته لم تكن مسجلة رسميًا. لم تكن هناك بصمات على عجلة القيادة -شيء غريب حقًا. لكن هذه كانت طبيعة الحياة في هذه الأوقات المجهولة. قرأت أيانا المقال عدة مرات. عندما وضعت الصحيفة من يدها، كانت تعرف أن شرق إفريقيا لن ترى نيورغ مرة أخرى.

[97]

نذير شؤم.

ظهرت غيمةٌ فوق بيت. في صلبها، كان هناك قوس قزح. انخفضت درجات الحرارة على الأرض لفترة وجيزة. نظر بعض سكان الجزيرة إلى الأعلى وانتظروا الرياح لتظهر وتوصل الرسالة.

بعد واحد وثلاثين يومًا. كانت الطفلة التي كانت في الثالثة من عمرها تحدق بعينين تشبه عيني والدها. كان اسمها عبيرة. روح قوية الإرادة، سبقت والدتها خارج القارب، وكأنها تعرف ماذا تفعل. سقطت في الماء. نابعة من غمرها، رواقية، حاولت مسح ثوبها المبلل. كان حضورها في الجزيرة مفاجئًا مثل حضور والدتها.

. .

تم استقبال منيرة، التي يمكن ملاحظتها في سترتها الفوشيا التي ارتدتها خوفًا من النسيم البارد، كأرملة بحر حزينة ومشرفة. تم التعامل معها كما لو أن ماضيها لم يحدث. تم الترحيب بها كأم للجزيرة. عندما نزلت من القارب، استدارت للتحديق في البحر.

"منافسي، ضرّتي الشريرة، هذا البحر؛ هل يجب عليك دائما الاستيلاء على رجالي؟".

انهمرت الدموع كالمسامير على وجهها.

"كيف أسأت يومًا إلى هذه الساحرة؟"، تشبثت بأيدي الفتاة الصغيرة. سأل أحد الصيادين: "من ضيفتنا؟".

"إنها ليست ضيفة. هي ابنته".

"محيي الدين لديه ابنة؟".

"أسماها عبيرة".

تجمّع هؤلاء حول الطفلة وأثنوا على عبيرة، التي كانت تحدق في الحشد من وراء ظهر والدتها.

وصلت الأخبار إلى أيانا أنّ منيرة، التي كانت تتوقّع مجيئها، وصلت أخيرًا. وصلت بعد ثلاثة أيام من موعدها، لكنّها كانت هنا الآن. ركضت أيانا على طول الطريق إلى الرصيف. بدأت بالصراخ من مسافة بعيدة عندما لمحت والدتها. وصلت إليها وأمسكت بها. تشبثتا إحداهما بالأخرى.

تبكيان. تضحكان. تبكيان. تضحكان.

التفت أيانا للمساعدة في الأمتعة، ثم رأت الطفلة. في البداية، اعتقدت أن الفتاة تنتمي إلى راكب آخر، ولكن عندما لاحظت شيئًا من وجود محيي الدين في المخلوقة، أسقطت أيانا الحقائب وتناثر الوقت. طعم معدني سيئ في فمها، كفّا يدها مبللان، ضاقت عيناها، دارت حول منيرة.

"من هذه؟".

انحنت منيرة، نصف مبتسمة ولمست وجه أيانا.

"أختك عبيرة".

"عبيرة؟".

تلا ذلك صمت معقد، قبل أن تسأل أيانا: "ابنتك...؟".

"نعم".

مدت منيرة يديها إلى أيانا. "أردنا أن ... ".

كانت نبرة أيانا باردة. "أنا أرى. الأفضل أن نصل إلى المنزل؛ لا بدّ أنّك متعبة".

رفعت الحقائب على كتفيها وانطلقت أمام والدتها وشقيقتها، وسارت باتجاه منزلهما.

كان وجهها شاحبًا وشعرت بألم في معدتها. لن أبكي. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا. شقيقة؟ لم يخبرها أحد بشيء. ابنتهما. عبيرة. شعرت بالغيرة: كان هذا والدها، كان هذا اسمها. كانت هذه أمّها.

الحزن. شعرت بالوحدة والرعب كما لو أنّ وجودها لم يكن ضروريًا.

عبيرة. حتّى اسمها سُلب منها.

حين وصلت أيانا إلى المنزل، ألقت الحقائب ودخلت إلى غرفتها الصغيرة وأغلقت الباب. انهارت. لم تكن تعرف كيف توقف قلبها الملصقة قطعه من الانكسار مرة أخرى.

تحمّلت العائلة الغرابيب الفضولية ونعيقها. ظهر الطعام وتمّ تقديمه. خرجت أيانا من غرفتها. استمعت إلى الأصوات الكثيرة في صمت. تجنّبت نظرات أختها. لم تكن تريد أن تعرف كيف كانت.

بعد وقتٍ من منتصف الليل، حين كان البيت هادئًا مرة أخرى، وقفت أيانا عند باب غرفة والدتها وهي تراقبها تعتني بعبيرة التي كانت منزعجة. رأتها منيرة هناك.

"كم طولت قامتك، كم تبدين رائعة. كيف هي دراستك يا ابنتي؟"، سألتها.

"جيدة".

ماذا أعطوكِ؟".

"دبلومًا في العلوم البحرية والطبيعية".

لمعت عينا منيرة.

ثمّ تلا ذلك الصمت المليء بالتوتر.

"كنا ننتظر لنخبرك معًا.... قبل... قبل...".

أشارت منيرة بيدها وهي تضع عبيرة في السرير.

تنهّدت وقد ظهرت الظلال على وجهها. "ما بكِ يا لولو؟".

صاخت أيانا: "آخرون يعرفون" – أشارت إلى الطفلة – قبلي؟ طفلة كاملة؟".

وضعت منيرة الطفلة في السرير. مشت باتجاه أيانا. فتحت ذراعيها. "لولو...".

أشاحت أيانا بنظرها عنها.

فتحت منيرة يديها. "لقد فاجأتنا".

نظرات أيانا بعيدًا".

"كان الأمر غير متوقعًا. لم أكن أعرف أنّه كان لا يزال بإمكاني أن أكون حاملًا. كل شيء... بيد الله... هذه الطفلة، هدية. امرأة في سنّي... ومحيي الدين... كان سعيدًا جدًا. قال لا بد أن نخبرك ونحن معًا. سمّاها من أجلكِ.... أوّل من أحبّه بعمق – هذا ما قاله عنكِ".

تلاشى صوت منيرة. كان محيي الدين مفقودًا. ارتعش صوت منيرة. ثمّ لامست الامرأتان جراح غياباتٍ كثيرة، الخسارات والصمت، كل الأشياء التي لم يعد بوسعهما قولها.

خدر. دفعت أيانا نفسها بعيدا عن دوامة العواطف الغريبة، نظرت باتجاه الطفلة. قالت بصوت بارد: "أمي، نحن قريبات بالدم، الطفلة وأنا، ولكن هذا كل شيء. إنها لا تعني لي شيئًا".

نسجت أيانا على كعبها وعادت إلى غرفتها. أغلقت الباب.

.

كلما حاولت عبيرة أن تدخل غرفة أيانا، صرخت الأخيرة.

"اخرجي!".

رفضت أيانا أن تحمل عبيرة أو أن تساعد بإطعامها أو إلباسها أو تهدئتها حين بكت.

كانت أيانا تهرع للعمل في ورشة مهدي عندما كانت لا يزال الصباح مظلمًا، وكانت تعود م في وقت متأخر من المساء. أخذت طعامها إلى غرفتها، وأغلقت بابها. بعد فترة وجيزة، عندما رأت عبيره أيانا تقترب، كانت تتجمد وتنتظر مرورها.

ثرثرة في الجزيرة: "أيانا يتلبّسها الجن الصيني".

صرخت منيرة مرّةً: "البخور لا يستطيع إخفاء شيء فاسد".

صرخت أيانا وخرجت من المنزل، محتقرة نفسها لتصعيد الأمور، غير راغبة في فعل

أي شيء حيال ذلك.

كانت منيرة مرتبكة ولتحاول إخفاء بعض شعورها بالعار، انهمكت بتصليح المنزل، مطاردة العمال ونقلت الأغراض من نيروبي وومومباسا إلى الجزيرة. كان لديها هي ومحيي الدين أيضًا قاربًا في أعالي البحار، يتجه إلى عدن، حاملًا الركاب والبضائع. راقبت تقدمه عبر الهاتف.

كانت منغمسة في العمل، مشلولة بالحزن تحاول إنكار ما يحدث مع ابنتها الكبرى. وادجت صعوبة في قراءة أيانا والوجه السلبي الذي ارتدته. غالبًا ما كانت عينا ابنتها تتجهان إلى الداخل، كما لو كانت تناقش مصيرًا غير معروف. كانت منيرة خائفة. ماذا كانت هذه السحابة التي طغت على حياتهم؟ شعرت منيرة أن الجزيرة عادت إلى همسات "الملعونة" خلف ظهرها. بدأت ترعى حديقتها لتهدئة نفسها. تمتمت مخاوفها للنباتات والأرض. عندما ذهبت إلى المسجد للصلاة، شاهدت ماما سليمان هناك. أومأتا إحداهما إلى الأخرى. انتابها وجع في الروح عندما فكرت في أيانا، الحزن عندما تذكرت محيي الدين، ثم الامتنان العميق لطفلتها عبيرة.

ذات مساء، قررت منيرة البحث عن مهدي. نهض لتحيتها. دون أن تقول أي شيء، قال: "الوقت يصحح كل شيء. إنّها تفتقد والدها. وأنا أفتقد والدها وأخي". فرك عينيه قبل أن يضيف: "المكتوب سيحدث".

تجرأت عبيرة الآن على اللحاق بأيانا، التي جعلها عزفها عن الاقتراب منها تعتقد أن سحر أختها الكبرى يزداد. كانت أيانا تلتفت في بعض الأحيان وتجد وجهًا صغيرًا بعيون كبيرة يحدق في وجهها من وراء خزانة أو دلو أو كرسي، مع شيء يشبه العبادة. عندما تجولت في الخارج، غالبًا ما كانت تتحول في الوقت المناسب لإلقاء نظرة على كائن صغير يندفع من الأدغال إلى الأدغال خلفها. سحقت ضحكتها. زمّت شفتيها. كانت بحاجة لتجاهل الطفلة.

بعد ستة أسابيع، قامت عبيرة التي كانت قد أصبحت أكثر شجاعة بتتبع أيانا إلى أشجار المانغروف، حيث اتخذت أيانا منعطفًا لمشاهدة السفن تقترب قبل العودة إلى ورشة مهدي. بالعودة إلى العمل، كانت أيانا ترسم مخططات تقريبية لتطبيق الهاتف المحمول الذي قد تستخدمه قوارب الصيد لإرسال الإحداثيات المتقطعة للآخرين على الشاطئ.

كانت تتساءل عمّا قد يتطلبه تنشيط النظام حتى يتم تحديث البيانات عندما سمعت صوتًا ينادي: "أياناا!".

نهضت أيانا لمقابلة والدتها، التي جاءت مسرعة على الطريق. "عبيرة!"، أمسكت منيرة بكتفيّ أيانا، ونظرت حولها. "عبيرة! أين هي؟ أليست معك؟".

"لا"، صاحت أيانا. كانت تلك المقاطعة مزعجة للغاية.

"لقد بحثت في كل مكان".

كانت منيرة تبكي.

"أين هي؟ كانت تتبعك. ألم تريها؟".

ارتعش قلب أيانا، وكذلك جسدها.

"لنبحث عنها".

ركضتا في كلّ أنحاء الجزيرة وهما تناديان باسم عبيرة. انضمّ بعض سكان جزيرة بيت إلى البحث. كل صرخة "عبيرة" كانت ترتد على جسد أيانا التي لم ترَ أختها. كانت قد علّمت نفسها أن تتجاهل الطفلة. صرخت أيانا: "عبيرة!".

كانت تصارع احتقار نفسها. ماذا فعلت؟

صاحت: "عبيرة!"، وهي تقدّم وعودًا جديدةً أبدية: عودي. سوف أحبك. سامحيني. سوف أحبط.

كانت عبيرة قد انزلقت وسقطت على منحدر إلى بستان مانغروف ليس بعيدًا جدًا عن مكان جلوس أيانا في الصباح. دفعها تيار بطيء إلى الانجراف على بعد حوالي عشرين مترًا من مكان رؤيتها. كانت عالقة في طين البحر بسبب جذور المانغروف الكثيفة. سمعت

أيانا، التي كانت تحوم حول الجزيرة وعادت إلى أشجار المانغروف، بين نعيق الغربان القلق، صوتًا خافتًا.

كان الصوت ينادي اسمها: "أيانا!".

هرعت في اتجاه الصوت، متبعة حدسها، ورأت المسارات في الوحل. قفزت في المياه المالحة. مع وصول المد، كان الوحل قد وصل لفخذيها. رأت أغصان المانغروف التي تعلق عليها اليعاسيب أجنحتها. كانت أختها الملطخة بالطين تتمسك بالجذع.

كان الشفق. حملت أيانا الملطخة بالطين شقيقتها طوال الطريق إلى منزلهما. تشبثت أختها بها، بلا حراك. أولئك الذين رأوهما افترضوا الأسوأ، لأن أيانا كانت صامتة. أولئك الذين رأوهما ابتعدوا، متحسّرين على الخسائر الكثيرة التي لحقت بالعائلة -بكوا كثيرًا.

أخبروا منيرة التي كانت ترتدي سترتها الفوشيا بأنّ ابنتها عُثر عليها. طلبوا منها أن تهيئ قلبها. سمعت منيرة الصمت. ثمّ سمعت عويل أيانا، أمرٌ رهيب كما لو أنّ عزيزًا أو محبوبًا فُقد إلى الأبد. ركعت منيرة على ركبتيها. رفضت الأيدي التي امتدت لمساعدتها. زحفت إلى منزلها، أصيبت ركبتاها بالخدوش وكان حزنها خدرًا.

هزت أيانا عبيرة بين ذراعيها. عندما أمسكت أيانا بعبيرة، كان عليها أن تترك محي الدين، وعندما فعلت ذلك، لمست قاع الحزن الذي لا يسبر غوره. صرخت من أجل والدها -الشخص الذي لم تره من قبل، والآخر الذي اختارته.

بكت على محيي الدين. ثمّ، همس في القلب، ريشة-نور في الروح: أعدك أنني لن أتركك. انظري، لقد وجدتني مرة أخرى. سكون. سأحبك. حتى عبيرة سمعت هذه الكلمات. بابا؟ همست. "نعم، حبي"، همست أيانا.

جرت منيرة نفسها. ثم تفاجأت أن كلا طفلتيها كانتا بخير. سمعت بلدة ضحكة امرأة رهيبة، ضحكة الحياة البرية الشرسة التي لا تنتهي.

. . .

في اليوم التالي، خرجت أيانا من المنزل قبل الفجر. كانت عيناها حمراوين وكانت محجبة. ركضت إلى المؤذن عباسي. كانت بحاجة أن تتحدث مع أحد.

"أنا حامل"، قالت له وصوتها يتكسر.

استمع إليها عباسي الذي كان بلا أسنان. تحدّثت من الفجر إلى الظهر. بكت. أخبرته عن كوراي. أخبرته كل شيء. بكى عباسي معها. ثمّ مسح عيني أيانا بيديه الجافتين. كان متعاطفًا معها.

حاول مواساة أيانا: "ماذا إذن؟ لقد منحك الله هدية أن تخطئي وتخطئي مرة أخرى؛ لقد صادفتِ لغز ضعف الإنسان".

ثمّ لمعت عيناه: "استخدمي هذه النعمة بحكمة".

حدّقت به أيانا، صامتة. بعد ذلك، استردت أيانا مجموعة كلماتها السرية -"الشوق"، "البحث"، "الشوق"، "الرغبة" -تضاريس الحياة.

. . .

في المساء، كانت أيانا تأكل الورود الدمشقية، وتحشو بتلات وردية صغيرة في فمها. كانت تمضغ الورك، وهي تعرف أن الشائكة التي كشطت لسانها كانت فرك الحياة. مصت ماء الورد من أصابعها. على الموقد، فقعت مياه أوراق النيم الخضراء. لعلاج أربعين مرضٍ. غمست أيانا أصابعها في السائل. ذاقت المرارة، طعم أساسي في الوجود. ملأت لسانها. امتزج الطعم مع نكهات الورد الموجودة بالفعل. عرضت بتلة على أختها، وشاهدت وجه عبيرة وهو يملؤ جوهرها.

بعد ذلك بيوم واحد، وبحد أدنى من المد والجزر، داخل أشجار المانغروف، راقبت الأختان وصول العائلات إلى المنزل على متن قوارب. اختلقتا القصص عنهم. ثم سألت عبيرة أيانا، "أبانا -إنه على ذلك القارب؟" .

تجمدت أيانا وسقط الوقت بعيدا. للحظة كانت تلك الطفلة مرة أخرى. أجابت: "سفينته هي الأكبر. البحر الذي يعبره يغطي السماء. ولكن يجب عليه أولًا تسخير نجمتين لك ولي. عندها فقط سيعود".

صدقت عبيرة هذا.

سؤال آخر: "أنتِ أيانا لي؟".

دموع وابتسامة. تمسك ذراعا أيانا بكتفي الطفلة، وهي تجيب: "للأبد، إلى الأبد".

في وقت لاحق، عندما كان المد أعلى وكان البحر دافئًا، سبحت الأختان معًا دون

الاهتمام بمن رآهما. ذات يوم، ستعرّف أيانا عبيرة على بوليوود. الليلة، كانتا راضيتين بفحص النجوم في محاولة للتعرف على سماء البحر حيث أبحر أباهما الحبيب.

Simba kiwa maindoni, hafunuwi zakawe ndole.

يكشف الأسد عن مخالبه حين يصطاد.

[99]

منذ دهور -لا يهم الوقت الآن -قفز ثلاثة غرباء من تحت الأمواج واستولوا على زرياب راميس. ثلاثة كائنات سوداء مزقته بعيدًا عن منزله وبثينته وغزالته وحمّاه المرتفعة. لفوا أطرافه وربطوه، وغطوا رأسه بقطعة قماش سوداء، وألقوا به على متن قارب إلى دييغو غارسيا.

شرع في رحلة طويلة وبشعة. عندما كشفوا وجهه أخيرًا، بعد أسابيع، وجد نفسه متكدسًا ومضيقًا وعاريًا في زنزانة دش باردة في خليج مجهول الهوية، في معسكر اعتقال في منطقة مغتربة. تم سحبه من الحمام من قبل المزيد من الرجال الذين كانوا يزمجرون. انتظر ليعطوه بذلة برتقالية، زيه للسنوات الآتية. سخر الرجال من الإسهال الذي أصيب به من سعاله.

تركه الرجال ينزف واستبدلوا اسمه برقم. وضعوا الأنابيب في رقبته لإطعامه حتى كاد أن يتقيأ وبقي يأمل أن يموت. ولكن عندما كان سيتلاشى تمامًا، استدعى بثينة، غزالته وحمّاه المرتفعة. سوف يغمض عينيه. سيخرج الهمس من داخل الظلال. كانت نغمة زرقاء وحيدة، وصوت هادئ، مثل نبض قلب زوجته المثالي. لذلك، عندما يتمكن من فتح عينيه مرة أخرى، قد يعود إلى الحياة.

ذات ليلة، عندما كان على وشك الموت، كان قد نزف من روحه. ولكن بعد ذلك ظهر والده، محيي الدين. أمسك أحدهما بالآخر، تحدثا. عندما استيقظ، كان قلبه هادئًا، وكان يسمع صوت الطيور البحرية ويتخيل أجنحتها على وجهه. كانت المرة الأولى التي ابتسم فيها في ذلك المكان.

كلمتان تراجع فيهما في موسم الظلام: كبش الفداء. كبش الفداء. لأنه، بنفس الطريقة التي لا معنى لها مثل سجنه، أطلق سراحه. اصطحبوه إلى طائرة شحن أسقطته في مكان ما.

لا تفسيرات.

"سوف تقتلونني".

تحدث كما لو أنّه يعلن ما هو واضح، وصوته ملوّن بعمر مفرغ وغضب مهزوم. نقطة ثابتة وسط التدفق. لم يعرف بعد التدفق كأشخاص. "أنت حر للذهاب". انحرف كما لو كان قد تلقى ضربة، وانتظر أن تولد الكذبة -الموت الذي أعدوه له، لذلك حزن على حياته.

سقطت دمعة بين الرجال.

"انتهت تحقيقاتنا. أنت حرّ للذهاب الآن".

"...".

"أنت حرّ للذهاب".

تنهّد وتفحّص نظارات محدّثه الغامقة ولحيته السميكة. تجرأ زرياب على النظر حتى يبدأ في التصديق. رأى صورتين تنظران إليه. لم يكن يعرف الرجل في تلك التأملات.

"أنت حرّ للذهاب".

أعطاه الرجل حقيبة سوداء خالية من الملصقات. "كل ما تحتاجه موجود هنا". صوت لطيف. داخل الحقيبة، سيجد زرياب لاحقًا جواز سفر يمني جديدًا تمامًا، ومجموعة من النقود بعملتين، لم يحسبها، بنطلون جينز، وأحذية رياضية رخيصة وقميص، وحلة جديدة لامعة. ربتت يد على رأسه، ثمّ على كتفه الأيمن، "السلام عليكم".

تسمّر زرياب راميس في مكانه. ركّز على الإحساس الوخيم الذي ملأ حتى قلبه بالدبابيس والإبر. عندما فتح عينيه، ما رآه جعله يتعثر، وإذا لم يكن لا يزال لا صوت له، فقد صرخ. ما رآه كان الناس يتحركون، ويعبرون الشوارع، والطائرات تقلع من صخب المطار لحياة أخرى، وكان يقف بلا قيود. التفت ورأى امرأة مسنة ترتدي حجابًا أزرق فاتح، وكان وجهها محاطًا بقلق شديد. "جدة -تي؟"، غمغم. جدتي.

سمعته. "نعم يا بنيّ؟".

صوت جميل ودافئ، نظرة أم. ابن. في داخله، تنهد من شعوره بالاختناق. حاول أن يقمعه. تمتم: "شكرًا".

كانت حقيقية، ورأى فرحة بلا أسنان في وجه امرأة عجوز رائعة كان صوتها معسولًا ومثيرًا للفضول.

"من أين أنت؟".

الحوية، ربما قال. ولكن بعد ذلك كان سيضطر أيضًا إلى تحميل روح أخرى بتفاصيل

تضاريس الجحيم.

لذا بدلًا من ذلك، انحنى إلى الأمام ليسألها: "أين أنا؟".

ضحكت الجدة، وهزت إصبعها في وجهه.

"ولد شقي، تمازج والدتك!".

هرعت، كانت لا تزال تضحك، وضحك زرياب لضحكتها التي هبطت في أعلى قلبه. بدأ زرياب في التحرك. خطوة تلو الأخرى، جسده يميل إلى اليسار. كان اليسار هو الجانب الذي كان يفضله عندما نام في سريره الفولاذي. دخل زرياب في عالم حرية الذهاب بانتظار الرصاصة. أمسك حقيبة الظهر إلى الأمام لحماية قلبه. فقط بعد أن مشى لمدة ساعة، تجرأ على النظر في اللافتات. وعرف منها أنه كان حقًا في حديقة مدينة العين.

مشى زرياب. حمل ما عرفه: طبيعة الأكاذيب والقبح والكراهية؛ كيفية قلب الخير والشر؛ ضعف البشر أمام زئير السلطة، كيف يمكن لعدد قليل فقط أن يقاوم إغراء رمي النرد أو الموت لتقرير مصير شخصٍ آخر؛ العيش تحت التهديد اليومي بموت رهيب. مشى بذكريات جديدة عن الحرمان من النوم والحرمان الحسي والحرمان من الطعام والحرمان من الماء. لقد فهم أن عدم اليقين هو سلاح الخوف الشامل. كان يحمل علامات أثر عصبة العينين التي كان يرتديها لعدة أيام. التشوه الخفي الناجم عن البلطجة البشرية.

بينما كان يسير، هبط إلى الهاوية من الأضواء القاسية، والضوضاء العشوائية الصاخبة، والأغاني الموسيقية المروعة للفنانين المزعومين. من أجل البقاء، فقد تجاهل الوقت. من أجل البقاء، فقد ألقى بحاجته لمعرفة الوقت وما إذا كان ليلًا أو نهارًا. كان قد أخفى نفسه داخل الذاكرة. هناك، سمع ذات يوم أثناء وجوده في الحبس الانفرادي، صوت معلم صفه يذكره وزملاؤه في صف الأدب بأن "دور الممثل هو عكس الإنسانية". هناك سعى إلى دور لنفسه. تولى دور كبش الفداء باعتباره لقبه.

كبش الفداء، يؤدي الدور زرياب راميس. ثمّ ضحك على نفسه. ومع ذلك، من خلال هذا الدور، تعلم أن يشفق على معذبيه وأن يقرأ فراغ الروح من العين. مرّت نظراته على وجوه الرجال الذين ربطوه لإطعامه أو ضربه أو إغراقه جزئيًا. ذات ليلة، هددوا بإخراج عينيه، فأغلقهما. نسوا أنه حتى الحواس لها عيون خاصة بها.

كان بإمكانه أن يشاهدهم من خلال عيون أنفه وأذنيه وجلده وقلبه، أسرى الحرب

الآخرين. ومع ذلك، كانت هناك مواسم اجتاحه فيها الرعب من الداخل، وكان مستعدًا للموت. لكنه كان سيتوفى على خطأ، لأنّ هؤلاء الرجال كانوا سيأخذون، عندما عادوا إلى منازلهم، إلى رحم عائلاتهم الهدية الخبيثة التي تملّكتهم الآن.

حين مشى زرياب، تذكّر أنّه كان قد نجح في إخفاء قلبه. وزّع قطعه بالتساوي. إحدى القطع تركها للصمت. قطعة أخرى تركها تحت ثديي بثينته وغزالته وحمّاه المرتفعة. القطعة الثالثة خبّأها بين أشباح عائلته التي خسرها لحساب الطيارات الحربية. والقطعة الرابعة رماها لله الذي تخلّى عنه.

سافر زرياب عبر أبو ظبي. غمغم صوت في رأسه الشعر لتوجيهه. سمع:

في نهاية النهر، يحرث نجم الذئب في قطيع الأغنام من الجنيب

رقص طائر الفينيق في سرة الفرس

شعيرات مشرقة عند أتباع الدبران...

حلّ الليل في الصحراء، التي كانت حارقة ليلًا كما كانت خلال النهار. كان زرياب يستمتع بالحرارة والهواء السميك اللذين كان بحاجة إليهما لكي يتنفس. تصبب منه العرق الذي انسكب من روحه وهو يجتاز الأرض المشقوقة. كان في مسندم في عمان في طريقه إلى خصب وميناءها.

عبَرَ بوخة، وتوقف ليحضر الحلوى والأرز المتبل. كان غير قادر على تحمل اللحم. أعاد إليه ذكرى تعفن الجثث البطيء في ذلك المعسكر.

النجوم في الليل: كيف تألم من أجلها، وكيف اشتاق إليها. لذا توقف. سقط على الأرض لينظر إلى السماء. عندها، لم يستطع أن يرى الدموع في عينيه وعويل الأشباح في روحه.

لم يكن لديه أي خيار سوى العودة إلى زوجته عن طريق البحر. كان حذرًا من الأماكن الضيقة. لم يكن يريد أن يرى أو يلتقي بأي قوقازي في أي يوم قريبًا. لن يركب الطائرة مرة أخرى. وجد سفينة جحازي. كان تحت قيادة عبود خميس، المولود في مومباسا عام 1964. أبحرا إلى البحر الأزرق في نهاية ذيل كاسكازي. ضبط زرياب رياح محيطه. داخل أغنيتهم، استمع إلى زوجته تهمس إليه للعودة إلى المنزل.

Hakuna bahari, isiyo na mawimbi.

لا يوجد بحرٌ من دون أمواج.

[100]

قبل تسعة أشهر، في شهر يناير حين ترحل عادةً اليعاسيب، ظهر رجلٌ أشبه بجثة كالشبح على الجزيرة حيث وُلد والتي نُفي منها، وعاد إليها بحثًا عن ملجأ، والتي أيضًا سُرق منها. الآن، على أعتاب يوم الخميس المتأخر في أكتوبر 2016، ظهر هذا الرجل الذي يرتدي سترة منيرة الفوشيا من خلال بركة مياه عذبة تعج بحوريات اليعسوب الصغيرة على شكل مقوّس. كانت الأمواج تدور حول ساقيه. استنشق وأغلق عينيه. أغلق عينيه، كان من الأفضل سماع وتر الشوق الذي أعاده إلى المنزل.

في جزيرة بيت، بكى والده الغائب، بكى خيانة والده: لماذا؟ كان قد مضى على عودته أشهر الآن. المنزل. ولكن لم يجد قلبه الملجأ بعد، ولم يفهم أنّه كان بحاجة للغة جديدة لاحتواء حياته. كلّ شيءٍ تغيّر. لم يتغيّر شيء. وميض من اللون الأزرق. تتبّع بعينيه طائرًا كان يأكل النحل والنغم الذي أحدثه بجناحيه. استعاد جماله ذاكرته من صدى النشيد الصارخ لنشيد الأمة. سعت نظرته للطائر مرة أخرى. لم يتغير شيء.

كلّ شيء قد تغيّر، وقد ارتجف لأنه في صوت الريح سمع أيضًا الرعب الذي كان يأمل في تجاوز انزلاقه في اتجاههم. كلّ شيء تغير. لديه الآن ابنة. أخت، قام بتصحيح نفسه. كانت عبيرة قد أبلغته بالفعل أن أيانا هي أختها، وليس أخته هو. جروح أحدث من صراع أعمق متواصل مع مشاعر متقلبة، مع خيبة أمل: طفلة والده، ابنة زوجته.

أفلت زرياب قبضتيه. كان قد مات. لقد ملأ الموت مساحات الحياة المفرغة بالكائنات الأخرى. يبدو أن الحياة لم تشتاق إليه. كان بإمكانه قراءة قصة وفاته في لمحة أولئك الذين عانوا من غيابه، في عادات بثينته وغزالته وحمّاه المرتفعة، التي لا تزال لديها نظرة الذنب والعار كما لو أنّها خانت إيمانها به. لم تنتظره. لم تثبت أنّ الحب معصوم حتّى الموت. قالت له "سامحني". كانت تلك أولى كلماتها له عندما رآه ورأته. قالت منيرة: "عندما اختفيت، متنا".

ثمّ أضافت: "لقد عدت الآن، يمكنك أن ترى أننا لم نعد نفس الشيء".

كررت، "سامحني".

بعد الصمت، الذي استمرّ على مدى يومين، تكلّم زرياب. قال لمنيرة إنّ ذكرى وجودها هي ما أبقته حيًا. ثمّ كان لديه سؤال لها: "لماذا هو؟".

صمتت، ثمّ قالت: "إنّه يحب ما يعرف".

أمسك بذراعها. "وأنا لا؟".

هزّت رأسها. "أنت تحب ما لا تعرف".

صاح: "هل هذا أمر خاطئ؟".

همست له: "لا، ولكنّي الاثنان معًا".

.

لوّح حذيفة لزرياب من شاطئ البحر وهو يسرع، مؤكدًا بوضوح أنّه لم يشأ أن يتكلّم. راقب زرياب. كان سكّان الجزيرة مشكّكين بوجوده. معظمهم لم يريدوا أن يتواجدوا وحدهم معه، ونصفهم اعتقدوا أنّه تحوّل إلى جنّ.

ابتسامة خفيفة – لم يكن متأكدًا من أنّه لم يكن كذلك.

.

راقبت أيانا زرياب، حين استطاعت. تردّدت أن تطرح أسئلتها حول كيف تغيّر وجهه، كما لو أنّه لا يزال زرياب نفسه، ولكن ليس تمامًا.

لقد أخذ في مراقبة سلوك الطيور البرية. الغربان والحمامات. اعتقد أنّه كان بإمكانه الاحتفاظ بالحمام. ذات يوم، خرجت إلى الشرفة الأرضية، حيث كان يجلس القرفصاء وينظر إلى العالم. "هل كان مكانًا سيئًا؟"، سألت. أومأ مرة واحدة. لم يكن بإمكانه بعد التحدث بعد عن أشياء كثيرة. إنه جرح لا يندمل أبدًا. يندمج مع الرائحة الكريهة للشر البشري. دموع بلا رادع. كلاهما شاهد العالم بصمت.

بعد دقائق، كان زرياب يخبر أيانا، "شاب من اليمن -لم يأكل منذ ثماني سنوات. كان عليهم إجباره على الطعام كل يوم". انحسر صوت زرياب. "لقد كان طفلًا فقط عندما سرقوه من والدته". وعندما نظر إلى أيانا، غارت عيناه في وجهه. كان صوته ينحرف. "إنهم ينزفون النفوس -هذا هو جوعهم. إنهم مسكونون، هل تفهمين. عندما يقتلوننا، لا يعتقدون أننا

حقيقيون". أثارت رياح دافئة الأرض. ارتطمت الأمواج البعيدة بالسواحل. البحر لا يتوقف عن الحركة. احتضنت أيانا نفسها. قالت، "لقد بحثنا عنا=ك لوقتٍ طويلٍ جدًا".

من الخارج، انطلقت الرياح في أشجار المانغروف وصدحت أغاني أطفال الجزيرة الجدد المنهمكين في اللعب. سكون. استمع زرياب. ثم قال: "سأذهب الآن إلى البحر".

كانت منيرة في طريقها إلى المنزل، تحمل دلوًا مليئًا بالملابس المجففة. عندما تجاوزت العتبة، ألقت نظرة خاطفة. مدّ زرياب يده. "تعالي معي؟"، سألها. "قريبًا"، غمغمت منيرة، وركزت عينيها في مكان آخر. اجتاحت الرياح الساخنة جسد زرياب وهو يخرج إلى المساء الأصفر الشاحب. من دون أيّ كلمة، شاهدته منيرة وأيانا ينزلق نحو البحر.

[101]

عواء الجن قبل الفجر، دوي مروع. عندما سمعت أيانا الأصوات البرية، وكربها، لفت جسدها وركضت إلى المحيط لترى أي مخلوق قد يكون هذا. ركضت حتى نهاية المسار. عبرت العتبة بين الأرض الحمراء والرمل الأسود، ورأته – تحوم حوله الأمواج، والأذرع تتدفق في السماء والمياه، وتضرب قلبه بكفٍّ مفتوح -زرياب راميس.

[102]

عاد زرياب إلى غرفته الأولى في منزل محيي الدين في الليل. عندما يعود والدي، الخائن، سيجدني هنا. ولكن عندما أغلقت الأبواب، توقف مؤقتًا ليتخيل طرقة منيرة على الباب. على هذا الباب، كان يبكي في الغالب غير مرئي. لم ينم. عدّ الدقائق حتى الفجر، عندما حصل على إذن بالسير عبر نصف متاهات إلى منزل منيرة في ذلك اليوم وإلقاء نظرة على

بثينته وغزالته التي كانت لا تزال حمّاه المرتفعة.

غالبًا ما كانوا يلكزان في ندوب أحدهما الآخر، ويبحثان عن حدود جديدة. سألته منيرة ذات يوم، أثناء الإفطار، "هل سيعود كما فعلت؟". فرد عليها زرياب قائلًا: "الفكرة تطاردني كل يوم". صراع أدوات المائدة على الأواني. ملعقة للتحريك، ملعقة لتقليب السكر في قدح من السيراميك. "كيف ستختارين؟"، سألها. التفتت منيرة لمشاهدة ابنتها التي أنجبتها في أواخر حياتها وهي تحاول تناول الطعام. آلم صمتها قلب زرياب مرة أخرى. وأشارت منيرة: "عبيرة". انزلقت ملعقة زرياب من يده ووقعت على الأرض. انحنى للوصول إليها. "ابنته". كان صوته خافتًا. "ابنته".

نظرت إليه في عينيه مباشرة.

"أختك".

أكلا في صمت بعد ذلك.

. . .

في صباحٍ مبكر، بعد تناول الفطور، قرّر زرياب أن يزور مهدي في مكان عمله. في الطريق، شتّتته رؤية كائن صغير يرتدي اللون الأصفر وينزلق نحو أشجار القرم. بدافع القلق، تبعه. هناك، خلف الكثبان الرملية، تحت شجرة مانجو قديمة، استقبله برلمان من الغربان، يرفرف مثل الحمائم وهي تقترب. شاهد زرياب بينما كانت عبيرة تنثر الطعام الذي أخذته من مائدة والدتها في ذلك الصباح. سمعها تتكلم مع طائر بني له منقار برتقالي طويل غاص بين يديها لسرقة بعض الطعام. كان زرياب يعرف أن مدير المقاطعة الحالي شنّ حربًا أخرى غير مجدية ضد الغربان.

من الواضح أن عبيرة كانت مع التمرد. وبينما كان زرياب يشاهدها، انساب عسل رقيق ودافئ مصهور من قلبه، وضحك. في البداية، انزعج لأنّه لم يتعرّف على صوت ضحكته التي فقدها منذ زمن، ووضع يده على فمه ليقمعها. تجمدت عبيرة عندما التفتت نحو الصوت ورأت زرياب. توترت، ظهر الخوف في عينيها الواسعتين. فكرت بالدموع، البكاء يؤجل دائمًا العقوبات. انتظرت أن يؤنبها زرياب، ثم وضع إصبعًا على فمه، وهو يبالغ في التسلل. كم ضحكت.

في صباح اليوم التالي، عندما التقت عينا عبيرة وزرياب على مائدة الإفطار في منزل منيرة، أدخل زرياب جزءًا من المحامري في جيبه. سوف يطعمان الطيور معًا من الآن فصاعدًا. عصفت الطيور للاقتراب منه لتناول الطعام. ثقتهم البسيطة. التواء الرؤوس عليه في فضول: كان ذا أهمية خاصة للغراب. اكتشف أنه كان يبتسم، وكانت الطفلة تبتسم له. السكون والمد والجزر والطيور. غراب ذو قدم مشوهة قفز باتجاهه ونقر على حواف سترته ليحصل على الخبز. عندها فقط، سمح زرياب لقلبه أن يتأمل في أمر عبيرة، أخته غير المتوقعة. كانت تحدق فيه، يميل رأسها إلى الوراء، وفي عينيها، دعوة للعب مرة أخرى.

.

مع ذلك، عند الغسق كل يوم، ذهب زرياب إلى البحر، وكأنه يطهر حياته من الكدمات التي ألحقها به الإنسان. كان محاطًا بهذه الخيوط من حياة منيرة التي كان يرتديها كتعويذة - اليوم كان يرتدي سترة حاكتها هي. لم يعرف بعد أفضل السبل لإعادة الحياة خارج ملجأ المنزل والأسرة. لقد توقف عن التساؤل عن بقية العالم وصمته عن الشياطين التي تجوب الأرض دون عوائق ولا مساءلة.

لذا ذهب إلى البحر ليسأل لماذا عاش عندما قتل رجال أفضل وأكثر شجاعة وجرأة وجمالًا. ماذا سيكون شعورك لرؤية العالم كله مرة أخرى، وليس من خلال الرؤية الحارقة في الأسلاك الشائكة وقضبان السجون؟ حكّ جلده. أين أنت؟ سأل الخيالات وهو يتفحص المياه بحثا عن أشكال الرجال الذين لقوا حتفهم. ثم أتى يوم ذكريات الكوابيس.

الرعب الذي اختبأ من الضوء سيجعله ينهض مثل طائر على النار ثلاث مرات على الأقل في الليل، يصرخ مثل القطة التي يتم التضحية بها على قيد الحياة. على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع، قبل ليلة الرعب، حاولت روحه الهروب من جسده من خلال رأسه. كان زرياب يسحب نفسه إلى جسده، متشبثًا بكعبه الناري ويرفض التخلي عنه. كان هذا جهدًا. عندما استيقظ في الصباح، كان يلهث ويتعرق.

في يوم خميس من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 2016، في جزيرة قديمة، سيظهر قبالة المحيط الهندي الغربي، رجل يشبه الجثة، عيناه داكنة، مرتديًا سترة نسائية فوشيا

صغيرة جدًا، وسيندفع عبر بركة مياه عذبة تعج باليعاسيب. على بعد اثني عشر مترًا، سيكون المد الربيعي القادم من الغسق -وجهته. هناك كان البحر يدور ويزبد دافئًا حول كاحليه الرقيقين والمندوبين بينما يستنشق رائحة الأعشاب البحرية المالحة في الموسم.

كان يغمض عينيه بانتظار همس من داخل الظلال. كان يسمع، كما هو الحال دائمًا، نغمة زرقاء وحيدة، تصدر صوتًا مثل نبضات القلب المثالية: وتر حنين غارق في الصوت، وأغنية المنزل. بعد أربعين دقيقة من الاستماع النقي، كان يستدير للخوض مرة أخرى إلى الأرض. ولكن، على مقربة من الشاطئ، كان هناك شيء يغمز ويتألق أمامه اقترب ليرى أن هذا كان أن زجاج البحر الأحمر الذي حوله البحر إلى حصاة ناعمة ولامعة.

نذير.

[103]

استدرج أولئك الذي بحثوا عن الأجوبة علامات غريبة من البحر. اصطاد أحد الصيادين، ولم يكن من أفضلهم، صيدًا وافرًا من مختلف أنواع الأسماك، كالأخطبوط وسمك أبو شراع وسمك الإنقليس، وغيرها. عند اصطياد سمكة أبو شراع، كان هناك حبل متآكل بالصدأ. في ذلك الحبل المتهالك كان بريق أحمر. وكان اللمعان الأحمر عبارة عن خاتم ياقوتي شوهد آخر مرة على إصبع محيي الدين الأيمن. وفهم الصياد أن البحر ربما كان يتحدث. وتمنى لو أنه لم يختره لتوصيل الرسالة. كما هو الحال في مثل هذه المواقف، بمجرد أن رست سفينة الرجل، لم يكلف نفسه عناء تفريغ حصاده البحري، لكنه حمل الخاتم مباشرة إلى الشيخ، الذي شعر أنه في وضع أفضل لتفسير معنى هذا الحدث للعائلة القلقة.

[104]

كانت منيرة في حديقتها، تنظف الأعشاب الضارة عندما استمعت إلى الصراصير وأغاني التزاوج الحزينة. هدّد المساء بتحويل كل شيء إلى صورة ظلية. همس لها زرياب: "يجب أن نتحدث". التفت لتتفحّص، مرة أخرى، شكل المسكون في نظرته. التوى قلبها. سألها: "أين الأطفال؟".

تلعثمت منيرة.

دموع على وجه زرياب. "لن يعود".

كانت تمسح الوحل عن يديها.

"قد ترغبين في التحدث إلى أيانا".

اهتز جسد منيرة. فركت عينيها، لكنها كانت ما زالت غارقة بالدموع. قال زرياب: "هنا"، ووضع خاتم الياقوت على كفها المفتوح.

•

لقد كان حزن منيرة المروع ما أوحى لبقية الجزيرة أنه لم تعد هناك حاجة لانتظار محيي الدين. بعد الصوت، رؤية أيانا تركض بعيدًا، عاصفة صامتة وغاضبة، لا يمكن وقفها. سارع سكان الجزيرة نحو منزل منيرة.

ردد المعلم جمعة ثلاث مرات: "من مات غرقًا، فهو شهيد".

سمع أهالي بيت من عباسي المسنّ إلى أي مدى كانت عودة الخاتم ذات مغزى، لكن كلماته كانت مشوشة ومقيدة بتيار من عدم اليقين: عودة زرياب وخاتم محيي الدين الآن لا يعني الموت بالضرورة. يمكن أن تعني هذه العلامات أيضًا أنّه "مفقود" أو "في غير مكانه".

أعادت الجزيرة تشكيل جسدها لاستيعاب الكارثة. حزنت مع العائلة، ولكن ليس بشدة، خشية أن يلعنوا جميعًا الاحتمال الضبابي لعودة محيي الدين. قدّمت منيرة لهؤلاء الزوّار الشاي المعطّر بماء الورد وجوز الهند ولم يعرفوا ما يشعرون أو يفكرون به.

كانت أيانا جالسة قرب فندي مهدي. كانت تتجنّب الحشود. "لا يوجد أحد"،

أخبرت مهدي.

"سيعود".

أقيمت صلاة الجنازة لمحيي الدين في اليوم التالي في باحة الجامع المتهالك. وقف زرياب إلى جانب الرجال في الجزيرة وحاول أن يخلّص نفسه من شبح انتظار محيي الدين وكيتوانا الرشيق. نعت بيت تقريبًا محيي الدين وصديقه كيتوانا الرشيق.

صلاة الراحة للمتوفين، صلاة الفقيد، صلاة من أجل الحماية، صلاة لا تنتهي والتي كانت دليلًا على إحجام الكثيرين عن التخلي عن محيي الدين، البحار وحارس الأسرار ومعالج الجراح الحميمة ومالك الكتب وأمور أخرى، والد أيانا المختار، وزوج منيرة، ووالد عبيرة وزرياب، ورجل بيت، وشبح زرياب. قرأ عباسي الفاتحة. ثارت الرياح، وانخفضت الحرارة؛ تعمقت جودة الضوء إلى لون برتقالي أنقى. تغيير الموسم. في نغمة العباسي، سمعت أيانا أيضًا أصداء الموسيقى من وقت آخر داخل منزل كبير كان مقبرة:

"آه! يوم الدموع والحزن / من التراب وإلى التراب تعود أيّها الإنسان... ".

في وقت لاحق من ذلك المساء، بهدوء، استرجعت منيرة الخاتم من حمالة الصدر، لإعطائه لزرياب. "لقد كان دائمًا لك". توسلت زرياب: "احتفظ به". تفحصت وجهه، ثم أومأت برأسها.

.

محيي الدين. إنّ لله وإنّ إليه راجعون.

أو ربما ليس بعد.

[105]

بعد شهرين ونصف، طرقت منيرة على باب زرياب. كان ذلك بعد صرخته الثالثة في ليل يوم الثلاثاء ذاك. في البداية، اتصلت به عبر هاتفه لتقول له: أنت تصرخ وتبكي مجددًا".

اعتراف: "حين أغمض عيني، إنّهم يأتون بأعين حمراء... أعين لها أنياب. أشم رائحة أنفاسهم".

كان يلهث. "إنّهم هنا".

سكون. قالت منيرة، "افتح بابك". أغلقت هاتفها. كان زرياب على يقين من أنه سمعها خطأ. غالبًا ما حيّر حنينه أفكاره. ذهب إلى الباب على أي حال. فتحه. كانت منيرة هناك.

التواصل البصري. كلاهما نظر بعيدًا.

دخلت منيرة. أغلق زرياب الباب. صعدا ببطء فوق الدرج، وكان جسداهما يتلامسان تقريبًا. سبقته منيرة إلى غرفة نومه. خلعت خفها. أسقطت الغطاء. فكّت سحاب فستانها. رفعت شعرها على شكل كعكة.

. .

زرياب ومنيرة، قدامى المحاربين في تلك المعارك التي اندلعت بين المساحات، كلاهما سيطر عليهما الشيب أو الحزن، سوف يزدهران معًا بسلام. طارت منيرة مرة واحدة إلى بمبا ثم عادت. في المرة التالية، أرسلت منيرة زرياب قبلها. عندما عاد إلى بيت، كان قد تسمن وجهه المتوهج الآن.

"شكرًا على نعمة العائلة"، كان سيعلن كل صباح، بينما كان يحاول أن ينسى أن العبارة البرتغالية الأولى التي احتفظ بها عقله -ألم الروح. في وقت لاحق، في صدى الضحك المكرر الذي شاركه زرياب مع منيرة، حيث كانا يلقيان العبارات باللغة البرتغالية وشانغان وماكوندي على بعضهما البعض، شعرت أيانا، ربما قبل أن يفعلا ذلك، أنهما سيغادران جزيرة بيت مرة أخرى.

في إحدى الليالي، قرابة الساعة الرابعة فجرًا، أدّت خطى ناعمة إلى الكثبان الرملية حيث جلست أيانا، تنتظر الصباح، وتحاول أن تتخيل ما يمكن أن تصنعه من حياتها. استدارت أيانا إلى الصوت ورأت امرأة ترتدي اللونين الرمادي والأبيض، حجابها يرفرف، عيناها مجوفتان، وفمها متجمد في رعب. قفزت أيانا وكانت تستعد للفرار، لتصرخ، عندما تأوهت المرأة ماما سليمان بصوتها، "ساعديني، من فضلك".

توقف جسد أيانا في منتصف الرحلة تمامًا. قالت المرأة: "عيناي... لم أعد أستطيع الرؤية". لكن أيانا استطاعت أن ترى أن عينيها كانت جيدة وكانت تنظران إليها بالموت.

جسم لامع في يد المرأة: كمبيوتر لوحي. قالت ماما سليمان: "انظري". وأشارت إلى الشاشة. "هل هذا هو؟".

مشهد من حروب اليوم: القصور المليئة بالركام، الأنقاض في الشوارع، الفوهات الملطخة بالدم التي كانت طرقًا، صرخات متواصلة مجمدة على وجوه البشر كما لو كانت الأرض نفسها أصبحت أنينًا واحدًا؛ شاحنات سوداء محترقة والملفوف والطماطم والباذنجان. لقد كان هذا السوق قبل التفجير. رجل محجوب يرتدي النقاب؟ تساءلت أيانا -حزام ناسف، معدات تمويه دموية، ولد عالق في عملية انسحاب مدفعية من أكوام اللحم، فتيان أصبحوا رجالًا قبل الأوان وإصاباتهم. قامت أيانا بفحص الأشياء التجارية، كما كان يفعل كوراي: القنبلة التي تحمل علامات السعر والرصاص والخراطيش والبنادق والصواريخ والدبابات والزي الرسمي، وأجزاء من فسيفساء واحدة مبعثرة بالدم والدماغ تظهر على شاشة الكمبيوتر اللوحي.

لكن ما أرادت ماما سليمان معرفته هو ما إذا كان الرجل الذي لا يزال حيًّا في المقدمة يمكن أن يكون سليمان، إذا اتفقت أيانا على أن الآخر -رأس متصدع مع جمجمة مكشوفة ونزيف، ظهر في الخلفية -ليس ابنها. قالت أيانا، "لا، ليس هو".

"أنا أنظر كل يوم"، تبتسم ماما سليمان، ويعود صوتها مرتاحًا وبشريًا مرة أخرى. "أنظر، ولكن اليوم... لا أدري، لا أعرف ... اليوم لا أستطيع أن أرى". أخذت أيانا

القرص من يدها. يوتيوب، فيسبوك، تويتر، الذاكرة: الخرائط سريعة الزوال التي كانت تستخدمها أم وفتاة كانت تكرهها للبحث عن روح عالقة في حرب عوالم لم تكن يجب أن تمسّ حياتها.

على شاشة مضاءة، ركزت الاثنتان على عيون الأولاد والرجال، سواء أكانوا أحياء أم موتى. لقد تخيلتا أنهما ستتعرفان على النظرة التي لطالما نظرها ابن الأم الوحيد. كان اسمه سليمان. كان يلعب كرة القدم. إيمينِم كان مثاله الأعلى. في الشاشة، لوحة من الحزن البشري.

كانت سيدتان اليوم في جزيرة شبه غير مرئية يتفحصان جغرافية الرقة السورية وإدلب وحمص. رسمتا خطوط الأصابع لقياس المسافات في العراق بين دهوك والفلوجة وسامراء. ابتسمتا لأنهما رأتا في تلك الخريطة مدينة تسمى السليمانية. كانت تبدو مثل "سليمان". "هل يعني نفس الشيء؟"، تساءلت ماما سليمان. ردت أيانا "ربما". وعادت صور أخرى من نفس النوع من الجحيم -أطلال المدن التي كانت لا تزال مشتعلة، كأنّها تعود إلى العصر الحجري.

ركام.

"ليس هناك أماكن للذهاب إليها"، قالت ماما سليمان لاحقا. "هنا فقط.

لامست الشاشة وأضافت: "إنّه هنا".

كانتا لا تزالان تتفحصان الوجوه في الشاشة، الموتى والأحياء.

ابتعدت أيانا عن الشاشة والأم لترى البحر. جرف عرقه ذكرى ما رأته. لمع لون الضوء الفضي الأزرق الفضي للقمر عند حواف الأمواج. لاحظت أيانا أنه في ليلة تنهدات الأم، لم يبك الجن. بدأ يوم جديد مضيء. كان وجه وجسد ماما سليمان هادئين. قالت لأيانا، "هذا لا يعني أنني أحبك أكثر".

تجاهلتها أيانا.

قالت ماما سليمان: "لسنا أصدقاء". وافقت أيانا: "لا، لسنا كذلك".

سألت ماما سليمان: "هل ما زلت ترمين نفسك في البحر؟".

دار رأس أيانا للنظر في وجه المرأة.

كانت نظرة المرأة عليها. نظرت أيانا بعيدًا. شاهدت السماء، وهي الآن مشوبة باللون

البرتقالي والبنفسجي. فكرت مرة أخرى: هذه جزيرة نزيف الأسرار. حتى أنها لم تكلف نفسها عناء الضحك. قالت ماما سليمان: "سرعان ما يجب أن أغوص في المحيط. سأعيد ابني إلى المنزل". رفعت المرأة نفسها من الأرض. حملت شاشتها. تركت أيانا من دون أي كلمة أخرى وتلاشت في اليوم الجديد.

كان الأمر كما لو أنها لم تكن هناك على الإطلاق.

Mvua haina hodi.

لا يحتاج المطر إذنًا لينهمر.

تدرّج رجل من الصين يربط شعره في ذيل حصان ويرتدي نظارات بدون إطار من طائرة في نيروبي. كان على وشك أن يتعلم بلدًا في أكبر عدد ممكن من مواده التي يمكنه احتوائها، واكتساب بعض إيقاعه وحواسه، قبل أن يستقل طائرة أخرى ثم قاربًا إلى جزيرة كانت هي وجهته الحقيقية. في أماكن أخرى، كانت الطيور التي تحملها الرياح وقد تزامن قدومها مع مغادرة أسماك التونة الصفراء واليعاسيب الملونة، التي كانت أشبه بعلامات مواسم الأرض المتغيرة. في بعض الأحيان، تجمّع ما يرميه البحر على الشواطئ التي تغذيها الرياح الموسمية. في بعض الأحيان تضمن هؤلاء الغرباء: العابرون والمقدرون للبقاء في الجزيرة وهم يتخطون العتبات في حياة أولئك الذين، على الرغم من احتراق الكثير من الظلمات في قلوبهم، ما زالوا يقيمون طقوس الضيافة للضيف.

. .

بعد أربعة أشهر تقريبًا، تعطلت عبارة بطيئة مرتين وتحولت من رحلة كان من المفترض أن تدوم خمس ساعات إلى رحلة لمدة سبعة عشر ساعة. لم يعترض أحد الرجال الذين كانوا على متن الطائرة على التأخير. نزل وحمل كيسًا وحقيبتين معدنيتين باللون الأزرق الداكن. نظر حوله. ظهر صبيان كانا يغوصان في الماء من رصيف الميناء. كانا يحدقان في الوافدين، لكن هذا كان الأكثر تميزًا من بين جميع الذين هبطوا في بيت في ذلك اليوم. ضحكا عندما شاهدا الرجل يشم الهواء كما قد يفعل الكلب. التفت الرجل لاتخاذ خطوات بطيئة إلى المكان الذي تلتقي فيه الأرض بالرمل.

العتبات - السير بسلاسة في أسرار حياة الآخرين. كان مترددًا. نبّهه نسيم عابر إلى نبات محاط بزهور دقيقة. عبر لينظر، وكانت هناك شجيرة من الورود البرية. قام بتدليك أزهارها بينما كان الأطفال يتسللون خلفه للنظر، ومناقشة ما قد يكون عليه. التفت

الرجل إليهم. كانوا يندفعون إلى الخلف، يضحكون. ابتسم. ثمّ، في لهجة سواحيلية رديئة مكتسبة من نيروبي، قال كلمات متباعدة بشدة وببطء: "مرحبًا. أنا لاي جين. أنا أبحث عن حيّان. تفضلوا".

ضحك الأطفال، ثمّ إلى يساره، أتاه صوت قائلًا: "مساء الخير". نظر الزائر إلى رجل بازخ الحضور، بشرته داكنة، يبدو من قدامى رجال البحر، نظر إليه بأوسع حدقتين كان قد رآهما. قال مرحبًا بالصينية، ثمّ تذكّر أين كان. أخفض رأسه كما لو أنّه ارتكب خطأ.

"أهلًا بك"، قال له الرجل الأكبر سنًا منه ومدّ له يده للعون، ونادى على رجالٍ آخرين ليأتوا ويساعدوا لاي جين في نقل أمتعته.

صوتٌ ناعم: "نحن آسفون".

لماذا؟

نحن آسفون، من أصوات عدة.

فقط بعدها فهم أنّهم اعتقدوا أنّه أتى ليشهد على خسارة حسياة ومعنى مزاي كيتوانا. وفعلًا فعل ذلك.

•

رقص صبيان حول أيانا بينما كانت تلحم مفصلًا على مرساة كانت تعمل عليها لفندي مهدي، بينما كانت الإذاعة تنقل أخبار حالة المد والجزر. صاح الأطفال باسمها، ليخبروها بكلمات مفككة أن ضيفًا وصل إلى الجزيرة وكان يطلبها. قالوا لها إن الرجل يرافقه الآن إلى منزل والدتها ولكن سيستضيفه المعلم جمعة. توقفت أيانا قليلًا. "نعم، لقد سمعت ذلك"، قالت للأطفال، ثمّ أكملت عملها.

نظر إليها فندي مهدي وهز كتفيه. سمعا من مذيع الأخبار أن عاصفة متوقعة في البحر، وأن جميع القوارب يجب أن تعود إلى الشاطئ. نظرا إلى البحر في نفس الوقت.

ظلال مظلمة باللون الفضي على السحب الركامية.

عند غروب الشمس، بعد الصلاة، صعدت أيانا إلى منزل والدتها. استمعت إلى اهتزاز الأواني، وسمعت صوت أختها الصغيرة، وأسئلتها العديدة. عندما اقتربت، غنت عبيرة اسمها وركضت إلى ساقيها السمينتين للعناق. حملتها أيانا إلى المنزل. التقت بها والدتها عند الباب وأخذت عبيرة. قالت منيرة وهي تنظر بهدوء: "اغتسلي". "من؟"، همست أيانا.

فتحت منيرة يديها: "الصين".

قوّست أيانا ظهرها. تنفّست. ثم اتّجهت إلى المطبخ لتغسل يديها ووجهها وتؤخّر دخولها إلى غرفة الجلوس. فركت يديها ووصلت إلى قطعة قماش ممزقة، وسمعت نبض قلبها. في مكان ما، كانت أختها تثرثر. استرقت النظر ورأيت لاي جين واقفة أمام مطبوعة زاو ووكي التي قامت بتأطيرها وتعليقها بجوار كوة صغيرة في الجدار، بجوار السفينتين اللتين تم إصلاحهما.

خرجت أيانا، قلبها في يدها. قال لاي جين بلغة الماندرين، دون الالتفات، "وردة بشرتك -لقد رأيت أزهارها الآن".

الصمت. استدار وابتسم لها.

"قابلت الأحفاد".

قالت أيانا: "إنهم من بيت". راقبها لاي جين ببساطة هي تحوم حوله، مستمتعة بعدم ارتياحها. ثنت أيانا أصابعها. "نيورغ من السفينة... لقد كان هنا.".

رفع لاي جين رأسه. "جاء لدفن ديلشكا:

شاهدته أيانا. "كنت تعلم؟"، اقتربت منه. "أنها ماتت؟".

قال لاي جين، "كان يجب أن أخبرك".

كان وجهه يميل بعيدًا عندما كان يتذكر كيف تم تمدد بجوار نيورغ، الذي غطى جسم ديلشكا بجسده. كانا قد شاهدا معًا عينيّ ديلشكا تتسعان مع خروج الدم من أنفها وأذنيها. لقد أغرق ملابسهم. صرخات نيورغ: إملاء النار، كان لاي جين قد فكر في ذلك الوقت. سكون مذهل. رفع رأسه كما لو كان أثقل الصخور. سيكون متهمًا. سيكون متورطًا في هذه المأساة. سيعاني من أجل ذلك. عاد إلى أيانا، يشير إليها وكفّه مفتوح.

تحولت نظرة أيانا إلى المنظر الخارجي. كان البحر يتأرجح تحسبًا للعاصفة. كان عقلها يقفز في كل الاتجاهات. ماذا يمكن أن تقول؟

"اجلس. هل تريد بعض القهوة؟"، سألته.

هزّ رأسه، ولكنّه لم يجلس.

قالت: "في طائرتي إلى المنزل... كان هناك الكثير منكم، أكثر منا على متن الطائرة. الصين هي إعصارنا".

كان عقلها يتوق للوضوح. وأخيرًا نظرت إليه حقًا. "لماذا أنت هنا؟".

فتح لاي جين يديه ثمّ أغلقهما. قال: "حيّان. أنا لاي جين. رجل. أنا هنا. غرضي أن أجدك. رجلٌ أتى بحثًا عن حيّان. رجل، وليس الصين".

ظهر الألم في عينيه. اقترب من أيانا بنظرة مضطربة. نظرت إلى يديها.

كرّر: "رجل".

تلعثمت: "أنا لا أدين لك بشيء".

فوجئت بمدى سهولة الانزلاق إلى لغة الماندرين، ومدى اختلافها في لغة أخرى. انتقل لاي جين لمواجهتها. "لقد أنقذت حياتك". ردت قائلة: "كانت السفينة لك". كان يبتسم. "دَينك". لامس لاي جين وجهها.

ذكرى.

"لقد اجتزت بلدك. إنها دولة عميقة. في بعض الأماكن... حيث شقت الصين الطرق"- تألق في عينيه -"في الحافلة التي كذبت عليها؛ قلت إنني من اليابان. نقوم بتصميم طرق جيدة".

شخير. كان قد استمتع بقول هذا، كزة في عين زوجة الأب البغيضة. كان محرجًا من فوضى المدرج المعقدة، تلك الحواف غير المكتملة، التي لم تكرّم شعبه. حين واجهته ببشاعة مشاريع بلده، قدم لاي جين نفسه، عندما اندمجت مسألة الهوية والبنية التحتية، على أنه ليست صينيًا. رفعت أيانا حاجبيها.

"ما أنت هنا؟".

كرّر لها: "أنا رجل".

الرغبة: مدى مربك.

تلعثمت. "منذ متى وأنت في كينيا؟".

"مئة وثمانية عشر يومًا".

تنهّدت أيانا: "ماذا؟".

"أحاول أن أعرف ما جئت إليه".

استدارت أيانا مرة أخرى لمواجهة البحر. اضطراب في ملامحها. مئة وثمانية عشر يومًا؟ ارتجف صوتها وهي تسرع لملئه: "المزهريات جميلة". أشارت إليها. "شكرًا لإصلاحها".

تلاشى صوتها. كانت لا تزال منزعجة من وجود لاي جين في منزل والدتها. لم تكن متأكدة تمامًا من أنها ليست نائمة.

يمكن أن يكون هذا حلمًا محاطًا بعاصفة من ذكريات الحميمية المتوترة وغير المتوقعة والمقلقة. حاولت أيانا أن تعترض على الواقع.

"ماذا لو كنت الآن فقط بحاجة إلى أخ؟".

تنفس لاي جين ببطء، وهو يحاول أن يجد فكرة ما. "الكنز الذي تركته لي".

نظرت إليه. أضاف: "الصلاة... ".

أومأت برأسها.

"أنا أحملها معي"، أراها سواره. "هنا".

عندما كان قبطانًا، كان يشعر بالراحة في أعماق المياه، بعيدًا عن الآفاق المعروفة، مغمورًا في خيال عدم اليقين. أمّا هذه، فقد كانت مياه مجهولة.

"حول سؤالك" -مناورة -"إن كان كذلك، فأنا أخوك الأكبر إذن" -.

.

على رعن، كائنان يحدقان في بحر يقلب نفسه في نوبة جنون مفاجئة، كما لو أنه تم القبض عليه فجأة من قبل شخصية ذات سلطة. لحن المد، تدفق حازم وواثق الآن بعد أن تبخرت العاصفة المتوقعة. ضوء القمر على الماء. مخلوق غريب -ماعز، ربما -يبحث عن الطعام في مكان قريب. كانت أيانا تقترب أكثر فأكثر من لاي جين حتى تلامس جسديهما -فقط. نظر إليها من طرف عينه، وحاول لاي جين إعادة قراءة أيانا ضمن جغرافية منزلها ومياهها. تلمس لاي جين أي كلمة لمنها إكمال الصورة.

هزّ توازن لاي جين إحساسًا غريبًا بنفاذ الوقت في رصيف لامو قبل أن تهدد العواصف البحر البنفسجي. كان الأمر كما لو أنه قد تعثر في اتجاه يتجاهل العلاقات المكانية والزمنية المتوقعة مع العالم. لقد أدرك في الصور الظلية ماضيًا آخر ومستقبلًا تم

تصويره في البنية التحتية المتداعية والخراب المغري لتاريخ قديم كان يحوم عليه الحاضر. شعر بوجود أشباح في المكان تحوم حول بشرته وتتسبب في توقف شعر رأسه.

بعد خمسة عشر دقيقة من وصوله، وهو يعبر المسارات القديمة نحو غرفه، رأى غرابًا يقف على ساقٍ واحدة على قبر صيني على شكل قمر والشمس في عينيه. كانت تلك هي اللحظة التي فهم فيها أن الذاكرة مهمة أيضًا. بعد ذلك، رأى أيانا. لقد أذهله إحساس بالحتمية: معرفة أنّه، مهما فعل، فإن رحلته ستنتهي هنا. تنفّس، وتحتهما، ضربت الماء على الصخور.

رفعت رموشها، درست أيانا قبطان السفينة السابق. اختبرته: "هناك رجل. اسمه كوراي. لقد صمم هو ووالدته مستقبلًا لي في تركيا. إن خيالهم واسع جدًا لدرجة أنهما يبتلعان حتى مصيري. تمامًا مثل ما تحلم الصين بكينيا... من دون أفيالنا وأسودنا، من دون أرضنا، من دوننا ". شاهدت لاي جين لمراقبة رد فعله. تحركت يد لاي جين إلى ذراعها. انحنت على كتفيه، ثم أسقطت رأسها على صدره.

"كم ستبقى؟"، همست. لم يرد. تمتمت، "كيف المنارة؟".

"الآن هي غبار".

الصمت.

"تعال"، أمسكت أيانا بذراعه. "سأعرفك على أمي... وأختي العزيزة".

تردد لاي جين، ولكن حين رأى التحدي في عينيها، وافق.

نادت أيانا وهي تقترب من الباب. "أمّاه، أخونا. لقد أتى من الصين".

ابتسمت للاي جين.

"هل ترى الطفلة الصغيرة، ألا تشبهني؟ إنّها في عمرٍ مناسب لتكون ابنتي".

ظهرت منيرى، عيناها ضاحكتان، وقد رأت أكثر ما وصفت لها ابنتها.

"أمّي، هذا لاي جين"، قالت أيانا. "إنّه قبطان سفينة وخزّاف أيضًا".

أخذ لاي جين غرفتين في الجزء الخلفي من متجر الحذيفة. بعد أسبوعين، خرج. أبرم المعلم جمعة صفقة مع مالك غائب مقيم في عمان، وكان لديه منزل يمكن لـ لاي جين

استئجاره مقابل 50 دولارًا شهريًا، ويمكنه القيام بذلك إلى أجل غير مسمى، طالما أنه يقوم بإصلاحه وصيانته.

[108]

وجدت جزيرة بيت لنفسها مكانًا في قلب لاي جين. عاد إلى بلدة بيت، كان جالسًا مع المعلم جمعة الذي بدأ بتعليمه وإجابة أسئلته حول جزيرة بيت والحياة فيها ومعناها وظلالها. سأله المعلم جمعة إن كان يعرف ما يريده من الحياة. قال لاي جين إنّه كان حجًّا. طالت محادثتهما بعدما وصلا إلى وجهتهما، وعبرا بعدها إلى ممرّ فيه أشياء متعلقة بالإيمان. قال لاي جين إنّه لم يكن يعرف ما معنى الإيمان. بدأ مطرٌ خفيف يتساقط على الأرض. استمعا إلى المياه تتساقط وقد اتخذا من مقهى قديم ملجأ مؤقتًا لهما.

حين زار لاي جين قرية شيلا، قرب لامو، تخيّل أنّه كان بإمكانه أن يُتلمذ نفسه على يد أحد أهم مخترعي هندسة الفضاء. ولكن حين عاد إلى بيت مع بعض الصيادين الذين تعرفوا عليه، ساعدهم في نقل وتصنيف الصيد وتساءل عما إذا كان قد يفكر في إتقان فن الصيد. بمحاكاة كلماتهم، حصل على المزيد من كلمات وعوالم بيت. في بعض الأيام، كان في رصيف الميناء، يتحدث عن المحركات والطرق البحرية مع قباطنة السفن المتنوعة، يراقب الوقت؛ كانت إيقاعات بيت تحوله إلى نوع آخر من الرجال. كان من بين هؤلاء الرجال الذين أعيدت تسميتهم إلى "نهضة الجمال" لأول مرة.

. . .

لحظة عند الغسق.

طارت اليعاسيب المهاجرة فوق رأس لاي جين عندما توقف للتحديق في مقابر بيت القديمة الهلالية. تانغ، كان يشك -ليس مينغ، كما كان مفترضًا. انكماش الفم والرياح على جلده. صرخة الرعب.

إدراك: لم يكن هناك شيء فريد حول حضوره هنا.

مسّد منحنيات أحد القبور. انحسار. تدفق. تكرار. إيقاع العصور. لا شيء جديد أو غير عادي حول وصول أو مغادرة النفوس من هنا أو من أي مكان آخر. كانت تلك السداة ونسج الوجود.

تعثّر لاي جين بهمساتٍ قديمة: وجود أشباحٍ لا تزول. ونفسًا تلو الآخر، سمح للجزيرة بأن تخترقه، هذه الدولة التجارية المدمرة، هذا العالم الخشن.

انحسار. تدفق.

في بعض الأيام، انتظر أن تجده أيانا عند الكثبان الرملية. في أوقات أخرى، تجول أكثر على طول شاطئ البحر. ما فهمه: كلما عرف أكثر عن الحياة، كلما كان أقل منطقية.

عَبَس

انتظر.

كانت قد سبقته إلى أعلى التل.

"يا حبيبتي"، ناداها.

"نعم؟"، قالت كما لو أنّ الأمر عادي.

كانت أيانا قد ربطت قميصًا أخضر عند خصرها، ولاحظ ذلك.

"إلى أين ذهبت؟"، سألته.

كان قد غامر بالذهاب إلى شمال الجزيرة. "سيو".

"وحدك؟"، رفعت حاجبها.

"نعم"، ابتسم.

قرفصت. "لماذا؟".

"من أجل كوشي، الدجاجة المحاربة".

عَبَست. "ذهبت لتقامر؟".

"لا".

"إذن لماذا؟".

"لتربيتها".

"تربيتها؟".

"إنّها طيور جيدة. قوية جدًا وثقيلة جدًا".

"هل ستأكلها؟".

"الصينيون يأكلون كل شيء".

نظرت إليه، مستعدة لمهاجمة ما قاله. كان يمازحها.

قالت: "مضحك جدًا".

"نعم".

التقت أعينهما. نفس الشد ونفس العاصفة. لمست فمها. شاهدها. خفضت أيانا رأسها. يد دافئة، لمسة ناعمة. لا يزال المحيط يسأل، من أنت؟

حامت حولهما الحشرات. تبعت نظرة لاي جين رحلة نحلة. "قريبًا اليعاسيب؟".

أومأت أيانا إيجابًا.

"مصيرهم تحفظه الريح. يجب أن يعودوا".

أعاد صوتها بالكيباتية تشكيل لغة الماندرين. وأضافت: "لكنهم لا يبقون".

[109]

بزغت فقط حافة الشمس، حمراء ومنخفضة عند الأفق – في مساءٍ واضح. طرق لاي جين على باب منيرة. كان شعره بريًا. وجد أيانا تنفخ الهواء فوق موقد فحم، قدر من الماء بجانبها. كان لديه معروف ليطلبه. وافقت على ذلك بابتسامة. بعد نصف ساعة، انزلقت إلى منزله مع دلو أزرق مملوء بالماء الذي مزجت فيه جزءًا من زيت جوز الهند وكوب من الصبار.

كان لاي جين ينتظر، من دون قميص. جثم أمام حوض آخر مليء بالماء، وزجاجة بلاستيكية طويلة تحتوي على القليل من الشامبو البيج في متناول اليد. أدركت أيانا أنها واحدة من مجموعة جلبت لأول مرة الحزن على شعرها في شيامن. استنشقتها، ثم وضعتها على الأرض بجانب دلوها. بعد ذلك، مررت يداها الدافئة على كتفيه وصدره. تذكر. علمت أن الكثير من العيون ستراقب.

كان حضور لاي جين أشبه بالأحجية. كان سلوكها وعاداتها تحت المراقبة؛ أصبحت لغزًا. لم يزعجها هذا. مسّدت مؤخرة رقبته. مال بها وأغلق عينيه.

مرّرت أيانا أصابعها في شعر لاي جين الطويل جدًا والرمادي. قبل أن يذهب إلى منزل أيانا، وجد لاي جين نفسه عالقًا في شك عميق. كان يشعر بالوحدة الشديدة، وقد تأوه، وسأل نفسه عما كان يفعله في هذه الجزيرة المتغيرة في إفريقيا حيث كان التاريخ كفنًا، وأخبار العالم كانت شائعة بلا بريق، وكان الماء الذي استخدمه من بئر جماعي معتدل. وفي بعض الأحيان عندما نظر إلى الجانب، لمح ظلالًا غريبة الشكل تنظر إليه.

عاملته الرؤية المعطرة التي سعى إليها مثل السراب، في حين أن حياته كانت تتوق إلى كل ما هو لها وما هو هي. كان الأمر كما لو كان رجل آخر يمتلكه. نهض ليطلب أيانا. "أنا أحتاجك"، همس. لقد أتت. كانت يدها على جبهته.

لمس. اتصال. صلة.

سألت، "هل ستقطعها؟".

ليس بعد، فكّر.

لمس. اتصال. صلة.

ثم تركه خوفه.

"ما هي الصين لك؟"، سألها.

الصين؟ كان يعني أن يسأل: ما أنا بالنسبة لك؟

جرى الماء المستخدم في المصرف الخارجي. قامت أيانا بترغية شعره وتذكرت عبور البحر معه، والعالم الذي وجدته، والمهنة التي اكتسبتها. لقد تركت الصين بصمتها لها. لكن "البصمة" يمكن أن تعني أيضًا "كدمات، أو عيب، أو جرح، أو المكتوب.

قامت بغسل شعر لاي جين.

أرادت أن تثق في حضوره وحياته. كانت الحياة جامحة وخدعة وخطيرة. لقد تلاعبت بالرغبات، وكان يمكن التخلي عن الحبيب حسب الرغبة. لا تزال الشمس تشرق وتشرق بعد الاختفاء والموت والنفي. لقد ضربت رأس لاي جين. تنفسه الخشن، أغلق عينيه. كل يوم كانت تراقبه -بالطبع كانت تراقبه. أرادت جزيرتها أن تربطه. كانت تطمع في وقته. تسابقت إلى مهدي لأنها عرفت أنه سيكون هناك. استمعت لأفكاره.

ومع ذلك، كانت بحاجة إلى مساحة على السطح بعيدًا من أعماق المجهول التي كانت قد غرقت فيه. سألت، "ما هي الصين بالنسبة لك؟"، وهي تشطف شعره. "هل رأيت الملح الأمريكي جيدًا؟ مراحيض الحفرة التي بنوها؟"، ابتسم بتكلف. "ملاجئ الماعز؟".

أجابت: "نعم".

تابع: "كنت صغيرًا عندما أتوا. لقد هبطوا بالضوضاء".

سخرت.

"حلمهم لنا؟ بئر غير صالحة للاستعمال".

نفضت الرغوة عن رأس لاي جين وصبت المزيد من ماء الشطف عليه. "تقول الصين إنها عادت. "صديقة قديمة". ولكن عندما كانت هنا من قبل، كان علينا أيضًا دفع ثمن تلك الصداقة. الآن تتحدث، ليس معنا في بيت، ولكن إلى نيروبي، حيث يُكتب مصيرنا كما لو لم نكن موجودين".

سكون.

"نسمع أن الصين ستبني مرفأ، وستأتي السفن؛ نسمع أن خط أنابيب النفط سيعبر أرضنا. نسمع أن المدينة ستخرج من بحرنا، لكنهم أولًا سيغلقون قناتنا. هذه الأشياء التي نسمعها فقط. الصين لا تتحدث إلينا".

استمع لاي جين إلى أيانا، مشفقًا عليها وعلى الجزيرة، ولكن غير مستعد للكذب وتطمينها زورًا.

في الخارج، أصوات الليل الأخرى: ماما سليمان تصرخ، منيرة تنادي عبيرة، زرياب يدق بعض الخشب لتشكيله، السمك على النار، رائحة أرز جوز الهند على البخار، الياسمين الليلي، القرنفل، الليمون والورد، العث، والكثير من الكائنات الليلة الأخرى -ربما الخفافيش.

زفير لاي جين. رشت أيانا المزيد من الماء على رأسه. قالت، "نسمع أن الأدميرال تشنغ خرج من استراحته لاستئناف رحلاته".

زمّت شفتيها.

"أنا، مع ذلك، أرغب في أحلام بيت".

توقفت وهزت رأسها، وخفضت صوتها: "إذا كان يمكن استردادها. كما ترى، فقدنا

حتى ذكرى اسم البحار".

نشّفت رأسه بمنشفة خضراء. وانضم الزيز مساء إلى جوقة الليل. غيّر لاي جين طريقة جلوسه ليكون أكثر راحة. وأضافت أيانا، "الصين هنا. مع كل الآخرين -الشباب، الجميع... الصين هنا من أجل مصلحة الصين".

تنهّدت.

"ماذا نفعل؟"، شعر لاي جين لوهلة، بالوزن المشلول للقوى التاريخية المجنونة وشعارات النشيد التي ضغطت عليها. أسقطت أيانا المنشفة وانحنت على عنقه.

"لقد انتهيت".

مالت برأسها إليه. عبرت ذراعيها على صدره. أمسك ذراعيها. ضغط وجهها مقابل وجهه.

وأضافت في همس، "لكن ربما، عندما يقترب منا، هذا الزلزال زونغو، سيكون جيدًا لنا الاعتراف بأن جزيرة بيت هي أيضًا حارسة قبورها؟".

ارتجف لاي جين. ومع ذلك، رفع يد أيانا إلى فمه. التفتت لتقبيل وجهه. ضحكا.

[110]

أصبح لاي جين بشكلٍ ما حجر أساس للعائلة. انضم إلى وجباتهم. كانت عبيرة الصغيرة في الفراش، تتظاهر أنّها نائمة. أصبح لاي جين بوتقة لذكرياتهم عن محيي الدين.

على الرغم من أنّ الحديث عن محيي الدين فتح قلوبهم وغيّر أصواتهم، إلا أنه لاحظ أيضًا أن الإشارة المتكررة لاسم محيي الدين أدّت تدريجيًا لصمت زرياب. بينما كانت أيانا تصطحب لاي جين إلى منزله، انفجرت فجأة، واندفعت إلى الأمام، "أنا بحاجة إلى عاصفة".

بعد ظهر اليوم التالي، بعد أن علم لاي جين أنّ أحد صيادي فندي مهدي كان واحدًا من صافري الرياح الأسطوريين في الساحل، اقترب من مهدي للسؤال عما قد يحتاجه الشخص، من الناحية الافتراضية، لشراء منه رياح عاصفة. "لماذا؟"، سأل مهدي.

كان لاي جين قد حُشر ولم يستطع الإجابة.

ذهب رمضان وأتى، انضم منفيون جدد إلى الجزيرة. كانوا الآن اليمنيين، ظهروا في الجزيرة مسلحين بسلسلة نسب مشتركة تضمن أن لديهم مكانًا يستقرون فيه. ذهب لاي جين مع أيانا ومنيرة ومهدي وعبيرة إلى لامو من أجل المولد النبوي، ولأول مرة في حياته، تجرأ على الرقص في الأماكن العامة. كانت ماما سليمان حاضرة، وقامت بعقد صفقات والتواصل مع الأصدقاء القدامى. بطبيعة الحال، جذب لاي جين ازدراء ماما سليمان: "أيّها الرجل الذي صنع في الصين"، هكذا نادته وهكذا أيضًا أشارت إليه أمام الغرباء.

تجاهلها، وكانت أفكاره منشغلة لفترة وجيزة برسائل البريد الإلكتروني التي تلقاها: طلبات سيراميك، ونداءات وكيله اليائسة، والمزيد من طلبات إجراء المقابلات.

المولد. الموسيقى والصلاة والرقص، ووصول القوارب والأرواح بصوت عال من جزر المحيط الهندي الأخرى. الإيقاعات الخالدة. انعكس ضوء الغسق البرتقالي على كثبان رملية حول البحر الدافئ.

كتب إلى وكيله المحموم، "لقد سحرني المحيط الغربي، وارتبطت بفضله الذي لا يُقصد، بما في ذلك نوره".

ارتدت الموسيقى من هذه الأرض جلده البني.

"أنا غير قادر على الرد عليك الآن. أنا أرقص".

. . .

رافق لاي جين أحيانًا أيانا وهي تحضّر عطر الورد والياسمين لمنيرة. ببطء، تم إشراكه في جمع المواد وسط أنقاض الثقافات الماضية. كان يتعلم التضاريس وما تحمله. في فجر أحد الأيام، وجدت ماما سليمان لاي جين يجمع الزهور البرية من أجل منيرة.

"يا سارق المعرفة"، صاحت به.

كان الصباح ممتعًا ولينًا حتى تلك اللحظة. شعر لاي جين بالنسيم المنعش، وهو يتألم كما كان بسبب آلام في جسده غير متوقعة.

ليدافع عن نفسه ومهمته الصباحية، قال لها ب: "أنت مسكونة. اغربي عن وجهي!".

تجمّدت ماما سليمان في مكانها. نظرت إليه، ووجهها يتدفق. لوح لها لتبتعد. لمس

النباتات على شفتيه، وتجاهلها. نعم، كان بإمكانه معرفة أسرار عطر الورد ومعنى رشه على جلد المرأة، هذه الخريطة غير المألوفة التي وجهت بحارًا إلى هذا المكان غير المتوقع.

انحسار خطى.

لم يجرؤ على الالتفاف لمعرفة ما إذا كانت المرأة قد ذهبت بالفعل.

وجد لاي جين أنه كان راضٍ للغاية عندما كان في ساحة إصلاح سفن فندي مهدي. بين القوارب. قريبًا من أيانا. يطل على البحر. دون قصد، وجد نفسه تحت وصاية مهدي، وتعلم كيفية صنع القوارب بأعمدة المانغروف، وإصلاحها بحبل قطني مغمور بزيت جوز الهند، وسماع الحكايا عن مزاي كيتوانا الرشيق وهو شبح آخر يتشابك معه مصيره. مثل الآخرين الذين وجدوا طريقهم لفندي مهدي، عمل لاي جين بشكل أفضل في صمت باستثناء الإيقاعات المطمئنة لمذيع أخبار المد.

[111]

أنت تواجهين طفلتك الأكبر سنًا. هي أطول منك بكثير، وثدييها وفمها ممتلئان، وجسدها أكثر تحديدًا. إنها امرأة. لديها وجه جدتها ومشيتها. أنت أيضًا قارئة إشارات، وأنت تعلمين، بطريقة لا تعلمها هي بعد، كيف انقلب كل شيء في الحياة رأسًا على عقب، وكيف يغير بعض الواصلين مسار التيارات. لكن هذا ليس سبب رغبتك في التحدث معها.

"لقد حان الوقت"، قلتِ لها. "تعالي معي".

تتبعك، وعلى وجهها تبدو آثار المسافة التي فرضتها الصين عليه. إنّه أمرٌ يجرحك أنتِ أيضًا لأنّك كنت تفضلين لو لم يعرف أيّ من أطفالك الألم. ولكن لديكِ الإيمان الآن. تثقين بالشخص الذي كان مستعدًا لخوض كل تلك الرحلة ليكون قرب ابنتك. إنّه أكبر ممّا كنت ترغبين أن يكون، لكنّكِ تعرفين أيضًا أنّ روح ابنتك هرمة. لامست

وجهها، هذه الابنة التي كانت ثمرة لقائك الأوّل مع الرغبة الجامحة. إنّها امرأة الآن، أكبر سنًّا مما كنتِ أنتِ حين أنجبتِها. لديها شهادة. تتكلم المندرينية والإنجليزية والكيباتية. إنها مرتبطة بجزيرة يعتبرها الكثيرون بمثابة حكم إعدام.

أنت لا تعرفين لماذا؛ لا تفهمين الكثير من الأشياء. لا تعرفين ما الذي سيحيي ملء روح زرياب. ابنتك -آه، لكنها جميلة. أنت في الحديقة التي أنشأتها لتعطير الإيمان والأمل والجمال الذي تخيلتيه سيعيد الحياة. أنت تعجنين أرض الحديقة التي تصارع الأرض المالحة وتجعلها خصبة وغنية. تتيح لك الريح التنصت على همسات الورود المزروعة. إنّها تسقط بتلاتها اليوم. انفجر لونها الوردي إلى الأحمر البرتقالي. تقول ابنتك، "حصاد البذور جيد". تستديرين أنتِ. "ماذا تعرفين أنتِ؟"، تتظاهرين بالعبوس.

ترفع ابنتك يدها وتلتقط الجرجير الأصفر والأخضر. تمتص الأوراق الخضراء وتبصق البذور البنية. تفعلين مثلها وتختارين واحدة خاصة بك.

تضحك وتقول: "أنا أتجسس عليكِ".

"بابو... ". وقفة. ابتسامة. "طلب مني أن أقول له سرّ توردّك".

تضغطين على خد ابنتك، ممازحة. "صقر صعب!". الغضب المزيف، وجود أشباح الحبيب.

تضحك ابنتكِ، "لم أخبره عن البذور".

الآن تمسكُ وجهكِ. "لكيلا يتمكن من إيجادك".

قلبك في عينيها. ترغبين بالبكاء.

"وماذا بعد؟".

تصل طفلتك إلى الورود وتقترب منها لتشمّها.

جوزية، ترابية، لطيفة -كما تعلمين. "يجب أن نحصد البذور قبل الفجر".

تضيف ابنتك: "أنت تغنين لهم، وأخبريهم كم هم ضروريون وجميلون. لهذا يكبرون لك".

تسألكِ، "ستغادرين قريبًا؟".

"مغادرة؟".

تبتعدين عنها. تنظرين إلى الحديقة. لقد حملت سماد الماشية من مومباسا لإطعام

هذه التربة. قمت بتدليك الروث في السنتيمتر بالسنتيمتر. أنت تهربين في التراب من أماكن خصبة في أكياس ورقية. لقد اقترضت وتوسلت وسرقت عشبًا وزهرة وشجيرة وشتلات شجرة لهذه الحديقة. تعلمت عن طبيعة النباتات، وكيف كانت بشرية. البعض يأخذ، والبعض يعطي، يجب أن يكون لدى الآخرين كل شيء لأنفسهم.

لقد وجدتِ تلك التي طهرت الملح الذي كان سيحرق الجذور. ورضخت لك الأرض. ساعدتكِ على تربية ابنتك. تنحدرين لتجرفين بعضًا منها بيديك. تضغطين، وضوء النهار يلمع عليك وتبدو الأرض من الذهب الأصفر. تسألين ابنتك، "هل يمكنك الاحتفاظ بها لي -هذه أمي الثانية؟".

ربما أنتِ مجنونة. تطمئنك ابنتك عبر طرح السؤال الصحيح. "ما اسمها؟"، ابنتك تجثم بجانبك. تريدين أن تطلبي منها أن تذهب معك إلى بمبا. ولكن، مرة أخرى، تفهمين أن المصير يضع خططه الخاصة.

تهمسين اسم الأرض في أذنها: "أمّ الحماية". لا تزال تستوعب هذا. الآن أنت تجلسين وتمسكين يديها، كما قد تفعل الأخوات، وقد امتدت ساقيك أمامك، محاطة بالعصافير، وطنين النحل، وخط المد والذكريات المشتركة. ضحك الأطفال الجدد، وقلق الريح التي تشكين في أن مهدي استدعاها للرفقة. إنها ريح شابة. دافئة ويانعة. من عادتها أن تجني الروائح من حديقتك. رياح حلوة: تتربص بشكل أكبر بين الياسمين واللافندر وإكليل الجبل.

تسند ابنتك رأسها إلى قلبك. غدا سترينها أي صندوق يحتوي على بنك البذور الخاص بك، والذي سيصبح الآن لها. ستخبرين لاحقًا هذه القصة لأحفادكِ، الذين تشعرين بقربهم، لأنّك بدأتِ تحلمين بهم.

أنتِ تريدين أن تعطي ابنتك العنبر الشاحب لأول زيت ورد صنعته على الإطلاق. لقد قمت بتخزينه في حمالة الصدر، بالقرب من قلبك. أولًا ستقوم بفرك ثلاث قطرات في جبهتها. الزجاجة ممتلئة تقريبًا. سوف تعرف ماذا تفعل بها. سوف تضيف إلى معرفتها بالأعشاب. ستخبرها لماذا ولمن تخلط ماذا ومتى.

ولكن، في الوقت الحالي، يمكنك البقاء في لحظة الوجود هذه، لأن كل شيء على ما يرام، وأنت وابنتك مثاليتان.

[112]

التحضيرات.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، تزامن صوت الآذان مع وصول اليعاسيب الباحثة عن الماء في وقت مبكر في رياح منتصف سبتمبر. هبت الرياح وكشفت عن العاصفة البحرية. ولكن بما أن الكائنات الحية الصغيرة كانت هادئة، وظهرت أسماك الموسم كما هو متوقع، لم يكن الصيادون قلقين. كان في ذلك اليوم حين نطق الزائر الذي يعيش الآن داخل هذه الجزيرة -أقصى حواف الحياة داخل أرض غير مرئية وقديمة ومدمرة -بالشهادة، قائلًا: "أشهد أن لا إله إلا الله". قصّ شعره قصيرًا. أخذ حمامًا مطهرًا. زيّن نفسه في ثوب أبيض نظيف. لقد ظهر مجددًا، منتميًا إلى الله وبيت. أخبره الإمام أنه لم يضطر حقًّا لتغيير اسمه. لا يزال بإمكانه أن يكون لاي جين. رد أنه يمكن أن يكون جمال أيضًا. وهكذا كان كلاهما. بسبب البحار في دمه، سبق اسمه لقب "القبطان".

[113]

بعد أربعة أشهر، غادرت منيرة مع زوجها القديم الجديد زرياب، وابنتها عبيرة إلى الموزمبيق. طاردت أيانا جزيرة بيت، تجول في محيطها بإطلالة رائعة. فجوات في القلب. رحيل الأسرة. ومع ذلك، إذا ما أتيحت لها الفرصة، لم تكن لتغادر معهم. في المنزل، تفحّصت ألبوم صور أخضر وذهبي ممزق ومليئ بصور سابقة تركتها منيرة لها، قائلة: "ما زلنا تلك الكوكبة، يا حبي، يا طفلتي".

•

بعد سبع ليال، دخلت أيانا في بحرها. عند انخفاض المد، انجرفت مع التيار.

.

غاصت فيه. أفرغت النغمات في العالم. دفعت نفسها إلى الأسفل. إطلاق بطيء للتنفس. كانت تحوم في تلك النقطة حيث، إذا استدارت، سيكون من الأسهل أن تغرق من السطح. جرأة. تسقط في روح البحر، حيث يمكنها أن تشعر بأن المحيط كله يشرق فيها مرة أخرى ويعرض أبعادها عليها للتوسع فيها.

الانجراف. عملية التنفس.

كان من المفترض أن يطور جيلها طعمًا لعالم تم تصنيعه في مكان آخر. لم تجد أي شيء فيه يهمها أن تمتلكه.

كانت هناك أشياء يُفترض أن تريدها، طرق يُفترض أن تتكلم بها، وصورًا كان يجب أن تعتمدها لأحلامها. ولكن كلما اختبرت العالم أكثر، كلّما قلّ يقينها به. كانت قد عادت إلى كينيا ويُفترض انّها مسلحة بخياراتٍ عدة.

ركلت أيانا بقدميها لتصعد إلى السطح.

كان يُفترض بها أن تنتقل إلى الموزمبيق. تشقلبت تحت جراب الدلفين البطيء الحركة، قدم الأصدقاء القدامى بمثابة ضوء القمر إلى أعماق البحر. تنفست، محدثة فقاعة في كل مرة، طافت أيانا إلى السطح وتساءلت عما إذا كان كلب البحر المتنقل في طريقه إلى المنزل بالفعل.

ظهرت أيانا. لمحت خيالًا بشريًا على الشاطئ. خفضت كتفيها في الماء، محدقة لتعرف من هو.

. .

كان القبطان جمال قد تعثّر برحلات أيانا البحرية الليلية. دفعته الرطوبة إلى الخارج، واستدعى ضوء القمر على الماء. مندفعًا، كان يتجه إلى الخلجان للتفتيش على أشياء مزاي كيتوانا. أراد أن يكون وحيدًا للتفكير. ماذا كان يفعل هنا؟ وبهذه الطريقة، كانت هناك أيانا، جسدها ملفوف بثوب ممزق، بعد أن خرجت من المياه. ضوء القمر على بشرتها. بطريقة ما، عندما رأته، كان من الطبيعي أن تتجه مباشرة إلى ذراعيه.

كان من الطبيعي أن يحيطها بذراعيه. "ماذا؟ روح البحر؟"، سأل. ضحكت. استدارا، متصلين ببعضهما البعض، لمشاهدة القمر على الماء وكيف يضيء المحيط كما لو كان من الداخل.

القمر. تذكرت أيانا. استراح رأسها على صدره: "هل كنت تريد أن تكون وحدك؟".

عانقها عن قرب. "لا على الإطلاق".

تلعثم، "الماء دافئ". كان كئيبًا. "هل ما زلتِ تريدين أخًا؟

تفحصت الضوء الفضي الذي يعكس سواره. "لا." نظرة تصاعدية. "لا على الإطلاق".

لذا اقتربا أكثر من بعضهما البعض. ضغطها باتجاه صدره. نفسٌ على نفس، قلبٌ على قلب، ودار المد حول أقدامهما، يلقي بقايا البحر حولهما.

الأعشاب البحرية ملفوفة حول كاحليها، وقفت في الرمال المتغيرة تحت قمر دلو مزرق ناعم الشكل. في الأحلام، تذكرت، أسافر داخل النجوم، على النجوم. لفت ذراعيها حول رقبة لاي جين. في الأحلام، أنا نفق مصنوع من الظلام وأعرف الطريق. لست وحدي، حتى عندما لا يوجد أحد معي.

ندوبه وعلامات الحروق على الوجه والظهر.

فركت يديها على فمه.

كانت هناك ندبة تحت شفته السفلى. ستسحبه إليها، لأنها بحاجة إلى أن تشعر مرة أخرى بإحساس جسده على ظهرها. في هذا المكان حيث يمكن العثور عليهما ورؤيتهما، تحول كل توتر مكبوت إلى التوق وشهواته. الانزلاق إلى شيء آخر غير معروف، وخضوع لدعوة أخرى تعد بالمزيد.

طوّفت مرة أخرى، لكنها عرفت هذه المرة التيارات، إلى أين ستقود. غارقة مرة أخرى، رؤية من خلال الظلام، اتساع بلا حراك، والآن تعرف أنها لن تغرق، لا يمكنها أن تغرق.

عملية التنفس.

الحياة كمر دائمًا: هنا عتباتها. وكل ما طلبه لاي جين كان في النعومة والرطوبة والأنين والنبض والإيقاع الزلق لهذا، كل ما طلبه وتاق إليه بشدة وبشكل رهيب للغاية.

كان يرسم خرائط، ليس خرائط الملكية، بل خرائط الانتماء. تأوّه لا جين متألمًا، وغير منتبه، وشدته وشدّت جسدها وذراعيها وفخذيها وقلبها من حوله. وكان هناك سكون عديم الصوت، وصوت موجات تندفع بالقرب منهما.

كان ضباب الصباح الباكر يظهر في الضوء الجديد. "الله أكبر ... ". يومٌ آخر، هذا الاستدعاء الناعم. لقد انعكست التجربة صوت المؤذن القديم، وأعطته قلبًا. في مكان آخر، وبينهما، صمت جيد.

العودة للوطن.

انسحبا إلى أماكنهما المختلفة قبل أن يتمكّن الصيادون من اكتشاف أمرهما.

الفطور، ثمّ الاغتسال، ثمّ الراحة، وثمّ العمل.

في وقت لاحق، مع فندي مهدي، استمعوا إلى أخبار المد والجزر، وعملوا بالقرب من بعضهم البعض. كانوا يبنون سفينة لتاجر عماني. كان مهدي يتحدّى جمال على أن يقرأ رحلة بحرية من الذاكرة. قال مهدي، "لنذهب من كيب تاون إلى ملقا في مارس". سمعت أيانا ومهدي كلمات متخيلة لمثل هذا الممر المائي. تدخل مهدي لتذكير جمال بوجود رأس صخري وانتفاخ موسمي كان قد أهمل ذكره.

تقارب أصداء في الكيباتية.

Mwendo dahari hauishi.

الطريق اللانهائي لا ينتهي أبدًا.

[114]

كانت بحاجة إلى المزيد من الوقت.

في البداية، كان على أيانا أن تسامح البحر لأنّه أخذ والدها الذي تحب. كان عليها أيضً أن تجد الشجاعة لتستسلم لحقيقة أنّ الحياة تصنع معناها الخاص. عادت بعدها إلى خلط الأعشاب والأزهار والتوابل في طرقٍ تعلّمتها من أمّها، حتّى تتمكن من اقتراح طرق عبق الكمال لأولئك الذين همسوا الآن معاناتهم لها، كما فعلوا ذات مرة لوالدها محيي الدين.

سيستغرق الأمر بضعة أشهر أخرى، والقمر الأحمر كفيل بأن يذيب الوقت، قبل أن تكون جزيرة بيت قادرة على أن تشهد على زفاف امرأة البحار أيانا إلى البحار جمال.

تسارع هذا الحدث بشكل غير متوقع: في منتصف نهار في شهر مارس/آذار، حصلت أيانا على قارب صيد اقترضته من مهدي من أجل اجتياز مياه الصباح. السمكة التي اصطادتها تعثرت في سلة من القصب وهي تسرع على طول ممر.

في منعطف، تحت شجرة النيم القديمة، جلست ماما سليمان في قبعة الشمس الخضراء ذات اللون الليموني الواسع، على سجادة أرجوانية خاملة كانت قد شحنتها من دبي وأطلقتها في مدينة بيت في نوفمبر السابق. قالت أيانا في الحال: "مرحبًا"، وانحنت احترامًا.

ما زال يميل إلى الانحناء.

"اقتربي يا فتاة"، قالت ماما سليمان. اقتربت أيانا بحذر، متعرقة، تحرقها الشمس ورائحتها نتنة من الملح والأسماك. نظرت إليها ماما سليمان ولاحقت شفتيها. "السباحة، أيتها الشابة، أمرٌ واحد. الصيد "-توقفت مؤقتًا -" أقول لكِ ذلك من تجربة، هو أمرٌ مختلفٌ كليًا. ومع ذلك، لا يقع اللوم عليك. لم تستفيدي من الوصول إلى سومو. هذا انتهى الآن".

حرّكت يدها بطريقة مبالغ بها. "سأكون هي. الآن، أخبري والدتك أنني سوف أقبل ثماني ليزو وثلاث زجاجات من ماء وردها كدفعة. رمز، حقا... بالنظر إلى مقدار"-نظرت إلى أيانا مرة أخرى – "ما يجب علينا أن نفعله".

نظرت إلى أيانا وقرص وجنتيها كأنّها تتفحص نوعية مسام جلدها.

"يمكنك أن تناديني خالتي. ستنتقلين إلى منزلي. لقد طلبت من أفضل النساء اللواتي

يعملن معي أن يجهزنك".

كانت أيانا متفاجئة. "سوف تكونين عروسًا مثالية، نموذجًا للنساء في كل مكان. يمكنك أن تقبلي يدي الآن".

انحنت أيانا وقبلتها. حرّكت أمنة محمود عجلتها، وقالت وهي تبتعد: "غدًا في منزلي. الساعة التاسعة صباحًا. أنا لا أقبل التأخير".

استغرق الأمر بعض الوقت. لكن دخلت أيانا أخيرًا في المجتمع الغامض للنساء اللواتي يعشن أيضًا في حواسهن ومعهن وعبرهن. دعيت إلى فن التطهير والتعطير والوجود والسكن وتقاسم جسدها؛ اللون والجاذبية. اشت كل شيء، من استخدام القوى القوية في زيت جوز الهند والورد والياسمين واللانجيلانجي والبتشول وخشب الصندل والقرنفل إلى وتيرة الإيقاع المغري والإيقاعات الحميمة لتحويل الحياة إلى سحر.

كانت كل طبقات أيانا تُفرك وتقاسمت الذاكرة مع النساء: كيفية إغواء الحبيب، وكيفية تلقي ما هو مرغوب فيه، وكيفية الأمل عندما تتغير رياح الحياة، وكيفية الحب مع الروح على أي حال. أصرت ماما سليمان على أن تغني هي للعروس. لم تستطع أيانا أن تتحرك بينما تتسرب الجواهر الدقيقة إلى عظامها وتنقل الماضي. ستصل منيرة من بمبا في الوقت المناسب لتزين جسد ابنتها بالحناء، وهو أفضل أعمالها.

بعد أسابيع، ظهرت أيانا مصنوعة بدقة ومرصعة بالجواهر في ثوب متدفق من الحرير العاجي والدانتيل. طافت عبر عتبات غير محدودة، هذه الآية المعطرة بالورد، خطيبة جمال. تنهدت ماما سليمان إلى منيرة قائلة: "إن فتاتنا فتاة حقيقية". حدقتا إحداهما بالأخرى قبل أن تتبخر كل الصراعات التي بينهما.

في اليوم الخامس، اكتسبت احتفالات الزفاف حياة جديدة عندما ظهر الجهاز من تومباتو، حاملًا فرقة مرحة من الصيادين تضم شاعرًا بحريًا. طرق ثلاثة رجال على طبل عملاق. أثار صدى صوتها أحشاء الجزيرة. كان موسم الرياح. كان مصور متنقل متخصص في حفلات الزفاف يفقد صوته، وأثّر ذلك على تعليماته لهم أثناء محاولته تأليف صورة عائلية.

بعد أشهر، ستختار العروس بدقة إحدى الصور وتضعها في ألبوم أخضر وذهبي متهالك.

بعد جلسة التصوير، تجولت فتاة صغيرة فضولية بعيدًا عن الاحتفالات لتطاردها

بعد أول كاشطات ذهبية للموسم. عندما وصلت إلى شجيرة وردية تطفو على عتبات البحر والوقت، كانت مشتتة بسبب سماعها صوت. زحفت للنظر، واكتشفت قطة مرتعشة مع عيون خضراء كبيرة مختبئة على الشاطئ.

كانت الهاربة قد وصلت إلى بيت عن طريق الخطأ. حين مدّت أيانا يدها إليها، ماءت بخوف. انجرف صدى صوت والدتها إلى الشاطئ.

في الإيقاع، ردّد البحر. "يا زهرة، أنا لا أراك؛ من قطفك؟".

حين رفعت القطة إلى كتفيها، شعرت بحنين وتوق مفاجئ لوالدها ورفعت رأسها لتتفحص البحر بحثًا عنه.

"يا زهرتي، أحضري لي قلبك واعثري على الكمال"، غنت منيرة.

"يا زهرة آتية من زهرة قديمة كريمة".

وفي الإيقاع ، تدفق البحر.

No mar estava escrita uma cidade.

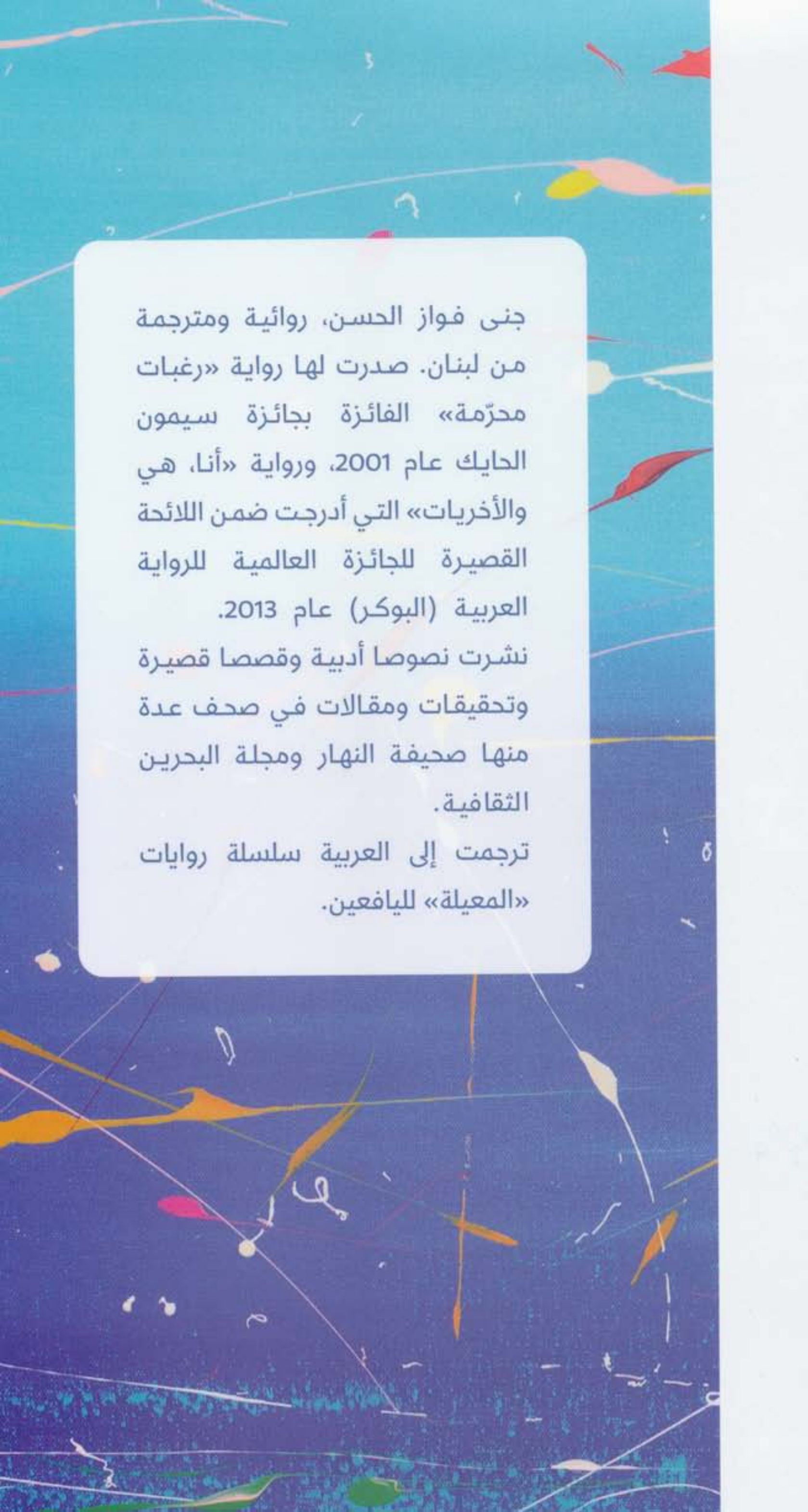
في البحر كانت هناك مدينة مكتوبة.

-كارلوس دروموند دي أندرادي

...



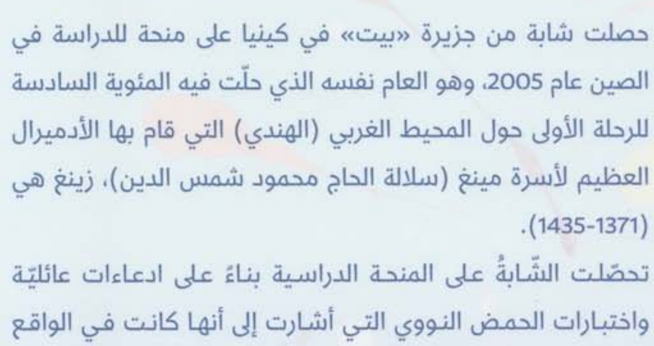
ولدت إيفون أدهيامبو أوور في كينيا. وهي مؤلفة رواية «الغبار» التي تم ترشيحها لجائزة فوليو عام 2015. حائزة على جائزة «كين للكتابة الأفريقية» عام 2003، وقد حصلت مرتين على زمالة برنامج أيوا للكتاب العالميين. ظهر عملها في منشورات ماكسويني وغيرها من المنشورات، وكانت مؤخرًا زميلة في معهد ستالينبوش للدراسات المتقدمة في جنوب إفريقيا ومعهد الدراسات المتقدّمة في برلين.



جنى فواز الحسن، روائية ومترجمة من لبنان. صدرت لها رواية «رغبات محرّمة» الفائزة بجائزة سيمون الحايك عام 2001، ورواية «أنا، هي والأخريات» التي أدرجت ضمن اللائحة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام 2013.

نشرت نصوصا أدبية وقصصا قصيرة وتحقيقات ومقالات في صحف عدة منها صحيفة النهار ومجلة البحرين الثقافية.

ترجمت إلى العربية سلسلة روايات «المعيلة» لليافعين.



حصلت شابة من جزيرة «بيت» في كينيا على منحة للدراسة في الصين عام 2005، وهو العام نفسه الذي حلّت فيه المئوية السادسة للرحلة الأولى حول المحيط الغربي (الهندي) التي قام بها الأدميرال العظيم لأسرة مينغ (سلالة الحاج محمود شمس الدين)، زينغ هي (1371-1435).

تحصّلت الشّابةُ على المنحة الدراسية بناءً على ادعاءات عائليّة واختبارات الحمض النووي التي أشارت إلى أنها كانت في الواقع منحدرة من بَحّار من سلالة مينغ، نجا من حطام سفينة دمّرتها عاصفة، ووجد، مع آخرين، ملجأ وشعورًا بالانتماء في جزيرة بيت. رواية «بحر اليعسوب» مستوحاة من هذا الحادث التاريخي.

Cover Design: Mohamed khalil | Cover illustration © Ben Bonart / Bridgeman Images


ISBN 978-9948-468-12-7
9 789948 468127

روايات
REWAYAT